

رواية
Novel

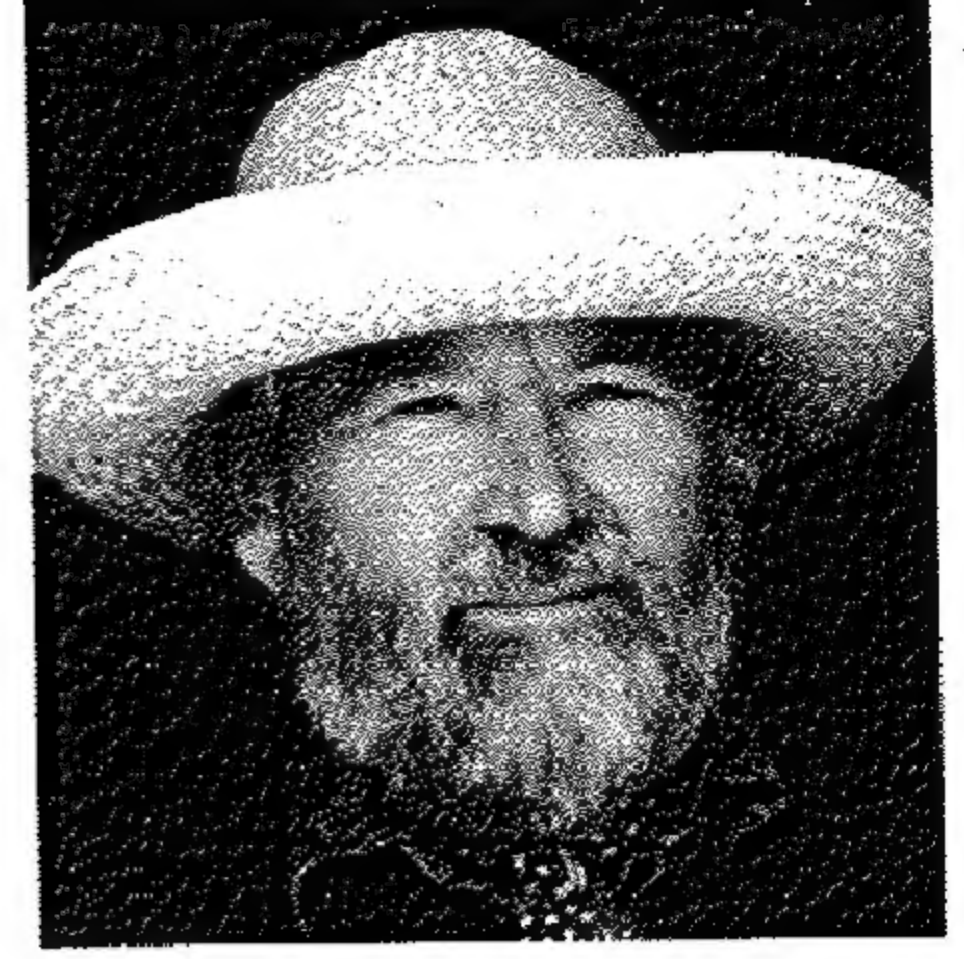


جون فاويز

امراة الضابط الفرنسي

ترجمة: د. محمد درويش

المؤلف:



ولد جون فاؤلز في إنكلترا سنة 1926 وتلقى علومه في مدرسة بدفورد وفي جامعة كامبريدج . حاز فاؤلز شهرة واسعة بنشره عام 1963 أول أعماله الروائية «جامع الفراشات»، التي سرعان ما رسّخت مكانته كأديب مبدع ذا طاقة إبداعية فريدة. وقد ازدادت شهرته ومكانته رسوخاً بأعماله اللاحقة . توفي فاؤلز عام 2005، وكان قد رُشح عام 1999 لجائزة نوبل للآداب.

امراة
الضابط
الفرنسي

الناشرين

الإمارات العربية المتحدة - أبو ظبي - هاتف 971 2 6314468 + - فاكس 971 2 6314462 +
ص.ب 2380 - الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.kalima.ae>



لبنان - بيروت - هاتف 961 1 786233 - 785108 - 785107 + - فاكس: 961 1 786230 +
ص.ب 13-5574 - الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>



الطبعة الأولى 1430 هـ - 2009 م
رسمك 978-9953-87-617-7

جميع الحقوق العربية محفوظة

الدار العربية للعلوم ناشرون - عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم،

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (961-1) + - ص.ب: 13-5574 شورا - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (961-1) + - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb - الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي The French Lieutenant's Woman

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر Vintage Classics
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © John Fowles 1969

All rights reserved

Arabic Copyright © 2008 by Arab Scientific Publishers, Inc S A L

إن هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث "كلمة" والدار العربية للعلوم غير مسؤولتين عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعتبر
الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف، ولا نعبر بالضرورة عن آرائهما.

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة بصورية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على
شريطة أو أقرص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

امراة الضابط الفرنسي

تأليف
جون فاولز

ترجمة
د. محمد درويش

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرهجة

مقدمة المترجم

يبدو البحث عن جون فاولز معقدا كالبحت في متاهة. مثله في ذلك مثل بحث الشخصيات الرئيسية في رواياته. ولا سبيل الى الاهتداء اليه الا بالتفكير بالاسلوب الذي يمارس به نشاطه الادبي وما ينطوي عليه من ظلال المعاني. لقد اصبحت اعماله مثار اهتمام النقاد في الفترة الاخيرة لهذا السبب ولسبب اخر هو انتعاش تقييم الاسطورة الحديثة والفن في الكتابات المعاصرة على الرغم من بطء سير عملية التقييم هذه. تجدر الاشارة الى ان فاولز، شأنه شأن العديد من الكتاب البريطانيين، لم ينل شهرة حقيقية الا بعد ان حققت اعماله نجاحا على المستويين التجاري والنقدي في الولايات المتحدة على حدّ تعبير الناقد والروائي الانكليزي مالكو لم برادبري^(*). فالنقاد البريطانيون يقتربون على نحو حذر من مؤلفيهم الممتازين، وهذا هو السبب في ان النقد الادبي للرواية البريطانية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية كان دوما نقدا هزليا لا يراعي حقوق الكتاب ومشاعرهم. بيد ان فاولز حظي دوما بقدر معين من الاهتمام وهو اهتمام محير الى حدّ ما لأن نجاحه الشعبي لا يدعم في اغلب الاحوال شهرته الادبية بل يقف على الضد منها.

ظهرت جامع الفراشات اولى روايات فاولز في العام 1963 وكانت تبدو رواية علاقات طبقية. وقد اشار فاولز في مقابلة صحفية الى انه قرر لدى كتابته هذه الرواية «ان يكتب وفق اشد قواعد الواقعية صرامة» لأن المظهر الخارجي للرواية يمتد الى دانيال ديفو وجين اوستن وجان بول سارتر والبير كامو. وهذه مسألة مثيرة للاهتمام لأن نكهة هؤلاء الكتاب متباينة تماما، كما ان نكهة متباينة تظهر من بين ثنايا الكتاب نفسه بقصتيه. غير ان فاولز ذكر «ان المضامين الجنسية والنفسية الدرامية للمواقف المتطرفة المعزولة» هي التي اثارته واثارت من متعته.

(*) Bradbury, Malcolm: No, Not Bloomsbury, London 1987.

كما ان الرواية، شأنها شأن مجمل اعمال فاولز الاخرى، ذات بعد انخطاطي قوي، وتعتمد، مثل الكثير من انماط ادب الانخطاط على السير في طريق معقدة وراء رغبة غامضة ذات صلة بالجنس عند المرأة وبغربة الفنّ نفسه. وهي اسوة بالكثير من ادب الانخطاط تغير من الاسلوب الاستطراذي او الواقعي في الكتابة لتحيله الى اسلوب رمزي وغامض. فالبطلة ميرندا تمثل موضوع رغبة كليغ الغامضة، وهي الصورة السابقة لكثير من بطلات فاولز اللاحقات، وتعرف ثورة الفنّ ضد الطبيعة بقولها: «عندما ترسم شيئا ما فانه يعيش وعندما تصوره فانه يموت». واذا ما ماتت حقاً، فإن اللغز المقترن بها يظل كما هو، ومن المؤكد انه يتكرر كثيرا في كل ما كتبه فاولز لاحقا.

غير ان جون فاولز رسّخ من شهرته كاتبا متوهجا، متألقا بكتابه الثاني الساحر الصادر في العام 1966 وهو كتاب طالما اقض مضجعه. وفي العام 1977، نشر نسخة منقحة عنه الى حدّ ما حل بعض اشكالات الخيبة التي مر بها ولتزويدنا بنصين عوضا عن نص واحد على غرار النهايتين اللتين وضعهما لرواية امرأة الضابط الفرنسي. ولم تحظَ الساحر باستقبال طيب على الرغم من ان مستوى مشروعها وتطلعاتها الخيالية والعقلية الواضحة كانت غير مألوفة وكان ينبغي لها ان تتبوأ مكانة مهمة في اي مناخ ثقافي يتناغم وهذه الاشياء. وقد حاولت هذه الرواية الضخمة (617 صفحة) ان تستغور كما يبدو تاريخ الوعي في الغرب ابان القرن العشرين، وهو مشروع نادر بما فيه الكفاية، نُفذَ بدرجة عالية من المهارة والخيال والذكاء. واذا كانت رواية امرأة الضابط الفرنسي تقليدا شكليا للرواية الفكتورية وجهدا ممتازا في تقييم الفارق التاريخي والعقلي بين مثل هذه الرواية والقارئ الحديث - بما في ذلك بناء وعي العالم الذي كان قائما قبل مئة سنة ووعي العالم الان، ذلك الوعي المتغلغل في تلافيف المجتمع والذي ينتج نمطا من الوحدة الثقافية بين العالم الداخلي والعالم الخارجي - فإن رواية الساحر كانت على ما يبدو محاولة لعمل شيء يشبه ذلك للقرن العشرين. ويتطلب فهم هذه الرواية مستويات متعددة من الوعي والتصور كما يتطلب ايضا استغوارا اجتماعيا وعاطفيا ونفسانيا. لقد كانت مشروعا بالغ الجرأة، وتعد نصا اساسيا في اي محاولة لفهم جون فاولز.

نقرأ بعد ذلك رواية امرأة الضابط الفرنسي الصادرة في العام 1969 فنألف اصوات جون فاويز المتعددة. فهو في بعض الاحيان صوت واثق تمام الثقة، وفي احيان اخرى يلوح في منتهى القلق. وتارة نجده ينتمي الى القرن التاسع عشر انتماء تاريخيا رائعا، واستاذا في فن عريق وتارة اخرى ينتمي الى القرن العشرين انتماء تاريخيا ايضا، غير انه انتماء قلق، يشعر فاويز فيه بالاسى لموت الرواية والقارئ في النص. هذه التمثلات جادة تكتسب صفة التأمل العقلي، غير انه في بعض الاحيان يتنكر ويدخل اجواء القصة فتراه يركب القطار او يفرض نظريات القرن العشرين على شخصيات القرن التاسع عشر.

الكتابة في هذه الرواية تبدو وهي تمر بين يدي روائي يهتم اهتماما شديدا بمشكلات العصر الفكتوري الخاصة بالايمان في مواجهة الشكوك العلمية، وبالوقوف «بين عالمين: الاول عالم ميت والثاني لا يقوى على الولادة»، كما يقول ماثيو ارنولد. ويهتم كذلك بالاحصائيات الخاصة بالبغاء وتأثير تشارلز دارون ومضامين كارل ماركس والعلاقة بين الحاضر الذي هو ماضٍ في الرواية والمستقبل الذي هو الحاضر في الرواية، والعلاقة بين موروث الرواية الفكتوري المثير للاعجاب والوضع في القرن العشرين الذي يجعل من المستحيل الكتابة في داخله؛ هناك ايضا جون فاويز اخر، يتسم بالاعتدال والجد وضبط النفس، جون فاويز الاستطراذي، الجامع المانع في الغالب، العارف بكل شيء، الروائي القادر على سرد الاحداث كأنه ينقلها نقلا، متأملا اياها تأملا حقيقيا.

رواية امرأة الضابط الفرنسي يمكن ان تعد رواية ذكية تكشف عن استفادة الكاتب الحديث من الموروث الفكتوري، وبهذا تصبح رواية ليبرالية معمارها يقوم في الاساس على اساليب الواقعية الاخلاقية والتأويل الاخلاقي الذي ينتمي الى شكل القرن التاسع عشر. وبهذا، فإن الرواية توسع مدى البصيرة الاخلاقية والوعي الاجتماعي الذي نحصل عليه من قراءة جورج اليوت على سبيل المثال، ليصبح مضافا الى شكل اكثر حداثة في اشكال التصور تساعدنا في ذلك المعرفة التاريخية المتزايدة والمشاعر الطيبة الفياضة. انها قصة التحرر من التاريخ، حيث يحل محل النفاق والافراط في الاحتشام والجهل والميوعة العاطفية - وكلها من سمات العصر الفكتوري - الصدق والمصادقية والايمان الصحيح والحرية؛ وهي من سمات العصر

الحديث. فتطلق البطلة سارة بوصفها امرأة وكاتبة اجتماعيا غريبا من سجنها الذي يقيدنها ويكبح جماحها. ويجوز لنا ان ننظر الى الرواية على انها رواية حديثة تدور عن شخصين، بل عن سارة قبل كل شيء، يكتشفان تحررها وانعتاقهما الحديث في عالم موشح برداء التجربة الفكتورية ووجهاء المجتمع الفكتوري، وقد نسج هذا الرداء مؤلف مثقف واسع الاطلاع يتمتع بموهبة عظيمة في المحاكاة. وفي وسعنا ان ننظر اليها على انها «ميتا - نص» من نصوص ما بعد الحداثة او هي رواية يكون فيها وعي الطبيعة الخيالية لكل الروايات واضحا، كما تعي الشخصيات انها داخل قصة وتحاول البحث عن حريتها منها.

هذه النقاط مهمة، لأنها تخص قضية العلاقة بين الكاتب البريطاني المعاصر والموروث، مدى فائدتها وقدرته في ديمومة الحقائق الاجتماعية والاخلاق التي نراها شاخصة، وكذلك علاقته بالاسلوب الذي يمكن ان تنقل فيه الكتابة الحديثة او تطرح للاختبار من مادة الرواية الفكتورية وواقعيتها.

يؤكد الناقد مالكولم برادبري ان رواية امرأة الضابط الفرنسي هي «احد افضل الكتب التي ظهرت في بريطانيا منذ الحرب، واعتقد بانها رواية واعية ظهرت في وقت مثير للاهتمام كان فيه العديد من الكتاب البريطانيين يعيدون التفكير في علاقتهم بموروثهم. وقد قدمها روائي اتخذ بحته في الرواية منحى مغايرا على نحو درامي مثير للانتباه، روائي يعي وعيا شديدا التسيج النقدي المحيط به على الرغم من انه يقاومه باساليب اخرى. وتقف هذه الرواية على التخوم التي انتجت اكثر التعقيدات في الرواية البريطانية الحديثة، التخوم بين رواية القرن التاسع عشر الواقعية والرواية الحديثة. وهي اسوة بالكثير من الروايات الحديثة تعزز الحيرة والارتباك باستخدام العناصر التي الفنا فهمها وشرحها بشكل من اشكال الشعرية. اننا نميل الى تحسس طريقنا عبر الكتاب كما نتحسسه خلال عمل واقعي عظيم، رواية من روايات الواقعية الليبرالية التي تنبه الى الشخصية والتجربة الاجتماعية والاسلوب الذي يغذي كل منهما الاخر. الا اننا نعي ايضا هذه المفارقة الحديثة، وكما هو شأن العديد من الروايات الحديثة كروايات نابوكوف او ماركيز على سبيل المثال، نميل الى مقارنة نقاشاتنا النقدية من حول الرواية وهي في اعلى درجات التوتر والشك، فيها النقاط التي تستغور الواقعية والخيال، الكتابة الغامضة، التقرير والفتازيا».

تجدر الإشارة الى ان الساحر وامرأة الضابط الفرنسي تجمعهما العديد من المظاهر المشتركة. فهما تعتمدان على سرد متقن، على توظيف مهارات الروائي الواقعية والملغزة. وتهتم الروائيتان بالمسعى نحو تحقيق الذات تحقيقاً وجودياً في عالم تطغى عليه قوة التاريخ وتعقيداته الاجتماعية وتعيش الشخصيات فيه الى حد كبير داخل شروط التاريخ الصارمة. وفي كلتا الروائيتين يتم اخراج البطلين من عالم الوعي التقليدي والواقعي الى عالم اخر تسيطر عليه الالغاز ويهيمن عليه الغموض، ولا يمكن عُد أي من الروائيتين بمثابة ابطال شامل للواقعية او النزعة الانسانية الادبية. فالواقعية مذهب برع فيه فاويز والانسانية نزعة يؤمن بها كل الايمان. ان الروائيتين اعادة بناء مضغوط لالغاز الواقعية واستغوار هام للصعوبات والاحتمالات التي تواجه الروائي الحديث الذي لا يملك استعداداً للاستغناء عن الخصائص الانسانية التي تتميز بها الرواية.

جون فاويز روائي دقيق، روائي يذكرنا بمنهج الشك الذي سارت عليه ناتالي ساروت ويمثل قضية مثيرة للاهتمام في موروث روائي بريطاني لم يستغ كثير هذا النمط من البحث الفني. الا ان السؤال يظل مطروحاً: اهو كاتب بالمعنى الحديث؟ معنى معاصريه التجريبيين؟ لعل هناك اجابة عن مثل هذه التساؤلات في مجموعته القصصية البرج الابنوسي الصادرة في العام 1974 عندما صور لنا الفنان بريزلي الذي يختار التعبير عن ابتكاراته على نحو ما، بكتابه فنا عن الحاضر يتداخل فيه الكثير من الماضي: «وراء حادثة الكثير من العناصر الخارجية ثمة ولاء لموروث موغل في القدم». وفي وسعنا ان نلاحظ الى اي مدى تلائم هذه العبارة جون فاويز نفسه. فقد بحث، شأنه شأن العديد من الروائيين البريطانيين بمن فيهم ايريس مردوخ التي يبدو منطقياً مقارنته بها، عن سحر معاصر في اسرار فن حديث يضغط عليه التاريخ وفكر القرن العشرين فيما وراء حدود الرواية الفكتورية. وهو لم يتنكر لهذه العناصر في الفن تازيا التي تنتمي الى موروث الواقعية وفكرة الشخصية. ففي حين تكون فيه الرواية التقليدية شكلاً واقعياً في اسر التاريخ، خاضعة لافكاره الخاصة بالمعرفة الشاملة ونسق التطور، فإن فاويز ينشد كسر هذا الاطار، ويسمح بادخال فكرة الوعي الحديث والتزامه بالحرية فيه. في حين تعارض الاساليب الاستطردية والتبسيطية في الرواية التقليدية كل ما هو انحطاطي وجنسي وملغز،

فإن فاويز يفتح الباب على مصراعيه امام تلك المملكة الزائلة. ان رواياته النموذجية تختصر التمرينات، وتجعله اليوم واحدا من الكتاب العظام بسبب براعته المتقنة ورغبته في ان يرى مواجهة جديدة بين ظروف الوجود الحديث وتياراته من جهة وشكل الفن من جهة ثانية.

د. محمد درويش

تمد عينها غربا

فوق البحر،

سواء كانت الريح عاصفة او لطيفة،

وقفت دوما

يحدوها الامل

هناك فقط

يستقر بصرها،

لا يبدو ثمة سحر

في اي مكان اخر

(هاردي - الاحجية).

الريح الشرقية هي اسوأ الرياح في خليج لايم؛ فخليج لايم هو ذلك الجزء الاكبر من الضلع الممتد جنوب غربي انكلترا، وفي وسع شخص محب للاستطلاع ان يستنتج على الفور العديد من الاحتمالات القوية بشأن الشخصين اللذين شرعا بالسير في الجزء الادنى من رصيف لايم ريجيس، تلك المنطقة الصغيرة والعريقة في القدم، صباح يوم لاذع، عاصف في اواخر اذار/مارس عام 1867. لقد شجّع الكوب ما تولده الالفة على مدى السنوات السبعمئة على الاقل ولا يرى اهل لايم الحقيقيون فيه اكثر من مقلب طويل من جدار رمادي اللون، قديم، ينثني قبالة البحر. وبما انه يمتد في الواقع بعيدا عن البلدة الرئيسية، مثل بايريس⁽¹⁾ الصغيرة لاثينا البالغة الصغر، فانهم يبدون تقريبا وقد اولوا ظهورهم له. المؤكد انه قد كلفهم بما فيها الكفاية لاصلاحه على امتداد القرون كي يبرروا شيئا من النفور منه. الا انه من وجهة نظر اكثر قدرة على التشخيص واكل دفعا للضرائب يعد اجمل متراس بحري في الساحل الجنوبي لانكلترا. وهو كما تقول كتب السياحة ليس مجرد مكان عابق

(1) بايريس: مدينة يونانية تعد ميناء للعاصمة اثينا. (المترجم)

بسبعمئة سنة من تاريخ انكلترا او ان السفن ابجرت منه لمواجهة الارمادا، او لأن الدوق مونماوث حط فيه [عندما قاد التمرد ضد والده تشارلز الثاني عام 1681]... بل لأنه في خاتمة المطاف قطعة رائعة من الفن الشعبي.

بدائي، لكنه معقد، ضخيم ولكنه رقيق، يمتلئ بالانحناءات الدقيقة والكتل مثل عمل من اعمال هنري مور ومايكل انجلو، خالص نقي، لاذع، نموذج للكتلة الكبيرة. البالغ؟ ربما، لكن في الامكان التحقق من كلامي، اذ إن الكوب لم يتغير الا قليلا منذ العام الذي اكتب عنه، على الرغم من ان بلدة لايم قد تغيرت. كما ان اختبار الكلام يفتقر الى الانصاف اذا ما نظرت بعيدا صوب اليابسة.

على اي حال، لو انك توغلت صوب الشمال وباتجاه اليابسة في عام 1867، كما كان يفعل الانسان انذاك، فإن توقعاتك من شأنها ان تكون منسجمة. كانت ثمة مجموعة من عشرة بيوت او نحو ذلك ومكان صغير مخصص للمراكب - بان فيه مركب شراعي مثل فلك قيد الانشاء - وقد جثمت جميعا في البقعة التي يترد فيها الكوب عائدا صوب اليابسة. على بعد نصف ميل الى الشرق تمتد فوق المروج المنحدرة سطوح منازل لايم المغطاة بالقرميد. انها مدينة بلغت اوج ايامها في القرون الوسطى وبعد ذلك بدا اضمحلالها. في جهة الغرب كان جرف صخري رمادي اللون، كثيب المنظر، ينتصب شاهقا فوق الساحل الكثير الحصى وكان معروفا بين سكان المنطقة باسم وير كليفز. ووراء ذلك كله، ثمة جرف صخري اخر يمتد داخل اليابسة، تحجبه عن الانظار غابة كثيفة. من هنا، فإن الكوب يبدو في الاغلب المتراس الاخير - في وجه الساحل الموحش المتآكل الممتد الى جهة الغرب. وفي هذا الصدد يمكن التحقق من كلامي ايضا. لا شيء اليوم يشير الى وجود بيت كان قائما في ما مضى او الى اكواخ ساحلية بائسة في ذلك الاتجاه.

هكذا فالجاسوس المحلي - وقد كان واحد حقا - ربما استطاع ان يستنتج بأن هذين الشخصين غريبان، لهما ذوقهما الخاص، ولا سبيل الى الحيلولة دون استمتاعهما بالكوب بسبب ريح عاتية لا غير. من جهة اخرى، في وسع هذا الجاسوس ان يقرب منظاره اكثر وعندئذ ربما سيتمكن من الارتياح في ان عزلة مشتركة كانت تشير اهتمامهما اكثر من النحت البحري ومن المؤكد انه سيلاحظ انهما شخصان لهما ذوق رفيع جدا فيما يخص مظهرهما الخارجي.

كانت السيدة الشابة ترتدي اشد الثياب اناقة. كانت ثمة ريح اخرى تهب في العام 1867، بداية ثورة ضد الكرنيولين⁽²⁾ والقبعة الكبيرة. ربما استطاعت العين ان تلاحظ من خلال المنظار تنورة حمراء ضاربة الى الارجواني، ضيقة وقصيرة على نحو يبعث على الجراة اذ لاح كاحلان ابيضان من تحت المعطف الاخضر الصارخ وفوق الحذاء الاسود الذي كان يمشي وتيدا فوق الحجارة، كما كانت تعلو شعر الرأس واحدة من القبعات الصغيرة المسطحة غير الملائمة، وقد زينتها في جانبها خصلة رقيقة من ريش طائر ابيض - وهو تصميم لقبعات نسائية ما كانت نساء لايم لتجرؤ على اعتمادها قبل مضي سنة اخرى على الاقل. اما الرجل الطويل القامة الذي كان يرتدي بدلة ذات لون رمادي فاتح، تخلو من اي عيب، ويضغط على الجزء الاعلى من قبعته بيده الفارغة، فقد قلل كثيرا من حجم شاربه الذي كان محكمو افضل الازياء الرجالية الانكليزية قد اعلنوا انه مبتذل قليلا اي مضحك للاجنبي- قبل سنة او سنتين. ومن شأن الوان ثياب السيدة الشابة ان تثير انتباهنا اليوم على انها حادة على نحو واضح. الا ان العالم كان يومئذ على وشك اكتشاف الاصباغ الاصطناعية. كما ان بغية المرأة من اللون كان التألق لا التحفظ وذلك للتعويض عن اشياء كثيرة اخرى في سلوكها المتوقع.

لكن في المكان الذي من شأن الشخص المتطلع بالمنظار نحو البحر ان يكون فيه، ثمة شخص اخر فوق ذلك السد الحاجز للامواج، المثير للكتابة، الملتوي. كان ذلك الشخص يقف عند الجزء المجاور للبحر، وقد انحنى كما يبدو فوق ماسورة مدفوع انتهى بها الامر لأن تكون عمودا تُشد اليه حبال المراكب. كانت ثياب الشخص سوداء، تثير حركتها الريح، لكن الشخص ظل ثابتا لا يتحرك، محققا، محققا صوب البحر، مثل نصب حي ينظر الى غريق، شخص من الاساطير وليس من اي جزء من الحياة التافهة في الاقاليم.

(2) الكرنيولين: قماش قاس لتبطين الثياب. (المترجم)

في تلك العام 1851 كان عدد الاناث في بريطانيا من اللواتي جاوزن السنة العاشرة يقدر بـ 8,155,000 مليون مقارنة بـ 7,600,000 من الذكور. وبهذا يصبح واضحا انه اذا كان مقدرا للفتاة الفكتورية ان تغزو زوجة واما، فانه لم يكن محتملا وجود عدد كافٍ من الرجال يفي بالغرض. اي. رويستون بايك - وثائق انسانية من العصر الفكتوري الذهبي

ساتشر شراعا من فضة وابحر صوب الشمس،
ساتشر شراعا من فضة وابحر صوب الشمس،
ولسوف يبكي حبيبي الغادر، ولسوف يبكي حبيبي الغادر
ولسوف يبكي حبيبي الغادر، من اجلي بعد الرحيل
اغنية شعبية من الريف الغربي - «بينما كانت سيلفيا تتمشى»

- يا عزيزتي تينا. لقد اعلنا عن ولائنا لنبتون⁽³⁾ وسيغفر لنا اذا ما اوليناه ظهورنا الان.
- لست كثير الشهامة.
- ماذا يعني هذا، رجاء؟
- كان ينبغي ان اعتقد بانك كنت ترغب في اطالة فرصة الامساك بذراعي باحتشام.
- يا للركة التي وصلنا اليها!
- لسنا في لندن الان.
- في القطب الشمالي ان لم اكن مخطئا.
- ارغب في السير حتى النهاية.
وهكذا استدار الرجل وقد بدت عليه نظرة يأس تتسم بالواقعية كأنها اخر نظرة يلقيها على اليابسة وواصل الاثنان طريقهما على امتداد الكوب.

(3) نبتون: سيد البحر عند قدماء الرومان. (المترجم)

- كما ارغب في سماع ما دار بينك وبين ابي من حديث يوم الخميس الماضي.
- لقد سبق ان تبينت خالتك بعض التفاصيل مني عن ذلك المساء البهيج.
- توقفت الفتاة ونظرت الى عينيه.
- تشارلز. يجوز ان تكون صعبا كما تشاء مع اي شخص اخر، ولكن لا ينبغي لك ان تكون صعبا معي.
- ما رأيك اذا يا عزيزي لو اننا سنرتبط معا برباط الزوجية المقدس؟
- وتحفظ بسخريتك لناديك.
- دفعته بتكلف لمواصلة السير.
- وصلتني رسالة.
- اه. من والدتك؟
- اعلم ان شيئا ما قد حدث... عند الميناء.
- واصل السير بضع خطوات قبل ان يرد. فقد بدا تشارلز لبرهة انه ميال الى ان يكون جادا، الا انه غيّر من رأيه.
- اعترف بانني ووالدك النبيل اختلفنا في مسألة فلسفية صغيرة.
- انت شخص مولع بالاذى.
- اردتُ ان اكون نزيها.
- وماذا كان موضوع حديثكما؟
- طرح والدك رأيا بانه كان ينبغي عرض السيد دارون في قفص على الملأ في حديقة الحيوان. في القفص المخصص للقردة. وقد حاولت ان اشرح بعض الادلة العلمية القائمة من وراء فرضية دارون. لكنني اخفقت. هذا كل شيء.
- كيف تُقدم على ذلك... وانت تعرف اراء ابي!
- كنت اتسم بالاحترام الشديد.
- هذا يعني انك كنت مفعما بالكراهية.
- لقد اعلن حقا انه لن يزوج ابنته لشخص يعتقد ان جده كان... بيد انني اظن انه عند التفكير في حالتي سينظر الي بوصفي قردا يحمل لقبا من القاب النبلاء.

سددت اليه نظرة وهما يواصلان سيرهما وادارت رأسها الى الجانب على نحو فضولي، وهي اشارة مميزة لتعبير عن القلق - وفي هذه الحالة، القلق بشأن ما اعتقدته حقا العقبة الكاداء امام خطوبتهما. لقد كان والدها رجلا ثريا واسع الثراء بيد ان جدها كان تاجر البسة. اما والد تشارلز فكان يحمل لقب (بارون). ابتسم وضغط اليد ذات القفاز المتدلية من ذراعه اليسر.

- لقد سويننا الامر فيما بيننا يا عزيزتي. من المناسب جدا ان تشعرني بالخوف ازاء والدك. لكنني لن اقدم على الزواج به. كما انك نسيت انني عالم. وقد كتبت دراسة. فلا بد ان اكون كذلك. واذا ما ابتسمت على هذا النحو فاني ساجعل من حياتي وقفا على الاحفوريات⁽⁴⁾ لا عليك.

- لست ميالة لأن اكون غيرة من الاحفوريات.

ثم توقفت وقفة تدل على المكر.

- طالما انك تسير فوقها الان منذ ما يقرب من الدقيقة - ولم تتلطف وتتنازل حتى بالنظر اليها.

القي نظرة حادة الى اسفل، وجثم على ركبتيه بسرعة. كانت اجزاء من الكوب مغطاة بصخور احفورية.

- يا الله! انظري الى هذه. صخرة بورتلاند. لا بد ان هذه الصخرة قد اتت من الصخور الكلسية في (بورتلاند)⁽⁵⁾.

- التي ساحكم عليك بأن تقضي عمرك في مناجمها - ان لم تنهض على قدميك فورا.

امثل لامرها وهو يتسم.

- والان. الست عطوفة عليك اذ اتيت بك الى هنا؟ انظري!

ثم قادتته الى جانب المتراس حيث يكمن صف من صخور مسطحة محشورة جانبيا في الجدار تستخدم بمثابة سلام تؤدي الى ممر أخفض.

(4) الاحفوريات: بقايا حيوان او نبات من عصر جيولوجي سالف مستحجرة في اديم الارض. وتسمى ايضا «المتحجرات». (المترجم)

(5) بورتلاند: شبه جزيرة صخرية على للقال الانكليزي مشهورة بصخورها التي ترجع الى العصر الجوراسي الذي بدا قبل 190 مليون سنة واستغرقت قرابة 54 مليون سنة. (المترجم)

- هذه هي السلام نفسها التي جعلت فيها جين اوستن بطلتها لويزا ماسكروف
تسقط منها في روايتها الاقناع.
يا له من مشهد رومانسي.
- كان السادة المهذبون رومانسيين... انذاك.
- وعلميين في الوقت الراهن، هلا نبدا بهبوطنا المحفوف بالخطر؟
- ونعود ادراجنا.
- مرة اخرى واصل الاثنان سيرهما. وعند ذاك لاحظ هو، او على الاقل ادرك،
جنس الشخص الواقف عند النهاية.
- يا للسماء! ظننت ذلك الشخص صياد سمك. لكن اليست هي امرأة؟
- انعمت ايرنستينا النظر - فقد كانت عيناها الرماديتان البالغتاهما الجمال مصابتين
بقصر البصر. وكان كل ما في وسعها مشاهدته هو شبح معتم.
- اهي شابة؟
- انها على مسافة بعيدة لا يستطيع ان اتأكد منها.
- غير انني استطيع ان اخمن من هي. لا بد انها المأساة المسكينة.
- مأساة؟
- لقب. احد القاهما.
- وما هي الالقاب الاخرى؟
- الصيادون يطلقون عليها لقبا بذيئا.
- يا عزيزتي تينا. المؤكد انك...
- يطلقون عليها لقب امرأة... الضابط الفرنسي.
- عجباً! وهل هي منبوذة الى الحد الذي تضطر فيه الى قضاء اوقاتها خارج
البيت في هذا المكان؟
- انها... مجنونة الى حد ما. لنعد ادراجنا. فانا لا احب الاقتراب منها.
- توقفا. وجمال يبصره صوب الشبح الاسود.
- لكنك اثرت رغبتني في الفضول. من هو الضابط الفرنسي هذا؟
- رجلٌ قيل عنها انه...
- وقع في غرامها؟

- بل اسوأ من ذلك.
- ومن ثم هجرها؟ اهنالك طفل؟
- لا لا اظن ان هناك اي طفل. كل ما هناك اشاعات.
- لكن ما الذي تفعله في ذلك المكان؟
- يقولون انها في انتظار عودته.
- لكن... اليس هناك من يهتم بامرها؟
- انها تعمل خادمة بشكل ما عند السيدة بولتيني العجوز. ولم يكن يسمح لها بالظهور في اثناء زيارتنا. غير انها تقطن هناك. ارجوك لنعد ادراجنا. انني لم ارها.
- بيد انه ابتسم.
- لو انها وثبت اليك فسوف احميك واثبت لك عن شجاعتني. هيا.
- هكذا سار الاثنان مقتربين اكثر من الشبح الواقف قرب ماسورة المدفع. كانت قد خلعت قبعتها وامسكت بها بيدها. اما شعرها فكان محكم الشد الى السوراء داخل ياقة معطفها الاسود - وهو معطف غريب يبدو اكثر شبها بمعطف رجل خيال من معطف امرأة كان زيه سائدا في السنوات الاربعين الماضية. ولم تكن هي الاخرى لتعرف الكرينولين. لكن الواضح ان سبب ذلك انما يكمن في النسيان لا في معرفة اخر الاذواق اللندنية. ابدى تشارلز ملاحظة مبتذلة بصوت عالٍ كي يحذرهما من انها ليست وحيدة. غير انها لم تلتفت. تقدم الاثنان الى حيث في وسعهما مشاهدة وجهها من الجانب ورؤية بصرها المسدد مثل بندقية صوب الافق البعيد. في هذه الاثناء هبت ريح اقوى اضطرت تشارلز الى وضع ذراعه حول خاصرة ايرنستينا كي يسندها، واضطرت المرأة الى التشبث على نحو اقوى بالماسورة. حالما سمحت الريح، تقدم الى امام دون معرفة السبب. ربما ليظهر لايرنستينا كيفية اثاره خوف وزه.
- سيدتي الطيبة. اننا لا نستطيع رؤيتك في هذا المكان دون ان نقلق على سلامتك. ان عاصفة اشد -
- التفتت لتنظر اليه - او من خلاله - كما ظن تشارلز. ولم يكن الجانب الايجابي في ذلك الوجه هو الذي بقي واياه بعد ذلك اللقاء الاول بل كل الجانب الذي لم يستوقعه ابداء؛ فقد كان عصرهما هو العصر الذي يفضل فيه شكل المرأة

الرزين، المحتشم، المطيع. وعلى الفور شعر تشارلز انه قد تجاوز حدوده، كان الكوب تعود ملكيته الى ذلك الوجه لا الى مقاطعة لائم العريقة. لم يكن وجهها جميلا مثل وجه ايرنستينا. من المؤكد انه لم يكن وجهها جميلا وفق مقاييس واذواق اي عصر. لكنه كان وجهها يصعب نسيانه، وجهها مأساويا، يتفجر الحزن منه على نحو صاف، طبيعي، بلا توقف، مثل تفجر الماء من ينبوع غابة. لم يكن فيه اي مكر، او نفاق او هستيريا او قناع. وقبل كل شيء بلا اي اثر يدل على الجنون. كان الجنون في البحر الخالي، الافق الخالي والافتقار الى سبب لمثل هذا الحزن. كان ينبوع طبيعي بخصيصته، ولكنه غير طبيعي في انجاسه في صحراء.

فكر تشارلز بعد ذلك مرات ومرات في تلك النظرة الشبيهة بالرمح. ومن الطبيعي ان التفكير على هذا النحو لا يعني مجرد وصف شيء بل الاثر الذي يملكه. وشعر بنفسه في تلك اللحظة القصيرة كأنه عدو ظالم، اخترقه الرمح وحط من قدره بحق.

لم تقل المرأة شيئا. واستغرقت نظرها الى الورا ثانيتين او ثلاث ثوان على الاغلب. ثم واصلت التحديق الى جهة الجنوب. تشبثت ايرنستينا بكم تشارلز، واستدارت وهي تمزكتفيها وتبتسم لها، وعندما اقتربا من اليابسة اكثر قال:

- اتمنى لو انك لم تذكرني تلك الحقائق القادرة. هذه هي مشكلة الحياة الريفية. فكل واحد يعرف الاخر وليست هناك اسرار. ولا قصص عاطفية. بعد ذلك تحرشت به واصفة اياه بالعالم ومحتقر الروايات.

من بين كل العقود الزمنية في تاريخنا، فإن الرجل الحكيم سيختار
خمسينيات القرن التاسع عشر ليكون شابا فيها.

جي. ام. يونغ - صورة عصر

بعد ان عاد تشارلز الى مأواه في وايت لاين اثر طعام الغداء شرع يحدق الى
وجهه في المرأة. كانت افكاره مبهمه على نحو لا سبيل الى وصفها. بيد انها كانت
تتضمن عناصر غامضة، مشاعر هزيمه غير واضحة لا تتصل بأي وسيلة بالحادثه عند
الكوب بل تتصل بامور تافهة معينة تفوه بها في اثناء الغداء عند الخالة ترانتر، وباعذار
محددة ومميزة قدمها؛ فيما اذا كان اهتمامه بعلم الاحاث⁽⁶⁾ هدفا كافيا لقدراته الطبيعية؛
فيما اذا كان من شأن ايرنستينا ان تفهمه حقا مثلما فهمها هو، كما تتصل بمشاعر
عامة ذات هدف غير محدد ربما كان اصلها - كما استنتج اخيرا - ليس سوى خطر
انقضاء عصر يوم مصحوب بالمطر. على اي حال، كان العام هو 1867. وهو كان في
الثانية والثلاثين من العمر ليس الا. كما انه دوما تطلب من الحياة امورا كثيرة.

على الرغم من ان تشارلز احب ان ينظر الى نفسه على انه عالم شاب ربما
ليس من شأنه ان يندهش كثيرا اذا ما وصلت اليه الانباء مستقبلا عن الطائرة
والمحرك النفاث والتلفزيون والرادار: ان ما كان من شأنه ان يثيره حقا هو الموقف
المتغير من الزمن نفسه. فالبؤس الكبير المفترض عن قرارنا هو الافتقار الى الزمن.
واحساسنا بذلك، وهو احساس لا ينطلق من الحب النزيه للعلم، ولا من الحكمة
بالتأكيد، احساسنا بذلك هو السبب في اننا نخصص مثل هذه النسبة الضخمة من
الابداع والمال في مجتمعا للعثور على وسائل اسرع في تنفيذ الاعمال - كأن
الهدف النهائي للجنس البشري يتمثل في الاقتراب لا من البشرية الكاملة بل من
وميض برق كامل. غير ان المسألة عند تشارلز، وعند الكثير من معاصريه ونبلاء

(6) علم الاحاث: علم يبحث في اشكال الحياة في العصور الجيولوجية السالفة كما تمثلها
المتحجرات او المستحاثات الحيوانية والنباتية. (المترجم)

مجتمعه تقريرا هي ان بصمة الزمن على الوجود كانت بطيئة تماما. ولا تتمحور المشكلة في كل ما يريد الفرد ان يفعله بل نسج ما فعله المرء لملء رحاب الفراغ الواسعة الموجود امامه.

من اكثر اعراض الثراء شيوعا اليوم هو العصاب المدمر؛ في قرنه كان هو السام الهادئ. صحيح ان موجة الثورات في العام 1848، ذكرى الاصلاحيين⁽⁷⁾ الذين مضى عهدهم الان، كانت تقف مثل ظلال هائلة وراء ذلك العصر؛ لكن من وجهة نظر الكثيرين - بمن فيهم تشارلز - فإن اهم شيء يخص ذلك التدمير البعيد انما هو الفشل في الانفجار. لقد كانت الستينيات فترة مزدهرة لا جدال فيها. وجاءت الثروة الى الحرفيين، وحتى الى الطبقات العاملة التي قلصت من احتمال اندلاع الثورة، في بريطانيا العظمى على الاقل، تماما. وغني عن القول ان تشارلز لم يكن يعرف شيئا عن الالماني الذي كان يعمل بهدوء، كعادته دوما، عصر ذلك اليوم في مكتبة المتحف البريطاني، والذي قدر لعمله بين تلك الجدران الكثيرة ان يثمر ثمرة حمراء متألفة. ولو انك وصفت تلك الثمرة او الاثار الناجمة عن استهلاكها العشوائي مؤخرا، فإن المؤكد الا يصدقك تشارلز تماما - وعلى الرغم من ذلك، فبعد ستة اشهر من شهر اذار/مارس عام 1867 صدر الجزء الاول من رأس المال في هامبورغ.

هنالك ايضا اسباب شخصية لا تحصى تبين ان تشارلز لم يكن مؤهلا لدور المتشائم المتناغم. فجده البارون كان ضمن ثاني صنفين لوجهاء الريف الانكليزي: صيادو ثعالب، مسرفون في شرب الشراب الفرنسي الأحمر من بوردو، ومثقفون يجمعون كل ما موجود تحت الشمس. وقد جمع في الاساس الكتب، ولكنه في السنوات الاخيرة خصص جزءا من ثروته، واكثر من ذلك صبر اسرته، للتنقيب في الروابي غير المؤذية التي كانت تملأ ارضه البالغة ثلاثة الاف فدان في (ويلتشاير). الدلمون وحجارة المنهير⁽⁸⁾ والصوان وقبور خاصة بالعصر الحجري الحديث كلها

(7) يقصد بالاصلاحيين او «الميثاقيين» بعض المصلحين السياسيين الانكليزي في القرن التاسع عشر الذين قدموا للبرلمان الانكليزي «ميثاقا» ذا مطالب تهدف الى تحسين اوضاع الطبقة العاملة من الناحيتين الاجتماعية والصناعية. (المترجم)

(8) المنهير: حجارة او نصب حجرية عمودية يعود اصلها الى ما قبل التاريخ. (المترجم)

طاردها بلا هوادة. اما ابنه الاكبر فقد طارد تذكارات الصيد القابلة للحمل بلا هوادة حتى اخرجها من البيت عندما ورثه. غير ان السماء الحقت العقاب بهذا الابن، او باركته، اذ حرمته من الزواج. اما الابن الاصغر للرجل العجوز، اي والد تشارلز، فقد ورث مالا وأراضي شاسعة.

كانت حياته تكتنفها مأساة واحدة - فقد توفيت في ان واحد زوجته الشابة والطفلة المولودة حديثا التي كان مقدرها لها ان تصبح شقيقة تشارلز الذي كان يبلغ سنة واحدة من عمره. بيد انه هضم احزانه. ولم يغدق عاطفته القوية عليه وحسب، بل اتى له بعدد من المعلمين الخصوصيين والمدرسين الصارمين وباع حصته من الارض واستثمر امواله بدهاء في اسهم في سكة الحديد، وبغناء في موائد. باختصار، عاش، وكانه ولد في العام 1702 لا في 1802، وصرف الجزء الاعظم من حياته لاجل المتعة... وتوفي بسببها الى حد كبير في العام 1856. وبهذا كان تشارلز وريثه الوحيد، لم يكن وريث ثروة ابيه حسب التي اخذت بالتناقص - فقد انتقلت لعبة القمار اخيرا من ازدهار سكة الحديد، بل ورث ايضا ثروة عمه الضخمة جدا. وكان من الواضح في عام 1867 ان عمه لم يظهر اي علامة تشير الى قرب موته على الرغم من عودته الشاملة الى المشروب المفضل.

كان تشارلز يحب عمه مثلما كان عمه يحبه. غير ان هذا الحب ما كان ليظهر دوما في علاقتهما. وعلى الرغم من ان تشارلز قدم ما يكفي من التنازلات في صيد طيور الحجل عندما كان يطلب منه فعل ذلك، فانه رفض رفضا باتا وقاطعا صيد الشعالب. لم يكن ليهمة ان كانت الطريدة لا تؤكل، ولكنه كان يشمئز من سوء الصيادين. وكان هنالك ما هو أسوأ: كان يهوى على نحو لا يوصف السير على القدمين بدلا من ركوب الخيل. والسير على القدمين ليس تسلية السيد النبيل الا اذا كان في جبال الالب السويسرية. لم يكن يحمل ضغينة محددة للجواد نفسه بل كان قد ورث كراهية العالم الطبيعي لاعاقة الملاحظة من مسافات قريبة وعلى مهل. على اي حال، كان محظوظا. ففي يوم من ايام الخريف وقبل سنوات عديدة، اصاب طائرا غريبا كان يخلق فوق حدود احد حقول القمح العائدة لعمه. وعندما اكتشف نوع الطائر الذي اصطاده وندرته، انتابه غضب مبهم ازاء نفسه. فقد كان ذلك الطائر واحدا من اواخر طيور الحبارى العظيمة التي تصطاد فوق سهل

سالزبري. غير ان عمه ابتهج كثيرا. وحنط الطائر وظل الى الابد يحرق بعينين
تموران ببريق الرغبة، مثل ديك رومي اسود، خارج الصندوق الزجاجي في غرفة
الاستقبال في قصر وينزيات.

كان عمه يثير سأم زواره من الطبقة العليا على نحو لا متناهٍ بقصة الاسلوب
الذي انجز فيه العمل؛ وكلما شعر بانه ميال الى حرمان تشارلز من الارث - وهو
موضوع يجعله ارجواني اللون لأن ممتلكاته موروثة لذكر فقط - فانه يستعيد حنان
العم عند الوقوف امام الحباري الخالد الذي اصطاده تشارلز وتأمله. كانت لتشارلز
عيوبه، فهو لم يكتب دوما مرة واحدة في الاسبوع، كما انه مولع ولعا مشؤوما
بقضاء اوقات العصر في مكتبة قصر وينزيات، وهي حجرة قلما استخدمها عمه.
على اي حال، له عيوب اخطر من هذه العيوب. ففي كيمبرج بدأ حقا بتعلم
شيء ما خلافا لمعظم شبان عصره بعد ان جمع الاثار الفريدة كما ينبغي ودفع
اشتراكه في مجلة (39 مقالة). الا انه انخرط في السنة الثانية من الدراسة مع مجموعة
فاسدة، وانتهى به الامر ذات ليلة كثيرة الضباب في لندن الى امتلاك جسد فتاة
عارية. واندفع من بين ذراعيها اللندنيتين المكتسزتين الى اذرع الكنيسة، واثار
رعب والده ذات يوم بعد ذلك الحادث بفترة قصيرة بالاعلان عن رغبته في
الانخراط في الكهنوت. فكان هناك رد واحد لمثل هذه الازمة. لا بد من ارسال
الشاب الفاسد الى باريس. وهناك تلطخت سمعة عذريته البراقة بالاعتراف. وحدث
الشيء نفسه، كما فكر والده، بخصوص زواجه المقرر بالكنيسة. فقد رأى تشارلز
ما كان يقف وراء الدعوة المغرية لحركة او كسفورد⁽⁹⁾ - الخاصية الدنيوية للمذهب
الكاثوليكي. وامتنع عن تبديد روحه الانكليزية السلبية والمرتاحة في ان واحد -
طرف واحد مفارقة ازاء طرف واحد عرف - على البخور واللاعصمة البابوية.

(9) حركة او كسفورد: حركة دينية ظهرت في القرن التاسع عشر في جامعة او كسفورد هدفها
تجديد الفكر الكاثوليكي داخل كنيسة انكلترا في وجه النزعات البروتستانتية التي كانت
تتخللها. وكان سبب ظهور هذه الحركة هو ذلك التحول الذي طرأ على العلاقة بين الدولة
وكنيسة انكلترا من 1828-1932. من أبرز قادة الحركة (جون هنري نيومان 1801-1890)
(ريتشارد هوريل فرودي 1803-1836) و(جون كيبيل 1792-1866). هذا وقد نشرت
افكار الحركة في (90 كراسة) كتب (24) منها (نيومان) الذي كان يشرف على تحرير
السلسلة كلها. (المترجم)

وعندما عاد الى لندن شق طريقه ومر بسرعة بين العديد من النظريات الدينية السائدة يومذاك غير انه برز من بينها (بعد ان رأى اكثر مما يمكن انكاره واقل مما يدفع على الثقة بالنفس) لا أدريا^(*) (10) سليما ووجد في الطبيعة، لا في الانجيل، ما يشير الى الله في الوجود. لو انه خلق قبل مئة سنة لأصبح مؤمنا بالله ايمانا مبنيًا على العقل، لا على الوحي، بل لاصبح مؤمنا بأن الله والطبيعة شيء واحد. اذا كان في صحبة الآخرين فانه يذهب الى صلاة الصبح في الاحاد. اما اذا كان وحيدا فانه قلما كان يفعل ذلك.

عاد ادراجه بعد مرور ستة اشهر على وجوده في مدينة الخطيئة عام 1856. وتوفي والده بعد مرور ثلاثة اشهر وتم ايجار البيت الواسع في بلغرافيا وانتقل تشارلز للسكن في بيت اصغر في كنزغتون وهو بيت يناسب شابا اعزب اكثر من غيره. وفي ذلك البيت كان يقوم برعايته خادم وطاه وخادمتان، وهي مجموعة متواضعة العدد ازاء رجل له مثل علاقاته وثروته. بيد انه كان سعيدا هناك اضافة الى انه قضى وقتا طويلا في الرحلات. ونشر مقالة او مقالتين عن رحلاته في الاماكن النائية في مجلات حديثة، بل ان ناشرا مغامرا طلب منه ان يؤلف كتابا عن الاشهر التسعة التي امضاها في البرتغال، غير ان تشارلز وجد في التأليف شيئا يحط من قدره الى حد ما - ووجد فيه ايضا شيئا يشبه العمل الشاق والتركيز المتواصل. وتسلى بالفكرة لكنه تخلص عنها. في الواقع، ان التسلية بالافكار كان شغله الشاغل في العقد الثالث من عمره.

لكنه على الرغم من ذلك لم يكن ضائعا في الزمن الفكتوري البطيء او شابا عابثا في الاساس. ولقاء عابر مع شخص كان يعلم بهوس جده جعله يدرك ان ايام الرجل العجوز التي لا نهاية لها في الاشراف على مجموعات العمال المرتبكين المنقبين في الريف كان ينظر اليها بين افراد الاسرة على انها دعاية لا اكثر. وتذكر اخرون

(*) لم يكن من شأنه ان يطلق على نفسه هذه الصفة لسبب بسيط هو ان الكلمة لم ينحتها (هكسلي) الا في العام 1870، وعند ذلك الوقت اصبح المصطلح ضرورة كبيرة لا بد منها. (المترجم)

(10) اللا أدري: من يعتقد بأن وجود الله وطبيعته واصل الكون امور لا سبيل الى معرفتها. (المترجم)

السير تشارلز سميثسون بوصفه رائدا في علم الآثار البريطانية الما قبل رومانية. وعرض المتحف البريطاني بامتنان عددا من مقتنياته التي كانت موجودة خارج البلاد. وادرك تشارلز رويدا رويدا انه يقترب في طبعه من جده اكثر مما يقترب من اي من ولدي جده. وفي غضون السنوات الثلاث الاخيرة ازداد شغفه باطراد بعلم الاحاث، وهو ميدان بحثه الذي عزم على الخوض فيه. فشرع يرتاد مجالس الادب التي تعقدها الجمعية الجيولوجية. ونظر العم وهو يرى تشارلز يخرج من وينزيات مسلحا بالمطارق وبكيس يضع فيه مقتنياته نظرة ملؤها الازدراء. فقد كان يعتقد ان الشيء الوحيد الذي يجدر بأي سيد مهذب ان يحمله انما هو سوط قصير او مسدس. لكن ذلك على الاقل افضل من الكتب اللعينة في المكتبة الملعونة.

على اي حال، هناك اهتمام اخر يفتقر اليه تشارلز وهو امر لا يثير بهجة عمه. فالشرطة الصفراء والرجس البري، شعار حزب الاحرار، كانا محرمين في وينزيات، اذ كان الرجل العجوز من اشد المتحمسين للون الازرق الذي يمثله حزب المحافظين. وكانت له اهتماماته الا ان تشارلز رفض رفضا مؤدبا كل المحاولات الرامية الى دفعه للخوض في انتخابات البرلمان. واعلن انه ليس لديه اي معتقدات سياسية. وفي السر كان معجبا بغلادستون⁽¹¹⁾. ولكن في وينزيات، كان ينظر الى غلادستون على انه الخائن الاكبر الذي لا يجوز التفوه باسمه. وهكذا، فقد سدَّ احترام الاسرة والتكاسل الاجتماعي وعلى نحو مناسب ما كان يبدو حياة طبيعية له.

انني اخشى ان يكون الكسل احدى صفات تشارلز المميزة. لقد ادرك، شأنه شأن معاصريه، ان المسؤولية الشخصية المبكرة للقرن كانت تتحول الى احترام شخصي: اي ان ما كاد يدفع بريطانيا الجديدة باطراد هو الرغبة في ان تبدو محترمة بدلا من الرغبة في فعل الخير من اجل الخير. كان يدرك انه صعب الارضاء. لكن كيف في وسع المرء ان يكتب التاريخ ومن ورائه يقف ماكولي⁽¹²⁾؟ الشعر او الرواية

(11) ولسم ايوارت غلادستون (1809-1898) سياسي بريطاني من زعماء حزب الاحرار تولى رئاسة الوزارة عدة مرات. (المترجم)

(12) توماس ماكولي (1800-1859) سياسي وكاتب ومن اشهر المؤرخين في العصر الفكتوري في بريطانيا. (المترجم)

وسط تلك الكوكبة اللامعة من اصحاب المواهب في تاريخ الادب الانكليزي؟ كيف يمكن للمرء ان يكون عالما مبدعا ولا يزال ليل⁽¹³⁾ ودارون على قيد الحياة؟ او ان يكون رجل دولة بينما يشغل دزرائيلي⁽¹⁴⁾ وغلادستون كل الفراغ المتاح؟ سترون ان تشارلز كانت لديه طموحات كبيرة. وهذا شأن الكسالى الاذكياء وذلك من اجل تبرير كسلهم امام ذكائهم. لقد كان لديه باختصار كل السأم الذي عرف به بايرون لكن دون ان يملك ايا من المنافذ التي كانت امام بايرون: العبقرية والزنى.

لكن على الرغم من امكانية تأجيل الموت، وهو ما كانت الامهات اللواتي لديهن بنات للزواج يقدرن على التوقع به، فانه دوما يأتي في النهاية برفق. وحتى لو لم يكن تشارلز ليملك الامكانيات الاخرى، فانه كان شابا مثيرا للاهتمام. فرحلاته الى الخارج ازالته على نحو مؤسف شيئا من مظهر الجد الصارم (الذي كان الفيكثوريون يطلقون عليه صفة الجد والاستقامة الاخلاق والامانة وغيرها من الاف الصفات المظلمة) الذي كان مطلوبا من الانكليزي النبيل في ذلك الوقت. وكانت تحيط به من الظاهر روح ساخرة وهي علامة مؤكدة على الانحطاط الاخلاقي المتوارث. غير انه لم يدخل مجتمعا، الا ورمقته اعين الامهات، وربت على كتفه الالباء، وابتسمت في وجهه الفتيات ابتسامة متكلفة. لقد احب تشارلز تماما الفتيات الجميلات ولم يكن لينفر من اغرائهن واغراء ابائهن الطموحين بسلوك سبيل الضلال. وهذا اكتسب شهرة الترفع والبرود، وهي مكافأة ليست عديمة القيمة للاسلوب الانيق - في ذلك الوقت الذي بلغ فيه الثلاثين من عمره كان بارعا في مهمته مثل ابن عرس - الذي كان يتنشق فيه الطعم ومن ثم يدير ظهره لفخاخ الزوجية التي كانت تهدد طريقه.

في اغلب الاحوال كان عمه يوبخه بخصوص هذه المسألة. بيد ان تشارلز سرعان ما كان يوضح الامر مستخدما اسلوبا مبسطا، فيتذمر الرجل العجوز.

(13) سير تشارلز ليل (1797-1875) رائد من رواد علم طبقات الارض في العصر الفكتوري. قال ان مظاهر سطح الارض يمكن تفسيرها على انها نتاج عمليات فيزيائية وكيميائية وبيولوجية منذ العصور الجيولوجية. (المترجم)

(14) بنجامين دزرائيلي (1804-1881) سياسي بريطاني، رئيس الوزراء (1868) و (1874-1880)، اشترى حصة مصر من اسهم قناة السويس عام 1875. (المترجم)

- لم اعثر على المرأة المناسبة بعد.
- هراء. انك لم تبحث عن اي امرأة.
- بل بحثت حقا. عندما كنت في مثل سنك...
- لقد عشت من اجل طرائدك وموسم طيور الحجل.
- كان العجوز يحدق بحزن في مشروبه المفضل. فهو في الواقع لم يندم لأنه لم تكن لديه زوجة، لكنه كان يفتقر افتقارا يائسا الى الاطفال فحرم من شراء المهره والمسدسات لهم. ورأى حياته وهي تتلاشى دون ان تترك اثرا.
- كنت اعمى. اعمى
- عمي العزيز. نظري ممتاز. فهور عليك. كنت ايضا ابحت عن الفتاة المناسبة. ولم اعثر عليها.

الذي حدث هو الذي سيبقى! مباركون هم
الذين يتركون اعمال الحب الكاملة لتبقى
ويجيبون عنها اجابة صامتة، فهم موتى
لم تكن الحياة بلا هدف، على الرغم من انهم غادروها هربا.
السيدة نورتون - سيدة غاراي 1863

عاشت اغلب الاسر البريطانية من الطبقتين الوسطى والارستقراطية
فوق بالوعة من قاذوراتها.
اي. رويستون بايك - وثائق انسانية من العصر الفكتوري الذهبي

كان المطبخ السفلي في بيت السيدة بولتيني الكبير في ريجنسي، والذي
ينتصب، على نحو رشيق واضح يشبه مكانتها الاجتماعية، في موقع ممتاز فوق احد
الستال الشديدة الانحدار وراء لايمل ريجيس ليبدو اليوم بلا ريب بيتا لا يطاق تقريبا
بسبب عدم ملائمته من الناحية العملية. وعلى الرغم من ان ساكني البيت في العام
1867، من شأنهم ان يعرفوا معرفة واضحة من هو الطاغية في حياتهم، فإن الوحش
الحقيقي فعلا في عصر يشبه عصرنا من شأنه ان يكون بلا ادنى شك المطبخ الواسع
الذي كان يحتل مجمل الجدار الداخلي في الغرفة الفسيحة ذات الاضاءة الضعيفة.
وكان يحتوي على ثلاثة مواقد ينبغي تغذيتها بالوقود مرتين في اليوم وتنظيفها من
الرماد مرتين ايضا في اليوم. ولما كان العمل المنزلي السلس في البيت يعتمد عليها،
فانه لم يكن هناك اي مجال لتركها تنطفئ. وبغض النظر عن مدى حرارة النهار في
فصل الصيف وبغض النظر عن وجود ريح جنوبية غربية في كل وقت، فإن
الوحش كان ينفث سحبا سودا من دخان خائق - لا بد من تغذية الافران
القاسية. ثم هناك لون تلك الجدران. فقد كانت تصرخ من اجل الحصول على
ظلال خفيفة، من اجل اللون الابيض. وبدلا من ذلك، فقد كانت خضراء،
صفراوية، كثية. كانت تمتلئ بالزرنخ، وهي مادة لم يكن ليعرفها سكان البيت
(واذا اردنا ان نكون منصفين، فإنها لم تكن معروفة من الطاغية في الطابق العلوي).

ربما كان من حسن الحظ ان الغرفة رطبة وان الوحش ينفث مثل هذه الكمية من الدخان والزيوت. وعلى الأقل احمى الغبار اللعين.

كان رئيس عرفاء هذا المكان الجهنمي الكتيب امرأة تدعى السيدة فيرلي وهي سيدة نحيفة، ضئيلة، ترتدي الثياب السوداء دوما. ولم يكن هذا بسبب كونها ارملة بقدر ما يعود الى طبعها. ربما كانت كأبتها الحادة تعود الى رؤية اعداد لا حصر لها من المخلوقات الاقل شأنًا التي كانت تتقاطر على المطبخ. السقا، الخدم، البستانيون، سائسو الخيل، خادومات الطابق العلوي، خادومات الطابق السفلي؛ الذين كانوا يحتملون من مقاييس السيدة بولتيني واساليبها ما يجعلهم يطلقون سيقانهم للريح. وكان هذا الفعل مخزيا لهم وينم عن الجبن. لكن عندما يطلب منك ان تستيقظ في الساعة السادسة صباحا وان تعمل من الساعة السادسة والنصف وحتى الساعة الحادية عشرة والعمل مرة اخرى من الحادية عشرة والنصف الى الرابعة والنصف وبعد ذلك من الساعة الخامسة وحتى الساعة العاشرة على مدار الايام، اي بمعدل مائة ساعة في الاسبوع، فإن الاحتياطي الذي تملكه من القبول والشجاعة قد لا يكون كبيرا جدا.

وقد نقل كبير الخدم الرابع قبل الاخير الى السيدة بولتيني ملخصا اسطوريا لمساعر الخدم قال فيه: «سيدتي. انني افضل ان اقضي البقية الباقية من عمري في الملجأ على ان اعيش اسبوعا اخر تحت هذا السقف». وقد ارتاب البعض حقا في ان يكون احد ما قد تجرأ حقيقة وتفوه بمثل هذه العبارات امام السيدة المرعبة. غير ان العاطفة الكامنة وراءها باتت مفهومة عندما هبط الرجل السلام حاملا حقائبه، واعلن انه مضطر الى ذلك.

اما كيف تمكنت السيدة فيرلي التي لم تكن اسما على مسمى [لان فيرلي تعني عادلة] من تحمل سيدتها طيلة تلك المدة فتلك احدى عجائب المنطقة. والاحتمال الاكبر هو انها كانت ستصبح بولتيني اخرى لو ان الحياة اتخذت مجرى اخر معها. في الواقع، ان الحسد الذي كان يتأجج في داخلها هو الذي اضطرها الى البقاء هناك، اضافة الى متعتها السوداء في الكوارث المنزلية التي غالبا ما كانت تحل بالبيت. باختصار، كانت المرأتان ساديتين ابتداء. وكان في مصلحتهما معا ان تغفر احدهما للآخرى.

كانت السيدة بولتيني يستحوذ عليها هاجسان اثنان: او مظهران اثنان لنفس الهاجس. الاول هو القذارة - على الرغم من انها كانت تستثني المطبخ الى حد ما لأن الخدم وحدهم يعيشون فيه - والثاني هو الخلود. وفي كلا المجالين لم يغب عن بصرها الحاد اي شيء خلاف ذلك.

كانت اشبه بنسر يهبط بقوة، فتجول باستمرار في اوقات فراغها التي لا تنتهي. وكانت ذات موهبة طبيعية في المقام الاول بحاستها السادسة العجيبة فيما يخص الغبار وبصمات الاصابع والبياضات المنشأة على نحو غير كاف والروائح والبقع والاشياء المكسورة وكل انواع البلوى التي ترثها البيوت. فقد كان اي بستاني يطرد من العمل اذا ما دخل المنزل والتراب عالق في يديه، ورئيس الخدم اذا ما عثر على ما يشير الى وجود مشروب مفضل في مستودعه، والخادمة اذا ما عثر على قطعة من الصوف تحت فراشها.

غير ان الشيء المقيت اكثر من غيره هو انها لم تكن لتقر بأي حدود لسلطتها حتى خارج المنزل. والفشل في الظهور في الكنيسة، في اوقات الصباح والمساء في الاحاد انما كان يعبر عن اسوأ انواع الانحلال الاخلاقي. ولتساعد السماء الخادمة التي تشاهد خارج البيت وهي تنزله على قدميها بصحبة شاب عصر يوم ينذر ان يكون لديها فيه اي عمل - فهذه المناسبة تحدث مرة واحدة في الشهر وعلى مضض - ولتساعد السماء ايضا الشاب العاشق الذي يحاول الاقتراب من منزل مارلبورو سرا لتحقيق لقاء غرامي: فالبساتين عبارة عن غابة حقيقية من أفخاخ بشرية انسانية - صفة الانسانية هنا تعود الى حقيقة ان الفكوك العظيمة القابعة في الانتظار كانت بكامل اسنانها وانها من القوة بحيث تستطيع كسر ساق انسان. هؤلاء الخدم الحديديون هم الذين كانوا موضع اعتزاز السيدة بولتيني وهم الذين لم تطردهم ابدا.

كان يمكن ان يكون ثمة موقع للسيدة في الغستابو. فقد كان اسلوبها في الاستجواب يدفع اكثر الفتيات ثباتا وصلابة الى البكاء في الدقائق الخمس الاولى. وفي طريقته كانت صورة مصغرة لأكثر الصفات العنجهية للامبراطورية البريطانية الصاعدة. وفكرتها الوحيدة عن العدل هي انها لا بد ان تكون على صواب، وفكرتها الوحيدة عن الحكومة هي قصف السكان الوقحين قصفا ملتهبا.

لكنها بين افراد طبقتها، وهي دائرة محدودة تماما، كانت معروفة بحبها للآخرين. واذا ما خامرك الشك في هذه السمعة فسيقدم معترضوك دليلا لا يرقى اليه اي شك: الم تأوي السيدة بولتيني الحنون امرأة الضابط الفرنسي؟ انني قلما احتاج الى ان اضيف في ذلك الوقت بأن السيدة الحنون لم تكن تعرف سوى ذلك اللقب الاغريقي.

وقعت هذه الحادثة المثيرة في ربيع العام 1866 اي قبل سنة واحدة تماما من التاريخ الذي اكتب عنه، وهي ذات صلة بسر حياة السيدة بولتيني العظيم. انه سر بسيط. لقد كانت تؤمن بالرحيم.

كان قس لام في ذلك الوقت رجلا متحررا نسبيا من الناحية اللاهوتية. لكنه كان يعرف جيدا ايضا اين تكمن مصلحته الرعاوية. لذا كان يلائم لام تماما التي كانت تضم تقليديا طائفة تقلل من شأن الكهنوت والطقوس وتؤكد على المبادئ الانجيلية. وكان يتمتع بموهبة بلاغية وهاجة عند القاء مواعظه، وابقى كنيسته خالية من الصليبان والصور والزخرفة وكل الدلائل الاخرى التي تشير الى السرطان الكاثوليكي. ولما افصحَت السيدة بولتيني له عن نظرياتها الخاصة بالحياة الاخرة، لم يجادلها فيها لأن اصحاب المناصب الذين لا يحبون حياة رغيدة لا يجادلون ابناء الكنيسة الاثرياء. فقد كانت ثروة السيدة بولتيني تستجيب لنداءاته بنفس القدر الذي كانت تمسك فيه عن تقديم العون عندما يتعلق الامر باجور العاملين عندها البالغ عددهم ثلاثة عشر فردا. وفي شتاء تلك السنة الماضية (وهو شتاء رابع هجوم عظيم تشنه الكوليرا على بريطانيا الفكتورية) اصيبت السيدة بولتيني بوعكة صحية، وكان القس يتردد بين وقت واخر على زيارتها شأنه في ذلك شأن الاطباء الذين اضطروا دوما الى طمأننتها والقول بانها تعاني من اضطراب بسيط في المعدة وليس من القاتل الشرقي الرهيب.

لم تكن السيدة بولتيني امرأة غبية. بل كانت حادة الذهن في الموضوعات العملية وكان مستقبلها محط اعتبار كبير شأنه في ذلك شأن كل القضايا الماسة براحتها. وبينما كانت مستلقية في غرفة نومها، فكّرت في الشك الممكن الذي بدا يسراودها على نحو مطرد: هل يقدر الله الاحسان بما قدم المرء ام بما يقدر حقا على تقديمه؟ وفي هذا الصدد كانت لديها معرفة افضل من القس. فقد قدمت مبالغ

كبيرة من المال الى الكنيسة، الا انها كانت تعلم انها اقل من نسبة العشر التي ينبغي ان يقدمها اولئك الحريصون على ان يكونوا مرشحين حقيقيين لدخول الجنة. من المؤكد انها نظمت وصيتها كي تضمن توزيع ثروتها بالتساوي من بعد وفاتها. وقد ظلت في اعماقها فترة اطول من بقاء البكتريا في امعائها. وفي يوم ما، وبينما كانت تتماثل للشفاء، انتهزت فرصة احدى زيارات القس القلقة واستنطقت ضميرها استنطاقا حذرا. في الوهلة الاولى، كان ميالا الى ابعاد مخاوفها الروحية.

- سيدتي العزيزة. انت في وضع متأرجح. ان الخالق بصير، حكيم. وليس من شأننا ان نرتاب في رحمته - او عدله.

- لكن لنفترض انه سألني ان كنت طاهرة الضمير؟

ابتسم القس:

- ستردين بأن ضميرك ينتابه القلق. وبرحمته الواسعة سوف...

- لكن لنفترض خلاف ذلك؟

- اذا تحدثت على هذا النحو يا عزيزتي السيدة بولتيني فسوف أؤنبك تانيا قاسيا. اننا لا نجادل في فهمه.

ثم ران الصمت. كانت السيدة بولتيني تشعر انها في صحبة شخصين اثنين عند وجود القس. الاول هو شخص ادنى منها مكانة اجتماعيا، شخص اعتمد عليها في الكثير من متعه، وفي جزء كبير من التكاليف المستمرة التي تصرف على الكنيسة وفي اداء مهامه غير الدينية اداء حسنا بين الفقراء. اما الثاني فهو ممثل الكنيسة الذي ينبغي لها ان تخضع له رمزيا. لهذا السبب، كان سلوكها امامه يأخذ منحى غريبا يفتقر الى الاتساق. من الاعلى الى الاسفل في لحظة ومن الاسفل الى الاعلى في لحظة اخرى. وفي بعض الاوقات كانت تحتال لكلا الموقعين بجملة واحدة.

- اه لو ان فردريك المسكين لم يقضِ نخبه لقدّم لي النصيح.

- بلا ريب. ولكانت نصيحته مثل نصيحتي. في وسعك ان تطمئني الى هذه النقطة. فانا اعرف انه كان مسيحيا. والكلام الذي اتقوه به هو مفهوم مسيحي صحيح.

- كان تحذيرا. عقابا.

فرمقها القس بنظرة صارمة.

- حذار يا سيدتي العزيزة؛ حذار. ان المرء لا يتجاوز على امتياز خالقنا.
غيرت من موقعها. اذ لا يستطيع كل قساوسة الكون ان يبرروا لها موت
زوجها المبكر. ظلت المسألة بينها وبين الله، سرا يشبه حجر الاوبال الاسود الكريم
الذي كان يشع في بعض الاحيان مثل نذير مقدس ويمثل في احيان اخرى مبلغا من
المال دفع مسبقا ثمنا لكفارة ربما لا تزال مدينة بها.

- لقد اعطيت. لكنني لم اعمل معروفا.

- العطاء معروف كبير.

- لست مثل السيدة كوتون.

لم يندهش القس لهذا الانتقال الدنيوي المفاجئ. فقد كان يدرك ادراكا جيدا
من معرفته السابقة ان السيدة بولتيني كانت تعرف انها متخلفة كثيرا في ذلك
السباق الخاص بعمل التقوى. فالسيدة كوتون التي تقطن وراء بلدة لائم بيضعة
اميال اشتهرت بحياتها التي تصرفها في التصديق على الفقراء. وكانت تزور احدى
الجمعيات التبشيرية وتترأس اجتماعاتها، وانشأت ملجأ للنساء الساقطات - صحيح
ان صراحة الستوبة والسندم كانت من القوة بحيث ان معظم اللواتي استفدن من
جمعيتها المجدلنية رجعن مرة اخرى الى احضان الخطيئة باسرع وقت - غير ان
السيدة بولتيني كانت تجهل تلك الحقيقة مثلما كانت تجهل لقب المأساة الاكثر
بذاءة.

سعل القس.

- السيدة كوتون مثال لنا جميعا.

كانت عبارته مثل صب الزيت على النار؛ ربما لم يكن يجهل ذلك.

- كان عليّ أن اقوم بالزيارات.

- سيكون ذلك عظيما.

- ان الزيارات تلك هي التي تسبب لي الازعاج.

لم يسعفها القس بشيء.

- اعلم انني سيئة.

- هون عليك.

- نعم، سيئة تماما.

بعد ذلك ران صمت طويل ففكر في اثنائه القس بطعامه الذي يحين موعده بعد ساعة واحدة، بينما فكرت السيدة بولتيني في سوء طبعها. وهنا قدمت حلا توفيقيا لمعضلتها بجنوع غير مألوف منها.

- لو كنت تعرف سيدة ما، شخصا نبيلًا مرت به ظروف غير مؤاتية...

- لست افهم تماما غرضك.

- ارغب في ان تكون لي رفقة. لدي صعوبات في الكتابة الان. كما ان قراءة

السيدة فيرلي ضعيفة جدا. وسأكون سعيدة اذا ما قدمت المأوى لمثل هذا الشخص.

- حسنا جدا. اذا كانت هذه رغبتك فسأقوم بالتحريات.

جفلت السيدة بولتيني قليلا وهي ترمي بنفسها على هذا النحو الجامح في

احضان المسيحية الصادقة.

- يجب الا يشوب سلوكها الاخلاقي اي شائبة. اذ لا بد من التفكير بما لدي

من خدم.

- حتما، حتما يا سيدتي العزيزة.

هنا قمض القس.

- الافضل ان لا يكون لديها اقارب، لأن اقارب من هو عالة على غيره يمكن

ان يصبحوا سببا للمتاعب.

- اطمئي، فلن اعرض اي شخص غير ملائم.

ضغط على يدها واتجه صوب الباب.

- ارجو الا يكون الشخص في مقتبل العمر يا سيد فورسايت.

انحنى لها، وغادر الحجرة. الا انه توقف في منتصف السلام المؤدية الى الطابق

الارضى. لقد تذكر. وفكر. ربما كان هناك احساس ليس عدم الصلة تماما

بالخبث، ثمرة ساعات طويلة من النفاق - او على الاقل عدم الصراحة التامة - ازاء

جانب السيدة بولتيني الرقيق، دافع بأي ثمن جعله يستدير ويعود ثانية الى حجرة

استقبالها حيث وقف في مدخلها.

- فتاة مؤهلة مرت في خاطري. اسمها سارة وودراف.

وآلهفتي، اي فائدة ترتجى من طرح
قضية عديمة الجدوى؟ لوعد الموت
ابتداء موتا، لما كان الحب
او لكان سجيننا في اضيق الحدود

مجرد الفة لذوي الطبع البليد،
او لكان شبقا في اخشن الاشكال
يدمر العشب ويسحق الاعناب
يتشمس ويزاد سمنه في الغاب

احياء لذكرى ارثر هنري هالم، تينيسون - 1850

كان الشبان تواقين كثيرا لرؤية لايم

جين اوستن - الاقناع

كانت ايرنستينا ذات وجه يناسب تماما سنها. وجه صغير الذقن، بيضوي الشكل. رقيق مثل زهرة البنفسج. وربما تشاهده ساكنا في رسوم كبار رسامي ذلك العصر؛ في اعمال فيز، في اعمال جون ليتش. ولم تكن عيناها الرماديتان وشحوب بشرتها الا لتزيد من رقة بقية الاجزاء. وكانت في اللقاءات الاولى تخفض من ناظريها على نحو غاية في الجمال كأنها قد يغمى عليها اذا ما تجرأ اي رجل نبيل على مخاطبتها. غير انها كانت تملك انحدارا دقيقا في طرف جفونها، وانحدارا مشابها في زاويتي شفتيها - واذا شئنا توسيع المقارنة نفسها قلنا انه يشبه في رفته اريج زهور البنفسج في شهر شباط/فبراير - يتبرأ على نحو حاذق ولكن جلي من انحنائه الدال على الاحترام والواضح امام الرجل العظيم. ومن شأن الانسان الفكتوري المتزمت ان يسيئ الظن في تلك الاشارة غير المفهومة غير انها امام رجل من مثل تشارلز كانت تثبت انها لا تقاوم. وبهذا كانت تشبه الى حد كبير احد الاطفال الصغار، جيورجينا، فكتوريا، البرتينا، ماتيلدا

وغيرهن اللواتي جلسن تحت حماية مشددة في كل حفلة رقص. لكنها لم تشبهن تمام الشبه.

عندما خرج تشارلز من منزل الخالة ترانتر في شارع برود ليسير مئة خطوة او نحو ذلك كي يصل إلى الفندق الذي ينزل فيه ويصعد بوقار السلام المؤدية الى جناحه -ليس كل عشاق الكون المعروفين مجانين؟ - ويتفحص وجهه الوسيم امام المرأة، فإن ايرنستينا منحت نفسها حرية الانصراف وتوجهت الى غرفتها. فقد كانت ترغب في ان تلقى نظرة اخيرة على خطيبها من خلال الستائر المخرمة. كما كانت ترغب ايضا في ان تكون في الغرفة الوحيدة التي تستطيع حقا ان تحملها في منزل حالتها.

بعد ان اعجبت ايرنستينا بطريقة مشيته وبخاصة الاسلوب الذي رفع فيه قبعته لخدمة الخالة ترانتر التي صادف وجودها خارج المنزل في مهمة قصيرة، وكرهته لتلك التحية لأن الفتاة كانت تملك عينين صغيرتين وقحنتين كعيون فلاحات دورسيت وسحنة وردية استفزازية ولان تشارلز كان قد حرم عليه النظر ثانية الى اي امرأة يقل عمرها عن الستين سنة؛ بعد هذا كله، عادت ايرنستينا الى غرفتها وكانت غرفة مؤثثة لها وحسب ذوقها وهو ذوق فرنسي مؤكدا وكان في ذلك الوقت اثاثا ثقيلا كالاثاث الانكليزي بيد انه كان ذهبي اللون، غريبا. اما بقية ارجاء منزل الخالة ترانتر فكانت تعود في طرازها الى ربع قرن من الزمن على نحو واسع، لا يرحم ولا يرقى اليه شك: اي كان متحفا يضم اشياء صنعت في المقام الاول خلال فترة الرفض الدقيق لكل الاشياء المبهجة والجميلة، اشياء يمكن ربطها بذكرى او اخلاق بريني البغيض وجورج الرابع.

لم يكن في استطاع احد ان يكره الخالة ترانتر؛ حتى إن التفكير بالغضب من ذلك الوجه الباسم على نحو بريء والمهذار - وبخاصة المهذار - كان امرا لا معقولا. فقد كانت تملك التفاؤل العميق الذي عرفت به الخادومات المسنات الناجحات، ان العزلة تعلم الاعتماد على الذات او تفسدها. وقد بدأت الخالة ترانتر تستفيد من كل شيء لصالحها، وانتهى بها الامر الى اعمام هذه الفائدة على العالم كله.

على اي حال، لقد بذلت ايرنستينا ما في وسعها كي تثير غضبها، بخصوص استحالة تناول الطعام في الساعة الخامسة؛ بخصوص موضوع الاثاث الكئيب الذي كان يخفق بقية الغرف؛ بخصوص موضوع عناية الخالة المفرطة باسمها الخالي من العيوب (اذ لم يكن من شأنها ان تصدق ان العريس وعروس المستقبل ربما يرغبان في الجلوس وحيدتين او يخرجان وحدهما)؛ وفوق هذا كله، بخصوص موضوع وجود ايرنستينا في بلدة لايم نفسها.

لقد تعين على الفتاة المسكينة ان تعاني الكرب الذي يعانيه كل طفل وحيد ابويه منذ بدء الزمان - اي الهيمنة الماحقة التي لا تلين من القلق الابوي. فم منذ ولادتها كان ابسط سعال تصاب به يستدعي قدوم الاطباء، ومنذ بلوغها الحلم كانت اقل نزوة تتأها تتطلب دعوة مصممي الديكور وخياطي الملابس. واكل عبوس يجعل امها واباها دوما في حوار تأنيبي يمتد سرا ساعات طويلة. لكن كل شيء كان على ما يرام فيما يخص الملابس الجديدة والستائر الجديدة، باستثناء قضية واحدة لم تنفع معها كل شكواها تلك هي قضية صحتها. فقد كانت والدتها وكذلك والدها على اقتناع تام بانها مصابة بالسل. وما كانا يشمان رائحة الرطوبة في سرداب ما حتى يقررا الانتقال من ذلك البيت، وما ان تصادفهما الامطار يومين اثنين في عطلة ما حتى يقررا الذهاب الى بقعة اخرى. وقد اجرى عليها نصف اطباء شارع هارلي الفحوصات دون جدوى، فهي لم تكن مصابة بداء خطير طيلة حياتها. ولم تكن لتشعر بالكسل والبلادة والضعف المزمين. كانت تستطيع - خاصة اذا ما اتاحت لها اي فرصة - الرقص طوال الليل، وتلعب الريشة في الصباح التالي دون ان ينتابها اي وهن. بيد انها لم تعد قادرة على تغيير فكرة والديها الشغوفين بها تماما مثلما لا يقدر طفل صغير على هدم جبل من الجبال. آه لو استطاعا ان يعرفا ما يخبئ المستقبل! فقد كان مقدرا لايرنستينا ان تعيش وتعمر اكثر من جيلها. اذ ولدت في العام 1846 وتوفيت في اليوم الذي غزا فيه هتلر بولندا.

وهكذا اصبح بقاؤها السنوي مع شقيقة امها في لايم جزءا لا يتجزأ من نظامها غير الضروري تماما. كانت في المعتاد تأتي لتسترد عافيتها بعد فصل الشتاء، اما في هذا العام فقد ارسلت مبكرا لتستجمع قواها استعدادا للزواج. مما لا ريب فيه ان نسمات القنال افادتها الى حد ما بيد انها كانت دوما تهبط بالعربة الى لايم وعلى وجهها سحنة

سجين يصل الى سبييريا. كانت رفقة المكان مواكبة للعصر مثل اثار الخالة ترانتر المبعثر. اما فيما يخص المتعة فكانت هذه اسوأ من لا شيء عند سيدة شابة الفت افضل ما في وسع لندن ان تقدمه لها. وبهذا فإن علاقتها بالخالة ترانتر تشبه علاقة طفلة جريئة، جوليت انكليزية بصحبة ممرضتها ذات القدمين المسطحتين اكثر مما تشبه العلاقة التي من شأن المرء ان يتوقعها بين خالة وابنة اختها. في الواقع، لو ان روميو لم يظهر على نحو رؤوف على المسرح في الشتاء الماضي ويقطع لها عهدا بأن يشاركها عزلتها العقابية لتمررت. المؤكد ان ايرنستينا كانت تتمتع بارادة شخصية اقوى بكثير مما هو مسموح به لاي فرد من حولها؛ واكثر مما يسمح به العمر نفسه. لكن لحسن الحظ كانت تحترم التقاليد احتراماً شديداً وتشارك تشارلز روح السخرية والتهكم؛ وهي ليست اقل الصفات التي جذبت احدهما الى الاخر اول وهلة. فلولا هذه الروح وكذلك روح الدعابة لكانت طفلة مدللة فظيعة. من المؤكد ان الشيء الذي كان يخلصها انما هو مناجاتها نفسها بعبارة: (ايتها الطفلة المدللة الفظيعة).

في اثناء وجودها في غرفتها عصر ذلك اليوم فتحت ازرار ثوبها ووقفت امام مرآتها مرتدية قميصها التحتاني الفضفاض وتنورها التحتانية. ولبضع لحظات بدت تائهة وسط تأمل ذاتي نرجسي تماما. كانت رقبتها وكتفهاا تلائم وجهها، هي في منتهى الجمال حقا، واحدة من اجمل الفتيات اللواتي عرفتهن. وفي محاولة لاثبات ذلك، عمدت الى رفع ذراعيها، وارخت شعرها، وهو امر كانت تعرف انه ينطوي على الاثم على نحو مبهم الا انه ضروري مثل حمام حار او فراش دافئ في ليلة شتوية. تخيلت نفسها في لحظة خطيئة حقا مثل امرأة سيئة؛ راقصة، ممثلة. واذا كنت تراقبها، فانك ستشاهد شيئا غريبا تماما. اذ توقفت فجأة واستدارت للاعجاب بنفسها من الجانب، اقلت نظرة سريعة صوب السقف. تحركت شفتاها. وعلى جناح السرعة فتحت خزانة الملابس، واخرجت منها مبدلا نسويا فضفاضاً. لقد خطرت ببالها فكرة جنسية، خيال صورة متخيلة على نحو باهت لتطويق لينوكون⁽¹⁶⁾ والاجساد العارية - اذ صادف وهي تدور على قدم واحدة ان لمحت

(16) لينوكون: كاهن من طروادة قتلته اولاده اثنتان من افاعي البحر بعد ان حذر الطرواديين من الحصان الخشبي. خلد اسطوره نحات اغريقي في تمثال من الرخام يظهر تطويق الافاعي بشكل لا خلاص منه لاجساد لينوكون ولولاده العراة. (المترجم)

في المرأة احدى زوايا سريرها. ولم يكن جهلها المطبق بحقيقة الجماع وحده الذي اثار رعبها، بل هالة العذاب والقسوة التي يتطلبها الفعل على ما يبدو والتي تلغي رقعة الاشارة والحذر اللذين يشوبان الملاطفة المسموح بها التي جذبتها الى تشارلز. لقد شاهدت مرة او مرتين الحيوانات في حالة السفاد، فظل العنف يستحوذ على عقلها.

هكذا ابتكرت ما يشبه الوصية الخاصة - كانت الكلمات المتعذر سماعها هي على وجه التحديد لا ينبغي لي - كلما حاولت الايماءات الجسدية الانثوية لجسدها الجنسية، ذات المساس بالحيض او بالولادة، ان تقتحم وعيها. لكن على الرغم من محاولة المرء ان يبعد الذئاب عن باب داره، فإنها تظل تعوي في الظلام. كانت ايرنستينا تريد زوجا، ان يكون تشارلز هو ذلك الزوج، تريد اطفالا، بيد ان الثمن الذي فكرت على نحو غامض بوجوب دفعه بدا غاليا.

لقد كانت معظم نساء عصرها يشعرن بنفس المشاعر. وينطبق الامر على معظم الرجال ايضا. وليس مما يثير الدهشة ان الواجب قد اصبح مفهوما اساسيا في فهمنا العصر الفكتوري⁽¹⁷⁾؛ او فيما يخص هذه المسألة مفسدا للبهجة في عصرنا^(*).

بعد ان هدأت ايرنستينا الذئاب اتجهت صوب منضدة الزينة، وسحبت احد الادراج، واخرجت منه مفكرتها المغلفة بجلد اسود والمزودة بماسكة مذهبة. واخرجت من درج اخر مفتاحا مخفيا وفتحت المفكرة. وعلى الفور نظرت في الصفحة الاخيرة. كانت قد كتبت فيها في يوم خطوبتها لتشارلز تواريخ الاشهر والايام التي تفصلها عن الزواج. ورأت الخطوط الصغيرة التي خطتها في خلال الشهرين الماضيين ولا يزال هناك ما يقرب من التسعين رقما. وهنا تناولت ايرنستينا

(17) العصر الفكتوري: منسوب الى الملكة فكتوريا الانكليزية (1837-1901). (المترجم)

(*) المقطعان المأخوذان من قصيدة «احياء لنكري ارثر هنري هالم» اللذان اورنتهما في مستهل هذا الفصل مناسبان في هذا المقام. من المؤكد ان اكثر الحجج غرابة في تلك المجموعة الشهيرة للقلق في الحياة بعد الموت معبر عنه في المقطع (35) من هذه القصيدة. ان الزعم بأن الحب لا يمكن ان يكون الا بهيئة شبق مفرط اذا انعدم خلود الروح انما هو هروب مصحوب بذعر من (فرويد). لقد كانت السماء عند الفكتوريين سماء الى حد كبير لأن الجسد - يترك على الارض مع رغباته الجنسية. (المؤلف)

القلم الرصاص الذي تعلوه قطعة من العاج والمثبت في اعلى المفكرة وشطبت يوم السادس والعشرين من اذار/مارس. لا تزال هناك تسع ساعات على انقضاء اليوم، غير انها كانت تسمح لنفسها باللجوء الى هذا الغش البسيط عادة. ثم عادت الى بداية المفكرة، او قرعها، اذ كانت هدية من هدايا العيد، وقلبت حوالى خمس عشرة صفحة مكتوبة بخط انيق حتى وصلت الى صفحة خالية كانت قد وضعت فيها زهرة ياسمين. نظرت اليها نظرة مليئة برهة وجيزة ثم مالت كي تشم رائحتها، فانثال شعرها فوق الصفحة، واغمضت عينيها لترى ان كان في وسعها ان تستدعي مرة اخرى اكثر الايام بهجة، اليوم الذي ظنت انها ستموت فيه من فرط سعادتها، اليوم الذي بكّت فيه على نحو متصل، اليوم الذي يفوق الوصف...
بيد انها سمعت وقع اقدام الخالة ترانتر على السلام، فاسرعت الى اخفاء المفكرة، وبدأت تمشط شعرها البني الرقيق.

آه يا مود، ابتها الظبية البيضاء كالحليب، انت لا تصلحين ان تكوني
زوجة ابداء.

تينيسون - مود 1855

كان وجه السيدة بولتيني يعبر عن جهل واضح عصر ذلك اليوم الذي رجع فيه القس والمح اليها عن بلاغه. فمع سيدات من طرازها، تكون الدعوة الفاشلة في المعرفة في اغلب الاوقات دعوة ناجحة لعدم الموافقة اذ كان وجهها يناسب تماما الرأي الثاني. وكانت عيناها لا تشبهان ابداء بيوت الصلاة الساكنة التي عبر عنها تينيسون. اما الجزء السفلي من خديها فكان يغطيها اللغد تقريبا ويضغط على شفيتها معا في رفض في محله لكل شيء يهدد مبادئها في الحياة: الاول هو (وهنا استعير عبارة ترايتشكي⁽¹⁸⁾ الساخرة) الحضارة صابون والثاني هو ان الشيء الجدير بالاحترام هو الشيء الذي لا يلحق الاساءة بسي. كانت تشبه احد ابناء بكين البيض، واذا توخينا الدقة اكثر فإنها تشبه احد ابناء بكين المتفخين لأنها كانت تخفي تحت صدرها جيبا يحتوي على الكافور كي يقيها من الكوليرا: - وبهذا فإنها حيثما كانت، برز منها دوما شيء محفوظ - لا اعرفها.

شعر القس انه عومل بازدراء. وتساءل: ما الذي قد يحدث لو ان السامري الرحيم⁽¹⁹⁾ صادف السيدة بولتيني بدلا من المسافر المسكين.

(18) ترايتشكي، هنري، (1834-1896) مؤرخ الماني. (المترجم)

(19) اشارة الى رواية السامري الوارد ذكرها في انجيل لوقا (الفصل العاشر: 30-35) التي تقول ان عيسى المسيح قال: كان رجل منحدر من اورشليم الى اريحا فوق بين لصوص فعروه وجرحوه ثم مضوا وقد تركوه بين حي وميت فاتفق ان كاهنا كان منحدرين في ذلك الطريق فابصره وجاز وكذلك لاوي وافى المكان فابصره وجاز ثم ان سامريا مسافرا مر به فلما راه تحنن فدنا اليه وضمد جراحاته وصب عليها زيتا وخمرا وحمله على دابته واتى به الى فندق واعتنى بامره وفي الغد اخرج دينارين واعطاهما لصاحب الفندق وقال اعتن بامره ومهما تتفق فوق هذا فانا ادفعه لك عند عودتي. (المترجم)

- لم افترض انك تعرفينها، فهي فتاة من تشارماوث.
- فتاة؟
- لست متأكدا من عمرها. انها امرأة، سيدة في نحو الثلاثين، ربما اكثر. لا اريد ان اجازف بالتخمين.
- شعر القس انه بدا حديثه بداية ضعيفة عن المدعي عليه الغائب.
- انها قضية مثيرة للشجن، وتستحق الكثير من عطفك.
- اهي متعلمة؟
- نعم، حقا. لقد درست لتصبح مربية اطفال، بل كانت هي مربية في الحقيقة.
- ماذا تفعل الان؟
- اظنها بلا عمل.
- لماذا؟
- انها قصة طويلة.
- من المؤكد انني ارغب في سماعها قبل ان تباشر.
- هكذا جلس القس ثانية، واخبرها بما كان يعرفه او بقسم مما كان يعرفه عن سارة وودراف لأنه قرر ان يضع حياته في خطر في محاولة شجاعة لانقاذ روح السيدة بولتيني.
- كان والد الفتاة يقيم في منزل اللورد ميريتون بالقرب من بيمنستر. وهو فلاح لا اكثر، بيد انه رجل ذو مبادئ سامية وكان يحظى باحترام فائق وسط جيرانه. وقد زود الفتاة بثقافة افضل مما يمكن ان يتصور اي شخص.
- اهو متوفى؟
- منذ بضع سنوات. واشتغلت الفتاة مربية في اسرة القبطان جون تالبوت في تشارماوث.
- اني وسعه تزويدنا برسالة معلومات عنها؟
- اذا كنت قد فهمت محادثتنا السابقة فهما صحيحا، فاننا نناقش عملا من اعمال البر يا عزيزتي السيدة بولتيني وليس طلب وظيفة.
- هزت رأسها قليلا وهي اقرب علامة على الاعتذار عرفت بها حقا.

- مما لا ريب فيه ان الحصول على مثل هذه الرسالة امر ممكن. لقد تركت بيته بناء على رغبتها. اما القصة فهي كما يلي: لا بد انك تتذكرين المركب الفرنسي الذي اظن بانه قد جاء من سانت مالو ودفعت به الرياح العاتية في شهر كانون الاول/ديسمبر الماضي قرب بلدة ستونبارو. مما لا ريب فيه انك تتذكرين ان ثلاثة من طاقم المركب قد انقذ حياتهم اهالي تشارماوث وكان اثنان من بينهم بحارة لا اكثر. اما الثالث فهو ضابط المركب وقد اصيبت ساقه اصابة شديدة عند الصدمة الاولى، بيد انه تشبث باحد الصواري ووصل الى الشاطئ. لا بد انك قرأت عن الموضوع.

- من المحتمل تماما. انني لا احب الفرنسيين.

- ولما كان القبطان تالبوت ضابطا بحريا هو الاخر، فقد طلب من اهل بيته ان يولوا العناية للضابط الاجنبي الذي لم يكن يتحدث الانكليزية واستدعيت الانسة وودراف للترجمة والعناية به.

- اتحدث بالفرنسية؟

كان ذعر السيدة بولتيني لهذا الاكتشاف الرهيب كافيا تقريبا لاغراق القس. بيد انه انحنى وابتسم على نحو مهذب.

- هذا شأن معظم مربيات الاطفال يا سيدتي العزيزة. وليس العيب فيهن اذا كان العالم يتطلب منهن مثل هذه الامور. لكن لنعد الى السيد الفرنسي. انني اعرب عن اسفي اذ اقول بانه لم يكن يستحق تلك الصفة.

- سيد فورسايت!

انصبت في مكائها ولكن ليس على نحو اقوى مما ينبغي لئلا تضطر الرجل المسكين الى ان يصمت.

- انني اسارع الى القول بأن اي سلوك شائن لم يحدث في بيت القبطان تالبوت او بقدر ما يتعلق الامر بالانسة وودراف في اي زمان او مكان لاحقين. اذ قطع لي السيد فورسي - هاريس عهدا بذلك. وهو على دراية بالظروف على نحو افضل مني.

الشخص الذي ورد ذكره هو قس بلدة تشارماوث.

- بيد ان الرجل الفرنسي تمكن من اللعب بعواطف الانسة وودراف.

وعندما شفيت ساقه سافر بالعربة الى ويماوٲ، كما يفترض عموما، ليعود الى وطنه. وبعد مرور يومين على رحيله طلبت الانسة وودراف من السيدة تالبوت وعلى جناح السرعة ان تسمح لها بترك عملها. وقد قيل لي ان السيدة تالبوت حاولت انتزاع اسباب المرأة، لكن دون جدوى.

- وتركتها تمضي دون اشعار؟

انتهز القس فرصته على نحو ذكي.

- صحيح. كان تصرفا في منتهى حماقة. كان ينبغي لها ان تدرك ادراكا افضل. ولو ان الانسة وودراف كانت تعمل في وظيفة تتصف بوعي اكبر لما راودني الشك في استحالة حدوث مثل هذه الواقعة.

توقف هنيهة لترك السيدة بولتيني تدرك الاطراء المستر.

- سأختصر في سرد قصتي. لحقت الانسة وودراف بالرجل الفرنسي في ويماوٲ. فاصبح سلوكها هذا يستحق الشجب والاستنكار، غير انني علمت انها مكثت هناك مع احدى قريباتها.

- ذلك لا يغفر لها في نظري.

- مؤكدا، الا انه ينبغي ان تتذكري انها ليست سيدة بالفطرة. فالتطبقات الدنيا لا تدقق كثيرا في المظاهر كما هو شأننا. يضاف الى ذلك، انني اغفلت القول بأن الرجل الفرنسي اخذ عهدا على نفسه ان يخطب الفتاة وقد ذهبت الانسة وودراف الى ويماوٲ معتقدة انها ستزوج.

- لكن هل هو غير كاثوليكي؟

كانت السيدة بولتيني ترى نفسها مثل جزيرة باتموس⁽²⁰⁾ في محيط هائج من الكتلكة.

- اخشى ان سلوكه ينم عن عدم ايمانه بأي معتقد مسيحي. الا انه بلا ريب قد اخبرها انه واحد من افراد طائفتنا الدينية السيئة الحظ في ذلك البلد الضال. وبعد مرور بضعة ايام قفل راجعا الى فرنسا بعد ان قطع وعدا للانسة وودراف بانه حالما يلتقي اهله ويزود بسفينة جديدة - من اكاذيبه الاخرى انه سيرقى الى رتبة

(20) باتموس: اصغر الجزر اليونانية تبلغ مساحتها 11 ميلا مربعا وكانت فيما مضى منفى واصبحت فيها مدرسة دينية في العام 1669. (المترجم)

نقيب اثر عودته - فسيعود ثانية الى هنا، الى لائم نفسها كي يتزوجها ويأخذها معه. ومنذ ذلك الوقت وهي تنتظره. من الواضح تماما ان الرجل كان مخادعا بلا قلب. ومما لا ريب فيه انه كان يمتني نفسه بارتكاب فعل احمق، مقيت ازاء المخلوقة المسكينة في ويماو. لكن عندما كشفت له مبادئها الدينية القوية عبث مراميه، رحل عنها.

- ما الذي حدث لها منذ ذلك الحين؟ من المؤكد ان السيدة تالبوت لم تعد لها ثانية.

- السيدة تالبوت امرأة غريبة الاطوار الى حد ما يا سيدتي. وقد عرضت ان تعيدها مرة اخرى. غير انني اصل الان الى الخاتمة الحزينة لقصتي هذه. ان الانسة وودراف ليست مخبولة. حاشا ان تكون كذلك. انها قادرة تماما على انجاز اي اعمال توكل اليها. بيد انها تعاني من نوبات كأبة عنيفة. لا شك ان سبب ذلك يعود جزئيا الى الندم. لكنه يعود ايضا، وهو ما اخشاه، الى الوهم الثابت في عقلها بأن الملازم رجل شريف وانه سيعود اليها يوما ما. لهذا السبب، ربما تشاهد غالبا وهي تتردد على سواحل البحر القريبة من بلدتنا. وقد حاول السيد (فورسي - هاريس) جادا ان يبين للمرأة لا جدوى سلوكها هذا فضلا عن افتقاره الى اللياقة. انها جزعة قليلا يا سيدتي.

ران الصمت بعد ذلك. وكيف القس نفسه وفق سيد وثنى - للاحتمال المحض. ادرك ان السيدة بولتيني كانت منهمكة في التفكير. ففكرتها عن نفسها تطلبت منها ان تبدو مذعورة، فزعة، لفكرة السماح لمثل هذه المخلوقة بدخول بيت مارلبورو. لكن ينبغي تبرير مثل هذا العمل امام الله.

- الديها اقارب؟

- لا استنتج ذلك.

- كيف اعالت نفسها منذ...؟

- على نحو يدعو للشفقة غالبا. ادرك انها كانت تقوم ببعض اشغال التطريز

واظن ان السيدة ترانتر استخدمتها لانجاز مثل هذا العمل الا انها تعيش في الاساس على ما ادخرته من موقعها السابق.

- لقد ادخرت اذا.

استرد القس انفاسه مرة أخرى.

- لو قبلت بها يا سيدتي فاني اعتقد انها ستجد الخلاص حقا.
وهنا لعب ورقته الراجعة.

- وربما ستخلص غيرها ايضا على الرغم من اني لست في موقع الحكم على
ضميرك.

وفجأة غشيت السيدة بولتيني رؤيا سماوية تحير البصر. انها رؤيا السيدة
كوتون وقد انخلع انفها الطاهر. قطبت حاجبيها، وأمعنت النظر في سجادة
الكثيفة الوبر.

- احب ان استدعي السيد فورسي - هاريس.

بعد مرور اسبوع جاء السيد فورسي - هاريس يرافقه قس بلدة لايم ورشف
الشراب الفرنسي وتحدث بمثل ما نصحه به زميله القس بعد ان حذف منه ما اراد.
كما قدمت السيدة تالبوت رسالة مطولة تضمنتها معلومات، اضررت اكثر مما
نفعت، لأنها فشلت تماما في ادانة سلوك المربية ادانة كافية. وقد اثارت عبارة
واحدة على وجه الخصوص من غضب السيدة بولتيني: «كان المسيو فارغون
شخصا جذابا الى حد كبير وقد رغب القبطان تالبوت في ان اقول لك ان حياة
البحار ليست افضل مدرسة للاخلاق». كما لم تهتم ايضا للعبارة القائلة ان الانسة
سارة وودراف كانت «معلمة مطيعة وماهرة» او لعبارة «ان اطفالي الصغار
مشتاقون اليها كثيرا» بيد ان لين السيدة تالبوت الواضح وعدم دقة معاييرها
وانفلات عواطفها الاحتمق ساعد في النهاية سارة مع السيدة بولتيني. فقد مثل ذلك
تحديا لها.

هكذا جاءت سارة لاجراء المقابلة وهي في صحبة القس. وقد اثارت بهجة
السيدة بولتيني سرا منذ البداية اذ ظهرت منبوذة، سحقته الظروف على نحو
بالغ. وبدأت على نحو يدعو الى الارتياح كما هي حقا - فتاة في الخامسة
والعشرين وليس في «الثلاثين او ربما اكبر من ذلك». لكن حزنها الوحيد البالغ
الوضوح كان ظاهرا على محياها مما يدل على انها كانت ائمة. ولم تكن السيدة
بولتيني لترغب في عمل اي شي لاي شخص لا يبدو واضحا جدا انه من ذلك
الصنف. ثم هناك احتياطيها من المال الذي اعتبرته السيدة بولتيني عرفانا صامتا.

يسضاف الى ذلك كله، ان وجود الذكريات عن الكثير من الخدم الذين غادروا المنزل جعل السيدة العجوز تنفر من الوقاحة والجرأة وهما صفتان ترادفان في تجربتها الحديث قبل الاستئذان وتوقع الطلبات مما يحرمها من متعة الاستفسار عن سبب عدم التوقع.

بعد ذلك كتبت رسالة بناء على اقتراح من القس. كان الحظ جميلا جدا والهجاء يخلو من الاخطاء. بل انها وضعت اختبارا اكثر مكررا، اذ اعطت سارة انجيلها، وطلبت اليها ان تقرأ. كانت السيدة بولتيني قد فكرت في اختبار المقطع وكانت ممزقة النفس بين المزمور (119): «طوبى للكاملين في سلوكهم» والمزمور (140): «انقذني يا رب من انسان السوء». وفي نهاية المطاف اختارت الاول. ولم تصغ للصوت الذي كان يتلو حسب، بل اصغت ايضا لاي علامة قاتلة تشير الى ان كلمات ناظم المزامير لم تصب في قلب القارئ.

كان صوت سارة ثابتا وقويا الى حد ما، وكان يحتفظ باثار لكنة ريفية غير ان اللكنة الرقيقة في تلك الايام لم تكن متطلبا (مستلزما) اجتماعيا كبيرا كما حدث بعد ذلك. فقد كان هناك رجال في مجلس اللوردات، بل دوقات ايضا، ظلوا محتفظين بلكنة اقاليمهم، ولم يظن احد سوءا بهم. ولعل صوتها ارضى السيدة بولتيني اول الامر مقارنة مع تلثم السيدة فيرلي الذي يعوزه الالهام. لقد خلب لبها. وهكذا الامر فيما يخص سلوك الفتاة وهي تقرأ: «ان عاداتي موجهة كي تحفظ شرائعك».

وهنا بقي استجواب قصير.

- ان السيد فورسايت يخبرني بانك مرتبطة بهذا الشخص الاجنبي.

- لا ارجب في الحديث عن ذلك يا سيدتي.

لو ان اي خادمة تجرأت وتفوهت بمثل هذه العبارة امام السيدة بولتيني فإن يوم الغضب سيحل بعد ذلك. الا ان هذه العبارة قيلت صراحة، بلا خوف، لكن على نحو يدعو الى الاحترام. وهكذا تركت السيدة بولتيني اول مرة الفرصة الذهبية تفوت دون ان تستأسد.

- لا اسمح بوجود كتب فرنسية في منزلي.

- لا املك ايا منها. ولا حتى كتب انكليزية يا سيدتي.

في وسعي ان اضيف انها لم تكن تملك اي كتاب لأنها باعت كتبها كلها وليس لأنها نذير مبكر بما كالوهان⁽²¹⁾ الفظيع.

- من المؤكد ان لديك انجيلا؟

هزت الفتاة رأسها علامة النفي. فتدخل القس.

- سأهتم بذلك يا عزيزتي السيدة بولتيني.

- قيل لي انك دوما تقضين الوقت في الامور الدينية.

- نعم يا سيدي.

- ارجو ان تظلي كذلك. نسأل الله العزاء في شداثنا كلها.

- احاول ان اشاطرك إيمانك يا سيدي.

وهنا طرحت السيدة بولتيني اصعب اسئلتها، وهو سؤال سبق ان طلب منها القس الا تطرحه.

- ماذا سيحدث لو ان هذا... الشخص قد عاد؟ ماذا سيحدث؟

الا ان سارة مرة اخرى قامت بافضل ما تستطيع: لم تقل شيئا، بل احنت رأسها لا غير ومن ثم هزته. فسمحت السيدة بولتيني لنفسها وهي في افضل حالات مزاجها ان تدرك بأن تلك علامة الندم الصامت.

لذلك بدأت عملها الصالح.

لم يخطر في بالها ان تسأل عن السبب الذي يدفع سارة الى الدخول في خدمتها بينما كانت قد رفضت في السابق وظائف العمل من اشخاص اقل تزمنا من السيدة بولتيني. كان هناك سببان اثنان بسيطان: الاول هو ان بيت مارلبورو كان يطل على خليج لام على نحو رائع. اما الاخر فهو اشد بساطة: كانت لا تملك الا سبعة بنسات في هذا العالم.

(21) هربرت مارشال ماكلوهان (1911) مفكر كندي في ميدان التربية والاتصالات، امن بقوة تأثير التلفزيون والكمبيوتر وغيرها من وسائل الاتصال الالكترونية في انماط الفكر سواء في علم الاجتماع، الفن، العلوم او الدين وقال ان مستقبل الكتاب زائل لا محالة نتيجة لذلك. اهم مؤلفاته (الوسط هو الرسالة - 1967). (المترجم)

ان الانماجية الاستثنائية في الصناعة الحديثة... تسمح بالاستخدام غير
المنتج لعدد اكبر واكبر من اوساط الطبقة العاملة وبالتالي اعادة تقديم
عبيد المنازل القدامى، على نطاق متسع دوما، تحت اسم طبقة الخدم،
بمن في ذلك الخدم، الخادمت والخدم من ذوي البزات الخاصة، الخ.
ماركس - رأس المال 1867

عندما فتح سام الستائر، غمر الصباح تشارلز مثلما كانت السيدة بولتيني
- التي كانت لا تزال تغط في النوم - تتمنى لو ان اللجنة تغمرها بعد موتها اثر
توقف مهيب، اذ ان مناخ شاطئ دورسيت اللطيف يوفر مثل هذه الايام عشر
مرات او ما يقرب من ذلك في العام الواحد. ولا يوفر هذا المناخ اياما مقبولة
في غير اوانها، بل جزء ساحر من دفء المتوسط واشراقه. وتصاب الطبيعة بمس
من الجنون في اثناء ذلك. فالعناكب التي ينبغي ان تكون في سبات، تتراكمض
فوق صخور تشرين الثاني/نوفمبر الحارة، وتشدو الشحارير في كانون
الاول/ديسمبر، وتتفتح زهور الربيع في كانون الثاني/يناير، ويحاكي اذار/مارس،
حزيران/يونيو.

جلس تشارلز منتصبا في فراشه وخلع قلنسوة النوم على عجل، وترك سام
يفتح النافذة على مصراعيها واستند الى يديه وشرع يمعن النظر في شعاع الشمس
الذي فاض في الغرفة. زالت الكآبة الحقيقية التي اثارت الغم في نفسه في اليوم
السابق مع زوال السحب، وشعر ان هواء الربيع الدافئ، يشق طريقه بلطف داخل
قميص نومه نصف المفتوح ويتجه صوب رقبتة المكشوفة. وقف سام يشحذ شفرة
الحلاقة في حين تصاعد البخار على نحو جذاب مذكرا الى حد ما بذكريات
بروسية، اذ كشف عن العديد من الايام السعيدة والثقة الكبيرة بالمكانة والنظام
والهدوء والمدنية من خلال الابريق النحاسي الذي اتى به معه. وفوق الشارع
المرصوف بالحجارة من تحت، كان ثمة راكب يسير بهدوء متجها صوب البحر، في
حين عبثت نسمة اكثر قوة بالستائر المخملية ذات اللون الاحمر قرب النافذة. لكنها

ظلت جميلة تحت ذلك الضياء. كان كل شيء حسنا تماما. ومن شأن العالم ان يكون دوما في هذا الزمان، في هذه اللحظة.

كان هناك عدو خفيف الوقع لحوافر صغيرة، ثغاء ومواء لا ينقطعان. نهض تشارلز ونظر من النافذة. كان ثمة رجلان مسنان يرتديان ثيابا فضفاضة ويتجاذبان اطراف الحديث في مواجهته، احدهما راع يتكئ على عصاه في حين وقفت اثنتا عشرة شاة والكثير من الحملان بقلق وسط الشارع. لقد اصبحت بقايا مثل هذا اليزي الفلكلوري الخاص بانكلترا القديمة صورة رائعة بحلول العام 1867 الا انه لم يكن زيا نادرا. ففي كل قرية، هنالك اكثر من عشرة مسنين يرتدون مثل تلك الملابس. رغب تشارلز في ان يقدر على لفت الانتباه. فقد كان الريف ساحرا حقا. وهنا التفت الى خادمه.

- قسما بشرفي يا سام اني في مثل هذا اليوم يمكن ان افكر بالا اشاهد لندن ثانية ابدا.

- لو بقيت واقفا امام الهواء فلن تراها ايضا يا سيدي.

نظر اليه سيده نظرة ساخرة. فقد مضى على وجوده مع سام اربعة اعوام ويعرف احدهما الاخر افضل مما يعرف شريكان بعضهما بعضا في الكثير من البيوت التي يعتقد ان الفة اكبر تسودها.

- لقد عدت الى الشراب يا سام.

- لا يا سيدي.

- هل الغرفة الجديدة افضل؟

- نعم يا سيدي.

- وحجرة الطعام؟

- مرضية تماما يا سيدي.

- هذا يتطلب الاثبات. كانت مرحلة الصباح عسيرة عليك، تدفع البخيل الى

الغناء. اذا كنت تتناول الشراب.

اختبر سام حافة الشفرة القاطعة فوق طرف اهامه الصغير وقد بانث على

وجهه امارات تشير الى انه في اي لحظة قد يغير من رايه ويجريها فوق رقبتة، او ربما حتى فوق وجه سيده الباسم.

- انها فتاة المطبخ في بيت السيدة ترانتر يا سيدي. انني اذهب...
- ارجو ان تضع هذه الالة جانبا وتوضح كلامك.
- لقد شاهدتها. هناك في الخارج.
- ثم هز اهامه في اتجاه النافذة:
- كانت تنادي من الجهة الاخرى من الشارع.
- ما الذي كانت تناديه؟
- ازدادت تعابير سام عمقا حتى كاد يزعق:
- الديك كيس لجمع السخام؟
- ثم توقف مكتئبا:
- هذا ما نادت به، يا سيدي.
- ابتسم تشارلز ابتسامة عريضة.
- انني اعرف الفتاة. اهي الفتاة ذات الرداء الرصاصي؟ التي لا يمكن النظر اليها لفرط قبحها؟
- كان كلاما قاسيا من تشارلز لأنه كان يتحدث عن الفتاة التي رفع لها قبعته في عصر اليوم السابق. وهي مخلوقة تصلح للزواج وفي وسع بلدة لايم ان تفخر بها.
- ليست قبيحة تماما، في مظهرها في الاقل.
- آه، ان سيد الحب غير عادل مع اهالي لندن الفقراء.
- بانت نظرة ساخطة على وجه سام.
- ليس من شأني ان اوذيها بأي شيء. انها عاملة ناضرة الوجه في حقل الالبان.
- اظنك تستخدم الكلمات بمعناها الخرفي يا سام. جائر انك ولدت في حانة، كما اكدت انت مرارا...
- بل في البيت المجاور لها يا سيدي.
- بالقرب منها. الا انني لن اسمح لك ان تتكلم بلغة اهل الحانة في يوم كهذا.
- انه الاذلال يا سيد تشارلز، وقد سمع كل سائسي الخيل بالامر.
- فيما شمل كل سائسي الخيل شخصين اثنين تماما، احدهما اصم، فإن تشارلز لم يظهر سوى قدر ضئيل من التعاطف.

ابتسم، ومن ثم اشار الى سام بصب الماء الحار.
- الان احضر لي فطوري، ايها الصديق الطيب. سأحلق ذقني بنفسي هذا الصباح. اريد ان أأكل فطيرتين اثنتين.
- نعم يا سيدي.

بيد ان تشارلز اوقف سام الساخط قرب الباب، وهدده بفرشاة الحلاقة.
- الفتيات الريفيات كثيرات الخجل فلا يصح ان يطلقن مثل هذه العبارات الفظة عليهن امام سيد بارز من سادة لندن الا اذا تعرضن للاستفزاز. اول الامر على نحو مؤلم. اخشى انك تسرعت تماما يا سام.
وقف سام فاغرا فاه.

- واذا لم تسرع في احضار طعامي فاني سأربط حذائي بمؤخرتك.
اغلق الباب، لكن ليس على نحو بالغ الرقة. بينما غمز تشارلز لنفسه امام المرأة. ثم تظاهر فجأة بانه اكبر سنا بمقدار عقد من الزمن: كل الرصانة والجد لرب الاسرة الشاب الوقور. ثم ابتسم ابتسامة متساعحة امام وجوهه المتعددة وشعوره بالنشاط والخفة. وانتصب وانهمك في تأمل ملامحه تأملا رقيقا. كانت ملامحه اعتيادية تماما - جبين مستعرض، وشارب اسود مثل شعر رأسه الذي بان اشعث بعد خلعه قلنسوة النوم مما جعله يبدو اصغر سنا مما هو حقا. كانت بشرته شاحبة على نحو مناسب على الرغم من انها اقل شحوبا من الكثيرين من السادة في لندن - ففي ذلك الوقت لم تكن لفحة الشمس رمزا جنسيا مرغوبا على المكانة الاجتماعية، بل على العكس، كانت اشارة على المرتبة الدنيا. نعم. ومن خلال تفحصه وجهه، تبين له انه عبارة عن وجه احمق في لحظة كهذه. ومرت به موجة صغيرة من ملل اليوم السابق. انه وجه بريء اكثر مما ينبغي عندما يجرد قناعه الشكلي الذي يتخذه خارج المنزل؛ لم يحقق الا الشيء القليل. ولم يكن هناك حقا سوى الانف المفلطح والعينين الرماديتين الهادئتين. اما التهذيب والمعرفة فهما الشيطان اللذان كان يملكهما حقا اكثر من اي شيء.

وهنا بدا يغطي وجهه الغامض برغوة الصابون.
كان سام اصغر سنا منه بعشر سنوات، غير انه لا يصلح للخدمة، اضافة الى انه شارد الذهن، مزهو، مشاكس، يظن نفسه حاد الذهن، شديد الولع بالضحك،

كسول، يحتفظ في زاوية فمه بقطعة صغيرة من البقدونس او عود من التبغ، يهوى الجياد او وضع العصافير تحت منخل عندما ينادى عليه من الطابق العلوي.

ان اي خادم من اهالي لندن الفقراء اسمه سام يثير في نفوسنا على الفور ذكرى ويلر الخالد. والمؤكد تماما ان سام هذا برز من ذلك الماضي. الا ان ثلاثين سنة مرت على ظهور مذكرات بيكويك في هذا العالم، كما ان هيام سام بالفرس لم يكن عميقا حقا بل كان اشبه برجل حديث من الطبقة العاملة يظن ان معرفة السيارات معرفة دقيقة انما هو دليل على التقدم الاجتماعي. كما انه لم يعرف شيئا عن سام ويلر عن طريق الكتاب، بل عن المسرحية المعدة عن الكتاب. وكان يعرف ان الزمن قد تغير. وان معرفة جيله من ابناء لندن الفقراء اوسع من ذلك. واذا ما ارتاد الاصطبلات فإن هدفه يتمثل في اظهار معرفته الاوسع امام سائسي الخيل وندل الحانات.

شهد منتصف القرن شكلا جديدا تماما من اشكال الاناقة الشديدة يبرز في الساحة الانكليزية. فمجموعة الطبقة العليا القديمة الشاحبة المتحررة من الرجال الشديدي الاناقة كانت تعرف باسم الطبقة الانيقة. بيد ان الحرفيين الشبان الجدد الذين انتعشت احوالهم واولئك الذين اصبحوا من كبار الخدم شأن سام شرعوا ينافسونهم في الثياب الجاهزة. وكانت الطبقة المتأنقة تطبق عليهم صفة المقلد لمن هو ارقى منه. كان سام نموذجاً صحيحاً لمثل هؤلاء المقلدين بهذا المعنى المحدد للكلمة. فقد كان لديه احساس حاد بطبيعة الازياء؛ وهو احساس يستوي في حدته واحساس الشبان المتأنقين في ستينيات القرن العشرين. وكان يصرف معظم نقوده في شراء احدث الملابس. وظهر علامة اخرى من علامات هذه الطبقة الجديدة في صراعه من اجل التمكن من اللغة.

بحلول العام 1870 كان عجز سام ويلر المعروف في عدم قدرته لفظ الصوت (ف) الا بصورة الصوت (و) - وهي علامة دالة على سكان لندن منذ قرون عديدة - محط احتقار المقلدين والروائيين البورجوازيين الذين استمروا فترة من الوقت على ادراج ذلك على نحو غير دقيق في حوار شخصياتهم اللندنية الفقيرة. لقد كان صراع المقلدين يمس مسا شديدا صوت الحرف (هـ). وهو صراع عنيف في حالة صديقنا سام ينتهي في اغلب الاحوال بالهزيمة لا النصر، غير ان لفظة

صوت الحرفين (ا) و(هـ) لفظا خاطئا لم يكن لفظا مضحكا حقا، بل كان اشارة على ثورة اجتماعية وهو امر اخفق تشارلز في ملاحظته وادراكه.

لعل ذلك سببه ان سام كان يوفر شيئا ضروريا جدا في حياته - فرصة يومية للحديث، للعودة الى ايام التلمذة، التي يستطيع تشارلز من خلالها - اذا جاز التعبير - ان يظهر ولعه الباعث على الاسى في التوريات والتلميحات المتكلفة: دعابة تعتمد على الامتياز الثقافي، مصحوبة بتجرد مقزز على نحو فريد. لكن على الرغم من ان نـزعة تشارلز قد تلوح وهي تزيد الطين بلة فيما يخص الاستغلال الاقتصادي، فانه لا بد لي من التوضيح ان صلته بسام كانت تظهر حقا حبا من فطما، رابطة انسانية كانت افضل بكثير من الحاجز الصلد الذي كان يعمل انذاك الكثير من الاثرياء الجدد في عصر مشبع بثروات جديدة على اقامته بينهم وبين خدمهم.

مما لا ريب فيه ان تشارلز كان عنده العديد من الخدم البدائل. اما الاثرياء الجدد في عصره، فلم يملكوا ايا من هذه البدائل. كانوا في حقيقة الامر اولاد الخدم في اغلب الاحوال. لم يكن قادرا على تصور عالم بلا خدم، في حين كان الاثرياء الجدد قادرين على مثل ذلك التصور. وهذا مما جعلهم كثيري المطالب وهم في منزلتهم الرفيعة نسبيا. فحاولوا تحويل خدمهم الى الات في حين كان تشارلز يدرك ادراكا جيدا ان خادمه هو صاحبه ايضا الى حد ما - انه سانشو بانزا⁽²²⁾، العنصر الهزلي الواطئ الذي كان يدعم هيامه الروحي بايرنستينا - دوروثي. باختصار، احتفظ بسام لأنه غالبا ما كان يسليه، وليس لأنه لم تكن هناك الات افضل منه.

بيد ان الفرق بين سام ويلر وسام فارو - اي بين 1836 و1867 - كان ممثلا في الآتي: كسان الاول سعيدا بدوره، اما الثاني فكان شقيا به. وكان من شأن ويلر ان يرد على الاهانة بانتقام لفظي بينما تيبس سام في مكانه، دفع من حاجبه، وادار ظهره.

(22) سانشو بانزا: خادم (دون كيشوت) في رواية سرفانتس الشهيرة، يمثل الجانب المادي ازاء سيده الحال المئالي. (المترجم)

يجري البحر الآن حيث كانت الاشجار تنمو،
 آه ايتها الارض كم شهدت، من متغيرات
 هناك حيث يزمر الشارع الطويل الان،
 كان سكون البحر يسود.

التلال فلال، وهي تسير
 من شكل الى شكل، ولا شيء ثابت،
 تذوب مثل ضباب، تلك الاراضي الصلدة،
 تأخذ شكل غيوم، ثم تضيع.

تينيسون - احياء لذكرى 1850

لكن اذا اردت اليوم الا تفعل اي شيء، وان تكون محترما في الوقت
 نفسه، فافضل ذريعة تتذرع بها هي ان تنهك في دراسة عميقة.

ليزلي ستيفن - تخطيطات من كيمبرج 1865

لم يكن سام وحده صاحب الوجه المكفهر في بلدة لايم ذلك الصباح، اذ
 استيقظت ايرنستينا وهي ذات مزاج لم تزده اشراقة اليوم الا سوءا. كان مرضها
 مألوفاً. الا انه كان يستحيل تحميل تشارلز عواقبه. وهكذا، فعندما قدم على نحو
 مناسب في الساعة العاشرة للزيارة في منزل الخالة ترانتر وجد تلك السيدة
 وحدها في استقباله: لقد قضت ايرنستينا ليلة مضطربة قليلا وهي تريد ان تخلد الى
 الراحة. الا يرغب في المجيء عصرا لتناول الشاي عندما تتماثل الى الشفاء حتما؟
 كان الرد على سؤال تشارلز الجزع: الا ينبغي استدعاء طبيب؟ هو النفي
 على نحو مؤدب، وعندها استأذن بالانصراف. واصبح لديه وقت كاف من
 الفراغ بعد ان امر سام بشراء ما يستطيع من زهور وحملها الى بيت المريضة
 الفاتنة مع الاستئذان بالسماح له ان يقدم زهرة او زهرتين من عنده للسيدة
 الشابة التي تكره السخام. وازاء هذه الخدمة البسيطة يتحرر من اعماله في ذلك

النهار مكافأة له (ليس كل أصحاب العمل الفكتوريين مسؤولين عن الشيوعية مسؤولية مباشرة).

كان خيار تشارلز بسيطاً. فهو من شأنه ان يذهب حيثما تستدعي صحة ايرنستينا منه الذهاب. الا انه لا بد من الاعتراف بأن بلدة لايم ريجيس نفسها هي التي سهلت على نحو هيج القيام بالتزاماته لما قبل الزواج. ستونبارو، بلاك فين، وير كليفز - هؤلاء الأسماء قد لا تعني الا القليل لك. بيد ان بلدة لايم تقع في وسط احدى المناطق الصخرية الناتئة المعروفة باسم صخرة لياس⁽²³⁾ الزرقاء. وهذه الصخرة غير جذابة لمن هو متعطش للمناظر الطبيعية وحسب. فهي رمادية اللون كثيفة تماماً، خليط من انواع الطين المتحجر. لهذا فهي كالحة، منفرة اكثر مما هي جميلة. بل هي مضللة لأن طبقاتها هشة، تميل الى الانزلاق وكان من نتائج ذلك ان هذا الامتداد الصغير من الساحل الصخري الذي يصل الى اثني عشر ميلاً او ما يقرب من ذلك تآكل بسبب البحر على مدار التاريخ اكثر من اي جزء اخر تقريباً في انكلترا. الا ان طبيعته ذات الاحافير الكثيرة وحركته جعلت منه قبلة علماء الاحاث البريطانيين. وفي غضون المائة سنة الاخيرة او ما يقرب من ذلك، كان الانسان هو الحيوان الاكثر شيوعاً على هذا الساحل بمطرقته الجيولوجية.

كان تشارلز قد زار قبل الان ما يعتبره اشهر المحلات في بلدة لايم تقريباً في تلك الايام - دكان الاحفوريات القديمة الذي اسسته ماري انينغ المدهشة، وهي امرأة لم تتلق اي تعليم رسمي الا انها ذات موهبة في اكتشاف عينات جيدة غير مصنفة انذاك. وكانت اول انسان يشاهد عظام الاكصور⁽²⁴⁾. ومن اكبر مخازي علم الاحاث البريطاني هو ان اي نموذج محلي لم يكن يحمل صفة *anningii* الخاصة على الرغم من ان العديد من العلماء في ذلك الزمن وظفوا مكتشفاتها بامتنان في ترسيخ شهرتهم الذاتية. وقد زار تشارلز هذا المكان تعبيراً عن تقديره لتلك الذكرى البارزة. ودفع من ماله لمختلف انواع الاصداف المتحجرة التي اشتهاها للخزائن التي كانت تغطي جدران مكتبه في لندن. على اي حال، كانت لديه خيبة امل واحدة،

(23) ذات صلة بقسم فرعي من العصر الجوارسي الاوربي. (المترجم)

(24) الاكصور: زحافة بحرية منقرضة سمكة الشكل. (المترجم)

اذ كان في ذلك الوقت متخصصا في فرع لم يملك دكان الاحفوريات القديمة ما يعرضه من نماذج لها للبيع الا قليلا.

كانت هذه النماذج هي القنفذي الجلد⁽²⁵⁾ او القنفذ البحري المتحجر. وتسمى أحيانا القشور (وهي مأخوذة عن كلمة لاتينية تعني الغلاف الخارجي او الغدفة) في حين يسميها الاميركيون دولارات الرمل. وتختلف الغداف من حيث الشكل على الرغم من انها دوما متماثلة اشد التماثل، وتشترك في نموذج من الحزوز ذات الحافات الناتئة الدقيقة. وفضلا عن قيمتها العلمية فإنها عبارة عن اجسام في منتهى الجمال. كما تتمتع بفتنة اضافية متمثلة في صعوبة العثور عليها. فقد تنقب بحثا عنها اياما كثيرة ولا تعثر على واحدة منها، في حين ان الصباح الذي تعثر فيه على اثنتين او ثلاث منها انما هو صباح جدير بالذكرى. ولعل السبب الذي جعل تشارلز مفتونا بها على نحو لا شعوري هو انه رجل لديه وقت كاف يريد ملءه كما انه هاو بالفطرة. طبيعي ان لديه اسبابا علمية وامام زملائه من الهواة قد يقول ساخطا إن قنفذيات الجلد اهمل شأنها على نحو مخجل وهذا مسوغ مألوف لقضاء وقت طويل مما ينبغي في ميدان بالغ الصغر. لكن بغض النظر عن دوافعه، فقد انصرف بكليته الى الغداف.

الان نجد ان هذه الغداف لا تظهر من بين الصخور الزرقاء، بل من بين طبقات من حجر الصوان المركبة. وقد نصحه صاحب دكان الاحفوريات بأن البقعة الممتدة الى غرب المدينة هي المكان الافضل للبحث وليس بالضرورة منطقة الساحل. وهكذا، فبعد مرور نصف ساعة على زيارة تشارلز الخالة ترانتر، عاد مرة اخرى الى الكوب.

كان السد الحاجز للامواج غير منعزل في ذلك اليوم. فهناك صيادون يكسون بمادة القطران ويصلحون شباكهم ويعملون بصفائح السرطان وجراد البحر. وهناك اناس من طبقة اعلى شأنًا، وزوار مبكرون وسكان من المنطقة نفسها يتنزهون بجانب البحر المتموج واللطيف في هذا الوقت. ولاحظ تشارلز انه لا اثر لوجود المرأة التي كانت تمن النظر في البحر. ولم يعد النظر فيها او في سد الكوب بل

(25) القنفذي الجلد: واحد من قنفذيات الجلد وهي طائفة من الحيوانات البحرية تشمل نجم البحر والقنفذ البحري. (المترجم)

انطلق بخطوات سريعة مرنة تختلف اختلافا شديدا عن نزهاته المألوفة البطيئة في البلدة وسار على امتداد الشاطئ تحت وير كليفر.

من شأنه ان يجعلك تبسم، فقد كان مهينا تماما لدوره. كان يرتدي حذاء ثقيلًا بمسامير كبيرة ووقاء من نسيج يغلف ساقي بنطاله الفضفاض مصنوع من الصوف السميك. وكان لديه معطف ضيق وطويل على نحو لا معقول وقبعة ذات لون ييجي غير محدد، وعصا ضخمة من خشب الدردار كان قد اشتراها في اثناء طريقه صوب سد الكوب، وكيس كبير تستطيع ان تستخرج منه مجموعة ثقيلة من المطارق والاعطية والمفكرات وعلب الحبوب والقوائم واشياء اخرى لا يعلمها الا الله. ولا شيء يستعصي على فهمنا اكثر من منهجية الفكتوريين. وفي وسع المرء ان يشاهد ذلك على ابلغ ما يكون من الوضوح وابلغ ما يكون من السخف في النصيحة التي تقدم بحانا للمسافرين في الطبقات الاولى من كتب ارشاد السياح. ويتساءل المرء: اين يكمن العثور على اي متعة؟ وفي حالة تشارلز: كيف لم يشعر ان الثياب الخفيفة من شأنها ان تغدو مريحة اكثر؟ ان القبعة غير ضرورية؟ ان الحذاء الثقيل بمساميره الضخمة فوق شاطئ ينتشر فوقه الجلمود مناسب مثل حذاء الترحلق على الجليد؟

حسنا. اننا نضحك. لعل ثمة شيء مثير للاعجاب في هذا الفصل بين ما هو مدعاة للراحة وما هو مقبول. ونجد هنا، مرة اخرى، نقطة الاختلاف هذه بين قرنين: اهو الواجب^(*) ذلك الذي يدفعنا ام لا؟ لو اننا اخذنا هذا الهاجس بالملابس، بالاستعداد لكل احتمال، على انه حماقة وجهل بما هو تجريبي فاننا نرتكب غلطة كبيرة، او ربما تافهة، بشأن اسلافنا، كما اظن، لأن رجالا من مثل تشارلز، يشبهونه في ارتداء ثياب اكثر مما ينبغي ومزودين بمعدات اكثر من اللازم، هم الذين وضعوا اسس كل علومنا الحديثة. وكانت حماقتهم في ذلك الجانب ليست اكثر من

(*) بوصفي منكرًا بأن مذهب اللا ادرية والاحاد في اواسط العصر الفكتوري لا الحديث كانا يرتبطان على وجه التحديد بالمعتقد اللاهوتي، فالافضل ان اورد عبارة (جورج اليوت) الشهيرة: «الله لا يمكن تصويره، الخلود لا يصدق، الا ان الواجب امر ومطلق». وفي وسع المرء ان يضيف بأن الواجب امر من باب اولى في وجود مثل هذا الارتداد الديني المزيج والفظيع. (المؤلف)

علامة تشير الى جدهم في علم اكثر اهمية من غيره. كانوا يدركون ان التفاسير السائدة عن العالم غير دقيقة، وانهم سمحوا لنوافذهم المفتوحة امام الحقيقة بأن تشوبها مسحة التقليد والدين والركود الاجتماعي؛ كانوا يعرفون، باختصار، ان امامهم اشياء لا بد من اكتشافها وان الاكتشاف ستكون له اهمية قصوى لمستقبل الانسان. اننا نعتقد - الا اذا كنا نعيش في مختبر اجاث - انه لا يوجد امامنا شيء يستدعي الاكتشاف وان الاشياء الوحيدة ذات الاهمية البالغة لنا تخص حاضر الانسان. اهذا افضل لنا؟ ربما. بيد اننا لسنا الذين سيصدرون الحكم في النهاية.

لهذا لا يجدر بي ان اضحك كثيرا في ذلك اليوم عندما حاول تشارلز - وهو يدق وينحي ويتفحص طريقه على امتداد الشاطئ - للمرة العاشرة ان يجتاز فجوة اوسع مما ينبغي بين الجلمود فانزلق على نحو مذل فوق ظهره. لم يكن تشارلز ليعترض على الانزلاق، فالنهار كان جميلا والاحفوريات كثيرة. وسرعان ما وجد نفسه وحيدا تماما.

تألاً البحر، وصاحت طيور الكروان. بينما حلقت امامه مجموعة من طيور البحر صائدة المحار بالوانها السود والبيض والقرنفلية، وهي تبشر برحلته. وهنا ظهرت برك صخرية مغرية، ومرت في ذهن الرجل المسكين هرطقات مروعة: او لم يكن اكثر مدعاة للهو، لا، لا، اكثر فائدة من الناحية العلمية لو انه يدرس علم الاحياء البحرية؟ لعله يترك لندن ويقطن في بلدة لايم. بيد ان ايرنستينا ما من شأنها ان توافق على ذلك. ثم جاءت لحظة انسانية تماما - وانا سعيد ان اسجلها - القى فيها تشارلز نظرة حذرة من حوله وتأكد من عزله التامة وبعدها خلع حذاءه والوقوف الذي يلفه وجوريه. انها لحظة من لحظات تلاميذ المدرسة، وحاول ان يتذكر بيتا شعريا من هوميروس يجعل من تلك اللحظة لحظة فريدة. بيد ان اهتماماته تشتت لضرورة الامساك بسرطان صغير يتجه سريعا حيث سقطت على عينيه اليقظتين قطرات ماء.

بقدر ما قد تستخف بتشارلز لكثرة ما يحمل من ادوات، لعلك تستخف به ايضا بسبب افتقاره الى التخصص. لكن عليك ان تتذكر ان التاريخ الطبيعي لم يتصف بصفة تنتقص من القدر انذاك مثلما هو اليوم لكونه يعد هروبا من الواقع؛ وفي اكثر اوقات الهروب الى الوجدان. لقد كان تشارلز عالم طيور وعالم نبات

كفوء ايضا. وربما كان الافضل لو انه اغمض عينيه عن كل شيء سوى قنافذ البحر الاحفورية او وهب حياته لتصنيف الاشنات، اذا كان التقدم العلمي هو الذي تتحدث عنه، وحتى لو تمكنت من ان تثبت لي ان من شأن التخصص ان يكون اكثر فائدة لتشارلز، العالم غير الموهوب فانه ينبغي لي مواصلة القول بأن التعميم كان افضل لتشارلز الانسان. هذا لا يعني ان الهواة يستطيعون الاشتغال في كل حقل، اذ حري بهم ان يشتغلوا في كل حقل، ولتحل اللعنة على المتزمتين العلميين الذين يحاولون سجنهم في زنزانة ضيقة.

كان تشارلز يسمى نفسه داروينيا، الا انه على الرغم من ذلك لم يفهم دارون حق الفهم. بيد ان دارون نفسه لم يفهم في ذلك الوقت. فالشيء الذي اثاره ذلك العبقري هو سلم الطبيعة اللينياني⁽²⁸⁾ الذي كان مرتكزه العظيم متمثلا بعبارة: لا يمكن لانواع جديدة ان تدخل العالم. ويوضح هذا المبدأ الهوس اللينياني بالتصنيف واطلاق الاسماء وبتحجير ما هو كائن. وفي وسعنا ان نلاحظ هذا الهوس الان على أنه محاولة محكومة بقضاء وقدر لثبيت وقرار ما هو في حالة تدفق مستمر حقا، ويبدو مناسباً تماماً ان ليناوس نفسه اصيب بالجنون في نهاية المطاف، فقد ادرك انه في متاهة، الا انها ليست متاهة ذات جدران وممرات متغيرة على الدوام حتى إن دارون نفسه لم يتخلص من القيود السويدية وقلما يمكن توجيه اللوم الى تشارلز بسبب الافكار التي خطرت بباله وهو يمعن النظر في الطبقات الصخرية في الجرف القائم من فوقه.

كان يعلم ان تلك المقولة سخيفة. الا انه وجد في الطبقات نظاماً يبعث على الثقة الى حد كبير في الوجود. ربما وجد رمزا اجتماعيا معاصرا جدا في الاسلوب الذي كانت تتهاوى فيه تلك السلسلة الصخرية ذات اللون الازرق والرمادي. الا ان ما شاهده حقا هو نمط من انماط تضخيم الزمن رتبت فيه القوانين القاسية (وبهذا فهي قوانين الهية رحيمة اذ من ذا الذي يجرؤ على الجدل بأن النظام لم يكن افضل شيء

(28) اللينياني: نسبة الى كارلوس ليناوس، الاسم اللاتيني لـ (كارل فون ليني) (1707-1778)،

عالم النبات والمستكشف السويدي الذي يعد اول من وضع مبادئ تحديد الاجناس والانواع الخاصة بالكائنات الحية وابتكار نظام موحد لتسميتها. اهم مؤلفاته

(Genera Plantarum-1737) (Systema Naturae-1735) (Flora Lapponica-1737)

(Species Plantarum-1753) (المترجم)

انساني؟) نفسها وعلى نحو تقليدي تماما كي يكون البقاء للاصلاح والاقوى، مثلا (تشارلز سميثسون) في هذا اليوم الربيعي اللطيف وحيد، تواق، يبحث، يفهم، يقبل، يلاحظ ويشعر بالامتنان. والشئ الذي ينقصه حقا هو حتمية انهيار سلم الطبيعة: فاذا كان في وسع انواع جديدة ان تظهر الى حيز الوجود فإن الانواع القديمة مضطرة غالبا الى فسح المجال امامها. كان تشارلز يدرك الانقراض الشخصي - ولم يكن في وسع اي فكتوري عدم ادراك ذلك. بيد ان المفهوم الذي كان يغيب عن ذهنه في ذلك اليوم هو الانقراض الجماعي مثلما كان تغيب عنه اصغر سحابة من السماء الممتدة من فوقه. لكن على الرغم من ذلك، سرعان ما امسك بمثال ملموس جدا في يده عندما استأنف مرة اخرى ارتداء جوربيه والنسيج الوقائي والحذاء.

كانت قطعة جميلة جدا من الصخور وعليها اثار من صدفة متحجرة، واضحة تماما، جزئيات صغيرة من عالم كبير، كواكب تدور، تشق طريقها فوق عشر بوصات (سنتيمترات) من الحجارة. بعد ان كتب ورقة ثبت فيها الاكتشاف ومكانه، قفز مرة اخرى خارج العلم - الى الحب هذه المرة. عزم على ان يعطيها لايرنستينا اثر عودته. فهي قطعة جميلة لا شك في انها ستحبها. وقبل هذا كله، فإنها سترجع اليه ثانية واياها. والافضل من هذا، فإن الوزن المتزايد فوق ظهره جعل منها عبئا، اضافة الى انها هدية، وهكذا رفع الواجب - الانسجام مع تيار المرحلة - رأسه العنيد.

ينطبق الشئ نفسه على الوعي بانه تحول على نحو ابطأ مما كان يرمي اليه. فتح ازرار معطفه، واخرج ساعته الفضية. الساعة الثانية! نظر وراءه نظرة حادة بعدها فشاهد الامواج وهي تضرب سفح نقطة على بعد ميل واحد. ليس هناك خطر من عزله اذ كان في مستطاعه ان يرى ممرا منحدرًا، لكنه آمن، امامه تماما ويؤدي بالجرف صوب الغابة الكثيفة الممتدة فوقه. بيد انه لم يستطع العودة على امتداد الشاطئ. فقد كانت وجهته حقا هي هذا الممر، وكان عازما على السير باتجاهه بعجالة ومن ثم الصعود الى المستويات التي تبرز منها طبقات حجارة الصوان. ولكي يعاقب نفسه على بطئه، اسرع في سيره اكثر مما ينبغي، واضطر الى الجلوس دقيقة واحدة طلبا للراحة بعد ان اخذ يتصبب عرقا من تحت قميصه التحتاني المقيت. الا انه سمع جدولا صغيرا بالقرب منه فروى ظمأه، وبلبل منديله، وربت وجهه. ثم شرع ينظر من حوله مرة اخرى.

اعرف ان هذا القلب، لم يخلق ابدا لحب طويل،
غير ان شينا يتوقد في اعماقه، غريب جدا، قلق جدا،
لا يعرف التدجين.

ماثيو ارنولد - وداع 1853

بينت السبين الاكثر وضوحا للذين دفعا سارة وودراف الى عرض نفسها امام معاينة السيدة بولتيني. الا انها كانت اخر انسان يورد الاسباب، مهما كان ذلك على نحو غريزي، اضافة الى ان هناك اسبابا كثيرة اخرى؛ في الواقع، لا بد من وجودها لأنها لم تكن تفتقر الى ادراك سمعة السيدة بولتيني في الاوساط الادنى مرتبة في بلدة لايم. وقد ظلت مترددة يوما واحدا ثم ذهبت الى السيدة تالبوت سعيا وراء مشورتها. وكانت السيدة تالبوت امرأة طيبة القلب الى حد كبير، الا انها لم تكن شابة حادة الذهن تماما. على الرغم من انها كانت تود ان تعيد سارة اليها ثانية - بل انها عرضت بتصميم كامل ان تفعل ذلك من قبل - فإنها كانت تدرك ان سارة اصبحت الان عاجزة عن الاهتمام المتواصل على مدار اليوم بمتطلباتها التي ينبغي ان تنجزها بوصفها مربية اطفال. الا انها على الرغم من ذلك كانت لا تزال ترغب في تقديم يد العون لها.

كانت تعلم ان سارة واجهت الفقر المدقع، وظلت يقظة على امتداد الليالي وهي تتخيل مشاهد من الادب الاكثر رومانسية في مراهقتها، مشاهد كانت تجثم فيها بطلات يتضورن جوعا فوق درجات ابواب مكسوة بالثلوج او تتناهن الحمى في غرفة علوية مجردة من الاثاث يرشح من سقفها الماء. بيد ان صورة واحدة - وهي صورة اعتيادية من صور القصص التي تصورها السيدة شيروود - كانت تلخص اسوأ مخاوفها: امرأة مطاردة تقفز من فوق جرف عال. ويشع وميض البرق فيكشف عن الرؤوس الوحشية لمضطهديها من فوق. الا ان اسوأ ما في الامر هو الهلع الصارخ المرتسم على وجه المخلوقة الشاحب، والتي قضى عليها والطريقة التي ارتفعت بها عباؤها الى اعلى، سوداء، واسعة، جناح غراب يهوي اثر موت رهيب.

لهذا السبب اخفت السيدة تالبوت شكوكها عن السيدة بولتيني ونصحت سارة ان تقبل العمل. فقبلت المربية السابقة بول وفرجينيا الصغيرين مودعة اياهما، وسارت عائدة الى بلدة لام امراة مدانة. لقد وثقت بحكم السيدة تالبوت، فليس في وسع اي امراة ذكية تثق باخرى غبية، بغض النظر عن مدى طيبة قلبها ان تتوقع شيئا غير ذلك.

كانت سارة ذكية حقا، غير ان ذكاءها الحقيقي ينتمي الى نوع نادر الوجود، وهو ذكاء من شأنه ان يمر حقا دون ان تكشفه اي من اختباراتنا الحديثة الخاصة بالملكات العقلية. وهو لم يكن من النمط التحليلي او الذي يفض المشاكل. مما لا ريب فيه ان الموضوع الوحيد الذي تسبب في هيمنة عذابها هو الرياضيات. كما انه لم يفصح عن نفسه بأي شكل من اشكال الحيوية او الحذق حتى في ايامها السعيدة. كان ذكاؤها عبارة عن قدرة رهيبية - رهيبية عند شخص لم تسبق له زيارة لندن ولم يختلط بالعالم - في تصنيف قيمة الناس: في فهمهم بكل ما في هذه الكلمة من معنى.

كانت تملك نمطا من معادل نفساني يشبه ما موجود في مهارة تاجر الخيول الواسع الخبرة؛ القدرة على التفريق من اول نظرة بين الجواد الجيد والجواد السيئ. او، اذا ما قفزنا قرنا واحدا الى الامام، كأنها ولدت بجهاز حاسوب في قلبها. واقول قلبها لأن القيم التي كانت تحسبها تعود الى ذلك المكان اكثر مما تعود الى العقل. كان في مستطاعها ان تدرك زيف الجدل الفارغ، الثقافة المزيفة، المنطق المنحاز عندما يصادفها. الا انها كانت تتغلغل في اعماق الناس على نحو ذكي. كانت ترى الناس على حقيقتهم، لا كما يسعون الى الظهور به من مظاهر دون ان تتمكن من تفسير ذلك شأنها في ذلك شأن الحاسوب الذي لا يستطيع ان يفسر العمليات التي يقوم بها. ولن يكون كافيا القول انها كانت حكما اخلاقيا ممتازا على الناس. فقد كان استيعابها اوسع من ذلك واذا كانت الاخلاق وحدها هي المحك لديها لما كان من شأنها ان تتصرف على النحو الذي تصرفت به - فحقيقة المسألة ببساطة هي انها لم تسكن مع احدي قريباتها في ويموث.

كان عمق البصيرة الغريزي هذا اول لعنة في حياتها. اما اللعنة الثانية فكانت ثقافتها. لم تكن ثقافة واسعة جدا، وليست افضل من الثقافة التي يمكن الحصول

عليها في فصل دراسي من الدرجة الثالثة للشابات حيث تلقت علومها في اثناء النهار ودفعت ثمن تعليمها في المساء - وأحيانا حتى وقت متأخر من الليل - برتق الملابس وغيرها من الاعمال الوضيعة. لم تكن علاقاتها طيبة مع غيرها من الطالبات اذ كنّ لا يبالين بها وكانت تطمح الى السمو من خلالها. وهكذا صادف ان قرأت من الروايات والشعر، ملاذ المتوحدين الذين لا رفيق لهم، اكثر مما قرأ اقرانها. وافادا بوصفهما البديل عن التجربة. وبلا وعي، كانت تحكم على الناس بمعايير وولتر سكوت وجين اوستن اكثر من اي معايير عملية اخرى تتوصل اليها. فكانت ترى الذين يحيطون بها شخصيات روائية فتحكم عليهم حكما شعريا. لكن واحسرتها! فالشيء الذي علمت نفسها به افسده كثيرا الشيء الذي علمه الآخرون لها. وفي ضوء مظهر السيدة الخادع الذي ظهرت به، اوضحت ضحية مثالية في مجتمع قوامه التمييز الطبقي. فقد اضطرها والدها الى الخروج من طبقتها، الا انه لم يفلح في رفعها الى الطبقة التالية. وامام شبان الطبقة التي غادرتها اصبحت امرأة ممتازة، منتقاة اكثر من اللازم لا يصح الزواج بها. اما امام شبان الطبقة التي كانت تطمح اليها، فقد ظلت امرأة عادية اكثر مما ينبغي.

كان هذا الاب على العكس مما وصفه به قس بلدة لائم بانه رجل ذو مبادئ رفيعة، اذ كان يجمع العديد من المبادئ السيئة. فلم يكن القلق على ابنته الوحيدة هو الذي دفعه الى ارسالها الى مدرسة داخلية، بل الهوس برفعة المقام. فاذا ما عاد المرء اربعة اجيال الى الوراء من جهة الاب، فانه يصل كما يبدو الى نبلاء مهذبين معترف بهم. بل هناك ثمة صلة بعيدة باسرة دريك، وهذه حقيقة لا تتصل بالموضوع، ترسخت رويدا رويدا على مدار السنين لتتحول الى الزعم بالانحدار مباشرة من السير فرانسيس العظيم. مما لا شك فيه ان الاسرة كانت تملك ذات يوم بيتا من نوع رديء في تلك الارض الباردة بين دارتمور واكسمور. وقد شاهد والد سارة ذلك البيت بأم عينيه ثلاث مرات، وعاد الى المزرعة الصغيرة التي استأجرها من مقاطعة ميريتون الشاسعة ليجلس في سكنية ويزرع ويحلم.

لعله اصيب بخيبة امل عندما قفلت ابنته راجعة من المدرسة وهي في سن الثامنة عشرة - من يدري اي معجزات ستحل عليه؟ - وجلست عند الجانب الاخر من المنضدة المصنوعة من خشب الدردار، وطفقت تراقبه عندما تفاخر

بنفسه، تراقبه بتحفظ هادئ اثاره، اثاره مثل سيد لا نفع لها - فهو رجل مولود في ديفن والمال يعني كل شيء لاهالي ديفن - اثاره حتى جن جنونه في نهاية المطاف. وتخلي عن ارضه المستأجرة، واشترى مزرعة خاصة به. اشترىها بثمن بخس، وتبين له ان الصفقة التي ظنها مذهلة انقلبت الى طامة كبرى. فظل سنوات طويلة يكافح من اجل ابقاء الرهن العقاري ومظهر المكانة الرفيعة المثير للضحك. بعد ذلك اصابه مس من الجنون حقا، وارسل الى المصحة العقلية في دورتشستر وتوفي فيها بعد سنة واحدة. وفي ذلك الوقت، كان قد مضى على سارة عام كامل وهي تكسب رزقها بنفسها؛ ففي البداية عاشت مع اسرة في دورتشستر كي تكون على مقربة من ابيها. وعندما توفي انتقلت للعمل في اسرة تالبوت.

على الرغم من الافتقار الى المهر، ايا كان نوعه، فإنها كانت فتاة لافتة للنظر على نحو يصعب معه تفسير عدم وجود من يتقدم لخطوبتها. لكن بعد ذلك تماما اخذت اللعنة الاولى والموروثة تعمل عملها. فكانت تمنع النظر في الادعاء الوثائقين اكثر مما ينبغي بانفسهم. فكانت تشاهد وضاعتهم، كياستهم التي تظهر شعورهم بالتفوق، احسانهم، حماقاتهم. وبهذا تبين على نحو يتعذر الهرب منه ان ترضخ للمقدر الوحيد الذي صرفت الطبيعة منه ملايين السنين لجعلها تتجنبه: البقاء دون زواج.

لنتخيل ما هو مستحيل، وهو ان السيدة بولتيني وضعت قائمة ادرجت فيها الحسنات والمساوي فيما يخص موضوع سارة وفي نفس اليوم الذي انهمك فيه تشارلز انهماكا بالغ الذروة في هروبه من واجبات خطوبته الشاقة. على الاقل، من الممكن التصور بانها ربما انجزتها عصر ذلك اليوم طالما ان سارة، الانسة سارة في منزل مارلبورو كانت غير موجودة.

لنبدأ بداية سارة بحساب الاعتماد. النقطة الاولى من شأنها ان تكون بلا ريب النقطة الاقل احتمالا في الوقت الذي قطع فيه العهد قبل مضي عام. ويمكن كتابتها على النحو الاتي: جو عائلي اكثر سعادة. والحقيقة المثيرة للدهشة هي ان اي خادم او خادمة لم يبعد او تبعد من البيت (من الناحية الاحصائية ثبت في الماضي صرف الخادومات في الغالب).

لقد بدا هذا التحول الغريب ذات صباح بعد اسابيع قليلة من قيام الانسة سارة باداء مهامها، اي، مسؤوليتها عن روح السيدة بولتيني. فقد اكتشفت السيدة

العجوز بحاستها المميزة الاعتيادية تقصيرا فادحا في الواجب: فقد اهملت خادمة الطابق العلوي واجبها المتمثل في ان تسقي كل يوم ثلاثاء بلا كلل نبات السرخس في غرفة الاستقبال الثانية، اذ كانت السيدة بولتيني تحتفظ بغرفة لها. وقد بدت النباتات خضراء اللون على نحو لا يتطلب سقيها. بيد ان السيدة بولتيني كانت خلاف ذلك على نحو هائج. واستدعيت المتهمة، واعترفت بأنها نسيت اداء واجبها. ربما كان في وسع السيدة بولتيني ان تغض النظر عن ذلك بتشاقل، غير ان صحيفة الاتهام الموجهة للفتاة كانت تتضمن هفوتين او ثلاث هفوات مماثلة ارتكبتها مؤخرًا. فدق ناقوس الخطر، وبدأت السيدة بولتيني تقرر هذا الناقوس واحساس متجههم بالواجب يتأبها مثلما يتأب كلب يوشك ان يغرس اسنانه في كاحلي لص؛ ساتسامح بالكثير الا انني لن اتسامح بهذا الشأن.

- لن اكرر هذا يا سيدتي!

- من المؤكد تماما انك لن تكرري ذلك في منزلي.

- اوه يا سيدتي. ارجوك يا سيدتي.

سمحت السيدة بولتيني لنفسها ان تستمتع بضع لحظات جادة وحادة بدموع الفتاة.

- ستعطيك السيدة فيرلي مرتبك.

كانت الانسة سارة حاضرة في اثناء هذه المحادثة لأن السيدة بولتيني كانت تملئ عليها رسائل موجهة في معظمها الى اساقفة او على الاقل بلهجة من يخاطب الاساقفة. وهنا طرحت سؤالاً، فكان اثره مذهلاً. اولاً، كان اول سؤال تطرحه في حضرة السيدة بولتيني وليست له اي صلة مباشرة بواجباتها. ثانياً، كان يعارض ضمناً حكم السيدة العجوز. ثالثاً، لم يكن موجهاً للسيدة بولتيني بل للفتاة.

انت على ما يرام يا ميلي؟

سواء كان الاثر ناجماً عن صوت عاطفي في تلك الغرفة او عن حالة الفتاة، فإنها روعت السيدة بولتيني اذ خرت على ركبتها وفي الوقت نفسه هزت رأسها وغطت وجهها. وعلى الفور اسرعت الانسة سارة الى جوارها. وبعد دقيقة واحدة ادركت ان الفتاة كانت متوعكة حقاً وقد اغمي عليها مرتين في الاسبوع الفائت وكانت تخشى ان تخبر احداً...

عندما رجعت الانسة سارة، بعد وقت قصير، من الحجرة التي تنام فيها الخادومات والتي رقدت فيها ميلي الان، جاء دور السيدة بولتيني لتطرح سؤالاً مثيراً.

- ماذا ينبغي لي ان افعل؟

رمقتها الانسة سارة بنظرة كانت تتضمن شيئاً جعل من كلماتها التالية مجرد تنازل في سبيل الوصول الى اتفاق.

- افعلي ما تظنين انه الافضل يا سيدتي.

وهكذا سمح لاندريه زهرة، الغفران، بموطئ قدم متقلقل في منزل مارلبورو. وعندما اتى الطبيب ليلقي نظرة على الخادمة واعلن انها مصابة بفقر الدم، اكتشفت السيدة بولتيني المتعة المنحرفة في الظهور بمظهر الشفقة الحقيقية. واعقب ذلك حادثة او حادثتين اتخذتا نفس المنحى وان لم تكونا بذلك المستوى الدرامي. انها حادثة واحدة او حادثتان لا اكثر لأن سارة اناطت بنفسها مهمة القيام باجراءات التفتيش. لقد فهمت سارة السيدة بولتيني وسرعان ما برعت في التعامل واياها مثلما يفلح كاردينال ماهر في التعامل مع بابا ضعيف، على الرغم من ان ذلك كان يهدف الى غايات اسمى.

اما النقطة الثانية الاكثر احتمالاً في قائمة السيدة بولتيني المفترضة فإن من شأنها ان تكون: «صوتها». اذا كانت السيدة تعاني من خلل في بعض القضايا الدنيوية ذات المساس بافراد طاقمها، فإنها كانت تهتم اهتماماً كبيراً برعايتهم الروحية. فكانت هناك الزيارة الالزامية المزدوجة للكنيسة في ايام الاحاد، وهناك الطقوس الصباحية اليومية - التراتيل والدرس والصلاة - التي كانت تشرف عليها السيدة العجوز اشرافاً يتسم بالغرور. اما الان فالشيء الذي بات يثيرها هو ان نظراتها المتفرسة الرهيبة نفسها لم تعد قادرة على وضع خدمها في حالة من الخنوع والندم التامين اللذين كانت تعتقد ان الله (فضلاً عنها هي شخصياً) يتطلبهما. كانت وجوههم الاعتيادية عبارة عن مزيج من الخوف من السيدة بولتيني وعدم الفهم التام - مثل خرفان مرتبكة، لا ائمين مهتدين. الا ان سارة غيرت ذلك كله.

كان صوتها بلا ريب صوتاً في منتهى الجمال، منضبطاً، واضحاً على الرغم من نبرة الحزن التي كانت تشوبه دوماً وقوة المشاعر غالباً. الا انه كان قبل كل

شيء صوتا صادقا. وشاهدت السيدة بولتيني للمرة الاولى في عالمها الصغير الجاحد
خدمها بوجوههم اليقظة تماما والورعة حقيقة.

ذلك امر حسن. الا ان هناك جولة ثانية من العبادة ينبغي انجازها. فقد سُمع
للخدم باقامة صلاة المساء في المطبخ تحت انظار السيدة فيرلي اللامبالية وصوتها
الجاف القوي. اما في الطابق العلوي فلا بد من وجود من يقرأ للسيدة بولتيني على
انفراد. وفي هذه المناسبات الموحية بالالفة والدفء كان صوت سارة يسمع وهو
في افضل حال وابلغ تأثير. وفي احدى المناسبات، او في مناسبتين اثنتين، حققت ما
لا يمكن تصديقه، اذ انتزعت من بين هاتين العينين العنيدتين دمعة. ومما لا شك فيه
ان مثل هذا الاثر لم يكن مقصودا بل نجم عن فرق شاسع بين امرأتين اثنتين:
كانت السيدة بولتيني تؤمن بالله لم يكن موجودا ابدا في حين كانت سارة تعرف
إلهها موجودا.

انها لم تبتكر في صوتها، شأن الكثير من القساوسة والوجهاء البارزين الذين
كان يطلب اليهم قراءة الدرس، عامل التغريب اللاواعي على الطراز البريختي («هذا
مقطع من الانجيل يتلوه عليكم المحافظ»)، بل ابتكرت ما هو خلاف ذلك. كانت
تحدث مباشرة عن معاناة المسيح، عن انسان ولد في الناصرة كأنه لم يكن هناك
اي زمن في التاريخ، بل غالبا في بعض الازمان، عندما كان الظلام يلف الحجرة،
وبدت وكأنها قد نسيت وجود السيدة بولتيني كأنها شاهدت معاناة المسيح امامها.
وذات يوم وصلت الى مقطع (إلهي إلهي لماذا تركتني)⁽²⁹⁾. فقرأت الكلمات
وتلعثمت وصمتت. التفت السيدة بولتيني لتلقي نظرة عليها فادركت ان وجه
سارة كانت تسيل فوقه العبرات. عوضت تلك اللحظة عن عدد لا متناه من
الصعوبات التي حدثت مؤخرا، وربما ستفدي ذات يوم روح السيدة بولتيني المعذبة
الان اذ نهضت هذه السيدة العجوز ولمست كتف الفتاة.

اني اغامر بجعل سارة تبدو مثل شخص متعصب. الا انها لم تكن تملك نظرية
لاهوتية. ومثلما كانت تبصر الناس، فإنها كانت تبصر الحماقات، الزجاج الملون

(29) المزمور (21): من سفر المزامير وهي عبارة يسوع التي صرخها بصوت عظيم قائلا:
لوهي لوهي لما شبيقتي الذي تفسيره إلهي إلهي لماذا تركتني، (انجيل مرقس للفصل 15-34).
(المترجم)

وحرفية الكنيسة الفكتورية. كانت تدرك ان هناك معاناة. وصلت من اجل ان تنتهي تلك المعاناة. انا لا استطيع ان اقول ماذا يمكن ان تكون في عصرنا. وفي عصر يسبق عصرنا، كان يمكن ان تكون قديسة او امرأة امبراطور. ويعود السبب في هذا الى الافراط في التدين من جهة او الجنس من جهة اخرى بل بسبب تلك الطاقة النادرة المنصهرة التي كانت تشكل جوهرها - الادراك والعاطفة.

ثمة نقاط اخرى: القدرة في عدم اثاره السيدة بولتيني - وهي قدرة مذهلة بخصيصتها وفريدة تقريبا - وتحمل المسؤوليات البيتية المختلفة بهدوء دون ان تتجاوز على غيرها، ومهارتها في اشغال الابرّة.

اهدت سارة السيدة بولتيني غطاء لظهر الكرسي وذراعيه لمناسبة ذكرى ميلادها - ولم يكن سبب ذلك ان اي من الكراسي التي كانت تستخدمها السيدة بولتيني كان بحاجة الى مثل هذه الوقاية، بل لأن الكرسي في ذلك الوقت كانت تبدو شبه عارية دون مثل هذا الملحق - وكان هذا الغطاء مطرزا تطريزا متقنا ويحتوي على حاشية تمثل نبات السرخس وزنابق الوادي. فسرت السيدة بولتيني بها سرورا عظيما، وكان يذكر السيدة الرهيبة دوما وسرا - ربما كانت سارة قبل كل شيء اشبه بكاردينال ماهر - وفي كل مرة تتربع على عرشها بالجانب الذي يمكن غفرانه في الفتاة التي تحميها. وكان اثر هذا في سارة يشبه الاثر الذي كان يحدثه دوما طائر الحبارى الفاني في تشارلز.

اخيرا اجتازت سارة اختبار الكراسة الدينية - وكان هذا اقصى عذاب عند الضحية. فقد كانت السيدة بولتيني تعتمد اعتمادا كبيرا على قوة الكراسة الدينية شأنها في ذلك شأن الكثير من الارامل النبيلات الفكتوريات والوحيديات. ولا بأس ان كان عشر الذين يستلمونها يستطيعون قراءتها - في الواقع ان عددا كبيرا لا يستطيع قراءتها - ولا بأس ان كان عشر هؤلاء الذين يستطيعون قراءتها حقا يفهمون ما يقصده كتابها الجليلون. لكن في كل مرة كانت تذهب لتسليم دفعة من هذه الكراسات فإن السيدة بولتيني كانت ترى عددا موازيا لها من النفوس الناجية من الخطيئة وقد سجلت لحسابها في السماء. وكانت ترى في التفكير العلني الذي تقوم به امرأة الضابط الفرنسي حلاوة اضافية. وهكذا كان شأن بقية سكان بلدة لايم او سكانها الفقراء، وكانوا اكثر لطفا مما قد تتصوره السيدة بولتيني.

ابتكرت سارة صيغة صغيرة: «من السيدة بولتيني. نرجو القراءة والتفكير الجاد». وفي الوقت نفسه، كانت تنظر الى عيون سكان البيوت البسيطة نظرة متفرسة. فالذين كانت تعلق وجوههم ابتسامة العارفين بامرها اضاعوا تلك الكراسيات بينما ماتت الكلمات في افواه الثرثارين. واظن انهم تعلموا من هاتين العينين اكثر من الكراسيات المطبوعة باحرف متراصة دقيقة، التي كانت تحشر في ايديهم.

ينبغي لنا الان ان ننتقل الى نقطة الضعف في هذه العلاقة. واول نقطة ستكون بلا ريب: «انها تخرج بمفردها». كانت الترتيبات الاولى تقضي ان تتمتع الانسة سارة بوقت فراغ في عصر يوم واحد من كل اسبوع، وكان هذا يعد من السيدة بولتيني اكثر من اعتراف كبير بمكانتها الرفع مقارنة بمكانة الخادومات. كما انه كان من مقتضيات توزيع الكراسيات. الا ان القس كان قد اشار بذلك. وبدا ان الامور تسير على ما يرام مدة شهرين اثنين. وذات صباح، لم تحضر الانسة سارة الى صلاة الصبح في منزل مارلبورو. وعندما ارسلت الخادمة للبحث عنها تبين انها لم تستيقظ، فذهبت السيدة بولتيني لرؤيتها. كانت سارة غارقة في البكاء مرة اخرى، الا ان السيدة بولتيني لم تشعر الا بالانزعاج في هذه المرة. على اي حال، ارسلت في طلب الطبيب، فمكث مدة طويلة وحده في صحبة سارة. وعندما هبط ليرى السيدة بولتيني نافذة الصبر، القى عليها محاضرة قصيرة عن مرض الاكتئاب - كان رجلا سابقا لزمانه ومكانه - وامرها ان تسمح للخاطئة ان تنشق هواء منعشا اكثر وان تتمتع بحرية اكبر.

- هذا اذا كنت مصرا على تلك الضرورة الملحة.
- انني اصبر يا سيدتي العزيزة، واؤكد ذلك، ولن اكون مسؤولا خلاف ذلك.

- انه امر غير مناسب.
- بيد ان الطبيب لفه صمت قاس.
- سأستغني عنها عصرين اثنين.

لم يكن الطبيب غروغان يعتمد ماليا اعتمادا كبيرا على السيدة بولتيني، على العكس من القس. واذا شئت الصراحة، ما من شهادة وفاة في بلدة لايم من شأنه

ان يوقع عليها بحزن اقل من شهادة وفاتها. غير انه تمالك سوء طبعه مذكرا اياها بأن تنام عصر كل يوم بناء على اوامره الصارمة. وهكذا حصلت سارة على حرية جزئية كل يوم.

كانت نقطة الضعف التالية هي «الا تكون موجودة في حضرة الزوار». وهنا وجدت السيدة بولتيني نفسها في معضلة لا تطاق حقا. فقد كانت ترغب في ان يبدو احسانها امام الآخرين وهذا يعني حتمية ان يشاهد الآخرون سارة. الا ان ذلك الوجه يلحق اكبر الاثار الضارة في الضيوف. فالحزن البادي عليه يوجه اللوم والتأنيب، وتدخله النادر جدا في الحديث - الذي يتطلبه اساسا سؤال سابق ما فيستوجب الرد (عرف الزوار الاذكياء الذين يترددون كثيرا على المنزل وعلى الفور كيف يجعلون تعابيرهم المؤدبة حول السكرتيرة - الرفيقة بلاغية على ما يبدو في طبيعتها وفي محتواها) - كانت له صفة حاسمة تثير القلق فيما بينهم ليس من خلال اي رغبة من طرف سارة في القضاء على الموضوع بل بسبب اضعاف البساطة او الفطرة اضعاف بريئا على بعض المسائل التي كانت تظهر في الصفات المعاكسة. وهنا كانت تلوح امام السيدة بولتيني في هذا الاطار مثل احد الاشخاص فوق مشنقة تذكرتها على نحو واهن من ايام شبابها.

اظهرت سارة حنكتها ثانية، اذ كانت تبقى حاضرة عند وجود بعض الزوار القدامى. اما في اثناء حضور بقية الزوار، فكانت تنسحب اثر الدقائق القليلة الاولى، او تتوارى عن الانظار حينما يعلن عن وصولهم وقبل دخولهم مباشرة. هذا هو السبب الذي فسر عدم مشاهدة ايرنستينا لها في منزل مارلبورو. وقد سمح هذا على الاقل للسيدة بولتيني ان تسهب في الحديث عن المحنة التي اضطرت الى تحملها على الرغم من ان غياب المحنة او زوالها كان يوحى بفشل محدد في قدرتها على تحملها، وهي محنة مرهقة في الغالب. على اي حال لا يمكن القاء الذنب على سارة الا نادرا.

بيد انني تركي اسوأ نقطة حتى النهاية، وهي: «لا تزال تظهر ما يوحى بارتباطها بمن غرر بها».

بذلت السيدة بولتيني محاولات كثيرة لانتزاع تفاصيل الخطيئة ودرجة تكفيرها الحالية منها. فاي امرأة ارفع منزلة، ما كانت ترغب في سماع شيء اكثر من

اعتراف خاطئة من بنات جنسها. الا ان سارة كانت حساسة مثل شقائق البحر في هذه القضية. ومهما لاح الاسلوب الذي تقترب فيه السيدة بولتيني من الموضوع اسلوبا غير مباشر، فإن الخاطئة كانت تخمن ما الذي سيحدث. وكانت اجاباتها عن الاسئلة المباشرة متشابهة دوما في فحواها، ان لم تكن في كلماتها الحقيقية، مثل الاجابات التي قدمتها في اول تحقيق يجري لها.

لما كانت السيدة بولتيني قلما تغادر منزلها ولا تغادره ابدا سيرا على الاقدام، بل في عربة تنقلها الى بيوت من هم في مكانتها، فانه كان ينبغي لها ان تعتمد على غيرها في نقل اخبار نشاطات سارة التي تقوم بها خارج منزلها. ولحسن حظها فإن مثل هاتين العينين موجودتان. والافضل من ذلك، فإن العقل الكامن وراء تلك العينين كان عقلا يوجهه الحقد والازدراء، ولهذا كان سعيدا في نقل التقارير المتواترة الى السيدة العنيدة. طبيعي ان هذا الجاسوس لم يكن سوى السيدة فيرلي. فعلى الرغم من انها لم تكن تجدد اي لذة في القراءة، الا انه ساءها ان تنزل مرتبتها. وعلى الرغم من ان الانسة سارة كانت مؤدبة، ونزيهة معها، وبذلت عنايتها في الا تبدو بمظهر من يستحوذ على مهامها في ادارة شؤون البيت فإن صراعا ما كان موجودا حتما؟ فلم تكن السيدة فيرلي مسرورة لأنها كانت تقوم بواجبات اقل وهذا يعني ان تأثيرها اقل. وكان انقاذ سارة لاميلى - وغير ذلك من التدخلات الحكيمة - جعلها تحظى بشعبية واحترام في الطابق السفلي. وكان غضب السيدة فيرلي الشديد يتمثل في عدم استطاعتها الحديث بسوء عن السكرتيرة - الرفيقة امام التابعين لها. كانت امرأة شديدة الحساسية، امرأة تكمن لذاتها الوحيدة في معرفة الاسوأ وخشية الاسوأ. وبهذا نمت كراهية ضد سارة نموا بطيئا، قاسيا في شدته.

كانت امرأة ماهرة بلغت من الدهاء حدا لم تخفه عن السيدة بولتيني. بل انها تظاهرت بالاسى الشديد لحال «الانسة وودراف المسكينة» وكانت تقاريرها مدبجة بكلمات من مثل اخشى واخاف الا انها كانت تملك فرصا عظيمة للقيام باعمال التجسس، لا لأنها كانت هي نفسها ترتاد البلدة غالبا بحكم ادائها واجباتها حسب، بل لأنها كانت تملك شبكة من الاقارب والاصدقاء تحت تصرفها. وقد اشارت لهؤلاء الاصدقاء بأن السيدة بولتيني تواقفة لأن تعرف - ولاسباب دينية لا

غير - عن سلوك الانسة وودراف خارج الاسوار الحجرية الشاهقة التي تحيط
بحدائق منزل مارلبورو. وكانت ثمرة ذلك ان كل حركة وإيماءة من سارة في
ساعات فراغها كانت تنقل الى السيدة فيرلي بعد ان يبالغ فيها على نحو غامض
وتفسر تفسيراً محرفاً، اذ كانت بلدة لام ريجيس انذاك، مثلما هي الان، بلدة
تكتنفها الاقاول مثلما تكتنف اليرقات برميلا من الجبن.

كان نموذج حركاتها الخارجية - عندما كانت تعفى من قراءة الكراسات - في
منتهى البساطة؛ فقد كانت تتبع الطريق نفسه دوماً عصراً، فتسير في شارع باوند ومن
ثم تدلف الى شارع برود المنحدر حتى تصل الى بوابة كوب وهي عبارة عن شقة من
الارض شبه مستوية تطل على البحر ولا صلة لها بجدار الكوب. وكانت تقف هناك
الى جوار الجدار، وتمعن النظر في البحر مدة ليست طويلة عموماً - مدة ليست اطول
من المدة التي يستغرقها قبطان سفينة في اعطاء التخمين الدقيق عندما يظهر فوق الجسر
- قبل ان تتجه صوب كوكمويل او الى الجهة الاخرى، الى الغرب، فتسير في ممر يبلغ
طوله نصف ميل، ويدور من حول خليج لطيف يؤدي الى الكوب تماماً. فاذا ما
سارت صوب كوكمويل فإنها في غالب الاحوال ستذهب الى الكنيسة وتصلي بضع
دقائق (وهي حقيقة جدية بالذكر لم تعدها السيدة فيرلي) قبل ان تدخل الزقاق المجاور
للكنيسة المؤدي الى مرج جروف الكنيسة. وكان ذلك العشب يرتفع باتجاه سور
بلاك فن. فوق هذه الارض المعشوشبة، كان يمكن مشاهدتها وهي تتجول وتلتفت
مراراً الى البحر، الى النقطة التي يلتقي فيها الممر بالطريق القدم المؤدي الى تشارماوث
الذي تأكل واصبح جزءاً من بلاك فن وعندئذ تعود ادراجها الى بلدة لام. وكان من
شأنها ان تقوم بهذه الجولة عندما يبدو الكوب مزدحماً، لكن عندما كان يحيله الطقس
او الظروف الى مكان مهجور فإنها كانت في الاغلب تسلك ذلك الطريق، وينتهي بها
المطاف الى الوقوف حيث شاهدها تشارلز اول مرة. وفي ذلك المكان كانت تشعر،
على ما يفترض، انها اقرب ما تكون الى فرنسا.

كانت هذه الامور كلها تنقل الى السيدة بولتيني على نحو مشوه وشائن، الا
انها كانت انذاك تعيش اولا متعة امتلاك لعبتها الجديدة وكانت ميالة الى اتخاذ
المواقف العدائية المنسجمة وطبعها الفاسد النازع الى الشك والارتياب. وعلى
الرغم من ذلك، فإنها لم تتردد في تقريع اللعبة.

- لقد أخبرت يا انسة وودراف بانك تشاهدين دوما في نفس الاماكن لدى خروجك.

خفضت سارة من بصرها امام العينين المنطويتين على الاتهام.

- انك تراقبين البحر.

غير ان سارة ظلت ملتزمة بالصمت.

- انني راضية لانك في حالة توبة. في الواقع، انني لا استطيع ان اصدق ان تكوني غير ذلك في ظل ظروفك الراهنة.

اخذت سارة دورها.

- انني اشعر بالامتنان يا سيدتي.

- لست مهتمة بموضوع امتنانك لي. فهناك الواحد العلي الذي يستحق اولا ذلك.

همست الفتاة.

- كيف انني لم اعرف ذلك؟

- قد يبدو للشخص الجاهل انك مستمرة في خطيئتك.

- لو عرفوا قصتي يا سيدتي فلن يفكروا على ذلك النحو.

- لكنهم يعتقدون ذلك حقا. لقد اخبرت بانهم يقولون بانك تبحثين عن اشعة الشيطان.

نهضت سارة بعد ذلك، واتجهت صوب النافذة. كان الوقت بداية الصيف امتزج اريج زهو الليلك بشدو الشحارير. امعنت النظر قليلا في ذلك البحر الذي طلب اليها ان تنكر نفسها عليه، ثم استدارت صوب السيدة العجوز التي تربعت فوق كرسيها على نحو لا سبيل الى تهدئتها مثل ملكة استوت على عرشها.

- اترغبين في ان انصرف يا سيدتي؟

صعقت السيدة بولتيني في اعماقها. ها هي بساطة سارة مرة اخرى تنتزع كل كسراهيتهما المتأججة. كذلك صوحتها وعوامل سحرها الاخرى التي اصبحت مدمنة عليها! الاسوأ من ذلك، فإنها قد تنبذ الفائدة المتنامية لها على تلك الجسور المقدسة. لهذا خففت من حدة لهجتها.

- اريد منك ان تبيني ان هذا الشخص قد خرج من قلبك. انا اعلم انه قد خرج. لكن يجب ان تظهرني ذلك.
- كيف لي ان اظهر ذلك.

- بالتجول في اماكن اخرى. بالا تظهرني عارك. واذا لم يكن هناك اي سبب يدعو الى ذلك، فليكن بناء على طلبني.

انتصبت سارة محنية الرأس في حين ران الصمت. وبعد ذلك تفرست في عيني السيدة بولتيني، وابتسمت ابتسامة باهتة اول مرة منذ وصولها.

- سافعل ما ترغبين فيه يا سيدتي.

كانت هذه تضحية مأكرة، اذا شئنا ان نعبر عنها بمصطلحات لعبة الشطرنج لأن السيدة بولتيني استمرت في القول بانها لا تريد ان تنكر عليها تماما فوائد نسيم البحر وان في وسعها ان تتجول قرب البحر في بعض الاحيان، لا في كل الاحيان. «وارجو الا تقفي هناك وتواصلني النظر».

باختصار كانت صفقة عقدت بين هاجسين. فقد كان عرض سارة مغادرة المنزل دافعا كي ترى كل منهما الحقيقة بمنظارين مختلفين.

التزمت سارة بالجانب الخاص بها من الصفقة، او على الاقل، ذلك الجانب الذي يخص خط جولاتها. فلم تعد تذهب الى الكوب الا فيما ندر الان على الرغم من انها في اثناء ذهابها كانت لا تزال تسمح لنفسها بالوقوف وامعان النظر كما حدث في ذلك اليوم الذي اتينا على وصفه. على اي حال، ان الريف الذي يحيط ببلدة لايم يحفل بالاماكن المعدة للمشبي. والقليل منها لا يطل على البحر. واذا كان هذا كل ما تتوق اليه سارة، فما عليها سوى التجول فوق العشب في منزل مارلبورو.

مرت السيدة فيرلي اثر ذلك بفترة بائسة استمرت شهورا كثيرة. فلم تحذف مناسبة واحدة حدث فيها التوقف والتفرس. الا ان هذه المناسبات لم تكن كثيرة. واستطاعت سارة في ذلك الوقت ان تكتسب نوعا من سطوة العذاب على السيدة بولتيني جنبها اي نقد حاد. فقبل كل شيء، كانت المأساة المسكينة مجنونة، وهو ما كنت الجاسوسة والسيدة تذكران بعضهما بعضا به.

مما لا ريب فيه انك خمنت الحقيقة: انها اقل جنونا مما كانت تبدو عليه... او على الاقل، ليست مجنونة على النحو الشائع عموما. اذ كان الكشف عن عارها

يهدف الى تحقيق غرض ما. والناس الذين لديهم اهداف يعرفون متى يتحقق الهدف على نحو مرض ويمكن السماح لهم بالخلود الى السكينة فترة وجيزة. لكن في يوم ما، قبل اقل من اسبوعين من بدء قصتي، كانت السيدة فيرلي قد جاءت الى السيدة بولتيني ووجها يكاد يصرح بموت صديق قريب. - لدي خبر لا يبعث على السرور اود الافصاح عنه يا سيدتي. كانت هذه العبارة قد اوضحت مألوفة للسيدة بولتيني مثل دوامة عاصفة لصياد سمك. الا انها تقيدت بالاتفاق.

- الا يخص الامر الانسة وودراف؟

- اتمنى الا يخصها يا سيدتي.

تفرست مدبرة المنزل على نحو هادئ في سيدتها.

- الا انني اخشى ان الواجب يدفعني الى ضرورة اخبارك.

- ينبغي الا نخشى ما هو واجبنا ابدا.

- ابدا يا سيدتي.

على الرغم من ذلك، ظل فمها مطبقا. وربما كان في وسع طرف ثالث ان يتساءل عن الاهوال التي يمكن ان تنجم عن ذلك. ولم يكن من شأن منظر افعى تتلوى فوق المذبح في الكنيسة ان يبدو ملائما اكثر.

- لقد اخذت تتجول في وير كومونز يا سيدتي.

يا له من هبوط مفاجئ من الذروة! الا ان السيدة بولتيني بدت غير مقتنعة بذلك. بل ان فمها بان على نحو غريب وقد تدلى تماما.

مرة واحدة، مرة واحدة لا غير، رفعت عينيها
وفجأة احمرت خجلا على نحو عذب، غريب
لتجد انهما التقنا بعيني...

تينيسون - مود 1855

... بما فيها من شقوق خضر بين الصخور الرومانسية، حيث تعلن
اشجار الغابات المتناثرة والبساتين العامرة ان اجيالا كثيرة لا بد قد
قضت نحبها منذ ان هيا انهيار الجرف الجزئي الاول الارض لمثل هذه
الحالة، حيث يشاهد مثل هذا المنظر البالغ الروعة الذي لا يشبه اي
مشاهد مماثلة في جزيرة وايت الشهيرة.

جين اوستن - الاقناع

يمتد بين بلدة لاييم ريجيس واكسماوث التي تبعد عنها ستة اميال الى جهة
الغرب واحد من اغرب المناظر الساحلية في جنوب انكلترا. ولا يلفت هذا المنظر
النظر من الجو، اذ يلاحظ المرء انه في حين تمتد الحقول حتى حافة الجرف في اي
بقعة اخرى على الساحل، فإنها تتوقف هنا على مسافة ميل واحد منها او ما
يقرب من ذلك. فقطعة الارض المزروعة ذات اللونين الاخضر والبني المحمر
تتحول بنظام بهيج الى سلسلة مظلمة من اشجار واعشاب، ليست هناك اي
سطوح ولو ان شخصا خلق على نحو منخفض بما فيه الكفاية فإن في ميسوره
ان يلاحظ بأن التضاريس غير متوقعة، تقطعها شقوق عميقة تؤكد الجروف
الغريبة وابراج الجير والصوان التي تهيمن على اوراق النباتات الياقة من حولها
مثل اسوار قلاع مهدمة. هذا من الجو... اما على القدمين فإن هذه البراري التي
تبدو عديمة الاهمية، تكتسب امتدادا غريبا. فقد حدث ان تاه اناس فيها ساعات
طويلة، ولا يستطيعون ان يصدقوا - بعد ان يروا على الخارطة المكان الذي
تاهوا فيه ان احساسهم بالعزلة - والأسى ان كان الجو سيئا - يمكن ان يبدو
بتلك الدرجة من الشدة.

والجرف شديد الانحدار لأن هذه البقعة من الأرض عبارة عن منحدر يبلغ طوله ميلا واحدا أحدثته عمليات التآكل في وجه الجرف العمودي القلسم. ان الاماكن المستوية نادرة شأنها شأن الزوار الذين يفدون اليها. بيد ان هذا الانحدار يميل بها ونباتاتها في النتيجة الى جهة الشمس، وهذه الحقيقة، مضاف اليها الماء المتدفق من ينابيع لا تعد ولا تحصى والمتسبب في عملية التآكل، اضفت على المنطقة غرابتها النباتية - فاشجار القطلب البرية والبلوط الاخضر وغيرها من الاشجار نادرا ما تشاهد نامية في انكلترا، كذلك شأن اشجار الدردار والزان العظيمة، الصدوع البرازيلية الخضراء اللون التي تحتشد بالبلاب والنباتات المعترشة للياسمين البري، نباتات السرخس التي يبلغ ارتفاعها سبعة او ثمانية اقدام، ازهارها التي تفتح قبل اي منطقة اخرى في المقاطعة بشهر. وفي فصل الصيف، تستطيع هذه المنطقة الريفية ان توفر ما يشبه الاحراش الاستوائية. كما ان هذه المنطقة، شأنها شأن اي منطقة لم يعيش فيها الانسان او يسعى الى تطويرها، تمتلك اسرارها، ظلالها، مخاطرها، وهي بسيطة اكثر مما ينبغي من الجانب الجيولوجي لأن هناك شقوقا ومنحدرات فجائية يمكن ان تتسبب في حدوث كارثة، وفي اماكن يصيح فيها انسان مكسور الساق باعلى صوته اسبوعا كاملا ولا يسمعه احد. ومما يبدو غريبا، ان هذه المنطقة كانت اقل وحشة مما هي عليه الان قبل مئة عام. اذ لا يوجد اليوم اي كوخ تحت الجرف. في حين كان هناك البعض منها في عام 1867 وكان يقطنها حراس الطرائد وسكان الغابات وقطيع او قطيعان من الخنازير. اما اناث الظبي الاحمر فلا بد انها مرت بايام اقل سكونا بعد ان كانت واثقة من توفر العزلة التامة. اما الان فقد بات الجزء السفلي من الجرف مقفرا تماما، اذ تداعت جدران الكوخ واصبحت بقايا يعلوها اللباب في حين توارت عن الانظار ممرات الاغصان القديمة. وليس ثمة طريق خاص بالسيارات قريبا منه، اما الطريق الوحيد الباقي الذي يقطعه فهو غير سالك في الغالب. وقد جرى ذلك بسبب اجراء من البرلمان: حفظ الطبيعة على المستوى القومي. لم يضع كل شيء لمصلحة ذاتية.

فالى هذا المكان، الذي يعد جنة عدن انكليزية في مثل هذا اليوم التاسع والعشرين من شهر اذار/مارس عام 1867، دخل تشارلز عندما ارتقى الممر القادم

مسن الشاطئ عند خليج بينهاي. كما ان هذا المكان نفسه هو الذي كان النصف الشرقي منه يدعى وير كومونز.

عندما روى تشارلز ظمأه ورطب حاجبيه بمنديله المبلل، شرع ينظر حوله نظرة جادة. او على الاقل، حاول ان ينظر حوله نظرة جادة، غير ان المنحدر الصغير الذي وجد نفسه فيه، والاحتمالات الجائزة امامه، الاصوات، الاريج، النمو الطبيعي الذي لا تشوبه شائبة، والخصب الوفير، اضطرته الى مناهضة العلم. كانت الارض القريبة منه تنتشر فيها زهور الربيع الصفرة والذهبية ويحاذيها البرقوق الابيض المتفتح في كل مكان. وكانت هناك مجاميع من نباتات الحمّاض والمسك، وهي ارق زهور الربيع الانكليزية، في نفس البقعة التي كانت فيها اشجار البلسان ذات القمم الخضر تظلل الضفتين المكسوتين بالطحلب لذلك الجدول الصغير الذي ارتوى منه. والى الجزء الاعلى من المنحدر، شاهد الرؤوس البيض للشقائق، والى الورا منها كانت ثمة اكوام ذات لون اخضر غامق من اوراق نباتات ذات زهرات زرقاء اللون شبيهة بالاجراس. وفي مكان بعيد، سمع صوت الطائر النكار وهو ينقر في اغصان شجرة عالية في حين سمع من فوق رأسه صفير عصفور الدغناش المفرد. كما كانت طيور مفردة اخرى وصلت مؤخرا تشدو فوق كل شجرة وفي كل دغل. وعندما استدار شاهد البحر الازرق الذي يندفع بعيدا من تحته، وخليج لايم برمته وقد اكمل استدارته، والجروف المستدقة التي كانت تنحدر في القوس الاصفر لضفة شيزل اللامتناهية التي كانت حافتها البعيدة تلامس جبل طارق الانكليزي الغريب المعروف ببورتلاند بيل، وهو عبارة عن ظل رمادي خفيف محشور تحت السماء الصافية.

لقد استطاع فن واحد لا غير من الامساك بمثل هذه المناظر - الا وهو فن النهضة. فكانت الارضية التي تتجول فيها شخوص بوتيشيلي⁽³⁰⁾، الهواء الذي يحيط بأغاني رونسار⁽³¹⁾. لا يهم ماذا كانت اهداف ومقاصد وعي الثورة الثقافي، او فظائعه او اخفاقاته. كانت النهضة في جوهرها النهاية الخضراء لواحد من اقصى

(30) ساندرو بوتيشيلي (1445-1510) رسام ايطالي من مواليد فلورنسا. (المترجم)

(31) بيير دو رونسار (1524-1585) شاعر فرنسي يعد احد اعظم شعراء عصر النهضة الفرنسية واغزرهم انتاجا. (المترجم)

شتاءات المدنية، كانت نهاية السلاسل والقيود والحدود. ووسيلتها واحدة لا تتغير: الموجود هو الجيد. باختصار، كانت تتصف بكل الصفات التي لم يكن يتصف بها عصر تشارلز، لكن لا تظن انه لم يكن يدرك ذلك وهو واقف في مكانه. صحيح انه عند تفسيره مشاعره الغامضة الخاصة بالقلق، اللا انسجام، الحدود، كان يقترب من روسو والاساطير الطفولية عن العصر الذهبي والبدائي النبيل. اي، انه حاول ان ينبذ عدم ملائمة مقترب عصره الى الطبيعة بالافتراض ان المرء ليس في استطاعته ان يدخل ثانية في الاسطورة. وقال لنفسه انه مدلل اكثر مما ينبغي بفعل المدنية وليس في استطاعته بعد الان ان يقطن في الاماكن الطبيعية ثانية، وقد جعله هذا الامر حزيناً على نحو ممتع مشوب بالأسلم. فهو فكتوري رغم كل ذلك. وليس في وسعنا ان نتوقع منه ان يشاهد ما بدأنا نورا بادراكه - وبمساعدة معرفة اكبر ودروس اكثر في الفلسفة الوجودية المتوفرة لدينا - وهو ان الرغبة في الاستحواذ والرغبة في المتعة رغبتان مدمرتان معا. وكان ينبغي لكلامه الى نفسه ان يكون: «انا امالك هذا الان، فانا سعيد اذا». بدلا من العبارة الفكتورية المألوفة: «لا استطيع ان امالك هذا الى الابد فانا حزين اذا».

استعاد العلم هيمنته ثانية في اخر الامر، وبدأ تشارلز يبحث بين طبقات الصوان المنتشرة على امتداد مجرى الجدول عن اختباراته. فشر على قطعة صغيرة من محار محوري الشكل متحجر، بيد ان قنفاذ البحر فاتته ملاحظتها فتوغل داخل الاشجار رويدا رويدا الى جهة الغرب، كان ينحني ويتفحص الارض فحفا متأنيا بعينه ويتحرك بضع خطوات الى الامام، ثم يستأنف نفس العمل. وبين وقت واخر، كان يقلب ما يبدو انه قطعة من الصوان بطرف عصاه. الا انه لم يكن محظوظا. مرت ساعة، وبدأ واجبه ازاء ايرنستينا يثقل عليه شهوته للقنفاذ. نظر الى ساعته، وكنتم لعنة كاد ان يتفوه بها، ثم قفل راجعا الى المكان الذي ترك فيه حقيبته. وفي جزء اعلى من المنحدر، وجد امامه طريقا، فسار فيه منطلقا صوب بلدة لام والشمس الغاربة من ورائه. كان هذا الطريق يتجه وينحني قليلا الى الداخل على مقربة من سور حجري نما عليه اللبلاب، ثم يتشعب دون علامة الى العديد من الشعب على نحو لا يرحم. تردد اول الامر، ثم سار مسافة خمسين ياردة او ما يقرب من ذلك (45 مترا) على امتداد الطريق الادنى الذي كان يغور في

اخذود مستعرض، وتظلل الظلال الكثيفة. غير انه توصل الى حل لمعضلته - لا يدري تماما كيف هي الارض من امامه - اذ ان ممرا اخر تفرع فجأة عن يمينه عائدا الى البحر ثانية من فوق منحدر صغير تعلوه الاعشاب ومن هناك يستطيع ان يحدد وجهته تحديدا واضحا. لهذا اندفع الى اعلى يشق طريقه بين العليق - اذ كان الممر غير سالك تقريبا - ووجهته السهل الاخضر الصغير.

انفتح الطريق من امامه على نحو مستساغ مثل مرج صغير من مروج الالب، بينما اتضح من خلال الاذنان البيض لثلاثة او اربعة ارانب سبب قصر العشب. انتصب تشارلز تحت نور الشمس. كانت نباتات رجل الطير تزين العشب في حين اوشكت مجموعة خضراء زاهية اللون من نبات السمسق على التفتح. وهنا تقدم تشارلز نحو حافة السهل. وهناك شاهد شخصا ما من تحته.

مرت به لحظة رهيبة، ظن فيها انه عثر على جثة. لكن الجثة لم تكن سوى امرأة نائمة. لقد اختارت اغرب بقعة من الارض وهي عبارة عن رف عريض منحدر من العشب يمتد مسافة خمسة اقدام (1.5 متر) تحت مستوى سطح السهل، ويخفيها عن رؤية اي شخص لها الا اذا وصل الحافة نفسها كما هو شأن تشارلز. كانت الجدران الطباشيرية من وراء هذه الشرفة الطبيعية الصغيرة قد جعلت من المكان مأوى للشمس، لأن اعرض محور فيه كان يشير الى الجنوب الغربي. الا انه ليس مأوى يفضل اختياره الكثيرون، اذ كانت حافته الخارجية تطل على منحدر يصل الى ثلاثين او اربعين قدما وسط كتلة متشابكة بشعة من العليق. وقليل الى الوراء منها كان الجرف الحقيقي يطل على البحر تماما.

كان احساس تشارلز الاي يتمثل في التراجع عن مشهد المرأة. لكنه لم يعرف من هي. فوقف حائرا لا يدري ما يفعل وهو ينظر الى طبيعة المشهد الأسر دون ان يدركه. تردد، واوشك ان ينصرف، الا ان حب الفضول عنده دفعه الى الامام ثانية.

كانت الفتاة مستلقية على ظهرها، مستسلمة استسلاما تاما لنوم عميق. وكان معطفها مفتوحا يكشف عن ثوب نيلي لا يخفف من وطأة قسوته سوى ياقة بيضاء صغيرة عند الرقبة. كان وجه النائمة مائلا الى الجهة الاخرى منه في حين

كان ذراعها الايمن متدليا الى جهة الخلف وقد مال على نحو طفولي. وثمة مجموعة متفرقة من الشقائق فوق العشب المحيط به. كانت الطريقة التي استلقت بها تنطوي على رقة شديدة لا تخلو من ايجاءات جنسية، فايقظت صدى باهتا في تشارلز عن لحظة من لحظات وجوده في باريس. فتاة اخرى، لا يستطيع الان ان يتذكر اسمها، ربما لم يعرفه البتة، شوهدت مستلقية ذات فجر في حجرة نوم تطل على نهر السين.

سار حول حافة السهل المقوسة حيث يتمكن من رؤية وجه النائمة على نحو افضل. وعند ذاك فقط ادرك هوية المرأة التي تطفل عليها. انها امرأة الضابط الفرنسي. كان جزء من شعرها مسدلا يكاد يغطي نصف خدها، وكان يبدو عندما شاهدها عند الكوب بنيا غامقا. اما الان فتشوبه صبغة حمراء، ودفعه شديد، ويخلو من البريق الضروري انذاك الذي يكسبه زيت الشعر النسائي. اما البشرة من تحته فكانت سمراء تماما، ضاربة الى الحمرة تقريبا، في تلك الاشعة، كانت الفتاة تهم بالصحة اكثر من اهتمامها بالوجه الشاحب ذي الوجنتين الواهنتين. انف بارز، حاجبان كثيفان... اما الفم فلم يستطع ان يتبينه. واستاء على نحو غريب لأنه مضطر لمشاهدتها على نحو مقلوب لأن طبيعة الارض لم تسمح له بالالتفاف ورؤيتها من زاوية مناسبة.

وقف في مكانه عاجزا عن فعل اي شيء سوى التفرس فيها، منتشيا بهذا اللقاء غير المتوقع وقد غلبته مشاعر غريبة ايضا - مشاعر ليست جنسية، بل اخوية، ربما ابوية، اليقين من براءة هذه المخلوقة، من نبذها ظلما من المجتمع، وكان هذا يعد عاملا من عوامل حدسه بوحدة المروعة. فعلاوة على اليأس، لم يكن قادرا على تصور الشيء الذي يدفعها الى هذا المكان القفر في عصر كانت فيه النساء مستقرات تقريبا في بيوتهن، مستسلمات، عاجزات عن بذل الجهد الجسماني المتواصل.

في نهاية الامر وصل الى حافة السور الواقية من فوقها، والمهيمن على وجهها تماما. وهنا رأى ان الحزن الذي سبق له ان لاحظته قد تلاشى. كان وجهها وهي نائمة رقيقا، ربما يشوبه شبح ابتسامة. وفي تلك اللحظة تماما، وفي حين كانت يتمايل الى الجانبين وهو يحاول ان يهبط الى اسفل، استيقظت من نومها.

نظرت الى الاعلى على الفور، نظرت نظرة سريعة، فكانت محاولته التراجع الى الخلف لا طائل من ورائها. لقد اكتشف امره، وكان سيدا مهذبا لا سبيل لديه الى انكار فعلته. لهذا رفع قبعته، وانحنى عندما نهضت سارة على قدميها وجلة مذعورة، وعدلت من معطفها، وأمعنت النظر فيه من مكانها. لم تقل شيئا بل سمرته في مكانه بنظرة رعب وذهول، ربما لم تكن تخلو من الاحساس بالحنج. كانت لها عينان جميلتان، عينان سوداوان.

مكثا واقفين على تلك الحالة بعض الوقت وقد اسرتهما الحيرة المشتركة. كانت تبدو في منتهى الصغر وهي تقف في مكان ادنى منه وقد اختفى جسدها من منطقة الخصر والى الاسفل في حين تشبثت بياقتها كأنها على وشك ان تستدير وتسدفع بعيدة عن نظاره اذا ما خطا خطوة واحدة باتجاهها. ثاب الى رشده، وادرك الكلام المناسب.

- معذرة الف مرة. لقد وجدتكم مصادفة على نحو غير مقصود.

ثم استدار وسار بعيدا. لم ينظر ورائه بل اندفع الى اسفل نحو الممر الذي تركه ومن ثم الى الطريق المتشعب حيث سأل نفسه عن السبب الذي جعله يفتقر الى سرعة البديهة ولم يسأل عن الطريق الذي ينبغي له ان يسلكه وانتظر نصف دقيقة ليتحقق من لحاقها به او عدمه الا انها لم تظهر وعلى الفور، سار بثبات وهو يرتقي الطريق المنحدر.

لم يكن تشارلز يعرف، لكن في تلك الثواني القصيرة المتوازنة فوق البحر المنتظر، في ذلك السكون المسائي المنير الذي لا يعكره سوى اندفاع الموجات الهادئ، كان العصر الفكتوري برمته مفقودا. ولا اقصد بهذا انه سلك الطريق الخطأ.

بشكل مطابق تماما للآخرين،
 ودون تفكير بما يعنيه حقا،
 اذهب الى الكنيسة - هذا ما يريده العالم منك،
 والى الحفلات - هذا ما يريده العالم ايضا،
 وتزوج - هذا ما يرغب فيه بابا وماما،
 واخوانك وزملائك في المدرسة.
 اي. إتش، كلف - الواجب 1841

«اووه، لا، من هوا!» صاحت بلزراء،
 «لن ادفع فيه بنسا واحدا،
 افضل ما فيه واضح للعيان،
 سترته زاهية الالوان. صحيح،
 لكن اهله لم يربوه
 ليتعلم شيئا واحدا...»

وليم بارنر - قصائد بلهجة دورسيت المحلية 1869

في الوقت الذي حدث فيه هذا اللقاء تقريبا، نهضت ايرنستينا متململة من فراشها، واحضرت مفكرتها ذات الجلد الاسود من منضدة زيتنها. في البداية عادت متجهمة الوجه، الى حد ما، الى افتتاحية ذلك الصباح وهي افتتاحية لم تكن مؤكدا مؤثرة جدا من وجهة النظر الادبية: «حررت رسالة الى والدتي. لم اشاهد تشارلز الاعز، لم اخرج من البيت على الرغم من روعة الطقس. لم اشعر بالسعادة».
 كان يوما سلبيا تماما للفتاة المسكينة التي لم يكن امامها سوى الخالة ترانتر لتظهر لها استياءها. هناك زهور النرجس والنرجس الاسلي التي ارسلها تشارلز والتي اخذت الان تتنشق عبيرها الا ان هذه الزهور نفسها اغاظتها اول الامر. كان بيت الخالة ترانتر صغيرا وسمعت سام وهو يطرق الباب الرئيس في الطابق السفلي. وسمعت ماري الشريرة، الوقحة وهي تفتح الباب - اصوات هامسة اعقبتها قهقهة

واضحة مكتومة صدرت عن الخادمة، واصطفاق باب. وراود ذهنها شك بغيض، شنيع، بأن تشارلز كان موجودا وهو يغازلها. حرك ذلك واحدا من اعرق مخاوفها ازاءه.

كانت تعرف انه عاش في باريس وفي لشبونه وانه سافر كثيرا؛ كانت تعرف انه يكبرها باحد عشر عاما، وكانت تعرف انه جذاب امام النساء. وكانت ردوده على اسئلتها المازحة الحذرة ذات الصلة بمغامراته السابقة مازحة حذره بدورها دوما. تلك هي المعضلة. فقد شعرت انه لا بد اخفى عليها شيئا ما - كونتيسة فرنسية مأساوية. مركيزة برتغالية مشبوبة العاطفة. ولم يسمح عقلها لنفسه لينطلق الى عاملة باريسية شابة او فتاة حانة ذات عينين لوزيتين في سينترا⁽³²⁾، وهو امر من شأنه ان يكون اكثر قربا من الحقيقة. بيد ان موضوع ممارسته الحب مع نساء اخريات كان يثير لديها، على نحو ما، قلقا، اقل من ذلك الذي تثيره ممارسته الحب مع فتاة عصرية. الطبيعي ان ايرنستينا تفوهت بعبارة «لا ينبغي لي» حالما كان يراود ذهنها اي تفكير اثم. غير انها كانت تغار من قلب تشارلز حقا، اذ لم تستطع احتمال التفكير انه قلب يشاركها فيه احد سابقا او لاحقا. كانت سكين اوكام⁽³³⁾ المفيدة غير معروفة منها. وهكذا، فإن الحقيقة البسيطة المتمثلة في انه لم يعشق فتاة باتت دليلا واضحا امام ايرنستينا - في ايامها الكثيرة - بانه كان ذات يوم عاشقا مشبوب العاطفة. فمظهره الهادئ عدته صمتا رهيبا لميدان معركة سابقة، واترلو بعد شهر، بدلا من ان تنظر اليه على حقيقته - مكان بلا تاريخ.

(32) سينترا: بلدة برتغالية جبلية في الشمال الغربي من لشبونة تغنى بجمالها الاخاذ الشاعر الانكليزي لورد بايرون في قصيدته الشهيرة تشايلد هارولد. (المترجم)

(33) سكين اوكام: نسبة الى وليم الاوكامي اعظم علماء الفرائسيكان ولد في بلدة اوكام بمقاطعة سري بانكلترا حوالي 1300 وتوفي حوالي 1349 درس في اوكسفورد وباريس ولما خرجت اراؤه الى حد ما عن حرفية العقيدة صدر اليه الامر في 1324 بالمثل امام البابا في افينيون وطرد من الكنيسة عام 1328 ووجد الحماية في بلاط الامبراطور لويس في ميونيخ. كان معاديا للميتافيزيقيا وكان يقول «لا ينبغي الاكثار من الكيانات الى حد يتجاوز ما تدعو اليه الحاجة». وقد اصبحت هذه العبارة تعرف باسم سكين اوكام. والكيانات التي كان يقصدها هي الصور والجواهر وما شابهها. (المترجم)

لما اغلق الباب الرئيس، سمحت ايرنستينا للوقار ان يسيطر عليها دقيقة ونصف الدقيقة تماما في حين امتدت يدها الرقيقة وجذبت باصرار المقبض الذهبي اللون الى جنب سريرها. تنهى صوت رنين متصل يبعث على البهجة من المطبخ وبعد ذلك تماما، سمع صوت وقع اقدام وطرق، وانفتح الباب لتظهر ماري وهي تحمل زهرية وفيها مجموعة من زهور الربيع. دخلت الفتاة، ووقفت قرب السرير، ووجهها تكاد تغطيه الزهور؛ كان وجهها باسما يصعب على اي رجل ان يكون غاضبا منه. لهذا فإن ايرنستينا، خلاف ذلك، قطبت حاجبيها على نحو يبعث على التوبيخ لمراى الزهور غير السار.

في نظري، كانت ماري أجمل الشابات الثلاث اللواتي اتى ذكرهن في الصفحات السابقة. كانت تملك حيوية اكبر الى ما لا نهاية وكانت اقل ما يمكن من الانانية. وكانت تملك ما يناسب ذلك من الفتنة الجسدية... بشرة وردية صافية، شعر بلون الذرة، عيان زرقاوان واسعتان لذيدتان، عيان تثيران الرجل وتعيدانه بالتالي الى سابق عهده، عيان تفوران مثلما تفور افضل انواع الشراب على نحو يتعذر السيطرة عليهما، لكن دون ان يلحقا اي اذى؛ كما ان الثياب الفكتورية الحزينة التي غالبا ما كانت تضطر الى ارتدائها لم تستطع اخفاء قوامها الرشيق وقابليتها على الاكتناز (البدانة) - في الواقع، إن كلمة اكتناز قاسية. لقد اوردت ذكر اسم رونسار قبل قليل. واعتقد ان قوامها يتطلب واحدة من صفاته، صفة ليس لدينا في اللغة الانكليزية ما يقابلها: rondelet، اي كل ما هو مشير في الجسد الريان (البدين) دون ان يفقد ما هو جميل في الرشاقة. ان حفيدة حفيدة حفيدة ماري التي تبلغ العشرين من عمرها في هذا الشهر الذي اكتب فيه الان تشبه الى حد كبير جدتها. كما ان وجهها معروف في العالم اجمع لأنها واحدة من اشهر الممثلات الشابات في السينما الانكليزية.

الا انني اخشى انه لم يكن وجهها يناسب العام 1867. فعلى سبيل المثال، لم يكن ابدا وجهها يلائم السيدة بولتيني الذي الفته منذ ثلاث سنوات، اذ كانت ماري ابنة اخت احدى قريبات السيدة فيرلي التي تملتت السيدة بولتيني كي تتقبل هذه المستدثة للعمل في المطبخ القاسي. بيد ان بيت مارلبورو وماري اخذ يلائم احدهما الاخر مثلما يلائم قبر من القبور طائر الحسون. وعندما كانت السيدة بولتيني تفتش

ذات يوم مقاطعتها على نحو مكثب وشاهدت من نافذتها في الطابق العلوي منظرا يثير الاشمئزاز ويتمثل في قيام صبي الاصطبل باستجداء قبله دون ان يلقي مقاومة ناجحة، فإن طائر الحسون منح حريته فوراً، واذ ذاك طار الى منزل السيدة ترانتر على الرغم من تحذيرات السيدة بولتيني الصارمة لتلك السيدة من حماقة اضممار مثل ذلك الفجور.

كانت ماري سعيدة في شارع برود وكانت السيدة ترانتر تهوى الفتيات الجميلات، وتفضل اكثر الفتيات الجميلات الضاحكات. المؤكد ان ايرنستينا كانت ابنة اختها وكانت تقلق عليها اكثر. الا انها كانت لا تشاهد ايرنستينا الا مرة او مرتين في السنة، اما ماري فكانت تشاهدها يوميا. ومن وراء المظهر المغناج المتحرك، كانت الفتاة تتصف بمودة رقيقة. ولم تكن لتتقيد بشيء، بل ترد الدفء الذي يمنح لها. ولم تعرف ايرنستينا سرا رهيبا عن ذلك البيت في شارع برود. فعندما كان الطاهي يتمتع بيوم اجازة، كانت السيدة ترانتر تجلس وتتناول طعامها بصحبة ماري وحدهما في مطبخ الطابق السفلي. ولم تكن تلك الساعات اوقاتا حزينة لأي واحدة منهما.

لم تكن ماري بلا اخطاء. وكان احد اخطائها غيرها من ايرنستينا. فهي لم تعد فجأة الفتاة المفضلة ضمنا في البيت عندما وصلت السيدة الشابة من لندن وحسب، بل ان السيدة الشابة القادمة من لندن اتت معها بصناديق مملوءة بأجدازياء لندن وباريس، وهو امر ليس بالحسنة عند خادمة لا تملك سوى ثلاثة فساتين، ولا تحب اي واحد منها على الرغم من ان افضلها لا تستطيع الا ان تكرهه لا لشيء الا لأنه قدم لها من الاميرة الشابة القادمة من العاصمة. كما اعتقدت ايضا ان تشارلز رجل وسيم يصلح ان يكون زوجها، الا انه جذاب اكثر مما ينبغي لمخلوقة شاحبة من مثل ايرنستينا. وهذا هو السبب في ان تشارلز كان غالبا ما يحظى بعون هاتين العينين الرماديتين والزرقاوين عندما كانت تفتح له الباب او تمر به في الشارع. والحقيقة التي لا تجارى او تبارى هي ان تلك المخلوقة كانت تختار اوقات خروجها ودخولها كي تتزامن وخروج تشارلز ودخوله. وفي كل مرة كان يرفع قبعته محيا في الشارع، كانت تحتقر ذهنيا ايرنستينا، لأنها كانت تعلم جيدا السبب الذي يدفع ابنة اخت السيدة ترانتر للذهاب الى الطابق العلوي

حالما يغادر تشارلز البيت. وكانت تجرؤ على التفكير، شأنها شأن أي فتاة مغناج،
باشياء لم تفعلها سيدتها الشابة. وكانت تدرك ذلك.

بعد ان سمحت ماري على نحو ملائم وخبيث لصحتها وبهجتها ان تظهر امام
المريضة، وضعت الزهور فوق المنضدة المجاورة للسريـر.

- من السيد تشارلز يا انسة تينا.

كانت تتكلم بلهجة معروفة بنفورها من استعمال الضمائر والاضافات.

- ضعيتها فوق منضدة الزينة. انني لا احب ان تكون قريبة جدا مني.

امتثلت ماري ونقلت الزهور الى المكان الاخر، وشرعت تعيد ترتيبها قليلا

قبل ان تلتفت وتبتسم لايرنستينا التي كانت نهبا للشكوك.

الحضرها بنفسه؟

لا يا انسة.

اين السيد تشارلز؟

- لا اعرف يا انسة. فانا لم اسأل عن ذلك.

كان قمها مطبقا تماما كأنها تريد ان تنفجر في قهقهة.

- غير انني سمعتك تتحدثين مع الرجل.

- نعم يا انسة.

- عن اي شيء؟

- عن الساعة لا غير.

- اهذا هو السبب الذي يدفعك الى الضحك؟

- نعم يا انسة. انه اسلوب كلامه يا انسة.

كان سام الذي ظهر عند الباب يشبه شيها قليلا الشاب الساخط المهموم

الذي شحذ الشفرة. فقد دفع باقة الزهور الجميلة بين ذراعي ماري المشاكسة:

«هذه للسيدة الجميلة في الطابق العلوي». ثم وضع قدمه على نحو حاذق في المكان

الذي كان فيه الباب على وشك ان يغلق، واخرج بيده الاخرى من وراء ظهره،

على نحو حاذق ايضا، باقة صغيرة من زهور بلون الزعفران، «وهذه للمحبة

اكثر في الطابق السفلي»، وقد احمر وجه ماري خجلا، وقل ضغط الباب على قدم

سام بشكل غامض. ورأها وهي تشم الزهور الصفـر على نحو يفتقر الى الكياسة،

ولكن بصدق فبدت قطعة صغيرة من الزعفران البرتقالي على الانف الفاتن والوقع.

- كيس جمع السخام سيسلم كما هو مطلوب.

عضت على شفتيها، وانتظرت.

- بشرط واحد. بلا دفع مؤجل. وسيدفع الثمن فوراً.

- كم يكلف اذا؟

تفرس الرجل الجريء في ضحيته كأنه يحسب ثمناً منصفاً. ثم وضع اصبعه فوق فمه، وغمز لها غمزة عميقة لا لبس فيها. فكانت حركته تلك سبباً في إثارة ضحكها المكتومة، واصطفاق الباب.

القت ايرنستينا اليها نظرة ما كان من شأنها ان تلحق العار بالسيدة بولتيني.

- ستذكرين انه قادم من لندن.

- نعم يا انسة.

- لقد حدثني عنه السيد سميثسون قبل وقت قصير. ان الرجل يظن نفسه دون

جوان.

-ماذا يعني هذا يا انسة تينا؟

كان ثمة قلق تواق محدد للحصول على معلومات اخرى في وجه ماري الذي اثار استياء ايرنستينا كثيراً.

- لا يهم الان. لكن اذا شرع في المغازلة فاني ارغب في ان تخبريني فوراً.

والان احضري لي شيئاً من عصير الشعير وكوني اكثر حكمة في المستقبل.

في هذه اللحظة مر بريق خاطف في عيني ماري، يشبه ومضة تحد، الا انها خفضت من بصرها بينما امالت قبعتها الصغيرة المخرمة احتراماً رمزياً لها وانصرفت. ثلاث مجموعات من درجات السلم الى اسفل وثلاث مجموعات اخرى الى اعلى، ومثل ايرنستينا التي لم تكن لديها اي رغبة في احتساء شراب شعير الخالة ترائتر المفيد ولكن غير الممتع، عزت ماري نفسها بالذكرى.

الا ان ماري رجحت الصفقة بمعنى ما، لأنها ذكرت ايرنستينا، التي لم تكن بطبيعتها طاغية البيت بل مجرد طفلة مدللة رهيبة، وبأنها لا بد ان تتوقف عن الانهماك في لعبة السيدة وان تكون سيدة بجد. طبيعي ان الفكرة راقّت لها؛ ان

تستحوذ على بيت شخص آخر، ان تكون بعيدة عن الوالدين، الا ان الخدم يمثلون معضلة كما يقول الجميع. ولم يعودوا كسابق عهدهم، كما يقول الجميع ايضا. كانوا يثيرون السأم بمعنى ما. ربما لم تكن حيرة ايرنستينا وألمها بعيدين كثيرا عن حيرة تشارلز وألمه في حين كان يتفصد بالعرق ويتعثر في طريقه على امتداد الشاطئ. كانت الحياة الاداة الصحيحة، والتفكير خلاف ذلك هرطقة. لكن في هذه الاثناء، لا بد من حمل... في هذا الزمان والمكان.

احضرت ايرنستينا مفكرتها لتطرد مثل هذه الهواجس الكئيبة التي ظلت ملازمة لها عصر ذلك اليوم، واعتدلت في سريرها، وعادت الى الصفحة التي تحتوي على زهرة الياسمين.

كانت بواذر تصنيف المجتمع في لندن على اساس الثراء والنفوذ قد بدأت في لندن عند منتصف القرن. من المؤكد ان اي شيء لم يحل محل كرامة النسب، الا انه اصبح من المقبول عموما ان ينتج المال والعقول صورة طبق الاصل، معترف بها، للمكانة الاجتماعية المرضية. كان دزرائيلي نموذجاً، لا استثناء، لعصره. ربما لم يكن جد ايرنستينا اكثر من تاجر ألبسة ميسور الحال في ستوك نيوونينغتون في مطلع شبابه. الا انه توفي تاجرا ثريا جدا - بل اكثر من ذلك، اذ كان قد انتقل من الناحية التجارية الى مركز لندن، وفتح له واحدا من اضخم المتاجر في حي الويست اند، ووسع من افاق تجارته في ميادين اخرى علاوة على الالبسة. اما والدها فقد منحها حقا ما ورثه هو اصلا: افضل تعليم يمكن للنقود ان تشتريه. كان سيدا مهذبا في كل شيء باستثناء اصوله. وقد تزوج زواجا حكيما بامرأة من منزلة ارفع منه وهي ابنة واحد من انجح محامي المنطقة التجارية بلندن وكان في وسعه ان يضاهي المدعي العام ولم يكن اقل شأنا من بين اجداده الاقربين. لهذا السبب، كانت مخاوف ايرنستينا الخاصة بمكانتها الاجتماعية بعيدة الاحتمال، حتى في ضوء المعايير الفكتورية، ولم تكن على الاقل لتثير قلق تشارلز واضطرابه.

ذات يوم قال لها:

- فكري بمدى ابتذال الاسم سميثسون الذي يوحى بالخزي.

- اه حقا. لو كان اسمك اللورد بربازون فافازور فيردي فير، لتعين علي ان

احبك اكثر كثيرا.

الا ان ثمة مخاوف كانت تكمن وراء سخريتها.

لقد التقى بها اول مرة في شهر تشرين الثاني/نوفمبر المنصرم في منزل سيدة كانت قد وضعت عينها عليه لعلها تحظى به لواحدة من بناتها ذوات الابتسامة المتكلفة. وكان من سوء حظ اولئك الفتيات ان والديهن قد اعطيا التعليمات النهائية لمن قبل حلول المساء، فارتكبن خطأ قاتلا بمحاولة التظاهر امام تشارلز بانهن مهتمات بعلم الاحاث، وان عليه ان يعطينهن عناوين اكثر الكتب امتاعا بشأن الموضوع - في حين اظهرت ايرنستينا اصرارا رقيقا واهيا على الا تحمله محمل الجسد. وقد همست بانها سترسل له اي نماذج مثيرة للاهتمام من الفحم تعثر عليها في دلو الفحم لديها. وفي وقت لاحق اخبرته بانها تعتقد بانه في منتهى الخمول. لماذا؟ ارجوك. لأنه قلما يدخل اي حجرة استقبال في لندن ولا يجد عينات لا تخص من الاشياء المثيرة للاهتمام.

كان كل شيء يشير للشايين ان المساء سيكون مثيرا للسأم. ولما رجع الاثنان الى منزلتهما، وجدا ان الامر ليس كذلك.

فقد شاهد كل واحد في الاخر ذكاء حادا، رقة اللمس، وصراحة مثيرة للبهجة. فافصحت ايرنستينا القول بانها وجدت في السيد سيميشون تحولا مقبولا من ظهور الشركاء الباعث على الضجر، الذين عرضوا عليها للمعاينة في ذلك الموسم. لقد قامت والدتها بتحريرات سرية، وشاورت زوجها الذي قام بدوره بتحريرات اكثر. اذ لا يوجد شاب ذكر يضع قدمه في حجرة استقبال في البيت المطل على حدائق الهايد بارك لم يفحص فحصا يشابه فحص دائرة الامن الحديثة لعلماء الذرة. اجتاز تشارلز محنته السرية بنجاح عظيم.

اما الان فقد رأت ايرنستينا خطأ منافساتها: اي زوجة يرمى بها امام تشارلز ما من شأنها ان تلمس شغاف قلبه. لهذا، عندما شرع يزورها في منزل والدتها ويلتقيها في حفلات السهرة، كانت لديه خبرة غير اعتيادية في اكتشاف عدم وجود اي اشارة تدل على وجود فخ الزواج الاعتيادي، او اي اشارات خفية من جانب الام توضح بأن الحبيبة اللطيفة تحب الاطفال او انها «تواقة في السر لأن ينتهي الموسم» (كان المفروض ان يقطن تشارلز في وينزيات حالما يؤدي عمه واجبه ويرحل) او اشارات اقل ايماء من جانب الاب عن حجم الثروة التي

ستقدمها «ابنتي الغالية جدا» لزوجها. كانت الاشارات الاخيرة غير ضرورية كما يبدو في كل الاحوال، فقد كان المنزل في هايد بارك يناسب دوقا كي يقطن فيه. كما ان غياب الاخوة والاخوات يغني عن الاف الكشوفات المصرفية.

لم تبالغ ايرنستينا في تمثيل دورها اكثر مما ينبغي. على الرغم من انها سرعان ما وطدت العزم تماما على الاستحواذ على تشارلز، وهو ما يمكن ان تفعله اي ابنة مدللة. فكانت تتحقق من وجود غيره من الشبان الجذابين دوما. ولم تختبر الطريدة الحقيقية بدافع المحابة او الاهتمام. كانت من حيث المبدأ غير جادة معه، ودون ان تفصح القول، كانت تعطيه الانطباع بانها تهواه للهواه - كانت تدرك انه لن يتزوج. وفي ذات امسية من امسيات شهر كانون الثاني/يناير قررت ان تزرع البذرة المقررة للمصير (المحتومة).

شاهدت تشارلز يقف بمفرده. وفي الجهة المقابلة من الغرفة شاهدت ارملة عجوز مهيبة، من نمط سيدات حي مي فير الشبيهات بالسيدة بولتيني، وادركت انها ستكون مناسبة لتشارلز مثلما يناسب زيت الخروج طفلا موفور الصحة. فذهبت اليه.

- ألن تذهب للحديث مع الليدي فير ويذر؟

- افضل الحديث معك.

- سأعرفك اليها. وعندئذ سيكون لديك شرح عياني لمجريات الاحوال في بواكير الفترة الطباشيرية.
ابتسم.

- بواكير العصر الطباشيري⁽³⁴⁾، لا الفترة الطباشيرية.

- لا بأس. انا واثقة انها راسخة في القدم بما فيه الكفاية وانا اعرف مدى سأمك بأي شيء حدث في التسعين مليون سنة الماضية. هيا.
ثم شرع الاثنان يجتازان الغرفة معا. لكن ايرنستينا توقفت في منتصف الطريق المؤدي الى السيدة التي تنتمي الى بواكير العصر الطباشيري، ووضعت يدها فوق ذراعه برهة وجيزة، وأمعنت النظر في عينيه.

(34) العصر الطباشيري: العصر الثالث والاخير من الدهر الوسيط. (المترجم)

- اذا كنت عازما على ان تكون عازبا كبيرا مشاكسا يا سيد سميثسون فلا بد لك من ان تتمرن على اداء دورك.

ثم تحسركت قبل ان يتمكن من الرد. وربما كان ما قالته لا يعدو اكثر من استمرار في مناكدها. الا ان عينيها افصحتا للحظة قصيرة انها قدمت عرضا واضحا يشبه في طريقته تلك العروض التي تقدمها اولئك النسوة في لندن في ذلك الزمن وهن يترددن عند ابواب المنازل في منطقة هيماركت.

لم تعرف ايرنستينا انها لمست جزءا حساسا جدا في روح تشارلز العميقة، في احساسه بانه يتقدم في السن مثل عمه في وينزيات، وان الحياة تمر به، وان كان شديد الوسائس، كما هو شأنه في اشياء كثيرة اخرى، وانه كان كسولا، انانيا.. واسوأ من ذلك، انه يسافر الى خارج البلاد في غضون السنتين المنصرمتين. وادرك ان رحلاته السابقة كانت تعويضا عن افتقاره الى الزوجة. كان ذلك يبعد ذهنه عن الشؤون المنزلية، ويسمح له بمضاجعة اي امرأة بين وقت وآخر، وهي متعة حرّمها على نفسه تحديدا، ربما لتذكره ليلة الروح المكفهرة التي تسببت فيها مقالته الاولى في ذلك الموضوع في انكلترا.

لم يعد السفر يثيره، بل النساء. لهذا السبب كان في وضع متناه من الاحباط الجنسي طالما ان رقة الاخلاق لم تسمح له ان يلجأ الى حيلة بسيطة وقضاء اسبوع واحد في اوستند⁽³⁵⁾ او باريس. لم يكن يسمح لمثل هذا الهدف ان يفرض اسباب الرحلة. ففضى الاسبوع وهو مستغرق في التفكير العميق. ثم استيقظ صباح يوم ما.

لقد بات كل شيء بسيطا. لقد احب ايرنستينا. وفكر في متعة الاستيقاظ في مثل هذا الصباح، البارد، المكفهر الذي اكتست فيه الارض بطبقة خفيفة من الثلج، ومشاهدة ذلك الوجه الصغير الرزين العذب وهو يرقد الى جواره - بصورة شرعية امام الله وامامه (وهي حقيقة اصاب تشارلز بقدر من الدهول). بعد مرور دقائق قليلة، ايقظ سام من نومه بالرنين المتواصل ليقول له: «سام. انني مجنون مئة بالمئة ولتغفر لي السماء ذلك».

(35) اوستند: منتجع وميناء بلجيكي مشهور بصيد الاسماك وتربية المحار وصناعة السفن والتبغ والصابون، وهو نقطة انطلاق القطارات الى مختلف ارجاء القارة الاوروبية. (المترجم)

بعد مرور يوم او يومين قابل المجنون والد ايرنستينا، وكانت مقابلة قصيرة، مرضية تماما. هبط الى حجرة الاستقبال حيث كانت والدة ايرنستينا تجلس في حالة من اشد حالات الذعر. لم تستطع حمل نفسها على الحديث مع تشارلز، بيد انها اشارت على نحو غامض باتجاه بيت النباتات الزجاجي، ففتح تشارلز الباب الابيض المؤدي اليها، ومكث واقفا امام نفحة الهواء الحار المعبق بالشذى. لا بد له من البحث عن ايرنستينا الا انه وجدها في نهاية المطاف في احد الاركان القصية تكاد تحجبها تعريشة. شاهدها وهي تنظر اليه نظرة خاطفة ومن ثم تخفض بصرها بسرعة وتشيع النظر جانبا. كانت تحمل مقصا بيدها وتظاهر بقطع بعض الازهار الميتة من النبات الذي تفوح منه رائحة قوية. وقف تشارلز وراءها مباشرة وسعل.

- جئت كي اودعك.

تظاهر بانه لم يلحظ النظرة المعذبة التي القتها اليه وذلك باللجوء الى حيلة بسيطة وهي الامعان في النظر الى الارض.

- قررت ان ارحل عن انكلترا. وساقضي البقية الباقية من حياتي في السفر. ا هناك من سبيل اخر يقضي فيه اعزب عجوز مهموم ايامه؟

كان على استعداد للاستمرار في ذلك المنوال. الا انه شاهد ايرنستينا وهي تحني رأسها ويشد بياض اصابعها بفعل القوة التي كانت تمسك بها المنضدة فأدرك ان من شأنها عادة ان تكتشف مضايقته فورا. وادرك ايضا ان بطء فهمها نابع الان من احتدام عواطفها وهو ما اتضح له.

- الا انني لو صدقت بأن هناك من يهتم بي على نحو كاف ويشاطرنى... لم يتمكن من الاستمرار في الحديث، اذ التفت، وابصر عيناها غارقتين في الدموع. التقت ايديهما فجذبا نحوه. لم يتبادلا القبلات، لم يستطيعا ذلك. كيف تستطيع ان تكبت على نحو لا يرحم كل الغريزة الجنسية الطبيعية عشرين سنة ولا تتوقع ان تنتاب السجين نوبات من البكاء عندما تفتح الابواب امامه على مصاريعها؟

بعد مرور بضع دقائق، قاد تشارلز الفتاة بعد ان ثابت الى رشدها قليلا وسارا في ممر البيت الزجاجي الساخن واتجها صوب الباب المؤدي الى حجرة الاستقبال. بيد انه توقف امام احدى نباتات الياسمين، والتقط زهرة، ووضعها مازحا فوق رأسها.

- انها ليست همدال⁽³⁶⁾. غير انها تفي بالغرض. اليس كذلك؟
وهكذا تبادلا القبلات بشفاه بريئة تشبه براءة الاطفال في خلوها من الجنس.
طفقت ايرنستينا تبكي ثانية. ثم كفكت دمعها وسمحت لتشارلز ان يأخذها الى
حجرة الاستقبال حيث كان يقف كل من والدها ووالدتها. لم تكن هناك اي
ضرورة للكلمات. فقد هرعت ايرنستينا الى ذراعي امها المفتوحتين، وشرع الدمع
ينهمر من مقلتيها اكثر من قبل. في هذه الاثناء، وقف الرجلان يتسلمان احدهما
للآخر، الاول كأنه انجز لتوه صفقة تجارية ممتازة، والثاني كأنه غير واثق من
الكوكب الذي حط توا فوقه، الا انه رغب مخلصا في ان يكون سكانه اصدقاء.

(36) الهدال: نبات طقيلي دائم الخضرة يستخدم في زينة نكري الميلاد، وحفلات الزواج.
(المترجم)

مم يتكون الاغتراب في العمل؟ اولاً: ان العمل سطحي للعامل، اي انه ليس جزءاً من طبيعته، وهو بالتالي لا يحقق ذاته في العمل بل ينكر ذاته، وينتابه الاحساس بالشقاء، لا بالرفاهية... لهذا لا يشعر العامل انه في بيته الا عندما يكون لديه فراغ في حين يشعر في اثناء العمل انه بلا بيت.

ماركس: مخطوطات اقتصادية وسياسية - 1844

وكان يوم بهجتي

صافياً وكاملاً كما اقول؟

تينيسون - احياء لذكرى... 1850

اخذ تشارلز بحث الخطى الى الامام، ويترك الافكار الخاصة بالمرأة الغامضة من ورائه وهو يشق طريقه في غابة وير كومونز. سار مسافة ميل واحد او ما يقرب من ذلك حتى وصل في آن واحد الى نهاية الاشجار واول معلم من معالم المدنية، وهو كوخ طويل مسقف بالقش ينتصب على اسفل طريقه قليلاً، يحيط به مرجان او ثلاثة مروج تتجه كلها صوب الجرف. وفي الوقت نفسه الذي خرج فيه تشارلز من الغابة، شاهد رجلاً يسوق قطيعاً من الابقار خارج زريبة منخفضة قرب الكوخ. وسرعان ما لاح في ذهنه مشهد: طاس من حليب بارد لذيذ. انه لم يأكل شيئاً منذ ان تناول تينك الفطيرتين. الشاي والرقعة في منزل السيدة ترانتر يجتذبان، غير ان طاس الحليب كان يصيح به... وهو ليس بعيداً. هبط احد المنحدرات المكسوة بالعشب وطرق باب الكوخ الخلفي.

فتحت امرأة صغيرة السن، ضخمة الجثة، يلمع ذراعها المكتنزان برغوة الصابون باب الكوخ. نعم. تلقى الترحيب وفي وسعه ان يشرب كل ما يستطيع من الحليب. اسم المكان؟ يبدو ان اسم المكان هو معمل الالبان. لحق بها تشارلز الى داخل الحجرة ذات السقف المائل التي تحتل مجمل الجزء الخلفي من الكوخ. كانت

حجرة مظلمة، تكثر فيها الظلال، وفي منتهى البرودة، ارضيتها مكسوة بألواح ومعبقة برائحة الجبن الاخذ بالنضج. وثمة صف من طاسات حامية، ومقال نحاسية ضخمة، وضعت فوق مسند وفوق كل واحدة قشرة ذهبية من القشدة، امتدت من تحت الجبن الذي جثم على نحو دائري مثل مجموعة من الاقمار الاحتياطية فوق الروافد الخشبية العليا. واذا ذاك تذكر تشارلز انه سبق له ان سمع بهذا المكان. فالقشدة والزبدة اللتان ينتجهما هذا المكان مشهورتان في المنطقة. وقد تحدثت عنهما الخالة ترانتر. وعندما ذكر اسمها نظرت اليه المرأة التي غرفت الحليب الدسم من مخضبة اللبن القريبة من الباب، ووضعت في طاس بسيط ذي لونين ازرق وابيض كما خيل له، وابتسمت له. اذ اصبح اقل غربة ولقي ترحيبا اكبر.

وبينما كان يتجاذب اطراف الحديث او بينما كانت تتحدث اليه المرأة الواقفة فوق العشب خارج معمل الالبان، عاد زوجها لاجراجه قطيعه من الابقار. كان رجلا اصلع الرأس، كث اللحية، تلوح على وجهه امارات الكآبة الواضحة: التشاؤم. نظر الى زوجته نظرة حادة، فامسكت عن الكلام فجأة، ودخلت ثانية للاهتمام بأوعيتها النحاسية. كان الزوج رجلا قليل الكلام بلا ريب على الرغم من انه تكلم بما فيه الكفاية عندما استفسر منه تشارلز عن المبلغ الذي يطلبه ثمنًا لطاس الحليب الممتاز. وسرعان ما انتقل من يد الى اخرى بنس واحد تزينه احد الرؤوس الفاتنة لفكتوريا الشابة، هذا البنس الذي لا يزال حتى الان يظهر بين وقت وآخر، في قطع النقد الصغيرة وقد مسح فيه كل شيء الا الرأس الجميل بفعل استخدامه على مدى القرن.

كان تشارلز على وشك ان يرتقي الطريق الا انه ما ان شرع بخطو خطوة واحدة الى الوراء حتى ظهر شخص يتشح بالسواد من بين الاشجار المنتصبة فوق السرجلين. انها الفتاة. رمقت الشخصين الواقفين من تحتها بنظرة ومن ثم واصلت سيرها، الى بلدة لايم. نظر تشارلز الى صاحب حقل الالبان الذي استمر يتفرس في الفتاة من فوقه على نحو محتوم. من الواضح انه لم يسمح للرهافة ان تقف في طريق الحكم التوقعي.

- اتعرف تلك السيدة؟

- نعم.

- اتأتى من هنا غالبا؟

- غالبا بما فيه الكفاية.

واصل صاحب الحقل النظر. ثم قال:

- انها ليست سيدة. انها بغى الضابط الفرنسي.

مرت بضع لحظات قبل ان يدرك تشارلز معنى تلك العبارة. واذ ذاك نظر نظرة غضب الى صاحب الحقل الملتحي الذي كان ميثوديا⁽³⁷⁾ ولهذا كان مولعا بتسمية الاشياء بأسمائها مهما كانت جارحة لا سيما عندما تكون هذه الاشياء خطيئة شخص اخر. وتبدى لتشارلز وهو يجسد كل الغيبة والنميمة الزائفة في بلدة لايم. لقد كان في وسع تشارلز ان يصدق اشياء كثيرة عن ذلك الوجه النائم ولكن ليس ابدا ان تكون صاحبه بغيا.

بعد مرور ثوانٍ معدودة، وجد نفسه في طريق العربات المؤدي الى بلدة لايم، وشاهد وشاحين ابيضين بين الغابة التي ترتفع عن الارض واعشابا طويلة تخفي البحر جزئيا. والى الامام كان شبح الفتاة الاسود ذات القبعة يسير من امامه. لم تكن تسير سيرا سريعا بل بخطوات معتدلة، تخلو من التصنع الانثوي كأنها امرأة اعتادت ان تقطع مسافات طويلة. انطلق تشارلز للحاق بها، وبعد مائة ياردة (91 مترا) او نحو ذلك اقترب منها. لا بد انها سمعت صوت وقع حذائه ذي المسامير الكبيرة على حجر الصوان، الا انها لم تلتفت. ظن ان المعطف اكبر مما ينبغي الى حد ما وان كعبي حذائها ملطخان بالطين. عندئذ تردد لحظة. غير ان ذكرى النظرة المكفهرة التي ارتسمت على وجه صاحب حقل الالبان المعترض ابقت تشارلز على هدفه النبيل الاول: ان يظهر للمرأة المسكينة ان ليس كل فرد في عالمها انسانا متوحشا.

- سيدتي!

استدارت لتجده يتسسم لها وقد خلع قبعته. وعلى الرغم من ان وجهها كان يحمل الان قدرا كافيا من الدهشة، فإن ذلك الوجه كان له مرة اخرى تأثير غريب فيه. وبدا انه بعد كل مرة يرى فيها ذلك الوجه لا يستطيع ان يصدق تأثيره وانه لا

(37) الميثودي، المنهجي: احد اتباع الحركة الدينية الاصلاحية التي قادها في اوكتفورد عام 1729 (تشارلز وجون ويزلي) محاولين فيها احياء كنيسة انكلترا. (المترجم)

بد له من رؤيته ثانية. بدا وجهها يحتضنه ويرفضه في ان واحد، كأنها شبح في حلم، ساكن في وقفته ولكنه دائم الحركة.

- انني مدين لك باعتذارين. انني لم اعرف يوم امس انك سكرتيرة السيدة بولتيني. اخشى انني خاطبتك على نحو يفتقر الى الكياسة تماما. أمعنت النظر في الارض.

- لا بأس يا سيدي.

- والان وبعد ان... لقد خشيت ان تصابي بوعكة.

لم تنظر اليه هذه المرة ايضا. بل امالت رأسها، واستدارت لمواصلة سيرها.

- الا تستطيع مرافقتك؟ طالما اننا نسير في اتجاه واحد؟

توقفت، الا انها لم تلتفت.

- افضل السير وحدي!

- ان السيدة ترانتر هي التي جعلتني ادرك غلطتي. انني...

- انا اعرف من انت يا سيدي.

ابتسم لمقاطعتها حديثه فجأة.

- اذا...

وفجأة رمقته بنظرة من عينيها، لاح من ورائهما نوع من اليأس.

- ارجو ان تتركني اواصل السير في طريقي بمفردي.

تلعثم في ابتسامته. ثم انحنى وتراجع الى الخلف، الا انها بدلا من مواصلة السير

في طريقها، أمعنت النظر في الارض برهة وجيزة.

- وأرجو الا تخبر احدا انك شاهدتني في هذا المكان.

هنا استدارت، وواصلت سيرها دون ان تنظر اليه ثانية كأنها كانت تدرك ان

طلبها لا طائل من ورائه، وندمت لذلك حالما تفوهت به. فراقب تشارلز قفاها

الاسود وهو يتعد بينما كان يقف في منتصف الطريق. وكل ما بقي عنده الصورة

التالية لتلك العينين: عينين واسعتين على نحو غير اعتيادي، كأنهما تستطيعان ان

تشاهدا اكثر وان تتعذبا اكثر. وكان اتجاه نظرهما - وهو ما لم يعرفه، بيد ان

النظرة التي استقبلها هي نظرة التسليم الديني - يحتوي على عنصر الصد الاكثر

غرابة. كانتا تقولان له:

لا تقترب مني.

نظر من حوله في محاولة لفهم السبب الذي دعاها الى الرغبة في الا يعرف احد ما بانها كانت في هذه الغابة البريئة. رجل ربما، لقاء غرامي غير شرعي؟ الا انه تذكر بعد ذلك قصتها.

عندما وصل تشارلز في نهاية المطاف الى شارع برود، قرر ان يزور السيدة ترانتر وهو في طريقه الى الوايت لأين لكي يوضح بانه استحم، وارتدى ثيابا انيقة. فتحت ماري الباب، الا ان السيدة ترانتر مرت من امام الردهة مصادفة - واذا توخينا الدقة اكثر فلانها خرجت عمدا الى الردهة - واصرت بأن عليه الا يسرف في اعتماد قواعد السلوك المذهب الصارمة (يتمسك بالرسميات)، او ليست ثيابه افضل دليل على اعذاره؟ لهذا تناولت ماري حاجياته وقادته الى حجرة الاستقبال الخلفية الصغيرة التي كانت تغمرها بقايا اشعة الشمس الغاربة وحيث كانت المريضة مضطجعة وقد ارتدت ثوب نوم رماديا وقرمزيا.

- اشعر كأني ملاح ارلندي انتقل الى مخدع الملكة.

قال تشارلز شاكيا بينما كان يقبل اصابع ايرنستينا على نحو يظهر انه كان حقا عاملا ارلنديا مسكينا تماما.

جذبت يدها.

لن تحظى بقطرة من الشاي حتى تشرح كل لحظة في يومك. وهكذا وصف لها كل ما حدث له، او كل شيء تقريبا لأن ايرنستينا اوضحت حتى الان مرتين ان موضوع امرأة الضابط الفرنسي يثير قرفها - في المرة الاولى عند الكوب وفي المرة الثانية بعد ذلك عند تناول طعام الغذاء عندما قامت الخالة ترانتر بتزويد تشارلز بنفس المعلومات التي افاد بها قس بلدة لاعم امام السيدة بولتيني قبل اثني عشر شهرا. بيد ان ايرنستينا اثبت خالتها المريضة لازعاجها تشارلز بأقاويل مملّة، وقد رضخت السيدة المسكينة لامرّها، وكانت في الغالب تنبه لسذاجة لم تكن تدركها.

اخرج تشارلز قطعة الصدف المتحجرة التي اتى بها الى ايرنستينا، فوضعت هذه حجاب النار الواقى جانبا، وحاولت ان تمسك بها، غير انها لم تستطع وغفرت لتشارلز كل شيء لتحشمه عمل يحتاج إلى عناء، ثم غضبت منه مازحة لتعريض حياته وجسده للخطر.

- ان الجزء الاسفل من الجرف من اروع القفار. لم تكن لدي اي فكرة عن وجود مثل هذه الاماكن في انكلترا. لقد ذكرتني ببعض المشاهد البحرية في شمال البرتغال.

فصاحت ايرنستينا.

- لماذا؟ ان الرجل في حلم. اعترف الان يا تشارلز. انك لم تكن تقطع الحجارة البريئة المسكينة بل كنت تغازل حوريات الغابة.

اظهر لها تشارلز لحظة حرج لا سبيل الى شرحها، وعمد الى رسم ابتسامة فوقها. كان على وشك ان يخبرها بشأن الفتاة اذ فكر بطريقة ظريفة يصف فيها كيفية مصادفته اياها. الا ان ذلك بدا اشبه بالخيانة، خيانة احزان الفتاة الحقيقية وخيانتة نفسه. وكان يعلم انه سيكون كاذبا لو صرف النظر عن ذينك اللقائين. غير ان الصمت لاح اخر الامر اقل زيفا في تلك الغرفة البسيطة.

يقي ان نوضح السبب الذي كان يثير فيه وير كومونز صورة سدوم وعامورة⁽³⁸⁾ في وجه السيدة بولتيني قبل اسبوعين.

في الواقع لا يحتاج المرء الى ايضاح اكبر من القول انه كان اقرب مكان لبلدة لام يستطيع الناس الذهاب اليه دون ان يتجسس عليهم احد. والمنطقة معروفة بتاريخها الغامض الطويل والباعث على الازعاج. وقد عدت دوما ارضا مشاعا حتى صدور قانون استملاكها من السلطات. وبعد ذلك بدا التجاوز عليها وضمها كما تشهد على ذلك اسماء حقول مزرعة الالبان التي سرقت كلها منها. وقام احد السادة من اصحاب البيوتات الكبيرة الواقعة وراء الجزء الاسفل من الجرف بتحقيق وحدة بموافقة اصدقائه - كما هو مألوف في التاريخ - في المجتمع. صحيح ان المواطنين الجمهوريين في بلدة لام استعدوا للقتال بالسلاح - هذا اذا كان الفأس سلاحا. فقد عقد السيد العزم على اقامة مشتل لاغراض علمية في الجزء الاسفل من الجرف. فرفع الامر الى المحكمة وتم التوصل الى تسوية اثر ذلك، اذ نقلت ملكية جزء من المنطقة اليه في حين ظلت الاشجار النادرة على وضعها دون ان يمسه شيء. الا ان الارض المشاع وضع حد لها.

(38) سدوم وعامورة: مدينتان بقلسطين القديمة على شاطئ البحر الميت دمرهما الله لانغماس اهلها في الرذيلة والفساد. (المترجم)

على الرغم من ذلك ظل هناك احساس بين السكان المحليين بأن وير كومونز كانت ملكية عامة. كما ان منتهكي حرمة اراضي الغير سقطوا بإثم اقل من اي مكان اخر وهم يطاردون الارانب والدراج. وفي يوم ما اكتشفت الاهوال؛ كانت عصابة من الفجر تقطن في تلك المنطقة اقامت مخيمها في وادٍ صغير بعيد عن الانظار مدة طويلة لا يعرفها احد. وسرعان ما بُد هؤلاء المنبذون، غير ان ذكرى وجودهم ظلت شاخصة، وباتت تقترن بذكرى طفلة صغيرة اختفت في الوقت نفسه تقريبا من احدى القرى المجاورة. واصبح من الامور الشائعة ان الفجر اصطحبوا الطفلة واياهم ومن ثم القوا بها في قدر طعام معد من الارانب، ومن ثم دفنوا عظامها.

بسيد ان اخطر اتهام موجه الى منطقة وير كومونز يقترن بسلوك لا اخلاقي شائن. فقد كان ممر العربات المؤدي الى حقل الالبان والمنطقة الواقعة الى الورا منه والمؤدية الى الغابة يمثل طريق العاشق حقا على الرغم من انه لم يحمل ابدا ذلك الاسم الريفى المألوف. فقد كان يجذب اليه العشاق في كل صيف. وكان المبرر في ذلك هو الحصول على طاس من الحليب من حقل الالبان. وكان العديد من الممرات الصغيرة الجذابة، اذا ما عاد المرء ادراجه، تؤدي الى اجمات السرخس والزعرور البري المتوارية عن الانظار.

كانت تلك البلوى المستمرة مزعجة بما فيه الكفاية. ما زال هناك ظلام كثيف، وكان ثمة موروث سابق لعهد الطوفان (اقدم من شكسبير بكثير) يقول ان الشبان ينبغي لهم في ليلة منتصف الصيف ان يذهبوا حاملين المصابيح، مصطحبين عازف الكمان، وبرميلا صغيرا او برميلين من شراب عصير التفاح ويتجهوا الى مرج صغير يعرف باسم دونكيز غرين، الذي يقع في قلب الغابة وهناك يحتفلون رقصا بالانقلاب الشمسي. وقد ذكر البعض ان ما هو اكثر من الرقص كان يحدث بعد منتصف الليل في حين زعم من هو اقصى من اولئك البعض بأن الكثير من الامور الاخرى كانت تحدث والقليل القليل من الرقص.

لقد ضاعت المنطقة الخضراء هذه مؤخرا بسبب الزراعة العلمية التي كانت تأخذ شكل الورم الهلامي. غير ان العادات نفسها تلاشت فيما يخص تلاشي الاعراف الجنسية. وقد مرت سنين طويلة لم يمر احد في اثائها بمنطقة دونكيز غرين

في ليلة منتصف الصيف باستثناء ثعلب او شبل حيوان الغرير. لكن الامر لم يكن كذلك في عام 1867.

قبل عام واحد من ذلك التاريخ، طلبت لجنة من السيدات بزعامة السيدة بولتيني من السلطات المدنية ان توضع بوابة على الطريق، ويصار الى وضع سياج للمنطقة وغلقها. بيد ان اصواتا ديمقراطية اكثر كتب لها الفوز. ولا بد من بقاء المنطقة العامة مقدسة الى ابعد حد. وكان هناك بعض المؤمنين بالمذهب الحسي من بين اعضاء المجلس البلدي قالوا بأن الطريق الى حقل الالبان انما هو متعة بريئة، وان حفلة دونكيز غرين ليست اكثر من مسرحية هزلية سنوية. الا انه يكفي القول بانه ليس على احد ابناء المدينة المحترمين الا القول بأن فتى ما او فتاة ما هما من نمط وير كومونز وعندئذ ستبقى سمعتهما ملطخة الى الابد. واذا ذاك لا بد ان يكون الفتى شبقا والفتاة عاهرة.

لهذا السبب، وجدت سارة السيدة بولتيني تجلس في انتظارها عندما عادت من جولتها في ذلك المساء الذي اجبرت فيه السيدة فيرلي نفسها على انجاز واجبها على نحو نبيل. قلت في انتظارها، الا ان عبارة على نحو رسمي من شأنها ان تكون مناسبة اكثر. حضرت سارة الى حجرة الاستقبال الخاصة للقيام بقراءة الانجيل (الكتاب المقدس) المسائية، ووجدت نفسها كأنها في مواجهة فوهة مدفع. كان من الواضح تماما ان السيدة بولتيني ستنفجر في اي لحظة، وبدوي هائل.

اتجهت سارة صوب المنضدة المخصصة لتلاوة الكتاب المقدس في ركن الغرفة... غير انها لاحظت ان الامور ليست على ما يرام.

- اهنالك خطب يا سيدة بولتيني؟

فقلت رئيسة الدير:

- خطب كبير. لقد نقل الي خبر لا استطيع تصديقه.

- ايجني انا؟

- ما كان ينبغي لي ان استمع الى الطبيب. كان ينبغي لي ان اصغي الى اوامر

فطرتي السليمة.

- ما الذي اقترفته؟

- انا لا اظنك مجنونة ابدًا، انك مخلوقة مأكرة، شريرة. وانت تعرفين ماذا فعلت.

- ساقسم بالكتاب المقدس...
- غير ان السيدة بولتيني نظرت اليها نظرة ساخطة.
- لن تفعلي شيئا من هذا القبيل! ذلك كفر.
- تقدمت سارة الى الامام، ووقفت امام سيدتها.
- ينبغي لي ان اعرف ما هي التهمة الموجهة لي.
- فما كان من السيدة بولتيني الا ان اخبرتها. ولدهشتها الكبيرة لم تظهر سارة اي علامة تشير الى الاحساس بالخجل.
- لكن اين هي الخطيئة في التجوال قرب وير كومونز؟
- الخطيئة! انت شابة، وحيدة في مثل هذا المكان!
- لكن يا سيدتي، ليس المكان الا غابة كبيرة.
- اعرف جيدا ما هو المكان. واعرف ما يدور فيه. واعرف نوع الاشخاص الذين يرتادونه.
- لا احد يرتاده. لهذا السبب اذهب الى هناك؛ كي اكون وحيدة.
- اتكذبنني يا انسة! الا اعرف ما اقول؟
- كانت الحقيقة البسيطة الاولى هي ان السيدة بولتيني لم تشاهد وير كومونز ابدا، حتى ولو من مكان بعيد لأنها كانت بمنأى عن انظار اي طريق تسلكه العربات.
- والحقيقة البسيطة الثانية هي انها كانت مدمنة على تعاطي الافيون - لكن قبل ان يأخذك الظن بانني اضحي بما هو مقبول على حساب الاثارة، دعني اضيف على عجل بانها لم تعرفه. فالشيء الذي نطلق عليه اسم الافيون كانت تسميه مستحضر الافيون.
- كانت العديد من سيدات القرن التاسع عشر يرشفن كميات كبيرة منه...، فقد كان ذلك الدواء رخيصا بما يكفي لمساعدة كل الطبقات على التغلب على تلك الليلة السوداء الخاصة بالجنس اللطيف. كان، باختصار معادلا مساويا تقريبا للحبوب المسكنة المستعملة في عصرنا. انا لا نحتاج الى معرفة السبب وراء كون السيدة بولتيني واحدة من سكان وادي الدمى الفكتوري، غير ان الامر له صلة بحقيقة ان مستحضر الافيون يجعل المرء يحلم احلاما سعيدة كما اكتشف ذلك كولرج⁽³⁹⁾ ذات مرة.

(39) صموئيل تايلور كولرج (1772-1834): شاعر رومانسي انكليزي يعد من اعظم المنظرين الانبيين في عصره. (المترجم)

انا لا استطيع ان اتخيل اي صورة شبيهة بصور بوش⁽⁴⁰⁾ تلك التي رسخت في ذهن السيدة بولتيني عن وير كومونز على مر السنين، ولا العريضة الشيطانية التي تصورتها من وراء كل شجرة، وما هي الافعال الفرنسية المستهجنة تحت كل ورقة شجرة. بيد انني اظن اننا نستطيع القول مطمئنين بانها اصبحت المعادل الموضوعي لكل ما كان يجري في عقلها الباطن.

وكان من جراء تلك الثورة ان التزمت هي وسارة الصمت. وبعد ان حررت السيدة بولتيني نفسها شرعت تغير مجرى الحديث.

- لقد سببت حزنا عظيما لي.

- لكن ماذا اقول؟ لقد حُرِّم علي الذهاب الى البحر. حسنا جدا. لن اذهب الى البحر - انني ارغب في العزلة. هذا كل ما هنالك. هذه ليست خطيئة. لا يجوز ان اوصف بالخاطئة لذلك السبب.

- الم تسمعي احدا يتحدث عن منطقة وير كومونز؟

- على اساس انه مكان من النوع الذي اوحيت به؟ لا، ابدا.

بدت السيدة بولتيني بعد ذلك خجولة امام سخط الفتاة، وتذكرت ان سارة لم تقطن في بلدة لام الا منذ وقت قريب، ولهذا السبب، فهي - كما هو مفهوم - تجهل العار الذي تجلبه.

- حسنا جدا. لكن ارجو ان تفهمي على نحو واضح. انني لا اسمح لأي من الذين يعملون عندي بالذهاب الى تلك المنطقة او حتى يشاهدون بالقرب منها. وستقتصرين في جولاتك على الاماكن المناسبة. واضح.

- نعم. سأتجول في طرق الفضيلة.

ظننت السيدة بولتيني في لحظة رهيبية انها كانت موضع سخرية. غير ان سارة كانت قد خفضت من عينيها على نحو وقور كأنها كانت تصدر قرارا بالحكم على نفسها. وكانت كلمة فضيلة مرادفة للمعانة.

- اذا ارجو الا نسمع شيئا عن هذه الحماقة. انني افعل هذا لصالحك.

همست سارة:

(40) هايروثيموس بوش (1450-1516): رسام هولندي يعد من اواخر رسامي القرون الوسطى اهتم بالموضوعات الدينية التي يصعب فهمها. (المترجم)

- اعرف ذلك.

ثم اضافت:

- شكرا لك يا سيدتي.

لم تتفوه المرأتان بأي كلمة اثر ذلك. فعادت وقرأت المقطع الذي اشترته السيدة بولتيني. وكان نفس المقطع الذي سبق لها ان اختارته للقراءة في المقابلة الاولى. قرأت سارة بصوت ينم عن الخشوع التام لكنه يخلو من اي عاطفة كما يبدو. جلست المرأة العجوز في مواجهة الظلال الداكنة في الطرف القصي من الغرفة. وبدت مثل صنم... ناسية التضحية التي يتطلبها وجهها الصارم الذي لا يعرف الرحمة.

في وقت لاحق من تلك الليلة كانت سارة تشاهد واقفة - لا ادري ممن تشاهد اللهم الا من يوم عابر - قرب النافذة المفتوحة في حجرة نومها المظلمة. كان الصمت يغلق البيت، والمدينة ايضا، اذ كان الناس يأوون الى فراشهم عند الساعة التاسعة في تلك الايام التي لم تشهد بعد الكهرباء والتلفزيون. كانت الساعة انذاك الواحدة. وكانت سارة ترتدي ثياب النوم وقد اרכת شعرها، واخذت تمعن النظر في البحر. كان ثمة مصباح بعيد يبعث ضوءا خافتا متقطعا من فوق المياه المظلمة وفي اتجاه بورتلاند بيل حيث كانت سفينة ما تبهر صوب بريدبورت. شاهدت سارة نقطة الضوء الصغيرة ولم تشغل بالها في التفكير فيها.

لو انك اقتربت منها اكثر لوجدت ان وجهها غرق في عبرات صامتة. انها لم تكن واقفة قرب نافذتها باعتبار ذلك جزءا من يقظتها الغامضة من اجل اشارة الشيطان، بل كان ذلك مقدمة للابتعاد عنها.

لن اتركها تترنح عند حافة النافذة، او تتمايل الى الامام ومن ثم تنهار باكية فوق بساط غرفتها العتيق. انا نعلم انها كانت حية بعد اسبوعين من تلك الحادثة، ولهذا السبب فهي لم تقفز. كما لم تكن دموعها ونشيجها من النمط الهستيرى الذي يتطلب فعلا عنيفا، بل كانت دموعا سببها البؤس المشروط العميق، لا العاطفي، الذي كان يتدفق تدفقا بطيئا، بلا توقف، ينسز مثل دماء من تحت الضمادات.

من هي سارة؟

من اي ظلال خرجت؟

لان اندفاع الصانع اعمى، ايزيس متخفية وراء قناع...

تينيسون - مود 1855

لا ادري. ان هذه القصة التي ارويها محض خيال. وهذه الشخصيات التي انتجتها لم توجد خارج مخيلتي. ولو انني تظاهرت حتى الان اني اعرف عقليات شخصياتي وافكارها الباطنية فذلك يرجع الى انني اكتب ضمن بعض مفردات وصوت موروث كان مقبولا تماما في الزمن الذي تدور فيه احداث قصتي وهو ان الروائي يأتي في المرتبة الثانية بعد...: ربما هو لا يعرف كل شيء، الا انه يتظاهر بانه يعرف كل شيء. بيد انني اعيش في عصر ألن روب - غريليه ورولان بارثيس. ولو كانت هذه رواية، فإنها لا يمكن ان تكون رواية وفق المعنى الحديث للكلمة.

اذا ربما اكون اكتب سيرة ذاتية منقولة؛ ربما اعيش الان في احد البيوت التي وصفتها في الرواية؛ ربما كان تشارلز يمثلني انا متكررا. ربما ان المسألة ليست الا لعبة. ان نساء عصريات من مثل سارة موجودات. ولم افهمهن قط. او ربما احاول ان اممر لك كتابا مخفيا من المقالات عنك وبدلا من عناوين الفصول، ربما كان ينبغي لي ان اكتب: في افقية الوجود، وهم التقدم، تاريخ شكل الرواية، علم اسباب الحرية، بعض المظاهر المنسية عن العصر الفكتوري... حسبما تشاء.

ربما تفترض ان الروائي ما عليه الا جذب الخيوط الصحيحة وعندئذ ستصرف الدمى تصرفا حيا، ويقدم، عند الطلب، تحليلا شاملا لدوافعها واغراضها. من المؤكد انني ارمي في هذه المرحلة (الفصل الثالث عشر - الكشف عن حالة سارة العقلية) الى قول كل شيء، او كل ما يهم. الا انني اجد نفسي فجأة مثل رجل في ليلة ربيع قاسية يراقب من فوق العشب تلك النافذة العلوية المظلمة في بيت مارلبورو. انني اعلم ان سارة في سياق واقعية روايتي ما من شأنها ان تكفكف دموعها وتميل الى الاسفل وتقدم فصلا في الاعتراف. ان من شأنها ان تستدير على الفور لو انها شاهدتني هناك في نفس الوقت الذي يظهر فيه القمر، وتتوارى عن الانظار في الظلال الداخلية.

غير انني روائي، ولست رجلا في احدى الحداث - استطيع ملاحقتها الى حيث اريد؟ الا ان الاحتمال ليس كون الشيء جائزا. غالبا ما يتمكن الازواج من قتل زوجاتهم - والعكس بالعكس - دون ان يتعرضوا لعواقب وخيمة. الا انهم لا يفعلون ذلك.

من الجائز ان تظن ان الروائيين لديهم دوما الخطط الثابتة التي يعملون بموجبها، بحيث ان المستقبل الذي جرى التوقع به في الفصل الاول انما هو دوما حقيقة الفصل الثالث عشر. بيد ان الروائيين يكتبون لاسباب مختلفة لا تحصى: سعي وراء المال، الشهرة، مراجعي الكتب، الالباء، الاصدقاء، الاحباء، الزهو، الفخر، حب الفضول، المتعة: تماما مثلما يستمتع صانع الاثاث بصناعته، والحكام بالحكم، ومثلما يستمتع سكان صقلية بافراغ المسدس في ظهر عدو. في وسعي ان املا صفحات كتاب كاملة بايراد الاسباب ومن الممكن ان تكون كلها صحيحة على الرغم من ان هذا الشيء لا ينطبق على الجميع. فهناك سبب واحد نشترك فيه جميعنا: اننا نرغب في انتاج عوالم تتساوى في واقعيتها والعالم الواقعي، ولكنها تختلف عن العالم الواقعي او الذي كان واقعا. لهذا السبب لا نستطيع ان نخطط. اننا نعلم ان العالم عبارة عن نظام، لا آلة. ونعلم ايضا ان العالم المبتكر على اساس اصيل ينبغي ان يكون مستقلا عن خالقه؛ ان العالم المخطط له (العالم الذي يكشف تماما مخططه) هو عالم ميت. وعندما تبدأ شخصياتنا واحداثنا بالتمرد علينا فإنها عندئذ فقط تبدأ بالحياة. وعندما ترك تشارلز سارة عند حافة الجرف فاني امرته ان يذهب مباشرة الى بلدة لام ريجيس. الا انه لم يمثل للامر، بل استدار واتجه بلا مسوغ الى حقل الالبان.

الا انك قد تقول: اه. ان ما اعنيه حقا هو ان الفكرة مرت في ذهني حينما كنت اكتب انه ربما كان مما يدل على ذكاء اكبر ان اجعله يتوقف ويشرب الحليب... ومن ثم يلتقي بسارة مرة اخرى. من المؤكد ان هذه احدى التفسيرات لما جرى، غير انني لا استطيع الا ان انقل - وانا هنا شاهد ممكن الوثوق به تماما - بأن الفكرة بدت لي وهي تأتي على نحو واضح من تشارلز، لا مني انا؛ وهو لم يبدأ فقط بالحصول على استقلال ذاتي؛ ينبغي لي ان احترم ذلك، والا احترم كل خططي شبه الرائعة الخاصة به اذا ما رغبت في ان يكون حقيقيا.

بمعنى ادق، لا بد لي - كي أكون حرا - من اعطائه هو وتينا وسارة وحتى السيدة بولتيني البغيضة حرياتهم.

لا يزال الروائي مبتكرا لأنه مبتكر (على الرغم من ان الرواية الطليعية الحديثة الاوفر حظا لم تستطع الغاء الروائي الغاء تماما). كل ما حدث هو اننا لم نَعُدْ نعلم بكل شيء، ونصدر الاحكام القضائية؛ ولكن في الصورة اللاهوتية الجديدة حيث الحرية هي المبدأ الاول لا السلطة.

هل حطمت الوهم على نحو شائن؟ لا. ان شخصياتي لا تزال موجودة وفي واقع ليس اقل او اكثر واقعية من الواقع الذي حطمته قبل قليل. ان الرواية محبوبة في كل متماسك كما اشار احد الاغريق قبل حوالى الفين وخمسمئة سنة. وقد وجدت هذه الواقعية الجديدة (او اللا واقعية) صحيحة اكثر. وارغب في ان تشاطرنى مشاعري بانني لا اسيطر على هذه المخلوقات سيطرة تامة في ذهني اكثر مما تسيطر انت على اطفالك وزملائك واصدقائك وحتى نفسك، بغض النظر عما تبذله من جهد ومهما حاولت ان تكون مثل السيدة بولتيني المعاصرة.

لكن هذا محال؟ فالشخصية اما ان تكون واقعية او متخيلة. ولو فكرت ان هذه ليست الا محاضرة زائفة، فلا استطيع عندئذ سوى الابتسام. فانت لا تعتقد بأن ماضيك نفسه على هذا النحو من الواقعية. فتعتمد الى اظهاره في صورة معينة، تعطيه مظهرا خداعا او تلطخه، تفرض عليه رقابة، تصلحه، تفرغه في قالب روائي ومن ثم تركنه فوق احد الرفوف - كتابك، سيرتك الذاتية المنطوية على الرومانسية. اننا جميعنا نهرب من واقعية الواقع. وهذا هو تعريف أساسي للجنس البشري.

هكذا، اذا ظننت أن هذا الاستطراد غير المحظوظ (الا انه الفصل الثالث عشر) لا صلة له بوقتك، تقدمك، مجتمعتك، نشوئك، وكل تلك الاشباح المكبرة الاخرى في الليل والتي تفرقع باصفادها وراء مشاهد هذا الكتاب... فلن اجادللك، غير انني سأرتاب منك.

انسا لا انقل اذا سوى الحقائق الخارجية: ان سارة بكت في الظلام غير انها لم تنتحر، وواصلت التردد على منطقة وير كومونز على الرغم من الحظر الواضح. لهذا السبب، فلانها قفزت حقا على نحو ما، وكانت تعيش في حالة سقوط طويل

لأن الاخبار، عاجلا او اجلا، ستصل السيدة بولتيني بخصوص مضاعفة الخاطئة خطيئتها. صحيح ان سارة اخذت تردد على الغابة على نحو اقل مما كان مألوفاً لديها. وهي حالة من الحرمان كان من السهل احتمالها اول الامر بسبب الطقس المصحوب بالمطر في ذينك الاسبوعين التاليين. وصحيح ايضا انها اتخذت بعض الاحتياطات الصغيرة من النوع العسكري. فقد كان طريق العربات يتجه في ممر ضيق صغير، افضل بقليل من طريق العربات الجيد نفسه، ومن ثم ينحني الى وادٍ عريض يدعى وير فالي حتى يلتقي بعد ذلك عند ضواحي بلدة لائم بطريق العربات الرئيس المؤدي الى سيدماوث وأكستر. وكانت هنالك مجموعة صغيرة متناثرة من البيوت المحترمة في وير فالي ولهذا السبب كان محلا مناسباً للتجوال فيه. ولحسن الحظ لم تكن اي من تلك البيوت لتطل على تقاطع طريق العربات بالممر. وحالما كانت سارة تصل الى هناك، فإنها تنظر من حولها للتأكد من عدم وجود احد. وذات يوم انطلقت في سيرها وهي عازمة على التوغل داخل الغابة. وبينما هي في ذلك الممر وصلت الى الطريق المؤدي الى حقل الالبان وشاهدت شخصين يتقدمان من حول حافة مرتفعة. فما كان منها الا ان اتجهت صوبهما، وعندما وصلت قرب الحافة اخذت تراقب للتأكد من ان الشخصين لم يسلكا طريق حقل الالبان. ومن ثم عادت ادراجها، ودخلت مأواها دون ان يشاهدا احد.

كانت تجازف باللقاء باشخاص اخرين يتنزهون في الطريق نفسه. كما كانت هناك المجازفة برؤية صاحب حقل الالبان وأعين اسرته. الا انها تمكنت من تجنب هذا الخطر الاخير بأن اكتشفت لنفسها ان احد الممرات الجذابة المؤدية الى اجمة السرخس من فوق الطريق تلتف بعيدا عن مرأى حقل الالبان وتتجه صوب الممر وتخترق الغابة. وكانت تسلك هذا الطريق الى عصر ذلك اليوم عندما ظهرت شاخصة، على نحو متهور، كما ندرك الان، امام الرجلين.

كان السبب بسيطا. لقد نامت نوما طويلا، وكانت تعلم انها تأخرت عن موعد القسراءة. وكان من المقرر ان تتناول السيدة بولتيني طعامها في بيت السيدة كوتون في ذلك المساء. وتقدم الوقت ساعة كي تسمح لنفسها بالاستعداد للامر الذي كان في جوهره دوما، ان لم يكن في مظهره، عبارة عن صدام هائل بين دينو صورين اثنين، حيث يحل المخمل الاسود محل الغضروف الحديدي. لم تكن معركة اقل عنادا وقسوة.

كما صعقها وجه تشارلز الذي كان يمعن النظر في الارض. شعرت ان سرعة سقوطها تزداد؛ عندما تندفع الارض القاسية الى الاعلى، عندما يكون السقوط من مثل هذا الارتفاع، ما هي فائدة الحذر؟

- ان رأسي بالعشرة الطيبة، يا سيد اليوت، هي عشرة الناس الانكباء
الواسعي الاطلاع الذين يملكون احاديث كثيرة. هذا ما اسميه العشرة
الطيبة.

قال برفق:

- انت على خطأ. تلك ليست بالعشرة الطيبة، بل هي افضل عشرة.
العشرة الطيبة لا تتطلب سوى المولد، الثقافة، الاخلاق، وفيما يخص
الثقافة، ليست لطيفة جدا.

جين اوستن - الاقناع

اذا لم يكن على زوار بلدة لايم في القرن التاسع عشر ان يمروا بمحنة المسافرين
الى المستوطنات الاغريقية القديمة (في الواقع ان تشارلز لم يكن مضطرا لالقاء خطبة
على غرار بيريكليس⁽⁴¹⁾، علاوة على موجز شامل لانباء العالم من على سلام دار
البلدية) فانه كان سينتظر منهم مؤكدا السماح لانفسهم ان يكونوا معرضين
للمعاناة والحديث. وقد حذرت ايرنستينا تشارلز قبل الان من هذا الامر: ان عليه
ان ينظر الى نفسه على انه ليس اكثر من وحش في معرض وان يتلقى النظرات غير
المهذبة وان يتحمل وخز المظلات باكر ما يستطيع من المودة. وهكذا كان يضطر
مرتين او ثلاث مرات في الاسبوع الى القيام بزيارات الى سيدات ويعاني ساعات
من السأم الموجه كان العزاء الوحيد فيها المشهد الصغير الذي كان يحدث بانتظام
يهج النفس عندما كانا يرجعان الى منزل الخالة ترانتر. وكان من شأن ايرنستينا
ان تبحث بتوق في عينيه اللتين كانت تغلفهما سحب من حديث قصير مبتذل
لتقول له: «اكان الامر فظيعا؟ افى وسعك ان تغفر لي؟ اتكرهني؟» واذا ما ابتسم
لها فإنها كانت تلقي بنفسها بين ذراعيه كأنه تمكن باعجوبة ان ينجو من احداث
شغب او انهيار جليدي.

(41) بيريكليس: (495؟ 429 ق. م) رجل دولة اثيني، بلغت اثينا في عهده اوج ازدهارها
السياسي والثقافي. (المترجم)

هكذا تحدد ان يقع الانهيار الجليدي في الصباح الذي تلا اكتشاف تشارلز منطقة الجزء السفلي من الجرف في بيت مارلبورو. لم يكن هناك اي شيء اتفاقي او عفوي بشأن هذه الزيارات. ولم يكن في الامكان حدوث مثل ذلك الشيء طالما ان شخصيات الزوار والذين يزارون تنكشف في المدينة الصغيرة بسرعة لا تصدق. وقد استتبع ذلك قدر من الاحساس الصارم بنظام التشريفات. وربما كان اهتمام السيدة بولتيني بتشارلز لا يزيد عن اهتمام تشارلز بها. الا انها ستشعر باهانة كبرى لو لم يتم اقتياده اليها مصفدا بالاغلال لتضع من فوقه قدمها الصغيرة المكتنزة - وبعد وصوله مباشرة، لأنه كلما تأخر عن الزيارة في اثناء اقامته قل الاحترام. هؤلاء الزوار كانوا في الاساس خصوما في لعبة. وكانت الزيارات غير مهمة؛ المهم هو الاستخدامات اللذيذة التي يمكن ان توظف فيها عندما تحدث. «عزيزتي السيدة ترانتر، كانت ترغب في ان أكون اول من يلتقي...» و«اني في منتهى الدهشة لأن ايرنستينا لم تترك بعد - لقد افسدتنا - زيارتان حتى الان...» و«اني واثقة انه خطأ غير مقصود - ان السيدة ترانتر انسانة حنونة غير أنها شاردة الذهن...» هذه العبارات وغيرها من الفرص المشابهة التي يسيل فيها اللعاب كانت تعتمد على وجود زوار مهمين مثل تشارلز. ولم يكن في مستطاعه ان يتجنب قدره شأنه شأن فار مكتنز يتدلى من بين مخالب قط جائع - العديد من القطط الجائعة، اذا توخينا الدقة.

عندما اعلن عن وصول السيدة ترانتر بصحبة رفيقتيها الشابتين في الصباح الذي اعقب لقاء الغابة، نهضت سارة بسرعة كي تغادر الحجرة. غير ان السيدة بولتيني طلبت منها البقاء، وكانت فكرة السعادة الجديدة تجعلها وقحة دوما وكانت هي على اي حال تملك ما يكفي من الاسباب - بعد امسية السيدة كوتون - لأن تكون اكثر من وقحة. وقد اعتبرت ايرنستينا شابة تافهة وكانت واثقة ان زوجها في المستقبل هو شاب تافه ايضا. وكان من واجبها تقريبا ان تثير حرجهم. علاوة على ذلك، كانت تعلم ان مثل تلك المناسبات الاجتماعية اشبه ما تكون بقميص خشن الملمس للخاطئة. لقد تأمر الجميع.

أدخل الزوار، وتقدمت السيدة ترانتر الى الامام وهي تحدث حفيفا، رقيقة، مسرفة في التعبير عن عواطفها. وقفت سارة بحياء، تشعر بألم ان المكان لا يناسبها،

في الجزء الخلفي من الحجرة، بينما وقف تشارلز وايرنستينا هادئين فوق السجادة من وراء السيدتين الأكبر سناً، واللّتين كانتا تعرفان بعضهما بعضاً عقوداً من الزمن تكفي لجعل ما يشبه العناق الرمزي أمراً ضرورياً. ثم تقدمت ايرنستينا وهي تنحني انحناءً واهية قبل أن تصافح اليد الملكية.

- كيف حالك يا سيدة بولتيني؟ يبدو أنك على ما يرام تماماً.

- إن رخاء الروح لمن هي في سني يا أنسة فريمان أهم من كل شيء.

- إذا لن أخشى عليك شيئاً.

كان من شأن السيدة بولتيني أن تفضل الاستمرار في هذا الموضوع المثير للاهتمام، بيد أن ايرنستينا التفتت كي تقدم تشارلز الذي انحنى من فوق يد السيدة العجوز.

- إنه لمن دواعي سروري العظيم يا سيدتي. بيت رائع.

- إنه أكبر مما ينبغي، وأنا احتفظ به أكراماً لزوجي العزيز، فأنا أعلم أنه كان

يتمنى - بل يتمنى - أن يكون كذلك.

ثم ألقت نظرة فاحصة إلى ما وراء تشارلز حيث كان ينتصب أغلى ما في بيت الرئيس ممثلاً في لوحة زيتية لفردريك يعود تاريخها إلى عامين قبل وفاته في 1851، وكان يبدو واضحاً أنه رجل حكيم، متدين، جليل، بهي الطلة؛ وقبل كل شيء أرفع من الجميع. من المؤكد أنه كان رجلاً ورعاً وجليلاً إلى أبعد الحدود، غير أن الرسام استمد الخيال من أجل سجايه الأخرى. لقد ظلت السيدة بولتيني التي رحل عنها منذ زمن امرأة تافهة تماماً على الرغم من ثرائها الكبير. وكان العمل الوحيد المهم حقاً في حياته هو تركه أياها. القى تشارلز نظرة شاملة على هذا الهيكل العظمي في الحفل باحترام مناسب.

- أه حقاً. أفهم. طبيعي تماماً.

- لا بد من اطاعة رغباتهم.

- وهو كذلك.

هنا انتهزت السيدة ترانتر الفرصة بعد أن ابتسمت لسارة كي تتدخل في هذا

اللحن الافتتاحي الكثيب.

- يسعدني أن التقى بك يا عزيزتي الأنسة وودراف.

ثم تقدمت، وضغطت على يد سارة، ونظرت اليها نظرة قلقة حقا، وازافت بصوت خفيض:

ألن تأتي لزيارتي - عندما ترحل العزيزة تينا؟

ثم اعقبت ذلك بنظرة اخرى استغرقت ثانية واحدة وهي تطوف في وجه سارة. لقد قيم ذلك الحاسب الالكتروني الموجود في قلبها السيدة ترانتر منذ زمن طويل، وبقي فيه الشريط الذي يتضمن النتيجة. وسرعان ما سقط ذلك التحفظ، ذلك الاستقلال القريب على نحو خطر من التحدي الذي اصبح قناعها في اثناء وجود السيدة بولتيني. فابتسمت في نفس اللحظة، على الرغم من ان ابتسامتها كانت حزينة، وأومات ايماءة متناهية في الصغر: لو استطاعت فستزورها.

بعد هذا جرى تقديم الآخرين، ومالت الشابتان برأسيهما ببرود الواحدة تجاه الأخرى بينما انحنى تشارلز وراقب عن كثب ليري ان كانت الفتاة ستفشي بأي شكل سر لقائيهما في اليوم السابق، غير ان عينيها تجنبتا عمدا عينيها. وكان منجذبا لمعرفة كيف سيكون تصرف الحيوان البري في هذه البيئة المغلقة، وسرعان ما خاب ظنه اذ لاحظ ان التصرف كان ينم عن الخنوع التام. فقد تجاهلت السيدة بولتيني سارة تجاهلا تاما الا اذا طلب منها ان تحضر شيئا ما، او ان تقررع الجرس عندما يتقرر ان السيدات يفضلن تناول الكاكاو. وكان ذلك شأن ايرنستينا ايضا وهو ما لاحظته تشارلز بشيء من الانزعاج. وقد بذلت الخالة ترانتر ما في وسعها لاشراك الفتاة في الحديث، غير انها ظلت جالسة في مكان منفصل تقريبا وكان وجهها يتسم بالانشداه، باشاحة النظر، الذي يمكن ان يفسر على انه الاحساس بمكانتها الادنى. وقد التفت هو نفسه اليها على نحو مؤدب لتوكيد فكرة مرة ومرة، لكن بلا طائل. فقد كانت ترد بأقل ما يمكن، وظلت تتجنب النظر في عينيها.

ومع اقتراب موعد نهاية الزيارة اخذ تشارلز يدرك مظهرا جديدا تماما للوضع. فقد اتضح له ان خنوع الفتاة الصامت كان على الضد من طبيعتها، وانها لهذا السبب كانت تلعب دورا، وان ذلك الدور يتمثل في الانفصال التام عن سيدتها ورفضها لها. وقد خاضت السيدة بولتيني والسيدة ترانتر في جدول موضوعات الحديث اللطيفة - وهي موضوعات ربما كانت قليلة من حيث

العدد لكنها طويلة لا نهاية لها... الخدم، الطقس، الولادات القادمة، الجنازات والزيجات، السيد دزرائيلي والسيد غلادستون - وهذا على ما يبدو في مصلحة تشارلز على الرغم من انه كان يسمح للسيدة بولتيني ان تدين اداة قوية مبادئ الاول الشخصية ومبادئ الثاني السياسية^(*) - بعد ذلك يجري الحديث عن موعظة الاحد الاخيرة وقصور التجار المحليين وبعد ذلك العودة الى الخدم على نحو طبيعي. وفي حين كان تشارلز يتسم، ويرفع من حاجبيه، ويومئ في خلال هذا المظهر المألوف فانه عقد العزم على ان الانسة وودراف الصامته كانت تتعذب في ظل الاحساس بالظلم؛ ولا تفعل شيئاً يذكر لاختفاء ذلك وهو ما يتضح للمراقب الذكي.

كان هذا مفهوماً من تشارلز لأنه لاحظ شيئاً غاب عن انظار كل شخص تقريباً في بلدة لايم. لكن ربما كان من شأن استنتاجه ان يظل في مرحلة الشكوك لولا ان افصحته مضيفته عن سلوك مميز لها.

- تلك الفتاة التي طردتها من العمل، الم تتسبب في ازعاج اكثر لكم؟

ابتسمت السيدة ترانتر.

- ماري؟ لن افطر بها من اجل العالم كله.

- لقد اخبرني السيدة فيرلي انها شاهدتها هذا الصباح وهي تتجاذب اطراف

الحديث مع شخص ما.

(*) انصافاً للسيدة، ربما يمكن القول ان ازراءها الشامل في ربيع ذلك العام 1867 كان يشاطرها فيه اخرون كثيرون. فقد اعد السيد غلادرائيلي والسيد دزيستون عملاً مشتركاً يصيب بالدوار في تلك السنة. اننا ننسى أحياناً ان الموافقة على لائحة الاصلاح الكبيرة الاخيرة (التي اصبحت فيما بعد قانوناً في شهر اب/أغسطس التالي) انما كان مهندسها ابي حزب المحافظين الحديث في حين عارضها اشد المعارضة الاحرار. لهذه السبب وجد المحافظون من مثل السيدة بولتيني وقد اخذ يدافع عنهم ضد هول مشاهدة من هم احط شأناً قريبين من التصويت، زعيم الحزب الذي كانوا ينفرون منه على اسس اخرى واقعية. وقد ذكر (ماركس) في أحد مقالاته المنشورة في صحيفة (نيويورك ديلي تريبيون) ان المحافظين البريطانيين في الواقع «يمثلون شيئاً مختلفاً تمام الاختلاف عن المبادئ المستتيرة والليبرالية التي يتشددون بها. وبهذا، فانهم يشبهون في موقعهم المدمن الذي يقوم امام اللورد المحافظ ويعلن انه يمثل مبادئ ضبط النفس غير انه لسبب ما يُكثر من المشروب المفضل في ايام الاحاد. وهذا النموذج لم ينقرض. (المؤلف)

تفوهت السيدة بولتيني بكلمة شخص على نفس النحو الذي قد يستعمل فيه
فرنسيان وطنيان كلمة نازي في اثناء الاحتلال.
- شخص شاب، لا تعرفه السيدة فيرلي.
رمقت ايرنستينا تشارلز بنظرة حادة تنطوي على تأنيب. وفي لحظة غضب
تصور انه متهم، ثم ادرك الامر.
ابتسم، ثم اضاف لفائدة السيدة بولتيني:
- مما لا شك فيه اذا انه خادمي سام يا سيدتي.
تفادت ايرنستينا عينيه.
- اردت ان اقول اني شاهدتكما يتجاذبان اطراف الحديث يوم امس.
- من المؤكد اننا لن نسعى الى منعهما من الحديث اذا ما التقيا.
- هناك فرق كبير بين ما هو مقبول في لندن وما هو ملائم في هذه المنطقة.
اعتقد انه من الضروري الحديث الى سام. فالفتاة سهلة الانقياد.
بدت السيدة ترانتر جريحة المشاعر.
- يا عزيزتي ايرنستينا، ربما كانت جريئة، الا انني لا املك ادنى سبب لـ...
- خالتي العزيزة الحنون. انا اعرف جيدا كم انت مولعة بها.
سمع تشارلز لهجتها الجافة فتقدم للدفاع عن السيدة ترانتر.
- اتمنى لو ان الكثير من السيدات مولعات على هذا النحو. فليست هناك
اشارة اكيدة تدل على البيت السعيد افضل من وجود خادمة سعيدة عند بابه.
اطرقت ايرنستينا تفكر في ذلك وقد احكمت اطباق شفيتها. اما السيدة
ترانتر الطيبة فقد احمر وجهها لهذا الاطراء، واطرقت هي الاخرى في حين اصغت
السيدة بولتيني لهذه النيران المتقاطعة بشيء من المتعة. وقررت الان انها تكره تشارلز
على نحو يكفي لأن تكون فظة معه.
- ان زوجتك في المستقبل حكم افضل منك في هذه الشؤون يا سيد سميثسون.
انني اعرف الفتاة التي يجري الحديث عنها، وقد اضطررت الى طردها. ولو كنت اكبر
سنا لعرفت ان المرء لا يمكن ان يكون متزمتا اكثر مما ينبغي في مثل هذه الامور.
ثم اطرقت بدورها، وهي اشارة تدل على ان موضوعا ابدت رأيها فيه وانه
لهذا السبب قد انتهى.

- انني انحنى احتراما لتجربتك العظيمة يا سيدتي.

غير ان لهجته كانت باردة، ساخرة بلا ريب.

جلست السيدات الثلاث وكل واحدة تتفادى النظر الى الاخريات: السيدة ترانتر بدافع الاحراج، ايرنستينا بدافع الانزعاج من نفسها؛ لأنها لم تكن ترمي الى التسبب في مثل هذا الزجر لتشارلز، وتمنت لو انها لزمّت الصمت، اما السيدة بولتيني فبدافع كونها السيدة بولتيني وهكذا، فإن نظرة لم تشاهدها اولئك النسوة بـودلت اخيرا بين سارة وتشارلز. كانت نظرة قصيرة جدا، الا انها كانت زاخرة بالمعاني؛ غريبان ادركا ان لهما عدوا مشتركا. وللمرة الاولى لم تنظر الى اعماقه، بل نظرت اليه. فوطد تشارلز العزم على ان ينتقم من السيدة بولتيني وان يلحق ايرنستينا درسا ضروريا على ما يبدو في الانسانية المشتركة.

وتذكر ايضا نزاله الاخير مع والد ايرنستينا في موضوع دارون. ان التعصب الاعمى سائد اكثر مما ينبغي في البلاد ولن يسمح بذلك عن الفتاة التي سيتزوجها. وسيتحدث الى سام. نعم. انه سيتحدث اليه.

اما كيف تحدث فهو ما سنراه بعد لحظة واحدة. غير ان الفحوى العام لتلك المحادثة كان مفهوما مقدما لأن شخص السيدة بولتيني كان في تلك اللحظة يجلس في المطبخ في الطابق السفلي من منزل السيدة ترانتر.

لقد التقى سام بماري في شارع كومبي ذلك الصباح وسألها على نحو بريء ان كان ممكنا تسلم السخام في غضون ساعة من الزمن. وكان يعلم حقا ان السيدتين الشابتين ستكونان في منزل مارلبورو.

كانت المحادثة في ذلك المطبخ جادة على نحو يثير الدهشة، اكثر جدية بكثير من تلك المحادثة في غرفة استقبال السيدة بولتيني. مالت ماري الى خزانة الاطباق وادوات الطهو وقد طوت ذراعيها الجميلتين في حين برزت خصلة من شعرها الاصفر بلون الذرة من تحت قبعتها التي ترتديها في اوقات التنظيف. وكانت بين الفينة والفينة تطرح الاسئلة، غير ان سام كان يتولى الحديث في معظم الوقت. ولم تلتقي عيونهما الا قليلا، واذ ذاك كانا يشيخان النظر احدهما عن الاخر كأن اتفاقا مشتركا عقد بينهما.

... فيما يخص الطبقات العاملة، فإن الاخلاق شبه الوحشية للجيل
السابق قد تبدلت لتحل محلها حسية عميقة، منتشرة انتشارا كليا
تقريبا...

تقرير من اقليم المناجم 1850

او في ومضة العينين الاكثر غموضا
ثمة سبب لابتسامة خاطفة

تينيسون احياء لذكرى... 1850

عندما جاء صباح اليوم التالي، وشرع تشارلز يحس بقسوة قلب سام اللندني،
فانه لم يكن في الواقع يخون ايرنستينا بغض النظر عن طبيعة القضية مع السيدة
بولتيني. وقد انصرفا بعد وقت قصير من الحديث الذي اوردنا وصفا له فيما مضى
وكانت ايرنستينا صامته في الطريق المؤدي الى شارع برود. وعندما وصلا الى ذلك
المكان شعرت انها اصبحت وحدها برفقة تشارلز. وما ان اغلق الباب من وراء
ظهر خالتها حتى انفجرت باكية (بلا مقدمات اتهام الذات المألوفة) ورمت نفسها
بين ذراعيه. لقد كان ذلك اول اختلاف يعكر صفو حبهما، وقد اثار رعبها ان
تزجر امرأة عجوز رهية حبيبها الرقيق تشارلز وكل ذلك بسبب نوبة استياء من
جانبها. وعندما ربت على كتفها على نحو لائق وكفكف دمعها تحدثت بقدر ما
تريد فسرق تشارلز قبلة من كل جفن مبلل انتقاما منها، وغفر لها على الفور.

- لماذا يتعين علينا يا عزيزتي الساذجة تينا ان ننكر على الآخرين الشيء الذي
جعلنا في منتهى السعادة؟ ما الذي سيحدث لو ان هذه الخادمة الشريرة وخادمي
سام المتهور احبا بعضهما بعضا؟ اينبغي لنا ان نرجمهما بالحجارة؟

ابتسمت له وهي جالسة في كرسيها.

- هذه نتيجة محاولة التصرف كالبالغين.

ركع الى جانبها، وامسك يدها.

- ايتها الطفلة الجميلة. ستظلين هكذا دوما عندي.
احنت رأسها كي تقبل يده، وبدوره قبل قمة رأسها.
وهمست:

- ثمانية وثمانون يوما. لا استطيع احتمال الفكرة.

- لنهرب معا ونذهب الى باريس.

- تشارلز.. يا له من تفكير شرير!

رفعت رأسها فقبلها فوق شفتيها. ثم اتكات ثانية على زاوية الكرسي، بريئة براءة
الاطفال، خجلة، وقلبها يدق بعنف حتى إنها ظنت انها على وشك الاغماء. انها رقيقة
لا تحمل مثل هذه التحولات المفاجئة في العواطف. احتفظ بيدها وضغط عليها بمرح.

- اذا استطاعت السيدة بي الجديدة بالاحترام ان ترانا الان؟

غطت وجهها بكلتا يديها، وشرعت بالضحك، كانت قهقهات مكبوتة
انتقلت الى تشارلز وارغمته على الوقوف على قدميه والذهاب الى النافذة والتظاهر
بالوقار - الا انه لم يستطع الحيلولة دون النظر الى الورااء فيشاهد عينيها من بين
اصابعها. كانت ثمة اصوات اخرى مكبوتة في الغرفة الساكنة وكلاهما مرت به
نفس الفكرة: الحريات الجديدة المدهشة التي حققها عصرهما، كم هو رائع ان
يكون الانسان شابا حديثا بكل ما في الكلمة من معنى، ويمتلك احساسا حديثا
بالدعابة، على بعد الف عام من...

- اوه يا تشارلز... اوه يا تشارلز. اذكر السيدة التي تنتمي الى بواكير العصر
الطباشيري؟

كان ذلك بداية لانفجارها ثانية، مما اثار من حيرة السيدة ترانتر المسكينة التي
كانت في الخارج، تظن ان شجارا لا بد قد نشب. وفي نهاية المطاف استجمعت
شجاعته للدخول، لترى ان كان في وسعها اصلاح ذات البين. كانت تينا لا تزال
تضحك عندما هرعت صوب الباب، وقبلتها فوق وجنتيها.

- خالتي العزيزة. لست حنونا اكثر من اللازم. انا طفلة فظيعة، فاسدة. ولا
اريد ثوبي الاخضر الخاص بالنزهات. افي وسعي ان امنحه لماري؟

هكذا، وفي وقت لاحق من ذلك اليوم نفسه برزت ايرنستينا بصدق في صلاة
ماري. اني اشك في ان ماري قد سمعتها لأنها بدلا من ان تأوي الى الفراش مباشرة

بعد ان نهضت من على ركبتيها، كما ينبغي على كل المصلين الطيبين، لم تستطع ان تقاوم رغبة بارتداء الثوب الاخضر مرة واحدة واخيرة. لم يكن لديها سوى ضوء الشمعة كي تراه من خلالها. غير ان ضوء الشمعة لم يكن يوما ما شيئا عند اي امرأة. ذلك الشعر الأشقر الوفير المتدلي، ذلك اللون الاخضر المفعم بالحوية، تلك الظلال المتأرجحة، ذلك الوجه الخجول، البهيج المدهش.

- لقد قررت يا سام اني لست محتاجا لك.

لم يستطع تشارلز رؤية وجه سام لأن عينيه مغمضتان. وكان يحلق له ذقنه. غير ان الطريقة التي توقفت بها شفرة الحلاقة اخبرته عن الصدمة التي سيطر عليها.

- في وسعك الذهاب الى كنزنجتون.

ثم ران صمت كان من شأنه ان يلين قلب اي سيد اقل سادية منه.

- اليس لديك ما تقول؟

- نعم يا سيدي. سأكون اكثر سعادة هناك.

- قررت ان لا فائدة ترجى منك. وانا ادرك تماما ان هذا هو وضعك

الطبيعي. الا انني افضل ان ارى لا فائدة ترجى منك، في لندن، التي الفت اكثر من غيرها الذين لا ترجى منهم اي فائدة.

- لم افعل شيئا يا سيد تشارلز.

- وارغب ايضا في ان اجنبك معاناة الاضطرار الى مقابلة تلك الخادمة الوقحة

في منزل السيدة ترانتر.

وتناهى الى الاسماع صوت انفاس عالية. فتح تشارلز احدى عينيه بحذر.

- اليست هذه قسوة مني؟

نظر سام نظرة ثابتة فوق رأس سيده.

- لقد اعتذرت وقبلت اعتذارها.

- ماذا؟ من عاملة في حقل البان؟ مستحيل.

اضطر تشارلز الى اغماض عينيه على وجه السرعة كي يتجنب وضع سام

فرشاة الصابون الخاص بالحلاقة على نحو فظ فوق وجهه.

- جهل يا سيد تشارلز. جهل مطبق.

- ادرك ذلك. اذا الامور اسوأ مما تصورت. لا بد لك من الرحيل دون شك.

غير ان سام لقي ما فيه الكفاية. فترك الصابون في محله حتى اضطر تشارلز الى فتح عينيه ورؤية ما حدث. كان سام يقف مقطباً حاجبيه، او على الاقل، ما يبدو شبيهاً بذلك.

- ماذا بك الان؟

- انها هي يا سيدتي^(*).

- دبة؟ اتحدث اللاتينية الان؟ لا بأس. ان فطنتي تفوقك، ايها الدب، والان اريد الحقيقة. في الامس لم تكن مستعداً للمس الشابة بأي شيء. اتنكر ذلك.

- كنت معرضاً للاستفزاز.

- اه. لكن اين هي الحركة الاولى؟ من هو المستفز الاول؟

غير ان تشارلز لاحظ انه بالغ في الامر. كانت الشفرة ترتعش في يد سام، لا بقصد القتل، بل بفعل السخط المكبوت. فمد تشارلز يده واخذها منه، ثم لوّح بها له.

- في اربع وعشرين ساعة يا سام؟ في اربع وعشرين ساعة؟

شرع سام ينظف حوض الغسيل بمنشفة كان من المقرر ان ينظف بها وجنتي تشارلز. ران الصمت، وعندما تكلم كان صوته مخنوقاً.

- لسنا جياد، بل كائنات بشرية.

عندئذ ابتسم تشارلز ووقف على قدميه، ثم سار من وراء رجله، ثم وضع يده على كتفه، فالتفت نحوه.

- اعتذر لك يا سام. لكنك ستقر بأن علاقاتك السابقة بالجنس اللطيف قلما جعلتني مستعداً لهذا الوضع.

اطرق سام ممتعضاً. ثمه سخرية ماضية محددة لتجثم عليه. - ان هذه الفتاة -
ما اسمها؟ - ماري - ربما تكون الانسة ماري هذه لها كبيراً يستحق الاثارة -
دعني انهي كلامي - غير انني علمت انها مخلوقة رقيقة. موثوق بها في اعماق قلبها
ولن اسمح لذلك القلب ان يتحطم.

- ذلك يحطمني يا سيد تشارلز!

(*) لفظ سام جملة «انها هي يا سيدي» بلهجة اهل لندن (الكوكني): "Er sir" فبدأ وكأنه يقول كلمة "Ursa" التي تعني «دب» او «دبة» باللاتينية. (المترجم)

- حسنا جدا. انني اصدقك دون ان تتحطم، لكنك لن تذهب الى البيت ثانية
او تستجاذب اطراف الحديث مع المرأة الشابة في عرض الشارع قبل ان اتحدث الى
السيدة ترانتر، وارى ان كانت تسمح بمجاملاتك طمعا في الفوز بقلب المرأة.
رفع سام بصره ثانية بعد ان كان قد اطرق طويلا، ونظر الى سيده، وابتسم
ابتسامة يرثى لها، مثل جندي يحتضر على الارض قرب قدمي ضابطه.
- انني بطة من داربي يا سيد. بطة متفتحة من داربي.
الافضل ان اضيف ان البطة من داربي هي بطة مطبوخة توا ولهذا لا امل في
بعثها.

مود في اشراقه شبابها وفتنتها تقني عن الموت، وعن الشرف الذي لا
يموت حتى كدت ان ابكي من اجل زمن يمثل هذه الوضاعة والقذارة
ومن اجل نفسي البالغة الوهن والدناءة

تينيسون: مود 1855

لم اعرف، صدقتي، المشاعر بين الرجال والنساء حتى كنت في مروج
احدى القرى في اثناء عطلات باتت الان غيبة اسير الهوينى ذات يوم
طويل، فاطر الهمة كما قال تينيسون اتجول طويلا فاطر الهمة، على نحو
اخرق فوقعت عيناى مصادفة على فتاة بلا قبعة، بلا قلنسوة...

اي. ايتش. كلف كوخ توبر - نا - فوليتش 1848

مرت خمسة ايام هادئة بعد اليوم الذي قد وصفته. ولم تتسن اي فرصة
لتشارلز للاستمرار في استكشافاته الجزء السفلي من الجرف. وذات يوم، كانت
هناك نزهة الى سدماتوث؛ اما صباحات الايام الاخرى فكانت تتخللها زيارات
او بعض التسالي المقبولة من مثل الرمي بالسهم، الذي اظهرت له الشابات
الانكليزيات حماسا شديدا انذاك، واصبح مبهجا ان يتجول اسياذ وديعون لاحضار
السهم التي ترميها السيدات من جذوع الاشجار (اخشى ان سهم ايرنستينا
القصيرة البصر قلما وصلت هناك) ومن ثم عودتهم وهم يتبادلون سرد الدعابات
عن كيوبيد⁽²⁴⁾ والقلوب والخادمة ماريان.

اما في اوقات العصر، فكانت ايرنستينا تقنعه عادة بالبقاء في بيت الخالة
ترانتر؛ فهناك شؤون منزلية في منتهى الاهمية تنبغي مناقشتها طالما ان بيت
كنزنغتون صغير اكثر مما ينبغي وان ايجار بيت بلغرافيا الذي سينتقلان اليه في
نهاية المطاف لن يصبح في متناول يدي تشارلز قبل مرور عامين اثنين. وبدا ان
الحوادث المؤسفة الصغيرة قد غيرت من ايرنستينا اذ غدت تحترم تشارلز احتراما

(24) كيوبيد: اله الحب عند الرومان. (المترجم)

شديداً، وتطيعه طاعة عمياء حتى إن تشارلز شكّا انه بدا يشعر مثل باشا تركي - وتوسل اليها، دون اصاله في الطلب، ان تختلف واياه في موضوع ما لئلا ينسى ان زواجهما سيكون زواجا مسيحيا.

دفع تشارلز ثمن هذا الغلو المفاجئ في الاحترام لكل رغبة من رغباته بكلام لطيف. اذ كان يتمتع بما يكفي من الدهاء ليدرك ان ايرنستينا قد فوجئت. فحتى وقت اختلافهما ربما كانت مولعة بالزواج اكثر من ولعها بزواجها المستقبلي. اما الان فقد عرفت الرجل كما عرفت الوضع. لا بد من الاقرار بأن تشارلز وجد ان هذا التحول من الجفاف الى الرقة عبارة عن ظل يزداد كثافة بمرور الزمن. وكان سعيدا اذ وجدها تتملق اليه، وتمطره بضروب العناية المفرطة، وتستشيريه وتبجله. واي رجل لا يريد ذلك؟ غير انه عاش سنوات طويلة من العزوية المتحررة وكان في طبعه طفلا مدللاً، مروعا الى ابعد الحدود. وكان يبدو غريبا له حتى في ذلك الوقت انه ليس حرا في اوقات الصباح، وان خطط ما بعد الظهرية يجوز التضحية بها ارضاء لنزوة من نـزوات تينا. ان لديه حقا واجبات تسنده؛ وكان متوقعا من الازواج فعل مثل تلك الاشياء، لهذا لا بد له من القيام بها - مثلما ينبغي له ارتداء القميص التحتاني الخشن وانتعال الحذاء ذي المسامير الكبيرة اذا ما اراد التنزه في الريف.

والاماسي! تلك الساعات التي كانت تنيرها مصابيح الغاز والتي لا بد من اشعالها دون الاستمتاع بالسينما او التلفزيون! قلما كانت هذه مشكلة كبيرة عند الناس الذين لديهم رزق كبير يكسبونه: فعندما تكون قد اشتغلت اثني عشرة ساعة في اليوم فإن مشكلة قضاء الوقت من بعد العشاء محلولة بيسر. لكن الاثرياء غير المحظوظين يستحقون الشفقة. فبغض النظر عن السماح الذي يعطى لهم بقضاء اوقاتهم وحيدين قبل ساعات المساء، فإن الاعراف كانت تقتضي انذاك حتمية احساسهم بالسأم من جراء صحبة من يرافقونهم. دعونا اذا نشاهد كيف يعبر تشارلز وايرنستينا صحراء واحدة محددة كهذه. على الاقل كانت الخالة ترانتر بعيدة عنهما، لأن السيدة الطيبة ذهبت لتناول الشاي عند جارة عانس ألم بها المرض، صورة الاصل منها في كل شيء باستثناء الملامح والتاريخ.

كان تشارلز ممددا على نحو رشيق فوق الاريغة، واضعا اصبعين فوق خده، والاصبعين الاخرين اضافة الى الابهام تحت ذقنه، ومرفقه فوق ذراع الاريغة، في

حين اخذ يحدق في تينا الجالسة في الجهة الاخرى من السجادة وهي تقرأ كتابا صغيرا مجلدا بجلد احمر حملته في يدها اليسرى بينما حملت في يدها اليمنى درع النار (وهو عبارة عن جسم يشبه مضرب كرة المنضدة مغطى بقماش الاطلس المزركش ومزين بشريط احمر داكن من حول حافته وهدفه منع الحرارة المنبعثة من ذلك الفحم المفرقع من ان تحمر تلك الملامح الشاحبة البسيطة) الذي كان يهتز، بلا انتظام، طبقا لايقاع القصيدة السردية المنتظم التي كانت تقرأها.

كان المجلد من اكثر الكتب رواجاً في ستينيات القرن التاسع عشر: سيدة غاراي للسيدة كارولان نورتون الذي قالت عنه مجلة ادنبرة ريفيو: «القصيدة عبارة عن قصة مؤثرة، رقيقة، عفيفة، من قصص العذاب والحزن والحب والواجب والطاعة والموت» - سلسلة جميلة بلا ريب من الصفات والاسماء الرئيسة في منتصف العصر الفكتوري التي يتوقع المرء ان يصادفها (دعوني اضيف قائلاً احسن بكثير مما استطيع انا ان ابتكره). ربما تظن ان السيدة نورتون مجرد شاعرة تافهة غير مشوقة من شعراء ذلك العصر. صحيح ان شعرها تافه كما سترى بعد قليل بيد انها لم تكن امرأة تافهة. فهي اولا حفيذة شريدان⁽⁴³⁾، وعشيقة ملبورن⁽⁴⁴⁾ كما رددت الشائعات، وقد صدق زوجها تلك الشائعات مما حدا به الى اتخاذ اجراء ناجح ضد السياسي الكبير. وكانت من اشد انصار الحركة النسوية؛ او ما يمكن ان نصلح عليه اليوم بحرية المرأة.

كانت سيدة العنوان، اي السيدة غاراي، زوجة طروب لاجد اللوردات الفرنسيين المقعنين بالحياة والنشاط وقد جرى لها حادث تسبب في عوقها (إصابتها بالعرج) اثر الصيد فوهبت البقية الباقية من حياتها الموهلة في الحزن لعمل البر - اعمال اكثر نفعا من تلك التي تؤديها السيدة كوتون لأنها اسست احد المستشفيات. ومع ان احداث القصيدة تقع في القرن السابع عشر فإنها كانت في تأيين فلورنس نايتنغيل⁽⁴⁵⁾. مما لا شك فيه ان هذا هو السبب في ان تمس القصيدة

(43) ريتشارد شريدان (1751-1861): كاتب مسرحي انكليزي، برع في التأليف المسرحي وبخاصة في الكوميديا الاجتماعية. (المترجم)

(44) وليم لام ملبورن (1779-1848): رئيس وزراء بريطاني (1834، 1835-1841). (المترجم)

(45) فلورنس نايتنغيل (1820-1910) ممرضة انكليزية لقبت بـ «السيدة ذات المصباح» وتعد مؤسسة علم التمريض. (المترجم)

قلوب العديد من النساء في ذلك العقد. اما نحن الذين نحيا بعد ذلك الزمن فاننا نعتقد بأن المصلحين العظام انما كانوا ينتصرون على المعارضة الكبيرة او على اللامبالاة الكبيرة. وقد تعين على السيدة ذات المصباح الحقيقية ان تكافح ضد المعارضة وضد اللامبالاة. غير ان هناك عنصرا في العاطفة - كما اوضحت في مكان اخر - قد يكون مؤذيا تقريبا ايضا. وللهولة الاولى يبدو من المستبعد تماما ان تكون ايرنستينا قد قرأت القصيدة. كانت تحفظ بعض ابياتها عن ظهر قلب. وفي كل مرة تقرأها فيها (كانت تقرأها صراحة ثانية الان لأنها كانت فترة الصوم) تشعر بالسمو والنقاء، بأنها امرأة شابة افضل. اني لست في حاجة الى ان اضيف هنا الى انها لم تذهب قط الى اي مستشفى، ولم تهتم باحد سكان الاكواخ المرضى في حياتها. ان ابويها ما كانا ليسمحوا لها بذلك. غير انها شخصيا لم تفكر قط بتأدية مثل ذلك العمل.

آه. انك تقول إن النساء كن مقيدات بدورهن في ذلك الزمن. لكن تذكر تاريخ هذا المساء: السادس من نيسان/أبريل 1867. اي قبل اسبوع من انتهاء (جون ستيوارت مل)⁽⁴⁶⁾ الفرصة في مبنى البرلمان في ويستمنستر في اثناء احدى المناقشات المبكرة الخاصة بلائحة الاصلاح ليبرهن ان الوقت قد حان لاعطاء المرأة الحقوق المتساوية في صناديق الاقتراع. وقد قوبلت محاولته الجريئة (هزم الاقتراح بـ 193 صوتا مقابل 73 صوتا بينما امتنع الشعب العجوز دزرائيلي عن التصويت) بابتسامة من الانسان العادي والقهقهة من مجلة بنش - اذ اظهر احد الرسوم الكاريكاتيرية مجموعة من السادة تحيط بمجلس وزراء قوامه النساء - والعبوس الرافض من اغلبية حزينة من النساء المثقفات اللواتي زعن ان تأثيرهن يمارس على نحو اعظم في البيت. وعلى الرغم من ذلك، فإن الثلاثين من آذار/مارس 1867 يعد النقطة التي يمكن ان تؤرخ بها بداية تحرير المرأة في انكلترا. اما ايرنستينا التي قهقهت لدى رؤيتها مجلة بنش في عدد الاسبوع الماضي بعد ان اعطاها اياها تشارلز، فلا يمكن عتقها تماما.

غير اننا انطلقنا من مساء البيت الفكتوري، فلنعد اليه. تفرس تشارلز في وجه ايرنستينا الرزين وثمة غمامة تشوب عينيه الهادئتين.

(46) جون ستيوارت مل (1806-1873) فيلسوف وعالم اقتصاد انكليزي، نادى بالحرية الفردية ودعا الى الاخذ بمذهب المنفعة. (المترجم)

- الاستمر؟

- انت تقرأين على نحو بالغ الجمال.

تنحنحت برقة، ورفعت الكتاب ثانية. كانت حادثة الصيد قد وقعت توا:
اللورد يهتم برعاية سيدته التي سقطت.

«يفرق كتل شعرها الأشقر،

يرفعها، عاجزة، برفق مُروّع،

ينظر الى وجهها بعينين مدعورتين؛ -

فتموت - حبيبة روحه - تموت!»

تنتفض عينا ايرنستينا على نحو جاد وهما تنظران الى تشارلز. اما عيناها فمغمضتان
كأنه يتصور المشهد المأساوي. يومئ على نحو كئيب وكله اذان صاغية.
تستأنف ايرنستينا.

«ربما قد سمعت من خلل الصدمة المخيفة لتلك الفكرة،

نبضات قلبه كأنها ساعة هائلة»؛

ثم يتذبذب ذلك النبض القوي حتى يتوقف،

عندما يقتلع من ذلك الخوف برعشة مفاجئة،

صدرت من تلك الشفتين الشاحبتين الواهنتين المرتعشتين:

«او، كلاود» قالت وأمسكت عن الكلام، لكن حتى الان

وعلى مدى كل ايام الحب منذ ان التقيا اول مرة،

لم تنبض دماء قلبه بمثل هذا العهد الذي يرثى له

بانها كانت كل شيء له، كما الان».

قد قرأت البيت الاخير على نحو بالغ الاهمية. ثم ترمق تشارلز بنظرة من
عينيها. لا تزال عيناها مغمضتين، الا انه كما يتضح بالغ التأثير لا يقوى حتى على
الايماء. تأخذ نفسا قصيرا وعيناها لا تزالان مصوبتين تجاه خطيبها المضطجع على
نحو حزين، وتواصل القراءة.

«او، يا كلاود - العذاب» - «او، يا غرترود،

يا حبيبي!»

ثم لاحت على شفتيها الواهنتين ابتسامة باهتة،

تتسم بارتياح من نعمته -

«لقد نمت ايها العظم الكريه».

صمت. وجه تشارلز اشبه بوجه رجل في جنازة. نفس آخر ونظرة قوية من القارئة.

«اه! سعداء هم الذين في حزنهم وعذابهم

لا يشتاقون الى وجه اليف عبثا -»

تشارلز!

على حين غرة، يغدو الكتاب صاروخا يمس تشارلز مسا عرضيا فوق كتفه ويهوي على الارض وراء الاريكة.

نعم؟

يشاهد ايرنستينا واقفة على قدميها وكلتا يديها على شفتيها على نحو غير مألوف تماما. يجلس منتصبا في مكانه ويهمس:
اوه يا عزيزتي.

لقد ضبطت متلبسا بالجريمة يا سيدي. لا عذر لديك.

لا بد ان تشارلز قدم ما يكفي من الاعذار والتكفير لأنه في اثناء فترة طعام الغداء التالي مباشرة استطاع ان يستجمع شجاعته ويتذمر عندما اقترحت ايرنستينا للمرة التاسعة عشرة مناقشة تأثيث مكتبه في البيت الذي لم يعثرا عليه بعد. ان ترك تشارلز مؤسسته الصغيرة المريحة في كنزنگتون لم يكن اقل التضحيات المتوقعة. وفي وسعه ان يتحمل هذا التذكير المتكرر بها. ساندته الخالة ترانتر ومُنح على هذا الاساس وقت ما بعد الظهر «للتنقيب البائس» بين الصخور.

كان يعرف على الفور المكان الذي يرغب في الذهاب اليه. لم تكن في ذهنه اي فكرة سوى فكرة امرأة الضابط الفرنسي عندما عثر عليها فوق مروج الجرف البرية. الا انه كان يملك في ما مضى الوقت ليلاحظ اكواما لا بأس بها من حجر الصوان المتساقط عند سفح جرف صغير كانت قمته تمثل المرج نفسه. كان هذا هو الدافع بلا ريب الذي ادى به الى السير بعد ظهر ذلك اليوم الى ذلك المكان. كان الحماس الجديد، ازدياد حدة الحب بينه وبين ايرنستينا، قد اكتسح جميع الافكار، كلها باستثناء الفكرة العابرة عن سكرتيرة السيدة بولتيني، من عقله الواعي.

عندما وصل المكان الذي اضطر فيه الى الصعود وسط العليق، فإنها من غير ريب مرت في ذهنه ثانية وعلى نحو واضح. تذكر بحوية كيف كانت مستلقية في ذلك اليوم، لكنه عندما عبر العشب، ونظر الى الاسفل صوب مكائها، وجدته خاليا. وسرعان ما نسي امرها. وعثر على طريق يتجه الى اسفل الجرف فشرع يبحث بين ركام الحجارة عن قشوره. كان يوما اكثر برودة من اليوم الذي جاء به الى هنا من قبل. كانت الشمس والغيوم تتعاقب الواحدة اثر الاخرى على نحو سريع، يلائم شهر نيسان/أبريل، بيد ان الريح كانت شمالية. لهذا كان الجو دافئا عند جهة الجرف السفلية المواجهة للجنوب. كما ان دفئا جديدا سرى في جسد تشارلز على الفور عندما شاهد قشرة ممتازة عند قدميه يبدو ان انشطارها عن حجر الصوان لم يمضِ عليه وقت طويل.

الا انه بعد مضي اربعين دقيقة اضطر الى ان يسلم نفسه لحقيقة واحدة وهي انه لن يواتيه حظ آخر، على الاقل بين صخور الصوان تحت الجرف فعاد الى الممرج من فوق وسار في الممر المؤدي الى الغابة. واذ ذاك شاهد حركة سوداء!

كانت في منتصف الطريق المنحدر، منشغلة في جذب معطفها العالق بالنبات فلم تسمع تشارلز وهو يقترب منها. وحالما رآها توقف عن السير. كان الممر ضيقا غير انها شاهدته، فوقفا في مكانيهما، يفصل بينهما خمسة عشر قدما (4.5 متر)، وقد انتابهما الحرج كما يبدو، على الرغم من ان ملاحظتهما كانت متباينة. اذ كان تشارلز يتنسم في حين حدقت سارة به بارتياح شديد.

- آنسة وودراف!

اومات ايماءة لا يدركها الحس او العقل وبان عليها التردد، كأنها تود الالتفات إلى الوراء لو استطاعت الى ذلك سبيلا. غير انها ادركت انه يقف الى الجانب فاسرعت الى المرور من امامه. وفي هذه الاثناء زلت قدمها فوق زاوية خداعة من الممر المكسو بالطين، وسقطت على ركبتيها. فقفز الى الامام، وساعدها كي تنهض على قدميها، فاصبحت الان مثل حيوان هائج، ترتعش، لا تقدر على النظر اليه ولا تقوى على الكلام.

شجعها على المضي في الطريق بعد ان وضع يده بمنتهى اللطف فوق مرفقها. كانت ترتدي المعطف الاسود نفسه، والثوب النيلي ذا الياقة البيضاء نفسه. كانت بشرتها وردية متفتحة تناسب على نحو يثير الاعجاب الحياء البالغ في سلوكها ولا ادري ان كان ذلك بسبب سقوطها او لأنه كان يمسك بذراعها او لأن الهواء بارد. كانت الريح قد عبثت قليلا بشعرها وكانت تبدو عليها أمارات صبي ضبط متلبسا بسرقة التفاح من احد البساتين... إثم، الا انه إثم تمردى. وفجأة نظرت الى تشارلز نظرة سريعة من الجانبين والى الاعلى بعينيها البنيتين القائمتين الجاحظتين تقريبا اللتين يظهر فيهما البياض الشديد الوضوح: انها نظرة منفرة، خائفة في نفس الوقت. فما كان منه الا ان ترك ذراعها.

- انخشی ان افكر في ما قد يحدث لك يا انسة وورداف اذا ما التوى كاحلك يوما ما في مكان كهذا.
- لا يهم.

- لكنه امر يهم مؤكدا يا سيدتي العزيزة. ومن طلبك الي في الاسبوع الماضي، افترض انك لا ترغبين في ان تعلم السيدة بولتيني بمحيئك الى هذه المنطقة. لا سمح الله ان أسأل عن اسبابك. غير انني يجب ان اوضح بانك اذا كنت ضعيفة على نحو ما، فاني الشخص الوحيد في بلدة لائم الذي في استطاعه ان يرشد منقذك اليك. أليس كذلك؟

- انها تعلم. من شأنها ان تخمن ذلك.

- اتعلم انك تأتين الى هنا - الى هذا المكان بالذات؟

تفرست في الارض المكسوة بالعشب كأنها لن تجيب على اي اسئلة اخرى، توسلت اليه ان ينصرف، غير ان شيئا ما في ذلك الوجه، الذي انعم فيه تشارلز النظر من الجانب، جعله يصمم على عدم الذهاب. ادرك الان ان كل شيء فيه مضحى به من اجل تينك العينين. انهما لا تستطيعان اخفاء براعة التفكير واستقلال الروح. فيهما انكار صامت لاي عاطفة، التصميم على ان تكون على ما هي عليه. في ذلك الوقت. كان نمط الحواجب الرقيقة، القصيرة، المقوسة هو السائد، غير ان حاجبي سارة كانا داكنين تماما، او على الاقل على نحو غير مألوف، يشبه لونهما لون شعرها الذي زاد من شدة سوادهما، فمنحها مسحة صبيانية في بعض الاحيان.

لا اقصد بهذا انها كانت ذات وجه رجولي، وسيم، كبير الذقن، كالذي شاع في العصر الادواردي⁽⁴⁷⁾ - من طراز جمال فتاة جيسون⁽⁴⁸⁾. كان وجهها حسن التقاطيع، ينم عن انوثة كاملة. وكانت القوة الكامنة في عينيها توازيها القوة الحسية الكامنة في فمها، الذي كان واسعا - لا يلائم ثانية الذوق السائد الذي كان يتراوح بين فم جميل صغير، بلا شفتين تقريبا، وقوس كيوبيد الطفولي. كان تشارلز لا يزال تحت تأثير علم الفراسة للافاتير⁽⁴⁹⁾ شأنه شأن معظم رجال عصره. انتبه لذلك الفم ولم ينخدع اذ رآه مطبقا على نحو غير طبيعي.

اصداء بثها بلا ريب نظرة واحدة سريعة من تلك العينين الداكنتين في ذهن تشارلز، الا انهما ليستا بانكليزيتين. كان يقرن مثل هذه الوجوه بالاجنبيات - واذا شئنا الصراحة (اكثر صراحة مما هو عليه مع نفسه) بالاسرة الاجنبية. وهذا مؤشر على مرحلة جديدة في وعيه بسارة. لقد ادرك انها اكثر ذكاء واستقلالية مما كانت توحى به. اما الان فقد فكر في خصائص اكثر غموضا وخفاء.

ان مثل هذا الاحساس الغريزي بطبيعة سارة الحقيقية من شأنه ان يكون مثيرا للنفور عند معظم الانكليز في عصره. وقد اثار هذا قليلا من نفور تشارلز - او على الاقل صدمه. لقد كان يشترك في الكثير من اهواء معاصريه وعلى نحو يكفي لأن يرتاب في الامور الحسية بأي شكل من الاشكال. وفي حين كان من شأن هذه الاهواء ان تجعل من سارة - بفعل احدى تلك المعادلات الرهيبة التي تقع بناء على امر من الانا العليا - مسؤولة على نحو غامض عن ولادتها بالشكل الذي ولدت

(47) العصر الانواردي: نسبة الى انوارد السابع (1841-1910)، ملك بريطانيا وايرلندا (1901-1910) وهو ابن الملكة فكتوريا ووريثها. تولى العرش وهو في الستين من العمر. (المترجم)

(48) تشارلز دانا جيسون (1867-1944): رسام امريكي اشتهر بمجموعة رسومه التي عرفت باسم فتاة جيسون ووصفت وصفا دقيقا النموذج الانثوي الامريكي في مطلع القرن العشرين، وكانت فتاته هذه تستمد ملامحها من ملامح زوجته اصلا، وقد نشر هذه الرسوم في مجلة لايف الاسبوعية، كما نشر عددا اخر منها في العديد من كتبه مثل لندن كما يراها جيسون (1895)، (شخصيات ديكنز) (1897)، تخطيطات من مصر (1899). (المترجم)

(49) يوهان كاسبر لافاتير (1741-1801): كاتب وقس بروتستانتي سويسري يعد مؤسس علم الفراسة امتد تاثيره خارج حدود بلاده حتى ان غوته نفسه اشتغل معه في كتابة مقالات في علم الفراسة بعض الوقت. (المترجم)

فيه، فإن تشارلز لم يكن كذلك. وفي هذا الخصوص نستطيع ان نشكر هواياته العلمية. انا لا اقول ان تشارلز تبرأ تماماً من سارة الا انه ابعد ما يكون عن توجيه اللوم لها مما كانت تتصور.

جزئياً اذا، كانت هواياته العلمية... غير ان تشارلز كانت لديه ميزة تتمثل في انه قرأ - سرا، لأن الكتاب قدم للمحاكم بتهمة الفحش والدعارة - رواية ظهرت في فرنسا قبل عشر سنوات، رواية قدرية في افتراضاتها هي مدام بوفاري⁽⁵²⁾ الشهيرة. وبينما كان ينظر الى الوجه القريب منه، قفز الى ذهنه اسم إيمما بوفاري فجأة ومن مكان مجهول. ان مثل هذه التلميحات ليست سوى هواجس، واغراءات. وهذا هو السبب الذي جعله في النهاية لا ينحني وينسحب.

اخيراً قالت:

- لم اعلم انك هنا.
- كيف يمكن لك ان تعرفي؟
- لا بد من العودة.
- ثم استدارت، غير انه تكلم بسرعة.
- اتسمحين لي ان اقول شيئاً ما اولاً؟ شيئاً ربما لا يحق لي قوله وانا الشخص الذي لا اعرف شيئاً عنك او عن ظروفك؟
- وقفت في مكانها محنية الرأس، مولية ظهرها اياه.
- الاستمر في كلامي؟
- ظلت صامتة. تردد لحظة ثم قال:
- لا استطيع التظاهر بأن ظروفك لم تناقشها امامي يا آنسة وودراف السيدة ترانتر. انني لا ارغب الا في القول ان هذه الظروف نوقشت مناقشة ملؤها العطف والاحسان. انها تعتقد انك غير سعيدة في ظل وضعك الراهن، الذي فهمت انك قبلت به بسبب من قسوة الظروف، لا بسبب ملائمتها لطبيعتك او مزاجك. لقد تعرفت الى السيدة ترانتر منذ فترة قصيرة ليس الا.

(52) مدام بوفاري: رواية كتبها الروائي الفرنسي (غوستاف فلوبر 1821-1880) في سنة 1857، عدها السنفاد اول رواية واقعية تصور انحدار البطلة تدريجياً في علاقة غرامية تعمدت اقامتها بأمل الحصول على المال لتسديد ديونها وتنتهي على نحو مأساوي. (المترجم)

توقف فجأة عن الكلام عندما نظرت سارة بسرعة من حولها صوب الاشجار المنتصبة من ورائهما. لقد سمعت اذناها المرهفتان صوتا ما، غصنا يتكسر تحت الاقدام. الا انه قبل ان يتمكن من سؤالها عما هو الخطب. سمع بدوره اصوات رجال خفيضة. الا انها عند ذلك الوقت كانت قد بدأت تتصرف، فلملمت تنورتها، وسارت بسرعة فوق العشب صوب جهة الشرق على بعد اربعين ياردة (36 مترا)، وهناك توارت عن الانظار وراء اجمة امتدت قليلا فوق العشب. وقف تشارلز مشدوها.

ارتفعت اصوات الرجال اكثر من ذي قبل. لا بد له من ان يتصرف. فخطا الى الامام حيث كان يمتد الممر صاعدا بين اشجار العليق. ولحسن حظه فعل ذلك، اذ ما ان لاح لناظريه الجزء السفلي من ذلك الممر حتى شاهد وجهين ينظران الى الاعلى، فانعقدت دهشتهم. من الواضح ان وجهتهما كانت السير من حول الممر الذي كان يقف فيه تشارلز. فتح تشارلز فمه ليحيهما، غير ان الوجهين اختفيا بعجالة مشيرة للدهشة. وسمع صوتا يهمهم «اسرع يا جيم» وتلا ذلك صوت وقع خطوات متسارعة. وبعد لحظات سمع صوت صفير منخفض مفاجئ وانين كلب هائج. ثم ران الصمت.

انتظر دقيقة واحدة حتى تأكد من ذهابهما ثم سار من حول الاجمة. كانت تقف الى الجانب ازاء الاشواك الحادة وقد اشاحت وجهها جانبا.

- لقد ذهبنا. شخصان متجاوزان حرمة اراضي غيرهما على ما اظن.

اومات له، غير انها استمرت في تجنب النظر الى عينيه. كانت الاجمة متفتحة، زهورها الصفرة كثيفة على نحو اوشكت فيه ان تخفي اللون الاخضر اما الهواء فكان معبقا باريح مسكها اللذيذ.

قال:

- اظن ذلك ليس ضروريا.

- لا يمكن مشاهدة اي سيد مهذب قهقهة سمعته الطيبة بصحبة امرأة بلدة لايم

القرمزية⁽⁵³⁾.

(53) المرأة القرمزية: تعني للعاهرة واثرنا ترجمتها حرفيا لأنها ذات صلة بجملته مقول القول التالية. (المترجم)

- كانت تلك مجرد خطوة. فقد كان صوتها تشوبه مرارة قاسية، فابتسم في وجهها الذي ما يزال يتفاداه.

- اعتقد ان الشيء القرمزي الوحيد الخاص بك هو وجنتيك.
التمعت اذ ذاك عيناها في وجهه كأنه يعذب حيوانا ما وجهها لوجه. ثم اشاحت بوجهها مرة اخرى.
قال تشارلز برقة:

- لا تخطئي فهمي فانا ارثي لوضعك التعيس، كما اقدر كثيرا رقتك فيما يخص سمعي، التي لا تقدم ولا تؤخر عند السيدة بولتيني.
لم تتحرك من مكانها. فاستمر في ابتسامته، مرتاح البال في كل تنقلاته، قراءاته، معرفته بعالم اوسع.

- لقد شهدت الكثير من هذه الحياة، واكره المتزمتين... بغض النظر عما يظهرونه من ورع للعالم. هلا تفضلت الان بالخروج من مخبأك؟ ليس هناك ما يعيب في لقائك العابر هذا. كما ينبغي ان تتركيني انهي ما اوشكت على قوله.

خطا خطوة الى الجانب فتقدمت بدورها صوب العشب النامي، وشاهد رموشها مخضلة بالدمع فلم يضغط عليها بوجوده، بل تكلم من ورائها وهو على بعد بضعة أمتار.

- ان السيدة ترانتر تود مساعدتك، بل هي تواقه الى ذلك اذا ما رغبت في تغيير وضعك.

كان جوابها الوحيد هو الاكتفاء بهزة من رأسها.

- ليس هناك احد لا يمكن مساعدته او لا يثير العاطفة في نفوس الآخرين.
توقف هنيهة في حين عبث الريح بخضلة من شعرها تطايرت الى امام، مما دفعها الى تعديلها على نحو عصبي.

- انني لا اعبر الا عما تود السيدة ترانتر قوله شخصيا.

لم يكن تشارلز مبالغا في كلامه. ففي اثناء طعام الغداء المرح الذي اعقب المصالحة، نقوش موضوع السيدة بولتيني وسارة ولم يكن تشارلز سوى ضحية سلطة السيدة العجوز فترة وجيزة. لا بد انهما فكرتا فيها على انها الضحية

الدائمية. فوطد تشارلز العزم على ان يخبر سارة بما توصلنا اليه في ذلك اليوم بعد ان اندفع في الحديث الى نقطة لا يخشى ان تطاها... .

- ينبغي لك ان تغادري بلدة لام... هذه المقاطعة. اعرف ان لديك موهلات ممتازة. وانا واثق ان وظيفة اكثر مدعاة للسعادة يمكن العثور عليها في مكان اخر. لم تحب سارة بشيء.

- اعرف ان الانسة فريمان ووالدتها ستكونان في منتهى السعادة لاجراء بعض الاستفسارات في لندن.

ابتعدت عنه اثر ذلك، واتجهت صوب حافة العشب الذي يكسو الجرف، ثم امعنت النظر طويلا في البحر لتلتفت بعد ذلك وتنظر اليه وهو ما يزال واقف قرب الاجمة: نظرة غريبة، مباشرة، متألقة، ابتسم لها: واحدة من تلك الابتسامات التي يعلم المبتسم انها ضعيفة، غير انها لا تنتهي. خفضت عينيها.

- شكرا لك. غير انني لا استطيع الرحيل عن هذا المكان.

هز كتفيه قليلا وشعر بالحيرة، والاساءة على نحو غامض.

- اذا ينبغي لي ثانية ان اعتذر لتدخلني في خصوصياتك. ولن افعل ذلك ثانية.

انحنى واستدار كي يتعد عنها. غير انه لم يخطُ سوى خطوتين واذا بها تقول:

- انني... انني اعرف ان السيدة ترانتر ترغب في ان تكون كريمة.

- اذا سمحي لها ان تحقق رغبتها.

القت نظرة الى العشب الذي يفصل بينهما.

- ان الحديث ثانية كان... كأنني لست ما انا عليه... انني عظيمة الامتنان.

غير ان مثل هذا العطف...

مثل هذا العطف؟

- ان مثل هذا العطف اقسى علي من...

لم تنه جملتها، بل استدارت صوب البحر. فانتابت تشارلز رغبة عارمة في ان يمد يديه ويمسك بها من كتفيها ويهزها. المأساة مجسدة على نحو متقن على خشبة المسرح الا انها لا يمكن ان تبدو اكثر من انحراف في الحياة العادية. وهذا هو ما قاله بعد ذلك بكلمات اقل خشونة.

- ان ما تسميه عنادي انا انما هو عوني.

- لأكن صريحا معك يا انسة وودراف. لقد سمعت انك... لست سليمة العقل تماما. واظن ان هذا بعيد كل البعد عن الحقيقة. اعتقد انك حكمت على نفسك حكما قاسيا بسبب سلوكك في الماضي. والان، لماذا ترغمين نفسك على السير وحيدة بحق السماء؟ ألم تعاقبي نفسك بما فيه الكفاية؟ انت شابة، وفي وسعك ان تكسبي رزقك. واظن انه لا يوجد لديك صلات عائلية تربطك بمقاطعة دورسيت.

- لدي صلات.

- بهذا السيد الفرنسي؟

استدارت بعيدا كأن الموضوع محظور فيه.

-اسمحي لي ان اؤكد - ان هذه الامور تشبه الجراح. واذا لم يتجرأ المرء على الحديث فيها فإنها تصاب بالالتهاب. اذا لم يعد فهو ليس جديرا بك. واذا عاد، فلا يستطيع ان أصدق انه سيتجنبك بمثل هذه السهولة ان لم يجده في لايم ريجيس، بل سيسعى الى معرفة مكانك واللاحاق بك. اليس هذا كلام واقعي؟

ران صمت طويل. تحرك من مكانه كي يستطيع ان يرى وجهها من الجانب على الرغم من ان بضعة اقدام (ستيمترات) ما تزال تفصله عنها. كانت ملاحظها غريبة، هادئة تقريبا، كان الحديث الذي تفوه به قد رسخ بعض المعلومات الكامنة في اعماق قلبها.

ظلت تحديق الى البحر حيث شاهدت سفينة ذات شراع خمري اللون تتجه صوب جهة الغرب تحت رقعة من اشعة الشمس وعلى بعد خمسة اميال تقريبا. قالت بهدوء كأنها توجه كلامها للسفينة النائية:

- لن يعود ابدا.

- أتخافين من الا يعود ابدا؟

- اعرف انه لن يعود ابدا.

- لا افهم ما تقولين.

عندئذ استدارت، ونظرت الى وجه تشارلز الحائر، الجزع. وبدأت لحظة من الزمن وهي تستمتع تقريبا بذهوله. وفجأة شرعت تسير، تعدو، فوق العشب وصوب الممر.

- آنسة وودراف!

تقدمت خطوة، خطوتين ثم استدارت. مرة اخرى صدته تلك العينان ومزقتاه. كان صوتها تكتنفه خشونة مكبوتة، الا انه كان صوتا متفجرا ضمينا بقدر ما كان موجهها الى تشارلز:

- انه متزوج.

- آنسة وودراف!

الا انها لم تعسر له اي اهمية. تركته واقفا في مكانه. كان ذهوله طبيعيا. اما الشيء غير الطبيعي فكان متمثلا في احساسه الان بالذنب على نحو واضح تماما، لأنه اظهر افتقارا شديدا إلى العاطفة، في حين كان واثقا تمام الثقة بانه فعل كل ما يستطيع فعله. أمعن النظر فيها لحظات بعد ان توارت عن الانظار. ثم استدار، والقي نظرة الى السفينة النائية، كأنها قد توفر له الاجابة عن هذا اللغز، لكن بلا طائل.

المراكب، الرمال، المنتزه،

الحشد الضاحك،

الخالي من الهموم،

تحيات مدوية من اناس ليسوا قليلي الموهبة:

الجروف المغمورة بنور شمس المغيب، الحديث،

التحيات والوقوف،

ملاحو البحر الانكباء،

الفرقة الموسيقية، رقصة الفالس.

ومع هذا، عندما دخلت ليلا

تقدمت هي

حزينة، لكنها... ذات الفتاة...

هاردي: في بلدة على ساحل البحر في 1869

وجد تشارلز نفسه في ذلك المساء جالسا بين السيدة ترانتر وايرنستينا في قاعة الاجتماع. ولعل بلدة لايم لم تكن عظيمة، مقارنة بمشيلاتها في مدينتي باث وتشيلتنهام، غير انها كانت تبعث على السرور لسعتها ولنوافذها المطلّة على البحر. انها كانت، ويا للأسف، ملقّية عاما، سارا، وممتازا اكثر مما ينبغي فجازت التضحية بها من اجل ذلك الحاكم البريطاني العظيم، الراحة؛ لهذا السبب هدمت من قبل مجلس بلدي مخلص في اهتمامه بالمتانة الجماعية، كي يفسح المجال لما يمكن ان يوصف بانه اقبح مرفق صحي في الجزر البريطانية.

على اي حال، لا ينبغي ان تظن ان فريق بولتيني في بلدة لايم اعترض فقط على المعمار التافه لقاعات الاجتماع، بل ان الذي اثار غضبه حقا هو ما كان يجري فيها. لقد كان المكان يشجع لعب الورق، وتدخين السادة للسيكار وحفلات الرقص والموسيقى. باختصار، كان يشجع المتعة. وكانت السيدة بولتيني

ومن تشبهها يعلمن جيدا ان المكان الوحيد الذي تسمح به بلدة محتشمة لسكانها ان يلتقوا فيه انما يتمثل في دار العبادة. وعندما هدمت قاعة الاجتماعات في بلدة لايم، فإن قلب المدينة تمزق. ولم ينجح احد حتى الان في اعادة بنائه.

كان تشارلز برفقة سيدتيه في المبنى المشؤوم لحضور حفل موسيقي. طبعي انها لم تكن حفلة موسيقية دنيوية - اذ كانت الفترة فترة صوم. وكان المنهاج دينيا بكل ما في الكلمة من معنى، حتى ان السكان الضيقي الافق في بلدة لايم صدموا واعلنوا، على الاقل امام الملأ، ان احترام الصوم يوازي احترام المسلمين لشهر رمضان. ولهذا ظلت بعض المقاعد شاغرة قبالة المنصة المزينة بنبات السرخس عند احد طرفي القاعة الرئيسة حيث كانت تقام الحفلات الموسيقية.

قدم الثلاثة المتنورون مبكرين، شأنهم في ذلك شأن بقية الحاضرين، اذ كان الناس يستمتعون بهذه الحفلات حقا - على طراز القرن الثامن عشر - بسبب الرفقة والموسيقى على حد سواء. فقد كانت تعطي السيدات فرصة رائعة لتقييم ملابس جيرانهن والتعليق عليها، ومن المؤكد، التباهي بملابسهن. بل ان ايرنستينا نفسها، وبكل ازدرائها للاقاليم، وقعت ضحية هذا الزهو. فكانت تعرف هنا على الاقل انها لن تجد الا القليل ممن ينافسها في الذوق والبذخ الخاصين بالملابس. وكانت النظرات المختلطة الى قبعاتها الصغيرة (اذ لم تكن ترغب في القلنسوات القديمة) ذات الاشرطة الخضراء والبيضاء، وثوبها الاخضر، ومعطفها الاسود والبنفسجي، وحذاءها البالمورالي⁽⁵⁴⁾ كانت معوضا مقبولا للسأم الذي كانت تشعر به في اوقات اخرى.

كانت في حالة مفعمة بالحياة والنشاط، مولعة بالازعاج في ذلك المساء في حين كان الناس يدخلون. اضطر تشارلز الى الاصغاء الى ملاحظات السيدة ترانتر - اماكن الاقامة، الاقارب، الاجداد - بأذن واحدة، ولازعاج تينا الرقيق بالأذن الثانية. وعلم من الخالة ان السيدة الشبيهة بجون بول⁽⁵⁵⁾ كانت «السيدة تومكنز، ارق نفس عجوز، تعاني من صعوبة في السمع، تعيش ما وراء بيت ألم، ابنها في

(54) بالمورالي: نسبة الى بلدة بالمورال الاسكتلندية. (المترجم)

(55) جون بول: شخصية تجسد تجسيدا نمونجيا الشعب الانكليزي وردت الاشارة اليها في كتاب (تاريخ جون بول) عام 1712 لمؤلفه جون اربنتوت. (المترجم)

الهند»؛ في حين اعلمه صوت اخر على نحو موجز بانها «شخص ثالث غير مرغوب فيه». وفي رأي ايرنستينا فإن هناك اعدادا من هؤلاء الاشخاص الفظيعين اكثر مما هم بشر، تنتظر، بصبر، لأنها تتجاذب اطراف الحديث، في انتظار ان تبدأ الحفلة الموسيقية. ان كل عقد من الزمن يتكرر مثل هذا الاسم والصفة المفيدتين. ففي ستينيات القرن التاسع عشر كان «الشخص غير المرغوب فيه» يعني «كل ما هو موحش، عتيق الطراز»؛ اما اليوم فمن شأن ايرنستينا ان تطلق على مرتادي الحفلات الموسيقية البارزين صفة المربعين... وهو مؤكد شكل السيدة تومكنز، على الاقل من الخلف.

في نهاية المطاف ظهرت للعيان صاحبة الصوت النسائي العالي، المشهورة من بريستول، بصحبة رفيقها، الاكثر شهرة، السنيور ريتورنيلو (او اسم اخر شبيه به، لأنه اذا كان عازف بيانو فلا بد ان يكون ايطاليا) وهكذا اصبح تشارلز حرا في مراجعة ضميره.

لقد اصبح مهووسا الى حد ما بسارة... او على اي حال، باللغز الذي كانت تمثله. لقد عزم - او هكذا ظن - عندما طلب منه مرافقة السيدات الى شارع برود، ومن ثم الى مبنى الاجتماعات، على ان يخبرهم بلقائه وسارة دون أن يتكلموا مع اي شخص عن تجوال سارة في منطقة وير كومونز. بيد ان اللحظة بدت غير مناسبة نوعا ما. فهناك اولا نزاع مادي تماما ينبغي التحكيم فيه - حماقة ايرنستينا في ارتداء ثوب من نسيج خفيف في حين ان الطقس ما يزال يتطلب ارتداء النسيج الصوفي طالما ان عبارة لا ترتدي النسيج الخفيف الا بحلول شهر أيار/مايو كانت واحدة من الوصايا البالغ عددها تسعمئة وتسعة وتسعين وصية ثبتها والدها فوق الوصايا العشر القانونية. قتل تشارلز القلق بالاطراء. واذا لم يأت على ذكر سارة فذلك يعود الى انه بدأ يشعر بانه سمح لنفسه ان يتجاذب واياها الحديث على نحو اعمق مما ينبغي - لا، بل فقد كل احساس بالحدود. كان في منتهى الطيش، اذ سمح لشهامة وضعها في غير موضعها الملائم ان تعمي بصيرته. والاسوأ من هذا كله بات من الصعب الى ابعد الحدود توضيح ذلك لسارة.

كان يدرك تمام الادراك ان السيدة الشابة تحضن في ذهنها طاقات جبارة من الغيرة، الا انها لا تزال خفية. وفي اسوأ الاحوال، من شأنها ان ترى سلوكه عصيا

على الفهم، وستغضب منه. وفي افضل الاحوال من شأنها الا تعمل الا على مضايقته - غير ان احتمال افضل الأحوال هذا ضعيف. فهو لم يرغب في ان يثار غضبه في هذا الموضوع. ربما كان في وسع تشارلز ان ييوح ببعض مخاوفه الى السيدة ترانتر. اذ كان يعرف انها تشاطره مؤكدا اهتمامه المترقق في الحكم على الناس اما النفاق فكان بعيدا كل البعد عنها. انه لا يستطيع ان يطلب منها عدم اخبار ايرنستينا؛ واذا ما علمت تينا عن اللقاء من حالتها، عندئذ سيكون في موضع بالغ الخطورة حقا.

اما فيما يخص مشاعره الاخرى، مزاجه ازاء ايرنستينا في ذلك المساء، فقلما امتلك الجرأة لامعان النظر فيها. ان روح الدعابة التي كانت تمتلكها لم تزعجه، الا انها بدت سطحية على نحو غير مألوف وغير مقبول، كأنها شيء ارتدته مثل المعطف المزركش بالفراء او اعتمرته مثل القبعة الفرنسية، وهدفه ان يكون مناسبا لهما اكثر من المناسبة نفسها. وكان ذلك يتطلب استجابة منه... غمزة من عينيه، ابتسامة ثابتة، كان يضطر نفسه الى رسمها، وهي ابتسامة مصطنعة ايضا، بحيث بدا كل شيء مغلفا بمظهر مزدوج. ربما كانت هي كآبة الاستماع الى كثير من اعمال هاندل وباخ او تردد النشاز بين السيدة ومساعدتها، غير انه ضبط نفسه متلبسا بسرقة النظر الى الفتاة الجالسة الى جانبه - ينظر اليها كأنه يراها اول مرة، كأنها غريبة عنه تماما. كانت في منتهى الجمال، فاتنة... لكن الا يفتقر ذلك الوجه الى انعدام الشخصية قليلا؟ الا يثير السأم قليلا بما فيه من تناقض بين الرزانة والبساطة، لو انك نزعحت هاتين الصفتين فما الذي يتبقى؟ انانية مبتذلة. غير ان تشارلز طرد هذه الفكرة التي سرعان ما خطرت بباله. كيف يمكن للطفلة الوحيدة لابوين ثرين ان تكون غير ذلك؟ الله اعلم - وهل هناك سبب اخر دفعه الى الهيام بها؟ - ان ايرنستينا ليست عديمة الشخصية ابدا في اطار الشابات الثريات الباحثات عن الازواج في مجتمع لندن. لكن اهذا هو الاطار الوحيد - السوق الوحيد للعرائس؟ من المواد الثابتة في عقيدة تشارلز انه لا يشبه الغالبية العظمى من انداده ومعاصريه. هذا هو السبب الذي دفعه الى السفر كثيرا. اذ وجد المجتمع الانكليزي ضيق التفكير، محافظا بعناد، اكثر مما ينبغي، والوقار الانكليزي مبالغا فيه والفكر الانكليزي تزميتا اكثر مما ينبغي والديانة الانكليزية شديدة التعصب. ثم ماذا؟ الم

يكن تقليديا تماما في هذه القضية الحيوية الخاصة بالمرأة التي اختارها ان تشاطره حياته؟ الم يقدم على فعل ابسط الامور بدلا من ان يفعل ما ينم عن ذكاء عظيم.

ما هو الشيء الذي ينم عن ذكاء عظيم اذا؟ ان ينتظر.

تحت وطأة هذه الموجة من الاسئلة الذاتية اللاسعة بدا يرثي لنفسه - رجل ذكي في فخ، بايرون مدجنا، وطاف ذهنه مرة اخرى صوب سارة، صوب الصور المرئية، محاولا استعادة ذلك الوجه، ذلك الفم، ذلك الفم الغني بالنكهة. مما لا ريب فيه انه اوقد فيه ذكرى، ربما كانت واهنة اكثر مما ينبغي، عمومية اكثر من اللازم، لا تمكنه من متابعة اي مصدر في ماضيه. غير ان ذلك الوجه اقلقه، أقض مضجعه اذ داعب اعماق نفسه الخفية التي قلما علم بوجودها. وقال لنفسه: انه لمن اكثر الامور بلاهة، غير ان الفتاة تجذبني. وبدا واضحا له ان سارة ليست هي نفسها التي كانت تجذبه - وكيف يسعها ذلك وهو الخاطب - بل بعض المشاعر، بعض الامكانيات التي كانت ترمز اليها. لقد جعلته يدرك وجود الحرمان. لقد تبدى له مستقبه دوما حافلا بالامكانيات الهائلة؛ اما الان فقد بات رحلة ثابتة مقررة الى مكان معلوم. لقد ذكرته بذلك.

ذكره مرفق ايرنستينا بالحاضر على نحو لطيف. كانت المغنية بحاجة الى التصفيق فما كان من تشارلز الا ان يسهم بنصيبه في ذلك على نحو فاطر الهمة. وبعد ان وضعت ايرنستينا يديها ثانية في الفروة الاسطوانية الخاصة بتدفئة اليدين كشرت تكشيرة ظريفة جانبية قصدت بها شرود ذهنه وفظاعة الاداء. فابتسم لها. كانت شابة صغيرة اشبه بطفلة وليس في مستطاعه ان يغضب منها. على اي حال، انها ليست سوى امرأة وهناك الكثير من الاشياء التي لا يتعين عليها ان تدركها ابدا: غنى حياة الذكر، الصعوبة الهائلة في ان تكون ملك انسان لا يكون العالم عنده اكثر من مجرد الملابس والبيت والاطفال.

سيكون كل شيء على ما يرام عندما تصبح ملكه حقا، في البيت وفي القلب ايضا.

اما سام فكان في ذلك الوقت يفكر تفكيرا مغايرا تماما؛ كم من الاشياء التي تفهمها حواؤه؟ يصعب ان نتصور اليوم الفروق الهائلة التي كانت تفصل انذاك بين

شاب ولد في منطقة سيفن دايلز وابنة سائق عربية نقل من احدى قرى ايست ديفن النائية. لقد كان لقاؤهما محفوفًا بكل العقبات تقريبًا كأنما هو واحد من سكان الاسكيمو وهي من قبيلة الزولو. وقلما كانا يملكان لغة مشتركة لهذا غالبًا ما كان يصعب على احدهما فهم ما قاله الاخر توا.

غير ان هذه المسافة، كل تلك الفجوات التي لم تزد من ثم ردمت بفضل السرايو والتلفزيون والسفر الرخيص وغير ذلك، لم تكن سيئة كلها. ربما كان الناس لا يعرفون بعضهم بعضًا الا قليلا، الا انهم كانوا يشعرون بانهم احرار من الاخرين. وبالتالي اكثر احساسا بفرديتهم. والعالم كله لم يكن عندهم تحولا او اندفاعا وحسب. فالغرباء كانوا غريبين، وأحيانا في غربة مثيرة، جميلة. لعله الافضل للانسانية ان نواصل الاتصال اكثر فاكثر. الا انني هرطوقي، اذ اعتقد بأن عزلة اسلافنا كانت اشبه بالفضاء الارحب الذي استمتعوا به: لا يمكن الا الاحساس بالغيرة منه. والعالم اليوم معنا على نحو اكبر مما ينبغي بشكل حرفي تماما.

كان في وسع سام ان يعطي، بل اعطى فعلا، في حجرة خلفية من حجرات المشرب، المظهر بأنه يعرف كل ما ينبغي ان يعرفه عن حياة المدينة، وبعد ذلك القليل من تلك المعرفة. كان يزدرى بعدوانية تامة كل شيء لا ينبع من حي الويست اند بلندن، ويفتقر الى حيويته. اما في اعماقه، فكانت هناك قصة اخرى. فهو شخص مخلوع الفؤاد، غير واثق - وعدم ثقته هذه ليست بسبب ما كان يريد ان يصبح (وهو امر بعيد كل البعد عما هو عليه)، بل بسبب ما اذا كان يملك القدرة على ان يكون كذلك.

اما ماري فكانت على النقيض منه في اعماقها. من المؤكد انها اصبحت بالذهول من سام اولا: فهو مخلوق ارفع مستوى منها، كما ان مشاكستها اياه كانت مجرد دفاع عن النفس في مواجهة مثل هذا التفوق الحضاري البين: قدرة تلك المدينة اللامتناهية في ردم الهوة، العثور على طريق اقصر، هي التي عجلت من سرعة الخطوات. غير انها كانت تملك صفة ثبات الشخصية الاساسي، وهو نوع من الثقة الطبيعية بالنفس، المعرفة بانها ستكون ذات يوم زوجة صالحة وأما طيبة وتعرف كل شيء في طبائع الناس... الاختلاف في القيمة بين سيدتها وابنة اخت

سيدتها، على سبيل المثال. على أي حال، كانت فلاحه، والفلاحون يعيشون وهم متمسكون بالقيم الحقيقية أكثر مما يفعل عبيد المدن.

لقد أحبها سام لأنها كانت يوما من أيام الصيف بعد المومسات والبغايا اللواتي كن يشكلن تجربته الجنسية الماضية. لهذا فانه لم يكن يفتقر الى الثقة بالنفس على ذلك النحو؛ بل ان القليل من اهل لندن الفقراء يفتقرون الى ذلك. كان شعره اسود ناعما وعيناه زرقاوين وملامحه صافية. كان رشيقا، سريع الحركة، رشيقا، على الرغم من الميل الى المبالغة الكبيرة أحيانا في تقليد تصرفات تشارلز وحرركاته البدنية التي كان يعتقد انها تنم عن الذوق. وقلما كانت نظرات النساء تتركه بعد اول نظرة، لكن من خلال معرفته الوثيقة بفتيات لندن، فانه لم يذهب الى ما هو ابعد من السخرية. وكان الشيء الذي خلب لبه هو براءة ماري. اذ وجد نفسه مثل صبي يعكس مرآة - وفي يوم ما فعل ذلك في مواجهة شخص رقيق الحاشية لا يستحق ابدا مثل تلك المعاملة. وفجأة تمنى ان يكون ما هو عليه واياها، وان يكتشف ما هي عليه.

وقد حدث مثل هذا الوعي الحاد المفاجئ ببعضهما بعضا في ذلك الصباح عند زيارة السيدة بولتيني اذ شرعا يناقشان مركزيهما، مزايا وعيوب السيد تشارلز والسيدة ترانتر. وظنت انه سعيد الحظ ليخدم مثل هذا السيد اللطيف. اما سام فقد اعترض على ذلك؛ وبعد ذلك، وجد لدهشته انه يخبر هذه العاملة في مصنع الالبان بشيء لم يقله سابقا الا لنفسه.

كان طموحه في منتهى البساطة. كان يرغب في ان يصبح بائع السلع الرجالية. ولم يستطع ان يمر من امام اي متجر من هذه المتاجر الا ويتوقف ليمعن النظر في الواجهات الزجاجية، منتقدا اياها او معجبا بها، حسبما تتطلب الظروف. كان يعتقد انه يملك حسا في معرفة اخر الازياء. لقد سافر بصحبة

(*) يقصد اصلا بالمومسات الخادمت اللواتي كن يمارسن الزنى في اوقات الفراغ. اما البغايا فهن العاهرات، وهذه الاهمية تكمن في الصورة الكاريكاتيرية الشهيرة التي رسمها ليتش عام 1857 وظهرت فيها امرأتان، يلوح الحزن على وجهيهما، واقفان تحت المطر على بعد اقل من مائة ميل من حي هايماركت وتخطب احدهما الاخرى: اه، فاني! كم مضى عليك وانت بغني؟ (المؤلف)

تشارلز الى الخارج، واكتسب بعض الافكار الاجنبية في ميدان الملابس الرجالية...

لقد حصل على هذا كله (وكذلك اعجابه الشديد بالسيد فريمان) على نحو يفتقر الى التناسق والانسجام - والعقبات الكبيرة: لا مال، لا ثقافة. لقد اصغت ماري بتواضع، اكتشفت حدسا هذا السام الاخر، واكتشفت حدسا انها قد كرمت اذ اعطيت صورة سريعة له. وشعر سام انه يكثر من الحديث. الا انه في كل مرة ينظر فيها بقلق ويتطلع الى ملاحظة ساخرة، قهقهة، اقل علامة تشير الى السخرية من ادعاءاته السخيفة، لم يجد في مواجهتها سوى عاطفة ساذجة، حذرة توصل لأن يواصل حديثه. كانت الفتاة التي تصغي له تحس انه يحتاج اليها والفتاة التي تشعر ان هناك من هو بحاجة اليها تكون قد سارت في ربع الطريق المؤدي الى الحب.

وحان الوقت الذي تعين عليه فيه الانصراف. بدا له انه قد وصل قبل قليل. فوقف، وابتسمت له ابتسامة مشاكسة ثانية. كان يرغب في ان يقول لها انه لم يتحدث في السابق بمثل هذه الحرية - حسنا، بمثل هذا الجد - لاي شخص اخر عن نفسه. الا انه لم يستطع العثور على الكلمات.

- حسنا. اتقولين اننا سنلتقي صباح الغد؟

- ارجو ذلك.

- اليس لديك خطيب؟

- لا اهوى اي واحد.

- اراهن ان لديك واحدا. سمعت ان لديك خطيبا.

- انه مجرد كلام في هذا المكان القديم. نحن لا يسمح لنا النظر الى الرجال.

وضع اصبعه على قبعته.

- كأني مكان اخر.

صمت، نظر الى عينيها.

- الست سيئا؟

- ألم اقل انك كذلك.

صمت، كان يدير اصبعه من حول قبعته.

- اعرف الكثير من الفتيات. من كل الانواع. ليس هناك من واحدة تشبهك.
- ليس صعبا العثور على واحدة.
- لم افعل ذلك من قبل.
- ران الصمت مرة اخرى. لم تنظر اليه، بل نظرت الى حافة صدريتها.
- ماذا عن لندن اذا؟ اتحين مشاهدة لندن.
- ابتسمت ابتسامة عريضة وأومأت؛ بحماس كبير.
- اتوقع ان تحببي مشاهدتها. عندما يتزوج الاثنان في الطابق العلوي.
- سأخذك في جولة لتشاهدينها.
- صحيح؟
- عند ذاك غمز لها فما كان منها الا ان وضعت يدها فوق فمها وتألقت عيناها من فوق وجنتيها الورديتين.
- كل فتيات لندن انيقات الملبس. لا اعتقد انك ترغب في الخروج معي.
- اذا كنت تملكين الملابس فستكونين انيقة. ستكونين في منتهى الجمال.
- لا اصدقك.
- اقسم لك.
- التقت عيناها لحظة من الزمن. ثم انحنى لها، وغطى الجزء الايسر من صدره بقبعته.
- غدا يا انستي.
- ماذا؟
- غدا صباحا. وسيكون المخلص لك في الانتظار.
- عندئذ استدارت، وهي لا تقوى على النظر اليه. خطا من ورائها بعجالة، وجذب يدها ورفعها نحو شفثيه. فما كان منها الا ان خطفتها بسرعة، ونظرت اليها كان شفثيه قد تركتا اثرا اسود. نظرة متألقة اخرى يتبادلها، فتعض على شفثيها الجميلتين بينما يغمز لها، ثم انصرف.
- لا اعرف ان كانا قد التقيا في صباح اليوم التالي ام لا على الرغم من حظر تشارلز الصريح. وعندما خرج تشارلز في وقت متأخر من ذلك اليوم من بيت السيدة ترانتر، شاهد سام ينتظر، بفعل مصادفة مخطط لها كما يبدو، في الجانب الاخر من الشارع. اشار تشارلز اشارة الرحمة الرومانية فما كان من سام الا ان

رفع قبعته احتراماً، ووضعها مرة أخرى فوق صدره؛ كان ذلك احتراماً لنعش يمر من امامه لولا الابتسامة العريضة التي لاحت على وجهه.

هذا ما يوصلني الى هذه الامسية الخاصة بحفلة الموسيقى بعد اسبوع من ذلك، والسبب الذي توصل فيه سام الى مثل هذه الاستنتاجات المختلفة عن استنتاجات سيده والخاصة بالجنس اللطيف. فقد عاد الى ذلك المطبخ ثانية. وللأسف كانت هناك وصيفة مسنة حاضرة - طاهية السيدة ترانتر. الا ان الطاهية العجوز كانت تغط في نوم عميق في كرسيها قبالة موقد طبخ. اما سام وماري فقد جلسا في اكثر زوايا المطبخ عتمة. لم يتبادلا اطراف الحديث، اذ لم يكونا بحاجة الى ذلك، طالما كانت ايديهما متشابكة. من جهة ماري كان الامر لا يعدو ان يكون سوى حماية ذاتية اذ وجدت ان تلك هي الطريقة الوحيدة للحيلولة دون امتداد اليد من حول خصرها. اما لماذا وجد سام ماري وقد فهمته كل هذا الفهم على الرغم من كل ذلك وعلى الرغم من الصمت المنخيم عليهما، فهو لغز لا يحتاج اي عاشق الى تفسيره.

من يستطيع ان يستغرب بأن قوانين المجتمع يتناساها في بعض الاحيان
اولئك الذين بغض المجتمع الطرف عنهم عادة، الذين غالبا ما يبدو قلب
المجتمع وقد صرف النظر عنهم؟

دكتور جون سيمون: تقرير المدينة الطبي 1849

ذهبت، وركعت وضعت يدي

كأنتني سأشرب، من الغدير،

ولاح شبح باهت واقفا

من فوق، ينظر نظرة من الماضي.

هاردي: عشية منتصف الصيف

مر يومان ظلت فيهما مطارق تشارلز عاطلة عن العمل في حقيقته. وابتعد عن ذهنه
الافكار الخاصة بالقشور التي تنتظر منه ان يكشفها والافكار الخاصة بنساء استسلمن
للنوم فوق نتوءات جبلية تغمرها اشعة الشمس، وهي افكار ذات صلة بالقشور الان. الا
ان ايرنستينا المت بها الشقيقة فوجد نفسه على نحو غير متوقع حرا عصر يوم اخر. تردد
لحظة، غير ان الاحداث التي مرت من امام عينيه بينما كان يقف الى جوار نافذة غرفته
الناثة كانت قليلة جدا، مملة تماما. ورأى علامة الحانة - التي تمثل صورة اسد ابيض
له وجه يشبه وجه احد اهالي الصين الجائعين وقد سبق لشارلز ان اوضح ذلك
للسيدة بولتيني - وهي تحرق فيه على نحو كالح. كانت الريح خفيفة، واشعة
الشمس واهنة... وثة سحابة رمادية عالية، بل على نحو بالغ العلو لا تنذر بسقوط
المطر. كان قد وطد العزم على كتابة الرسائل، غير انه وجد ان مزاجه ليس رائقا.
اذا اردنا قول الحقيقة، فإن مزاجه لم يكن رائقا لاي شيء. فقد انتابته لذة
السفر القديمة على نحو موجه، غريب حتى ظن انه قد ترعرع في هذه السنوات
الاخيرة. وتمنى ان يكون في قادش⁽⁵⁶⁾، نابولي، موريا⁽⁵⁷⁾ في ربيع البحر المتوسط

(56) قادش: مقاطعة في جنوب غرب اسبانيا. (المترجم)

(57) موريا: جزيرة تشكل القسم الجنوبي من اليونان. (المترجم)

اللاهـب: لا من اجل ربيع المتوسط حسب، بل من اجل ان يكون حرا، ان تكون في انتظاره اسابيع لا تنتهي من السفر، يحـر صوب الجزر، الجبال، ظلال المجهول الحزينة. بعد مضي نصف ساعة، كان يجتاز حقل مصنع الالبان ويدخل غابة ويركـمـونـز. اكان في وسعه ان يسير الى جهة اخرى؟ نعم. كان في وسعه ذلك حقا. الا انه حرم على نفسه تماما الذهاب الى اي مكان قريب من مروج الجرف. ولو انه صادف في طريقه الانسة وودراف فسيـفـعل على نحو مؤدب ولكن ثابت، ما كان يجب ان يفعله في اللقاء السابق - اي رفض الخوض واياها في اي حديث. على اي حال، من الواضح انها تعود دوما الى نفس المنطقة. وشعر انه واثق من عدم رؤيتها لو انه ابتعد عن تلك المنطقة.

على هذا الاساس، فانه قبل ان يصل الى ذلك المكان بمسافة طويلة استدار الى جهة الشمال، وارتقى المنحدر العام للارض، وتوغل داخل اجمة كثيفة من اشجار الدردار المكسوة باللباب. كانت تلك الاشجار ضخمة وهي من اكبر انواع الاشجار في انكلترا. وكان حجمها الضخم هو الذي دفع ذلك السيد المقتصب الى اقامة مشتلـه في الجزء السفلي من الجرف. شعر تشارلز انه قميء، وهو يسرع السير بينها في طريقه الى الوجوه الطباشيرية العمودية تقريبا التي كان في وسعه مشاهدتها في اعلى المنحدر، وشعر ان مزاجه اخذ يروق اكثر من ذي قبل وبخاصة عندما برزت الطبقات الاولى من حجر الصوان من بين النباتات والاعشاب التي كانت تغطي الارض. وعلى الفور التقط قشرة قنفذية. كانت هذه القشرة بالية، ولم يبق سوى اثر ضئيل للصفوف الخمسة من الخطوط المثقبة التي تزين القشرة الكاملة. الا انها كانت افضل من لا شيء مما شجع تشارلز على الانحناء ومواصلة البحث.

رويدا رويدا ارتقى تشارلز الطريق المؤدي الى سفح الجرف حيث كانت تزداد كثافة الصوان المتساقط ويقل احتمال تآكل القشور. ظل في هذه المستوى من السفح، وشرع بالاتجاه صوب الغرب. في بعض المناطق كان اللباب كثيفا - مرتقيا سفح الجرف واغصان الاشجار القريبة بلاميز، ليتدلى على شكل ستائر عظيمة فوق رأس تشارلز. في احدى المناطق اضطر الى شق طريقه وسط ما يشبه النفق الذي صنـعـته النباتات؛ وفي الطرف القصي كانت ثمة فسحة من الارض تشير الى سقوط كميات من الصوان مؤخرا. يحتمل جدا ان يكون مثل هذا المكان مليئا بالقشور فانطلق تشارلز اليها

تحيط به من كل الجوانب اجمات السرخس الكثيفة. دأب تشارلز على ذلك المنوال قرابة عشر دقائق لا يتناهى الى سمعه سوى صوت خوار عجل من حقل بعيد يمتد من فوقه باتجاه اليابسة واصطفاق اجنحة حمام الغابة وهديلها واندفاع موج البحر الهادئ الذي قلما يمكن ادراكه خلال الاشجار الممتدة بعيدا من تحته. ثم سمع صوتا يشبه صوت سقوط حجر. رفع بصره الا انه لم ير شيئا، وظن ان حجارة صوان قد سقطت حقا من الوجه الطباشيري الممتد من فوقه. واصل بحثه مدة دقيقة او دقيقتين اخريين، ثم ادرك بدافع غريزي لا يمكن تفسيره، ربما كان بقايا ملكة ما تملكها من ماضينا الحجري القديم، انه ليس وحيدا. فما كان منه الا ان ألقى نظرة حادة من حوله.

كانت تقف فوقه حيث كان ينتهي نفق اللبلاب، على بعد اربعين ياردة (36 مترا). لم يعرف كم مضى عليها وهي في ذلك المكان؛ غير انه تذكر ذلك الصوت الذي سمعه قبل دقيقتين. انتابه الوجمل اول وهلة تقريبا، اذ بدا امرا غريبا ان تظهر على هذا النحو من الهدوء. لم تكن ترتدي حذاء بمسامير، الا انها لا بد قد تحركت بحذر فائق. لاثارة دهشته. لهذا السبب تعمدت اللحاق به.

- انسة وودراف.

ثم رفع قبعته.

- كيف صادف وجودك هنا؟

- شاهدتك وانت تمر.

سار قليلا الى اعلى الحجارة صوبها. كانت قبعتها في يدها ثانية؛ ولاحظ ان شعرها كان سبطا كأنها كانت في مهب الريح، الا انه لم تكن هناك اي ريح. وكان ذلك يضيف عليها مسحة من الجموح زاد من قوتها ثبات نظراتها عليه. وتساءل عن السبب الذي دفعه الى الاعتقاد بانها ليست مجنونة الى حد ما.

ألدك شيئا تريدن قوله لي؟

مرة اخرى كانت تلك النظرة الثابتة عليه لا النظرة التي تخترقه. كانت سارة تملك واحدا من تلك الوجوه الانثوية الغريبة التي تختلف اختلاف بينا في جاذبيتها، حسب التركيب الكيميائي الدقيق للزاوية، الضوء والمزاج. كانت في تلك اللحظة تحظى بعون فعال من عمود مائل من نور الشمس الواهن الذي وجد طريقه من خلال شق صغير في السحب، وهو امر ليس قليل الحدوث في وقت متأخر من

اوقات ما بعد الظهر في انكلترا. وهكذا تألق وجهها وقوامها الشاخص من امام النباتات الخضراء المدفونة من ورائها. وظهر وجهها فجأة في منتهى الجمال، بالغ الجمال حقاً، مهيباً على نحو فائق، يضج باشراقه داخلية وخارجية. وتذكر تشارلز ان ذلك كان يشبه تماماً ما زعمه احد الفلاحين قرب بلدة غافارني في البيرينز⁽⁵⁸⁾ من انه شاهد... تقف فوق مرتفع بجانب طريقه... وذلك قبل اسابيع قليلة من مرور تشارلز في ذلك الطريق. لقد نقل الى ذلك المكان. لم يكن ذلك الامر بذي اهمية. لكن لو ان مثل هذه المرأة وقفت قبالة!!.

على اي حال، من الواضح ان هذه المرأة كانت لها مهمة عادية جداً. وضعت يديها في جيبها معطفها، واخرجت في كل واحدة منهما قشرتين رائعتين. فما كان منه الا ان صعد نحوها حتى اصبح قريباً بما فيه الكفاية لتمييز نوعيتها، ثم نظر مندهشاً الى وجهها الجامد. وتذكر انه سبق ان تحدث باقتضاب عن علم الاحاث، عن اهمية قنافذ البحر في بيت السيدة بولتيني في ذلك الصباح. وهنا شرع يمعن النظر ثانية في هذين الشيئين الصغيرين في يديها.

- ألن تأخذهما؟

لم تكن ترتدي اي قفازات، فتلامست اصابعهما. عاين القشرتين غير انه لم يفكر الا في لمسة تلك الاصابع الباردة.

- اشكرك شكراً جزيلاً، انهما في حالة ممتازة.

- أهما بغيتك؟

- نعم، حقاً.

هل كانت من الاصداف البحرية ذات يوم؟

تردد، ثم اشار الى معالم القشرة الافضل: الفم، الثقوب، الاست. وبينما كان يواصل حديثه وتستمع له باهتمام بالغ، زال استهجانه. كان مظهر الفتاة غريباً، غير ان عقلها لم يكن مشوشاً ابداً - كما بدا ذلك من خلال سؤالين او ثلاثة اسئلة طرحتها عليه. وفي النهاية، وضع القشرتين بعناية في جيبه.

- انه لفضل كبير ان تفتشي عنها.

- لم يكن في وسعي عمل ما هو افضل من ذلك.

(58) البيرينز: سلسلة جبلية تمتد على طول الحدود الفرنسية الاسبانية. (المترجم)

- كنت على وشك العودة. هل لي بمساعدتك والعودة الى الممر؟
- غير انها لم تتحرك من مكانها.
- كنت ارجب في ان اشكرك يا سيد سميثسون للمساعدة التي اقترحتها.
- طالما انك رفضتها فاني اظل شاكر اكثر.
- ساد صمت قصير، فتحرك صوبها وفتح جدار اللبلاب بعصاه كي تعود ادراجها. الا انها ظلت ساكنة، وهي في مواجهة رقعة الارض المنبسطة.
- ما كان ينبغي لي اللحاق بك.
- كان يتمنى لو في استطاعته مشاهدة وجهها، الا انه لم يفلح.
- اعتقد بأن من الافضل ان انصرف.
- لم تقل شيئا، فاستدار صوب اللبلاب، الا انه لم يستطع مقاومة نفسه والقاء نظرة اخيرة عليها. كانت تمنع النظر فيه من فوق كتفها كأن الجسد استهجن الوجه، وادار ظهره لمثل هذا العار. كانت نظراتها هذه المرة تنطوي على قدر من الحدة يفوق تماما الجاذبية، على الرغم من انها ما تزال توحى بشيء من التأنيب الشامل القلم. كانت عيناها معذبتي، تبعثان على ألم مبرح، ثمة حنق عظيم فيهما، ضعف منتهك على نحو كريح. لم تتهما تشارلز بالحنق، بل عدم مشاهدته ان ذلك قد حدث. لحظة طويلة من النظرات الثابتة، ثم قالت موجهة كلامها نحو الارض التي تفصل بينهما، وهي متوردة الخدين.
- ليس لدي من الجأ اليه.
- ظننت انني اوضحت بأن السيدة ترانتر...
- ذات قلب حنون. الا انني لا احتاج إلى الحنان.
- ران الصمت فظل واقفا وهو يفرق اللبلاب.
- لقد علمت ان القس رجل عاقل تماما.
- انه هو الذي عرفني على السيدة بولتيني.
- وقف تشارلز بجوار اللبلاب كأنه يقف الى جانب احد الابواب. تجنب عينيها وبحث عن طريق للخروج.
- لو كان في وسعي الحديث نيابة عنك الى السيدة ترانتر فساكون بالغ السرور، الا انه سيكون غير مناسب لي...

- ان تهتم اكثر بظروفي؟
- نعم، ذلك ما اردت ان انقله اليك.
كان رد فعلها يتلخص في اشاحة النظر جانبا. لقد آنبها تأنيبا قاسيا، ورويدا رويدا ترك خيوط اللبلاب المتدلية تعود الى وضعها الاول.
- ألم تفكري في اقتراحي بضرورة الرحيل عن هذا المكان.
- لو ذهبت الى لندن فإنني اعرف ماذا سيكون مصيري.
تصلب في اعماقه.
- سأصبح في وضع مشابه للعديد من النساء اللواتي فقدن شرفهن في المدن الكبيرة.

وهنا التفتت اليه التفاتة كاملة، وازداد تغير سحنتها.

- سأصبح مثلما يسموني هنا في بلدة لائم.

كان كلاما عنيفا، لا يليق ابدا. وهمس.

- يا عزيزتي الانسة وودراف...

وهنا احمرت وجنتاه.

- انا ضعيفة. كيف لم اعرف ذلك.

ثم اضافت بمرارة:

- لقد ارتكبت خطيئة.

هذا الاعتراف الجديد، لشخص غريب، وفي مثل هذه الظروف - قد ابعد عنه العنصر الطيب الذي خلقه اهتمامها بمحاضرتة الصغيرة عن القنافذ البحرية المتحجرة. الا انه على الرغم من ذلك تحسس القشرتين في جيبيه. كانت قد استحوذت عليه على نحو ما. وشعر تشارلز الذي يريد ان يختبئ من نفسه بأنه قد اشبع غروره على نحو غامض، مثلما يفعل رجل الدين الذي تطلب منه المشورة في مشكلة روحية.

لقى نظرة فاحصة الى الطوق المعدني حول عصاه.

- اهذا هو الخوف الذي ييقك في لائم.

- الى حد ما.

- اهناك شخص اخر يعلم بتلك الحقيقة التي اخبرتني بها في ذلك اليوم

لدى انصرافك؟

- لو كانوا يعلمون لما اغفلوا الفرصة في اخباري.

ران صمت طويل. لحظات مثل التغيرات التي تحدث في العلاقات الانسانية: فالشيء الذي كان حتى ذلك الوقت حالة موضوعية، حالة ربما يصفها العقل لنفسه بمصطلحات نصف ادبية، حالة يكفي مجرد تصنيفها ضمن عنوان عام (رجل يعاني من مشكلات شرب المشروب المفضل، امرأة تعاني من ماضي تعس، وهلم جرا) تصبح حالة ذاتية، تصبح فريدة، تصبح بالتقمص العاطفي حالة يشارك فيها الغير بدلا من ملاحظتها على الفور. لقد حدث مثل هذا التحول في ذهن تشارلز في حين كان يمعن النظر في الرأس المنحني للخاطئة الواقعة قبالة. وكما هو شأننا جميعا عندما نمر بمثل تلك اللحظات - من منا لم يعانقه سكير؟ - فقد سعى الى عودة سريعة، رغم انها دبلوماسية، الى الوضع الراهن.

- انني حزين بشأنك، لكن ينبغي لي ان اقر بأنني لا افهم السبب الذي يدفعك الى... اذا جاز التعبير.. الى الوثوق بي؟

وهنا بدأت تتكلم - كان السؤال متوقعا منه - على نحو سريع، مرددة خطابا تقريبا، ابتهاالا حفظته عن ظهر قلب.

- لانك سافرت كثيرا. لانك مثقف. لانك انسان نبيل، لانك... لانك... لا ادري. انني اعيش بين ناس يقول لي العالم انهم يتصفون بالحنان والورع، الا انهم يبدوون لي اكثر قسوة من اعنى الكفار، اشد غباء من اغبي الحيوانات. لا يستطيع ان اصدق ان الحقيقة هي على هذا النحو. ان الحياة بلا تفاهم او عطف. انه لا توجد نفوس تتحلى بما يكفي من الكرم كي تدرك ما قد عانته وسبب معاناتي... واني بصرف النظر عن الخطيئة التي ارتكبتها، ليس حقا ان اقاسي الى هذا الحد.

خيم الصمت عليهما. ولم يستطع تشارلز ان يقول شيئا، اذ لم يتوقع مثل هذا الشرح الواضح لمشاعرها، لهذا الدليل، الذي كان يرتاب فيه، غير انه لم يواجهه، الدليل الخاص بذكاء يفوق كل ما هو اعتيادي. وابتعدت قليلا عنه ثم استرسلت في حديثها بصوت اكثر هدوءا.

- سعادتي الوحيدة هي عندما آوي الى الفراش للنوم... وما ان استيقظ حتى يبدأ الكابوس. اشعر انني منفية فوق جزيرة صحراوية، سجين، محكوم عليها، ولا ادري ما هي الجريمة التي اقترفتها.

نظر تشارلز الى ظهرها نظرة فزع، مثل رجل يوشك ان يتلعه انهيار ارضي.
كأنه يريد ان يهرب، لكن بلا فائدة، ان يتكلم، غير انه لا يستطيع.
وفجأة تسمرت عيناها على عينية.

- لماذا ولدت على هذه الصورة؟ لماذا لم أولد مثل الانسة فريمان؟
غير ان الاسم ما ان انطلق من بين شفيتها حتى ابتعدت قليلا، مدركة انها
تجرات اكثر من اللازم.

- الافضل عدم اثارة مثل هذا السؤال.

- لم اقصد...

- الحسد ممكن غفرانه في...

- ليس الحسد، بل اللا فهم.

- لست امالك القدرات - قدرات الناس الاكثر حكمة مني بكثير -
لاساعدك في هذا الصدد.

- لا... لن اصدق ذلك.

سبق لتشارلز ان عرف الكثير من النساء - وعرف ايرنستينا اكثر - وهن
يخالفنه على نحو هازل. غير ان ذلك في سياق مرح. فالمرأة لا تخالف رأي الرجل
عندما يكون جادا الا اذا كان ذلك وفق نقاط محسوبة بعناية. اما سارة فبدت وهي
تتظاهر تقريبا بنوع من الفطنة المساوية له، وفي ظروف كان ينبغي ان تكون اكثر
مراعاة للآخرين اذا ما ارادت ان تحقق بنهايتها. شعر انه قد اهين... شعر... انه
لن يقول شيئا. كانت الخلاصة المنطقية لمشاعره تتمثل في ان يرفع قبعته، ويحسم
الامر على نحو بارد، ويسير مبتعدا بجذائه ذي المسامير الثقيلة. بيد انه وقف في
مكانه، كأنه قد ترسخ في ذلك المكان. لعله كان يمتلك فكرة راسخة اكثر مما
ينبغي عن الصورة التي تظهر بها جنية البحر والظروف التي تظهر فيها - صفائر
طويلة، عري مرمرى عفيف، ذنب حورية، يصحبها اوديسيوس صاحب الوجه
المرضي في افضل النوادي. لم تكن هناك اي معابد دورية⁽⁵⁹⁾ في الجزء السفلي من
الجرف. لكن كانت هناك حورية.

(59) دورية: اقدم وابسط الطراز المعمارية الثلاثة الاغريقية، الدوري، الكورنثي، والايوني.
(المترجم)

همست:

- لقد اسأت اليك الان.

- انت تثيرين حيرتي يا انسة وودراف. فأنا لا اعرف ما هو الشيء الذي تتوقعين مني ولم اعرضه عليك لمساعدتك. لكن ينبغي ان تدركي مؤكدا ان اي صداقة حميمة بيننا بغض النظر عن براءة مقاصدها، مستحيلة تماما في ظل ظروف الراهنة.

ساد الصمت بينهما، بينما ضحك طائر في فجوة خضراء، ساخرا من صاحبي القدمين الاثنين الجامدين بعيدا من تحته.

- اكان في وسعي ان ارمي نفسي تحت رحمتك على هذا النحو لو لم اكن يائسة؟

- لا ارتاب في ياسك، لكن على الاقل اعترفي باستحالة طلبك.

ثم اردف:

- الذي لا زلت اجهل طبيعته تماما.

- ارغب في ان اقص عليك ما حدث قبل ثمانية عشر شهرا.

صمت. نظرت اليه لترى رد فعله. ومرة اخرى تصلب تشارلز في مكانه. سقطت القيود غير المرئية، وانتصر الجانب التقليدي فيه. انتصب في وقفته، مثل نصب في مواجهة صدمة مشكوك فيها، مستنكرا اياها. غير ان شيئا في عينيه ظل يبحث عن شيء ما في عينيها... عن تفسير، عن دافع. ظن انها ستتكلم اكثر، وكانت على وشك ان تسير عبر اللبلاب دون كلمة اخرى. غير انها فعلت الشيء الذي لا يمكن ان يتوقعه ابدا وعلى نحو مفاجئ تماما كأنها توقعت بما عزم عليه: جثت على ركبتيها.

اصيب تشارلز بالذعر. ودار في خلده الشيء نفسه الذي يدور في خلد من يكون منهمكا في مراقبتهم سرا. تراجع خطوة الى الوراء، كأنه يريد ان يتوارى عن الانظار. بدت هادئة على نحو غريب. لم يكن ركوعها ركوع من اصيب بهستيريا. كانت عيناها فقط اكثر حدة: عينا بلا شمس، تستحمان في ضوء القمر الابددي.

- انسة وودراف!

- اتوسل اليك. اني لست مجنونة بعد. غير انني سأجن ان لم اتلق العون.

- ثمالكي نفسك. لو شاهدنا احد...

- انت ملاذي الاخير. انك لست قاسيا. وانا اعرف انك لست قاسيا.

تفرس فيها، واختلس النظر من حوله، ثم تقدم الى الامام وساعدها في الوقوف على قدميها وسار بها، ويده المتصالبة من تحت مرفقها، تحت خيوط اللبلاب. وقفت قبالة ووجهها مدفون في راحتي يديها. وجاهد تشارلز من اجل الا يلمسها، جاهد بسرعة مروعة تشبه قلب الانسان عندما يهاجم العقل البشري.

- لا اريد ان ابدو غير مبالٍ بمتاعبك. لكن ينبغي ان تدركي انني.. انني لا املك الخيار.

فقلت بصوت خفيض متدقق:

- كل ما اطلبه منك هو ان نلتقي مرة اخرى وسوف أجيء الى هذا المكان بعد ظهر كل يوم ولن يشاهدنا احد.

حاول ان يعترض، الا انها لم تتوقف عن الكلام.

- انت حنون، انت تفهم ما لا يقدر على فهمه اي انسان في بلدة لايم. دعني انهي حديثي. قبل يومين اثنين اوشكت ان اصاب بمس من الجنون. وشعرت انني لا بد ان اراك، ان اتحدث اليك. انني اعرف محل اقامتك وكان من المقرر ان اذهب الى هناك للسؤال عنك لولا.. لولا بقية باقية من سلامة العقل اوقفتني قرب الباب.

- لكن هذا لا يغتفر. فانت الان تهددينني بالفضيحة، الا اذا كنت مخطئا.

هزت رأسها بالنفي.

- افضل ان اموت على ان تفكر في ذلك النحو. انه... لا ادري كيف اعبر لك عن ذلك، انني ابدو مدفوعة بدافع اليأس للتفكير في هذه الامور الرهيبة. انها تملأني بالرعب من نفسي. لا اعرف الى اين اتجه وماذا افعل، ليس لي احد يستطيع... الا يمكنك ان تفهم؟

كانت الفكرة الوحيدة التي تراود ذهن تشارلز الان هي الهروب من الورطة التي وقع فيها، من هاتين العينين المجردتين، الصادقتين على نحو موجه.

- لا بد لي من الانصراف. هناك من ينتظر في شارع برود.

- غير انك ستأتي مرة اخرى؟

- لا استطيع...

- انني أجيء الى هذا المكان كل يوم اثنين واربعاء وجمعة، عندما لا تكون لدي واجبات اخرى.

- ان ما توحين به هو... لا بد لي من ان اؤكد ان السيدة ترانتر...

- لم يكن في وسعي قول الحقيقة امام السيدة ترانتر.

- عندئذ ليس من المناسب تماما ان يسمع ذلك رجل غريب؛ ومن جنس غير جنسك.

- الغريب... والذي ينتمي الى الجنس الاخر... هو غالبا الحكم الاقل تحيزا.

- من المؤكد تماما انني ارجب في وضع تفسير مترفق لسلوكك. الا انه لا بد

لي من القول مرة اخرى انني اجد نفسي في حيرة اذ انك...

غير انها كانت ما تزال ترنو اليه بنظراتها، وانتهت كلماته بالصمت. ان تشارلز، كما لاحظت، يملك اكثر من مجموعة واحدة من المفردات اللغوية: فهو في حديثه الى سام في الصباح، والى ايرنستينا في اثناء الغداء البهيج، وهنا في دور الاحتشام المذعور... كان ثلاثة رجال مختلفين تقريبا. وسيكون هناك اخرون منه قبل ان تنتهي. وفي وسعنا ان نفسر ذلك تفسيراً احيائياً بعبارة التلوين الخفي، البقاء على قيد الحياة بتعلم كيفية الامتزاج بالبيئة التي يعيش فيها الشخص - مع افتراضات المرء غير المفنّدة بعمره أو طائفته الاجتماعية. او نستطيع ان نفسر هذا الهروب الى الشكلية تفسيراً سوسولوجياً. فعندما يتزحلق المرء فوق طبقة رقيقة جدا من الجليد - ضغط اقتصادي شامل، استبداد الجنس، طوفان العلم الميكانيكي - فإن قدرته على اغماض عينيه عن تصلبه السخيف تصبح جوهرية. وهناك القليل جدا من الفكتوريين الذين اختاروا الارتياح في فضائل مثل هذا التلوين الخفي. الا ان ما كان يتألق في عيني سارة لم يكن كذلك. فعلى الرغم من ان نظراتها كانت صريحة، الا انها نظرة خائفة. ومع هذا، فمن ورائها يكمن تعبير حديث جدا: تعال خاليا من التلوث يا تشارلز. تعال خاليا. وقد اربكت تلك النظرة الشخص المقصود بها. لقد كانت ايرنستينا تتصرف هي وامثالها دوما كمن ينمو في قفص زجاجي: منتهى الرقة، حتى عندما يقذفن بكتب الشعر. كن يشجعن القناع، المسافة الامنة؛ اما هذه الفتاة، فقد حرمت ذلك من وراء المظهر المتواضع. وبدوره خفض من بصره.

- لا اطلب منك سوى ساعة واحدة من وقتك.
ورأى سببا ثانيا وراء هدية القشرتين، اذ لم يكن العثور عليها في ساعة واحدة بالامر الممكن.

- اذا كان ذلك ممكنا على الرغم من ترددي الكبير...
تكهنت بفحوى كلامه وقاطعته بصوت خفيض:
- ستؤدي لي خدمة كبيرة وعندئذ سأنفذ كل نصيحة ترغب في اعطائها لي.
- لا بد ان يكون مؤكدا اننا لن نواصل المجازفة في...
مرة ثانية تدخلت في اثناء توقفه القصير عندما اخذ يبحث عن الشكليات الصحيحة.

- افهم ذلك، وافهم ايضا ان لديك ارتباطات اكثر الحاحا.
توارت اشعة الشمس عن الانظار بعد تألق قصير. وشرع النهار يقترب من نهايته الباردة. وبدا له ان الطريق الذي سلكه، الذي يتجاوز الحقل على ما يبدو، قد غدا شفير هاوية. عرف ذلك وهو يتفرس في رأسها المحني. انه لا يستطيع ان يقول ما هو الشيء الذي اغواه، ما هو الخلل في قراءته الخارطة. غير انه شعر بالضياح وانه في شرك. ومع ذلك، فقد التزم الان بارتكاب حماقة اخرى.
قالت:

- لا استطيع ان اجد الكلمات التي اشكرك فيها. سأكون هنا في الايام التي ذكرتها لك.

ثم اضافت كأن مساحة الارض المقطوعة من الشجر هي حجرة استقبالتها:
- لا ينبغي لي ان اؤخرك اكثر.
انحنى تشارلز لها، تردد، ثم القى اليها نظرة اخيرة متزنة واستدار. بعد مرور ثوانٍ قليلة، كان يفتح ستارة اللباب الاخرى ويتعثر في طريق نزوله. وكان منظره يشبه ذكر الابل اكثر مما يشبه منظر سيد انكليزي خبير بالحياة والناس.
وصل الممر الرئيس في الجزء السفلي من الجرف وانطلق بحث خطاه صوب بلدة لام. نعقت بومة مبكرة. الا ان عصر ذلك اليوم بدا لتشارلز على انه يخلو من الحكمة. كان ينبغي له ان يتخذ موقفا متصليا اكثر، كان ينبغي له ان ينصرف مبكرا، كان ينبغي له ان يعيد القشرتين، كان ينبغي له ان يقترح - لا، بل يأمر -

بحلول اخرى لياسها. شعر انها تفوقه حيلة ودهاء، ومال الى التوقف وانتظارها غير ان قدميه اسرعتا في السير اكثر فاكثرا.

لقد ادرك انه يوشك ان يتورط في ما هو محظور او ان المحظور يوشك ان يتورط فيه. وكلما ابتعد عنها اكثر، زمانا ومكانا، ادرك بوضوح اكبر حماقة تصرفه. لقد بدا كأنه اصيب بالعمى عندما كانت تقف قبالة: انه لم يرها كما هي عليه، امرأة خطرة كما تبدو على اوضح ما يكون تقريبا، ولا تبدو كذلك على نحو محسوس، بل رأها ضحية احباط عاطفي حاد، وازدراء اجتماعي لا شك فيه. على الرغم من ذلك، فانه في هذا الوقت لم يفكر ابدا فيما اذا كان ينبغي ان يخبر ايرنستينا؛ كان يعلم انه لن يخبرها. وشعر بالخزي، كأنه سار بعيدا عن الكوب، وانطلق مبحرا الى الصين دون ان يحذرهما.

كانت الضحية المتجهة الى الصين مضطرة في ذلك المساء حقا الى لعب دور المضيف في مفاجأة خططها هو وايرنستينا للخالة ترانتر. فقد كان من المقرر ان تأتي السيدتان للعشاء عنده في حجرة الجلوس في فندق وايت لاين. وقد اعد طبق من سرطان البحر الريان، وسلقت وجبة من السلمون الطازج، ونهبت اقبية الحانة، ودفع ذلك الطبيب الذي التقيناه لقاء عابرا في منزل السيدة بولتيني الى اقامة التوازن الصحيح بين الجنسين.

كان من اعظم الشخصيات في بلدة لايم، وكان يعد عموما صيدا ممتازا في نهر الزواج شأنه شأن سمك السلمون، الذي وضع امامه في تلك الليلة، في نهر اكس. وعمدت ايرنستينا الى مضايقة خالتها مضايقة قاسية به، متهمة تلك المرأة اللطيفة اساسا بقسوة لا ترحم على ذلك الرجل المستوحد الذي يبني عليها الامال. لكن طالما تحمل هذا الشخص المأساوي تحملا ناجحا وحدثه البائسة ستين سنة او اكثر فإن المرء قد يرتاب في هذا البناء بقدر ما يرتاب في القسوة التي لا ترحم.

كان الطبيب غروغان في حقيقة الامر عجوزا عازبا منذ زمن بعيد مثلما ان الخالة ترانتر عانس. ولما كان ايرلنديا، فقد كانت لديه تماما تلك القدرة الايرلندية الغريبة على مغازلة الجنس اللطيف والتملق اليه والانتقال من امرأة الى اخرى دون ان يسمح لقلبه بالتورط في اي منهن. كان صقرا صغيرا ساخرا، حادا، عنيفا الى حد ما في بعض المناسبات، الا انه يسهل عليه ان يتصرف تصرفا يخلو من التوتر عندما يكون رفاقه ملائمين لذوقه، وبهذا اضفى صراحة محبة لمجتمع لايم. فعندما يكون في صحبتك، فانك تشعر دوما انه يحوم من حولك، منتظرا الانقضاض على اي حماقة - ومع هذا، فانه اذا ما شعر بميل اليك، فذلك يكون مصحوبا دوما ايضا بفطنة حادة، وانسانية رجل عاش وتعلم على طريقته: ان يدع الاخرين يعيشون، واتصف ايضا بشيء غامض قليلا. فقد ولد كاثوليكيًا: وهو في ضوء مصطلحات عصرنا لا يختلف عن شخص كان شيوعيا في ثلاثينيات القرن العشرين فهو مقبول الان، الا ان صفقة الشيطان ما تزال عليه. المؤكد انه بات الان مثل دزرائيلي،

عضوا محترما في كنيسة انكلترا والا ما كانت السيدة بولتيني لتسمح له ان يكون في حضرته. لا بد انه كذلك لأنه بخلاف دزرائيلي كان يذهب للصلاة مختارا في كل يوم احد. فاحتمال ان يكون شخص ما لا مباليا - ان كان هذا هو مكان العبادة الرئيس - انما هو خداع يفوق مخيلة اهالي بلدة لاي. علاوة على ذلك، كان طبيبا جيدا جدا، يمتلك معرفة دقيقة باهم جوانب الطب، الا وهو مزاج مرضاه. فقد كان يشاكس الذين يرغبون سرا في المشاكسة، وبنفس القدر كان يبدو مزعجا، مدللا ولا مباليا حسب متطلبات الحال.

لم يحب احد في بلدة لاي الطعام والمشروب المفضل اللذيذين اكثر منه. ووجبة الطعام التي قدمها تشارلز ووايت لاي نالت استحسانه، فأخذ على عاتقه ضمنا القيام بدور المضيف من الرجل الاصغر سنا. لقد درس في هايدلبرغ⁽⁶⁰⁾ ومارس مهنته في لندن، وعرف العالم وما فيه من اشياء غير معقولة مثلما لا يعرفه الا الايرلندي الذكي. وهذا يعني انه حيثما خائنه معرفته او ذاكرته، فإن مخيلته حاضرة دوما لملء الفراغ. لم يصدق احد ما قصصه جميعا، او لم يرغب في سماعها بدرجة اقل. ربما كانت الخالة ترانتر تعرفها مثلما يعرفها كل فرد في بلدة لاي، اذ كان الطبيب صديقا ودودا لها منذ زمن طويل. من المؤكد انها كانت تعلم ان كل مرة يرويها فيها لا تتطابق الا قليلا مع روايته لها اخر مرة. وعلى الرغم من ذلك كانت تضحك في معظم الاحيان وبشكل مبالغ فيه في بعض الاحيان حتى انني خشيت ان افكر بما قد يحدث لو ان عماد المجتمع في اعلى التل سمعها مصادفة.

كانت امسية من شأن تشارلز ان يستمتع فيها اعتياديا، ربما ليس على الاقل لأن الطبيب سمح لنفسه ان يكون حرا في استعمال اللغة والحقائق في بعض حكاياته وبخاصة عندما انتهى الامر بسمك السلمون الريان الى انقراض مهشمة وباشر السادة بتناول المشروب المفضل البرتغالي، وهو امر لا ينم عن مراعاة للاصول في مجتمع ايرنستينا الذي تعلمت فيه كيف تتشرف بها. ولاحظ تشارلز ان الذعر انتابها مرة او مرتين بخلاف الخالة ترانتر. كما شعر بالحنين الى هذه الثقافة الاكثر انفتاحا لشبابيها التي كان الضيفان الاكبر سنا يشعرون بالسعادة عند الرجوع اليها. وفي

(60) هايدلبرغ: مدينة المانية تقع على نهر نيكار، جنوب شرق مدينة مانهايم. (المترجم)

حين كان يراقب عيني الطبيب العابثين ومرح الخالة ترانتر انتابه غثيان طبيعي من زمانه: من احتشامه الخانق، عبادته لا الالة وحدها في النقل والتصنيع، بل الالة الاشد هولا التي تنصب الان في التقاليد الاجتماعية.

قد تلوح هذه الموضوعية المثيرة للاعجاب ذات صلة واهية بسلوكه في وقت مبكر من ذلك اليوم. ان تشارلز لم يفهم المهام المطلوبة منه، بيد انه لم يكن يجهل كل الجهل تناقضه ايضا. وفكر وهو يغير وجهته صوب وجهة اخرى انه نظر نظرة جادة اكثر مما ينبغي الى الانسة وودراف - في تردده، اذ اجاز التعبير - بدلا من العمل بلا تردد واصبح شديد التدقيق في التوافه الخاصة بايرنستينا، فهي لم تعد تتألم، بل تفتقر الى حيويتها الاعتيادية على الرغم من صعوبة القول فيما اذا كان ذلك بسبب الصداغ النصفى او حديث الطبيب الايرلندي المتصل. على اي حال، ادرك رويدا رويدا ثانية، كما هو شأنه في اثناء الحفلة الموسيقية، انها تتصف بشيء من السطحية - ذكاؤها قائم اساسا، عقليا وتدرجيا، على لطافتها. الا يكمن وراء فطنتها المتزنة شيء من الالية، واحدة من الاليات البارعات في قصص هوفمان⁽⁶¹⁾؟ غير انه فكر بعد ذلك: انها طفلة بين ثلاثة بالغين - ثم ضغط على يدها من تحت المنضدة، وبدت فاتنة وهي تحمر خجلا.

اخيرا رافق السيدان، تشارلز الطويل القامة الشبيه الى حد ما بزواج الملكة⁽⁶²⁾ الراحل والطبيب النحيل، السيدتين الى بيتهما. كانت الساعة العاشرة والنصف، وهي الساعة التي تبدأ عندها توا الحياة الاجتماعية في لندن. اما في هذا المكان، فالبلدة غارقة في نوم عميق. وبعد ان اغلق الباب في وجهيهما الباسمين، وجدا انهما وحدهما في شارع برود.

وضع الطبيب احد اصابع يده فوق انفه.

(61) ارنست تيودور اماديوس هوفمان (1776-1822): كاتب وناقد ومؤلف موسيقي الماني اشتهر بقصصه ذات المضامين الفنتازية والظواهر الطبيعية الخارقة التي اقتبس البعض منها للاوبرا والباليه. وينكر انه غير اسمه من ويلهلم الى اماديوس احتفاء بموزارت. (المترجم)

(62) المقصود الامير البرت (1819-1861) زوج الملكة فكتوريا ووالد الملك ادوارد السابع، وقد توفي اثر اصابته بحمى التيفوئيد. (المترجم)

- اما انت يا سيدي، فوصفتك الطبية هي شراب التودي المحلى الذي ركبته بيدي الخبيرتين.

تظاهر تشارلز بنظرة مؤدبة تنم عن الاحتجاج.

- انها اوامر الطبيب، كما تعلم. فمما يبعث على السرور هو العبث، كما يقول الشاعر⁽⁶³⁾. جميل ان يرشف المرء في المكان المناسب. ابتسم تشارلز.

- اذا وعدت ان الشراب افضل من اللاتينية عندئذ اكون بالغ السرور. هكذا وجد تشارلز نفسه بعد عشر دقائق محتجبا في المكان الذي يسميه الطبيب غروغان الكاينة. وهو عبارة عن مكتب ذي واجهة مائلة في الطابق الثاني يطل على الخليج الصغير الممتد بين بوابة كوب وسد الكوب نفسه؛ غرفة، على حدّ زعم الايرلندي، تزداد جمالا في الصيف بخاصة عندما تفسح للناظر منها مشاهدة حوريات البحر اللواتي يأتين لاحتلال المياه. اي حالة الطف يمكن ان يجد الطبيب نفسه فيها من حالته وهو يطلب لمريضاته من الاناث ما يبعث على سروره ايضا؟ منظار غريغوري صغير من النحاس وضع فوق المنضدة في النافذة المائلة. كان لسان غروغان يتسلل على نحو شرير خارج فمه بينما يغمز بعينه.

- طبيعي انه للاستخدامات الفلكية لا اكثر.

اشرب تشارلز بعنقه خارج النافذة، وتنشق الهواء المالح وشاهد فوق الشاطئ على بعد مسافة الى جهة اليمين الظلال السود المربعة لأكواخ السباحة التي تظهر منه حوريات البحر. غير ان الموسيقى الوحيدة القادمة من الاعماق في تلك الليلة كانت همهمة المد والجزر على الحصى، والى مسافة ابعد، كانت تتناهى الى السمع اصوات النوارس الخشنة خافتة وهي تحط فوق الماء الساكن. وسمع من خلفه في الغرفة المنيرة بضوء المصباح الصدى الذي كان يرافق تحضير غروغان لدوائه. شعر انه معلق بين عالمين اثنين، المدنية الرقيقة الدافئة من ورائه، الغموض البارد، المظلم في الخارج. كلنا يكتب الشعر، الا ان الشعراء، وحدهم الذين يكتبون بالكلمات.

(63) الشاعر هو (هوراس 65 - 8 ق. م)، والعبارة مأخوذة من البيت الشعري «مما يبعث على السرور هو العبث في بعض الاحيان» الواردة في ديوانه (قصائد - الكتاب الرابع، الجزء 12 ص 28). (المترجم)

كان المشروب لذيذاً، وسيكار الشبوت الذي رافقه مفاجأة سارة؛ وهذان الرجلان ما زالا يعيشان في عالم يشترك فيه الغرباء الاذكياء بمنظور عام من المعرفة، مجموعة متوافقة من المعلومات ومجموعة معروفة من الانظمة والمعاني المقترنة بها. اي طبيب يعرف اليوم الادب الكلاسيكي؟ اي هاوٍ يستطيع التحدث الى العلماء حديثاً مفهومًا؟ كان عالم هذين الرجلين عالماً يخلو من طغيان التخصص، ولا اريد منك - ولا من الطبيب غروغان كما ستلاحظ - الخلط بين التقدم والسعادة.

لم يقل احدهما شيئاً برهه من الزمن، وغرقاً ثانية، شاكرين، في عالم الذكر الاكثر جدية، الذي اضطرهما السيدتان والمناسبة الى مغادرته. ووجد تشارلز نفسه وقد تملكه حب الاستطلاع لمعرفة الافكار السياسية التي يؤمن بها الطبيب. وللخوض في صلب الموضوع، سأل عن التمثالين النصفيين الجاثمين ببراءة بين كتب مضيفه.

ابتسم الطبيب. واقتبس عبارة من فيرجيل تقول ما معناه اننا نصنع اقدارنا باختيارنا...

رد تشارلز الابتسامة.

- انني اميز بنثام⁽⁶⁴⁾. اليس كذلك؟

- صحيح. اما قطعة الرخام الباروسية⁽⁶⁵⁾ الاخرى فهي تمثل فولتير.

- لهذا استنتج اننا ننتهي الى نفس الحزب.

سأله الطبيب:

- او يملك اي ايرلندي خياراً اخر؟

اشار تشارلز بالنفي بهزة من رأسه. ثم شرح السبب الخاص به لكونه من حزب الاحرار.

- يبدو لي ان السيد غلادستون يقر على الاقل وجود فساد جذري في اسس عصرنا الأخلاقي.

- وحق السماء، انا لست جالسا الى جوار اشتراكي. اليس كذلك؟

(64) جيريمي بنثام (1748 - 1831) فيلسوف انكليزي قال ان المتعة هي غاية الحياة الاساسية. (المترجم)

(65) الباروسية: نسبة الى جزيرة باروس اليونانية الشهيرة برخامها. (المترجم)

ضحك تشارلز.

- لست اشتراكيا حتى الان.

- لكن لا تنسَ ان في مستطاعي ان اغفر للانسان في عصر البخار والنفاق هذا كل شيء سوى التزمت الديني.

- اه، نعم حقا.

- كنت في شبابي من انصار بنثام واخرجني فولتير من روما، بينما اخرجني الثاني من معسكر طروادة. أما هذه الاكذوبة الجديدة - توسيع حق الانتخاب، فلا شأن لي بها. لا تهمني الولادة مطلقا. ان اي دوق، اي ملك، يمكن ان يكون غبيا مثل اي انسان اخر. شكرا لامنا الطبيعة فانا لن ابقى على قيد الحياة بعد خمسين سنة من الان. وعندما تبدأ الحكومة بالخوف من الغوغاء، فذلك يشبه القول انها تخاف من نفسها.

وهنا التمعت عيناه.

- اسمعت ما قاله زميلي رجل الريف لاحد الميثاقين عند ذهابه الى دبلن للدعوة الى عقيدته؟ قال الميثاقي: «ايها الاخوة. اليس كل رجل طيبا مثل بقية الرجال؟» فصاح به بادي: «والله انت على حق ايها الخطيب بل افضل من ذلك قليلا».

ابتسم تشارلز، غير ان الطبيب رفع اصبعه حادة.

- انت تبتسم يا سميثسون، لكن اصغِ السمع - كان بادي على حق. فتلك العبارة: «بل افضل قليلا» ستكون حطام هذا البلد. تذكر ما ا قوله لك الان.

- ولكن هل يتحمل هذان التمثالان اللوم؟ من الذي نادى بالسعادة للجميع؟
- لست اخالف الحكمة السائرة. بل بالطريقة التي تهتم بها. لقد دبرنا امورنا على احسن وجه بلا الممدن الحديدي، (يقصد به سكة الحديد)، عندما كنت شابا يافعا. انك لا تحقق السعادة للكثيرين عندما تجعلهم يركضون قبل ان يتمكنوا من المشي.

همس تشارلز بموافقة التي تنم عن الادب. لقد سبق له ان لمس تلك النقطة الموجهة نفسها في حديثه وعمه، وهو شخص له طبيعة سياسية مختلفة تمام الاختلاف. فالكثيرون من الذين ناضلوا من اجل لوائح الاصلاح الاولى في

ثلاثينات القرن التاسع عشر ناضلوا ضد تلك اللوائح بعد ثلاثة عقود. وشعروا ان الروح الانتهازية، الازدواجية، اصابا القرن بالبلاء، وتسببت في ظهور روح الغيرة والتمرد الخطرة. لعل الطبيب، وهو المولود في عام 1801، كان جزءا من الانسانية الاغسطسية⁽⁶⁶⁾؛ اعتمد احساسه بالتقدم اعتمادا وثيقا اكثر مما ينبغي على مجتمع منظم - النظام هو السماح له بأن يكون تماما مثلما كان دوما عليه، وهو ما جعله اقرب الى بيرك⁽⁶⁷⁾ الليبرالي الخفي من بنثام الفاشي الخفي. غير ان جيله لم يكن مخططا كله في شكوكه ببريطانيا الجديدة وساستها الذين ظهروا في فترة الازدهار الاقتصادي الذي استمر طويلا بعد العام 1850. ووافقهم الكثير من الشبان، المغمورين من مثل تشارلز والمشهورين من مثل ماثيو ارنولد⁽⁶⁸⁾. ولم يكن غلادستون تحت ظل الخطابة النبيلة اعظم اساتذة العبارة الغامضة في التاريخ السياسي الحديث، حيث ارفع الاشياء يصعب فك مغاليقها، واسوأ الـ...؟ الا انه من الواضح ان الوقت قد حان لتغيير مجرى الحديث. وهنا سأل تشارلز الطبيب ان كان يهتم بموضوع علم الاحياء.

- لا يا سيدي. الافضل لي ان اعترف. انا لم ارغب في افساد ذلك العشاء البهيج، غير انني، من المؤكد، من الباحثين المتخصصين في علم الوجود الحديث. ابتسم لتشارلز وهو غارق في كرسيه المرنج.

- عندما نعرف اكثر عن الاحياء، يحين الوقت لملاحقة الموتى.

قبل تشارلز الاهانة، واغتتم الفرصة.

لقد قدم لي منذ ايام نموذج من النبات المحلي يجعلني اميل قليلا الى الاتفاق

معك.

توقف بدهاء.

- حالة في منتهى الغرابة، مما لا شك فيه انك تعرف عنها اكثر مما اعرف انا.

(66) الاغسطسية: نسبة الى اغسطس قيصر (اول امبراطور روماني) او بعصره او مميز لهما، دام حكمه من (27 ق. م - 14 بعد الميلاد). (المترجم)

(67) اموند بيرك (1729-1797): سياسي بريطاني عرف بعدائه للثورة الفرنسية. (المترجم)

(68) ماثيو ارنولد (1822-1888): شاعر وناقد انكليزي لم ينحصر نقده في الادب وحده بل تعداه الى اللاهوت والتاريخ والفن والعلوم والسياسة. اشهر كتبه مقالات في النقد والثقافة والفوضى. (المترجم)

ثم اضاف بعجالة عندما ادرك ان اسلوبه غير المباشر قد يوحى بشيء اكبر من الاهتمام الوقتي.

- اظن ان اسمها وودراف وهي تعمل عند السيدة بولتيني.

لقى الطبيب نظرة الى الوعاء ذي المقبض الفضي الذي يحتوي على كأسه.

- اه، نعم. مأساة المسكينة.

- أنا طائش؟ لعلها مريضة.

- حسنا. انني اداوي السيدة بولتيني، ولن اسمح بكلمة سوء تقال عنها.

اختلس تشارلز نظرة حذرة اليه، ولاحظ على نحو لا يقبل الجدل تألق عيني

الطبيب من وراء نظاراته ذات الاطار المربع. وهنا اطرق الشاب مبتسما ابتسامة واهنة.

مد الطبيب غروغان يده لاذكاء جمرات النار.

- اننا نعرف عن المتحجرات الموجودة خارجا فوق الشاطئ اكثر مما نعرف

عما يحدث في عقل تلك الفتاة. هنالك طبيب الماني ذكي قسم مؤخرا مرض

الاكتئاب الى العديد من الانواع. وقد اطلق على احد هذه الانواع الاكتئاب

الطبيعي ويقصد به ان المرء يولد مكتئب المزاج. والنوع الثاني يسميه الاكتئاب

المؤقت ويقصد به ان الاكتئاب يظهر نتيجة حدث ما. وهذا النمط، كما تعلم،

نعاني منه جميعا في بعض الاحيان. اما الصنف الثالث فيطلق عليه الاكتئاب الغامض

ويقصد به الرجل المسكين - انه لا يعرف ما هو سببه.

- لكن في حياتها حدث هام. اليس كذلك؟

- اوه، دعك من هذا التهويل. اهي اول امرأة يتخلى عنها حبيبها؟ في وسعي

ان اخبرك بالعديد من امثالها هنا في بلدة لايم.

- في مثل هذا الظرف القاسي؟

- في ظرف اشد قساوة عند بعضهن، اما اليوم فتجدهن في منتهى البهجة.

- اذا انت تضع الانسة وودراف في صنف الاكتئاب الغامض؟

التزم الطبيب الصمت ثواني معدودة.

- لقد استدعيت - كل ما ساقوله امر بالغ السرية كما تفهم - لقد

استدعيت لمعاينتها... قبل عشرة اشهر، استطيع ان افهم الان ما هو السبب على

الفسور - بكاء دون توقف، رفض الكلام، نظرة فاحصة من حول العينين مرض الاكتئاب واضح وضوح الحصبة. عرفت قصتها. واعرف اسرة تالبوت، اذ كانت تعمل مربية لديهم عندئذ، واعتقد - حسنا ان السبب واضح، لأن ستة اسابيع، بل ستة ايام في بيت مارلبورو تكفي لأن تحول العاقل الى مجنون. فيما بيننا يا سميثسون، انا رجل وثني عجوز. واتمنى لو اشاهد ذلك القصر وقد آل الى حطام بما في ذلك صاحبه. ولتحل علي اللعنة اذا لم ارقص على أنقاضه.

- اظني سأنضم اليك.

- لن نكون وحدنا.

كرع الطبيب محتويات كأسه من شراب التودي بقوة.

- ستخرج البلدة عن بكرة ابيها، لكن لن يكون هذا هنا ولا في اي مكان

اخر. لقد فعلت ما في وسعي من اجل الفتاة، غير انني وجدت علاجاً واحداً.

- ابعادها عن المكان.

او ما الطبيب ايماءة متحمسة.

- بعد مضي اسبوعين، كان غروغان عائدا الى بيته عصر يوم ما، فشاهد

الفتاة تسير صوب الكوب. فطلب منها الدخول، اتحدث اليها، انني رقيق ازاءها

كأنها ابنة اخوتي الاثيرة. غير ان الامر يشبه القفز فوق سور ارتفاعه عشرة اقدام

(ثلاثة أمتار). ليست مستعدة يا سميثسون. ليست مستعدة. لم يكن الكلام هو

الشيء الوحيد الذي جربته معها، اذ لدي صديق في اكستر يعيش وزوجته السعيدة

واطفاله الاربعة الذين يشبهون الملائكة. وكان في ذلك الوقت يبحث له عن مربية

وقد اخبرتها بأمره.

- الا انها لم تتحرك.

- ولا بوصة واحدة (ستيمتران ونصف). هكذا هي القضية كما ترى. ان

السيدة تالبوت حمامة وديعة، وتفضل ان تعود الفتاة اليها في بادئ الامر. غير انها لم

تذهب، وآثرت الذهاب الى بيت تعلم انه بائس تماماً، الى سيدة لم تعرف ابدا

الفرق بين الخادم والعبد، الى مكان يشبه وسادة من الشوك. وها هي الان ترفض

الرحيل. لن تصدق هذا يا سميثسون، لكن في وسعك ان تمنح الفتاة عرش انكلترا -

والف جنيه الا انها ستتهز رأسها.

- غير انني... اجد هذا الامر عصيا على الفهم. ان الشيء الذي قلت لي الان انها رفضته هو الشيء نفسه الذي فكّرنا فيه. فوالدة ايرنستينا...

- ستضيع وقتها يا عزيزي مع عظيم احترامي للسيدة.

ابتسم ابتسامة كالحة لتشارلز، ثم توقف لملء كأسيهما من دورق المشروب الموضوع فوق الحاجز الحديدي في جانب الموقد.

- غير ان الدكتور هارتمان الطبيب يصف حالات مماثلة الى حدّ ما. ويقول عن احدي هذه الحالات قولا مثيرا الان. انها قضية ارملة، اذا لم تخني الذاكرة، ارملة شابة في ويمار توفي زوجها الضابط في سلاح الخيالة في حادث مؤسف في اثناء التدريبات. هناك خطوط متوازية كما ترى. لبست المرأة ثوب الحداد، وحزنت حزنا شديدا. حسنا جدا. شيء متوقع. لكن حزنها استمر دون توقف يا سميثسون سنة بعد اخرى. ولم تسمح باجراء اي تغير في البيت. ملابس الرجل المتوفي لا تزال معلقة في الخزانة، وغيلونه فوق كرسيه المفضل، حتى بعض الرسائل التي وصلت اليه بعد وفاته. هناك... وهنا اشار الطبيب الى الظلال من وراء تشارلز.

- هناك فوق الطبق الفضي نفسه. لم يفتحها احد، اصفر لونها سنة بعد اخرى. توقف هنيهة وابتسم لتشارلز.

- ان اصدافك المتحجرة لا تحتوي على اسرار كهذه. لكن هذا ما يقوله هارتمان.

وقف الى جانب تشارلز ووجه كلماته اليه واصبعه يشير اليه:

- بدا الامر كان المرأة اصبحت مدمنة على الاكثاب مثلما يصبح امرؤ ما مدمنا على الافيون. اتفهم الان كيف هي؟ لقد اصبحت حزنها سعادتها. وهي تريد ان تكون ضحية يُضحى بها يا سميثسون. وحيثما ارتد انا وانت الى الوراء تراها تقفز الى امام. إنها ممسوسة.

وهنا جلس مرة اخرى.

- انها غامضة حقا. في منتهى الغموض.

خيم الصمت على الرجلين، والقى تشارلز عقب سيكارة الشيروت في النار، فتوهجت في لحظة واحدة. واكتشف انه لا يملك الشجاعة للنظر الى الطبيب عندما سأله السؤال التالي.

- ألم تخبر احدا بحالتها العقلية؟

- من المؤكد ان اقرب صديقاتها هي السيدة تالبوت. غير ان هذه السيدة تقول لي ان الفتاة تلتزم الصمت ازاءها ايضا. وانا اكذب على نفسي، بيد انني اخفقت مؤكدا.

- واذا ما.. لنقل انها سوف تحمل نفسها على البوح بمشاعرها التي تخفيها لشخص اخر حنون...

- عندئذ ستشفى. غير انها لا تريد الشفاء. المسألة بسيطة كأنها ترفض تناول الدواء.

- لكن لنفترض انك في مثل هذه الحالة...

- كيف ترغب النفس ايها الشاب؟ افي وسعك ان تخبرني؟
هز تشارلز كتفيه مشيرا الى عجزه.

- من المؤكد انك لا تستطيع. وسأخبرك بشيء ما. الافضل البقاء على هذه الحالة، لأن التفاهم لا ينشأ عن الانتهاك.

- اذا هي حالة ميؤوس منها؟

- بالمعنى الذي تقصده؟ نعم. اذ ليس في وسع الدواء فعل اي شيء. يجب عليك الا تظن انها تشبهنا نحن الرجال، قادرة على التفكير بوضوح، تفحص دوافعها، وتفهم لماذا تتصرف على النحو الذي تتصرف به. يجب على المرء ان يراها كأنها في ضباب. وكل ما في وسعنا عمله هو الانتظار والامل في انقشاع الضباب. وعندئذ ربما...

وهنا سكت. غير انه اضاف بلا امل،

- ربما

في تلك اللحظة نفسها، كانت حجرة نوم سارة يلفها صمت اسود يخيم على بيت مارلبورو. كانت تغط في النوم، ملتفتة الى الجهة اليمنى، وشعرها الفاحم يغطي وجهها حتى يكاد يخفيه. مرة اخرى، في وسعك ان تلاحظ مدى سكون ملامحها وخلوها من العنصر المأساوي: فهي امرأة شابة، مفعمة بالصحة والعافية في السادسة او السابعة والعشرين. تدلى ذراعها من فوق ملاءة السرير، اذ كان الليل هادئا والنوافذ مغلقة... اقول تدلى ذراعها واستراح فوق جسد اخر.

ليس رجلا. فتاة في التاسعة عشرة او ما يقرب من ذلك كانت نائمة هي الاخرى ومولية ظهرها سارة، بل هو قريب جدا منها، اذ كان السرير غير مخصص لشخصين اثنين على الرغم من اتساعه.

لا بد ان فكرة ما مرت في ذهنك: غير انك تنسى اننا في العام 1867. لنفترض ان السيدة بولتيني وقفت فجأة قرب الباب ويدها مصباح وشاهدت هذين الجسدين الرقيقين مضطجعين معا عن قرب. لعلك ستخيل انها ستتفخ، مثل بطة سوداء غاضبة، لتنفجر وتصب لعناها الغاضبة. كما ترى، ان الفتاتين لا ترتديان الا قميصين يرثى لهما كأنهما القى بهما من بوابات حجر الصوان.

حسنا، ستكون على خطأ تماما، اذ لما كانت السيدة بولتيني تتناول الافيون كل ليلة كما نعلم، فانه غير مرجح ان توضع الحالة موضع الاختبار. لكن اذا وقفت في ذلك المكان على اي حال، فمن المؤكد ان تستدير وتتوارى عن الانظار - الاكثر من هذا، ربما ستعتمد الى غلق الباب بمنتهى الهدوء حتى لا توقظ النائمتين.

غير مفهوم؟ ان بعض الرذائل كانت انذاك من الغرابة بحيث لم تكن موجودة اصلا. وانا اشك فيما اذا كانت السيدة بولتيني قد سمعت بكلمة سحاقية، ولو انها قد سمعتها، فإنها ستكون مبتدئة بحرف كبير وتشير الى احدى الجزر في اليونان. يضاف الى ذلك، ان الحقيقة الراسخة عندها رسوخ دوران العالم او حقيقة ان اسقف اكستر هو الدكتور فيلبوتس هي ان النساء لا يشعرن بالمتعة الجسدية. من المؤكد انها كانت تعلم ان النوع الرخيص من النساء يستمتع على ما يبدو بنمط معين من ملاطفة الذكر مثل تلك القبلية الشاذة التي رأها تطبع ذات مرة على وجنتي ماري، غير ان مثل هذه الامور كانت تعدها نتاج زهو الانثى وضعف الانثى. اما البغايا فكن موجودات مثلما توجد اكثر اعمال السيدة كوتون الصالحة والمعروفة. الا ان تفسير ذلك يتلخص في انهن مخلوقات بلغن درجة كبيرة من الحرمان حتى تغلبن على نفور المرأة الموروثة من الجسد في لذته سعيا وراء المال. وقد كان ذلك حقا افتراضها الاول فيما يخص ماري. فكما يبدو واضحا على الاغلب، فإن الفتاة كانت عبارة عن بغى في دور التكوين طالما انها قهقهت بعد ان الحق بها صبي الاصطبل اذى جسديا.

لكن ما هي دوافع سارة؟ لقد كانت، شأنها شأن سيدتها، تجهل موضوع السحاق، الا انها لم تشارك السيدة بولتيني ذعرها من الجسد. فقد كانت تعلم، او تشك على الاقل، ان هناك متعة جسدية في الحب. وعلى الرغم من ذلك، فاني اعتقد انها بريئة. لقد بدأت نومها هذا وميلي حالا بعد انهيار الفتاة المسكينة قبالة السيدة بولتيني. واوصى الطبيب غروغان بنقلها من مهجع الخادومات الى غرفة مضيئة اكثر. وصادف وجود حجرة طويلة غير مستخدمة للبس مجاورة لغرفة نوم سارة، فوضعت فيها ميلي. واخذت سارة على عاتقها الكثير من الرعاية الخاصة التي كانت تحتاج اليها الفتاة المصابة بفقر الدم. كانت ابنة فلاح، الرابعة بين احد عشر طفلا عاشوا مع والديهم في فقر مدقع يصعب وصفه، وكان البيت عبارة عن كوخ رطب، ضعيف، بغرفتين، في واحد من تلك الوديان التي تبدأ غربا من منطقة ايجاردون الكثيفة. وهناك مهندس معماري شاب من لندن يملك المنطقة ويأتي الى هناك لقضاء عطلات نهاية الاسبوع، وهو يحب المنطقة جدا لأنها منطقة ريفية رائعة ولعل هذا يطرد الاهوال الفكتورية التي كان تحدث هناك. ارجو ذلك. ان تلك الرؤى الخاصة بالعامل الريفي السعيد وتاملاته التي ابدعها جورج مورلاند⁽⁶⁹⁾ وامثاله - كان بيركيت فوستر من أكبر المحرمين في عام 1867 - تمثل انفلاتا عاطفيا سخيفا مؤذيا، ولهذا السبب كانت عبارة عن طمس للحقيقة يشبه ما تفعله افلام هوليوود لحياتنا الحقيقية. ان نظرة واحدة الى ميلي واشقائها وشقيقاتها العشرة البائسين من شأنها ان تحرق اسطورة الفلاح السعيد وتحيلها الى رماد، الا ان القليلين جدا هم الذين القوا مثل تلك النظرة. فكل عصر، كل عصر مذهب، يشيد اسوارا عالية من حول قصره. وانا شخصا اكره هذه الاسوار اشد الكره عندما يشيدها الادب والفن.

ذات ليلة، سمعت سارة الفتاة وهي تبكي. فذهبت الى غرفتها وطمأنتها وهو امر ليس بالعسير لأن ميلي كانت طفلة في كل شيء باستثناء سنينها، فهي لا تعرف القراءة او الكتابة ولا تستطيع الحكم على غيرها من البشر المحيطين بها الا قليلا. اذا ما لاطفتها، فهمت قصدك - اما اذا رفستها، فتلك هي الحياة. كانت

(69) جورج مورلاند (1763-1804): رسام انكليزي اشتهر برسم المناظر الطبيعية والحيوانات، تعرضت اعماله واسلوبه للتقليد اوائل القرن التاسع عشر. (المترجم)

ليلة باردة قاسية، ولم تفعل سارة شيئا سوى ان انسلت في الفراش واحتوت الفتاة بين ذراعيها وقبلتها وربت على كتفيها. لقد كانت ميلي في رأيها اشبه بحمل من تلك الحملان المريضة التي غالبا ما ربتها على يديها قبل ان تبعد طموحات والدها الاجتماعية مثل تلك الاجراءات الفلاحية عن طريقة عيشهم. ويعلم الله ان التشبيه ينطبق على ابنة الفلاح.

من ذلك الوقت فصاعدا، كان الحمل يأتي مرتين او ثلاث مرات في الاسبوع ويبدو فريسة الأسى والشقاء. وكانت تنام نوما سيئا، اسوأ من سارة التي كانت تأوي الى فراشها للنوم وحيدة أحيانا لتستيقظ فجرا لمراى الفتاة الى جانبها - وكانت ميلي تنسل في مكانها على نحو خنوع، لطيف في ساعة منتصف الليل التي لا تحتمل. لقد كانت الفتاة المسكينة تخشى الظلام، ولولا سارة لكانت قد طلبت اعادتها الى المهجع في الطابق العلوي.

كانت هذه العلاقة الرقيقة صامته. قلما تجاذبتا اطراف الحديث، واذا ما تحدثا فإن حديثهما يكون عن اتفه الامور المنزلية. وكانت الاثنتان تعلمان ان وجودهما المشترك، الدافئ والصامت في الظلام هو الاكثر اهمية. لا بد من شيء جنسي يشوب مشاعرهما؟ ربما. الا انهما لم تخرجا عن حدود اختين. مما لا ريب فيه ان هزة الجماع السحاقية موجودة في محيط اخر هنا وهناك، بين اكثر فقراء المدن وحشية، في اكثر الاوساط الارستقراطية تحررا. الا اننا نستطيع ان نعزو هذه المظاهر الفكتورية الشائعة جدا للنساء وهن يستسلمن للنوم معا الى الجهل البائس المدمر للرجل المعاصر اكثر مما يعزى الى دوافع اكثر اثارا للريبة. يضاف الى ذلك، اليس التقارب في مثل ينابيع الوحدة هذه تقاربا انسانيا اكثر مما هو انحراف؟

اذا، لتترك هاتين الفتاتين البريئتين نائمتين، ولنعد الى ذينك الرجلين الاكثر عقلانية، الاكثر ثقافة، الرجلين النبيلين السائرين قرب البحر.

عاد سيدا الابداع ثانية من موضوع الانسة وودراف والاستعارتين المزدوجتي الحافة في ما يخص الضباب الى موضوع علم الاحاث الاقل اهماما.

قال تشارلز:

- يجب ان تعرف ان اكتشافات ليل تكتسب ما هو اكثر من الاهمية الحقيقية. واعتقد ان رجال الدين كانت لديهم معركة هائلة تحت اشرافهم.

ارجو ان تسمحوا لي بالتدخل هنا لأقول ان ليل كان الاب الروحي لعلم طبقات الارض الحديث. الا ان العالم الطبيعي الفرنسي العظيم نفسه لم يتجرأ على دفع اصل العالم الى زمن يزيد عن 75.000 سنة خلت. اما كتاب ليل الموسوم (مبادئ علم طبقات الارض) الصادر بين 1830-1833 واقرن اقترانا بارعا بالاصلاح في اماكن اخرى - فقد ارجع اصل العالم الى ملايين السنين. وقد نسي اسمه هذا الى حد بعيد، الا انه ظل اسما مهما، اذ وهب العصر والعديد من العلماء في ميادين اخرى المدة الزمنية ذات المغزى الاعظم. وهبت اكتشافاته مثل ريح عاتية، تبعث البرودة الشديدة في اوصال الجبناء، والقوة والنشاط في نفوس الشجعان من خلال دهاليز القرن الميتافيزيقية البالية. لكن يجب ان نتذكر ان العصر الذي اكتب عنه لم يسمع فيه الا القليل من الناس عن رائعة ليل والقليل صدقوا نظرياته، واقل من ذلك قبلوا كل ما فيها من مضامين. كما ان الرحم الذي عمره ستة الاف سنة اشد دفئا من الرحم الذي يمتد الى الف مليون سنة.

لهذا السبب كان تشارلز راغبا في معرفة ما اذا كان الطبيب غروغان سيؤكد عناياته المفرطة بعلماء اللاهوت او ينبذها. الا ان الطبيب كان غير ودود، اذ ظل يتفرس في النار وهمس:
- وهو كذلك.

نхим صمت قصير، قطعه تشارلز مصادفة كأنه يريد استمرار الحديث:

...

- انت محق تماما. اعتذر.

نظر اليه الطبيب القصير القامة شزرا.

- كان غوس في هذا المكان قبل بضع سنوات بصحبة واحدة من النساء

المثقفات اللواتي

يلتقطن الحلازين البحرية. اقرأت كتابه النقطة المركزية.

ابتسم تشارلز.

- وجدته كتابا في منتهى السخف.

وهنا ابتسم غروغان بدوره ابتسامة كثيفة بعد ان وضعه في اختبار ايجابى

وسلبى معا.

- اخبرته بما يفوق ذلك عند نهاية محاضراته هنا. هه! لم افعل ذلك حسب.
سمح الطبيب لمنخريه الايرلنديين ان يشموا الهواء.
- اظن ذلك احد اكياس الريح المتمسكة بالدين التي تفكر مليا قبل ان تهب
على هذا الجانب من سواحل دورسيت ثانية.
تفرس في تشارلز بحنان اكبر.
- دارويني؟
- تماما.

عند ذاك امسك غروغان يده وتشبث بها، كأنه كروسو في حين ان تشارلز
هو الرجل جمعة. وربما مر بهما شيء لا يشبه تماما ما مر دون وعي بين الفتاتين
النائمتين على بعد نصف ميل. كانا يعلمان انهما اشبه بحبتي خميرة في بحر من عجين
كسول؛ حبتي ملح في وعاء كبير من حساء خالٍ من النكهة.
بدا الشخصان المتماثلان الان جولة جديدة من الشراب - او لم يرغب
الصبي في اعماق الرجل دوما الى اللعب في مجتمعات سرية؟ اشعلت سيكارتا
شירות جديدتان، وتلا ذلك احتفال مطول... في وسع المرء ان يفكر انهما اصبحا
متواضعين بفعل الحقائق الجديدة الكبيرة التي كانا يناقشاهما. الا انني اخشى ان
المزاج لدى كل واحد منهما - ولدى تشارلز بخاصة، عندما سار في النهاية عائدا
الى البيت في الساعات الاولى من الصباح - كان يتمثل بالاحساس بالتفوق،
بالسمو العقلي فوق بقية البشر.

كانت بلدة لايم المظلمة كتلة من البشر الاعتيادي، غارقة في نوم سحيق لا
ريب فيه، في حين كان تشارلز المنتخب انتخابا طبيعيا (المفعول المطلق ينطوي على
كلا المعنيين) شخصا متوقد الذكاء، يسير يقظا، حرا مثل احد الالهة، مع النجوم
الساهرة، فاهما كل شيء.
كل شيء سوى سارة.

هل الله والطبيعة، اذا، في حالة صراع،
 كي تسترسل الطبيعة بمثل هذه الاحلام الشريرة؟
 حريصة على النوع تبدو،
 مهمة لفردية الحياة...

تينيسون: احياء لذكرى... 1850

اشار الطبيب الخاص بجون كيندي وهو يجثو على ركبتيه الى تنورتها
 الفاضحة بيد مرتعشة وتساعل باستحياء: «ضماذ اخر؟» فقالت هامسة
 همسا متقددا: «لا، دعهم يرون الهول».

وليم مانثسستر: موت الرئيس كيندي

وقفت وقفة مائلة في الضلال قرب النهاية الثانية لنفق اللبلاب. لم تنظر من
 حولها، فقد شاهدته وهو يصعد نحوها من بين اشجار الدردار. كان النهار مشرقا،
 مشبع بالزرقة، والنسمة دافئة، جنوبية غربية. فخرجت اسراب فراشات الربيع،
 الفراش الكبيرتي، الفراش البرتقالي، الفراش الابيض المعرق بلون اخضر الذي
 وجدناه مؤخرا لا يتفق والارباح الزراعية الكبيرة مما اقتضى تسميمه حتى اوشك
 على الانقراض، خرجت كلها ترقص مع تشارلز على امتداد طريقه المار بحقل
 مصنع الالبان وفي خلال الغابة. وفي هذه اللحظة حلت فراشة كبريتية اللون،
 متألقة، في فسحة الارض المضيئة وراء شبح سارة المعتم.

توقف تشارلز هنيهة قبل ان يتوغل في الظل الاخضر الغامق تحت اللبلاب،
 ونظر من حوله نظرة شريرة كي يتأكد من ان احدا لم يره غير ان اشجار الدردار
 العظيمة امتدت باغصانها التي لا تزال عارية من فوق الغابة المهجورة.

لم تلتفت حتى اقترب منها، وحتى في تلك اللحظة لم تنظر اليه، بل عبثت،
 عوضا عن ذلك، في محتويات جيب معطفها وناولته صامتا، مسبلة الجفنين،
 قشرة اخرى كأنها مقدمة على سبيل التكفير. فأخذها تشارلز غير ان حرجها
 كان معديا.

- يجب ان تسمح لي ان ادفع لهذه القشور الثمن نفسه الذي يتعين عليّ دفعه في دكان الانسة انينغ.

واذ ذاك رفعت رأسها، والتقت عيونهما اخيرا. وشعر انه قد الحق بها اهانة. مرة اخرى، مر به ذلك الاحساس الذي يتعذر تفسيره، الاحساس انه طعن برمح، انه قصر عن بلوغ الهدف، انه قد خذلها. الا ان هذا الاحساس اعاده هذه المرة الى رشده، اي، الى الموقف الذي وطد العزم على اتخاذه. فهذا اللقاء جرى بعد يومين من احداث الفصول الاخيرة. فقد اثمرت ملاحظة الطبيب غروغان الصغيرة بشأن الاولسوية النسبية التي تضيف على الموتى والاحياء. وشاهد تشارلز الان سببا علميا وانسانيا ايضا لمغامرته، اذ كان صريحا بما فيه الكفاية كي يقر امام نفسه ان هذه المغامرة تنطوي على عنصر المتعة رغم انها غير لائقة. اما الان فقد اكتشف عنصرا واضحا من عناصر الواجب. انه كان ينتمي بلا شك الى فئة الاصلح، الا ان الانسان الاصلح لا يملك مسؤولية محددة اقل ازاء الاقل صلاحا.

لقد فُكّر ثانية في الكشف عما دار بينه وبين الانسة وودراف لايرنستينا؛ لكن، وأسفاه، لقد توقع توقعا حيا انها قد تطرح اسئلة اثوية سخيفة، اسئلة لا يستطيع الاجابة عنها اجابة صادقة دون التوغل في مياه خطيرة. وسرعان ما قرر ان ايرنستينا لا تملك الجنس ولا التجربة كي تفهم عنصر حب الغيرة في دوافعه. وهكذا اهل على نحو مريح ذلك المظهر الاقل جاذبية في واجبه.

لهذا تفادى نظرة سارة المنطوية على الاتهام.

- انني ثري مصادفة، وانت فقيرة مصادفة. لذا اعتقد ان علينا الا نسرف في اتباع قواعد السلوك المذهب الصارمة.

كانت هذه هي خطته في الواقع: ان يعطف على سارة وان يقيم بينه وبينها مسافة، ان يذكرها باختلاف موقعيهما تذكيرا قليلا وبمفارقة تخلو من الادعاء.

- هذا كل ما املك كي اهبه لك.

- لا يوجد اي سبب يدفعك الى اعطائي اي شيء.

- لقد اتيت.

وجد تواضعها مثيرا للقلق مثل كبريائها.

- لقد اتيت لانني اقنعت نفسي ان بك حاجة الى المساعدة. وعلى الرغم من انني ما زلت لا افهم لم يتعين عليك ان تضفي شرفا علي بحثي على الاشتراك في... هنا تلعثم، اذ اوشك ان يتفوه بكلمة قضيتك التي كان من شأنها ان تدل على انه يلعب دور الطبيب اضافة الى دور السيد المهذب.

- في مأزقك، فقد اتيت وانا مستعد لأن اصغي للأشياء التي تتمنين مني... اليس كذلك؟ سماعها.

رفعت بصرها اليه ثانية، واحس ان ذلك يشبع كبرياءه. ثم اشارت بخوف الى ضوء الشمس.

اعرف مكانا منعزل على مقربة من هنا. اني وسعنا الذهاب الى هناك؟ ابدى رغبته فتقدمت نحو المكان المشمس وتجاوزت فسحة الارض الصخرية التي كان تشارلز يفتش فيها عندما صادفته اول مرة. سارت بخفة وثقة بعد ان رفعت تنورتها بضع بوصات (سنتيمترات) باحدى يديها بينما امسكت بيدها الاخرى اشرطة قبعتها السوداء. لاحظ تشارلز وهو يسير من ورائها مخدر الاحاسيس الرتوق في كعبي جوربيها السوداءوين، مؤخر حذائها البالي والبريق الاحمر في شعرها الداكن. وفكر انه شعر جميل عندما يكون سبطا، غزيرا ووفيرا. وعلى الرغم من انه مثبت باحكام داخل ياقة معطفها فقد تساءل فيما اذا كان الزهو هو الذي جعلها غالبا ما تحمل القبعة بيدها.

تقدمت في الطريق صوب نفق اخضر اخر، وعند نهايته وصلا الى منحدر اخضر حيث افهار منذ زمن سحيق وجه الجرف. وقد ساعدت كتل الاعشاب النامية على توفير موضع قدم، وسارت برفق وعلى نحو ملتوٍ صوب القمة. وشاهد وهو يجهد في سيره من ورائها الجزء الاسفل ذا الحافة البيضاء من سروالها التحتي الذي كان يصل فوق كاحليها بمسافة قليلة.

انتظرت سارة في مكانها كي يلحق بها تشارلز. فسار من ورائها ثم على امتداد قمة الجرف. فظهرت الارض وهي تنحدر انحدارا شديدا الى جرف اخر مسافة مئة ياردو (91 مترا) من فوقهما. لقد كانت هذه هي السلام العظيمة الغائرة التي يمكن مشاهدتها من منطقة الكوب على بعد ميلين. وقد اوصلهما هذا الحاجز الى كتف اشد انحدارا، وبدا لتشارلز انه ذو زاوية خطيرة؛ زلة قدم وعندئذ

ما هي الا بضع خطوات قليلة حتى يجد المرء نفسه قد انزلق عاجزا فوق حافة الجرف من تحته. لو كان وحده لتردد. غير ان سارة مرت فوق ذلك الكتف واجتازته كأنها لا تدرك الخطر. وفي الجهة البعيدة من الكتف بدت الارض مستوية بضع ياردات (أمتار)، وهناك كان يكمن مكانها المنزل.

كان المكان وهدة صغيرة في مواجهة الجنوب، تحيط بها اجمات كثيفة من العليق والنباتات الاخرى، نوع من الارض المنبسطة الخضراء الدقيقة. وكانت بعض الاشواك المتوقفة عن النمو قد نمت صوب الجزء الخلفي من الساحة، اذا كان في وسع المرء ان يستعمل ذلك المصطلح المكاني الذي لا تتجاوز مساحته خمسة عشر قدما (4.5 متر) وحيث قام شخص ما - واضح انه ليس سارة - ذات يوم برفع كتلة ضخمة ذات قمة مسطحة من الصوان ازاء جذع الشجرة، فاصبحت بذلك عرشا ريفيا يطل على مشهد رائع من قمم الاشجار الى الاسفل والبحر من ورائها. نظر تشارلز من حوله متقطع الانفاس قليلا وهو يبدلته ذات النسيج الصوفي الناعم وقد تصبب منه القليل من العرق. كانت حافات الوهدة مغطاة بزهور الربيع والبنفسج والنجوم البيض للفراولة البرية. كان منظرها ساحرا، محمية من كل الجهات، وهي ترفرف في السماء، تغمرها شمس ما بعد الظهر.

- يجب عليّ ان اهتلك. انت نابغة في ايجاد الاوكار.

- في ايجاد العزلة.

منحته المقعد الحجري القائم تحت شجرة الشوك الصغيرة.

- انني واثق ان هذا هو مقعدك.

الا انها استدارت، وجلست على نحو متعجل ورشيق على احد جنبيها فوق رابية تبعد مسافة بضعة اقدام (أمتار) قبالة الشجرة، وهكذا اصبحت في مواجهة البحر؛ وهكذا ايضا اصبح وجهها مخفيا نصفه عن انظار تشارلز الذي اكتشف ذلك عندما احتل المقعد الافضل، كان عليه بدافع من غنجها البارع ان يلاحظ شعرها. جلست منتصبة، غير ان رأسها ظل منحيا وانهمكت في تعديل قبعتها على نحو غير محتمل. راقبها تشارلز وهو يفكر في ابتسامة ما في ذهنه ان لم تكن على شفثيه. واستطاع ان يدرك انها كانت في حالة من الضياع، لا تعرف كيف تبدأ. الا ان الموقف كان على الرغم من ذلك في الهواء الطلق اكثر مما ينبغي، مفعما

بالشباب على نحو غير رسمي، كأنهما صبي واخته بسبب الشكلانية الخجول التي كانت تظهرها.

وضعت القبعة جانبا، وارخت معطفها، وجلست مطوية الذراعين. غير أنها ما زالت ملتزمة الصمت. ثمة شيء يوحى بالرجولة في ياقة معطفها العالية وطريقة تفصيله وبخاصة من جهة الظهر - يمنحها مسحة حوذي فتاة، امرأة مجنّدة - مسحة لا أكثر وهي مسحة يناقضها الشعر بسهولة. ادرك تشارلز بشيء من الدهشة كيف أن الملابس المهلهلة لم تحط من قدرها، بل كانت تناسبها على نحو ما، أكثر من الملابس الأكثر جمالا. لقد شهدت السنوات الخمس الأخيرة تحررا كبيرا في أزياء النساء، على الأقل في لندن. فأول الأشياء الاصطناعية المساعدة في تضخيم شكل الصدر بدأت تسود على نحو شائع. وكانت الرموش والجفون تلون، والشفاه تدهن، والشعر يصبغ، عند أكثر النساء المتأنقات، لا عند النساء المشبوهات حسب. أما سارة، فلم يكن عندها شيء من هذا كله. بدت غير مهتمة بالأزياء، وظلت على قيد الحياة على الرغم من كل ذلك مثلما نجت زهور الربيع البسيطة قرب قدمي تشارلز من كل من ينافسها من نباتات الظل الدخيلة.

وهكذا جلس تشارلز ساكنا، مهيبا إلى حد ما، بوجود هذه المتضرعة القرية قرب قدميه، لا يميل إلى مساعدتها أكثر مما ينبغي بيد أنها ظلت ملتزمة الصمت. ربما سبب ذلك تواضع مشوب بالخوف، غير أنه أخذ يدرك أدراكا واضحا أن التحدي الذي فرضته عليه هو أن ينتزع السر من أعماقها، وفي نهاية المطاف استسلم.

- انني أمقت الفسوق يا أنسة وودراف. كما أمقت على نحو أشد الأخلاق أن نخلت من الرحمة. وانني أقطع عهدا لك ألا أكون حكما مغاليا في قسوته. حرّكت رأسها قليلا، إلا أنها ظلت مترددة. ثم انطلقت في اعترافها على نحو مفاجئ يشبه أحد السابحين المترددين وهو يحوم من حول الحافة.

- كان اسمه فارغون، وقد أحضر إلى دار القبطان تالبوت بعد تحطم سفينته. وغرق الجميع باستثناء شخصين اثنين. لكنك تعرف ذلك؟

- الظرف لا أكثر. كما انني لا أعرف شيئا عنه.

- كان أول شيء أثار إعجابي فيه هو شجاعته. ولم أعرف في ذلك الوقت أن الرجال يمكن أن يكونوا في منتهى الشجاعة وفي منتهى الزيف معا.

أمعنت النظر في البحر كأنه هو الذي يصغي لها لا تشارلز الجالس من خلفها.

- كان جرحه مروعاً، وجسده ممزقاً من الحوض الى ركبته. ولو حصلت الغنغرينا لفقد ساقه. لقد تعذب عذاباً شديداً في الايام الاولى، الا انه لم ييكِ ابداً. لم تصدر عنه اي اهة. وعندما وضع الطبيب الضماد على جرحه كان يتشبث بيدي بقوة هائلة حتى اوشكت على الاغماء ذات يوم.

- ألم يتكلم الانكليزية؟

- كلمات قليلة. لم تكن معرفة السيدة تالبوت بالفرنسية افضل من معرفته هو بالانكليزية. وقد استدعي القبطان تالبوت لمهمة ما خارجاً بعد وصوله اولاً. واخبرنا انه من مدينة بوردو وكان والده محامياً ثرياً، تزوج مرة اخرى، واحتال على اطفال زوجته الاولى فيما يخص الميراث، فخرج فارغون الى البحر يعمل في تجارة المشروب المفضل، وعندما تحطمت سفينته كان برتبة ملازم اول، على حدّ قوله. الا ان كل ما قاله كان كذباً في كذب. فانا لا اعرف من هو حقاً. كان يبدو سيداً نبيلاً، هذا كل ما هناك.

تكلمت مثل شخص لم يألف التعبير البارع، اذ كانت تتوقف وقفات صغيرة غريبة اثر كل جملة سريعة، مترددة، لا تعرف هل تسمح لنفسها الاسترسال في الحديث او تترك له حرية مقاطعتها، وهذا امر لم يعرفه تشارلز.

همس:

- افهم ذلك.

- أحياناً اعتقد ان لا علاقة له بتحطم السفينة. كان شيطاناً في صورة بحار.

القت نظرة الى يديها.

- كان رجلاً وسيماً جداً. لم يسبق لي ان قابلت شخصاً اولاني اهتماماً كاهتمامه؛ اني اتحدث عنه في فترة شفائه. لم يملك وقتاً لقراءة الكتب، فكان اسوأ من طفل صغير. لا بد انه تحدث مع الناس من حوله وكان هؤلاء يصغون له. اخبرني بأشياء سخيفة عن نفسي. مثلاً انه لا يفهم لماذا انا غير متزوجة. اشياء كهذه. وقد صدقته.

- باختصار، هل شرع في مغازلتك؟

- يجب ان تفهم اننا تحدثنا دوما بالفرنسية. لعل ما كان يدور بيننا من حديث لم يبدُ حقيقيا تماما لي لهذا السبب. لم يسبق لي الذهاب الى فرنسا، ومعرفتي بلغة التخاطب ليست جيدة. في الكثير من الاحيان لم افهم كل الفهم ما كان يقوله. ليس الذنب ذنبه كله. لعلني سمعت ما لم يكن يقصده هو. كان يسخر مني، الا ان ذلك لم يكن لينطوي على اي اهانة. ترددت لحظة.

- انني... استمتعت بذلك. كان يصفني بالقسوة عندما لا ادعه يقبل يدي. وقد جاء اليوم الذي اعتقدت فيه انني قاسية حقا. نعم.

خلق غراب قريبا من فوق رأسيهما. وكان ريشه الاسود يلعب متألقا منسجبا بتردد وسط النسمة قبل ان يتوارى عن الانظار في دعر مفاجئ. - افهم ذلك.

لم يقصد بعبارته هذه شيئا سوى تشجيعها على مواصلة الكلام، الا انها حملت عبارته محمل الجدل.

- لا استطيع ذلك يا سيد سميثسون، لانك لست امرأة، لانك لست امرأة ولدت كي تكون زوجة فلاح غير انها درست كي تكون شيئا اخر... افضل. لقد عرض عليّ الزواج مرات كثيرة. عندما كنت في بلدة دورتشستر كان هناك احد رعاة الماشية الاثرياء... لكن هذا ليس بالموضوع. انت لم تولد امرأة تملك الاحترام الطبيعي وحب الذكاء والجمال والمعرفة.. لا اعرف كيف اعبر عن ذلك، ليس عندي الحق في الرغبة في هذه الاشياء، غير ان قلبي يتوق لها ولا يمكن ان اصدق ان كل ذلك زهو... صمتت برهة.

- كما انك لست مربية يا سيد سميثسون، لست امرأة شابة بلا اطفال يدفع لها المال لرعاية الاطفال. وانت لا تعلم انه كلما ازدادت رقتهم صعب احتمال العذاب. يجب الا تظن انني اتحدث حديثا ينم عن الحسد. لقد احببت بول وفرجينيا الصغيرين، ولا اشعر ازاء السيدة تالبوت الا بالعرفان والحب، انني مستعدة للموت

من اجلها او من اجل طفلها. لكن ان تعيش كل يوم وسط مشاهد السعادة
البيتية، اقرب مشاهد على الزواج السعيد، البيت، الاطفال المحبوبين...
توقفت هنيهة.

- السيدة تالبوت في مثل سني تماما.

توقفت ثانية.

- بدا يلوح لي كأنه سمح لي العيش في الفردوس، ولكنني حرمت من
الاستمتاع بها.

- او ليس الحرمان الذي تصفينه نشترك فيه جميعا بطرق مختلفة؟

هزت رأسها بالنفي وبحماس يبعث على الدهشة، فادرك انه مس عواطف
دفينة في اعماقها.

- لم اقصد سوى الايمان ان الامتياز الاجتماعي لا يحقق السعادة
بالضرورة.

- ليس ثمة شبه بين حالة تكون فيها السعادة في الاقل ممكنة وحالة تكون...

مرة اخرى هزت رأسها.

- الا انك لا تستطيعين الزعم مؤكدا ان كل المربيات غير سعيدات، او يقيين

دون زواج.

- كلهن يشبهنني.

صمت قليلا، ثم قال:

- لقد قاطعت قصتك. فاغفري لي.

- وهل ستصدق انني لا اتحدث حديثا نابعا من الحسد؟

التفتت بعد ذلك وظهرت عيناها الحادتان في حين أوما هو. ثم استأنفت

كلامها بعد ان قطعت بعض النباتات الصغيرة من الحافة المجاورة لها، والزهور
الزرقاء الشبيهة بأعضاء تناسلية دقيقة لاطفال صغار.

- تماثل فارغون للشفاء. وقد حدث هذا في خلال اسبوع واحد من الوقت

المحدد لرحيله. وعندئذ كان قد اعلن ارتباطه بي.

- اطلب منك الزواج؟

وجدت صعوبة في الاجابة.

- كان هناك حديث يدور عن الزواج. واخبرني انه سيرقى الى رتبة قبطان سفينة... عندما يقفل راجعا الى فرنسا، وانه ينتظر استعادة الميراث الذي اضاعه هو واخوه.

ترددت، ثم افصحت قائلة.

- لقد تمنى ان اذهب معه الى فرنسا.

أكانت السيدة تالبوت مدركة هذا الامر؟

- انها امرأة بالغة الحنان، في منتهى البراءة. لو كان القبطان تالبوت موجودا هناك... الا انه لم يكن موجودا. كنت انحجل من اخبارها في اول الامر، وخائفة في النهاية. ثم اضافت:

- خائفة من النصيحة التي كنت اعلم انها ستقدمها لي.

في هذه اللحظة، بدأت تنزع عن النبات اوراقه.

- بدا فارغون يلح. وجعلني اصدق ان كل سعادته تعتمد على مرافقتي له عند رحيله - والاكثر من هذا، ان سعادي تعتمد على ذلك ايضا. لقد استطاع ان يعرف الشيء الكثير عني، كيف توفي ابي في مستشفى الامراض العقلية، كيف انني بلا موارد مالية، بلا اقرباء. كيف انني ظللت اشعر سنوات طويلة، وعلى نحو غامض، انني محكوم عليّ بالعزلة دون ان اعرف سببا الى ذلك. وضعت النبتة الى جانبيها، واطبقت اصابعها فوق حضنها.

- لقد تشبعت حياتي بالوحدة يا سيد سميثسون كأنما قدّر عليّ الا اعقد اي صداقة مع ند، الا اسكن في بيت هو بيتي، الا ارى العالم باستثناء انه مبدأ عام وانا الاستثناء. قبل اربعة اعوام، اشهر افلاس والدي، وبيعت كل ممتلكاتنا. ومنذ ذلك الوقت وانا اعاني من الوهم بأن كل شيء - الكراسي، المناضد، المرايا - يتأمر كي يزيد من وطأة عزليتي. كانت تلك الاشياء تقول لي: لن يتسنى لك امتلاكنا، لن نكون ملكك، بل ملك شخص اخر دوما. اعلم ان هذا هو الجنون بعينه، اعلم ان الفقر والعزلة في المدن الصناعية موجودان، مقارنة بما اعيشه في جو من الراحة والرفاهية. الا انني عندما اقرأ عن اعمال الانتقام الوحشية التي قام بها اعضاء النقابات العمالية فإن جزءا مني يفهم، بل يغار منهم في الغالب لأنهم كانوا يعرفون اين وكيف يوجهون انتقامهم، اما انا فعاجزة.

وبدأ شيء ما يتتاب صوته، قوة مشاعر انكرت عليها جزئيا جملتها الاخيرة،
واضافت بهدوء اكبر:

- اخشى اني لا اعبر عن نفسي تعبيرا واضحا.
- لست واثقا ان في مستطاعي ان اتغاضى عن مشاعرك، الا اني افهمها تمام
الفهم.

- سافر فارغون ليلحق بسفينة ويموث، وظنت السيدة تالبوت انه حتما
سيلحق بها حال وصوله هناك. غير انه اخبرني انه سينتظري حتى انضم اليه. لم
اقطع له اي وعد. بل على العكس من ذلك، اقسمت له ان... غير انني كنت
غارقة في البكاء. واخيرا قال انه سينتظري اسبوعا واحدا. اخبرته اني لن الحق به
ابدا. لكن ما ان مر يوم وتلاه يوم ثان، ولم يعد موجودا كي اتحدث معه، اجتاحني
مرة اخرى ذلك الاحساس بالعزلة الذي تحدثت عنه توا. شعرت اني سأغرق فيه،
بل اسوأ من ذلك بكثير، لقد تركت سارية تبتعد بعيدا عني في حين كان يمكن ان
تنقذني. لقد قهرني اليأس، يأس ازدادت الامه بالام اخرى كان ينبغي لي ان
اخفيها. وعند حلول اليوم الخامس، لم اعد استطيع تحمل ما هو اكثر من ذلك.

- غير انني اعتقد ان هذا لم يطرق سمع السيدة تالبوت. الم يثر ذلك
شكوكك؟ قلما يكون هذا السلوك من صفات رجل ذي اغراض شريفة.

- اعلم يا سيد سميثسون ان حماقتي، جهلي بأخلاقه الحقيقية، لا بد ان تبدو
لمن هو غريب عن طبعي وظروفي في ذلك الوقت عظيمة بحيث لا تكون إلا
جريمة. انا لا استطيع اخفاء ذلك. ربما كنت اعرف ذلك دوما. من المؤكد ان
خللا عميقا في روحي كان يريد من نفسي الاعظم ان تبقى جاهلة. وعند ذاك
بدأنا بالخداع. ان مثل هذا الطريق يصعب ارتقاؤه ثانية بعد ان يتورط فيه المرء.

ربما كان ذلك تحذيرا لشارلز، الا انه كان مستغرقا في التفكير في قصتها حتى
نسي التفكير في نفسه.

- ذهبت الى ويموث؟

- خدعت السيدة تالبوت بقصة صديقة من ايام المدرسة مرضت مرضا
شديدا وصدقت انني ساذهب الى شيربورن. وتتطلب كلتا هاتين الرحلتين المرور
بدورتشستر. وما ان وصلت هناك حتى سافرت الى ويموث.

وهنا صمتت سارة، واحت رأسها كأنها لم تعد تستطيع مواصلة حديثها.
- انت في غنى عن التفاصيل يا انسة وودراف. ففي ميسوري ان الخمن...
هزت رأسها بالنفي.

- وصلت الى الحادثة التي لا بد من سردها، غير انني لا اعرف كيف ارويها.
اطرق تشارلز بدوره. في تلك الاثناء، كان هناك طائر غير مرئي في احدى
اشجار الدردار العملاقة يغرد بصوت جميل تحت هدوء السماء الزرقاء. وفي نهاية
المطاف استأنفت حكايتها.

- عثرت على نزل قرب الميناء. ثم قصدت الحانة التي ذكر انه سيقم في
احدى غرفها، فلم اعثر عليه. غير ان رسالة كانت في انتظاري وفيها يخبرني عن
عنوان حانة اخرى. فذهبت الى هناك. لم يكن المكان... جديرا بالاحترام.
واخبروني عن مكان غرفته وتوقعوا ان اذهب اليه، بيد اني الححت في طلبه، فما
كان منه الا ان حضر. وبدا فرحا كثيرا لرؤيتي. وهو ما ينبغي ان يكون عليه اي
عاشق. واعتذر عن تواضع المكان وقال انه ارخص من المكان الاول وان البحارة
والتجار الفرنسيين غالبا ما يلجأون اليه. كنت مذعورة وكان هو في منتهى
اللطف. لم اكن قد تناولت اي طعام في ذلك اليوم ووجدت ان لديه طعاما جاهزا.
ترددت ثم اضافت:

- كانت غرفة الاستراحة شديدة الضوضاء، لهذا قصدنا حجرة الجلوس.
عرفت انه قد تغير لكنني لا استطيع ان اخبرك بكيفية ذلك. وعلى الرغم من انه
كان مجاملا الى ابعد حد، يفيض بالابتسام والملاطفة، فإنني ادركت انني لو لم
احضر اليه لما انتابته الدهشة او الحزن الطويل. وعرفت بعد ذلك انني كنت له مجرد
تسلية في اثناء فترة نقاهته. وسقط القناع امام عيني. وعرفت انه غير مخلص...
كذاب. وادركت ان الزواج به من شأنه ان يكون زواجا بمغامر تافه. ادركت كل
هذه الامور في الدقائق الخمس الاولى من ذلك اللقاء.

وهنا توقفت عن الكلام كأنها سمعت مرارة التائب الذاتي وهي تزحف الى
صوتها ثانية. غير انها اردفت بصوت خفيض.

- ربما تتساءل كيف انني لم ادرك ذلك من قبل. اعتقد انني ادركت ذلك.
غير ان ادراك الشيء لا يشبه الاقرار بوجوده. اعتقد انه كان يشبه الى حد ما

الساحلية التي تغير من ألوانها حسب مقتضيات بيئتها. فقد كان يبدو سيدا مهذبا تماما في بيت السيد المهذب. اما في تلك الحانة، فقد شاهدته على حقيقته، وعرفت ان لونه هناك طبيعي اكثر من بقية الالوان.

تفرست في البحر لحظة وخيل لتشارلز ان حمرة اشد غمرت وجنتيها، الا انها ادارت رأسها بعيدا.

- في مثل هذه الظروف، اعلم ان... ان سيدة محترمة كان من شأنها ان تنصرف على الفور. لقد نقت في اعماق نفسي الف مرة منذ ذلك اللقاء. وكل ما عثرت عليه هو ان اي تفسير لسلوكي لا يكفي. في اول الامر، احسست كأنني قد تجمدت من الذعر عندما ادركت غلطتي - وعلى الرغم من فظاعة تلك الغلطة... إنني حاولت ان اعثر على الفضيلة فيه، القدرة على احترامه، الشرف. ثم انتابني نوع من الغضب الجامح لأنه خدعني. وقلت لنفسي لو انني لم اتعذب كثيرا بسبب الوحدة التي يصعب احتمالها في الماضي لما اصبحت جاهلة الى ذلك الحد. لهذا السبب القيت اللوم على الظروف بسبب حالي. لم يسبق لي ان مررت بمثل هذه الحالة. لم يسبق لي ان دخلت مثل تلك الحانة، حيث اللياقة بدت مجهولة وعبادة الخطيئة امرا اعتياديا مثل عبادة الفضيلة في مكان اكثر نبلا. لا استطيع ان اشرح لك. كان عقلي مشوشا. اعتقدت انني مدينة لنفسي كي اظهر سيدة قدرتي. لقد هربت الى ذلك الانسان. لا بد ان يبدو التواضع المبالغ فيه غير معقول... زهوا. توقفت هنيهة.

- مكثت واياه. تناولت العشاء الذي قدمه لي وشربت المشروب المفضل الذي اح علي في شربه. لم اشعر بالنشوة. اعتقد انه جعلني ارى بوضوح اكبر... اهذا ممكن؟

التفتت على نحو لا يمكن ادراكه طمعا في الاجابة؛ كان من الجائز ان يكون قد اختفى وانها تريد ان تتأكد - رغم انها لم تستطع ان تنظر - انه لم يتوار عن الانظار في الهواء الرقيق.

- بلا ريب.

- بدا لي ان ذلك يمنحني القوة والشجاعة، علاوة على الفهم. انها ليست وسيلة الشيطان. وجاء الوقت الذي لم يعد يستطيع فيه فارغون اخفاء طبيعة اهدافه

الحقيقية نحوي، كما لم استطع انا ايضا التظاهر بالدهشة. كانت براءتي مزيفة منذ اللحظة التي اخترت فيها البقاء واياه. انني لا ابغي الدفاع عن نفسي يا سيد سميثسون. اعرف تمام المعرفة انه كان في مستطاعي الرحيل حتى بعد ان اغلق الباب وراء الخادمة التي رفعت بقايا طعام العشاء. في وسعي ان اتظاهر امامك انه غلبني، خدرني... حسبما تشاء. الا ان الامر ليس كذلك. كان رجلا لا يعرف التردد، رجل النزوات، رجل الانانية المفرطة. غير انه ما كان ليقدّم على انتهاك حرمة امرأة دون رغبة منها.

وهنا التفتت التفاتة كاملة لتنظر الى تشارلز في لحظة غير متوقعة ابدا. كانت محمرة الوجه، الا ان ذلك الاحمرار بدا له نتيجة شيء من الحماس، الغضب، التحدي اكثر مما هو نتيجة الحرج؛ كأنها تقف عارية قبالة، الا انها مزهوة على الرغم من ذلك.

- استسلمت له.

واذ ذاك لم يستطع احتمال عينيها واطرق وهو يومئ ايماءة صغيرة.

- ادرك ذلك.

- وهكذا تجدني امرأة ملوثة السمعة مرتين: بالظروف والاختيار.

خيم الصمت عليهما مرة اخرى ثم نظرت الى البحر. همس:

- لم اطلب منك ان تقصي عليّ هذه الامور.

- ان الشيء الذي اطلب منك ان تفهمه يا سيد سميثسون ليس هو انني

ارتكبت هذا العمل الشائن، بل لم ارتكبته؟ لماذا ضحيت بأغلى ما تملكه المرأة مقابل امتنان زائل من رجل لم احبه؟

رفعت يديها صوب خديها.

- لقد فعلت ذلك كي لا اظل على ما انا عليه ابدا. فعلت ذلك كي يشير

الناس الي، كي يقولوا ها هي امرأة الضابط الفرنسي - او، نعم. دع هذه الكلمة

تقال على الافواه، كي يعلموا انني قد تعذبت، واتعذب مثلما يتعذب الآخرون في

كل مدينة وقرية وعلى وجه الارض. لم يكن في وسعي ان اتزوج ذلك الرجل.

لذلك تزوجت العار. لا اقصد انني كنت اعلم بما فعلت، لقد تركت فارغون يملئ

ارادته عليّ عن عمد. ولاح لي الامر انذاك وكأنني ارمي بنفسي من فوق جرف

عالٍ او انني اغمد سكيننا في فؤادي. انه نوع من الانتحار. عمل من اعمال اليأس يا سيد سميثسون. اعرف انه عمل شرير... كافر، الا انني لم اكن اعرف وسيلة اخرى تخرجني من حالي. لو انني خرجت من الحجرة وعدت الى بيت السيدة تالبوت واستأنفت حياتي السابقة لأصبحت ميتة الان حقا... وبيدي انا. ان الشيء الذي ابقاني على قيد الحياة هو عاري، معرفتي انني حقا لست مثل اي امرأة اخرى. فأنا لن يكون لي اطفال او زوج او سعادة بريئة كالتى تمتلكها الاخريات. كما لن يفهم سبب جريمتي.

توقفت هنيهة كأنها ادركت ما قالته هي نفسها بوضوح اول مرة.
- أحيانا ارثي لهن. اعتقد انني املك حرية لا يفهمنها. لا تستطيع اي اهانة، اي تأنيب ان يؤذيني، لانني وضعت نفسي خارج نطاق الحظيرة. انا لا شيء، لم اعد انسانا. انا امرأة الضابط الفرنسي.

ادرك تشارلز ادراكا ناقصا تماما ما كانت تحاول قوله في خطبتها الطويلة الاخيرة. لقد شعر بعطف اكبر مما اظهره حقا ازاء سلوكها حتى لحظة قرارها الغريب في ويموث. في وسعه ان يتصور العذاب البطيء الذي مرت به في حياتها وهي مربية والسهولة التي سقطت فيها في برائن وغد مقبول ظاهريا مثل فارغون. الا انه وجد هذا الحديث عن الحرية خارج النطاق المقبول والزواج من العار غير مفهوم. الا انه على الرغم من ذلك فهمه على نحو ما لأن سارة شرعت بالبكاء عندما اقتربت من نهاية تبرئتها. اخفت بكاءها او حاولت اخفائه. اي انها لم تضع وجهها بين راحتي كفيها ولم تخرج منديلا ما، بل جلست واشاحت وجهها جانبا. ولم يتضح سبب صمتها الحقيقي لتشارلز اول الامر.

الا انه بدافع غريزي نهض واقفا على قدميه وسار خطوتين وهو صامت فوق الارض المكسوة بالاعشاب حتى يستطيع رؤية وجهها من الجانب. لاحظ ان وجنتيها مبللتان، وشعر انه متأثر تاثرا لا يحتمل، مضطرب، تحديق به من جميع الجوانب متاهة من تيارات متلاطمة وانه قد انجرف على نحو ميؤوس منه بعيدا عن مرفأ العاطفة الامين، الحكيم والحصيف. وشاهد المشهد الذي لم تفصله في حديثها: استسلامها. كان في الوقت ذاته فارغون الذي يستمتع بها، والرجل الذي قفز الى امام وطرحه ارضا، تماما مثلما كانت سارة بالنسبة إليه ضحية بريئة وامرأة

وحشية، مهجورة. في اعماق نفسه الدفينة غفر لها افتقارها إلى العفة ولاحظ الظلال القائمة حيث كان من شأنه ان يستمتع بها.

ان هذا التحول المفاجئ في النعمة الجنسية مستحيل اليوم. فما ان يكون الرجل والمرأة هذه الايام في اي اتصال عابر حتى تجدهما يفكران في العلاقة الجسدية. ونعتبر مثل هذه الصراحة حول الدوافع الحقيقية للسلوك الانساني ظاهرة صحية، غير ان العقول الخاصة في زمن تشارلز لم تعترف بالرغبات التي يحرمها العقل العام. وعندما تقفز هذه النمر الكامنة على الوعي يكون غير مستعد لها على نحو مثير للسخرية.

ثم هناك تلك الخاصة المصرية الغريبة بين الفكتوريين: حب الاماكن المغلقة حبا شديدا، اذ نجده ممثلا تمثيلا واضحا في ثياهم الموميائية الملفوفة، طراز بنائهم المتميز بضيق النوافذ وضيق الممرات، خوفهم من الكشف والعري. اخف الحقيقة، اغلق الباب من وراء الطبيعة. لقد كانت حركة الفن الثوري في عهد تشارلز هي حركة ما قبل الرافائيلية⁽⁷²⁾ مؤكدا. كان افرادها يبذلون على الاقل محاولة لادخال الطبيعة والجنس، الا ان علينا ان نقارن لا اكثر بين الجذور الرعوية لواحد من مثل ميليه⁽⁷³⁾ او فورد مادوكس براون⁽⁷⁴⁾ بتلك الجذور الموجودة عند واحد من مثل كونستابل⁽⁷⁵⁾ او بالمر⁽⁷⁶⁾ كي نرى كيف ان المذكورين اولا كانا مثاليين، يمتلكان

(72) ما قبل الرافائيلية: حركة فنية تأسست في انكلترا عام 1848 على يد مجموعة فنانين بهدف بعث المبادئ والممارسات الفنية التي عدت مميزة للفن الايطالي مثل رافائيل (رافائيلوسانتي 1483-1520) وكانت اعمال هذه المجموعة ذات موضوعات حسية وتفاصيل معقدة يكثر فيها استعمال الالوان الباردة. (المترجم)

(73) سير جون ايفريت ميليه (1829-1896): رسام انكليزي وعضو مؤسس في جماعة الاخوة ما قبل الرافائيلية. ازدهر عطاؤه الفني في خمسينيات القرن التاسع عشر وانجز اعظم لوحاته الفتاة العمياء في 1856. (المترجم)

(74) فورد مادوكس براون (1821-1893): رسام انكليزي تنحو اعماله منحى الرسامين ما قبل الرافائيليين. (المترجم)

(75) جون كونستابل (1776-1837): رسام انكليزي يعد هو والرسام تيرنر اشهر الرسامين الانكليز الذين برعوا في تجسيد المناظر الطبيعية والريفية في القرن التاسع عشر. تخطيطاته الزيتية افضل اعماله. (المترجم)

(76) صموئيل بالمر (1805-1881): رسام انكليزي شجعه الرسام والشاعر وليم بليك على ان ينحو منحى رؤيوا صوفيا في الرسم كما شجعه والده على الرسم ايضا. اهتم اهتماما كبيرا برسم اللوحات ذات الموضوعات الدينية والرؤيوية. (المترجم)

وعيا بالديكور في مقترهما من الواقع الخارجي. وهكذا، فإن صراحة اعتراف سارة - الصريح بخصيصته وتحت نور الشمس - بدا كأنه يعطي صورة عن عالم مثالي أكثر مما هو عرض واقع حاد. لم يكن غريبا لأنه أكثر واقعية، بل لأنه أقل واقعية؛ عالم اسطوري يكون فيه الجمال العاري المجرد أكثر أهمية من الحقيقة العارية.

تفرس تشارلز فيها لحظات قصيرة خلصة، ثم استدار وعاد إلى مقعده، وقلبه يصدق كأنه عاد توا من حافة الهاوية. برزت في البحر البعيد، فوق الأفق الجنوبي كتل من سحب نائية. امتدت الأبراج والمتاريس البيض والصففر والجليدية مثل قمم عظيمة في سلسلة جبلية تمتد على مرمى البصر. إلا أنها بعيدة - بعيدة بعد دير تيليم⁽⁷⁷⁾، بعد أرض بلا خاطئات، انشودة رعوية تصيب المرء بالحذر في وسع تشارلز وسارة وايرنستينا أن يتيهوا فيها...

لا أقصد أن أفكار تشارلز كانت أفكارا محددة، غير أن السحب البعيدة ذكرته باستيائه؛ كم تمنى لو استطاع الأبحار ثمانية في البحر التيراني⁽⁷⁸⁾ أو ركوب جواد، والشذى المسفوع بالحرارة في منخرينه، صوب أسوار ابلا⁽⁷⁹⁾ أو الاقتراب من أحد المعابد الاغريقية تحت أشعة الشمس الوهاجة في بحر إيجه. إلا أنه شاهد نفسه آنذاك شبحا، ظلا قائما، شقيقته الراحلة، تتحرك أمامه، بخفة وغواية، فوق السلام المشيدة من حجر مربع منحوت، وتتجه صوب لغز الأعمدة المحطمة.

(77) تيليم: دير تخيله الكاتب الفرنسي (فرانسوا رابليه 1483-1553) الذي جمع بين الطب والادب والتربية. (المترجم)

(78) البحر التيراني: من متفرعات البحر الأبيض المتوسط، تحده جزيرتا كورسيكا وسردينيا غربا وشبه الجزيرة الإيطالية وصقلية في الشرق والجنوب الشرقي يتصل في الشمال بالبحر الليغوري. أهم جزره البيا. (المترجم)

(79) ابلا: عاصمة مقاطعة ابلا (قشتالة القديمة) الأسبانية تشتهر بسورها وكاتدرائيتها القوطية التي بدأ البناء فيها حوالي العام 1091 كما تشتهر الآن بصناعة المشروبات الغازية وطحن الحبوب والدباغة ومنتجات اللحوم. (المترجم)

سامحيني! سامحيني!
 اه يا مرغريت، بسرور
 ستمتد هاتان الفراغان لتمسكا ذراعيك: -
 لكن انظري، بلا طائل.

في الفراغ الممتد صوبك
 ذراعاي الملتويتان في جبيرة
 لكن بحرا يجري بيننا -
 ماضينا المختلف.

ماثيو ارنولد: فراق (1853)

دقيقة صمت. ثم اظهرت بحركة صغيرة من رأسها انها استعادت وعيها،
 والتفت قليلا.

- افني وسعي ان افني قصتي؟ هناك موضوع قصير اود ان اضيفه.
 - ارجو الا تزعجي نفسك.

احنت رأسها ووعدته ثم استأنفت حديثها.

- رحل في اليوم التالي. كانت هناك سفينة. وكانت لديه مبررات.
 صعوبات تمر بها اسرته. وبقاؤه طويلا بعيدا عن الوطن. قال لي انه سيعود على
 الفور. كنت اعرف انه كاذب، الا انني لم اقل شيئا. ربما تعتقد انه كان يتعين
 عليّ الرجوع الى السيدة تالبوت والتظاهر انني كنت حقا في شيربورن. غير انني
 لم استطع اخفاء مشاعري يا سيد سميثسون. كنت في صدمة من اليأس وكان
 يكفي المرء ان يلقي نظرة واحدة الى وجهي فيعرف ان حدثا يغير مجرى الحياة
 قد وقع في اثناء غيابي. ولم اتمكن من الكذب على السيدة تالبوت لانني لم
 ارغب في الكذب.

- اذا اخبرتها بما ذكرته الان لي؟

نظرت الى يديها.

- لا. اخبرتها انني التقيت فارغون، وانه سيعود ذات يوم كي يتزوجني.
تكلمت واياها على ذلك النحو... لا بدافع الكبرياء. وكانت السيدة تالبوت امرأة
حنون استطاعت ان تفهم الحقيقة - اقصد ان تغفر لي - الا انني لم استطع اخبارها
ان سعادتها هي التي دفعتني الى حد ما.

- متى عرفت انه متزوج؟

- بعد شهر واحد. اوضح لي انه زوج لا يعرف السعادة. وعلى الرغم من
ذلك كان يتحدث عن الحب، عن ترتيبات... لم تكن صدمة. لم اشعر بأي
عذاب. بل اجبته دون ان اغضب. قلت له انني لم اعد املك اي عاطفة ازاءه،
وانني تميت الا اراه ثانية.

- واخفيت ذلك كله عن الجميع باستثناء نفسي؟

انتظرت وقتا طويلا قبل ان ترد:

- نعم. للسبب الذي ذكرته لك.

- ان تعاقبي نفسك؟

- ان اكون ما يجب ان اكون. منبوذة.

تذكر تشارلز رد فعل الطبيب غروغان الطبيعى لقلقه ازاءها.

- لكن يا عزيزتي الانسة وودراف، لو ان كل امرأة خدعها شخص علم
الضمير من بني جنسي تصرفت مثلما تصرفت انت - فاني اخشى ان تمتلئ البلاد
بالمنبوذات.

- انها مليئة.

- ذعك من هذا التهويل. غير معقول.

- ان المنبوذات يخشين ان يبدو عليهن ذلك.

لقى نظرة فاحصة الى ظهرها، وتذكر شيئا اخر سبق للطبيب غروغان ان
تفوه به - عن مريضات رفضن تناول الدواء. الا انه عزم على بذل محاولة واحدة
اخرى. مال الى الامام شابكا يديه.

- استطيع ان افهم فهما جيدا جدا كيف ان بعض الظروف البائسة تبدو
لشخص مثقف وذكي. لكن الا تكفي هاتان الخاصيتان لمساعدة المرء
كي ينتصر...

وهنا نهضت واقفة فجأة، وسارت صوب حافة الجرف. اسرع تشارلز نحوها ووقف الى جنبها وهو على اتم الاستعداد للامساك بذراعها - اذ رأى ان كلماته الشخصية غير المؤثرة كان لها تأثير معاكس لذلك تماما. امعنت النظر في البحر، وأوحى له شيء ما في تركيبة وجهها انها شعرت بانها ارتكبت غلطة، انه تافه، انه متحدث في مؤتمر. كان ثمة شيء ذكري يشوب مظهرها. وشعر تشارلز انه امرأة عجوز ولم يعجبه ذلك الشعور.

- سامحيني. ربما اطرح اسئلة كثيرة، غير ان قصدي سليم.
اطرقت، معترفة باعتذار ضمني، الا انها استأنفت نظراتها العميقة صوب البحر. لقد اصبح الاثنان مكشوفين الان، ويستطيع اي شخص قرب الأشجار في الأسفل رؤيتهما.

- كما ارجو ان تعودني قليلا الى الوراء. فالمكان غير آمن هنا.
التفتت ونظرت اليه. مرة اخرى كان هناك نوع من التغلغل في اعماق دوافعه الحقيقية التي كانت مكشوفة على نحو مربك. اننا نستطيع أحيانا ان نميز النظرات التي ترسم على وجه معاصر وعمرها قرن من الزمن. غير ان ايا من مثل هذه النظرات ليس في وسعها ان تتحقق. مرت لحظة واحدة، ثم سارت من امامه، وعادت الى الشوك. اما هو فقد وقف في منتصف الساحة الصغيرة.

- ان ما ذكرته لي يؤكد مشاعري السابقة. لا بد لك من الرحيل عن بلدة لايم.
- لو رحلت عن هذا المكان لتركت عاري، واذا ذاك اجدني ضائعة.
مدت يدها، ولمست غصن زعرور بري. لم يكن متأكدا مما كانت تفعله، غير انها بدت وهي تضغط عمدا سبابتها فوق الشوك. وبعد ثانية واحدة كانت تحق الى قطرة دم قرمزية. نظرت اليها برهة، ثم اخرجت منديلًا من جيبتها ومسحت بقعة الدم خفية.

ظل تشارلز صامتا فترة قصيرة ثم باغتها:
- لماذا رفضت مساعدة الطبيب غروغان في الصيف الماضي؟
ومضت عيناها وهي تنظر نظرة اتهام، الا انه كان مستعدا لرد الفعل ذاك.
- نعم لقد سألته عن رأيه. ليس في استطاعتك ان تنكري ان لدي الحق في ذلك.

- اشاحت وجهها ثانية.
- نعم. لديك الحق.
- اذا ينبغي لك ان تردى على سؤالي.
- لانني لم اشأ الذهاب اليه طلبا للمساعدة. لا اقصد ان لدي شيئا ضده. فانا اعرف انه كان يرغب في المساعدة.
- وهل لم تكن نصيحته مثل نصيحتي؟
- نعم.
- اذا، لا بد لي من ان اذكرك، مع شديد احترامي لك، بوعدك.
- لم ترد عليه. وكان في ذلك الجواب. تقدم تشارلز بضع خطوات الى حيث كانت تقف محدقة الى اغصان الشوك.
- انسة وودراف؟
- انك تعرف الحقيقة الان - الا زلت تقدم تلك النصيحة؟
- بلا شك.
- وعندئذ تغفر لي خطيئتي؟
- باغتت تشارلز بسؤالها هذا.
- انت تضعين قيمة كبيرة لغفراني. الشيء الاهم هو ان تغفري انت خطيئتك. ولن تستطيعي ابدا ان تفعلي ذلك هنا.
- انت لم ترد على سؤالي يا سيد سميثسون.
- حاشا لله ان اصدر قرارا في موضوع لا يستطيع ان يقرره الا خالقنا. الا انني مقتنع، كلنا مقتنعون، انك كفرت بما فيه الكفاية عن خطيئتك. لقد غفر لك.
- امن الممكن نسيان ما حدث؟
- حيرته الحقيقة المطلقة المتسمة بالسخرية في صوتها لحظة وجيزة. ثم ابتسم.
- اذا كنت تقصدين بهذا الكلام ان اصدقاءك الموجودين هنا لا ينوون مساعدتك مساعدة عملية...
- لم اقصد ذلك. فانا اعرف ان قصدهم ينبع من صميم قلوبهم. غير انني اشبه شجرة الشوك هذه يا سيد سميثسون. لا احد يؤنبها لأنها تنمو في هذا المكان الموحش. غير ان السير في شارع برود هو الذي يلحق الالهانة بالمجتمع.

زفر زفرة صغيرة تدل على الاحتجاج.
- لا يمكنك القول يا عزيزتي الانسة وودراف ان مهمتك هي الحاق الالهانة بالمجتمع.

ثم اردف.

- اذا كان هذا هو الشيء الذي استنتجته.

التفتت نصف التفاتة.

- لكن اليس ذلك المجتمع هو الذي يرغب في ترحيلي الى عزلة اخرى؟

- ان الشيء الذي ترتابين في صحته الان هو عدالة الوجود...

- اهذا محرم؟

- ليس محرما، بل غير مثمر.

هزت رأسها بالنفي.

- بل هو مثمر، على الرغم من ان ثماره مرة.

تفوهت بجملتها الاخيرة بلا تناقض، بمنتهى الحزن، كأنها تخاطب نفسها. كان تشارلز مقهورا، كان الذي هزمه هو انحسار موجة اعترافها، الاحساس بالخراب. وتصور ان صراحة نظرها مصحوبة بصراحة التفكير واللغة - وهو امر صدمه في بعض الاحيان من قبل طالما ان التسليم بالمساواة العقلية (وبالتالي الاستياء المشبوه ضد الرجل) ليس مساواة بقدر ما هو قرب، قرب يشبه العري، حميمة الفكرة والشعور التي لم تستطع تصورها حتى الان في اطار العلاقة بالمرأة.

لم يعتقد ان هذه المسألة ذاتية، بل موضوعية: اذ لو استطاع اي رجل متحرر يملك من الفطنة ما يساعده على رؤيتها فانه سيجد امامه امرأة رائعة. استثنائية. وليس الشعور هو حسد الرجل او غيرته، بل هو الشعور بالضيق الانساني. وفجأة مد يده ولمس كتفها علامة الطمأنينة. وبمثل تلك السرعة استدار، وساد الصمت. فقالت كأنما ادركت مدى احباطه.

- اذا تعتقد بأن عليّ الرحيل؟

شعر على الفور انه متحرر، فالتفت صوبها بتوق.

- ارجو ان تفعل ذلك. اجواء جديدة، وجوه جديدة... ولا تقلقي بشأن

الاعتبارات العملية. انا ننتظر قرارك لا اكثر لتدخل لصالحك.

- افنى وسعى ان افكر فى الامر يوما او يومين؟
- اذا كنت ترين ذلك ضروريا.
- انتهر فرصة وتشبث بالحالة السوية التى جعلتها حالة مميزة.
- واقترح ان نضع المسألة تحت رعاية السيدة ترانتر. ولو سمحت فسوف اتيقن ان محفظتها جاهزة لتلبية كل احتياجاتك.
- أحنت رأسها، وبدأت على وشك ان تبكى ثانية. وهمست:
- انا لا استحق مثل هذه العطف. انا...
- لا تقولى ما هو اكثر. فانا لا اعتقد ان هناك وسيلة افضل تصرف بها النقود.

انتاب تشارلز شعور رقيق بالانتصار. لقد حدث كل شيء حسبما توقع غروغان. لقد قدّم الاعتراف العلاج؛ او على الاقل صورة واضحة منه واستدار كي يلتقط عصاه القريبة من كتلة الصوان.

- اينبغى لى الحضور الى السيدة ترانتر؟
- عظيم. المؤكد ليست هناك اى ضرورة للحديث عن لقاءاتنا.
- لن اقول شيئا.

شاهد المشهد الان؛ دهشته المهذبة كانت تملو من الاهتمام المبالغ فيه، مشفوعة باصراره النزيه على ان تكون اى مساعدة مالية مرغوب فيها تحت مسؤوليته. فى مستطاع ايرنستينا ان تشاكسه بخصوص ذلك - الا ان الامر سيرىح ضميره. وابتسم لسارة.

- لقد وجدت من يشاطرك سرك. واعتقد انك ستجدين نفسك محرة من العبء بشتى الطرق الاخرى. انك تملكين مزايا طبيعية مهمة جدا، وليس لديك ما يجعلك تخشين شيئا من الحياة. سيأتى اليوم الذى تبدو فيه هذه السنين الاخيرة الحزينة لا اكثر من تلك السحابة التى تخيم على شيزل بانك. ستقفين تحت اشعة الشمس وتبتسمين لاحزانك الماضية.

شعر انه اكتشف وجود نوع من الوميض وراء الشك فى عينيها. وظلت برهة وجيزة اشبه بطفلة، مترددة وراغبة فى ان واحد فى ان تتخلص من دموعها وان تستمع الى هذه الموعظة. واتسعت ابتسامته وهو يضيف بخفة:

- والان، اليس الافضل لنا ان نهبط؟

لاحت وكأنها ترغب في قول شيء ما، ان تؤكد عرفانها مرة ثانية بلا ريب. الا ان حالته التي كانت تنم عن الانتظار المشوب بالنشاط جعلتها تسير من امامه بعد ان القت نظرة اخيرة مترددة الى عينيه.

سارت من امامه على نحو رشيق وهي تهبط مثلما سارت من قبل بخفة وهي في طريق الصعود. شعر تشارلز بالندم وهو ينظر الى ظهرها... ان عدم رؤيتها هكذا ثانية يبعث على الندم والارتياح. شابة رائعة. لن ينساها ابدا. وبدا له ان ما يبعث السلوى في نفسه انه لن يترك له امر نسيانها. فالخالة ترانتر ستكون جاسوسته في المستقبل.

وصلا الى قاعدة الجرف الاسفل وتوغلا في نفق اللباب الاول، فوق الارض المنبسطة، ومن صوب الممر الاخضر الثاني... وبعد ذلك!

تناهى الى سمعها صوت ضحكة صادرة من مكان بعيد الى اسفل، من الممر الرئيس في الجزء السفلي من الجرف. كان تأثير تلك الضحكة غريبا - كان روح الغابة منهمكة في مراقبة لقائهما السري ولم يعد في وسعها الان كتم مشاعرها وفرحتها - فالضحكة كانت ضحكة انثى بلا جدال - من ثقتيها السخيفة بأن احدا لا يشاهد هما.

توقف تشارلز وسارة من تلقاء نفسيهما. وسرعان ما انقلب ارتياح تشارلز المتزايد الى ذعر اصابه بصدمة، بيد ان ستار اللباب كان شديد الكثافة. وكانت الضحكة صادرة من مكان يبعد عنهما مسافة تقدر ما بين مائتين الى ثلاثمائة ياردة (180 إلى 270 مترا). لم يكن في وسع احد رؤيتهما، الا اذا هبطا السفح. لحظة واحدة، ثم رفعت اصبعها سريعا صوب شفتيها، وأشارت اليه الا يتحرك، ثم سارت خلسة صوب نهاية النفق. راقبها تشارلز وهي تشرئب الى الامام وتمعن النظر حذرة في الاسفل صوب الممر. وسرعان ما ادارت وجهها بعجالة صوبه. اومات له؛ عليه ان يذهب اليها، لكن في منتهى الهدوء. وفي نفس اللحظة انطلقت تلك الضحكة ثانية. كانت ضحكة اقل دويا هذه المرة، بيد انها كانت اشد قربا. ان من كان يسير في الممر بدا الان يرتقي الطريق الصاعد بين اشجار الدردار ويتجه صوبهما.

وطأ تشارلز الارض بحذر صوب سارة بعد ان تأكد تماما من الموضع الذي ينبغي له ان يضع فيه حذاءه الفاضح. شعر ان الدم اخذ يشيع في وجهه، وانه في حرج بالغ. وللحظة فكر ان اي تفسير لا قيمة له. وبغض النظر عن الطريقة التي يشاهد فيها بصحبة سارة فلا بد ان تكون بالجرم المشهود.

وصل الى حيث كانت واقفة، والى حيث كانت كثافة اللبلاب على اشدها لحسن الحظ. كانت سارة قد اعرضت بوجهها عن المتطفلين، وانتصبت وظهرها مستند الى جذع شجرة، مطرقة الى الارض كأنها ارتكبت خطيئة صامته في مجيئهما الى هذا المكان. القى تشارلز نظرة من خلال الاغصان صوب المنحدر الذي تغطيه اشجار الدردار فتجمد الدم في عروقه. كان سام وماري يصعدان الطريق المؤدي اليهما كأنهما ينشدان الوكر ذاته، وكان سام يطوق بذراعه كتف الفتاة ويحمل قبعته بينما حملت هي قلنسوتها وكانت ترتدي الثوب الاخضر الذي اعطتها اياه ايرنستينا - في الحقيقة لقد رأى تشارلز هذا الثوب ذات مرة، عندما كانت ايرنستينا ترتديه - بينما كان رأسها يستند الى خد سام. هما بلا شك عاشقان شابان مثلما هي الدردار اشجار معمرة، ومثلما هي خضراء يانعة نباتات نيسان/أبريل التي كانا يدوسان عليها.

انسحب تشارلز الى الوراء قليلا، الا انه تركهما تحت انظاره. وفيما هو منهمك في المراقبة، قرب سام وجه الفتاة منه وقبلها، فألقت ذراعيها من حوله وتعانقا. ثم وقف الاثنان متباعدين، متشابكي الايدي، خجلين. قاد سام الفتاة الى حيث توجد كومة من الاعشاب بين الاشجار. جلست ماري واستلقت في ذلك المكان، فمال سام جنبها وهو يلقي نظرة عليها، ثم لمس شعرها وابعده عن وجنتيها، وانحنى وقبلها قبلات رقيقة فوق عينيها.

شعر تشارلز ان الورطة نفذت الى قلبه. اختلس نظرة الى سارة ليرى ان كانت تعرف المتطفلين. غير انها حددت الى نبات السرخس قرب قدميها كأنهما يلتجأن الى ذلك الوكر خشية المطر. مرت دقيقتان، فثلاث دقائق. وتحولت الورطة الى نوع من الارتياح؛ فمن الواضح ان الخادمين يهتمان باستطلاع احدهما الاخر بدلا من استطلاع المحيط من حولهما. نظر خلسة مرة اخرى الى سارة فوجدها وقد اهتمكت هي الاخرى في مراقبتهما من حول جذع شجرتها. استدارت وهي تنظر الى الارض، الا انها رفعت بصرها نحوه دون تحذير.

لحظة.

ثم فعلت شيئا غريبا، مروعا، كأنها نسزعت عنها ثيابها.
ابتسمت.

كانت ابتسامة في منتهى التعقيد حتى ان تشارلز لم يستطع اول وهلة سوى التحديق بها على نحو غير مصدق، اذ كان توقيتها شديد الغرابة! وشعر انها كانت تنتظر مثل هذه اللحظة لتسد اليه - هذا الكشف عن دعابتها، لتبين ان حزنها ليس حزنا شاملا. وفي هاتين العينين الواسعتين، المكتبتين، الصريحتين والحزينتين تماما، انكشفت المفارقة، البعد الجديد في نفسها - وهو امر الفته فرجينيا وبول في الايام الخوالي، لكن بلدة لايم لم تألفه بعد.

لاحت عيناها وشفاتها المقوستان تقوسا رقيقا وهي تقول: اين هي ادعاءاتك الان؟ اين هي ولادتك، علمك، اداب سلوكك، نظامك الاجتماعي؟ يضاف الى ذلك، لم تكن ابتسامة يستطيع المرء ان يقطب حاجبيه او يتصالب ازاءها، بل لا يمكن مبادلتها الا بابتسامة اخرى. لأنها ابتسامة غفرت لسام وماري وكل شخص. كما انها قوضت على نحو صعب على التحليل، كل ما مر حتى الان بينها وبين تشارلز اذ طالبت بحق في فهم اعمق، باعتراف بتلك المساواة المضطربة التي تتحول الى قرب اكبر مما اعترف به اعترافا واعيا حتى الان. في الحقيقة، لم يتسم تشارلز بابتسامة واعية بدوره، بل وجد نفسه يتسم، بعينه لا اكثر، لكنه يتسم، وجد نفسه منفعلا، على نحو اكثر غموضا وعمومية مما يمكن وصفه بالانفعال الجنسي، من اعماقه؛ مثل رجل وصل في النهاية سورا طويلا شاهقا ليجد الباب الذي طال بحثه عنه موصدا.

وقف الاثنان لحظات طويلة، المرأة التي هي الباب، والرجل بلا مفتاح، ثم خفضت من عينيها ثانية. وتلاشت الابتسامة، وخيم صمت طويل عليهما. لقد رأى تشارلز الحقيقة: كان يقف حقا على قدم واحدة فوق شفير الهاوية. وفي برهة من الزمن فكر في ان من شأنه بل يتعين عليه ان يقفز. وعرف انه لو بسط ذراعيه فلن يلقي اي مقاومة... بل تبادل مشاعر حميم. ازدادت وجنتاه حمرة وفي النهاية همس.

- لا يجب علينا ان نلتقي وحدنا ثانية ابدا.

لم ترفع رأسها، بل اومأت ايماءة صغيرة جدا، ثم اعرضت بوجهها بحركة غاضبة قليلا كي لا يراه. نظر ثانية من خلال الاغصان. كان رأس سام وكتفاه مائلين فوق ماري التي تتعذر رؤيتها. مرت لحظات طويلة، الا ان تشارلز ظل يراقب المشهد وذهنه مشغول بتلك الهاوية، لا يعي الا قليلا انه يتجسس، ولكنه على الرغم من ذلك كان متأثرا، عند مرور كل لحظة، بذلك السحر نفسه الذي حاول ان ينفر منه.

وانقذته ماري. فعلى حين غرة، دفعت سام جانبا، وهرعت ضاحكة اسفل المنحدر واتجهت صوب الممر. وبعد ان توقفت هنيهة، تألق وجهها المشاكس في وجه سام قبل ان ترفع تنورها وتسرع السير الى الاسفل. ركض سام وراءها حتى تلاشى شبحهما من وراء سيقان النباتات، تلاشيا، اختفيا، ومضة خضراء، ومضة زرقاء، ضحكة انتهت بصرخة صغيرة، ثم ران السكون.

مرت خمس دقائق لم يتكلم في اثناها الشخصان المتواريان عن الانظار. ظل تشارلز يحدق بثبات الى اسفل التل، كأن المهم ان يواصل هذه الرقابة المركزة. من المؤكد ان كل ما كان يريده هو تجنب النظر الى سارة واخيرا قطع الصمت.

- الافضل ان تذهبي.

احنت رأسها.

- سأنتظر نصف ساعة.

احنت رأسها ثانية ثم مرت من امامه، ولم تلتقي عيناها.

لم تلتفت وتنظر اليه نظرة قصيرة الا بعد ان اصبحت بين اشجار الدردار ثانية. لم يكن في وسعها رؤية وجهه، بل لا بد انها ادركت انه كان يراقبها. مرة اخرى كان وجهها ينطق بتلك النظرة القديمة التي تخترق اعماقه. بعد هذا هبط المنحدر بخفة وهو يشق طريقه بين الاشجار.

انا ايضا شعرت بالعبء الذي اتوء به
 في تأرجح العاطفة البالغة العنفوان
 انا ايضا تمنيت الا تكون هناك امرأة اخرى،
 ان تنتهي هذه البداية وهذا القلب الشديد الانفعال

انا ايضا اشتقت الى قوة شديدة
 واردة مثل رمح قاطع،
 واثبتت على المساق الواضح، المحدد،
 الذي لا يعرف الشك، لا يشعر بالخوف.

الا اتني في العالم الذي تعلمت، فالذي
 ستبرهنين عليه دوما ما مؤكدا
 ان تلك الارادة، تلك الطاقة، رغم ندرتهما
 فهما اندر، اندر بكثير من الحب.

ماثيو ارنولد: وداع (1853)

كانت افكار تشارلز في طريق عودته الحافل بالاحداث الى بلدة لايم اشكالا
 مختلفة لذلك الموضوع الذكري المعروف منذ زمن سحيق: «انت تلعب بالنار ايها
 الصبي». الا ان ذلك الموضوع هو نفسه تماما الذي اقصد به ان فحوى افكاره
 انسجمت وفحوى العبارة الحرفي. كان في منتهى الطيش، غير ان طيشه لم يصبه
 ببلاء ما. لقد جازف بمجازفة غير معقولة، ونجا بجلده دون ان يصيبه اذى. وهكذا
 شعر الان بالنشوة بعد ان لاح لبصره من بعيد مقلب الكوب الحجري العظيم.

لماذا كان ينبغي له ان يلوم لوما شديدا؟ لقد كانت دوافعه منذ البداية
 متسمة بالعفة؛ اذ عاجلها من جنونها ومع ان شيئا لا يتسم بالعفة هدد في لحظة
 ما التغلغل في دفاعاته فإن ذلك لم يكن سوى وضع صلصة النعناع على فخذ
 من لحم الغنم. من المؤكد ان من شأن اللوم ان يوجه اليه لو لم يسحب نفسه

من النار الان لصالحه، وهو امر سيهتم اهتماما كبيرا في تنفيذه لأنه قبل كل شيء ليس فراشة تثير نشوتها الشمعة. كان انسانا حاد الذكاء، من اكثر الناس قدرة على التكيف، ويتمتع بارادة حرة شاملة. ولو لم يكن واثقا من تلك الوقاية الاخيرة فهل كان يفكر في المجازفة بنفسه في مثل تلك المياه الخطرة؟ انني اخلط بين الاستعارات؛ لكن ذلك هو الاسلوب الذي كان يعمل به ذهن تشارلز.

هكذا، هبط التل في طريقه الى البلدة معتمدا على الارادة الحرة قدر اعتماده على عصاه. ومن شأنه ان يعتمد من الان فصاعدا الى كبح كل مشاعر العطف ازاء الفتاة بكل قوة، بالارادة الحرة. وسيرفض رفضا باتا اي توقف للقاء سري بالارادة الحرة. وينبغي احالة ادارة اهتماماته الى الخالة ترانتر بالارادة الحرة. لهذا السبب، كان مسموحا له، بل كان مضطرا اذا توخينا الدقة، الى الاستمرار في ابقاء ايرنستينا جاهلة كل شيء بنفس الارادة الحرة. ولما اقترب من وايت لاين كان قد حرر نفسه بارادته الحرة وانتقل الى حالة التهنة الذاتية... حالة يستطيع فيها ان ينظر الى سارة على انها شيء من ماضيه.

شابة رائعة، شابة رائعة، ومحيرة. وقرر ان عنصر الجاذبية فيها يكمن في هذه الصفة: عدم قابلية التوقع بها. ولم يدرك انها تتمتع بخاصتين نموذجيتين عند الانكليز مثل الخاصتين اللتين يتمتع بهما وهما المفارقة والتمسك بالتقاليد. واقصد بذلك العاطفة والخيال. ولعل تشارلز شرع يدرك الخاصية الاولى على نحو واه. اما الخاصية الثانية فلم يدركها. وهو لم يستطع ذلك لأن خاصيتي سارة حرمتها تلك الحقة، اذ كانت الاولى تعادل الانغماس في الشهوات الحسية والثانية تعادل الاوهام. لقد كان هذا التعادل المزدوج المنبؤ اكبر اخطاء تشارلز، ومن هنا، كان يعبر عن عصره تعبيرا صادقا.

كانت هناك خدعة مجسدة، او ايرنستينا يتعين مواجهتها. غير ان تشارلز وجد ان الاسرة هبت لمساعدته لدى وصوله إلى فندقه.

فقد كانت هنالك برقية في انتظاره، مرسلة من عمه في وينزيات، يطلب فيها منه الحضور على جناح السرعة «لأسباب في منتهى الاهمية». اخشى ان تشارلز ابتسم حالما قرأ محتوياتها، بل اوشك تماما ان يقبل الظرف البرتقالي. وقد

حرره ذلك من اي ازعاج اخر في الوقت الراهن، من الحاجة الى اكاذيب اللامبالاة بالسواجب الاخرى. كانت البرقية مناسبة تماما. فما كان منه الا ان قام ببعض التحريات... ووجد ان قطارا يغادر بلدة اكستر في وقت مبكر من صباح اليوم التالي. ولما كانت هذه البلدة هي اقرب محطة الى لايم، فقد كان لديه العذر الوافي للرحيل على الفور وقضاء الليلة هناك. واصدر اوامره بتدبير اسرع عربة في لايم. وقرر ان يقود العربة بنفسه وشعر انه يميل الى الذهاب بمثل هذه السرعة ويترك رسالة الى الخالة ترانتر تفي بالغرض. غير ان من شأن ذلك ان يبدو عملا جبانا. لهذا سار في اتجاه الشارع والبرقية في يده.

كانت السيدة الطيبة في غاية الجزع لأن البرقيات كانت تعني لها الانخبار السيئة. اما ايرنستينا الاقل ايمانا بالخرافات، فقد انزعجت كما هو واضح. وفكرت ان العم روبرت يبدو سيئا تماما وهو يتصرف مثل رئيس وزراء على هذا النحو. وكانت واثقة ان الامر ليس بذي شأن، نزوة هوى من اهواء الرجل العجوز، والاسوا من هذا الغيرة من حب الشباب.

من المؤكد انها زارت في وقت سابق وينزيات بصحبة والديها؛ ولم يستهوها سير روبرت. وربما كان ذلك سببه شعورها انها تحت المراقبة، او لأن العم لديه ما يكفي من طبقة ملاك الاراضي من ورائه - وفق معايير الطبقة الوسطى في لندن - لأن يمتلك اخلاقا سيئة حقا، ربما لأنها عدت البيت حظيرة قديمة، عتيق الطراز على نحو فظيع بما في ذلك اثاثه وصوره وكل ما علق على جدرانها، لأن العم المذكور شديد الشغف بتشارلز، تشارلز ابن اخ كثير الاستفزاز مما حمل ايرنستينا على الاحساس بالغيرة، الا انها قبل كل شيء كانت وجلة.

استدعيت جاراتها من النساء لرؤيتها. من المعلوم ان والدها في وسعه شراء كل ابائهن وازواجهن المحترمين برمتهم. وشعرت انها محط ازدراء بمختلف الواجه على الرغم من انها كانت ايضا موضع حسد. لم ترقها كثيرا فكرة العيش في وينزيات في اخر الامر على الرغم من ان ذلك يساعدها على ان تحلم باسلوب واحد على الاقل ينبغي ان تقضي به جزءا صغيرا من زواجها الضخم على النحو الذي اصررت عليه تماما، بدلا من كل هذه المقاعد الخشبية المزخرفة والسخيفة

الشارلية البالغة النفاسة⁽⁸⁰⁾. الخزانات الكمية التيودرية⁽⁸¹⁾، النسيج المزخرف الغوبليني⁽⁸²⁾، واللوحات الباهتة بما فيها لوحتي لكوديس وواحدة لتينتوريتو⁽⁸³⁾ لم تلقَ استحسانها.

لم تستطع البوح بامتعاضها من العم امام تشارلز. اما اعتراضاتها الاخرى فكانت توحى وتلمح لهما بروح الدعابة لا السخرية. ولا اظن ان اللوم يجب ان يلقي على عاتقها، فهي اسوة بالكثير من بنات الاغنياء، سواء في الماضي او الحاضر، اي، انها تعرف كيف تصرف مبالغ طائلة في محلات الملابس النسائية والقبعات النسائية والاثاث. فهذا هو عالمها. ولما كان ذلك هو عالمها الحقيقي الوحيد، فإنها لم ترغب في ان ترى من ينتهكه.

تحمل تشارلز المسرع استهجانها المكتوم وغضبها الجميل وطمأنها على ان يعود بأسرع ما يمكن. كانت لديه فكرة واهية عن السبب الذي يريده عمه بهذه السرعة، فقد جرى التطرق الى الموضوع مؤقتا لدى وجوده هناك بصحبة تينا ووالديها... مؤقتا لأن عمه رجل خجول. وكان ذلك يخص احتمال ان يشاركه تشارلز وعروسه وينزيات؛ اذ في مستطاعهما ان يحلا في الجناح الشرقي. وقد عرف تشارلز ان عمه لا يقصد بذلك مجيئهما والبقاء هناك عند الاقتضاء، بل ان على تشارلز ان يستقر ويبدأ تعلم كيفية ادارة المقاطعة. ولم ترقه هذه الفكرة مثلما لم تكن لترق ايرنستينا لو انه ادرك ذلك. فهو كان يعرف انها ترتيبات بائسة، لأن عمه سيكون بين حالي الشغف والاستهجان وان ايرنستينا بحاجة الى التعلم في وينزيات وبزواج مبكر اقل تقييدا. غير ان عمه ألمح اليه سرا بخصوص شيء اكثر من هذا: ان وينزيات قصر اوسع مما يحتمله رجل عجوز وحيد، ولا يدري ان

(80) الشارلية: المنسوبة الى تشارلز الاول (1600-1649) ملك انكلترا واسكتلندا وايرلندا (1625-1649)، في عهده نشبت الحرب الاهلية (1642-1652). اعدم، والى تشارلز الثاني (1630-1685) ملك انكلترا واسكتلندا وايرلندا (1660-1685) ابن تشارلز الاول، شهد عهده توسعا استعماريا. (المترجم)

(81) التيودرية: نسبة الى اسرة تيودور التي حكمت انكلترا من 1485 الى 1603. (المترجم)

(82) الغوبليني: نسيج وسجاد ينتج في معامل غوبلين في باريس. (المترجم)

(83) تينتوريتو (1518 - 1594): رسام ايطالي تميزت اثره بتغاير شديد بين الضوء والظل. (المترجم)

كان في وسعه العيش سعيدا في بيت اصغر. كانت البيوت الاصغر حجما متوفرة في المنطقة المحيطة به... بل ان بعضها تابع لقصر وينزيات وكان هناك واحد من هذه البيوت، وهو بيت اليزايثي⁽⁸⁴⁾ ريفي في قرية وينزيات على مرأى من البيت الكبير.

خمن تشارلز الان ان الرجل العجوز احس بالانانية وانه استدعاه الى وينزيات ليعرض عليه البيت الريفي او البيت الكبير. وكلاهما مقبول. ولم يكن يهمه كثيرا اي بيت ينبغي له السكن فيه شريطة ان يكون عمه بعيدا عنه... وشعر انه على ثقة بأن الاعزب الكبير يمكن ان يستدرجه لاعطائه اي من البيتين، وانه اشبه بفارس متوتر الاعصاب وصل حاجز عقبة لا بد من قفزها ويريد ان يتجاوزها.

وعلى هذا الاساس، وبعد اللقاء القصير الثلاثي في شارع برود، التمس تشارلز الحديث على انفراد مع ايرنستينا. وحالما انسحبت الخالة ترانتر، اخبرها بشكوكه.

- لكن لماذا لم يناقش الموضوع من قبل؟

- اخشى ان يكون هذا هو العم بوب بعينه يا عزيزتي. لكن اخبريني ما الذي يجب ان اقله؟

- ماذا تفضل؟

- ايهما تختارين انت. ولا واحد ان كانت هذه رغبتك، على الرغم من انه سوف يستاء...

صبت ايرنستينا لعنة مكتومة على الاعمام الاثرياء. غير ان صورتها مرت في ذهنها وقد اصبحت السيدة سميثسون في بيت وينزيات المؤث حسب ذوقها، ولعل ذلك سببه انها كانت في هو بيت الخالة ترانتر الخلفي والصغير نسبيا. على اي حال، ان اللقب يحتاج الى اطار. ولو ان الرجل العجوز الفظيع موثوق منه تحت نفس السقف... وانه كبير السن، وتشارلز العزيز، ووالديها اللذين تدين لهما بـ...

- اليس البيت الريفي هو نفس البيت الذي مررنا به ونحن في العربة؟

(84) اليزايثي: نسبة الى اليزايث الاولى (1533-1603) ملكة انكلترا وايرلندا (1558-1603).
(المترجم)

- نعم. انت تتذكرين ذلك. انه يحتوي على كل تلك الحملونات العريقة الرائعة.

- رائعة عندما ينظر اليها من الخارج.

- من المؤكد انه يحتاج الى ترميمات.

- ماذا سميت؟

- القرويون يسمونه البيت الصغير، لكن هذه التسمية للمقارنة بغيره من البيوت لا غير. لقد مر زمن طويل منذ ان زرته اخر مرة، الا انني اظن انه اكبر مما يبدو حقا.

- اعرف هذه البيوت القديمة، عشرات الغرف الصغيرة البائسة. اظن السكان في العصر الاليزابيثي كانوا اقزاما كلهم.

ابتسم (على الرغم من انه كان الافضل لو صحح فكرتها الغريبة عن العمارة التيودورية)، ثم وضع ذراعه من حول كتفها.

- اذا قصر وينزيات؟

نظرت اليه نظرة مباشرة صغيرة من تحت حاجبيها المقوسين.

- اترغب فيه؟

- انت تعرفين ما الذي يمثل لي.

- افي وسعي البدء بوضع طلاء جديد في غرفه؟

- في وسعك دكه من اساسه وبناء قصر بلوري ثان. لا يعني مطلقا.

- تشارلز! كن جادا.

تقدمت على منافسها، الا انه سرعان ما تلقى قبلة غفران، وسار في طريقه، ناعم البال. اما ايرنستينا فقد ذهبت الى الطابق الثاني واخرجت مستودعا من مجلات نماذج الاثاث والبيوت.

جزء من شجرة الصنوبر هذه
رجل كان جدي يعرفه...

هاردي: تحولات

اجتازت العربية بوابة البيت، مكشوفة الغطاء لتسمح لشارلز ان يستمتع بأشعة شمس الربيع. كان هو كنز الشاب يقف جوار البوابة المفتوحة في حين تألفت السيدة هو كنز العجوز على استحياء قرب باب المنزل. صاح تشارلز بالحوذي ان يتوقف لحظة، وكان هذا في انتظاره في تشينهام بينما هو الان يقود العربية والى جانبه سام. كانت ثمة علاقة خاصة تربط بين تشارلز والسيدة العجوز. فبعد ان حرم من امه وهو في العام الاول من عمره، اضطر ان يتحمل سلسلة من البدائل كطفل صغير. وفي اثناء مكوثه في وينزيات تعلق بالسيدة هو كنز التي كانت انذاك فنيا رئيسة عاملات الغسل والكوي، الا انها كانت بفضل خدمتها الطويلة وشعبيتها تأتي في المرتبة الثانية من بعد مدبرة المنزل المهيبة. لعل مشاعر تشارلز للخالة ترانتر صدى لذكرياته الاولى عن هذه المرأة البسيطة التي عرجت في مشيها في الممر المؤدي الى بوابة الحديقة لترحب به.

كان مضطرا للاجابة عن كل استفساراتها التواقعة عن الزواج القادم، وان يسألها بدوره عن اولادها. بدت مشتاقة اليه اكثر من المؤلف واكتشف في عينيها ذلك الظل الذي يدعو للأسى الذي يحتفظ به أحيانا الفقراء الطيبو القلب للموسرين الموهوبين. وإنه ظل هو يعرفه منذ زمن طويل تمنحه المرأة البريئة - الذكية للصبي اليتيم الام، المسكين، ذي الاب الشرير، اذ إن الشائعات القوية عن استمتاع والدي تشارلز الباقيين على قيد الحياة بمباهج حياة لندن كانت تنفذ الى وينزيات. بدت تلك العاطفة في غير محلها الان، غريبة، غير ان تشارلز سمح بها مسرورا. فقد كانت نابعة من حبها له، مثلما جاء كل شيء، حسب رأيه او حسب احساسه، نابعا من الحب المكرس له: حديقة البيت اللطيفة، المتنزه الممتد

الى ما ورائها، مجموعة الاشجار المعمرة، التي تحمل كل واحدة منها اسما محبوبا: هضبة اشجار الصنوبر العشر، اشجار الراميليه (التي زرعت احتفاء بمعركة راميليه)⁽⁸⁵⁾، اشجار البلوط والدردار، اشجار عروسة الشعر، وعشرات اخرى غيرها مألوفة عند تشارلز شأنها في ذلك شأن اسماء اجزاء من جسده، وكذلك شارع الزيزفون العظيم والصور الحديدي. واخيرا ابتسم لعاملة الغسل العجوز.

- لا بد لي من الذهاب، فعمي في انتظاري.

بدت السيدة هوكنز لحظة قصيرة كأنها لن تسمح لنفسها ان يتعد عنها بمثل هذه السهولة. غير ان الخادمة تغلبت على الام البديل، واقتنعت بلمس يده عندما وضعها فوق باب العربة.

- نعم يا سيد تشارلز. انه في انتظارك.

ضرب الخوذي كفل الحصان الامامي ضربة خفيفة بسوطه، فارتقت العربة منحنيا صغيرا، وسارت في ظل تتخلله الفتحات من اشجار الزيزفون العارية من الاوراق. ثم استوت الارض ومس السوط مسا متراخيا فخذ الحيوان الكستنائي، فشرع الفرسان يخبان خبيا رشيقا وهما يتذكران ان سيدهما على مقربة منهما. واثارت جلبة العجلات الجديدة السريعة المرحة، ومحور العجلات الذي ينقصه التزييت الكافي، والعاطفة القديمة التي اثارها السيدة هوكنز، وثقته انه عما قريب سيمتلك كل هذه المناظر الجميلة، اثارت في نفسه ذلك الشعور الذي يفوق الوصف والقدرة السعيد والنظام الصحيح الذي اقلقه على نحو باهت وجوده في بلدة لايم. كان هذا الجزء من انكلترا لينتمي اليه، مثلما ينتمي هو اليه. ومسؤولياته من مسؤولياته كذلك امتيازاته ونظامه الذي يمتد قرونا طويلة.

مسروا بمجموعة من العاملين لدى عمه: ايبينزر الحداد الى جانب كانون متنقل وهو يطرق احد الأسيجة الحديدية الملتوية. ومن ورائه، حارسان من حراس البيت وهما يمضيان وقتهما. اما الرابع فهو رجل مسن لا يزال يرتدي ثوب الشباب

(85) معركة راميليه (23 مايس 1706): معركة دارت رحاها في قرية راميليه الواقعة الان في بلجيكا بين قوات التحالف الانكليزي الهولندي بقيادة دوق مارلبورو ضد الجيش الفرنسي الذي هزم هزيمة ساحقة فيها؛ الا ان انتصار التحالف لم يحقق السلام مع لويس الرابع عشر ملك فرنسا. (المترجم)

الفضفاض الواقى من الاوساخ وقبعة مستديرة قديمة... انه بن العجوز، والد الحداد وهو واحد من عشرة معمرين تقاعدوا عن العمل في المقاطعة وسمح لهم بالعيش فيها. وكان حرا في ذهابه ومجيئه مثل سيده تماما. وهو اشبه بمكلف حي، يستشار في اغلب الاحوال، فيما يخص السنوات الثمانين الاخيرة، او ما يزيد عنها، من تاريخ وينزيات.

استدار هؤلاء الاربعة عند مرور العرب، ورفعوا ايديهم والقبعات، فرد تشارلز بتحية السادة الاقطاعيين. وكان يعرف كل حيواتهم مثلما يعرفون حياته. وكان يعرف حتى سبب التواء السياج... اذ هاجم ثور العم المفضل عربة السيدة تومكنز. وقد ذكر العم في رسالته ان الغلطة غلطتها لأنها صبغت فمها باللون القرمزي. ابتسم تشارلز متذكرا الاستفسار الجاف في اجابته عن السبب الذي يدفع مثل هذه الارملة الجذابة الى زيارة وينزيات دون وصيفة...

غير ان الهدوء الريفي الثابت العظيم كان مبعث لذة فائقة تحتم العودة اليه. اميال من المروج الربيعية، الجزء الخلفى من اراضي ويلتشاير المنخفضة، البيت البعيد الذي اصبح الان على مرأى من النظر، بلونيه الابيض والرمادي، بما فيه من اشجار الارز العملاقة، واشجار الزان النحاسية الشهيرة (كل اشجار الزان الشهيرة) القرية من الجناح الشرقي، والاصطبل الذي يوشك ان يتوارى عن الانظار من ورائها، ببرجه الخشبي الصغير وساعته، الذي يشبه علامة تعجب بيضاء اللون بين الاغصان المتشابكة. كانت تلك الساعة رمزا. وعلى الرغم من عدم وجود اي شيء عاجل في وينزيات - باستثناء البرقيات - فإن الايام المفعمة بالحياة تنساب الى غد مفعم بالحياة ايضا، والساعات الحقيقية حقا هي الساعات الشمسية، وعلى الرغم من كثرة الايادي العاملة وقلة العمل المطلوب انجازه - باستثناء ايام صناعة التبن والحصاد فإن الاحساس بالنظام اتسم بالالية تقريبا لما فيه من عمق في نفس المرء حتى اصبح يصعب اقلاقه، وانه سيظل على هذا المنوال: كريما ومقدسا. السماء تعلم وكذلك ميلي ان هناك ظلما وبؤسا في الريف يستويان في ضعتهما مثل الظلم والبؤس المنتشرين في شفيلد ومانشستر. وكانت هذه تنأى بنفسها عن منطقة البيوت الكبيرة في انكلترا، ربما دون سبب، الا لأن الملاك كانوا يحبون الفلاحين المطيعين قدر حبهم الحقول والمواشي والانعام التي يعتنى بها. ولعل رقتهم

النسبية ازاء العدد الضخم من العاملين لديهم ليس اكثر من نتاج فرعي لسعيهم وراء مستقبل افضل. غير ان التابعين كانوا يكسبون بتلك الوسيلة. وربما لم تكن دوافع الادارة الحديثة الذكية محبة للآخرين اكثر من هذه. فعندما يفكر المستغلون الرقيقون بالمستقبل السعيد، فإن الآخرين ينشدون الانتاجية العالية.

في حين ظهرت العربة من نهاية شارع الزيزفون، حيث اخذ المرعى المحاط بالسور يفسح المجال امام اعشاب وجنبات كثيفة، وامتد الطريق امتدادا منحنيا طويلا صوب واجهة البيت - الذي هو عبارة عن مبنى واقٍ لم يطره او يضيف عليه ويات الاصغر سنا - اذ ذاك شعر تشارلز انه يمتلك حقاً ميراثه. وبدا ذلك له وهو يقدم التفسير لكل تسكعه السابق في الحياة، كل اهتمامه بالدين، العالم، والسفر. كان ينتظر هذه اللحظة... دعوته الى العرش، اذا جاز التعبير. لقد اصبحت مغامرته السخيفة في الجزء السفلي من الجرف نسبيا منسيا. وكانت المهام الكثيرة، الاحتفاظ بهذا الهدوء والنظام، تنتظره، مثلما انتظرت الكثيرين من شباب أسرته في الماضي. الواجب هو زوجته الحقيقية، هو ايرنستينا وهو سارة. ثم قفز من العربة ليحيها تحية مرحة مثل صبي في نصف عمره الحقيقي.

على اي حال، كانت ترحب به في المقابل قاعة خاوية. لقد اقتحم غرفة الاستقبال متوقعا ان يشاهد عمه مبتسما وهو واقف على قدميه محيا اياه. غير ان تلك الغرفة كانت خاوية هي الاخرى. هناك امر غريب فيها، يثير حيرة تشارلز. ثم ابتسم. هناك ستائر جديدة - والسجاد، نعم، كان هو الاخر جديدا. ليس من شأن ايرنستينا ان تشعر بالسعادة عندما تدرك ان الخيار سحب من بين يديها - لكن اي دليل اوضح من هذا على عزم الاعزب العجوز على تسليم المشعل تسليما لبقا؟

على الرغم من ذلك، شيء ما قيد تغير. مرت بضع لحظات قبل ان يدرك تشارلز ما هو. لقد اختفى طائر الحبارى الخالد، وحلت محل صندوقه الزجاجي خزانة انية من الخزف الصيني.

الا انه ظل لا يعرف ما هو.

كما انه لم يستطع ان يخمن ما حدث لسارة - وكيف يستطيع ان يخمن في هذه الحالة - عندما تركته عصر اليوم السابق. لقد سارت سيرا حثيثا في طريق

عودتها داخل الغابة حتى وصلت الى المكان الذي تنطلق منه في صعودها الممر الذي يحجب عنها اي فرصة يمكن ان يشاهدها فيها احد من حقل مصنع الالبان. ومن شأن اي مراقب يراقبها ان يلحظ تردها ولو كان يملك سمعا رهيفا مثل سارة نفسها لادرك السبب: هناك اصوات تنبعث من كوخ المزرعة على بعد مائة ياردة (91 مترا) من الاشجار. تقدمت سارة في طريقها صامتة، بطيئة الخطوات، حتى وصلت إلى دغل من نبات شائك كانت تستطيع ان تمنع النظر من خلال اوراقه الكثيفة في مؤخر الكوخ. ظلت واقفة بعض الوقت، لا يتصف وجهها بأي شيء مما يدور في ذهنها. ثم حدث تطورها في المشهد التحتاني، خارج الكوخ، دفعها الى الحركة... لا الى الملجأ في الغابة، بل الى السير بشجاعة من وراء الدغل وعلى امتداد الممر الذي يرتبط بطريق العربات من فوق الكوخ. وهكذا ظهرت للعيان امام امرأتين قرب باب الكوخ، كانت احدهما تحمل سلة وعلى وشك ان تنطلق عائدة الى البيت.

ظهر شبح سارة الداكن. ولم تنظر في اتجاه الكوخ، في اتجاه هاتين المرأتين الذاهلتين بل سارت سريعا حتى تجاوزت سياج احد الحقول الذي يمتد اعلى المزرعة.

كانت احدي المرأتين هي زوجة صاحب حقل مصنع الالبان. اما الثانية فهي السيدة فيرلي.

ذات يوم سمعت مقترحا يفيد ان القول الفكتوري
المأثور كان: «عليك ان تتذكر انه عمك...»

جي. ام. يونغ: مقالات فكتورية

- شيء رهيب. رهيب. لا يمكن ان اصدق انه لم يفقد عقله.
- لقد فقد احساسه بالتناسب. غير ان هذا ليس الشيء نفسه تماما.
- لكن عند هذه النقطة!
- يا عزيزتي تينا. ان كيوييد معروف بعدم احترامه راحة الاخرين.
- انت تعرف معرفة جيدة ان كيوييد لا دخل له في الموضوع.
- بل اخشى ان له صلة بذلك. ان القلوب الكبيرة اكثر القلوب حساسية.
- انها غلطتي. وانا اعرف انه يرفضني.
- هوني عليك. هذا كلام فارغ.
- ليس كلاما فارغا، فانا اعلم انني لست بالنسبة إليه سوى ابنة تاجر البسة.
- ثمالكي نفسك يا طفلي العزيزة.
- انني غاضبة بسببك.
- حسنا جدا. اذا دعيني اغضب نيابة عن نفسي.
- نحيم الصمت بعد ذلك وبهذا يسمح لي ان اقول إن الحديث اعلاه دار في البهو الخلفي لمنزل الخالة ترانتر. وكان تشارلز يقف قرب النافذة وظهره في مواجهة ايرنستينا، التي بكت منذ فترة قصيرة، وجلست الان وهي تعبث بمنديل مخرم على نحو انتقامي.
- اعرف كم انت تحب وينزيات.
- اما جواب تشارلز على هذه العبارة فلا يمكن سوى تخمينه، اذ فتح الباب في تلك اللحظة وبانت الخالة ترانتر، وقد علت وجهها ابتسامة ترحيب لطيفة.

- لقد عدت سريعا.
- كانت الساعة هي التاسعة والنصف من اليوم نفسه الذي شاهدنا فيه تشارلز يتجه فيه صوب منزل وينزيات.
- ابتسم تشارلز ابتسامة رقيقة.
- فرغنا... من مهمتنا على الفور.
- حدث شيء فظيع وشائن.
- نظرت الخالة ترانتر نظرة يشوبها الذعر الى وجه ابنة اختها الحانق التي تفوهت بالجملة السابقة، ثم استرسلت:
- لقد حرم تشارلز من الارث.
- حرم من الارث!
- ان ايرنستينا تبالغ. كل ما في الامر ان عمي قد قرر الزواج. واذا ما كان محظوظا ورزق بولد ووريث...
- محظوظا...!
- نظرت ايرنستينا نظرة حارقة قصيرة الى تشارلز في حين حولت الخالة ترانتر انظارها من وجه الى اخر وهي مذعورة.
- لكن... من هي... السيدة؟
- اسمها السيدة تومكنز يا سيدة ترانتر، وهي ارملة.
- وفيهما من الشباب ما يجعلها قادرة على انجاب عشرة اولاد.
- ابتسم تشارلز.
- ليس ذلك، بل فيها من الشباب ما يجعلها قادرة على انجاب الاولاد.
- اتعرفها؟
- فردت ايرنستينا قبل ان يتمكن تشارلز من الجواب:
- هذا هو المعيب في الموضوع. فقبل شهرين لا اكثر، سخر العم من المرأة في رسالة موجهة الى تشارلز. اما الان فتجده يتذلل تحت قدميها.
- يا عزيزتي ايرنستينا!
- لن يهدأ لي بال. انه امر لا يطاق. فبعد كل هذه السنين...
- اخذ تشارلز نفسا عميقا، والتفتت الى الخالة ترانتر.

- اعرف ان لديها صلات ممتازة. فقد كان زوجها عقيدا في سلاح الفرسان، وترك لها ثروة ضخمة. لا ريب ان القضية فيها بحث عن المال.
افصحت النظرة الحارقة التي رمقت بها ايرنستينا تشارلز عن ان ذهنها يمتلئ بالشكوك.

- وقيل لي انها امرأة في منتهى الجاذبية.
- لا شك انها تمارس ركوب الخيل لصيد الثعالب.
ابتسم ابتسامة كثيبة في وجه ايرنستينا التي كانت تشير الى علامة سوداء حصلت عليها في كتاب العم الفظيع.
- لا شك في ذلك. لكن هذه ليست جريمة.
ثم االكت الخالة ترانتر فوق احد المقاعد، وحولت انظارها بين الوجهين الشابين، باحثة، كما هو شأنها في مثل هذه الحالات، عن بصيص امل.
- ولكن اليس هو اكبر سنا من ان ينجب اولادا؟
استطاع تشارلز ان يبتسم ابتسامة لطيفة لبراءتها.
- انه في السابعة والستين يا سيدة ترانتر. فهو ليس كبيرا جدا.
- حتى لو كانت هي شابة في مثل عمر حفيدته.
- يا عزيزتي تينا. ان كل ما يملكه المرء في مثل هذه الظروف هو الكرامة. لا بد لي من ان اتوسل اليك الا تكوني قاسية لاجلي انا. علينا ان نتقبل الحدث عن طيب خاطر.

نظرت اليه، ووجدت مدى صلابته. لا بد لها من ان تلعب دورا اخر.
فهرعت اليه، وامسكت بيده، ورفعتها صوب شفيتها. فما كان منه الا ان جذبها نحوه وقبل قمة رأسها، الا انه لم ينخدع. فالفأرة والزبابة قد تبدوان متشابهتين، الا انهما ليستا كذلك. وعلى الرغم من انه لم يستطع العثور على كلمة يصف بها استقبال ايرنستينا لاجباره غير السارة والرهيبة فإن ذلك الاستقبال لم يكن ليفتقر الى اللياقة. فقد قفز من الفخ مباشرة وعاد ادراجه من اكستر الى منزل الخالة ترانتر، وتوقع ان يحظى بعاطفة رقيقة لا ثورة عنيفة بغض النظر عن مدى الزيف الذي كان يكتنفها كي توازي مشاعره. ربما كان ذلك من طبيعتها؛ انها لم تكن تتصور ان سيدها مهذبا لا يستطيع ابدا الكشف عن الغضب الذي تعزوه اليه.

غير انه لاحظ فيها شيئاً ذكره بآبنة تاجر الملابس في اثناء الدقائق الاولى، بشخص استخدم في صفقة تجارية وهو يفتقر الى رباطة الجأش التقليدية، الى ذلك الاعتراض الارستقراطي على السماح لنكسات الحياة ان تكدر اسلوبه.

اعاد ايرنستينا ثانياً الى الاريكة التي قفزت منها، وشعر الان ان السبب الجوهري لزيارته، القرار الذي اتخذ في طريق عودته الطويل ينبغي ان يترك موضوع مناقشته حتى الغد، وبحث عن طريق ما يعرض فيه الاتجاه الصحيح، ولم يجد افضل من تغيير دفة الموضوع تغييراً طفيفاً.

- ما هي الاحداث المهمة التي وقعت في بلدة لايم اليوم؟

التفت ايرنستينا الى خالتها كأنما تذكرت شيئاً.

- اوصلتك اخبار عنها؟

ثم رفعت بصرها الى تشارلز قبل ان تتمكن الخالة ترانتر من الاجابة.

- لقد وقع حادث. اذ طردت السيدة بولتيني الانسة وودراف.

شعر تشارلز ان قلبه توقف عن النبض لحظة. غير ان اي صدمة يمكن ان يوحى بها وجهه، مرت دون ملاحظة في غمرة توق الخالة ترانتر الى سرد اخبارها: ذلك هو سبب غيابها عند وصول تشارلز. الواضح ان الطرد حدث في مساء اليوم السابق، وسمح للخاطئة ان تقضي ليلة واحدة اخيرة تحت سقف منزل مارلبورو. وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي حضر حمال لنقل حاجياتها، وصدرت اليه التعليمات بأخذها الى وايت لاين. وهنا شحب وجه تشارلز تماماً، الا ان الخالة ترانتر هوّنت من مخاوفه بجملتها التالية.

- اي مرأب الحافلات كما تعلم.

كانت الحافلات المتجهة من دورتشستر الى اكستر لا تسلك التل المنحدر صوب بلدة لايم، بل كان ينبغي انتظارها عند تقاطع الطرق على بعد اربعة اميال من الطريق الرئيس الى جهة الغرب.

- الا ان السيدة هانيكوت تكلمت الى الرجل. وكان الرجل في منتهى الثقة

ان الانسة وودراف ليست هناك. وقالت الخادمة انها رحلت في وقت مبكر من الفجر ولم تعط تعليمات سوى التي تخص حاجياتها.

- منذ ذلك الوقت؟

- لم يعد لها اثر.
- هل التقيت القس؟
- لا. غير ان الانسة تريمبل تؤكد لي انه ذهب الى منزل مارلبورو قبل ظهر اليوم، واخبروه ان السيدة بولتيني ليست على ما يرام. فتحدث الى السيدة فيرلي وكانت معلوماً لا تزيد عن ان موضوعا شائنا طرق سمع السيدة بولتيني وقد صدمت صدمة عنيفة وانزعجت...
- وهنا تدخلت السيدة ترانتر الطيبة وهي حزينة على ما يبدو لجهلها الامر ولاختفاء سارة والتمست عيون ايرنستينا وتشارلز.
- ما هو؟ ما هو؟
- ما كان يجدر ان تعمل في منزل مارلبورو. فذلك يشبه تقديم حمل الى احد الذئاب.
- نظرت ايرنستينا الى تشارلز وهي تنشد توكيدا لرأيها. غير انه التفت الى السيدة ترانتر وهو اقل هدوءاً بكثير مما كان يبدو عليه.
- ليس هناك خطر من...
- هذا ما نخشاه جميعاً. لقد ارسل القس رجالاً بحثاً عنها على طول الطريق الممتد الى تشارماوث لأنها تسير هناك فوق الجرف؟
- ولم...
- ولم يجدوا شيئاً.
- ألم تذكرى انها اشتغلت يوماً ما عند...
- لقد ارسلوا من يبحث عنها هناك، لكن بلا طائل.
- لم يستدع غروغان الى بيت مارلبورو؟
- استخدم هذه الطريقة في تقديم الاسم استخداماً ذكياً والتفت الى ايرنستينا.
- لقد اتى على ذكرها في تلك الامسية عندما احتسنا المشروبات، انني اعرف انه مهتم بوضعها.
- شاهدته الانسة تريمبل يتحدث الى القس في الساعة السابعة. وقالت انه بدا في منتهى القلق. الغضب. تلك هي كلمتها.

كانت الانسة تريمبل تدير محلا لبيع الحلبي النسائية الصغيرة في الجزء الادنى من شارع برود، لهذا كان موقعها يمثل مركز المعلومات العام في المدينة. حاول وجه الخالة ترانتر اللطيف ان يحقق المستحيل، الا انه ظهر قاسيا تماما.

- لن اذهب لزيارة السيدة بولتيني مهما كانت شدة مرضها.

غطت ايرنستينا وجهها بكلتا يديها.

- اوه، يا له من يوم قاسٍ!

حرق تشارلز بالسيدتين.

- ربما يتعين عليّ زيارة غروغان.

- اوه يا تشارلز - ماذا في وسعك ان تفعل؟ هناك ما يكفي من الرجال

للبحث.

لم يكن ذلك الشيء في ذهن تشارلز مؤكدا. وخمن ان طرد سارة لم يكن عدم الصلة بتجوالها في الجرف، من الطبيعي ان رعبه تمثل في احتمال ان يكون قد شاهدها شخص ما هناك بصحبته. وقف في مكانه وهو يعاني من تردده. لا بد ان يكتشف الى اي مدى اصبح سبب طردها معروفا. وفجأة وجد ان جو حجرة الجلوس الصغيرة لا يطاق. ينبغي له ان يكون وحيدا. لا بد له من التفكير في ما سيفعله. فاذا كانت سارة ما تزال على قيد الحياة - من يدري اي قرار متهور اتخذته في ليلة يأسها في حين كان ينعم بنوم هادئ في فندقه باكستر؟ - لكن اذا كانت ما تزال على قيد الحياة فانه يعرف اين هي. وقد عذبه شعوره انه الشخص الوحيد في لايم الذي يعرف ذلك، الا انه على الرغم من ذلك لا يملك الجرأة للكشف عن معلوماته.

بعد مرور بضع دقائق، كان يخطو خطوات واسعة اسفل التل المؤدي الى وايت لاين. وكان الهواء عليلا، غير ان السماء ملبدة بالغيوم. ومسحت اصابع الهواء الرطب وجنتيه. ثمة رعد في عرض البحر، وفي قلبه ايضا.

اوه ايها اللورد الحبيب، اي حسرات هذه،
من اجل امرأة لن تكون لك ابدا؟

تينيسون: مود 1855

كان هدفه العاجل في ارسال سام حاملا رسالة الى الطبيب الايرلندي. وصاغ عباراتها وهو يسير - «السيدة ترانتر في غاية القلق» «اذا تطلب تشكيل فريق بحث اي نفقات...» او على وجه افضل، «اذا كان في وسعي تقليم اي عون، مالي او غير مالي» - طافت في ذهنه مثل هذه العبارات. وصاح بسائس الخيل غير الاصم وهو يدخل الفندق ان يأتي بسام من المشرب ويرسله اليه في الطابق العلوي. الا انه ما ان دخل حجرة المعيشة حتى تلقى صدمته الثالثة في ذلك اليوم الحافل بالاحداث.

كانت ثمة رسالة فوق المنضدة الدائرية، مختومة بشمع اسود. اما الخط فهو غير مألوف لديه: «السيد - سميثسون في وايت واين» فتح الرسالة، فوجد انها تخلو من العنوان ومن التوقيع.

«اتوسل اليك ان تلقاني للمرة الاخيرة. سأنتظر بعد ظهر هذا اليوم وصباح الغد. واذا لم تأت فلن ازعجك ثانية ابدا».

قرأ تشارلز الرسالة مرتين، ثلاث مرات، ثم أمعن النظر في الجو المظلم. شعر بالغضب لأنها تعرض على هذا النحو الطائش سمعته للخطر، غير انه ارتاح لهذا الدليل على انها ما تزال على قيد الحياة. ثم غضب ثانية للتهديد الضمني في العبارة الاخيرة. دخل سام الغرفة وهو يمسح فمه بمنديل، وهي اشارة غير ذكية على انه لم يكمل طعام عشاءه. ولما كان غذاؤه يتكون من زجاجة شراب وثلاث قطع من البسكويت فانه يمكن ان يغفر له. الا انه شاهد بلمحة نظر ان سيده لم يكن في حالة اسوأ من هذه الحالة منذ مغادرته وينزيات.

- اذهب واعرف من الذي ترك هذه الرسالة.

- نعم يا سيد تشارلز.

انصرف سام الا انه لم يسر سوى ست خطوات حتى كان تشارلز يقف قرب الباب.

- واطلب من الشخص الذي استلمها ان يصعد الي.

- نعم يا سيد تشارلز.

عاد السيد الى حجرته...

التفت عندما دخل سام بصحبة سائس الخيل الذي تكلم تشارلز معه قبل قليل. لقد اتى صبي بالرسالة في الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم، والسائس يعرف الصبي من وجهه، غير انه لا يعرف اسمه. لا، لم يقل من الذي ارسله. وسرعان ما طرده تشارلز وهو نافذ الصبر، ثم سأل سام بنفاد صبر عن الشيء الذي يحدق اليه.

- لا احدثق الى اي شيء يا سيد تشارلز.

- حسنا جدا. قل لهم ان يرسلوا عشائي الى الطابق العلوي. اي شيء، اي

شيء.

- نعم يا سيد تشارلز.

- ولا اريد اي ازعاج ثانية. في وسعك ان تضع حاجياتي الان.

قصد سام حجرة النوم المجاورة لحجرة الجلوس في حين وقف تشارلز بجانب النافذة. وبينما كان ينظر الى الاسفل شاهد في الضوء المنبعث من نوافذ الحانة صبيا صغيرا يعدو صوب الجهة الاخرى من الشارع، ومن ثم يعبره من تحت نافذته، ويستواري عن الانظار. واوشك ان يرمي حزامه، ثم صرخ اذ حدس ان هذا هو حامل الرسالة ثانية. وقف في حمى من الحرج، كان هناك توقف طويل يكفيه لكي يبدأ بالتصديق انه كان على خطأ. خرج سام من حجرة النوم، وسار صوب الباب. وفي تلك اللحظة سمع صوت طرق. ففتح سام الباب.

كان الطارق هو سائس الخيل، وقد ارتسمت ابتسامة غبية على وجهه وكان يحمل رسالة في يده.

- انه نفس الصبي يا سيدي. وقد سألته فأجاب انها المرأة نفسها كما في

السابق يا سيدي، الا انه لا يعرف اسمها. اننا ندعوها...

- نعم، نعم. ناولني الرسالة.

أخذ سام الرسالة وناولها لشارلز. وكانت ثمة عجرفة صامته، معرفة تتسم بالسخرية، من تحت قناع خدمته. أشار بإهمامه إلى السائس، وغمز له غمزة سرية فانسحب. وأوشك سام أن يلحق به، غير أن تشارلز ناداه. وتوقف وهو يبحث عن عبارة دقيقة، مقبولة بما فيه الكفاية.

- لقد ورطت نفسي يا سام في قضية امرأة سيئة الحظ هنا. لقد تمنيت... أقصد، لا أزال أتمنى أن يكون الموضوع بعيدا عن السيدة ترانتر. فهمت؟

- تماما يا سيد تشارلز.

- أرجو أن أتمكن من تحديد الشخص الذي يكون في موضع مناسب أكثر لقدركها. بعد ذلك سأخبر السيدة ترانتر. إنها مفاجأة صغيرة. مكافأة صغيرة لحسن ضيافة السيدة ترانتر. إنها مهمة بها.

تظاهر سام بسلوك وصفه تشارلز لنفسه بسام الخادم الطاعة العمياء لأوامر سيده. وكان ذلك بعيدا جدا عن سلوك سام الحقيقي حتى أن تشارلز أغري بالاستمرار في تعثره وتخطئه.

- إذا لن نتحدث عن هذا الموضوع لأي شخص على الرغم من أنه علم الأهمية.

- لا يا سيد تشارلز.

بدأ سام كأنه تعرض لصدمة تشبه صدمة اتهام راعي الأبرشية بالمقامرة. التفت تشارلز صوب النافذة، وتلقى دون وعي نظرة من سام، استمدت تأثيرها الأكبر من زم شفتيه على نحو غريب وإيماءة من رأسه، ثم فتح الرسالة الثانية بينما أغلق الباب من وراء الخادم.

«انتظرتك طيلة النهار. أرجوك، أنا امرأة تتوسل اليك متذلة أن تساعدني في بأسها، وسأقضي الليل ابتهل من أجل حضورك. وسأكون منذ الفجر عند مستودع البيت الصغير قرب البحر، والذي يوصل إليه باول ممر إلى اليسار بعد الحقل».

كانت الرسالة مفتوحة بسبب الافتقار إلى الشمع من غير ريب وهذا ما يفسر كتابتها بلغة فرنسية مميزة لمربية. كانت مكتوبة بالقلم الرصاص، على نحو عاجل

قرب باب احد الاكواخ او في الجرف - اذ كان تشارلز يعرف انها التجأت الى ذلك المكان. ولا بد ان الصبي هو ابن احد الصيادين الفقراء من منطقة الكوب - فهناك طريق يهبط من الجرف الى الكوب، يتحاشى ضرورة المرور بالمدينة نفسها، لكن يا للتهور الذي ينطوي عليه هذا الاجراء، يا للمغامرة!

الفرنسيون! فارغون!

دعك تشارلز الورقة في قبضته في حين اعلن وميض البرق النائي عن اقتراب العاصفة، وفي حين كان ينظر من وراء النافذة، تطايرت اول قطرات المطر الثقيلة والبطيئة على زجاج النافذة، وتساءل: اين هي؟ فلاحته له صورتها وهي تعدو مبللة تحت البرق والمطر وجذبتة بعيدا عن قلقه الحاد الموجه الى ذاته. كان هذا لا يحتمل! بعد يوم كهذا!

انني ابالغ في استعمال علامات التعجب، لكن بينما كان تشارلز يخطو جيئة وذهابا، تدفقت الافكار وردود الافعال ازاء ردود الافعال تدفقا غاضبا في رأسه. توقف قرب النافذة الناتئة وحدق الى شارع رود. وفجأة تذكر ما قالته عن اشجار الشوك التي تسير فيه. استدار وانشب اظافره في صدغيه، ثم دخل حجرة النوم ونظر الى وجهه في المرآة.

الا انه عرف جيدا انه كان يقظا. وظل يقول مخاطبا نفسه: لا بد من عمل شيء ما، لا بد ان اتصرف. وانتابه نوع من الغضب لضعفه - اصرار هائل على ان يبدي ما يشير الى انه اكثر من مجرد صدفة متحجرة يتقاذفها التيار، وان في مستطاعه ان يوجه ضربته ضد السحب السود التي تغلفه. لا بد له من الحديث الى شخص ما، لا بد ان يكتشف عن روحه.

عاد ثانية الى حجرة الجلوس وجذب السلسلة الصغيرة المتدلية من ثريا الغاز، فتحول الوهج الاخضر الشاحب الى وهج ابيض كما جذب بقوة حبل الجرس القريب من الباب. ولما حضر النادل العجوز ارسله تشارلز لطلب مزيج من شراب عصير التفاح والبراندي الذي كان من شأنه ان يترك العديد من الفكتوريين فاقدى الوعي.

لم تمض اكثر من خمس دقائق، حتى توقف سام مندهشا وهو يحمل صينية العشاء في منتصف السلام لمراى سيده وقد احمرت وجنتاه وهو يهبط للقائه مرتديا

ثوبه الخارجي المصنوع في بلدة انفرنس⁽⁸⁶⁾. توقف تشارلز على بعد درجتين منه، ورفع الغطاء الذي يغطي المرق البني، لحم الضأن والبطايا المسلوقة ثم واصل هبوطه السلام دون ان ينبس ببنت شفة.

- سيد تشارلز؟

- تناول العشاء انت.

وذهب السيد - بخلاف سام الذي ظل واقفا في مكانه ولسانه يلمس وجنته اليسرى وعينه ثابتان فوق حاجز السلام الى جانبه.

(86) انفرنس: بلدة اسكتلندية تحيط بها التلال من ثلاثة جوانب وتعد نقطة التقاء الطرق الممتدة بين منطقة الهايلاندز والمنطقتين الجنوبية والشرقية من اسكتلندا. (المترجم)

دعوني اخبركم يا اصدقائي ان الشيء كله يعتمد

على حق اقليمي موغل في القدم

لويس كارول: بحثا عن سنارك 1876

كان اثر ماري في ذهن الشاب اللندني اثرا متصلا. لقد احب ماري لذاتها، شأنه في ذلك شأن اي شاب اعتيادي يمتلك مثل احساسه النابضة بالحياة. غير انه احبها ايضا للدور الذي ادته في احلامه - وهو ليس ابدا ذلك النوع من الاداء الذي تؤديه الفتيات في احلام الشبان في عصرنا الذي لم يعد فيه خيال او محرمات. ففي معظم الاحيان، كان يشاهدها وراء النضد في محل احد الرجال. وكان الزبائن البارزون من الذكور في جميع انحاء لندن يأوون الى ذلك الوجه الشهواني كالمسحورين. وكانت الشوارع في الخارج معتمة بسبب قبعاتهم المرتفعة، اصابهم الصمم بفعل عجالات عرباتهم.

كان يدرك تمام الادراك ان المسألة لا تعدو اكثر من حلم. غير ان ماري، اذا جاز التعبير، كانت تؤثر هذه الحقيقة. والاكثر من هذا، كانت تزيد من حدة ملامح الشيطان المخيفة الواقف في طريق تحقيقه. اسمه؟

ربما كان عدو الجنس البشري هذا الموجود في كل مكان هو الذي ظل سام يحدق به في حجرة جلوس سيده، حيث استرخى على راحته - بعد ان شاهد تشارلز اولا وهو يتوارى عن الانظار بأمان في ادنى شارع برود، وقد زم شفثيه ثانية على نحو غامض - وهو يتلهى بعشائه الثاني: ملعقة مليئة او ملعقتان بالمرق قطع مختارة من لحم الضأن، اذ كان سام يملك كل غرائز الشخص الرفيع المنزلة على الرغم من عدم امتلاكه ثرواته. غير انه يحدق الان ثانية في الفضاء من وراء قطعة من اللحم مغمسة بمرق براعم الكبر الخضراء المخللة ولا يزال يمسك بها بشوكتة على الرغم من عدم احساسه بسحرها.

ان كلمة مال Mal - اذا كان في وسعي ان اضيف شيئا الى ذخيرتك من المعلومات غير المفيدة - هي كلمة انكليزية قديمة مأخوذة عن اللغة النرويجية القديمة

وجاءت اليينا عن طريق الفاينكنغ. وكانت تعني في الاساس كلام، ولكن بما ان الوقت الوحيد الذي ذهب فيه الفاينكنغ الى النشاط النسوي كان يتمثل في طلب شيء بقوة الفأس، فقد اصبح معناها ضريبة او دفع الجزية، وقد ذهب رهط من الفاينكنغ الى الجنوب، وانشأوا المافيا في صقلية، الا ان رهطا اخر - وكانت كلمة مال تلفظ انذاك ميل - انهزم في القصف والعردة على الحدود الاسكتلندية. واذا ما اراد شخص حماية محصوله او عذرية ابنته، فانه يدفع الميل لرؤوساء القبائل المجاورة. واخذ الضحايا يطلقون على ذلك وبمرور الزمن كلمة الضريبة السوداء black mail اي الابتزاز.

من المؤكد ان سام كان يفكر في معنى الكلمة ان لم يكن مستغرقا في تأملات بأصل الكلمة وتاريخها. فقد خمن على الفور من هي المرأة السيئة الحظ. فحادثة من مثل طرد امرأة الضابط الفرنسي تعد مادة ممتعة لا يمكن لها الا ان تدور على ألسنة الجميع في بلدة لايم في ذلك اليوم. وقد سمع سام قبل الان مصادفة محادثة في المشرب عندما جلس ليتناول عشاءه الاول الذي لم يكمله. وكان يعرف من هي سارة لأن ماري اتت على ذكرها امامه ذات يوم. وكان يعرف ايضا سيده وتصرفاته؛ لم يكن على طبيعته، بل كان قد عزم على امر ما، وهو في طريقه الى مكان ما وليس الى بيت السيدة ترانتر. وضع سام الشوكة جانبا وفيها لقمته، وبدأ يضرب جانب انفه ضربا خفيفا. وهي علامة لم تكن غير مألوفة في المراهنات في نيوماركت عندما يشم رجل مقوس الساقين رائحة جرد مقنع بقناع حصان السباق. غير انني اخشى ان الجرد هنا هو سام وان الشيء الذي اخذ يشم رائحته هو سفينة غارقة.

كان الناس في الطابق السفلي في وينزيات يعرفون جيدا ماذا يحدث. فقد خرج العم لمضايقه ابن اخيه. واحتقروا تشارلز لعدم زيارته كثيرا سير روبرت وتملقه له كلما سنحت الفرصة، وكان دافعهم في ذلك هو الاحترام الفطري الذي تشعر به الطبقة العاملة الريفية ازاء الرعاية الزوجية. لقد كان ينظر الى الخدم في تلك الايام على انهم افضل بقليل من الاناث وغالبا ما نسي اسيادهم ان لديهم أذانا وعقولا. فالحديث الساخن بين الرجل العجوز ووريثه لم يمضِ دون ملاحظة او مناقشة. وعلى الرغم من وجود ميل بين النساء الشابات للاحساس بالشفقة على

تشارلز الوسيم، فإن القسم الاكثر حكمة تبني موقفا يشبه موقف النحلة من الجراداة الكسول. لقد اشتغلوا طيلة حياتهم من اجل كسب قوتهم، وكانوا سعداء لرؤية تشارلز يتلقى العقاب بسبب كسله.

يضاف الى ذلك ان السيدة تومكنز التي كانت مغامرة من الطبقة الوسطى العليا بالغت مبالغة ذكية من اجل القوز بالحظوة عند مدبرة المنزل وكبير الخدم وهو امر ارتابت فيه كثيرا ايرنستينا. وقد وضع هذان البارزان علامة الموافقة - او الموافقة على الزواج - على الارملة المكتنزة المسرفة في التعبير عن عواطفها التي اوضحت لمدبرة المنزل عند مشاهدتها طقم الاثاث والمفروشات غير المستعملة في الجناح الشرقي الذي سبق ذكره، ان غرف هذا الجناح من شأنها ان تغدو مناسبة تماما للاطفال. صحيح ان السيدة تومكنز لديها ولد واحد وابنتان من زواجها الاول، الا انها كانت - برأي مدبرة المنزل الذي نقلته لكبير الخدم السيد بنسون - تصلح تماما للانجاب ثانية.

- قد تكون بنات يا سيدة تروتر.

- انها مجربة يا سيد بنسون، تذكر ما اقوله لك الان. انها مجربة.

رشف كبير الخدم شايه، واضاف.

- وتمنح اكرامية جيدة وهو ما لم يفعله تشارلز وهو احد افراد الاسرة.

تناهى الى سمع سام هذا الموضوع في حين كان ينتظر عودة تشارلز في غرفة الخدم. لم يكن الموضوع ممتعا بخصيصته او ممتعا بالقدر الذي كان يتعين فيه على سام، بوصفه خادما الجراداة، ان يسهم في جزء من الحكم العام الصادر بحقه. ولم يكن هذا كله عديم الصلة بما يشبه الخيط الثاني الذي احتفظ به سام دوما لقوسه: انه حلم لا بديل له رأى فيه نفسه في الموقع الرفيع نفسه في وينزيات الذي يشغله السيد بنسون الان. بل انه زرع هذه البذرة مصادفة في ذهن ماري وهو يدرك تماما انها ستثمر لو شاء ذلك، اذ ليس من المستحب ان يشاهد بذرة شخص ما رقيقة وقد اقتلعت اقتلاعا وحشيا حتى لو لم تكن البذرة الاثيرة.

لم يقل تشارلز كلمة واحدة لسام عندما غادرا وينزيات. لهذا فإن سام لا يعرف رسميا اي شيء عن اماله القائمة. غير ان وجه سيده القائم كان عمليا يتسم بالمعرفة والدراية.

والان هذا.

اخيرا اكل سام قطعة الضأن المتحجرة ومضغها وابتلعها. وكانت عيناه تنظران طيلة الوقت الى المستقبل.

لم تكن مقابلة تشارلز عمه مقابلة عاصفة لانهما شعرا بالذنب - العم، بسبب ما كان يفعله، وابن الاخ، بسبب ما اخفق في تحقيقه في الماضي. وكان رد فعل تشارلز للخبر الذي نقل اليه على نحو قاطع ولكن دون ان تلتقي فيه النظرات، مؤدبا تماما بعد الصدمة الباردة الاولى.

- لا استطيع الا ان اهنتك يا سيدي، واتمنى لك كل السعادة.

اما عمه الذي جاء اليه في حجرة الاستقبال، فقد اعرض بوجهه صوب النافذة كأنما ليستمد الشجاعة من فداده الخضراء. وشرح شرحا مختصرا عواطفه. لقد رفض اول الامر: وقد حدث ذلك قبل ثلاثة اسابيع، الا انه ليس بالرجل الذي يولي الادبار لدى اول رفض. فقد شعر بوجود تردد محدد في صوت السيدة. وقبل اسبوع واحد من سفره بالقطار الى لندن والعودة ثانية كانت العقبة قد ازيلت بنجاح. «قالت لا، ثانية يا تشارلز، الا انها كانت تبكي. وعرفت انني انتهيت». من الواضح ان التفوه بكلمة نعم على نحو قاطع استغرق يومين او ثلاثة ايام اخرى.

- واذا ذاك يا ولدي العزيز، ادركت ضرورة مواجهتك. فانت اول شخص اخبره بالموضوع.

غير ان تشارلز تذكر انذاك تلك النظرة المشفقة من السيدة هوكنز العجوز؛ لا بد ان الخبر وصل الى الجميع الان في وينسزيات. وقد منح اسلوب سرد العم المختنق الى حد ما مللحة حبه الوقت لتشارلز كي يستوعب الصدمة. شعر انه كمن جلد واهين. الا انه لم يملك سوى دفاع واحد: ان يتقبل الامر بهدوء، ان يظهر الرجل الرزين ويخفي الصبي الثائر.

- انني اقدر دقتك يا عمي.

- لديك كل الحق في ان تسميني الاحمق العجوز الخرف. ولن سيفعل هذا كل

الجيران.

- الاختيارات الاخيرة هي الافضل دوما.

- انها امرأة لطيفة يا تشارلز، لا تشبه واحدة من آنساتك الرقيقات المعاصرات الملعونات.

فكر تشارلز في لحظة قاسية ان عبارته استخفاف بايرنستينا غير انها غير مقصودة. واسترسل عمه دون وعي.

- انها امرأة صريحة. يظن بعض الناس اليوم ان هذه الميزة تشير الى ان المرأة مهاجمة. الا انها ليست كذلك.

وهنا استعان بصورة من حديقته:

- مستقيمة مثل شجرة دردار.

- لم افترض لحظة واحدة انها يمكن ان تكون خلاف ذلك.

واذ ذاك نظر اليه العم نظرة ذكية، ومثلما لعب سام دور الخادم المطيع امام تشارلز، فإن تشارلز لعب أحيانا دور ابن الاخ الذي يحترم الرجل العجوز.

- فكرت انك قد تكون غاضبا على ان تكون...

كان على وشك ان يقول مثل سمكة باردة، الا انه سار ووضع ذراعه فوق كتف تشارلز، اذ حاول ان يبرر قراره باثارة الغضب ضد تشارلز - وقد كان رجلا رياضيا جيدا جدا لا يمكنه ان يغفل ان ذلك سوى تبرير وضع.

- اللعنة الان يا تشارلز. لا بد من ان اقول ان هذا الامر يحدث تغييرا في مستقبلك. ففي سني، الله يعلم...

اراد ان يقول ان العصفور المغرد غير انه رفض ذلك.

- لو حدث ذلك يا تشارلز، فاني احب ان تعلم انك لن تبقى دون ثروة بغض النظر عن نتائج الزواج. انا لا استطيع ان امنحك البيت الصغير، الا انني اؤكد ان في وسعك اخذه واعتباره ملكك طالما بقيت انت على قيد الحياة. واحب ان يكون هذا البيت هدية الزفاف لك ولايرنستينا اضافة الى تكاليف الترميمات الضرورية.

- هذا كرم لطيف منك. غير انني اعتقد اننا قررنا بشكل او بآخر ان نتقل الى بيت بيلغرافيا عندما ينتهي عقد الايجار.

- نعم، نعم، لكن لا بد لك من بيت في الريف. لن ادع هذا الموضوع يقف بيني وبينك يا تشارلز، ولسوف انهيه غدا لو ان...

تمكن تشارلز من انتزاع ابتسامة.

- لا تكن ساذجا. كان في مستطاعك ان تتزوج منذ سنين طويلة.

- هذا جائز. غير ان الحقيقة هي انني لم اتزوج.

سار بعصبية صوب الجدار، وعدل من وضع احدى الصور. ظل تشارلز صامتا، ربما شعر باستياء اقل لصدمة الخير من التفكير بحلمه المتهور في التملك عندما كان يتجه الى وينزيات. كان على الشيطان العجوز ان يكتب وصيته. غير ان ذلك من شأنه ان يكون جبنا عند الشيطان العجوز. وعاد من مكانه قرب اللوحة.

- انت شاب يا تشارلز، وقد قضيت نصف حياتك في السفر. ولا تعرف الى اي حد اشعر بالسأم بسبب الوحدة، الا انني اقضي نصف الوقت مفكرا انني اشبه بالميت.

همس تشارلز.

- ليس لدي فكرة...

- لا، لا، لا اقصد اتمامك، فأنت تعيش حياتك.

الا انه ظل يلوم تشارلز سرا، شأنه شأن العديد من الرجال الذين ليس لديهم اولاد، لتقصيره فيما كان يتوقع ان يفعله كل ابن: ان يكون مطيعا ومحبا. من شأن ابوة حقيقية قصيرة الامد ان تجعله يدرك انها حلم وموغل في عاطفيته.

- على اي حال، هناك اشياء لا تستطيع الا المرأة ان تقوم بها. كل الاشياء القديمة المعلقة على الجدران في هذه الغرفة الان. لاحظتها؟ لقد وصفتها السيدة تومكنز ذات يوم بانها كئيبة. اللعنة. انني اعمى. لقد كانت حقا كئيبة. هذا ما تفعله المرأة. انها تجعلك ترى ما موجود امامك تماما.

شعر تشارلز انه يريد تحت تأثير الاغراء ان يقترح ان النظارات تؤدي نفس الغرض وعلى نحو اخص. بيد انه احنى رأسه علامة الادراك، في حين لوح سير روبرت متملقا.

- ما رأيك بهذه الاشياء الجديدة؟

اضطر تشارلز عندئذ الى ان يتسم ابتسامة عريضة. لقد كانت احكام عمه الجمالية محددة منذ زمن طويل بقضايا من مثل عمق الجزء العلوي من كاهل الفرس

وتفوق جو مانتون على كل صناع البنادق المعروفين على امتداد التاريخ. وكان سؤاله يشبه سؤالاً يطرحه أحد القتلة، ويطلب رأيه في اغاني الاطفال.

- تطور كبير.

- صحيح تماماً. هذا ما يقوله الجميع.

عض تشارلز شفته.

- متى سألتقي السيدة؟

- في الحقيقة، انا اوشك ان اتطرق الى هذا الامر. انها تواقه الى التعرف اليك.

هناك مسألة في منتهى الدقة يا تشارلز... حسناً... كيف اعبر لك عنها؟

- تحديد امكانياتي المادية؟

- صحيح تماماً. لقد اعترفت في الاسبوع الماضي انها رفضتني اول الامر لهذا

السبب.

ادرك تشارلز ان هذا الامر يفترض فيه ان يكون اطراء، وابدى دهشة لطيفة.

- غير انني اكدت لها انك اخترت رفيقة ممتازة، وان من شأنك ان تدرك وان

توافق على خيارى لشريكى... للبقية الباقية من عمري.

- لم تجب عن سؤالى بعد يا عمي.

ظهر السير روبرت خجلاً الى حد ما.

- انها تزور اسرتها في مقاطعة يوركشاير، فهي، كما تعلم، من عائلة داووينيز.

- حقاً!

- سألتحق بها يوم غد.

- اه.

- وفكرت ان افضل طريقة لانهاء الموضوع هي الصراحة التامة. الا انها تواقه

جدا للقائك.

تردد عمه، ثم مد يده إلى جيبه، خجلاً على نحو ساذج، واخرج علبة صغيرة.

- اعطتني هذه العلبة لك الاسبوع الماضي.

حدّق تشارلز بالعلبة المعدنية النفيسة ذات الاطار الذهبي والى اصابع عمه

الضخمة، كانت العلبة تحتوي على تذكّار رسم السيدة تومكنز، وقد بدت امرأة

شابة، مكنتزة الشفتين، وذات عينيّن حازمتين - لا تفتقران الى الجاذبية حتى

لشخص مثل تشارلز. ومما يثير الغرابة، كان ثمة شبه قليل بوجه سارة، وهكذا اضيف بعد جديد اخر لاحساس تشارلز بالذل والحرمان. لقد كانت سارة امرأة تفتقر الى الخبرة العميقة، اما هذه المرأة فهي تعرف العالم كله. الا ان كل واحدة منهما وبأسلوبها المختلف تقف على النقيض من قطيع النساء الرقيقات عامة، وهو امر كان عمه محقا فيه. ففي لحظة شعر انه اشبه بقائد جيش ضعيف يدرس ترتيبات العدو القوية. وتوقع بوضوح شديد بنتيجة المواجهة بين ايرنستينا وسيدة سميثسون مستقبلا، فوجد انها هزيمة منكرة.

- ادرك ان لدي سببا اخر لتهنتك.
- انها امرأة رائعة، امرأة ممتازة. جديرة ان ينتظرها المرء يا تشارلز.
- لكزه عمه في عظام صدره.
- ستكون غيورا. انتظر وسترى.

حرق ثانية بالعلبة المعدنية الصغيرة، واغلقها على نحو مهيب، ومن ثم وضعها في جيبه. وبحدة جعل تشارلز يرافقه الى الاصطبلات - كأنه يريد بذلك ان يعادل تملكه - لمشاهدة فرسه الاخيرة الاستيلادية التي اشتراها بمبلغ يقل مئة جنيه عما تستحقه وقد بدت هذه الفرس غير واعية تماما، الا انها واضحة توزاي في ذهنه مكتسباته الاخرى.

كانا سيدين مهذين وحرصا على تفادي الخوض في مناقشة الموضوع الذي شغل الحيز الاكبر من اهتمامهما مناقشة مستفيضة ان لم يكن تفادي الاشارة اليه تماما (اذ كان السير روبرت محظوظا دوما لا يترك فرصة الا وتحدث فيها). غير ان تشارلز اصر على وجوب الرجوع الى بلدة لايم وخطيبته في ذلك المساء. اما عمه فلم يعترض اعتراضا يذكر الان بعد ان كان في الايام الخوالي يصاب بالوجوم عند تركه على هذه الحال. ووعده تشارلز ان يناقش موضوع البيت الصغير مع ايرنستينا وان يحضرها معه للتعرف الى عروسة المستقبل حالما يتمكن من ترتيب الامور ترتيبا ملائما. غير ان دفء عمه في الدقيقة الاخيرة ومصافحته اياه لم يستطيعا اخفاء الحقيقة بأن الرجل العجوز قد استراح لرؤيته وهو ينصرف.

استطاعت الكبرياء ان تثبت تشارلز، وتدعمه في غضون الساعات الثلاث او الاربع من الزيارة، غير ان عودته كانت مسألة حزينة. اذ بدا العشب والمراعي

والاسيجة والبساتين الخلابة تنساب من بين اصابعه مثلما كانت تناسب من امام ناظره انسيابا بطيئا. وشعر انه لا يرغب في رؤية وينزيات ثانية. كما غدت سماء الصباح الزرقاء مليدة بستار عالٍ من الغيوم، منذرة بزوابع رعدية سمعناها توا في بلدة لائم وسرعان ما اخذ ذهنه يغور عميقا في مناخ مشابه من الاستيطان الكئيب. كان هذا الاستيطان موجهها الى حد كبير ضد ايرنستينا. فقد كان يعلم ان عمه لم ترقه تصرفاتها التافهة، الصعبة الارضاء، وافتقارها التام تقريبا الى الاهتمام بالحياة الريفية. ولا بد انها ظهرت لرجل وهب الكثير من حياته لتربية الحيوانات مدخلا جديدا بائسا لماشية رفيعة من مثل اسرة سميثسون. ثم ان أحد الروابط التي كانت تربط دوما بين العم وابن اخيه تمثلت في العزوبية - ربما فتحت سعادة تشارلز عيني السير روبرت قليلا. واذا ما تزوج هو فلم لا اتزوج انا؟ ثم هناك الشيء الوحيد الذي استحسنه العم في ايرنستينا استحسانا كاملا: مهر زواجها الهائل. الا ان ذلك هو السبب نفسه الذي سمح له بتجريد تشارلز من الملكية بضمير مرتاح.

غير ان تشارلز قبل كل شيء، شعر انه في وضع غير مريح من الدونية بخصوص ايرنستينا. لقد كان دخله من املاك والده يكفي احتياجاته دوما، بيد انه لم يزد الرأسمال. وبوصفه سيد وينزيات مستقبلا، ففي مستطاعه ان ينظر الى نفسه على انه يساوي العروس في ثروتها... وبما انه صاحب الدخل، فلا بد ان يغدو عائلة مالية عليها. فكره هذا الشيء، واصبح اصعب على الارضاء من معظم شبان طبقته وسنه. لقد كان البحث عن المهر عندهم (في ذلك الوقت، اصبح الدولار مقبولا مثل الجنيه الاسترليني) مسعى شريفا شأن صيد الثعالب او لعب القمار. ربما كان ذلك هو السبب: شعر بالاسف على نفسه الا انه عرف ان القليلين من شأنهم ان يشاطروه مشاعره. بل ان ذلك زاد من استيائه بأن الظروف لم تجعل ظلم عمه اكبر من ذلك: ولو انه صرف وقتا اطول في وينزيات، او لنفترض انه لم يلتق ايرنستينا في المقام الاول...

غير ان ايرنستينا، وضرورة اظهار الصبر على الشدائد، كانا اول شيء يخرجها من بؤسه في ذلك النهار.

كم جلست متأملا
 شبابي الغريب المشوه،
 باحثا بلا جدوى في كل خزائني،
 عن شعور واحد يعتمد على الصدق...
 ثابت مثل ثبات فؤادي،
 متذبذب كما ينبغي ان يكون،
 فانه حسن للآخرين ولي
 جاف مثل غبار الصيف.
 الانفعالات تأتي، والفعل والكلام
 ينسابان انسيابا حرا الى الامام: - لكن لا،
 لا هي ولا اي شيء اخر بوسعها ان تصل إلى
 العالم المدفون في الاعماق

اي. اج. كلف: قصيدة 1840

فتحت مدبرة البيت الباب. فقد كان الطبيب في غرفة المعاينة، على ما يبدو؛ لكن
 اذا رغب تشارلز في الانتظار في الطابق العلوي... وهكذا، سرعان ما وجد نفسه بعد
 ان نزع قبعته ورداءه الخارجي الفضفاض في تلك الغرفة نفسها التي احتسى فيها
 المشروبات المفضلة واعلن انه من انصار... كانت النار تضطرم في الموقد وكان الدليل
 على عشاء الطبيب المتروك موضوعا فوق منضدة دائرية، والذي اسرعت المدبرة في
 نقله، قرب النافذة المطلة على البحر. وسمع تشارلز على الفور صوت اقدام على
 السلام. تقدم بعدها غروغان موحيا بالدفء الى داخل الغرفة. ماذا يده.

- تسرني رؤيتك يا سميثسون. تلك المرأة الغبية الان - ألم تعطك شيئا لمقاومة

المطر؟

- شكرا لك.

كان يوشك ان يرفض الشراب المفضل، الا انه غير من رأيه. لما اصبح الكأس

في يده، افصح عن هدفه.

- لدي موضوع سري وشخصي اريد مناقشته. انني احتاج الى نصيحتك.
وهنا ظهر بريق خافت في عيني الطبيب. لقد سبق ان قدم اليه شبان كثيرون مهذبون قبل زواجهم بوقت قصير. بعض الحالات كانت السيلا، حالات اقل من السفلس؛ أحيانا لم يكن هناك سوى الخوف، الخوف من الاستمناء. وكانت ثمة نظرية شائعة في ذلك الوقت تزعم ان الاستمناء يؤدي الى العنة، غير ان ذلك ليس سوى جهل. فقبل عام واحد لا اكثر حضر زوج شاب بائس، بلا اولاد، لرؤية الطبيب غروغان الذي اضطر ان يفسر له ان الحياة الجديدة لا تحدث ولا تولد من خلال السرة.

- اتعلم؟ حسنا، لست متأكدا من وجود بقية من النصائح الطبية لدي - لقد اعطيت كمية كبيرة منها اليوم. اساسا فيما يخص ما ينبغي عمله بشأن تلك المتعصبة العجوز اللعينة في منزل مارلبورو. اسمعت ما الذي اقدمت عليه؟

- هذا هو حقا الموضوع الذي ارغب في التحدث عنه واياك.
اخذ الطبيب شهيقا ينم عن الارتياح، وقفز ثانية الى الاستنتاج الخاطئ.
- آه، من المؤكد ان السيدة ترانتر قلقة. ابلغها نيابة عني اننا سنفعل كل ما في وسعنا. هناك مجموعة من الناس تبحث عنها. وقد عرضت مبلغ خمسة باوندات للرجل الذي يأتي بها.
ازدادت المرارة في صوته.

-... او يعثر على جثة المخلوقة البائسة.
- انها على قيد الحياة. لقد تلقيت رسالة منها قبل قليل.
اطرق تشارلز امام نظرة الطبيب التي تنم عن الدهشة. ثم وجه كلامه اول الامر الى كأسه، ومن ثم شرع يقول الحقيقة عن لقاءاته بسارة - اي، كل الحقيقة تقريبا، لأنه ترك مشاعره الخاصة ولم يأتِ على ذكرها. وتمكن، او حاول، ان يلقي جزءا من اللوم على الطبيب غروغان وحديثهما السابق، معطيا لنفسه نوعا من المكانية العلمية لم يفشل الرجل القصير القامة والذكي من ملاحظتها. ان الاطباء الكبار في السن والقساوسة الكبار في السن يشتركون في شيء واحد: فهم يقدرّون على اكتشاف الكذب او الغش، سواء كان ظاهرا او يمارس، كما هو في حالة تشارلز، بدافع الحرج. وبينما هو

مسترسل في اعترافه، بدا طرف انف الطبيب غروغان يتنفض على نحو مجازي. وقد اشر هذا الانتفاض اللامرئي شيئا يشبه تماما اسلوب سام في زم شفتيه. لم يظهر الطبيب اي اشارة تدل على شكوكه. وبين الفينة والفينة طرح بعض الاسئلة، الا انه ترك تشارلز عموما يتحدث حديثا متعثرا على نحو متزايد حتى نهاية قصته. ثم نهض واقفا.

- حسنا. لنفعل الاهم قبل المهم. لا بد لنا من استدعاء المساكين. الباحثين عنها اولاً.

كان الرعد الان اقرب بكثير من السابق وعلى الرغم من ان الستائر كانت مسدلة، فقد اهتز وميض البرق الابيض في انسجتها من وراء ظهر تشارلز.

- لقد اتيت بأسرع ما استطيع.

- نعم. لست موضع لوم في ذلك. الان دعني افكر.

جلس الطبيب من وراء مكتب صغير في مؤخر الغرفة. مرت لحظات لم يسمع فيها اي صوت سوى صوت قلمه الحبر وهو يكتب به كتابة سريعة. ثم قرأ بعد ذلك ما كتبه امام تشارلز.

«عزيزتي فورسايت. وصلني خبر في هذه اللحظة يفيد ان الانسة وودراف في امان. وهي لا ترغب في الافصاح عن مكان وجودها، وفي وسعك ان تهدأ بالا. ارجو ان تصلني اخبار اخرى عنها يوم غد. ارجو اعطاء هذه المرفقات الى مجموعة الباحثين لدى عودتهم».

ثم قال لتشارلز:

- ايكفى هذا؟

- ممتاز. سوى ان المرفقات يجب ان تكون من عندي.

ثم اخرج محفظة صغيرة مزركشة من صنع ايرنستينا، ووضع ثلاثة جنيهاات استرلينية ذهبية فوق المكتب ذي الغطاء الاخضر الى جانب غروغان. فدفع هذا اثنين منها جانبا، ثم رفع بصره، ورمق تشارلز بنظرة وابتسم.

- السيد فورسايت يحاول الغاء المشروب المفضل الجهنمي. اعتقد ان قطعة واحدة من الذهب تكفي.

ثم وضع الرسالة وقطعة النقد في داخل الظرف وختمه، وذهب لاتخاذ الترتيبات لارسال الرسالة على نحو عاجل.

وعاد وهو يتحدث.

- والان، الفتاة ما الذي ينبغي عمله بشأنها؟ اليس لديك اي فكرة عن مكان وجودها في هذه اللحظة؟

- لا، ابدا على الرغم من انني متأكد انها ستكون صباح الغد في المكان الذي اشارت اليه.

- لكنك حتما لن تستطيع الذهاب الى هناك، فانت لا تستطيع في وضعك هذا المجازفة بأي فضيحة اخرى.

نظر تشارلز اليه، ثم خفض بصره، ونظر الى السجادة.

- انا تحت تصرفك.

نظر الطبيب نظرة الى تشارلز. لقد اعد الان اختبارا صغيرا يفحص به عقل ضيفه. وقد كشف ذلك الاختبار عما كان يتوقعه. استدار واتجه صوب رفوف الكتب القرية من مكتبه، ثم عاد وهو يحمل المجلد نفسه الذي سبق ان اطلع تشارلز عليه. وجلس قبالته والمقعد يفصل بينهما. ابتسم ابتسامة صغيرة، ونظر الى تشارلز من فوق نظارته، ووضع يده فوق الكتاب.

- لن يخرج الى ما وراء جدران هذه الحجرة كل ما قيل فيها او كل ما تبقى من قول.

ثم وضع الكتاب جانبا.

- لم يكن هذا ضروريا يا عزيزي الطبيب.

- الثقة بالطبيب هي نصف العلاج.

ابتسم تشارلز ابتسامة باهتة.

- والنصف الاخر؟

- الثقة في المريض.

الا انه انتصب واقفا قبل ان يتمكن تشارلز من الكلام.

- حسنا الان. لقد اتيت الي طالب النصيحة. اليس كذلك؟

نظر الى تشارلز كأنه عازم تقريبا على الملاكمة، لم يعد الايرلندي المازح بل

المقاتل. ثم بدا يذرع الغرفة جيئة وذهابا ويداه مثبتتان من تحت سترته.

- انني امرأة شابة فائقة الذكاء، حظيت بقسط من التعليم. اعتقد ان العالم ظلمني ولا استطيع السيطرة تماما على عواطفني. اتصرف تصرفات طائشة، من مثل رمي نفسي امام نذل وسيم يصادفني في طريقي، والاسوأ من هذا، انني وقعت في هوى ان اكون ضحية القدر. واستخدم طريقة محترفة جدا للظهور بمظهر المرأة المكتئبة. لدي عينان مأساويتان. ابكي دون سبب. الخ. الخ. والان...

اشار الطبيب القصير القامة بيده صوب الباب كأنه يستحضر السحر.

- يدخل شاب. ذكي. وسيم. نموذج مثالي للطبقة التي علمتني ثقافتني ان اعجب بها. لاحظ انه مهتم بي. كلما ظهرت حزينه اكثر، زاد اهتمامه بي على ما يبدو. اركع امامه، فيرفعي لاقف على قدمي يعاملني كأنني سيدة. لا، بل اكثر من ذلك. ويعرض عليّ بروح الاخوة المساعدة كي اهرب من قدرتي البائس. حاول تشارلز مقاطعة الطبيب الا ان هذا اسكته.

- انني في منتهى العجز، لا استطيع ان استخدم آيا من اساليب الخداع التي تستخدمها بنات جنسي الاوفر حظا في اغواء الرجال نحوهن. رفع سبابته.

- الا انني املك سلاحا واحدا لا غير. الشفقة التي اثيرها في نفس هذا الرجل الطيب القلب. ان هذه الشفقة تحتاج الى الكثير من التغذية. وقد غذيت هذا الانسان الطيب بماضيّ فالتهمه. اذا ماذا في وسعي ان افعل؟ لا بد من جعله يشعر بالشفقة على حاضري. وذات يوم وبينما اسير في المكان الذي حرم عليّ السير فيه، انتهز فرصتي. اظهر امام شخص اعرف تماما انه سينقل جريمتي الى الشخص الوحيد الذي لن يغفرها. واذ ذاك اطرده من وظيفتي. فأتوارى عن الانظار في ظل افتراض قوي سببه انني سأرمي نفسي من فوق اقرب قمة جرف. وبعد هذا، وبينما انا في النزاع الاخير، اصرخ من الاعماق، او على نحو اذق من الاعالي، منادية منقذي ان يهرع الى نجدتي.

توقف وقفة طويلة والتقت عينا تشارلز بعينه التقاء بطيئا. فابتسم الطبيب.

- من المؤكد اني اقدم فرضية جزئية.

- لكن اتمامك المحدد - انها دعت...

جلس الطبيب، وبعث الحياة في الموقد.

- لقد استُدعيت مبكرا صباح اليوم الى بيت مارلبورو، لم اعرف ما هو السبب - كل ما هناك ان السيدة بي. كانت متوعدة. وقد اخبرتني السيدة فيرلي - مدبرة المنزل، كما تعلم - بملخص ما كان قد حدث.

توقف وركز نظره في عيني تشارلز الحزيتين.

- كانت السيدة فيرلي قد ذهبت يوم امس الى حقل مصنع الالبان في وير كليفز، وقد سارت الفتاة من امامها بعد ان خرجت من الغابة. ان تلك المرأة تشبه سيدتها تمام الشبه وانا واثق انها انجزت مهمتها التالية بكل الرغبة الوضيعة التي تمتلكها مثيلاها. غير انني مقتنع يا عزيزي سميثسون انها فعلت ذلك عمدا.

- تقصد...

وهنا اوما الطبيب، بينما القى عليه تشارلز نظرة شنيعة، ومن ثم ثارت ثائرتة.

- لا استطيع ان اصدق ذلك، ليس محتملا انها...

لم يفرغ من جملته، اذ همس الطبيب.

- بل محتمل، والسفاه.

- لكن فقط الشخص الذي يملك...

كاد ان يقول عقلا منحرفا، الا انه نهض فجأة، واتجه صوب النافذة، وفتح الستارة، وامعن النظر الى الليل المدهم لحظة من الزمن. واضاءت ومضة شاحبة مزرقه من البرق الكوب والشاطئ والبحر الساكن. استدار.

- لقد ارغمت على ذلك، اذا توخينا الدقة.

- نعم. اعتقد انك ارغمت. لكن هذا الارغام يتطلب شخصا كريما. ولا بد لك من ان تتذكر ان العقل المشوش ليس عقلا اجراميا. وفي هذه الحالة، يجب ان تؤمن ان اليأس مرض، لا اكثر ولا اقل. ان تلك الفتاة مصابة بالكوليرا يا سميثسون، بتيفوئيد الملكات العقلية. يجب عليك ان تفكر بها على هذا النحو، لا على اساس انها مدبرة خبيثة.

عاد تشارلز الى الغرفة.

ما هو برأيك غرضها النهائي؟

- اشك في ان تعرف هي غرضها النهائي. فهي تعيش يوما بيوم، ولا بد لها من ذلك. فلا يمكن لانسان يمتلك قدرا من بعد النظر ان يتصرف على النحو الذي تصرف به.

- لكن لا يمكن لها ان تفترض افتراضا جادا ان شخصا في مثل مكاني...

- بوصفك رجلا قد خطبت فتاة؟

ابتسم الطبيب ابتسامة ضارية.

- لقد عرفت مومسات كثيرات. ولا بد لي من الاسراع في القول إن ذلك سببه مواصلة ومتابعة وظيفتي، لا وظيفتهن. واثمني لو انني كنت املك جنيها واحدا اعطيه لكل واحدة سمعتها تتشفى من ان الغالبية من ضحاياهن الازواج والاباء. حدق الى الموقد، الى ماضيه.

- انني منبوذة، الا انني سأنتقم.

- انت تجعلها تبدو وكأنها عدو - وهو امر غير صحيح.

تحدث بحماس، والتفت على نحو عاجل.

- لا يمكن ان اصدق هذا عنها.

- لانك تحبها الى حد ما، هذا اذا سمحت لرجل عجوز في مثل مقام ابيك ان

يقول شيئا كهذا.

استدار تشارلز، وحدق الى وجه الطبيب اللطيف.

- لا اسمح لك ان تقول هذا الكلام.

احنى غروغان رأسه. فاضاف تشارلز في خضم الصمت.

- هذه اهانة كبيرة للانسة فريمان.

- حقا. لكن من هو الذي يوجه الاهانة؟

بلع تشارلز ريقه. لم يكن في وسعه احتمال تلك العينين المغيظتين ونظر نظرة ملية الى الغرفة الطويلة كأنه يريد الانصراف. الا انه قبل ان يتمكن من الوصول الى الباب، امسك به غروغان من ذراعه وجعله يلتفت، ثم امسك بالذراع الثانية. كان قاسيا، كلبا من كلاب الصيد النشطة ازاء مهابة تشارلز.

- الا نؤمن كلانا بالعلم ايها الرجل؟ الا نؤمن معا ان الحقيقة هي المبدأ العظيم

الاول؟ لماذا قضى سقراط نحيبه؟ للاحتفاظ بالوجاهة الاجتماعية؟ اكراما للذوق؟ اتعتقد

انني في اثناء سنوات عملي الاربعين طبيا لم اتعلم متى يكون الانسان في شدة؟ ولا يخفي الحقيقة عن نفسه؟ اعرف نفسك يا سميثسون. اعرف نفسك.

لفح مزيج النار الايرلندية والاغريقية القديمة في روح غروغان وجه تشارلز. وقف وهو ينظر مليا الى الطبيب، ثم اعرض بوجهه، وعاد الى الموقد وظهره الى معلمه. ران صمت طويل، وراقبه غروغان على نحو مركز. اخيرا تكلم تشارلز.

- لم اخلق للزواج. مصيبي انني ادركت هذا بعد فوات الاوان.

- اقرأت مؤلفات مالثوس⁽⁸⁷⁾؟

هز تشارلز رأسه علامة النفي.

- لقد كان يؤمن ان مأساة الجنس البشري هي ان اقل الناس قدرة على البقاء على قيد الحياة يتوالدون اكثر من غيرهم. لهذا، لا تقل انك لم تخلق للزواج يا ولدي. ولا تلم نفسك لانك اغرمت بتلك الفتاة. اعتقد انني اعرف سبب هروب ذلك البحار الفرنسي. لقد كان يعلم ان لها عينين يمكن ان يغرق فيهما اي انسان. استدار تشارلز وهو يتعذب.

- اقسم بشرفي المقدس ان شيئا غير لائق لم يحدث بيني وبينها. يجب ان تصدق هذا الكلام.

- اصدقك. لكن دعني اضحك في اختبار الاستجواب القلبي. اترغب في سماعها؟ اترغب في رؤيتها؟ اترغب في لمسها؟

اعرض تشارلز بوجهه ثانية، وتمالك فوق احد المقاعد واضعا وجهه بين يديه. لم يقل شيئا، غير ان ذلك افصح بكل شيء. وبعد لحظة واحدة، رفع رأسه وحملق في الموقد.

- اوه يا عزيزي غروغان، لو كنت تعرف فوضى الحياة التي عشتها، ضياعها... لا فائدتها. ليس لي اي هدف اخلاقي، ولا اي احساس حقيقي بالواجب تجاه اي شيء. قبل اشهر قليلة كنت املك وانا في الحادية والعشرين امالا عظيمة... لكن خاب ظني. والان تجدني اتورط في هذه القضية البائسة...

(87) توماس مالثوس (1766-1834): عالم اقتصاد انكليزي، دعا الى كبح التزايد المتعاضم في عدد سكان العالم عن طريق ضبط النسل. (المترجم)

- تقدم غروغان صوبه، وامسك بكتفه.
- انت لست اول رجل يرتاب في خياره عروسته.
- انها لا تعلم الا القليل مما انا عليه حقا.
- انها... ماذا؟ عشر سنوات اصغر منك؟ ولم تعرفك الا منذ ستة اشهر.
- كيف تستطيع فهمك اذا الان؟ لقد تخرجت من المدرسة توا.
- هز تشارلز رأسه مكتئبا. اذ لم يستطع اخبار الطبيب برأيه الحقيقي في ايرنستينا؛ انها لن تفهمه ابدا. وشعر انه جرد تماما من ذكائه، وانه خذل في اختياره شريكة حياته. اذ كان تشارلز، شأنه شأن الكثير من الفكتوريين، وربما من هم في عصر احدث، يعيش كل حياته تحت تأثير المثالي. هناك بعض الرجال الذين يجدون العزاء في فكرة ان هناك نساء اقل جاذبية من زوجاتهم. وآخرون تستحوذ عليهم المعرفة ان هناك من هن اكثر جاذبية. وقد ادرك تشارلز الان بوضوح اكبر مما ينبغي لاي فئة ينتمي هو شخصا.
- قال بصوت خفيض.
- ليست غلطتها. لا يمكن ذلك.
- يجب ان اؤمن بانها ليست غلطتها. فتاة شابة بريئة كهذه.
- سأوفي بوعدى لها.
- مؤكدا.
- صمت.
- قل لي ماذا افعل؟
- اولا اخبرني بحقيقة مشاعرك تجاه الفتاة الاخرى.
- رفع تشارلز بصره يائسا. ثم خفض بصره، ونظر الى الموقد، وحاول في نهاية المطاف ان يقول الحقيقة.
- لا استطيع ان اقول يا غروغان. اني اجد نفسي لغزا ازاء كل ما يخصها.
- انني لا احبها. وكيف يمكن ذلك؟ امرأة معرضة للشبهات الى هذا الحد، امرأة تعاني من مرض عقلي كما تقول لي انت. لكن... انه اشبه... انني اشعر كأنني رجل تسلطت عليه فكرة جنونية على الرغم من ارادته - على الرغم من كل الاشياء الحسنة في شخصيته. وحتى في هذه اللحظة ارى وجهها يبرز امامي منكرا كل ما

تقول. هناك شيء ما فيها. معرفة، خوف من أشياء انبل من ان تكون متطابقة مع الشر او الجنون، تحت الزيف... لا استطيع ان افسر اي شيء.

- لم انسب الشر اليها. بل الياس.

لا صوت سوى فرقة واحد او اثنين من الواح ارضية الغرفة في اثناء سير الطبيب. اخيرا تكلم تشارلز ثانية.

- بماذا تنصحي؟

- ان تترك كل شيء تحت تصرفي.

- اتذهب لرؤيتها؟

- سأنتعل حذائي، واخبرها انك استدعيت على نحو غير متوقع. ولا بد لك من الذهاب يا سميثسون.

- يصادف كثيرا ان تكون لدي مشاغل عاجلة في لندن.

- هذا افضل. واقترح ان تطرح الموضوع برمته امام الانسة فريمان قبل سفرك.

- قررت قبل الان ان افعل ذلك.

خفض تشارلز على قدميه. الا ان ذلك الوجه ظل ماثلا امامه.

- وهي - ماذا ستفعل انت؟

- الشيء الكثير يعتمد على حالتها العقلية. ربما كان الشيء الذي يبقيا في حالة عقلية سليمة حتى الان هو اعتقادها انك تعطف عليها - ربما اعذب من ذلك - واخشى ان تؤدي الصدمة الناجمة عن عدم حضورك الى كآبة اشد. لا بد لنا من توقع ذلك.

خفض تشارلز بصره.

- لن تلوم نفسك من جراء هذا. ولو لم تكن انت، فقد يكون شخص اخر. ان مثل هذه القضية تجعل الامور اكثر سهولة على نحو ما. سأعرف اي سبيل اتخذ. حملق تشارلز في السجادة.

- مستشفى الامراض العقلية.

- ذلك الزميل الذي حدثك عنه - انه يشاطرنى الرأي في معالجة مثل هذه الحالات. سنفعل ما في وسعنا. وستكون مستعدا لدفع جزء من النفقات.

- كل شيء من اجل التخلص منها؛ دون الحاق اي اذى بها.
- اعترف مصحة امراض عقلية خاصة في اكستر. وفيها يرقد بعض المرضى الذين يعالجهم صديقي سبنسر. وتتم هذه المعالجة باسلوب ذكي ومتنور.
- ولا احب ان اوصي بمصحة حكومية في هذه المرحلة.
- لا سمح الله. لقد تناهى الى سمعي الكثير من التقارير الرهيبة عنها.
- اطمئن. هذه المكان نموذجي تماما.
- اننا لا نتحدث عن ايداعها في مستشفى الامراض العقلية؟
- مر في ذهن تشارلز الان شبح الخيانة: ان الحديث عنها مثل هذا الحديث الطبي، والتفكير بها وهي سجينه غرفة صغيرة...
- لا، ابدا. اننا نتحدث عن مكان يمكن ان تشفى فيه جراحها النفسية، وحيث ستلقى العناية الرقيقة وتبقى مشغولة - وستحظى بفوائد خبرة سبنسر ورعايته الفائقين. لقد عالج مثل هذه الحالات وهو يعرف عمله جيدا.
- تردد تشارلز، ثم وقف ومد يده. كان في حالته الراهنة يحتاج الى الاوامر والوصفات الطبية. وما ان حصل عليها حتى تحسنت حاله.
- اشعر انك انقذت حياتي.
- كلام فارغ يا صديقي العزيز.
- لا. ليس كلاما فارغا. سأكون مدينا لك طيلة حياتي.
- اذا دعني اكتب اسم عروستك في لائحة الدائنين.
- سأوفي الدين.
- وامنح المخلوقة الفاتنة بعض الوقت. فافضل انواع المشروب المفضل تتطلب اطول وقت كي تنضج. اليس كذلك؟
- في مثل حالتي، اخشى ان نفس الشيء ينطبق على نوع رديء جدا.
- اه. هراء.
- ربت الطبيب على كتفه.
- خطر على بالي انك تقرأ باللغة الفرنسية؟
- ابدى تشارلز موافقة تشوبها الدهشة. ففتش غروغان بين رفوفه، وعثر على كتاب ثم أشر احدى الفقرات فيه بقلم الرصاص قبل ان يقدمه لضيفه.

- لن نحتاج الى قراءة المحاكمة كلها. الا اني احب ان تقرأ هذا الدليل الطبي الذي قدمه محامي الدفاع.
- حلق تشارلز في المجلد.
- تطهير؟
- ابتسم الطبيب القصير القامة ابتسامة قزم خرافي.
- شيء مشابه لذلك.

افتراضات، سريعة، فجأة، لا جدوى فيها،
غالباً ما يتنازل العلم ويستعملها؛
الفليئات التي يستعملها المبتدئون اليوم
سرعان ما سيرمي بها السابحون جانباً.

اي. جي. كلف: قصيدة 1840

ثانية اقفز لاوضح اختياري؛
ثانية بلهجة غاضبة
اسمع صوت اله مدويا -
اسمع النصيحة واتسحب!

ماثيو ارنولد: البحيرة 1853

تعد محاكمة الملازم اميل دي لارونسييه في عام 1835 من اكثر القضايا اثارة للاهتمام من ناحية الطب النفسي في بواكير القرن التاسع عشر. كان اميل ابن الضابط الصارم الكونت دي لارونسييه، عابثاً على ما يبدو - اتخذ له خلية وغرق في الديون - غير انه لم يكن شاباً غريباً في اطار وظيفته، زمانه، وبلاده. في عام 1834 التحق بمدرسة الخيالة الشهيرة في سامور في وادي اللوار. وكان أمره البارون دي موريل الذي كانت له ابنة متوترة الاعصاب في السادسة عشرة من عمرها تدعى ماري. وفي ذاك الزمن، كانت بيوت الضباط القادة في الثكنات تصلح لأن تكون مائدة مشتركة مع من هم ادنى رتبة. وفي احدى الامسيات، استدعى البارون الملازم وهو عنيد، متكبر، مثل والد اميل لكن اشد تأثيراً، وذلك في اثناء حضور اخوته الضباط والعديد من السيدات وأمره غاضباً ان يترك البيت. وفي اليوم التالي عرضت على لارونسييه مجموعة سيئة من رسائل محررة بروح من الخبث والحقْد تهدد اسرة موريل. وقد اظهرت كل تلك الرسائل معرفة خارقة بآدق التفاصيل الخاصة بحياة الاسرة، وموقعة بالاحرف الاولى من اسم الملازم؛ وكانت تلك شائبة غير معقولة في قضية الدعوى.

وحدث ما هو اسوأ من ذلك. ففي ليلة الرابع والعشرين من ايلول/سبتمبر 1834، ايقظت الفتاة البالغة ستة عشر عاما مربيتها الانكليزية الانسة الين، واخبرتها والدموع تنهمر من مقلتيها كيف ان لارونسييه اقتحم بزيه الكامل حجرة نومها المجاورة من خلال النافذة، واحكم اغلاق الباب بالرتاج، وتوعدها بشكل فاحش، وضربها فوق صدرها وعلى يدها ثم ارغمها على رفع قميص نومها وجرحها في اعلى الفخذ، وبعد ذلك هرب من نفس الطريق الذي اتى منه.

في صبيحة اليوم التالي، تلقى ملازم اخر تحاييه ماري دي موريل رسالة تنطوي على اهانة بالغة من لارونسييه على ما يبدو. فجرى النزال بينهما وفاز لارونسييه، غير ان الخصم الذي اصيب اصابة بليغة رفض هو ومساعدته الاعتراف بزيف التهمة المسمومة. وتوعدا لارونسييه انهما سيخبران والده ان لم يوقع اعترافا بالذنب؛ وما ان يتحقق ذلك، فإن القضية ستصبح في طي النسيان. وبعد ليلة من التردد المؤلم، وافق لارونسييه على التوقيع.

بعد ذلك طلب اجازة وسافر الى باريس معتقدا ان من شأن المسألة ان تطمس. غير ان الرسائل الموقعة استمرت في الظهور في بيت موريل وادعت بعضها ان ماري حامل، في حين ذكرت اخرى ان والديها سيلقيان مصرعهما وهلم جرا. وبات الامر فوق طاقة احتمال البارون، فاعتقل لارونسييه.

لقد كان عدد الظروف المؤاتية للمتهم كبير جدا حتى اننا لا نكاد نصدق اليوم انه كان ينبغي تقديمه للمحاكمة، ناهيك عن ادانته. اولا، كان معروفا في سامور ان ماري استاءت من اعجاب لارونسييه الواضح بأمرها الجذابة، التي كانت الابنة تغار منها كل الغيرة. وكان قصر موريل محاطا بالحراس في ليلة محاولة الاغتصاب. ولم يلحظ اي شخص شيئا مريئا، وعلى الرغم من ان حجرة النوم المقصودة كانت في الطابق العلوي، ولا يمكن الوصول اليها الا عن طريق سلم، فإن الامر كان يحتاج الى ثلاثة اشخاص على الاقل لنقله ونصبه - لهذا السبب، فانه سيكون سلما من شأنه ان يترك الاثار في التربة الناعمة تحت النافذة... فقرر محامي الدفاع عدم وجود شيء كهذا. يضاف الى ذلك، اشار مركب الزجاج الذي جيء به لاصلاح الزجاج المكسور بفعل المتطفل ان كل الزجاج المكسور قد سقط خارج البيت وانه كان يستحيل في اي حالة الوصول الى مقبض النافذة من خلال

الفتحة الصغيرة. ثم سأل الدفاع عن السبب الذي جعل ماري لا تصرخ ابدا طالبة النجدة في اثناء الاعتداء، والسبب الذي لم تستيقظ فيه الانسة الين من نومها الخفيف على صوت الشجار، ولماذا اوت الاثنتان الى فراشهما للنوم ثانية دون ان توقظا السيدة دي موريل التي كانت تنام طيلة الحادثة في الطابق التحتاني، لماذا لم يفحص جرح الفخذ الا بعد شهر من الحادثة (وتبين اذ ذاك انه خدش بسيط وشفي الان تماما)، لماذا ذهبت ماري الى حفلة بعد امسيتين اثنتين لا اكثر واستأنفت حياتها الاعتيادية تماما حتى وقت حدوث الاعتقال - عندما اصبحت فجأة بانهيأ عصبى (مرة اخرى اظهر الدفاع انه انهيار بعيد عن ان يكون الاول في حياتها الفتية)، كيف يمكن للرسائل ان تستمر في الظهور حتى عندما اصبح لارونسييه المفلس نزير السجن، ينتظر المحاكمة، لماذا لم يعمد اي كاتب رسائل محررة بدافع من الخبث ويملك قواه العقلية لا الى التكرار في الكتابة (التي يمكن تقليدها بسهولة) وحسب، بل الى ان يوقع اسمه ايضا، لماذا اظهرت الرسائل دقة في الهجاء والنحو (ولسوف يشعر طلاب الفرنسية بالسرور عندما يعلمون ان لارونسييه نسي دوما ان يجعل اسماء المفاعيل متطابقة) افتقرت اليها افتقارا واضحا مراسلات حقيقية قدمت للمقارنة، لماذا اخفق مرتين في تهجئة اسمه صحيحا، ولماذا ظهرت الرسائل التي تهتم بالجريمة مكتوبة على ورق يماثل مجموعة اوراق وجدت في مكتب ماري؟ باختصار، لماذا، لماذا، لماذا؟ ووضح الدفاع في اخر شكوكه ان مجموعة مماثلة من هذه الرسائل وجدت مسبقا في بيت موريل بباريس وفي وقت كان فيه لارونسييه في الجانب الاخر من العالم، يؤدي الخدمة العسكرية في مدينة كاين⁽⁸⁸⁾.

غير ان الظلم النهائي الذي حدث في المحاكمة (التي حضرها هوغو، بلزاك وجورج صاند ضمن العديد من الشخصيات المشهورة) تمثل في رفض المحكمة السماح باستجواب شاهد الدعوى الاساسي: ماري دي موريل. فقد قدمت شهادتها بأسلوب هادئ، رابطة الجاش، الا ان رئيس المحكمة قرر ان تواضعها وحالتها العصبية الضعيفة تحول دون اي استجواب اضافي، وذلك بعد ان اثرت فيه نظرات البارون المحدقة كفوهة مدفع ومجموعة مهيبة من الاقارب البارزين.

(88) كاين: ميناء في غيانا الفرنسية في الجزء الشمالي من اميركا الجنوبية. (المترجم)

ثبتت ادانته لارونسييه وصدر الحكم عليه بالسجن عشر سنوات وعارض الحكم كل محام بارز في اوروبا، لكن بلا فائدة. وفي وسعنا ان نفهم لماذا ادين، او على وجه الدقة، بأي شيء ادين: بالمكانة الاجتماعية، باسطورة العذراء الصافية الذهن، بالجهل النفساني، بمجتمع وهو ينم عن رد فعل افكار الحرية الضارة التي اشاعتها الثورة الفرنسية.

دعوني الان اترجم الصفحات التي اشراها الطبيب. انها مأخوذة عن كتاب ملاحظات طبية نفسانية للدكتور كارل ماتاي، وهو طبيب الماني مشهور في زمانه، وقد الفه تأييدا لاستئناف ضد الحكم الصادر بحق لارونسييه. وكان ماتاي من الذكاء لأن يدون التواريخ التي وقعت فيها الرسائل الداعرة التي انتهت بمحاولة الاغتصاب. فوجد انها تقع ضمن نموذج شهري - او طمهي - واضح. وبعد تحليل الدليل المقدم الى المحكمة، يتقدم السيد الطبيب ليوضح بلهجة اخلاقية الى حد ما المرض العقلي الذي نطلق عليه اليوم اسم الهستيريا - اي نظرية اعراض مرض او عجز لنيل عطف الاخرين او لفت انظارهم: وهو اضطراب عصبي وظيفي او اضطراب عقلي سببه الثابت تقريبا - كما نعرف الان - هو الكبت الجنسي.

«لو انني تأملت سير حياتي العملية بوصفي طبيبا، فاني اتذكر العديد من الحالات التي كانت فيها الفتيات هن البطلات، على الرغم من ان اشتراكهن بدا مستحيلا منذ مدة طويلة».

«فقبل اربعين سنة، كان من بين مرضاي اسرة فريق في الخيالة. وكان يملك عقارا صغيرا على بعد ستة اميال من المدينة التي كانت توجد فيها حاميته العسكرية، وعاش هناك ممتطيا ظهر الحصان في طريقه الى البلدة كلما كان لديه واجب. وكانت لديه ابنة على قدر خارق من الجمال في السادسة عشرة من عمرها، ترغب رغبة جياشة في ان يعيش والدها في البلدة. ولم تعرف الاسباب الدقيقة لذلك، لكن مما لا ريب فيه انها رغبت في ان تكون بمعية الضباط وتستمتع بمباهج المجتمع هناك. ولتحقيق غايتها اختارت اسلوبا في منتهى الاجرام: اضرمت النار في البيت الريفي لاحرقه. وذات يوم احترق ثمانية احدى اجزاء البيت. وبعد ذلك حدثت ما لا تقل عن ثلاثين محاولة حرق متعمد، ولم تكتشف هوية الفاعل ابداء، وقد اعتقل العديد من الاشخاص وجرى استجوابهم. والشخص

الوحيد الذي لم يثر الشكوك هو تلك الابنة الشابة الجميلة البريئة. مرت سنوات كثيرة، واخيرا قبض عليها بالجرم المشهود وحكم عليها بالسجن المؤبد في احدى الاصلاحيات.

«في مدينة المانية كبيرة، وجدت احدى الشابات من احدى الأسر العريقة سعادتها في ارسال رسائل تخلو من التوقيع هدفها تحطيم احدى الزيجات السعيدة مؤخرًا. كما اشاعت الفضائح المشينة بصدد سيدة شابة اخرى اثارت اعجابا شديدا لما تمتلكه من مواهب وبهذا اصبحت موضع حسد. استمرت هذه الرسائل طيلة سنوات. ولم يقع اي ظل من الشك على المؤلفة، على الرغم من ان الكثير من الناس اهتموا. وفي نهاية المطاف، كشفت عن نفسها ووجه اليها الاتهام فاعترفت بجريمتها... وقضت فترة طويلة في السجن لشروعها».

«مرة اخرى، في الوقت نفسه وفي هذا المكان نفسه الذي اكتب فيه الان»
تقوم الشرطة بالتحقيق في قضية مشاهة...».

«ربما يقوم اعتراض على ان ماري دي موريل ما كانت لتلحق الاذى بنفسها طمعا في الوصول الى غايتها. غير ان عذابها كان في منتهى البساطة مقارنة بغيره في قضايا اخرى من حوليات الطب. وفيما يلي بعض الامثلة التي تسترعي الانتباه».

«عرف الاستاذ هير هولدت من كوبنهاغن شابة جذابة ذات ثقافة رفيعة ومن اسرة ثرية. وقد خدع بها خداعا كاملا شأنه في ذلك شأن الكثيرين من زملائه. واستخدمت كل ما لديها من حيلة ودأب لتنفيذ خدعها وعلى مدى سنين عديدة. بل انها عمدت الى تعذيب نفسها بأقصى ما يمكن من وحشية. فغرزت بضع مئات من الدبابيس في اجزاء مختلفة من جسدها. ولما حدثت فيها بعض الالتهابات والتقحيحات عمدت الى شق تلك الاجزاء بآلة حادة. ولما رفضت ان تتبول، اخذ البول يستخرج منها صباح كل يوم عن طريق القسطرة. وعمدت الى ادخال الهواء الى مثانتها، فكان يهرب عند ادخال الآلة. وظلت سنة ونصف السنة وهي راقدة

(*) هانوفر 1836. (المؤلف)

دون حركة، لا تتكلم، ترفض الطعام، تتظاهر بالتشنج، تصيبها نوبات الاغماء وغير ذلك. وقبل ان تكتشف حيلها، فحصها عدد من الاطباء المشهورين، اتى بعضهم من خارج البلاد، وهالهم ان يشاهدوا مثل ذلك العذاب. وقد نشرت قصتها الحزينة في كل الصحف، ولم يراود احد الشك في صحة حالتها. واخيراً، في 1826، اكتشفت الحقيقة. وكانت الدوافع الوحيدة لهذا النصب والاحتيال البالغى الذكاء، أن تصبح موضع اعجاب الرجال ودهشتهم اذ سخرت من اكثرهم ثقافة وشهرة وادراكا. ان تاريخ هذه القضية المهمة من وجهة النظر النفسانية يمكن العثور عليها في مؤلف هير هولدت: ملاحظات عن مرض ريشل هيرتز بين 1807-1826.

«وفي مدينة لونبرغ عثرت ام وابنتها على خطة هدفها استدراج الكثير من العطف على نفسيهما - وهي خطة سعت الاثنان وراءها حتى النهاية بعزم فظيع. فقد شكت الابنة من الم لا يطاق في احد نهديهما، وندبت وبكت، وناشدت اهل الاختصاص، وجربت كل انواع العلاج، غير ان الم استمر على حاله. وثار الشكوك حول السرطان. فقررت دون تردد ان تستأصل النهد، لكن تبين انه سليم تماماً. وبعد مرور بضع سنوات، لعبت نفس الدور القلم بعد ان خفت حدة العاطفة تجاهها. فاستؤصل الثدي الثاني. ووجد انه ثدي سليم تماماً مثل الثدي الاول. ولما خفت حدة العطف ثانية اخذت تشكو من الم في يدها. فأرادت ان تستأصل يدها. غير ان الشكوك حامت من حولها. فأرسلت الى المستشفى، واتهمت بادعاءات باطلة ومن ثم القي بها في السجن.

«ويخبرنا لينتين في كتابه ملحق المعرفة العملية للطب، هانوفر 1798، بهذه القصة التي كان شاهداً فيها. استخرج من فتاة ليست كبيرة جداً ما لا يقل عن مئة واربع حصوات في عشرة اشهر بوساطة الملقط بعد عملية استئصال سابقة للمثانة وعنقها، وقد عمدت الفتاة الى ادخال الحصى الى مثانتها على الرغم من ان العمليات اللاحقة سببت لها خسارة كبيرة في الدم وألماً عظيماً. وقبل هذه، كانت تتقيأ وتصاب بالتشنج اضافة الى اعراض عنيفة مختلفة الاشكال. وقد اظهرت براعة نادرة في اساليب تضليلها.

«بعد مثل هذه الامثلة، التي يمكن التوسع فيها على نحو سهل، من ذا الذي يقول انه يستحيل على فتاة ان تعتمد الى الحاق الاذى بنفسها من اجل الوصول الى غايتها المنشودة؟».

كانت الصفحات الاخيرة تلك هي اول الصفحات التي قرأها تشارلز وجاءت بمثابة صدمة قاسية له، اذ لم تكن لديه اي فكرة عن وجود مثل هذه الانحرافات لدى الجنس اللطيف. كما لم يستطع ان يدرك حقا المرض العقلي من النمط الهستيري وماهيته: سعي يرثى له من اجل الحب والامان. وعاد الى بداية تقرير المحاكمة ووجد نفسه مدفوعا اليه، وعلى نحو مميت. وقلما احتاج الى القول انه شبه نفسه على الفور باميل در لارونسييه البائس. وعند نهاية المحاكمة وصل الى تاريخ جعل فرائضه ترتعد. ففي اليوم الذي ادين فيه الملازم الفرنسي الاخر كان هو نفس اليوم الذي ولد فيه تشارلز. وفي لحظة من الزمن، وفي ذلك الليل الصامت في دورسيت، تحلل العقل والعلم، كانت الحياة آلة مظلمة، علم تنجيم سيئ الطالع، حكم عند الولادة، بلا استئناف، صفر فوق كل شيء.

لم يشعر ابدا انه اقل حرية.

ولم يشعر ابدا انه اقل حاجة للنوم من الان. نظر الى ساعته فوجدها الرابعة الا عشر دقائق. كل شيء هادئ الان في الخارج. لقد مرت العاصفة. فتح تشارلز احدى النوافذ وتنفس هواء الربيع البارد والنقي. تألقت النجوم بوهن من فوقه،

(*) لا استطيع ان اترك قصة لارونسييه - التي نقلتها عن مصدر عام 1835 الذي ناوله الطبيب غروغان لتشارلز - دون ان اضيف انه في العام 1848 وبعد مرور بضع سنين على انتهاء الملازم فترة حكمه، ارتاب احد محامي الدفاع الحقيقيين بانه ساعد في ارتكاب الظلم. وكان انذاك في موقع يستطيع منه اعادة فتح ملف القضية، فبرئ لارونسييه واعيد له اعتباره واستأنف حياته العسكرية وربما عثر عليه في الساعة التي كان يقرأ فيها تشارلز نروة حياته المظلمة وهو يحيا حياة راضية حاكما عسكريا في (تاهايتي). غير ان قصته انتهت نهاية غريبة. ففي وقت متأخر اكتشف انه كان يستحق جزئيا انتقام الانسة دي موريل الهستيري منه. اذ لاجل الحقيقة النهائية اللامعقولة والشنيعة لاحداث تلك الليلة من ايلول/سبتمبر 1834 - وهي ليلة لا تلعب فيها ممثلة انكلترا الغادرة المربية الانسة الين اي دور مشرف - لا بد لي من ارسالكم الى رينيه فلوريوت وكتابه اخطاء القضاء بباريس، 1968. (المؤلف)

على نحو بريء، متخلية عن اي تأثير، سواء كان تأثيرا سيئا او حسنا. اين هي الان؟ يقظة ايضا، على بعد ميل او ميلين في ظلمة غابة شديدة الرطوبة.

انتهى مفعول الشراب المفضل تاركا تشارلز في صحبة احساس عميق بالذنب. فكر انه تذكر الخبث في عيني الطبيب الايرلندي، مستودع متاعب هذا السيد اللندني السخيف التي ستنتقل همسا وتوزع بالجملة في لايام، او ليس سيئا ان جنسه لا يحفظ سرا؟

كم كان تصرفه تصرفا غير مشرف، صبيانيا! فهو لم يفقد في اليوم الماضي وينزيات حسب، بل فقد ايضا احترامه ذاته. وكانت العبارة الاخيرة اطنابا. لقد فقد بكل بساطة الاحترام لكل ما كان يعرفه. كانت الحياة حفرة في مستشفى المجاذيب. ومن وراء الوجوه الاكثر براءة، كانت تتوارى الخطايا الاكثر قذارة. لقد كان هو السير غالاهاد⁽⁸⁹⁾ الذي عرضت عليه جنيفر على انها عاهرة.

ولكي يتوقف تشارلز عن التأمل الذي لا طائل من ورائه - اه لو استطاع ان يتصرف! - تناول الكتاب المصري وقرأ ثانية بعض الفقرات من بحث ماتاي حول الهستيريا. فشاهد شيئا مماثلا اقل الان لسلوك سارة. وبدأت خطيئته تلتصق بموضوعها الملائم. حاول ان يتذكر وجهها، اشياء تفوهت بها، التعبير الذي كان تنطق به عيناها وهي تتفوه بها، غير انه لم يستطع ان يفهمها. ولكن على الرغم من ذلك شعر انه ربما يعرفها معرفة افضل من اي شخص اخر. وكانت تلك الرواية التي سردها امام غروغان عن لقاءاتهما.. في وسعه ان يتذكرها، كلمة كلمة. او لم يخدع غروغان في غمرة قلقه لاختفاء مشاعره الحقيقية؟ بالغ في غرابة اطوارها ولم ينقل ما قالته حقا نقلا امينا؟ او لم يعدها مجرمة ليتفادى تجريم نفسه؟

سار في ارجاء الغرفة دون ان يتوقف، باحثا عن روحه وكبريائه الجريح. لنفترض انها كانت حقيقة على النحو الذي قدمت نفسها به - خاطئة، مؤكدا، الا انها ايضا امرأة فائقة الشجاعة، ترفض ان تولي ظهرها خطيئتها، واصيبت الان بالوهن في معركتها الضارية ضد ماضيها، مستغيثة، طالبة النجدة؟

(89) سيرغالاهاد: الفارس العفيف في اسطورة ارثر الشهيرة وهو ابن لانسيلو دولاك وايلين. وكان غالاهاد قد جعل ابن لانسيلو لمقارنة الحب الدينوي اذا كانت جنيفر ملهمة لانسيلو بالحب السماوي فإن الحماس الروحي كان ملهم غالاهاد. (المترجم)

لماذا سمح لغروغان ان يحكم عليها عوضا عنه؟
لانه كان يهتم بانقاذ المظاهر اكثر من انقاذ روحه، لأنه لم تعد لديه ارادة
حرة اكثر

من ارادة الصدفة المتحجرة، لأنه كان مثل ييلاطس البنطي⁽⁹⁰⁾، اسوأ منه، لا
يتغاضى عن الصلب، بل يشجعه، لا بل انه تسبب في كل الاحداث التي ادت الان
الى تنفيذه او لم يتطور كل شيء اثر اللقاء الثاني لما ارادت الانصراف، بيد انه
اضطرها الى مناقشة وضعها؟

فتح النافذة ثانية. مرت ساعتان منذ ان فعل ذلك. انتشر الان ضوء خافت
من جهة الشرق. فحدق الى النجوم الباهتة.
القدر.

تلك العينان.

استدار فجأة.

لو التقى غروغان، لاصطدم به. لا بد ان يوضح ضميره سبب عصيانه، ذهب
الى حجرة نومه. وهناك شرع يبدل ملابسه، وقد بان عليه وقار خارجي مرير
يعكس الاصرار الداخلي، الرهيب، الذي يصعب فك مغالقه والذي توصل اليه.

(90) ييلاطس البنطي: -الحاكم الروماني من مقاطعة يهوذا ليام السيد المسيح وهو الذي صلبه في العقيدة
المسيحية - تلبية لرغبة الشعب وان كان مقتنعا ببراعته (متى 27 يوحنا 18: 28-19: 42)،
مشهور بكلمة (ما هي الحقيقة؟) وبغسله يديه بعد الحكم على المسيح، مدعيا انه غير مسؤول
عن موته. يضرب به المثل للانتهازى الذي يخشى ان يقوم بواجبه. (المترجم)

لان نسمة الصباح تنشط
وكوب الحب في الاعالي...

تينسيون: مود 1855

انه لجزء من حصفة خاصة الا تفعل اي شيء لانك
تعمل الى ان تفعله، بل لأنه واجبك، او لأنه معقول.

ماثيو ارنولد: دفاتر ملاحظات 1868

كانت الشمس الحمراء توشك ان تغيب عن الموجات الوهمية الرمادية بلون
الحمام للتلال الواقعة وراء شيزل بانك عندما خرج تشارلز من ابواب فندق وايت
لاين وهو لم يلبس ملابس الدفان حسب بل بانت عليه كل ملامح صمته وبكمه.
كانت السماء خالية من السحب، صافية اثر عاصفة الليلة السابقة، زرقاء لطيفة
على نحو لذيذ، وكان الهواء حادا مثل عصير الليمون، الا انه نقي، مطهر. ولو
استيقظت في ساعة كهذه في بلدة لايم اليوم، فستستمتع بها. لم يكن تشارلز
محظوظا تماما في ذلك العصر الذي كان ينهض فيه الناس مبكرين، الا الناس الذين
كانوا محظوظين تقريبا، افتقروا الى ذلك المظهر الاجتماعي، الى انعدام النظام
الطبيقي لسكان الفجر: الناس البسطاء المنطلقون الى عملهم اليومي. حيا شخص او
شخصان تشارلز تحية بهيجة وحصلوا مقابل ذلك على ايماءات قاطعة واشارات
مقتضبة من عصاه. فقد كان يفضل رؤية بعض الجثث الرمزية ملقاة في الشوارع
على رؤية تلك الوجوه النضرة. وشعر بالسعادة وهو يترك البلدة من ورائه ويدخل
الطريق المؤدي الى الجرف.

الا ان وجومه لم يكن مناسبا في ذلك اليوم (وكذلك الشك الذاتي الذي
اخفيته بأن قراره كان يستند حقا الى حكمة سارق الاغنام، الى يأس خطير، اكثر
مما يستند الى دوافع انبل في ضميره). سرى تيار من الدفء في داخله بسبب سيره
المتعجل، دفء داخلي زاد من حدته الدفء الخارجي الذي كانت تبعثه اشعة

الشمس. لقد بدت شمس الفجر النقية بارزة، واضحة المعالم على نحو غريب. وكانت تنبعث منها رائحة، تشبه رائحة صخرة دافئة، غبار الفوتون الحاد المنبعث من الفضاء. وكانت كل ورقة عشب مرصعة بالضباب. وعلى سفوح المنحدر المطلة على طريقه، اقامت جذوع اشجار الدردار والجميز، التي كانت بلون الذهب العسلي في نور الشمس المائل، قناطر خضراء ندية من اوراق غضة. ثمّة شيء ورع فيها. ورع قبل الورع نفسه، بلسم شاف عذوبة خضراء فوق كل شيء... خضرة لا متناهية، بعضها يميل الى السواد في اوراق النباتات المنعزلة، من الاشجار الزمردية الى الاشجار المثمرة الاقل اخضرارا. عبر احد الثعالب الطريق من امامه وحملق برهة وجيزة على نحو غريب كان تشارلز احد المتطفلين. وبعد وقت قصير، وبشبه استثنائي وبنفس افتراض التملك المقدس، نظر ايل من مرعاه وحملق بجلال قبل ان يدير ذنبه بهدوء وينسل صوب الاحراش. ثمّة لوحة للرسام بيسانيلو⁽⁹¹⁾ في المتحف الوطني تصطاد مثل هذه اللحظة: القديس هوبرت في غابة تمثل بواكير فن النهضة محاطا بالطيور والوحوش. ويصاب القديس بصدمة كأنه ضحية دعابة حقيقية، تزول كل غطرسته بجرعة مفاجئة من اعمق اسرار الطبيعة: تكافؤ الوجود الشامل.

لم يكن هذان الحيوانان وحدهما ينطويان على الاهمية، اذ كانت الاشجار مليئة بالعصافير المغردة - طيور الخوري، أبيض الحنجرة، الدج، الشحارير، هديل حمام الغاب، كلها تملأ ذلك الفجر الساكن بهدوء المساء، الا انها تخلو من حزنه، من خاصيته الكثيرة. شعر تشارلز انه يسير بين صفحات سفر رمزي عن الحيوانات وعاداتها، سفر له مثل هذا الجمال، هذا الوضوح الدقيق، حتى ان كل ورقة من اوراقه، كل طير صغير، كل انشودة يغرد بها، انما كانت تأتي من عالم كامل. توقف لحظة، اذ ادهشه هذا الاحساس بكون خاص دقيق، كل شيء فيه محدد، كل شيء فريد. حط طائر صغير مغرد في اعلى شجرة من اشجار العليق لا تبعد عنه

(91) انطونيو بيسانيلو (1395-1455): رسام ايطالي تعكس اعماله التحول في ايطاليا من الاسلوب القوطي الى بواكير اسلوب عصر النهضة. رسومه محفوظة في اللوفر بباريس وهي ذات قيمة كبيرة لدراسة الاسلوب الفني في تلك الحقبة، كما تعكس سعة اهتمامه وحساسية بصره. علاوة على ذلك، فإن بيسانيلو عرف مصمما للانواط التي كانت نتيجة مباشرة لدراسته البورتريهات الاغريقية والرومانية القديمة. (المترجم)

اكثر من عشرة اقدم (ثلاثة أمتار). وبدأ يغرد اغنيته القاسية. وشاهد عينيه السوداوين المتألفتين، حنجرتيه الحمراء والصفراء التي كانت تنفرج بفعل شدوه - كرة صغيرة من ريش تمكن من ان يجعل من نفسه الملاك المعلن عن التطور: انا ما انا عليه الان ولن تتجاوز كياني الان. وقف مثل وقفة قديس بيسانيلو وقد اعترته الدهشة من وجود هذا العالم على مقربة شديدة منه، في تناول كل تلك التفاهة الخائفة للحياة الاعتيادية. في اللحظات القليلة من تلك الاغنية المتحدية، بدت كل ساعة او مكان اعتيادي - وهذه اللاهائية الواسعة لكل ساعات تشارلز وامكنته السابقة - مبتذلة، رديئة، مزخرفة على نحو يعوزه الذوق. ان السأم المروع للواقع الانساني يكمن في تصدع غائر حتى المركز، في حين ينبض قلب الحياة كلها هناك في حنجرة الطائر المغرد المنتصرة.

بدا ذلك كله وهو يعلن عن واقع اعمق واشد غرابة من الواقع المماثل للواقع اللينيني الذي سبق لتشارلز ان احس به وهو عند الشاطئ في ذلك الصباح الباكر - ربما لم يكن هناك شيء اكثر اصالة من اسبقية الوجود على الموت، الفرد على الانواع، البيئة على التصنيف. اننا نسلم بهذه الاولويات اليوم، ولا يمكن ان نتصور المضامين العدوانية التي كانت تعلنها على تشارلز رسالة الطائر الصغير المبهمة اذ بدا انه يرى واقعا اقل عمقا من الفوضى الشاملة، يخيم من فوق البناء الهش للنظام البشري.

كانت ثمة مرارة اكثر قربا في هذه القربان المقدس الطبيعي، طالما ان تشارلز شعر انه شخص محروم من الكنيسة بكل الطرق. لقد طرد وضاعت اللجنة كلها. انه اشبه بسارة - في وسعه ان يقف هنا في جنة عدن، ولكنه لا يستطيع ان يستمتع بها، بل يحسد الطائر المغرد على نشوته.

سار في الطريق الذي سبق ان سلكته سارة وهو طريق يجعله بعيدا عن مرأى حقل مصنع الالبان. حسنا ما فعل، اذ ان صوت دلو حذره ان صاحب الحقل او زوجته، منهمك في العمل. لهذا دخل الغابة، واستأنف سيره على نحو جدي لائق. وجعله تحول الذنب الجنوني يشعر ان الاشجار والازهار، حتى الاشياء الجامدة المحيطة به تراقبه. واصبحت الازهار عيوننا، والحجارة لها اذان، وجذوع الاشجار المؤنبة جوقة اغريقية لا عد لها.

وصل الى حيث يتشعب الممر، وهنا سار في الفرع الايسر الذي كان ينحدر صوب الشجيرات النامية تحت الاشجار الكبيرة وفوق منطقة متكسرة اذ كانت الارض فيها موشكة على التآكل والانجراف. كان البحر على مقربة منه، ازرق وديعا، هادئا الى ما لا نهاية. غير ان الارض كانت ترتفع قليلا فوقه حيث تحولت قطعة من البرية الى سلسلة من مروج صغيرة، وشاهد تشارلز سقف مخزن على بعد مائة ياردة (91 مترا) او ما يقرب من ذلك الى القرب من اخر هذه المروج. وهو يقبع في احدود يمتد هابطا في النهاية الى حافة الجرف. وكان السقف مهجورا ونمت عليه الطحالب مما زاد من كابة المظهر الموحش للمبنى الحجري الصغير الذي هو اقرب الى الكوخ مما يوحي به اسمه. وكان هذا في اول الامر المأوى الصيفي لاحد رعاية الماشية واصبح صاحب الحقل يستخدمه الان مخزنا للتبن مما جعله يفقد اي اثر. لقد ساءت اوضاع هذه القطعة من الارض كثيرا في غضون المائة سنة الماضية.

وقف تشارلز، وشرع يحدق به. لقد توقع ان يشاهد شبح امرأة هناك. وازدادت عصبية لأن المكان بدا موحشا اكثر مما ينبغي. فسار متجها صوبه كأنه رجل يقتحم دغلا مشهورا بنموره. وتوقع ان يشب عليه احدها، ولم يكن واثقا تمام الثقة من مهارته في استعمال البندقية.

كان ثمة باب قديم مغلق. دار تشارلز من حول المبنى الصغير، وشاهد نافذة صغيرة مربعة الى جهة الشرق. فحدق بها وأمعن النظر في الظلال في داخلها فتسللت الى منخريه الرائحة العفنة المنبعثة من التبن القديم. كان في وسعه ان يشاهد ركاما صغيرا منه عند نهاية المبنى قبالة الباب. فسار من حول الجدران الاخرى، الا انه لم يشاهدها هناك. القى نظرة وراءه صوب الطريق الذي جاء منه معتقدا انه لا بد قد سبقها، غير ان الارض الخشنة كانت ساكنة في هدوء ذلك الصباح المبكر. تردد، اخرج ساعته، وانتظر دقيقتين او ثلاث دقائق، لا يدري ماذا يفعل واخيرا دفع باب المبنى وفتحه.

استطاع ان يميز ارضية حجرية صلبة، ومربطا او ثلاثة مكسورة مليئة بتبن من المؤمل استخدامه مستقبلا، وذلك في طرف قصي من المبنى الا انه يصعب عليه ان يشاهد بسهولة اقسام المبنى البعيدة، اذا ان اشعة الشمس كانت تخترق المكان من

النافذة الصغيرة. تقدم تشارلز صوب عمود الضوء الساقط ثم توقف وقد انتابه ذعر مفاجئ. فقد تمكن من ان يميز وراء الضوء شيئاً متدلّياً من مسمار في احد اعمدة المرتبط القديمة: قبعة سوداء. لعل قراءته في الليلة الفائتة هي السبب الذي جعله يتوقع ان يشاهد شيئاً ما من وراء الالواح التي اتى عليها الدود والمثبتة وراء القبعة التي كانت متدلّية مثل مصاص دماء ينذر بالشؤوم فوق الشيء الذي لا يتمكن من مشاهدته. انما لا اعرف ما الذي كان يتوقعه. تنكيل مروع، جثة... اوشك ان يلتفت ويعدو خارجاً من المبنى ويعود الى بلدة لائم الا ان شبح صوت ما دفعه للسير الى الامام. ومدّ عنقه مذعوراً من فوق اللوح الخشبي.

لكن كلما ازداد اظهار هذه الاوهام الواعية للطبقات الحاكمة على انها مزيفة وانها اقل ارضاء للفطرة السليمة، كلما ازداد توكيدها على نحو دوغمائي وكما اصبحت لغة المجتمع القائم اكثر خداعا، واكثر وعظمية وروحانية.

ماركس: الايديولوجية الالمانية 1845-1846

طبيعي ان سارة وصلت البيت قبل السيدة فيرلي، على الرغم من ان البيت مفارقة في هذه الظروف، وادت دورها المعهود في صلوات السيدة بولتيني المسائية، ثم ذهبت الى غرفتها لقضاء بضع دقائق. وهنا انتهزت السيدة فيرلي الفرصة وكانت الدقائق القليلة هي كل ما تحتاج اليه. ثم جاءت بنفسها، وطرقت باب حجرة نوم سارة. فتحت سارة الباب وكان يعلو وجهها قناع الحزن المألوف، غير ان السيدة فيرلي كانت مترعة بالنصر.

- السيدة في انتظارك. على الفور من فضلك.

- اطرقت سارة، ثم اومأت بوهن. سددت السيدة فيرلي نظرة تهكمية مرة مثل مرارة عصارة الحصرم صوب ذلك الرأس الخنوع، ثم انصرفت على نحو حقود. وعلى اي حال، فإنها لم تذهب الى الطابق السفلي، بل انتظرت وراء ركن ما، حتى سمعت صوت باب حجرة استقبال السيدة بولتيني يفتح ويغلق من وراء السكرتيرة - الرفيقة. ثم تسللت بهدوء واخذت تصغي من وراء الباب.

لم تكن السيدة بولتيني قد جلست فوق عرشها هذه المرة بل وقفت قرب النافذة، واضعة كل فصاحتها في ظهرها.

- اترغبين في التحدث معي؟

لم تكن السيدة بولتيني راغبة بذلك على ما يبدو لأنها لم تتحرك ولم تتفوه بأي كلمة. لعل حذف لقب سيادة من السؤال هو الذي ابقاها صامتة، ثمه شيء في لهجة سارة جعل الحذف يبدو متعمدا. نقلت سارة بصرها من ظهر السيدة الاسود الى منضدة وقتية قائمة بينهما. وكان فوقها ظرف بلا ريب. اما رد فعلها الوحيد

ازاء هذا التكبر الجامد فقد تمثل في زم شفتيها على نحو دقيق ليتحول الى اصرار او اشمزاز، وهو ما يصعب تحديده، ولو عرفت هذه السيدة الحقيقة، فإنها ستكون في ضياع قليلا لأن افضل طريقة هي سحق هذه الافعى التي اخذتها في احضانها نادمة. واختارت السيدة بولتيني في النهاية ضربة فأس واحدة.

- مرتب شهر واحد في هذا الظرف وستأخذينه بدلا من الاشعار، وسترحلين عن هذا البيت صباح الغد.

اصبح لدى سارة الان من الوقاحة ما يجعلها تستخدم سلاح السيدة بولتيني بالمقابل. لم تتحرك ولم تجب بشيء، حتى ثارت ثائرة السيدة وتنازلت، واستدارت لتكشف عن وجه شاحب احترقت فوقه بقعتان ورديتان من العواطف المكبوتة.

- اسمعني يا انسة!

- الن اخبر بالسبب؟

- اتملكين الجرأة على الوقاحة؟

- امتلك الجرأة لاسأل عن سبب طردي.

- ساكتب الى السيد فورسايت. وسأتيقن من سجنك. انت فضيحة علنية.

احدثت هذه الثورة العاصفة بعض الاثر. فقد بدأت بقعتان تتوردان في وجني سارة. ران الصمت، ولاح انتفاخ صدر السيدة بولتيني المنتفخ في الاساس.

- انني امرك بمغادرة هذه الغرفة على الفور.

- حسنا جدا. طالما كل ما مارسه فيها ليس سوى النفاق. فاني سأصرف ببالغ السرور.

استدارت سارة لتصرف بعد ان اطلقت هذا السهم الاخير، غير ان السيدة بولتيني كانت واحدة من الممثلات اللواتي لا يستطعن الا ان يكون لهن الحضور الاخير في المشهد، او ربما انني اظلمها، وكانت تحاول ان تقوم باحسان، بغض النظر عن مدى عدم ملائمة ذلك للهجتها.

- خذي مرتبك.

التفت سارة اليها، وهزت رأسها بالنفي.

- في وسعك الاحتفاظ به. واذ كان في الامكان، فاني اقترح ان تشتري بهذا المبلغ البسيط آلة تعذيب. فانا واثقة ان السيدة فيرلي ستكون مسرورة لم يد العون لك واستخدامها ضد كل البائسين الذين يقعون تحت سطوتك.

- بدت السيدة بولتيني مثل سام في لحظة واحدة، اي، انها وقفت فاعرة فاها الكئيب.

- ستدفعين... ثمن ذلك...

- امام الله؟ انت متأكدة انه سيصغي اليك في اليوم الاخر؟

ابتسمت سارة للسيدة بولتيني اول مرة في تاريخ علاقتهما... ابتسامة صغيرة جدا الا انها ابتسامة ذات مغزى. مرت لحظات قصيرة ظلت فيها السيدة تحملق فيها على نحو غير مصدق - بل على نحو يرثى له كانت سارة هي الشيطان بعينه. ثم وجدت طريقها كالسرطان صوب كرسيها وانهارت فوقه كأنها مغشي عليها. امعنت سارة النظر لبرهة وجيزة، ثم سارت ثلاث او اربع خطوات سريعة صوب الباب وفتحته. كانت مدبرة المنزل قد اسرعت بالانتصاب مدعورة كأنها اعتقدت بأن سارة ستثب عليها. الا ان سارة تنحت جانبا، وأشارت الى السيدة بولتيني المتقطعة الانفاس، مما فسخ المجال امام السيدة فيرلي الذهاب لنجدتها.

- ايتها الوقحة الشريرة! لقد قتلتها!

- لم تجب سارة بشيء. وظلت تراقب برهة وجيزة السيدة فيرلي وهي تستخدم غاز النشادر لاعادة السيدة فيرلي الى رشدها. ثم استدارت، وذهبت الى غرفتها. اتجهت صوب مرآتها الا انها لم تنظر الى نفسها. بل غطت وجهها بكلمات يديها على نحو بطيء ومن ثم رفعت عينيها ببطء شديد من فوق الاصابع. لم يكن في وسعها ان تحتمل ما شاهدته. وبعد لحظتين اثنتين، كانت تركع قرب سريرها، وتبكي صامتة فوق الغطاء البالي.

اكان الافضل لها ان تصلي؟ كانت تؤمن بانها كانت تصلي.

عندما تملأ الحشرات اللاهثة الصدر،
وتهز يدان اتحدتا مصادفة،
بالم لذيذ وعلى الفور،
نبضات واعصاب اثنين،
عندما تتحاشى بخجل عينا
كائنا ببسر من قبل تلتقيان،
الاتحاد الوعي اللذيذ،
فالبدايات المؤكدة، انقول، هي،
تمهيد لعذاب الحب
الذي تغنيه الملائكة في السماء من فوق؟

ام هل هي النعمة السوقية
التي يتعظمها - بمثل هذه الدقة
كل من يتنفس تحت القمر وبشكل سريع؟

اي. إتش. كلف: قصيدة 1844

والان كانت نائمة.

ذلكم هو المشهد الفاضح الذي ابصرته عينا تشارلز عندما لم اطراف شجاعته
وتأهب للنظر من فوق الحاجز. استلقت متكورة مثل فتاة صغيرة تحت معطفها
القديم، وجذبت قدميها بفعل برودة الليل، ورأسها الى الجهة المقابلة له، مرتكز
فوق وشاح مزركش اخضر اللون، كأنه بذلك يحمي جوهرها الوحيدة العظيمة،
شعرها المسترسل، من القش من تحتها. وفي ذلك السكون، كانت انفاسها الرقيقة،
المنتظمة، مسموعة ومرئية وبدأت للحظة انها في نومها الاضطرابي على ذلك النحو
الهادئ، انما هو جريمة شريرة مثل اي جريمة اخرى كان يتوقعها تشارلز.

الا انه على الرغم من ذلك انتابته رغبة لا يمكن اطفائها بحمايتها. وقد مرت
به تلك الرغبة على نحو حاد حتى انه اعرض بوجهه واصابه الذعر لهذا الدليل الذي

انطوى عليه اتمام الطبيب، اذ ادرك ان مشاعره الغريزية تتمثل في ان يجثو الى جانبها ويطمئننها... بل اسوأ من ذلك، فقد اوحى له خصوصية المخزن المظلم ووضع الفتاة انه في غرفة نوم، وهو ايجاء لا سبيل الى مقاومته. وشعر ان قلبه يدق كأنه قطع ميلا عدوا. لقد كان النمر في داخله لا في داخلها. مرت برهة من الزمن ثم عاد ادراجه بهدوء ولكن بعجالة الى الباب. نظر من ورائه وهو يوشك على الذهاب، غير انه سمع صوته هو وهو ينادى اسمها. لم يكن عازما على التفوه به. الا انه خرج من بين شفتيه.

- انسة وودراف!

لا جواب.

ردد اسمها ثانية بصوت اعلى هذه المرة، كأنه موجه الى نفسه هو بعد ان جاشت الاعماق المظلمة بعيدا بأمان.

كانت هناك حركة صغيرة، خفيف ضعيف، ثم برز رأسها على نحو مضحك الى حد ما، في حين انتصبت واقفة بعجالة، واطلت من فوق الحاجز. كان لديه انطباع باهت من بين ذرات الغبار بالصدمة والذعر.

- اوه. سامحيني. سامحيني..

توارى الرأس عن الانظار في حين انسحب هو الى ضوء الشمس خارجا. وحلق نورسان من فوقهما وهما يصيحان صيحات خشنة. ابتعد تشارلز عن مرأى الحقول القريبة من حقل مصنع الالبان. لم يكن يخشى غروغان، او يتوقع رؤيته، الا ان المكان كان مكشوفاً اكثر مما ينبغي فقد يأتي صاحب الحقل لآخذ بعض التبن... على الرغم من انه لا يوجد اي سبب يدعو الى ذلك اذ ان الحقول خضراء عامرة بالعشب الربيعي وهو امر لم يفكر فيه تشارلز بسبب عصبية البالغة.

- سيد مميثسون؟

عاد مرة اخرى الى الباب في الوقت المحدد دون مناداتها باسمه ثانية على نحو اكثر توقا هذه المرة. وقف الاثنان تفصل بينهما عشرة اقدام (ثلاثة أمتار) تقريبا، سارة عند الباب وتشارلز قرب ركن المبنى. اسرعت بتعديل هندامها، وارتدت معطفها، وامسكت وشاحها بيدها كأنها استخدمته بمثابة فرشاة. كانت عيناها قلقتين، غير ان ملاحظها لا تزال رقيقة بفعل النوم على الرغم من احمرارها بسبب ايقاظها على نحو فظ.

كان مظهرها يوحي بالوحشية. ليست وحشية الجنون او الهستيريا بل تلك الوحشية نفسها التي شعر بها تشارلز عند الطائر الصغير المغرد... وحشية البراءة، التي تصل إلى حدّ التوق. ومثلما قهر ذلك الانحدار الحاد في تجواله في الفجر حزنه الجاد وعقده فإن ذلك الوجه الشديد القرب قهر وعقد كل الرعب الذي غذاه في عقل تشارلز الطبيبان الكفوئان ماتاي وغروغان. ان الفكتوريين لم يكونوا ليفكروا تفكيراً جدلياً على الرغم من هيغل. وهم لم يفكروا بالاضداد، بالايجابيات والسلبيات بوصفها مظاهر الكل نفسه. وكانت المتناقضات تقلقهم اكثر مما تفرحهم. فهم ليسوا افراد اللحظات الوجودية، بل سلسلة السبب والنتيجة، النظريات الايجابية الواضحة التي تدرس بعناية وتطبق بجد واجتهاد. وانهمكوا بالبناء مؤكداً، وانهمكنا نحن بالهدم منذ مدة طويلة حتى لاح البناء نشاطاً وقتياً زائلاً مثل الفقاعات. لهذا كان تشارلز صعب التعليل امام نفسه. واخيراً تمكن من انتزاع ابتسامة لا توحى بالاقناع ابداً.

- ان نشاهد في هذا المكان؟

تابعت نظره صوب حقل مصنع الالبان المتواري عن الانظار.

- انه سوق اكسمنستر وما ان يفرغ من الحلب حتى يذهب.

غير انها عادت داخل المخزن فلحق بها ووقفا متباعدين وكانت سارة قد ولته ظهرها.

- قضيت الليلة هنا؟

اومات. وخيم الصمت.

- الست جائعة؟

هزت سارة رأسها بالنفي وران الصمت من جديد. الا انها اهتته بنفسها هذه المرة.

- تعرف؟

- كنت خارجاً طيلة يوم امس، لم اتمكن من المجيء.

صمت.

- اشفيت السيدة بولتيني؟

- اعتقد ذلك.

- كانت في منتهى الغضب معي.
- رب ضارة نافعة. لم يكن بيتها المكان المناسب.
- واين هو المكان المناسب لي؟
- تذكر ان عليه انتقاء كلماته بعناية.
- هوني عليك. لا ينبغي ان ترثي لحالك.
- تقدم خطوة او خطوتين منها.
- لقد ساد القلق العظيم — وخرج فريق بحث للتفتيش عنك طيلة ليلة امس، في اثناء العاصفة.
- التفتت اليه كأنه ربما يخدعها. وادركت ان الامر ليس كذلك. وشاهد بدوره من خلال دهشتها انها لم تكن تخدعه عندما قالت.
- لم اقصد اثارة مثل هذا الاضطراب.
- حسنا. لا بأس. في وسعي القول ان الجميع استمتع بالاثارة. الا ان الواضح الان هو وجوب رحيلك عن لايم.
- احنت رأسها. كان صوته عنيدا اكثر مما ينبغي. تردد، ثم تقدم الى الامام ووضع يده فوق كتفها مطمئنا.
- لا تخشي شيئا. جئت لاساعدك في تنفيذ ذلك.
- ظن تشارلز انه بهذه الاشارة الصغيرة والتوكيد سيتخذ الخطوة الاولى في اطفاء النار التي قال له الطبيب انه قد اضرمها، لكن عندما يكون المرء نفسه هو الوقود، فإن مكافحة النيران مهمة يائسة. كانت سارة شعلة متوهجة تماما، عيناها متوهجتان وهي تسدد نظرة متقدة صوب تشارلز. جذب يده، الا انها امسكت بها، وقبل ان يتمكن من وقفها، رفعتها صوب شفيتها. فخطفها مذعورا وكأن رد فعلها يشبه تلقيها صفعة على وجهها.
- ارجو ان تسيطر على نفسك يا عزيزتي الانسة وودراف...
- اني...
- لا استطيع.
- قلما تنهت كلماتها الى السمع، الا انها اسكت تشارلز، وحاول ان يقنع نفسه انها قصدت انها لا تستطيع ان تسيطر على مدى امتناها لاحسانه... حاول،

حاول، الا ان ذكرى عابرة لكاتولوس⁽⁹²⁾ مرت به «كلما شاهدتك، يخنقني الصوت، يتلعثم لساني، وتتسلل النار البطيئة في اطرافي، ويلف اذني وعيني وهدير باطني، ظلام» كان كاتولوس يترجم سافو في هذا الصدد، ويبقى شعر سافو افضل وصف طبي للحب في الطب الاوروبي.

وقف تشارلز وسارة في مكانيهما ضحية الاعراض نفسها، ان كانا يدركانها، راغبين من جهة وممتنعين من جهة اخرى، على الرغم من ان الذي امتنع وجد نفسه عاجزا عن الانصراف. مرت اربع او خمس ثوانٍ من العواطف المكبوتة كبتا شديدا، بعدها لم تستطع سارة احتمال ما هو اكثر من ذلك. فخرت جاثية على ركبتيها عند قدميه، واندفعت منها الكلمات.

- لقد كذبت عليك، لقد تأكدت بأن السيدة فيرلي رأيتني، اذ كنت اعرف ان من شأنها ان تخبر السيدة بولتيني.

بدا تشارلز يفقد ضبط النفس الذي شعر انه يتحكم فيه. حدق في ذهول الى الوجه الذي كان يرنو اليه. من الواضح انه كان يطلب منه الصفع، الا انه هو نفسه كان يطلب المشورة طالما ان الاطباء خذلوه ثانية. فقد انتظرت السيدات الشابات المرموقات اللواتي عمدن الى حرق البيوت وكتابة الرسائل المجهولة حتى يقبض عليهن قبل ان يقدمن على الاعتراف بذنبهن، مع مراعاة لطيفة للاحكام الأخلاقية الواضحة.

وثبت الدموع من مقلتيها. ثروة هبطت عليه، عالم ذهبي؛ وازاء ذلك، مع نزيز بسيط من الغدد المسيلة للدموع، قطرة او قطرتان مرتعشتان من ماء، في منتهى الصغر، في منتهى الزوال، في منتهى الاختصار. الا انه على الرغم من ذلك وقف مثل رجل تحت سد ينهار، بدلا من رجل من فوق امرأة تبكي.

- لكن لماذا؟

(92) غايوس فاليريوس كاتولوس (84-54 ق. م) شاعر غنائي روماني، تعد مفرداته عن الحب والكراهية من اعذب الشعر الغنائي في روما القديمة عبر في 25 قصيدة من قصائده البالغة 113 عن عنفوان حبه الذي لا طائل من ورائه لامرأة سماها ليزيبيا، وهي امرأة مجهولة الهوية. اما قصائده الاخرى فتعبر عن ازدرائه يوليوس قيصر، وغيره من الشخصيات الاننى مرتبة. (المترجم)

رفعت بصرها اليه ثانية بمنتهى الجد والتضرع، باعلان لا يرقى اليه الشك حتى باتت الكلمات غير ضرورية، بوضوح جعل اي مراوغة - اي عبارة من مثل: «يا عزيزتي الانسة وودراف - مستحيلة».

مد يده ببطء وساعدها على النهوض. وظلت عيناها مشدودتين صوب احدهما الاخر، كأنهما تحت تأثير التنويم المغناطيسي. ولاحت له - او لاحت له تلك العينان الواسعتان المدمرتان - اجمل شيء شاهده في حياته. لا يهم ماذا يكمن من ورائهما فقد تغلبت اللحظة على الحياة.

اخذاها بين ذراعيه، وشاهد عينيها عن قرب وهي تتمايل في احضانه. ثم اغلق عينيهِ وعثر على شفتيها. لم يشعر بطراوتها حسب، بل شعر بكل ثورة جسدها القرية منه، ضالتها، هشاشتها، ضعفها، رقته...
دفعها دفعة قوية بعيدا عنه.

نظرة ملؤها العذاب، كأنه احقر مجرم ضبط متلبسا بارتكاب ابشع جرائمه. ثم استدار واندفع صوب الباب - ليدخل في رعب اخر. وهو ليس رعب الطبيب غروغان.

وهي بثوبها الموسليني الابيض تنتظر هناك
في الشرفة بقلب شديد الترقب
في حين لا يزال الهواء الرقيق
يتغلغل في الداخل.

هاردي: صندوق الموسيقى

لم تتمكن ايرنستينا من النوم في تلك الليلة السابقة. اذ كانت تعرف تماما نوافذ غرفة تشارلز في وايت لاين. ولم تحقق في ملاحظة ان ضوء الغرفة ما زال منيرا بعد ان اخذ شخير حالتها يزحف في ارجاء البيت الذي يلفه الصمت. فقد شعرت بادئ ذي بدء انها جريحة الكبرياء، كما شعرت بالذنب ايضا وبنفس القدر. لكن عندما انسلت من فراشها للمرة السادسة عشرة لتأكد من ان النور لا يزال مضاء، وشاهدته مضاء حقاً، بدا ذنبها يتصاعد. مما لا ريب فيه ان تشارلز كان مستاء منها بحق.

والان، وبعد ان انصرف تشارلز، خاطبت ايرنستينا نفسها - ومن ثم الحالة ترانتر - بانها لا تهتم مطلقاً بوينزيات، فقد تعتقد ان الحصرم من شأنه ان يكون استعارة بستانية ملائمة اكثر. المؤكد انها حاولت اقناع نفسها بقبول دور امر القلعة بعد ان توجه تشارلز الى بيت عمه، بل انها شرعت حقاً في وضع قائمة بالمواد التي ينبغي اعدادها... الا انه موت ذلك الحلم المفاجئ جاء اشبه بارتياح مؤكد. فالنساء اللواتي يقمن بادارة البيوت الكبيرة بحاجة الى مسحة القائد من حولهن. اما ايرنستينا فلم تكن تملك اي تطلعات عسكرية. كانت تهوى البذخ، ان تمثل بين يديها، ان لم يكن بين قدميها، الاخرون. وكانت تملك احساساً برجوازيًا بالتناسب. فوجود ثلاثين غرفة بينما لا تكفيها سوى خمس عشرة غرفة ليس الا حماقة. ربما ورثت هذا الاقتصاد النسبي في النفقات عن ابيها الذي امن سرا بأن الارستقراطية رديف المفخرة الزائفة على الرغم من ان هذا لم يمنعه من اعتماد جزء ليس باليسير من تجارته على ذلك الخطأ او ادارة بيت في لندن من شأن عدد

كبير من النبلاء ان يكونوا سعداء لـ - او ينقضوا على - اول فرصة لقب يعرض على ابنتهم العزيزة المحبوبة. ولكي لا ننكر محاسنه، فهو قد يرفض لقب الفايكونت على انه متجاوز الحد، اما لقب البارون فهو ملائم كل الملاءمة.

انني لا اوفي حق ايرنستينا التي كانت قبل كل شيء ضحية الظروف، البيئة الضيقة الافاق. من المؤكد ان نظرتها المزدوجة اساسا الى المجتمع هي التي تجعل الطبقة الوسطى هذا المزيج الفريد من الخميرة والعجين. اننا نميل اليوم الى ان ننسى ان تلك الطبقة كانت دوما الطبقة الثورية العظيمة. ونرى اكثر المظهر الشاحب، البرجوازية بوصفها معقل الرجعية، الاهانة الكبرى، انانية وملتزمة بالعادات والتقاليد دوما. ان هذه الخاصية المزدوجة الشبيهة بيانوس⁽⁹³⁾ مستمدة من فضيلة الطبقة الوحيدة وهي: ان هذه الطبقة هي الوحيدة بين الطبقات الثلاث الكبرى في المجتمع التي تحتقر نفسها بكل اخلاص وعلى نحو مألوف. من المؤكد ان ايرنستينا لم تكن استثناء هنا. فلم يكن تشارلز وحده الذي سمع سخرية غير سارة في صوته، بل سمعت هي ذلك ايضا. الا ان مأساتها (المأساة الوحيدة التي تظل قائمة) هي انها كانت تسيء استخدام موهبة ازدراء الذات هذه وبهذا تجعل من نفسها ضحية افتقار طبقتها الدائم الى الايمان بنفسها. وعوضا عن ان ترى اخفاقاتها سببا في رفض يحمل نظام الطبقة، فإنها رأتها سببا في البحث عن الاسمى. اننا حقا لا نستطيع ان نلومها. فقد تعلمت تماما ان تنظر الى المجتمع على انه مجموعة كبيرة من الدرجات في سلم ما، وبهذا تقلل من شأن مكانتها على انها خطوة نحو شيء يفترض فيه ان يكون افضل. وهكذا («انني خجلة، لقد تصرفت مثلما تتصرف ابنة تاجر ملبوسات») فإن ايرنستينا تخلت في الهزيع الاخير من الليل عن محاولة النوم، ونهضت وارتدت ثوبها الفضاض وفتحت مفكرتها. لعل تشارلز سيرى ان نافذتها كانت هي الاخرى مضية على نحو تكفيري في الظلام الدامس الذي اعقب عاصفة الرعد. وفي هذه الاثناء شرعت بالكتابة.

«لا استطيع النوم. تشارلز الاعز مستاء مني - لقد انزعجت انزعاجا شديدا بسبب الاخبار الفظيعة من وينزيات. اردت البكاء، كنت في منتهى

(93) يانوس: اله الابواب والبوابات والبدائيات عند الرومان. ويصور عادة بوجهين ينظران الى اتجاهين متباينين. (المترجم)

الضيق، الا انني تفوهت على نحو طائش باشيء كثيرة غاضبة تنطوي على الحقد - وانا اسأل الله ان يغفر لي اذ انني تفوهت بها بسبب حبي لتشارلز الاعز لا بسبب الخبث. لقد بكيت مر البكاء عندما خرج. ليكن هذا درسا لي بأن احمل الكلمات الجميلة لمراسيم الزواج في ضميري وان اشرف تشارلز الاعز واطيعه حتى عندما تدفعني مشاعري الى الاختلاف واياها. دعني أتعلم بحمد وتواضع كيف احني ارادتي البغيضة والفظيعة امام حكمته الاعظم شأنًا، لاصن حكمه واربط نفسي بفؤاده لأن «عذوبة الندم الصادق هي بوابة النعيم المقدس».

ربما لاحظت افتقار ايرنستينا المحدد الى الجفاف المؤلف في هذه الفقرة المؤثرة. الا ان تشارلز ليس الوحيد الذي له العديد من الاصوات. وكما تأملت بأن يرى الضوء في وقت متأخر في حجرهما، فإنها واجهت نهارا قد يقنعها فيه بمشاركة هذا السجل الحميم عن روحها قبل ان تتزوج. كتبت جزئيا من اجل عينيه - وجزئيا من أجل عينيه شأنها في ذلك شأن اي امرأة فكتورية. اوت الى فراشها مستريحة البال، عروسا طاهرة في روحها تماما وعلى نحو ملائم، مما لا يترك امامي اي خيار سوى الاستنتاج بانها لا بد ان تفوز في نهاية المطاف بتشارلز بعد خيانه.

كانت مستغرقة في نوم عميق عندما وقعت حادثة صغيرة دونها بأربعة طوابق. لم ينهض سام من النوم مبكرا مثل سيده في ذلك الصباح وعندما ذهب الى مطبخ الفندق لتناول الشاي والجبن بالخبز المحمص - شيء واحد واطب عدد قليل من الخدم في العصر الفكتوري على القيام به هو تناول طعام اقل من سادتهم بغض النظر عن حاجة معدهم - أدرك من رؤية حذاء تشارلز ان سيده قد خرج، وان على سام ان يعد العدة وينتهي للرحيل في الظهيرة. اخفى سام صدمته. فاعداد العدة ليس سوى عمل لا يستغرق اكثر من نصف ساعة، وهو لديه امور اكثر الحاحا.

ذهب على الفور الى بيت الخالة ترانتر. ولسنا في حاجة الى الاستفسار عما قاله سوى ان ذلك الشيء كانت تشوبه المأساة طالما ان الخالة ترانتر (التي حافظت على ساعات ريفية لا تنم عن اللياقة) وجدت لدى هبوطها الى المطبخ بعد دقيقة واحدة ماري وهي منهارة تبكي عند منضدة المطبخ. طرحت الاسئلة على ماري وسرعان ما انتزعت الخالة ترانتر المعلومات بأسلوبها الرقيق عن مصدر المأساة، واستعملت علاجا اكثر رقة من علاج تشارلز. في الامكان صرف الخادمة حتى

يحين موعد تلبية حاجات ايرنستينا؛ كانت ستائر الانسة ايرنستينا الموشاة تبقى مسدلة كما هو مألوف حتى الساعة العاشرة، وهذا يعني مهلة قدرها ثلاث ساعات تقريبا. وكوفئت الخالة ترانتر باكبر ابتسامة عرفان بالجميل شهدها العالم في ذلك النهار. وبعد خمس دقائق، شوهد سام منبطحا في وسط شارع برود. لا ينبغي للمرء ان يجري باقصى سرعة فوق الحصى، حتى لو كان ذلك من اجل ماري.

دعني احب حبيبي لنفسى حسب،
واعرف معرفتي غير المعروفة للآخرين
لن ادعو شاهدا لرواي:
ارى الكل ولا يراى الجميع...

اي. إتش. كلف: قصيدة 1852

يصعب تحديد من الذي صدم اكثر من الاخر - السيد الجامد على بعد ستة اقدم (1.8 متر) من الباب او الخادمان اللذان لم يكونا اقل جمودا على بعد ثلاثين ياردة (27 مترا). وبلغ ذهول الاخرين حدا جعل سام لا يحرك حتى ذراعه من حول خصر ماري. قطع المشهد ظهور الشخص الرابع: سارة على نحو جامع، عند مدخل الباب. وتراجعت بسرعة كبيرة حتى ان المشهد قلما كان اكثر من ان يدرك او يحس به. غير ان ذلك كان كافيا. اذ فغر سام فاه، وسقطت ذراعه من حول ماري.

- ما الذي تفعله هنا؟
- اتنزه يا سيد تشارلز.
- اظني تركت تعليمات لـ...
- لقد نفذتها يا سيدي. كل شيء جاهز.
علم تشارلز انه يكذب. ابتعدت ماري برقة تناسبها. تردد تشارلز ثم تقدم صوب سام الذي ومضت في ذهنه صور الطرد والهجوم.
- لم نعرف يا سيد تشارلز. صدقني لم نعرف.
تألفت عينا ماري بنظرة خجل سددها نحو تشارلز: ثمة صدمة فيها. وخوف، لكن تشوبها مسحة خفيفة من اعجاب سري. فخطبها.
- اتركينا وحدنا لحظة من فضلك.
احسنت الفتاة رأسها، وسارت بعيدا عن مدى السمع. تفرس تشارلز في سام الذي عاد الى وضع الخادم الذليل، وأمعن النظر في حذاء سيده.

- لقد جئت الى هذا المكان في مهمة ذكرتها.
- نعم يا سيدي.
- خفض تشارلز من صوته.
- بناء على طلب الطبيب الذي يعالجها. وهو يدرك ادراكا تاما الظروف.
- نعم يا سيدي.
- التي لا ينبغي البوح بها تحت اي ذريعة.
- افهم ذلك يا سيد تشارلز.
- وهل تفهم هي؟
- رفع سام نظره.
- لن تقول ماري شيئا يا سيدي. اقسم بحياتي.
- اطرق تشارلز وهو يدرك ان وجنتيه محمرتان تماما.
- حسنا جدا، انني. انني اشكرك. وسأنظر في الامر... هنا ثم تحس محفظة نقوده.
- اوه، لا يا سيد تشارلز.
- تراجع سام خطوة الى الوراء على نحو درامي مبالغ فيه ليقنع المراقب الخالي من الاهواء.
- ابدا.
- هنا توقفت يد تشارلز. تبادل السيد والخادم نظرة. لعلهما ادركا ان تضحية ذكية قد قدمت.
- حسنا جدا. سأترك الامر لك. لكن بلا كلمة واحدة.
- اقسم بذلك يا سيد تشارلز.
- استدار سام بعد ان افرط في المغالاة في القسم، وخرج وراء ماري التي كانت في انتظاره مستديرة الظهر على نحو متحفظ وعلى بعد حوالي مائة ياردة (واحد وتسعين مترا) بين السرخس والاشجار الشائكة.
- ليس في وسع المرء الا ان يخمن السبب الذي جعل مخزن الغلال وجهتيهما.
- ربما انتابتك الحيرة لأن فتاة عاقلة مثل ماري تنفجر باكية لفكرة الغياب بضعة ايام.
- لكن لتترك سام وماري في حين يدخلان الغابة ثانية ويسيران بصمت مذهولين

ومن ثم ينظر احدهما الى الآخر جلسة - وينتهي بهما الامر الى ضحكة صامتة،
ولنعد الى تشارلز صاحب الوجه القرمزي.

راقبهما وهما يتواريان عن الانظار، ثم ألقى نظرة الى مخزن الغلال الذي لا
يوحى بالحقيقة. لقد شق تصرفه اعماق كيانه، غير ان الهواء الطلق اتاح له فرصة
التأمل برهة وجيزة. وكما في اغلب الاحوال، فقد جاء الواجب لنجدته. لقد زاد
من لهيب المحرقة اشتعالا على نحو صارخ. وربما كانت الضحية الاخرى تحتضر الان
تحت لهيبها، ملقيا بذلك حبل المشنقة من فوق العارضة الخشبية... تردد، ثم رجع
الى مخزن الغلال وسارة.

كانت تقف بجانب حافة النافذة، بحيث لا يمكن مشاهدتها من الخارج كأنها
حاولت ان تسمع ما كان يدور من حديث بين تشارلز وسام. ووقف هو قرب
الباب.

- لا بد لك ان تغفري لي لانتهازي فرصة لا يمكن الصفح عنها من موقفك
البائس.

توقف هنيهة ثم استأنف كلامه.

- لا في هذا الصباح وحده.

اطرقت وارتاح هو عندما رأى انها بدت مرتبكة، ولم تعد غاضبة.

- لقد كان اخر شيء اثنائه هو مداعبة عواطفك. لقد تصرفت تصرفا طائشا.

بل في منتهى الطيش. واللوم يقع علي وحدي انا.

تفرست في الارضية الحجرية الصلبة الممتدة بينهما، سجينة تنتظر قرار الحكم.

- لقد وقع الضرر الان، والاسفاه. ولا بد لي من ان اسألك مساعدتي في

اصلاحه.

مكثت رافضة دعوته للكلام.

- لدى اعمال تتطلب وجودي في لندن، ولا ادري كم سيطول غيابي.

وهنا نظرت اليه نظرة لم تدم سوى لحظة واحدة. فتلعثم وهو يستأنف حديثه.

- اعتقد انه ينبغي لك الذهاب الى اكستر. وارجو ان تأخذي النقود الموجودة

في هذه المحفظة... بمشاباة قرض ان شئت. حتى تتمكني من العثور على مكان

لائق... واذا ما احتجت الى اي مساعدة مالية اضافية.

ضعف صوته حتى تلاشى، وبات شكليا اكثر مما مضى. لقد عرف انه لا بد ان يظهر امامها شخصا جديرا بالازدراء، اذ ولته ظهرها.
- لن اراك ثانية.

- لا تتوقعي مني ان انكر ذلك.
- على الرغم من ان رؤيتك هي كل ما اعيش من اجله.
ظل التهديد الفظيع معلقا في الصمت الذي ران بعد ذلك. لم يملك المرأة ليدفع به علانية. شعر كأنه رجل مكبل بالاغلال. وجاء خلاصه على نحو غير متوقع مثلما يأتي الى سجين صدر الحكم بادانته... نظرت من حولها وقرأت افكاره بوضوح.

- لو اردت قتل نفسي لكنت لدى اسباب كافية قبل الان.
نظرت الى خارج النافذة.
- انني اقبل قرضك... بامتنان.
اغمض عينيه في لحظة شكر صامت. ووضع محفظة النقود - وهي غير المحفظة التي سبق ان صنعتها له ايرنستينا - فوق حافة بارزة قرب الباب...
- ستذهبين الى اكستر؟
- ان كانت تلك هي نصيحتك.
- انها كذلك مؤكدا.
احنت رأسها.

- لا بد لي من ان اقول لك شيئا اخر. ثمة حديث في البلدة عن ارسالك الى مستشفى الامراض العقلية.
ومضت عيناها من حولها.
- قد جاءت الفكرة من منزل مارلبورو بلا ريب. ولا ضرورة لأن تنظري للمسألة نظرة جادة. فعلى الرغم من كل ذلك، في وسعك ان تجنبني نفسك الحرج اذا لم ترجعي الى لايم.
تردد ثم قال.

- اعرف ان فريقا سيأتي عما قريب للبحث عنك ثانية. لهذا السبب اتيت مبكرا.
- ان صندوق ملابسي...

- سأهتم بذلك. وسأعمل على ارساله الى المراهب في اكستر. وقد فكرت لو انك كنت تملكين القوة، فإن الافضل السير الى اكسماوث كروس. فهذا من شأنه ان يجنب... كل واحد منا القضيحة. الا انه ادرك ماذا كان يطلب منها. قبلدّة اكسماوث تقع على بعد سبعة اميال. اما كروس، التي تمر فيها العربات، فهي ابعد من ذلك بميلين اثنين. وافقت.

- ولستخبرين السيدة ترانتر حالما تعثرين لك على مكان؟

- ليس لي اي معارف.

- في وسعك اعطاء اسم السيدة تالبوت واسم السيدة ترانتر. وسأتحدث اليها بهذا الشأن. وارجو الا تكوني مترفعة اكثر مما ينبغي وان تطلبي مبلغا اخر من المال اذا دعتك الضرورة. وسأتدبر ذلك ايضا قبل ذهابي.

- لن يكون ذلك ضروريا.

كان صوتها ضعيفا لا يكاد يسمع.

- غير انني اشكرك.

- اعتقد انني انا الذي يجب ان اشكرك.

نظرت الى عينيه. كان السهم لا يزال فيهما، شاهدته كله.

- انت امرأة رائعة يا انسة وودراف. واشعر بالخجل الشديد لأنني لم ادرك ذلك من قبل. فقالت.

- نعم. انا امرأة رائعة.

غير انها تفوهت بعبارتها دون كبرياء، دون سخرية، بل بما لا يزيد عن البساطة المرة. وراى الصمت من جديد. فتحمله بقدر ما يستطيع ثم اخرج ساعة جيبه ذات الغطاء المعدني وهي اشارة غير ذكية على انه يريد الانصراف. وشعر بارتباك، صلابته، وكرامتها التي تفوق كرامته، ربما لا يزال يستعذب طعم شفيتها.

الن تصحبي حتى نصل الممر؟

لم يرغب في ان تراه خجلا في لحظة الفراق الاخير هذا. ولو ظهر غروغان فلن يهم الان. غير ان غروغان لم يظهر. سارت سارة من امامه بين السرخس

الميت والاعشاب الحية في ضوء الشمس الباكر، متألقة الشعر، صامته لا تلتفت البتة. ادرك تشارلز تماما ان سام وماري ربما كانا يراقبانهما، الا ان الافضل الان ان يشاهدانه علنا واياها. كان الطريق يرتفع من امامهما بين الاشجار حتى وصل الى نهاية المطاف الى الممر الرئيس. استدارت، فتقدم الى جانبها ومد يده. ترددت لحظة، ثم مدت يدها. فامسك بها بقوة محرما بذلك اي حماقة اخرى. وغمغم.

- لن انساك ابدا.

رفعت وجهها اليه بحركة غير محسوسة بل ثابتة من عينيها، كان هناك شيئا لا بد له من ان يراه، ولم يفت الاوان على ذلك بعد: حقيقة تتجاوز كل الحقائق، عاطفة تتجاوز كل العواطف، تاريخ يتجاوز كل تصوراته عن التاريخ. كان في وسعها ان تعبر عن عوالم، لكنه على الرغم من ذلك، علم انه اذا لم يستطع فهم تلك العوالم دون ان تعبر هي عنها...

ظلت نظراتهما متشابكة مدة طويلة، ثم خفض من ناظريه، وترك يدها. بعد دقيقة واحدة نظر من ورائه. فشاهدها واقفة حيث تركها وهي تراقبه. فرفع قبعته بينما لم تبد اي شارة.

بعد مرور عشر دقائق توقف عند بوابة في الطريق المواجه للبحر المؤدي الى حقل مصنع الالبان، وكانت تطل على مشهد يمتد الى ما وراء الحقول حتى الكوب. وفي مكان بعيد الى الاسفل، شوهده شخص قصير القامة يرتقي ممر الحقل صوب البوابة التي يقف عندها تشارلز. تراجع قليلا الى الوراء، تردد لحظة... ثم استأنف سيره على امتداد الطريق المؤدي الى الممر ومن ثم الى البلدة.

وانتزعت الوردة المتعطنة من الجدار.

هاردى: في اثناء الريح والمطر

- كانت تنزّه.

وهكذا اثبت تغييره ثيابه مرة ثانية مظهرا لا جدوى منه.

- اردت ان اجعل ذهني صافيا. لقد نمت نوما سيئا.

- وانا كذلك.

ثم اضافت:

- قلت انك مرهق الى حد لا يصدق.

- حقا.

- الا انك بقيت ساهرا حتى بعد الساعة الواحدة.

التفت تشارلز بغتة صوب النافذة.

- كانت لدي اشياء كثيرة انظر فيها.

يشير دور ايرنستينا في هذا الحديث المتصالب الى فشل محدد في الاحتفاظ في ضوء النهار بنبرة التوصل الذاتي الليلية. غير انها عرفت من سام والخالة ترانتر المرتبكة ان تشارلز خطط للرحيل عن بلدة لائم في ذلك اليوم اضافة الى قيامه بنزّهته. لقد وطدت العزم على الا تطالب بأي تفسير لهذا التغير المفاجئ في رأيه. لتترك سيادته يوضح ذلك في وقته المناسب.

لما جاء اخيرا، قبل الساعة الحادية عشرة، وفي حين جلست وهي تزم شفيتها على نحو متكلف، منتظرة اياه في غرفة الجلوس الخلفية، كان هو من القسوة بحيث تحدث حديثا مطولا في الردهة مع الخالة ترانتر، وعلى نحو غير مسموع، هو اسوأ ما في الامر. وهكذا ظلت تغلي من اعماقها.

لعل اقل ما شعرت به من استياء انها صرفت وقتا طويلا في العناية بهندامها في ذلك الصباح ولم يسمعها اي كلمة اطراء لذلك. كانت ترتدي ثوبا ورديا

خصيصا لتناول الفطور ضيقا قرب الابط ثم ينثني على نحو ضخم عند منطقة الرسغ. وكان بذلك يكشف هشاشتها بصورة جميلة جدا. ولعبت الاشرطة البيض في شعرها الناعم وعطر ماء الورد المنبعث منها على نحو رقيق دورها. كانت افروديت من سكر، نهضت من فراش ذي ملاء أبيض على الرغم من عينيها المتورمتين قليلا. ربما وجد تشارلز انه سهل عليه ان يكون قاسيا. الا انه انتزع ابتسامة وامسك باحدى يديها وشرع يربت فوقها وهو جالس الى جوارها.

- يا اعز الناس. لا بد لي من طلب الغفران. انا لست على حقيقتي. واخشى انني قررت وجوب الذهاب الى لندن.
- اوه يا تشارلز.

- اتمنى لو ان الامور ليست كذلك. غير ان هذا التطور الجديد في الاحداث قد حتم علي رؤية مونتاغ على الفور.
كان مونتاغ هو المحامي - في تلك الايام التي سبقت وجود المحاسبين - الذي كان يعتني بشؤون تشارلز.

- الا تستطيع الانتظار حتى عودتي؟ انها عشرة ايام اخرى لا اكثر.
- سأعود لآخذك.

- اليس في وسع السيد مونتاغ الحضور الى هنا؟
- لا، مع الاسف. هناك العديد من الوثائق. يضاف الى ذلك، ليس ذلك هو هدي الوحيد. لا بد لي من اخبار والدك بما قد حدث.
خلصت يدها من بين ذراعه.

- ولكن ما هو الشيء الذي يتعلق به؟
- ان كل شيء يتعلق به يا طفلي العزيزة. لقد عهد الي برعايتك ومثل هذا التحول الخطير في مستقبلي...

- لكن لا يزال لديك دخلك الخاص!
- حسنا... نعم، مؤكدا، سأظل دوما ميسور الحال، الا ان هناك بعض القضايا الاخرى. القلب...

- كنت قد نسيت ذلك. حقا. يستحيل ان اتزوج رجلا من عامة الناس.
القت نظرة خاطفة اليه بثبات ساخر ملائم.

- اصبري يا حبيبي. لا بد من قول هذه الاشياء - انت ستأتين بمبلغ كبير من المال. من المؤكد ان عواطفنا الخاصة ذات اهمية قصوى. وعلى اي حال، هناك... حسنا، جانب قانوني وتعاقدي في موضوع الزواج وهو.

- هراء!

- يا اعز الناس يا تينا...
- انت تعلم جيدا انهم سيسمحون لي بالزواج من اي شخص لو اردت ذلك.

- ربما يكون الامر كذلك. لكن حتى اكثر الاءاء ولها يفضلون ان يكونوا على علم...
- كم غرفة في بيت بيلغرافيا؟

- ليست لدى اي فكرة.
تردد، ثم اردف.
- يحتمل عشرون غرفة.
- وذكرت في يوم ما ان دخلك في السنة الواحدة يصل الى الفين وخمسمئة، وسيكون مهري...
- سواء كانت الظروف المتغيرة لا تزال كافية لتحقيق الراحة ام لا، فذلك ليس موضوع البحث او النقاش.

- حسنا جدا. لنفترض ان والدي اخبرك انك لن تستطيع الزواج بي فما الذي سيحدث؟
- لقد اسأت فهمي. انني اعرف واجبي. ولا يمكن للمرء ان يكون كثير الوسوس في مثل هذه النقطة.

جرى هذا الحديث دون ان يجرؤ احدهما على النظر في وجه الثاني.
خفضت رأسها معترضة على نحو واضح، متمرد، بينما نهض ووقف من ورائها.

- ليس الامر اكثر من شكليات. الا ان مثل هذه الشكليات ذات اهمية. اطرقت بعناد.

- لقد سئمت من بلدة لائم، وارك هنا اقل مما في المدينة.

ابتسم.

- غير معقول.

- يبدو ذلك اقل.

ارتسم خط صغير من الوجوم على فمها. ما من شأن غضبها ان يستكين. سار صوب الموقد ووقف قبالة، واضعا ذراعه فوق حافته وهو يتسم لها. غير انها كانت ابتسامة تخلو من الفكاهة، قناعا. لم تكن لتعجبه عندما تكون صعبة المراس. فذلك يخالف مخالفته شديدة ثيابها الانيقة التي صممت لتظهر الافتقار التام الى التناسب خارج اطار البيت. لقد قدمت الخطوة الاولى في الثياب المعقولة التي من شأنها ان تكون ذات نتائج خطيرة السيدة بلومر الشائنة قبل عقد ونصف من الزمن الذي اكتب عنه. الا ان تلك المحاولة المبكرة في ارتداء البدلة والسروال هزمت على يد التنورة المنتفخة ذات الاسلاك - حقيقة بسيطة ذات اهمية كبيرة في فهمنا الفكتوريين. لقد وهب لهم العقل، فاختروا حماقة طولها ستة اقدام (1.8 متر) لا توازيها حماقة في اكثر الفنون الثانوية المحكومة بالحماقات.

على اي حال، لم يفكر تشارلز، في اثناء الصمت الذي اعقب ذلك، في سخافة الازياء الرفيعة، بل في كيفية الرحيل بلا ضجة اخرى. ولحسن حظه، كانت تينا في الوقت نفسه تفكر في وضعها: فاثارة مثل هذا اللفظ بسبب غياب قصير الامد انما هو تصرف الخادومات (فقد اوضحت الحالة ترانتر السبب الذي جعل مارى تعجز عن الاستجابة لجرس الاستيقاظ) علاوة على ذلك، فإن زهو الذكر يكمن في اطاعته، اما الانثى، فإنها تلجأ الى الطاعة كي تحقق النصر النهائي. ولسيحين الوقت الذي يضطر فيه تشارلز الى دفع ثمن قسوته. وكانت ابتسامتها الصغيرة وهي ترفع بصرها اليه ابتسامة الندم والتكفير.

- ستكتب الرسائل يوميا؟

مد يده، ولمس وجنتها.

- اعدك.

- وان تعود بأسرع ما تستطيع؟

- حالما اتمكن من تنفيذ القضايا مع مونتاغ.

- سأكتب الى بابا مع اوامر صارمة باعادتك مباشرة الى هنا.

انتهز تشارلز فرصته.

- وساحل الرسالة اذا كتبتها على الفور. فسأغادر في بحر ساعة من الزمن. وقفت ومدت يديها. كانت تتمنى ان يقبلها، الا انه لم يستطع حمل نفسه على تقبيلها على فمها. فامسك بكتفيها وضغط قليلا على صدغيها. ثم استعد للانصراف. الا انه توقف لسبب غريب. نظرت ايرنستينا مليا، بخنوع واستحياء امامها الى ربطة عنقه الداكنة الزرقاء والدبوس اللؤلؤي المثبت فيها. ان السبب الذي جعل تشارلز لا يستطيع الذهاب لم يكن واضحا توا. في الواقع، هناك يدان اثنتان عالقتان في جيبي صدرته السفليين. وادرك ثمن اطلاق سراحه ودفعه. لم تنهار اي عوالم، لا صرخة داخلية، لا ظلمة تغلف العينين والاذنين في حين وقف يضغط شفتيه فوق شفتيها بعض الوقت. كانت ايرنستينا ترتدي ثيابا في غاية الجمال. وتوغلت في ذهن تشارلز صورة، ربما انطباع ملموس اكثر، بجسد ابيض صغير ورقيق. ادارت رأسها فوق كتفه، واستكانت بين ذراعيه. وبينما كان يربت ويمسك ويهمس بوضع كلمات سخيفة وجد نفسه في تمام الحرج بغتة. شعر انها اثارت رجولته. كان هناك دوما مزاج ايرنستينا، استياؤها الغريب البسيط واهواؤها العاطفية، وعد بتمرد جامع مدفون... رغبة في تعلم المشاكسة والعناد، ان تقضم ذات يوم على استحياء ولكن بلذة، فاكهة محرمة. لعل ما شعر به تشارلز دون وعي منه ليس اكثر من الجاذبية التي لا تذوي عند النساء السطحيات: اي في وسع المرء ان يصنع منهن ما يريد. اما الشيء الذي شعر به شعورا واعيا فهو الاحساس بالتلوث: ان يشعر برغبة جنسية الان بينما لمس شفتي امرأة اخرى في ذلك الصباح.

قبل ايرنستينا قبلة سريعة فوق قمة رأسها، وتحرر برقة من بين اصابعها التي قبلها، وانصرف بعد ذلك.

كانت لا تزال امامه محنة قاسية طالما ان ماري كانت تقف قرب الباب حاملة قبعتها وقفازه. كانت تسدد نظراتها صوب الارض الا ان وجنتيها محمرتان. اختلس نظرة سريعة الى الباب المغلق للغرفة التي خرج منها بينما انهمك في ارتداء قفازيه.

- قد شرح لك سام ظروف هذا الصباح؟

- نعم يا سيدي.

- فهمت؟

- نعم يا سيدي.

نزع احد قفازيه ثانية، وتحسس جيب صدريته. لم تتراجع ماري خطوة الى الوراء على الرغم من انها خفضت رأسها اكثر مما مضى.

- اوه يا سيدي. لا اريد ذلك.

الا انها تلقتها على الفور. وبعد لحظة واحدة، اغلقت الباب من وراء تشارلز. وعلى نحو بطيء جدا فتحت يدها الصغيرة - اخشى انها الحمراء قليلا - وحدقت الى قطعة النقد الذهبية الصغيرة في راحتها. ثم وضعتها بين اسنانها البيض وعضتها، وهو امر الفت مشاهدة والدها يفعله، كي تتأكد من انه ليست من النحاس. ولم تكن لتقدر على تمييز الذهب عن النحاس بالعض، بل ان العض اثبت انها من الذهب، تماما مثلما اثبت ان وجود المرء في منطقة الجرف السفلي انما هو خطيئة. ماذا في وسع عذراء ريفية بريئة ان تعرف عن الخطيئة؟ السؤال يتطلب اجابة. في هذه الاثناء، يستطيع تشارلز الذهاب الى لندن بمفرده.

فيك تكمن قوتي الوحيدة لديمومتي العذبة من هذا المكان

هاردي: خلودها

ادخل المستشفى العديد من الحوامل وهن في سن الرابعة عشرة بل حتى فتيات بين الثالثة عشرة والسابعة عشرة من عمرهن واعترفت الفتيات ان الحمل حدث... في اثناء ذهابهن الى العمل الزراعي او في رجوعهن منه. فالفتيات والفتيان يذهبون في هذه السن مسافة خمسة او ستة او سبعة اميال ليصلوا الى مكان عملهم، سائرين في مجموعات على امتداد الطرقات والشوارع الفرعية. وقد رأيت بأم عيني سلوكا يفتقر الى الاحتشام السام بين الفتيان والفتيات في سن الرابعة عشرة الى سن السادسة عشرة. وشاهدت ذات مرة فتاة شابة تتعرض الى الاغتصاب على ايادي خمسة او ستة شبان على قارعة الطريق. وكان هناك اشخاص اكبر سنا على بعد عشرين او ثلاثين ياردة (18 أو 27 مترا)، الا انهم لم يحركوا ساكنا. كانت الفتاة تصرخ، مما دفعني الى التوقف. شاهدت ايضا فتيتا يسبحون في الجداول في حين كانت تتفرج عليهم من فوق الضفة فتيات في الثالثة عشرة والتاسعة عشرة من عمرهن.

تقرير لجنة تشغيل الاطفال 1867

ما الذي نواجهه في القرن التاسع عشر؟ عصر حيث كانت المرأة مقدسة، حيث تستطيع ان تشتري صبية في الثالثة عشرة من العمر لقاء باوندات جنيهاات إنكليزية قليلة - شلنات قليلة ان كنت ترغب فيها ساعة او ساعتين. حيث شيدت كنائس اكثر مما شيدت على مدى تاريخ البلاد الماضي. حيث كان بيت واحد من كل ستين بيتا مبغى (النسبة المعاصرة هي بيت واحد من بين ستة الاف بيت تقريبا)، حيث ينادي بقدسية الزواج (والعفة قبل الزواج) من فوق كل منبر، وفي كل مقال افتتاحي في الصحف والخطب العامة، وحيث لم يعيش مثل هذا العدد الكبير من الشخصيات البارزة - بدءا بملك المستقبل فنازلا - حياة خاصة مليئة بالفضائح، حيث كان القانون الجزائري تشوبه مسحة انسانية، والجلد بالسوط شائعا

على نحو دفع احد الفرنسيين الى ان يثبت جادا ان التركيز دي ساد لا بد ان يكون اجداده من الانكليز، حيث لم يكن جسد الانثى مخفيا على هذا النحو عن الانظار، وحيث كان كل نحات يقيم وفق قدرته في نحت النساء العاريات، حيث لم تذهب اي رواية، مسرحية او قصيدة ذات سمة ادبية بارزة الى ما هو اكثر من الاحساس بالقبلة، حيث عد الدكتور باودلر⁽⁹⁴⁾ - الذي يذكرونا تاريخ وفاته في العام 1825 ان الطباع المميزة عند الفكتوريين قائمة منذ زمن طويل يسبق ابواب العصر الصارمة - محسنا عاما، حيث انتاج الادب المكشوف لم يزد عنه اي انتاج فيما بعد، حيث لم يشر ابدا الى الوظائف البرازية، وحيث بقيت المرافق الصحية بدائية. فالمرافق الصحية ذات السيفون جاءت في وقت متأخر من ذلك العصر وبقيت ترفا حتى حلول العام 1900 - فكانت هناك قلة من البيوت وقلة من الشوارع لا يذكر المرء بها دوما. حيث ساد الاعتقاد عموما ان النساء ليست عندهن هزة الجماع، وعلى الرغم من هذا، فإن كل مومس كانت تلقن كيفية التظاهر بها. حيث كان هناك تقدم هائل وتحرر في كل ميادين النشاط الانساني الاخرى، ولا شيء سوى الطغيان في اكثر الامور الشخصية والجوهرية.

من النظرة الاولى يبدو الجواب سهلا - انها مسألة التسامي. فقد صب الفكتوريون نشاطاتهم الحيوية في ميادين اخرى. كان جني الارتقاء قال لنفسه والاحساس بالكسل يراوده: اننا بحاجة الى بعض التقدم، فلنحصر هذه القناة الوحيدة والعظيمة ونحولها ونرى ما الذي سيحدث.

في حين اعترف بصحة نظرية التسامي الى حد ما، فاني أحيانا اتساءل ان لم يقدنا هذا الى خطأ الافتراض بأن الفكتوريين لم يكونوا في الحقيقة من اصحاب الشهوة الجنسية الطاغية؟ غير انهم كانوا يستوون في شهوتهم الجنسية وابناء قرننا وكانوا اكثر انشغالا بالجنس منا على الرغم من ان الجنس يحيط بنا ليلا ونهارا

(94) توماس بادولر (1754-1825): طبيب ومحسن واديب انكليزي اشتهر بكتابه (شكسبير العائلة) الصادر في 1818 وهو كتاب يهدف الى تقديم مسرحيات (شكسبير) على نحو محتشم وتصلح للقراءة بصوت عال داخل البيوت بعد ان حذف منها كل ما يخدش حياء الصبيان والصبيات دون المساس بجمال الصورة الشعرية. وعلى الرغم من الانتقاد الذي وجه اليه بتشويه نصوص (شكسبير) الا انه يستحق الثناء اذ ذاعت شهرة المسرحيات هذه من اوساط اكبر عدد من الناس والقراء. (المترجم)

(مثلما كان الدين يحيط بالفكتوريين). المؤكد انهم كانوا منهمكين بالحب، وانهم وهبوا له من فنونهم اكثر مما هب نحن. كما لا يستطيع مالثوس ولا الافتقار الى وسائل تحديد النسل^١ من توضيح حقيقة انهم تكاثروا كالارانب و قدسوا التوالد اكثر منا. كما ان قرننا الحالي غير متلكئ في قضايا التقدم والتحرر وعلى الرغم من ذلك فاننا قلما نستطيع الادعاء بأن ذلك يرجع الى اننا نملك طاقة كبيرة من التسامي نستطيع ان نوفرها. لقد شهدت فترة التسعينيات الفاضحة وهي تقدم على انها رد فعل للعديد من عقود الزهد والتقشف. اظن ان السبب هو نشر ما كان حتى الان يعد سرا، واشك في اننا في الواقع نتعامل مع ثابت انساني: الاختلاف هو اختلاف في المصطلحات، درجة من درجات الاستعارة.

(*) عرض للبيع اول قراب ذكر مصنوع من المصارين (لمنع الحمل) اواخر القرن الثامن عشر. ومن بين الناس جميعا، دان مالثوس اساليب تحديد النسل بوصفها «غير ملائمة»، الا ان القلق من استعمالها بدا في عشرينيات القرن التاسع عشر. وكان اول مدخل لدليل الجنس الحديث يتمثل في كتاب — الدكتور (جورج درايزديل) ذي العنوان غير المباشر (مبادئ العلوم الاجتماعية، او الجسدي، الجنسي والدين الطبيعي. شرح السبب الحقيقي والعلاج الوحيد للشرور الاساسية الثلاثية: الفقر، البغاء والعزوبية). وقد صدر في 1854 وانتشرت قراءته وترجمته انتشارا واسعا. وفيما يلي نصيحة درايزديل العملية بما في ذلك الجملة الاعتراضية النهائية الواضحة: «يمكن تجنب حدوث الحمل اما بسحب العضو الذكري قبل حدوث القذف مباشرة (وهي ممارسة يلجأ اليها كثير من الرجال المتزوجين وغير المتزوجين)، او باستخدام قراب الذكر (وهو شائع الاستعمال ايضا في القارة الاوروبية اكثر منه في هذه البلاد)، او باستخدام قطعة اسفنجية توضع في الرحم... او بحقن ماء فاتر في الرحم بعد الجماع مباشرة».

وينطوي اول هذه الاساليب على اذى جسدي ومن شأنه ان يتسبب في حدوث اضطراب عصبي ووهن واحتقان جنسيين... اما الطريقة الثانية، استعمال قراب الذكر، فهي تفسد المتعة، وتتسبب في عجز الرجل في الغالب والنفور في كلا الطرفين. وبهذا فهي ضارة ايضا.

اعتقد ان هذه الاعتراضات لا تنطبق على الاسلوب الثالث، اي استخدام قطعة اسفنجية او اي مادة اخرى لحماية مدخل الرحم. وفي وسع المرأة ان تستخدم هذه الطريقة بسهولة وقلما تؤثر، حسب اعتقادي، في اللذة الجنسية. كما لا يوجد فيها اي اثر ضار في صحة اي من الطرفين. (واذا ما اريد لاي وسائل منع الحمل ان تكون مرضية، لا بد من استخدامها من المرأة. واذا ما اضطر الرجل الى التفكير فيها، فإنها تفسد العاطفة ودوافع الفعل التناسلي).

(المؤلف)

لقد اختار الفكتوريين ان يكونوا جادين في موضوع نتعامل معه على نحو خفيف. وكان الاسلوب الذي يعبرون به عن جديتهم لا يكمن في الحديث صراحة عن الجنس، مثلما ان جزءا من اسلوبنا هو العكس تماما، بل ان هذه الاساليب التي تنحو منحى الجذ ما هي الا اعراف مألوفة. وتبقى الحقيقة من ورائها ثابتة.

اعتقد ان هناك خطأ شائعا آخر: معادلة درجة عالية من الجهل في الجنس بدرجة منخفضة من المتعة الجنسية. انني لا ارتاب في ان اللحظة التي التقت فيها شفاه تشارلز وسارة، لم تظهر سوى براعة صغيرة جدا في العشق من كلا الجانبين. الا انني لا استنتج وجود اي نقص او افتقار الى النشوة الجنسية من ذلك. وعلى كل الاحوال، فإن نسبة اكثر اثاره للاهتمام تكمن بين الرغبة والقدرة على تحقيقها. وفي هذا الصدد، ربما نؤمن اننا نفلح افضل من اسلافنا. الا ان الرغبة تتكيف وفق الحالات التي تثيرها: فعالمنا يصرف وقتا هائلا طالبا منا ممارسة الجماع في حين ان واقعا منهمك في اثاره احباطنا. النساء محبطات مثل الفكتوريين؟ ربما. لكن اذا كنت تستطيع الاستمتاع بتفاحة واحدة في اليوم فإن هناك اشياء كثيرة ينبغي قولها ضد العيش في بستان من اشجار التفاح؛ بل ربما ستجد التفاح الذ طعما لو انك اعطيت واحدة في الاسبوع.

لذا يبدو بعيدا عن الواقع عدم ممارسة الفكتوريين لذة جنسية اكثر حدة منا لأنها اقل. ولم يكونوا يدركوا ذلك على نحو واهن فاختاروا اسلوب الكبت، والقمع والصمت للاحتفاظ بحدة اللذة. وعلى نحو ما، فإن قرننا هو القرن الاكثر فكتورية عندما ننقل الى خيال عامة الناس الاشياء التي تركوها سرا، لاننا بتحطيمنا الكثير من الاسرار والصعوبات وهالة المحرمات نكون قد حططنا الكثير من اللذة. من المؤكد اننا لا نستطيع ان نقيس درجات نسبية من اللذة. ولكن قد يكون اكثر مدعاة لسعادتنا لا لسعادة الفكتوريين عجزنا عن ذلك. يضاف الى ذلك، فإن وسيلتهم اعطتهم طاقة اضافية. فتلك الدرجة من السرية، تلك الهوة بين الجنسين التي كثيرا ما اثارت اضطراب تشارلز عندما حاولت سارة ان تغلب عليها، هي التي احدثت مؤكدا قوة عظمى وصراحة اعظم في الغالب في كل الميادين الاخرى.

يبدو هذا كله وقد جذبنا بعيدا عن ماري على الرغم من انني اذكر الان انها كانت شديدة الهيام بالتفاح. اما الصفة التي لم تكن لتطبق عليها فهي صفة العذراء الريفية البريئة، لسبب في منتهى البساطة هو ان الصفتين الريفية والبريئة ليستا متطابقتين في زمانها. ولا يصعب العثور على الاسباب.

تنتمي الغالبية العظمى من الشهود والمخبرين الصحفيين في كل عصر الى الطبقة المثقفة. وقد نجم عن هذا، وعلى امتداد التاريخ، نمط من التشويه او الواقع الخاص بالاقلية. والتزمت المفرد الذي نعزوه الى الفكتوريين ونطبقه تطبيقا متوانيا على مجمل طبقات المجتمع الفكتوري ليس سوى رأي من اراء الطبقة الوسطى في طبائع هذه الطبقة وعاداتها. فشخصيات الطبقة العاملة التي صورها ديكنز كشخصيات هزلية كلها او تثير العواطف والمشاعر وسلسلة لا تقارن من الغرائب. الا اننا نحتاج الى الذهاب الى مكان اخر من اجل الحقيقة القاسية - الى مايهيو⁽⁹⁵⁾، الى تقارير الوكالة وغير ذلك، لا الى اي شيء اخر سوى المظهر الجنسي في حياتهم التي هذبا ديكنز - الذي كان يفتقر الى المصادقية في حياته - وانداده تهذبا شديدا. ان الحقيقة الراسخة (التي اود ان ادعوها ناعمة، لكن لا بأس) عن انكلترا الفكتورية الريفية هي ان ما اسماء عصر ابسط بعبارة اختبر قبل الشراء... (اي الاتصال الجنسي السابق للزواج حسب مصطلحاتنا الراهنة) كان هو القاعدة، لا الاستثناء. اصغ الى هذه الشهادة من سيدة لا تزال على قيد الحياة، ولدت في العام 1883 وكان والدها طبيب الروائي توماس هاردي.

ان حياة عامل المزرعة كانت تختلف اختلاف بينا في القرن التاسع عشر عما هي عليه الان. فعلى سبيل المثال، كان الحمل قبل الزواج امرا اعتياديا تماما بين الفلاحين في دورسيت ولم يكن الزواج ليتم الا بعد ان يظهر الحمل للعيان. وكان

(95) هنري مايهيو (1812-1887): صحفي انكليزي ومؤسس مجلة بنش الشهيرة عام 1841، من ابرز اعماله (عمال لندن وفقراء لندن) بأربعة اجزاء (1850-1862) وقد تأثر به تأثيرا واضحا تشارلز ديكنز ويعتمد هذا المؤلف الضخم على رسائل كتبها هو شخصيا الى جريدة (لندن مورنينغ كرونكل) (1849-1850)، استجابة لرغبة الجريدة في الحصول على معلومات يوثق بها عن المشكلات الاجتماعية الكبرى انذاك... (المترجم)

السبب يرجع الى قلة الاجور التي تقاضاها العمال والحاجة الى تأمين ايد اضافية في الاسرة لكسب القوت^(*).

يضعني ذكر هاردي تحت ظل الروائي الذي يعلو فوق هذا الجزء من انكلترا الذي اكتب عنه. عندما نتذكر ان هاردي كان اول من حاول كسر ختم الطبقة الوسطى الفكتورية من علبة بندورا⁽⁹⁶⁾ الجنسية، فإن اقل الاشياء اثارة للاهتمام (المؤكد اكثرها تناقضا) هي حمايته المتزمته لختم حياته الجنسية وحياة ابيه عنه. طبيعي ان ذلك كان وسيبقى حقه الذي لا يمكن التصرف فيه. غير ان القليل من الاسرار الادبية ظلت خفية تماما، اذ لم يكشف عن هذا السر الا في خمسينيات القرن العشرين. ويرد هذا، اسوة بواقع انكلترا الريفي الفكتوري الذي حاولت الالمح اليه في هذا الفصل على تأنيب ادمون غوس الشهير: كان من شأنه ان

(*) وهناك سبب اقتصادي اضافي يتمثل في النظام الشيطاني الخاص بدفع نصف الاجرة التي يتقاضاها الرجال المتزوجون للرجال غير المتزوجين. على الرغم من انهم كانوا ينجزون عمل رجل في كل الاحوال. ولم تنته هذه الطريقة المذهلة من تأمين القوة العاملة بالكلفة المذكورة الا باستخدام الالة الزراعية استخداما واسعا. ومن الممكن ان نضيف ان دورسيت عرفت بانها اكثر المناطق الريفية استغلالا على نحو شنيع في انكلترا.

ويكتب جيمس فريزر في نفس عام 1867: «لا بد ان يكون التواضع فضيلة مجهولة والعفة شيئا لا يمكن تخيله في غرفة صغيرة يلتم فيها على نحو جماعي اكبر عدد من الاسرة التي يمكن حشرها: الاب، الام، الشباب، الصبيان، الفتيات الصغيرات والبالغات يمثلون جيلين او ثلاثة اجيال احيانا وحيث يمارسن كل فعل من افعال الطبيعة، ارتداء الثياب، نزعها، الولادات، الموت - امام مرأى ومسمع الجميع - حيث يكون الجو كله حسيا، والطبيعة البشرية تتضاءل الى مستوى اقل من مستوى الخنازير... حالات الزنا بالمحارم مألوفة. اننا نشكو من انعدام عفة نساتنا قبل الزواج، من الحديث والسلوك السائين عند الفتيات العاملات في الحقول، من الاسلوب الواهي الذي تتخلى به الخادمت عن شرفهن. ومن انه ان يندر ان يغلي دم احد الابوين او الاخ نتيجة العار - هنا في هذا المكان، شرح وافي لكل شيء».

ووراء هذا كله تخيم اشباح اكثر كابة، مألوفة في كل منذ فجر التاريخ: سل الغدد للمفاوية والكوليرا، التيفونيد الوبائي والسل. (المؤلف)

(96) بندورا: امرأة ارسلها زيوس عقابا للجنس البشري بعد سرقة بروميثيوس النار واعطاها علبة ما ان فتحها بدافع الفضول حتى انطلقت منها جميع الشرور والرزايا فعمت البشر ولم يبق فيها سوى الامل. (المترجم)

يستفسر على نحو معقول ايضا عن السبب الذي دفع اتباع اترىوس⁽⁹⁷⁾ الى هز قبضاتهم البرونزية صوب السماء في وجه مسيني.

ليس هذا المكان الذي تتوغل فيه داخل الظلال قرب ايغدون هيث. الا ان الشيء المعروف تماما هو ان هاردي عاد في عام 1867 وله من العمر سبعة وعشرون عاما الى دورسيت بعد ان كان يدرس العمارة في لندن ليقع في هوى قريته ترايفينا البالغة من العمر ستة عشر عاما. وتمت خطوبتهما، ولكنها فسخت بعد مرور خمس سنوات على نحو لا يمكن فهمه. وعلى الرغم من عدم توفر اي دليل قطعي، فانه يبدو الان واضحا ان الخطبة فسخت بعد ان تبين لهاردي وجود مثلبة مخجلة تحاول الاسرة كتمانها: ترايفينا ليست قريته، بل هي ابنة غير شرعية لاخته غير الشقيقة وغير الشرعية ايضا. وتشير قصائد لا تخصى لهاردي الى ذلك: «عند بويب البوابة»، «لم ترجع»، «خلودها»^(*) واخرى كثيرة غيرها؛ وان هناك العديد من الحالات غير الشرعية من جانب الأم في اسرته ثبت صحتها. وقد ولد هاردي نفسه قبل زواج امه وابيه بخمسة شهور وزعم المتدينون أحيانا انه فسخ خطوبته لاسباب طبقية - فقد بدا شابا واعدا لا يستطيع احتمال فتاة بسيطة من دورسيت. صحيح انه تزوج من فتاة اعلى منه مكانة في 1874 - وهي لافينيا غيفورد المتبلدة الشعور على نحو مأساوي. اما ترايفينا فكانت شابة رائعة،

(97) اترىوس: الاساطير الاغريقية، اترىوس هو ابن بيلوبس ووالد اغا ممنون ومينيلوس. تعد قصة اسرة اترىوس من اقدم القصص واشدها تعقيدا، واكثرها فسادا. وقد سعى اترىوس الى الانتقام من اخيه ثيستس الذي اغوى زوجته وخطط لقتله واغتصاب عرشه على مسيني بأن قتل اولاد اخيه هذا وقدمهم له في مأدبة عشاء وقد هرب ثيستس مذعورا بعد ان اكتشف الحقيقة ومارس السفاح مع اخته بيلوبيا كي تتجب له ولدا وينتقم بعد ذلك من اخيه. ثم تزوج اترىوس بيلوبيا التي حملت بعد ذلك اجيستوس، ابن ثيستس، غير ان اترىوس اعتقد انه ولده، وعثر اغا ممنون ومينيلوس على ولد اترىوس واوروب وادعاه السجن في مسيني ثم ارسل اجيستوس لقتل ثيستس الا ان كلا منهما عرف الاخر من خلال السيف الذي اخذته بيلوبيا من ابيها واعطته لابنها فما كان من الاب والابن الا ان قتلا اترىوس واستوليا على العرش وطردا اغا ممنون ومينيلوس خارج البلاد. (المترجم)

(*) هذه القصيدة من اكثر قصائده كشفا للسر وان لم تكن اعظمها في هذا السياق. ولعل اول نسخة منها ترجع الى عام 1897. اما سؤال غيس الاساس فقد طرح في سياق عرضه لرواية (جود الغامض) في كانون الثاني/يناير 1896. (المؤلف)

واصبحت مديرة في احدى مدارس بلايموث وهي في العشرين من العمر بعد ان تبوأ المركز الخامس عند تخرجها من دار المعلمين في لندن. ويصعب عدم القبول بأن سرا رهيبا من اسرار العائلة هو الذي ارغمهما حقا على الانفصال. المؤكد انه سر سعيد على نحو ما طالما ان اي عبقرى انكليزي لم يهب كل كيانه لمصدر واحد من مصادر الالهام مثلما فعل هاردي. لقد منحنا ذلك المصدر اعظم مراثيه في الحسب، ومنحنا سو برايدريد و تيس اللتين تعدان صورة نقية عن ترايفينا، بل ان جود الغامض مهداة اليها على نحو خفي في مقدمة هاردي نفسه للرواية - «وضع اساس المشروع في 1890... وقد اشار الى بعض الظروف موت امرأة...» وكانت ترايفينا المتزوجة من رجل اخر انذاك قد توفيت في ذلك العام.

ان هذا التوتر بين الشهوة والتنازل، الذكريات التي لا تموت والكبت الذي لا يموت، الاستسلام الفنائي والواجب المأساوي، بين الحقائق الكريهة ووظيفتها النبيلة، تعزز واحدا من اعظم كتاب العصر وتوضحه، ومن ورائه، تشيد بمحمل العصر نفسه. لقد ذهبت هذا المذهب كي اذكرك.

اذا لنعد ونهبط الى الحائرين. انك ستخمن الان السبب الذي دفع سام وماري الى الذهاب صوب مخزن الغلال. وبما انها ليست المرة الاولى التي يذهبان فيها الى هناك، فانك ستفهم ربما على نحو افضل دموع ماري... ولماذا كانت تعرف عن الخطيئة اكثر قليلا مما يتوقعه المرء لدى اول نظرة الى وجهها ذي التسعة عشر عاما. او ربما كان سيرتاب المرء لو انه مر في انحاء دورشستر في وقت متأخر من ذلك العام من خلال وجه فتاة افضل ثقافة ولكن اصغر بثلاث سنوات في العالم الحقيقي، الواقفة على نحو مُستغلق الان والى الابد قرب هاردي، المهندس الشاب الشاحب الذي عاد توا من سنواته الخمس الكئيبة في العاصمة والذي يوشك (حتى تلتهم النيران نهديتها، وفمها وشعرها) ان يصبح الرمز المثالي لاعظم لغز في عصره.

الا ان على جبين المعرفة تستقر نار:

تيمم وجهها الى الامام

وتثب صوب فرصة المستقبل

وقد اخضعت كل شيء للارغبة.

تينيسون: احياء لذكرى 1850

كانت مدينة اكستر قبل مئة عام ابعد بكثير مما هي عليه اليوم عن العاصمة؛ ولهذا ظلت توفر لنفسها بعض وسائل الترفيه التي نجد بريطانيا اليوم كلها وهي تهرع الى لندن للاستمتاع بها. اننا نبالغ لو قلنا ان المدينة كانت تضم حيا للعاهرات في سنة 1867، ولهذا كانت فيها منطقة تثير الشبهات على نحو واضح بعيدا عن مركز المدينة وعن وجود الكاتدرائية المؤثر. كانت هذه المنطقة تقع في جزء من المدينة ينحدر صوب النهر الذي كان يوما ما يمثل قلب حياة اكستر عندما كانت ميناء مهما قبل سنة 1867. وكانت تتألف من مجموعة من الازقة الضيقة لا تزال فيها اعداد كثيرة من بيوت على الطراز التودوري، سيئة الاضاءة وكريهة الرائحة وتغص بالسكان. وفيها بيوت دعارة وقاعات رقص وحانات مبهرجة. الا انه كانت هناك اعداد كثيرة من الفتيات والنساء المحطمت - امهات غير متزوجات وعشيقات ومجموعة من السكان نزحت عن قرى ديفن ومدنها الصغيرة المغلقة. باختصار، كانت منطقة تدفع المرء ان يشيح بوجهه نحجلا، تحتشد ببيوت تؤجر غرفا مفروشة رخيصة وحانات كالتى انت سارة على وصفها في ويموث، ملاجئ امنة وبمناى عن التيار الاخلاقي المتزمت الذي اكتسح اماكن اخرى في حياة البلاد. ولم تكن اكستر في هذا كله استثناء، فقد كانت كل مدن الاقاليم الكبيرة مضطرة في ذلك الزمن الى ايجاد مكان لهذا الجيش البائس من الاناث اللواتي جرحن في المعركة من اجل النقاء الذكري الشامل.

كانت هناك مجموعة من بيوت على الطراز الجيورجي في احد الشوارع الواقعة على هامش هذا الحي. ومما لا شك فيه ان هذه البيوت كانت تحظى لدى

بنائها بمنظر جميل يطل على النهر. غير ان المخازن المرتفعة حجبت ذلك المشهد. وفقدت البيوت، على ابرز ما يكون، الثقة الذاتية في بريقها الطبيعي. فكانت احشائها تفتقر الى الطلاء، وسطوحها الى القرميد وكانت الواجهات منفصلة. وكان واحد او اثنان من هذه البيوت من الدور الخاصة. غير ان احدى العمارات المكونة من خمسة بيوت كانت منسجمة بفعل الطلاء البني الكامد الذي صبغ به القرميد الاصلي، وكانت هذه البيوت تعلن عن نفسها بلوحة خشبية طويلة فوق مدخلها الموحد على انها فندق - فندق اسرة انديكوت، اذا توخينا الدقة. وكانت تملكه وتديره كما تشير اللوحة الخشبية لعابري السبيل السيدة مارثا انديكوت التي يمكن القول ان ابرز خصائصها الافتقار التام الى حب الفضول فيما يخص شؤون زبائنهم. كانت امرأة تحمل كل صفات ديفن، اي انها لم تكن لترى ضيوفا لهم نياهم واغراضهم، بل المال الذي سيأتي من وراء اقامتهم. وعلى هذا الاساس كانت تصنف اولئك الاشخاص الذين يقفون في مكتبها الصغير قرب الردهة: اصحاب العشرة شلنات، اصحاب الاثني عشر شلنا، وهلم جرا. وكانت هذه الاسعار تمثل الاجرة الاسبوعية. والذين آلفوا ان يكونوا من اصحاب الخمسة عشر شلنا فأقل، لا ينبغي ان يظنوا في كل مرة يقرعوا فيها جرسا في فندق حديث ان فندقها رخيص. اذ كان الايجار المألوف لاحد البيوت في تلك الايام يكلف شلنا في الاسبوع، وشلنين على الاغلب. ويمكن ايجار البيوت الصغيرة الجميلة في اكستر لقاء ستة او سبعة شلنات. وكان مبلغ العشرة شلنات اسبوعيا لارخص غرفة، قد جعل اسرة انديكوت في الجانب الممتاز على الرغم من عدم وجود اي مسوغ فيما خلا جشع مالكة الفندق.

كان مساء رمادي اللون اخذ يتحول الى ليل. وكان المصباحان الغازيان المواجهان للفندق فوق الرصيف قد اشعلهما عامل البلدية الذي يطوف لايقاد المصابيح بوساطة عموده الطويل فشع النور فوق قرميد جدران المخزن. هناك بعض الانوار الموقدة في غرف الفندق؛ وكان الضوء في الطابق السفلي اشد بريقا وفي الطابق الاعلى خافتا اذ كانت انايب الغاز تعد، كما هو الحال في الكثير من البيوت الفكتورية اعلى ثلثا من ان توضع في الطوابق العليا. فكانت المصابيح الزيتية تستخدم فيها. ومن خلال احدى نوافذ الطابق الارضي القرية من الباب الرئيس،

كان ممكنا مشاهدة السيدة انديكوت نفسها جالسة وراء منضدة قرب مستوقد فحمي صغير ومنكبة من فوق سجل حساباتها؛ ولو مررنا مرورا قطريا من تلك السنافذة واتجهنا الى نافذة اخرى في اقصى يمين البيت، وهي نافذة مظلمة في الطابق العلوي لا تزال ستائرهما مسدلة، ففي وسعنا ان نرى مثالا جيدا لاثني عشر قدما (3.6م) وستة اقدام (1.8م)، اقصد حجم الغرفة لا الضيف.

وهما غرفتان في الحقيقة، غرفة جلوس صغيرة وحجرة نوم اصغر منها، وقد صممتا من غرفة واحدة مناسبة الحجم على الطراز الجيورجي. وكانت الجدران مكسوة بورق تزيينه نماذج دقيقة من الورود. ووضع فيها سجاد قلم ومنضدة دائرية ثلاثية القوائم مغطاة بغطاء سميك له لون اخضر غامق كان في زواياه ما يشير الى ان شخصا ما حاول - اول مرة كما يبدو - تعلم التطريز، وهناك مقعدان يعوزهما الذوق ومضرب غولف خشبي مزدان بمخمل احمر داكن وصوان ثياب من الخشب البني الداكن، وعلى الجدار علفت صورة تشارلز ويزلي⁽⁹⁸⁾ وصورة مائية في منتهى الرداءة تمثل كاتدرائية اكستر - استلمت بمثابة دفع جزئي على مضض قبل سنوات من احدى السيدات اللواتي عصفت بهن الظروف.

يضاف الى القرقة الصغيرة من تحت المستوقد الصغير، قطعة ياقوت نائمة الان، هناك قائمة جرد محتويات الغرفة. وهي قائمة لم ينقذها سوى تفصيل صغير واحد: المرمر الابيض المحيط بالمستوقد وهو مرمر جيورجي، يكشف من فوق عن حوريات رشقات تزيينهن الورود. ربما كانت تشوب وجوههن الكلاسيكية دوما مسحة من الدهشة، من المؤكد انهن يتصفن بها الان، عند مشاهدة اي تغييرات مدهشة يمكن ان تفعلها مائة سنة في ثقافة أمة. لقد ولدن في غرفة مكسوة بخشب الصنوبر الجميل اما الان فيجدن انفسهن في زنزانة قابضة للصدر.

من المؤكد انه كان في وسعهن ان يتنفسن الصعداء، لو استطعن الى ذلك سبيلا، عند فتح الباب ووقوف النزيل الغائب الان قرب المدخل. ذلك المعطف الغريب الطراز، تلك القبعة السوداء، ذلك الثوب النيلي بياقته الصغيرة البيضاء... الا ان سارة دخلت الغرفة على نحو تواق تقريبا.

(98) تشارلز ويزلي (1707-1788): واعظ ديني انكليزي مؤلف تراثيل دينية. (المترجم)

لم يكن هذا هو وصولها الى فندق اسرة انديكوت. اما كيف وصلت هذا المكان قبل بضعة ايام فهو امر بسيط. فقد كان اسم الفندق اشبه بدعابة في الاكاديمية التي درست فيها وهي فتاة في اكستر. وقد استخدمت الصفة بمثابة اسم وكان من المفترض ان اسرة انديكوت كانت كثيرة العدد مما تطلب فندقا بأكمله كي يسكنوا فيه انفسهم.

لقد وجدت سارة نفسها تقف قرب شيب، وهو المكان الذي ينتهي فيه خط رحلة حافلات دورشستر. كان صندوق امتعتها في انتظارها اذ وصل في اليوم السابق لوصولها. وكان احد الحمالين قد سألها عن المكان الذي ستقصده، فانتابها ذعر قصير الاملد ولم يمر بخاطرها اي اسم جاهز باستثناء تلك الدعابة التي تذكرها على نحو واه. وعندما سمع الحمال اسم المكان الذي ستقصده بان على وجهه ما يوحي انها لم تختار ابرز مكان للإقامة في اكستر. الا انه حمل صندوقها دون جدال، وسارت من ورائه في البلدة صوب الحي الذي سبق لي ان اتيت على ذكره. لم تُدهش لمظهر المكان - ففي ذاكرتها (غير انها لم تشاهده سوى مرة واحدة) كان جوه اكثر الفة، اكثر كرامة، اكثر صراحة... على اي حال، المتسولون لا يملكون حق الاختيار. وارتاحت على نحو ما لأن حالة عزلتها لم تثر اي تعليق... فدفعت ايجار غرفة مقدما مدة اسبوع، وهي تركية كافية كما يبدو. كانت عازمة على ان تسكن في ارنحص غرفة، الا انها عندما وجدت ان غرفة واحدة ايجارها عشرة شلنات وان غرفة ونصف لقاء نصف كراون إضافي، فإنها غيّرت من رأيها.

دخلت الغرفة مسرعة واغلقت الباب. اشعلت عود ثقاب، واضاءت به فتيلة المصباح الذي طرد نوره برفق ظلمة الليل. ثم نزعَت قبعَتها، وهزّت شعرها هزتها المعروفة فتهدل فوق كتفيها، وحملت الحقيبة التي كانت تمسك بها ووضعتها فوق المنضدة وكانت تواقه لفتحها اكثر من توقها الى خلع معطفها. واخذت ترفع ببطء وعناية صفوف محتوياتها المغلفة وتضعها فوق غطاء المنضدة الاخضر. ثم وضعت السلة فوق ارضية الغرفة، وشرعت تنزع اغلفة مشترياتها.

بدأت اولا بابرقي الشاي المصنوع في ستافوردشاير ويحمل رسما مطبوعا جميلا يمثل بيتا قرب جدول ماء وعاشقين (امعنت في النظر الى العاشقين) وقدح

توبي⁽⁹⁹⁾ لا يشبه الصناعات الفكتورية البشعة ذات الالوان المبهرجة، بل عبارة عن مادة صغيرة رقيقة بلون بنفسجي فاتح واصفر، وقد ظهرت فيه ملامح الرجل الطروب يتخللها على نحو جميل بريق ازرق ناعم (ربما يتمكن خبراء الخزف من تمييز صورة رالف وود). وقد كلف سارة هذا تسعة بنسات في احد متاجر الخزف القديمة. لقد تصدع القدح، وتصدع ثانية على مرّ الزمن. وفي وسعي ان اؤكد هذا لانني اشتريته بنفسى قبل سنة او سنتين بمبلغ يزيد كثيرا عن البنسات الثلاثة التي انفقتها عليه سارة. الا انني بخلافها، احببت صورة رالف وود. اما هي فقد احبت الابتسامة.

كانت سارة تتمتع بحس جمالي على الرغم من اننا لم نشاهدها وهي تظهر ذلك الحس حقاً. ربما هو احساس عاطفي - رد فعل مضاد للجو الفظيع الذي وجدت نفسها فيه. لم تكن لديها اي فكرة عن عمر قدحها الصغير. الا انها كانت تملك شعوراً خافياً بأنه استخدم استخداماً كثيراً وتناقلته الكثير من الايادي... واصبح الان في حوزتها. اصبح الان في حوزتها - فوضعت فوق رف الموقد وحدقت اليه، وهي لا تزال مرتدية معطفها، بوله طفولي كأنها لا تريد ان تضع ذرة واحدة من طعام التملك الاول.

تقطعت احلام يقظتها لدى سماعها صوت وقع خطوات في الممر خارج الغرفة. القت نظرة قصيرة غير انها حادة الى الباب. مرت الخطوات. وهنا نزعّت سارة معطفها، وحركت جمرات النار، ووضعت ابريقاً مسوداً فوق الحامل المجاور للموقد. عادت ثانية الى مشترياتها: كيس يحتوي على الشاي، واخر يحتوي على السكر، وعلبة معدنية صغيرة تحتوي على الحليب وضعتها قرب ابريق الشاي. ثم حملت الرزم المغلفة الثلاث الباقية من المشتريات واتجهت صوب حجرة النوم: سرير ومغسلة من المرمر ومراة صغيرة وسجادة داكنة، وهذا كل شيء.

الا ان النظر كان يستهويها الى رزمها الثلاث. وكانت الرزمة الاولى تحتوي على قميص نوم. ولم تحاول ان تجرب وضعه على جسدها من الخارج، بل وضعه فوق السرير، ثم فتحت الرزمة التالية وكانت تحتوي على لفاع اخضر داكن ذي

(99) قدح توبي: قدح صغير بهيئة رجل بدين يرتدي قبعة ذات ثلاث زوايا. وتوبي هي كنية توبياس. (المترجم)

نسيج صوفي ناعم وحاشية من حرير اخضر بلون الزمرد. حملت اللفاح بوله غريب - بلا ريب بسبب ارتفاع ثمنه، اذ انه كلفها مبلغا يزيد على مبلغ كل مشترياتها الاخرى. واخيرا رفعته وهي مستغرقة في التفكير ولمست به وجنتها، ملقية نظرة ملية الى قميص النوم. وفي اول تلميح انثوي صادق اسمح لها به، دفعت خصلة من شعرها الكستنائي الى امام لتستلقي فوق القماش الاخضر، وبعد لحظة واحدة نفضت اللفاح فبدا واسعا، يزيد طوله عن الiardة (90 سم) وضغطته فوق كتفيها، وحدقت اكثر الى المرأة هذه المرة، ثم عادت الى السرير، ورتبت اللفاح من حول كتفي قميص النوم المفروش فوقه.

فتحت الرزمة الثالثة وهي اصغر الرزم، وكانت عبارة عن لفافة اسطوانية الشكل، شرعت بحملها مرة ثانية الى الغرفة الاخرى، بعد ان تفرست لحظة قصيرة في الشكل الابيض والاخضر فوق السرير، ووضعتها في درج الصوان الخشبي في نفس الوقت الذي بدا فيه غطاء الابريق يقرقع.

كانت محفظة تشارلز تحتوي على عشرة جنيهاات انكليزية من الذهب، وكانت هذه الجنيهاات وحدها - بغض النظر عن المحتويات الاخرى - تكفي لأن تحول سارة الى العالم الخارجي. ومنذ الليلة الاولى التي عدت فيها هذه النقود الذهبية، كانت تواصل عدّها في كل ليلة. ولم يكن ذلك ليشبه ما يفعله البخيل، بل يشبه ما يفعله المرء من مشاهدة احد الافلام مرات ومرات، بسبب المتعة التي لا تقاوم في الموضوع، وفي صور محددة...

منذ ان وصلت اكستر لم تصرف من النقود الا النزر اليسير من مدخراتها الخاصة لتسد بها رمقها. الا انها كانت تحملق في المتاجر: في الثياب، في الكراسي، المناضد، البقالين، المشروب المفضل، في مئات الاشياء التي بدت معادية لها، معبرة وساخرة من الكثير من سكان بلدة لائم المنافقين، الذين تجنبوا النظر الى عينيها في اثناء مرورها امامهم وكشروا عن اسنانهم بعد ان تجاوزتهم. وهذا هو السبب الذي حدا بها الى شراء ابريق شاي بعد وقت طويل جدا. ففي وسعك ان تكفي بابريق الماء. وقد عودها فقرها على احتمال صعوبة عدم امتلاكه، وابتعدت عن نفسها شهوة شرائه تماما كأنها بتجار اعتاد ان يقضي اسابيع طويلة على نصف قطعة من البسكويت يوميا، اذ لم يكن في وسعها ان تأكل الطعام الذي تملكه الان. وهذا لا

يعني انها كانت غير سعيدة. بل ابعد من ذلك. كانت تستمتع باول عطلة في حياتها
كامرأة بالغة.

اعدت الشاي، وتوهجت شعلة ذهبية صغيرة وانعكست فوق الابريق.
وظهرت وهي تنتظر في الضوء الخافت، الظلال التي كانت تلقي بها النار. ربما
ستظن انها لا بد ان تكون، بعد ان تغيرت على هذا النحو، قد رضيت بقدرها وانها
سمعت اخبارا من تشارلز او عنه. لكن هذا غير صحيح. لا ابغي من الان اكتشاف
ما يدور في ذهنها وهي تحلق في النار اكثر مما حاولت ان افعله في تلك المناسبة
الاخري عندما اغرورقت عيناها بالدموع في تلك الليلة الصامتة في منزل
مارلبورو. وبعد برهة وجيزة نهضت من مكانها، وتناولت من الدرج الاعلى ملعقة
شاي وفنجانا بلا صحن. وبعد ان صبت لنفسها الشاي قرب المنضدة، فتحت اخر
رزمها. كانت عبارة عن فطيرة محشوة باللحم. ثم بدأت تأكلها دون رقة تماما.

تجبر البورجوازية الامم كلها، مهتدة اياها بالفناء، على تبني نمط
الانتاج البورجوازي، وتجبرها على تقديم ما تسميه المدنية في وسطها.
اي ان تصبح بورجوازية هي الاخرى. باختصار، انها تنتج عالما على
صورتها هي.

ماركس: البيان الشيوعي 1848

كان لقاء تشارلز الرسمي الثاني بوالد ايرنستينا اقل بهجة من اللقاء الاول بكثير
على الرغم من ان الخطأ ليس خطأ السيد فريمان. فقد كان السيد فريمان رجلا
متعاليا وبخاصة في مظاهر حياته الخارجية على الرغم من مشاعره الدفينة عن الطبقة
الارستقراطية بانها تبعث على الملل. وكان شغله الشاغل يتمثل في ان يبدو انسانا
مهذبا نبلا وهو ما اهتم به مثل اهتمامه بأعماله الاخرى. لقد كان يؤمن ايمانا
واعيا بانه انسان نبيل كل النبل. ولعلنا لا نستطيع تلمس اي شك باطني كان
يساوره الا من خلال عزمه الراسخ على ان يبدو كذلك.

كان اولئك المجددون الجدد في الطبقة الوسطى العليا في مكانة قلقة. فلو شعروا
بأنفسهم مجتدين اجتماعيا، لادركوا ادراكا تاما انهم سادة اقوياء في عالم التجارة
الخاص بهم. فاختار البعض الاخر صورة اخرى من الالوان المبهمة. واهتم اهتماما
كبيرا مثل السيد جوروكس بالهوايات واخلاق وصفات سادة الريف الحقيقيين.
وحاول اخرون - مثل السيد فريمان اعادة تحديد المصطلح. كان السيد فريمان يملك بيتا
حديث البنيان في غابة الصنوبر بمقاطعة سُرِّي (Surrey)، وكانت زوجته وابنته
تقضيان هناك وقتا اكثر مما يقضيه هو نفسه. وفي اسلوب حياته كان يمثل طليعة
الاثرياء المعاصرين الذين يسافرون يوميا الى مقار اعمالهم، فما خلا انه كان لا يمضي
الا عطلات نهاية الاسبوع هناك وفي فصل الصيف لا اكثر. وفي حين يهتم انداده
المعاصرون بلعبة الغولف او الورود او البغاء فإن السيد فريمان كان يهتم بالامور الجادة.

في الحقيقة، كان الربح والجد وفق ذلك النظام، هما شعاره. اذ ازدهرت
حياته في ظل التحولات الاجتماعية والاقتصادية الكبرى التي حدثت بين عامي

1850-1870 - تحول التركيز من المصنع الى المتجر، من المنتج الى المستهلك. وانسجمت الموجة الاولى العظيمة من موجات الاستهلاك اللافت للنظر وحساباته انسجما لطيفا تماما. وعلى نحو تعويضي - وفي محاولة تقليد جيل اسبق من التجار الاستغلاليين الذين فضلوا مطاردة الخطيئة على مطاردة الثعالب - فقد اصبح في منتهى الجسد والورع في حياته الخاصة. ومثلما يهتم بعض كبار الاثرياء اليوم بجمع اللوحات الفنية، ضامنين بذلك استثمارا ماليا ممتازا مع بريق الاحسان الجميل، فقد اسهم السيد فريمان اسهاما كبيرا في جمعية نشر الفكر المسيحي وغيرها من المؤسسات المتطرفة المماثلة. وفي ظل معاييرنا، فإن تلاميذه وصناعه وغيرهم كانوا مُستغلين، يعيشون عيشة فظيعة. غير انه في ظل معايير عام 1867 فإن مؤسسة فريمان كانت متقدمة على نحو استثنائي، وكانت نموذجا فريدا من نوعها. واذا ما صعدت روحه الى السماء، فانه سيجد من ورائه قوة عاملة سعيدة وسيكون لورثته الربح الوفير من هناك.

كان رجلا وقورا يشبه مديري المدارس، له عينان رماديتان حادثان يميل دهاؤهما الى جعل كل من يقع تحت نظرهما كأنه سلعة بائسة من سلع مانشستر. وعلى اي حال، فقد اصغى لاجبار تشارلز دون ان يبدو عليه اي انفعال على الرغم من انه اوماً ايماءة تنم عن الجحد عندما اختتم تشارلز شرحه. ران الصمت بعد ذلك. لقد جرى اللقاء في مكتب السيد فريمان بيته في منطقة هايد بارك. لم يكن ذلك المكتب ليوحي البتة بما يشير الى مهنته، اذ كانت الجدران مرصوفة بكتب رصينة المظهر، تمثال نصفي يمثل ماركوس اوريليوس⁽¹⁰¹⁾ - او ربما هو اللورد بالمرستون⁽¹⁰²⁾ في حمامه؟ - صورة او صورتان كبيرتان غير واضحتي المعالم من

(101) ماركوس اوريليوس (121 - 180 م): امبراطور روماني مشهور بكتابه (التأملات) الذي يبحث في الفلسفة الرواقية. افلح في رد غزو الالمان شمالي ايطاليا واعاد الهدوء الى الاقاليم الشرقية. (المترجم)

(102) اللورد بالمرستون (1784 - 1865): سياسي ورجل دولة بريطاني استعماري. تقلد المناصب الحكومية مدة نصف قرن تقريبا وعمل على اقامة كيانات دولية تخدم المصالح البريطانية. اشرف على سياسة بريطانيا المعادية لدولة محمد علي الكبير وابنه ابراهيم باشا اذ رأى في قيام دولة عصرية موحدة تضم وادي النيل والجزيرة العربية والمشرق العربي ما يهدد مستقبل المصالح البريطانية. شغل منصب رئيس الوزراء (1855-1858) و(1859-1865). (المترجم)

الحفر المنقوش يصعب التكهن بما اذا كانتا تمثلان احتفالات او معارك على الرغم من انهما افلحتا في اعطاء الانطباع عن انسانية مبتسرة بعيدة كل البعد عن الاجواء الراهنة.

تنحني السيد فريمان وحملق في الجلد الاحمر البراق الذي يغلف مكتبه. ظهر وهو يوشك على الكلام، الا انه غير من رأيه.
- امر مدهش تماما. مدهش تماما.

خيّم صمت اطول شعر في اثنائه تشارلز انه نصف منزعج ونصف مرتاح. ورأى انه في سبيله الى اخذ جرعة من الأب الوقور. لكن طالما انه دُعي الى ذلك، فلا يستطيع الا المعاناة في الصمت الذي تلا ذلك وابتلع رد الفعل غير المريح. في الحقيقة، ان رد فعل السيد فريمان الشخصي كان رد فعل تاجر اكثر منه رد فعل سيد مهذب، لأن الفكرة التي التمعت في ذهنه على الفور تمثلت في ان تشارلز جاء يطلب زيادة في مهر الزواج، وهذا امر يسهل عليه تنفيذه، غير ان احتمالا رهيبا مرّ في خاطره في نفس الوقت - هو ان تشارلز كان يعلم كل العلم زواج عمه المحتمل. والشيء الوحيد الذي اثار اشمئزازه هو ان يُقهر في صفقة تجارية مهمة - وكانت هذه الصفقة تخص قبل كل شيء الشخص الذي يرعاه بكل حنان.
اخيرا قطع تشارلز الصمت.

- لست محتاجا لأن اضيف ان قرار عمي هذا قد اثار دهشتي الشديدة ايضا.
- مؤكدا، مؤكدا.
- الا انني شعرت ان واجبي يدفعني الى احاطتك به علما على الفور -
وشخصيا.

- انت محق في هذا كل الحق. اتعرف ايرنستينا؟
- كانت اول انسان اخبره بالامر. وهي متأثرة تأثرا طبيعيا بالعواطف التي اغدقتها عليّ.

تردد تشارلز ثم تحسس جيبه.
- لدي رسالة اليك منها.
وقف ووضعها فوق المكتب فحملق فيها السيد فريمان بعينه الرماديتين الماكرتين وبدا مشغولا بافكار اخرى.

- لا يزال لديك دخل خاص معقول. اليس كذلك؟
- لا أستطيع التظاهر بأنني أصبحت فقيراً.
- وإلى هذا يجب أن نضيف احتمال أن عمك ليس بالثراء الذي يمكنه من أن يجعل له وريثاً في النهاية.
- صحيح.
- وكذلك اليقين بأن إيرنستينا لن تأتي إليك دون مورد مالي مناسب؟
- أنت في غاية الكرم.
- وأنا في يوم ما سأخلد إلى الراحة الأبدية.
- يا سيدي العزيز، انني...
- انتصر السيد المهذب. نهض السيد فريمان واقفاً.
- يجب أن نقول هذه الأشياء فيما بيننا. سأكون في منتهى الصراحة معك يا عزيزي تشارلز. إن الاعتبار الأساسي لدي هو سعادة ابنتي. إلا أنني لست مضطراً إلى أن أخبرك عن الجائزة التي تمثلها بالمصطلحات المالية. عندما تقدمت لخطبتها مني، لم تكن أدنى تزكية عنك في نظري هي ثقتي بأن الارتباط سيكون قائماً على الاحترام المتبادل والكفاءة المتبادلة. فقد أكدت لي أن ظروفك المتبدلة قد حدثت على نحو مفاجئ تماماً. ولا يمكن لأي غريب عن استقامة أخلاقك أن يعزو إليك أي دافع غير نبيل. هذا هو هاجسي الوحيد.
- وهو هاجسي أيضاً يا سيدي.
- نخيم الصمت من جديد، لقد أدرك الاثنان كل الأشياء التي قيلت حقاً: لا بد أن الاقارب الخبيثة ستحيط بالزواج الآن. ولسوف يتم الإعلان عن أن تشارلز فقد اعتباره قبل خطوبته، وإن إيرنستينا ستكون موضع سخرية لأنها خسرت اللقب الذي كانت تستطيع شراؤه في أي مكان آخر.
- الأفضل أن اقرأ الرسالة. أرجو أن تسمح لي بذلك.
- رفع سكينه الذهبية القوية التي يستخدمها في فتح الرسائل، وشقَّ بها المغلف. توجه تشارلز صوب النافذة وحملق في أشجار هايد بارك. وشاهد وراء مجموعة العربات الواقفة في طريق بايزووتر فتاة - فتاة متجراة خادمة كما يبدو من مظهرها - تنتظر فوق مصطبة أمام السياج. وفي حين كان يراقبها، وصل جندي

يرتدي ستره حمراء، وحيّاها، فالتفت نحوه. كانت الفتاة بعيدة تصعب رؤية وجهها، غير ان لهفة التفاتها اوضحت بانهما عاشقان. رفع الجندي يد الفتاة وضغطها على الفور فوق قلبه. شيء ما قيل. ثم وضعت يدها تحت ذراعه وشرعا يسيران ببطء صوب شارع او كسفورد. تاه تشارلز في خضم مشهده الصغير. وذعر عندما تقدم منه السيد فريمان حاملا الرسالة وهو يتسم.

- ربما يتعين عليّ ان اقرأ ما تقوله في ملاحظة ختامية.
- عدّل من وضع نظارته ذات الاطار الفضي.
- لو اصغيت الى كلام تشارلز الفارغ لحظة واحدة فاني سأجعله يتزوجني ونهرب معا الى باريس.

رفع بصره ونظر الى تشارلز نظرة جافة.
- يبدو اننا لا نملك اي خيار.
ابتسم تشارلز ابتسامة واهنة.
- لكن اذا شئت وقتا اضافيا تفكر فيه...

وضع السيد فريمان يده فوق كتف الانسان الكثير الوسوس.
- سأخبرها انني رأيتها شديدة العزم، بل اكثر مثارا للاعجاب في اوقات الشدة عنها في اوقات اليسر. واطن ان الافضل ان تسرع في العودة الى بلدة لاي.

- هذا لطف عظيم منك.
- بل هو لطف اعظم منك اذ تجعل ابنتي في منتهى السعادة. ورسالتها ليست مكتوبة بلهجة متقلبة.

امسك بذراع تشارلز، وقاده ثانية الى الحجرة.
- والان يا عزيزي تشارلز.
كانت هذه العبارة تمنح السيد فريمان متعة معنية.
- لا اعتقد بضرورة تنظيم نفقات المرء البتة عندما يكون الزواج شيئا رديئا. لكن لو ان الظروف... انت تفهم ما اقصد.
- بكل تأكيد...
- لتوقف عن الكلام اذا.

اخرج السيد فريمان سلسلة مفاتيحه، وفتح دُرْجاً في مكتبه، ووضع فيه رسالة ابنته كأنها وثيقة نفيسة من وثائق الدولة، او ربما يعرف عن الخدم اكثر مما يعرفه جميع اصحاب الاعمال الفكتوريين. بعد ان اعاد اقفال المكتب رفع بصره الى تشارلز الذي تولّد لديه الانطباع غير المريح الان انه قد اصبح احد المستخدمين - احد المستخدمين المفضلين مؤكداً، ولكن في هذا التنظيم التجاري العملاق. وسيأتي ما هو اسوأ من ذلك. فربما لم يكن السيد المهذب قبل كل شيء هو الوحيد الذي قرر لطف السيد فريمان وعطفه.

- طالما ان اللحظة مؤاتية الان، افي وسعي ان افتح لك فؤادي فيما يخص مسألة اخرى ذات صلة بك انت وايرنستينا؟

انحنى تشارلز انحناءة مؤدبة تنم عن القبول، غير ان السيد فريمان بدا لحظة وهو لا يجد الكلمات المناسبة. وبدلاً من ذلك، وضع سكين الرسائل في مكانها المحدد واتجه صوب النافذة التي تركاها قبل قليل، ثم التفت.

- انني اعد نفسي يا عزيزي تشارلز رجلاً محظوظاً من كل النواحي، باستثناء ناحية واحدة.

ثم اضاف كأنه يوجه كلامه الى السجادة.

- ليس لدي ولد.

توقف ثانية، ثم نظر نظرة مليّة الى صهره.

- ادرك ان التجارة قد تبدو لك شيئاً مُنفراً، فهي ليست مهنة الرجل النبيل.

- هذا كلام فارغ يا سيدي. وانت نفسك مثال حي على انها كذلك.

- اتقصد ذلك حقاً؟ ام تراك توجه إليّ نوعاً من المداهنة؟

فجأة باتت العينان الرماديتان بلون الحديد مصوبتين نحوه.

فذهل تشارلز برهة وجيزة لا يدري ما يفعل، ثم فتح كلتا يديه.

- انني ارى كل ما يراه اي رجل ذكي - الفائدة العظمى من وراء التجارة،

مكانتها الجوهرية في...

- آه، نعم. هذا ما يقوله كل سياسي. وهم مضطرون الى ذلك لأن رفاهية

بلدنا تعتمد عليها. لكن اترغب في ان يُقال عنك انك... في التجارة؟

- لم يرد هذا الاحتمال مطلقاً.

- لكن قل ان هذا الاحتمال سيرد؟

- اتقصد... انني.

اخيرا ادرك ما كان يرمي اليه عمه (الحمو). ولما رأى العم صدمته اسرع بالتوجه صوب السيد النبيل.

- انني لا اقصد بكل تأكيد انه ينبغي لك ان تزعج نفسك بالشؤون اليومية لمشروعى. فتلك هي مهمة المشرفين، الكتاب وما الى ذلك. الا ان تجارتي مزدهرة يا تشارلز. وفي العام المقبل سنعمل على فتح متجر كبير في كل من بريستول وبرمنغهام. وهما ليسا سوى البداية. انني لا استطيع ان اعطيك امبراطورية سياسية او جغرافية، الا انني مقتنع ان امبراطورية من شتى الاشياء ستحصل عليها ذات يوم انت وايرنستينا. بدا السيد فريمان يذرع الحجرة ذهابا وجيئة.

- عندما اتضح ان مهامك المستقبلية تكمن في ادارة املاك عمك، فاني لم اقل شيئا. لكن لديك الطاقة والثقافة والقدرة الفائقة...

- غير ان جهلي في الامور التي تقترحها هو... حسنا، جهل مطبق تقريبا. اهمل السيد فريمان اعتراضه.

- ان امورا من مثل النزاهة والاستقامة والقدرة على فرض الاحترام والحكم على الرجال حكما واضحا انما هي ذات اهمية قصوى ولا اظنك تفتقر الى مثل هذه الخصال.

- لست واثقا بانني اعرف تماما ما توحى به.

- لا اوحى بشيء. انني على اي حال، في السنة او السنتين القادمتين عليك ان تفكر في امور زواجك. ولن ترغب في هموم ومشاكل خارجية في مثل ذلك الوقت. لكن اذا ما حل اليوم الذي من شأنه ان تتسلى في معرفة ما هو اكثر عن التجارة التي سوف ترثها عن طريق ايرنستينا، فإن لا شيء سيحقق لي او لزوجتي... اذا جاز التعبير... متعة اعظم من تعزيز ذلك الاهتمام.

- ان الشيء الاخير الذي اتمناه هو الظهور بمظهر ناكز الجميل، لكن... اي... ذلك يبدو غير منطوق على ميولي الطبيعية، لأن المواهب القليلة التي املكها...

- انني لا اقترح اكثر من مشاركة. من الناحية الواقعية، لا شيء اكثر في البداية من مسؤولية زيارة مكتب الادارة بين وقت واخر، واشراف عام على ما

يسدور. اعتقد انك ستدهش لنمط الرجل الذي اوظفه الان في المراكز ذات المسؤولية الاكبر. وليس هناك حاجة لأن يشعر المرء بالخجل منها.

- اذكر لك ان ترددي لا يتأتى بأي حال من الاحوال من اعتبارات اجتماعية.
- عندئذ لا يمكن ان يكون الدافع سوى تواضعك. وفي هذا الصدد، فانك تسيء الحكم على نفسك ايها الشاب العزيز. لا بد ان يأتي ذلك اليوم الذي اشرت اليه - ولن اكون على قيد الحياة انذاك. لا ينكر انك قد تتخلص مما قضيت عمري في بنائه. قد تجد مديرين اكفاء ينوبون عنك في الاهتمام بتصرف الشؤون. الا انني اعرف عما اتحدث. ان المشروع الناجح بحاجة الى مالك نشيط مثلما يحتاج الجيش الحسن الى قائد. ولن يفيد وجود كل الجنود الاشواوس من العالم ما لم يكن هو موجودا لادارة المعركة.

شعر تشارلز وهو تحت تأثير هذه المقارنة الجذابة انه لا يزال امامه الكثير من الايام التي يقضيها في البراري لجعل الاقتراح مغويا اكثر. غير انه سيد نبيل وليس في وسع السيد النبيل ان يفكر في التجارة. بحث عن وسيلة ليعبر فيها عن مثل هذه الرأي، غير انه اخفق. ففي مناقشة الامور التجارية، يكون التردد علامة الضعف. وهنا استغل السيد فريمان فرصته.

- انك لا تستطيع ان تجعلني اوافق على اننا انحدروا جميعا من القروء. انني اجد هذه الفكرة الحادية. غير انني فكرت اكثر في بعض المسائل التي ذكرتها في اثناء اختلافنا الصغير.

- لكي يبقى الانسان على قيد الحياة، لا بد ان يكيّف نفسه وفق التغيرات في محيطه.

- تماما. الان استطيع ان افهم ذلك. اني اكبر منك بعشرين سنة. علاوة على ذلك، لقد قضيت حياتي في مكان اذا ما اخفق المرء في تغيير نفسه - تغييرا ذكيا - ليلبي متطلبات عصره، فانه لن يبقى على قيد الحياة. ان يصاب بالافلاس. الازمنة تتغير، كما تعلم. وهذا عصر كبير من عصور التقدم. والتقدم يشبه جوادا مفعما بالحياة. حاشا الله ان اوحى ان صفة السيد النبيل هي حرفة غير كافية في الحياة. لا يمكن هذا ابدا. غير ان هذا العصر هو عصر الفعل، الفعل العظيم يا تشارلز. ربما تقول ان هذه الاشياء لا تهمك، انها دونك، ولكن اسأل نفسك فيما

اذا كان خليقا بها ان تمك. هذا كل ما اقترحه عليك، لا بد ان تفكر في هذا الامر. ليست هناك ضرورة لاتخاذ قرار الان. لا ضرورة مطلقا. توقف هنيهة.

الا انك لن ترفض الفكرة رفضا باتا وقاطعا؟

شعر تشارلز في هذا الوقت انه اشبه بنموذج غطاء منضدة رُتقَ على نحو رديء، انه بكل الاحوال ضحية التطور. فقد استيقظت ثانية وعلى نحو سهل تماما تلك الشكوك القديمة التي كانت تراوده بخصوص لا جدوى وجوده. وادرك الان وجهة نظر السيد فريمان الحقيقية فيه: انه كسول. وادرك ما اقترحه عليه: ان يوفر مهر زوجته. كان يفضل ان يكون هادئا حذرا، الا ان ثمة دفءا في صوت السيد فريمان من وراء الحماسة، افتراض علاقة. وبدا الامر لتشارلز كأنه قضى حياته مسافرا بين المرتفعات البهيجة ووصل الان الى سهل شاسع من الضجر والسأم. افلح في النظر الى تلك العينين النفاذتين التجاريتين التواقيتين.

- اعترف بأن هذه الاشياء عصفت بي الى حد ما.

- لا اطلب منك ما هو اكثر من التفكير في الموضوع مليا.

- بكل تأكيد. امر طبيعي. سأفكر تفكيرا جادا.

تقدم السيد فريمان وفتح الباب. وابتسم.

- اخشى ان امامك محنة واحدة اخرى. السيدة فريمان تنتظرنا وهي متأججة

بحب الاستطلاع عن اخر ما يدور من احاديث في بلدة لايم.

بعد مرور بضع لحظات كان الرجلان يسيران في ممر عريض يؤدي الى فضاء واسع يطل على قاعة البيت الكبرى. ولم يكن فيها شيء يذكر لا يناسب افضل مظاهر الذوق العصري. ولكن في حين كانا يهبطان السلام صوب الخادم الواقف في الانتظار، شعر تشارلز ان كرامته امُتهنت على نحو غامض، انه اشبه بأسد وضع داخل قفص. واحس بهوى جارف غير متوقع يشده الى وينزيات، الى اثائه ولوحاته القديمة البائسة، الى عصره، امانه، لباقة الاجتماعية. كانت فكرة الارتقاء المجردة تثير نشوته غير ان ممارستها بدت مخوفة بفضاظة ظاهرة مثل الاعمدة الكورنثية المطلية بالذهب حديثا التي توتر الباب الذي توقف عند عتبة هنيهة هو ومعذبه قبل ان يدخلا «السيد تشارلز سميثسون يا سيدتي».

عاجلا او اجلا، سأخذ انا ايضا بشكل سلبي طابع
العصر الذهبي - لم لا؟ لا املك املا ولا ثقة،
واجعل قلبي مثل حجر الرّحى، ووجهي مثل الصوان،
اخدع وأخدع واموت: من يدري؟ نحن رماد وغبار.

تينيسون: مود 1855

لما وجد تشارلز نفسه اخيرا فوق السلام العريضة لبيت السيد فريمان، كان الغسق قد ارخى سدوله، واضيئت مصابيح الغاز وبات الجو منعشا. ثمة ضباب خفيف يمتزج بشذى نضارة الربيع من المتنزه في الجهة الاخرى من الشارع اضافة الى السخام المعهود. تنشق تشارلز الهواء اللندني اللاذع، وقرر ان يتمشى. اما العربة التي استدعيت لاجله فقد مضت في سبيلها.

سار دون ان يكون لديه هدف واضح تماما صوب ناديه في سانت جيمز. في البداية، سار الى جانب اسوار متنزه هايد بارك، تلك الاسوار الثقيلة التي كان انهيارها امام الدهماء (وتحت انظار محاوره الذي حاوره منذ عهد قريب) بعد ثلاثة اسابيع لا اكثر قد عجل من اقرار لائحة الاصلاح العظمى. استدار بعد ذلك صوب بارك لين. الا ان ضغط حركة المرور كان مقبها. اذ كان تعطل حركة المرور بسبب ازدحام العربات في اواسط العهد الفكتوري سيئا كما هو في العصر الحديث، بل اكثر وضوءا لأن كل عجلة كانت ذات اطار حديدي يحزُّ بلاط الشارع الحجري. لهذا، لما سار في طريق متخيلا انه يختصر المسافة، وجد نفسه في قلب حي مايفير. ازداد الضباب كثافة، الا انه لم يحل دون رؤية الطريق امامه، بل اضفى مسحة من الحلم على الاشياء التي كان يمر بها، كان اشبه بزائر من عالم اخر، اشبه بكانديد⁽¹⁰³⁾ الذي لا

(103) كانديد (1759): مقطوعة هجائية فلسفية كتبها فولتير في اعقاب مغامرات الشاب الساذج كانديد وحبيبته الاميرة ومعلمه، وهي مغامرات يصادف الثلاثة في اثنائها العديد من الكوارث مثل زلزال لشبونة ومحاكم التفتيش والاعتصاب والحرب. وتسخر المقطوعة من تفاؤل الفلسفة العقلانية المعاصرة بخاصة فلسفة ليبنتز. (المترجم)

يستطيع ان يفهم اي شيء سوى الشروح الواضحة، اشبه برجل حُرِمَ فجأة من احساسه بالمفارقة.

ان تجرده من مثل هذا المظهر الجوهري في نفسه يعني ان يكون عاريا تقريبا. لعل هذا يصف ادق وصف ما شعر به تشارلز. انه لا يدري الان ما الذي دفعه حقا الى والد ايرنستينا. كان يمكن معالجة القضية برمتها بارسال رسالة. لو بدت وساوسه الان غير معقولة، فالامر ينطبق ايضا على كل هذا الحديث عن الفقر، عن ضرورة تنظيم المرء موارده المالي. في تلك الايام، وبخاصة في الامسيات التي يهددها الضباب، كان الاثرياء يتنقلون بالعربات، ولا بد للمشاة ان يكونوا فقراء. لهذا، فإن معظم الذين صادفهم تشارلز في طريقه كانوا من الطبقات الفقيرة. خدم في البيوت الضخمة في حي مايفير، كُتّاب، متبضعون، شحاذون، كناسون (وهي مهنة شاعت كثيرا عندما ساد الجواد كل شيء)، باعة متجولون، اولاد الشوارع، مومس او مومستان. كان يعلم ان مائة جنيه إنكليزي في السنة من شأنها ان تكون ثروة لكل هؤلاء. وقد لقي المواساة الوجدانية توا لأنه لا يملك الا ان يسد رمقه بمبلغ يزيد عن هذا بخمسة وعشرين ضعفا.

لم يكن تشارلز واحدا من طلائع الاشتراكيين. وهو لم يشعر بالفضاعة الاخلاقية لمكانته الاقتصادية المتميزة، لاحساسه انه بعيد كل البعد عن اصحاب الامتيازات بطرق اخرى. والدليل يحيط به من كل جانب. فعلى وجه العموم، لم يكن يبدو على المارين به انهم غير سعداء بمصيرهم، سوى الشحاذين الذين كانوا مضطرين الى الظهور بمظهر بائس كي ينجحوا. الا أنه كان غير سعيد، غريبا، حزينا. وشعر ان المنزلة الضخمة التي تتطلب من السيد النبيل ان يقيمها من حوله تشبه الدرع الضخم الذي كان يمثل الاذن بالموت للعديد من رتبة العظائيات القديمة. تباطأت خطواته لصورة الوحش المنقرض هذه. في الحقيقة، انه توقف، متحجرة حية مسكينة، في حين تدافعت امامه اشكال الحياة الاقوى والاشد، مثل أميبا البرك من تحت المجهر، توقف امام صف صغير من محلات صادفها في طريقه.

تنافس عازفا ارغن، وتنافس واياهما عازف آلة البانجو. بائعو البطاطا المهروسة، بائعو الكوارع (الكارع بينس واحد، ولن تجد اشد سخونة منه)، الكستناء الحارة. امرأة عجوز تباع علب ثقاب، واخرى بمعيتها سلة ورد،

مراكبيون، عمال انابيب المياه، كناسون بقبعاتهم المطوية من الخلف، مصلحو مكائن بقبعاتهم المربعة، مجموعة من الصعاليك الصغار يجلسون فوق عتبات ابواب البيوت، على حافات الارصفة، يتكئون على اعمدة العربات مثل نسور صغيرة. قاطع احد هؤلاء الصبيان سيره - وكان هذا حافي القدمين شأنه في ذلك شأن بقية الاولاد - واطلق صفيرا محذرا صوب صبي الصور الذي هرع ملوحا بمجموعة من صور ملونة في وجه تشارلز الذي وقف في جناحي هذا المسرح من الرسوم المتحركة.

استدار تشارلز مسرعا، وبحث عن شارع اشد ظلمة. فلاحقه صوت اجش صغير وهو ينشد ابياتا من احدى الاغنيات الشعبية التي راجت في ذلك العام.

لَمْ لَا تَأْتِي إِلَى الْبَيْتِ يَا لُورْد مَارْمَادِيوك،
لَتَنَاولَ وَجِبَةً عِشَاءً سَاخِنَةً وَأَيَّاي؟
وَبَعْدَ أَنْ نَفْرَغَ مِنْ تَنَاوُلِ الْمَشْرُوبِ الْمَفْضَلِ،
فَسَنَشْرَعُ فِي اللَّعْبِ
سَنَشْرَعُ فِي اللَّعْبِ

ذكرت هذه الاغنية تشارلز وهو يتعد عن الصوت وصيحات الاستهزاء التي رافقته بعنصر اخر من عناصر الجو اللندني - وهو ليس عنصرا ماديا، بل عنصرا لا يمكن الارتياح فيه مثل السخام - الا وهي رائحة الخطيئة. فما يشاهده من عاهرات بائسات هنا وهناك، ونساء يراقبنه دون استدراجه لارتكاب الفحشاء (اذ كانت تبدو عليه مسحة النبلاء المهذبين في حين كن يبحثن عن طريدة اقل شانا) يقل كثيرا عن رؤيته ضياع هوية المدينة الكبيرة، الاحساس بأن كل شيء يمكن اخفاؤه هنا، كل شيء يمضي دون ملاحظة.

كانت لايام بلدة ذات عيين حادتين. اما هذه المدينة فهي مدينة العميان. لم يلتفت احد ما وينظر اليه. كان انسانا لا مرثيا، غير موجود، مما منحه الاحساس بالحرية، غير انه احساس فظيع، لأنه في الواقع فقدته - انه باختصار اشبه بوينزيات. كل شيء في حياته ضاع، وكل شيء يذكره بذلك الضياع.

تحدث رجل وامرأة اسرعا بالسير من امامه باللغة الفرنسية؛ كانا فرنسيين. وهنا تمنى تشارلز لو انه في باريس - ومن هناك... سيأخذ طريقه للسفر الى

الخارج. ثانية! لو كان في وسعي الهرب. لو كان في وسعي الهرب... غمغم بهذه الكلمات عشرات المرات، ونفض عن نفسه نفضا مجازيا حقيقة انه يفتقر الى الواقعية، انه موغل في الرومانسية، وانه بلا واجبات.

مرّ بمجموعة اصطبلات في زقاق خلفي، ولم تكن بهيئة صف من شقق انيقة، بل تمثل وظيفتها الاصلية: جياذ يُمشط شعرها وتنظف، عدتها تسحب من اماكنها، الحوافر تفرقع وهي توضع بين عريش العربة، حوذي يصفر صفيرا مزعجا وهو يغسل جوانب عربته استعدادا للشغل في المساء. خطرت ببال تشارلز نظرية مدهشة: الطبقات الدنيا في المجتمع اسعد سرا من الطبقات العليا. وهي ليست، كما يريد المتطرفون من الاخرين ان يصدقوا، الطبقة التحتية المعذبة الراححة تحت حماقات الاثرياء الكثيرة، بل هي اشبه بطفيليات سعيدة. وتذكر انه صادف قبل بضعة اشهر قنفذا في حدائق وينزيات وضربه بعصاه وجعله ينقلب. وشاهد بين اشواكه المنتصبة سربا من القمل المضطرب. لقد كان هو عالم الاحياء الذي يندهش اكثر مما ينفر من هذه العلاقة الداخلية في العوالم، وقد اصبح الان مكتئبا بما فيه الكفاية كي يرى من هو القنفذ: حيوان وسائل دفاعه الوحيدة هي ان يستلقي كالميت، وينصب اشواكه، عواطفه الارستقراطية.

بعد وقت قصير وصل الى محل بائع الادوات المعدنية المنزلية، ووقف في الخارج، وهو يتفرس من خلال الواجهة في النضد، في بائع الادوات، وقد ارتدى صدريته القطنية واعتمر قبعته، وانهمك في عد الشموع لطفلة في العاشرة من عمرها، رفعت بصرها محمقة فيه واصابعها الحمر ترفع عاليا البنس الذي سيتقاضاه البائع.

تجارة. اتجار. وانتشي وهو يتذكر العرض الذي قدّم اليه. ادرك الان ان العرض ليس سوى اهانة، احتقار لطبقته، وهو الذي عجلّ بالمقترح. يجب ان يعرف فريمان انه لا يستطيع ان يهتم بالتجارة، او ان يلعب دور صاحب المتجر. كان ينبغي له ان يرفض العرض رفضا باتا حالما اتى على ذكره. لكن كيف في وسعه ذلك في حين ان كل ثروته ستأتي من ذلك المصدر؟ وهنا نصل الى الجذر الاساس لنقمة تشارلز: الاحساس انه الان الزوج الذي سيتم شراؤه. لا تنس ان مثل هذه الزيجات امر مألوف بين افراد طبقته، وقد نشأ هذا العرف عن عصر كان فيه الزواج الراقي وثيقة عمل مقبولة علنا لم يكن يتوقع فيها من الزوج او الزوجة

الوفاء بما هو اكثر من البنود الواردة فيها: المال من اجل المكانة. غير ان الزواج الان رباط مقدس، طاهر، لا مصلحة خالصة. وحتى لو كان يملك من الاستخفاف ما يمكنه من محاولة تجريبه، فانه كان يعلم ان ايرنستينا ما من شأنها ان تسمح لمثل هذا الحب ان يصبح مبدأ ثانويا في زواجهما. وسيكون اختبارها الدائم هو حبه لها وحدها. من هنا تأتي ضرورات اخرى: عرفانه بما لها، الذي يترتب ابتزازا اخلاقيا ليتحول الى مشاركة...

وصل الى ناحية بما يشبه السحر القدرى. كانت ثمة واجهة مبنى مضيئة شاهقة تملأ نهاية احد الشوارع الجانبية المظلمة. فكّر انه الان لا بد ان يكون قريبا من ساحة البيكاديلي. غير ان هذا القصر الذهبي عند نهاية هاوية بنية اللون كان يقع الى شماله، وادرك انه فقد احساسه بمعرفة اتجاه الطريق، ووصل الى شارع او كسفورد... نعم، مصادفة قدرية، وصل الى ذلك الجزء الممتد من شارع او كسفورد الذي يحتله متجر السيد فريمان الضخم. وسار منجذبا في احد الشوارع الجانبية المؤدية اليه، ووصل شارع او كسفورد بحيث يستطيع رؤية امتداد العملاق الكامل بطبقته الصفراء (اذ استبدلت واجهته مؤخرا بزجاج جديد)، صفوفه المزدحمة من القطنيات، اشربة الزينة، الفساتين النسائية، لفات الاقمشة. وبدأت بعض الاشكال الاسطوانية والملتفة من الاصباغ الكيميائية الجديدة توشك ان تلوث الجو من حولها، اذ كانت حادة، تنم عن الثراء الحديث. وفوق كل مادة ثبتت بطاقة بيضاء كتب عليها السعر. كان المتجر لا يزال مفتوحا، والناس تمر من بين ابوابه. حاول تشارلز ان يتصور نفسه وهو يمر ايضا من خلالها الا انه اخفق اخفاقا تاما. وفضل ان يكون الشحاذ الجالس القرفصاء عند الباب قرابه.

المسألة ليست ان المتجر لم يعد يبدو له ما كان يمثل في السابق - دعابة ساخرة، منجم ذهب في استراليا، مكان لا وجود له في الحقيقة. بدا له الان بكامل قوته، آلة ضخمة، فرس بحر يتربص لالتهام كل من يقترب منه ويطحنه بين اسنانه. وحتى في ذلك الوقت كان العديد من الناس يرى ان الوقوف ومعرفة ان المبنى الضخم، ومباني اخرى شبيهة به، بما فيه من ذهب وقوة تكمن في قبضته بسهولة، لا بد ان يعني الجنة على الارض. وعلى الرغم من ذلك، وقف تشارلز على الرصيف المقابل، واغمض عينيه كأنه تمنى لو استطاع ان يزيله من الوجود تماما.

من المؤكد ان هناك شيئا زائفا في رفضه - الترفع المحض، السماح لنفسه ان يحكم عليه جمهور من الاسلاف ويتجاذبه. ثمّة شيء كسول فيه. الخوف من العمل، من الرتبة، من التركيز في التفاصيل. ثمّة شيء يوحى بالجن فيه ايضا - لأن تشارلز، كما سبق ان لاحظت على الأرجح، كان يخاف غيره من البشر لا سيما اولئك الذين هم دون طبقة. كان يشعر بالغثيان عندما يفكر في الصلات بكل تلك الظلال الواهية التي شاهدها تندفع من امام الواجهة وتدخل من الابواب القائمة في الجهة الاخرى من الشارع وتخرج منها. كان شيئا مستحيلا.

غير ان رفضه كان ينطوي على عنصر نبيل: الاحساس ان السعي وراء المال انما هو هدف غير كافٍ في الحياة. وما من شأنه ان يصبح مثل ديكنز او فنانا عظيما او عالما، بل في اسوأ الاحوال، شخصا ذا اهتمامات سطحية، طفيليا، إنسانا يترك الآخرين يشتغلون ولا يفعل هو شيئا. بيد انه اكتسب نوعا غريبا من احترام الذات المؤقت في عدميته، الاحساس ان اختيار الا يكون اي شيء - الا يكون لديه اي شيء سوى الاشواك - انما هو النعمة الاخيرة الباقية للسيد النبيل؛ ربما حرته الاخيرة. اتضحت لديه الفكرة تماما: لو انني وضعت قدمي في ذلك المكان لانتهيت.

ربما تبدو لك هذه العضلة موغلة في القدم، ولا أويد شخصيا هذا السيد النبيل بخاصة. ففي العام 1969 هناك انواع تنقرض اكثر مما توقعتة مخيلة تشارلز المتشائمة في ذلك المساء من شهر نيسان/أبريل البعيد. الموت ليس في طبيعة الاشياء، بل هو طبيعة الاشياء، الا ان الذي يموت هو الشكل. اما المادة فخالدة. وفي هذا التعاقب من الاشكال المنحلة التي نطلق عليها اسم الوجود ثمّة شيء فيه يشبه الحياة الاخيرة. فنحن نستطيع ان نقتفي افضل سجايا السيد الفكتوري النبيل حتى نصل الى فرسان العصور الوسطى، ونقتفي اثرها عائدين حتى نصل إلى السيد النبيل الحديث، تلك السلالة التي نسميها العلماء، طالما ان ذلك هو المكان الذي سار فيه بلا ريب النهر. واذا توخينا الدقة، فإن كل ثقافة، وبغض النظر عن لا ديمقراطيتها، او بغض النظر عن مدى ايمانها بالمساواة بين بني البشر، تحتاج الى نمط من انماط الشك الذاتي، النخبة الاخلاق، محددة بقواعد سلوكية معينة، الجائز ان يكون بعضها لا اخلاقيا تماما، وبهذا تفسر لون الشكل الحتمي على الرغم من ان هدفها الخفي هو الخير: ان تعمل مثل بناء من اجل افضل تأثير لوظيفتها في التاريخ.

لعلك ترى صلة واهية جدا بين تشارلز عام 1267 بكل ما يحمله من افكار فرنسية عصرية عن العفة والسعي وراء الكأس المقدسة وتشارلز عام 1867 بما يملكه من نفور من التجارة وتشارلز المعاصر ليومنا هذا، عالم الحاسوب الذي يصمم اذانه دون صرخات الانسانيين الاكثر رقة منه الذين اخذوا يدركون لا جدوى وجودهم. لكن هناك صلة: لقد رفضوا جميعا او يرفضون فكرة التملك باعتبارها هدف الحياة، سواء كان ذلك يعني امتلاك جسد امرأة او ربح هائل بكل ثمن او حق املاء سرعة التطور. ان العالم ليس سوى شكل اخر، وسيأتي اليوم الذي يحل محله غيره من الاشكال الاخرى.

كل هذا له صلة وثيقة باسطورة العهد الجديد الخاصة بالاغواء في البرية، وان كل الذين يمتلكون بصيرة وثقافة يمتلكون بالتالي برّيتهم وعند نقطة محددة من حياتهم، سيجدون الاغواء. وقد يكون رفضهم طائشا، الا انه ليس الشر بعينه. فقد اهملت توا عرضا مغريا في العلوم التطبيقية التجارية كي تواصل تدريسك الجامعي؟ كما ان معرضك الاخير لم تحظَ معروضاته على اقبال واسع في الشراء كالمعرض السابق، غير انك عازم على الاحتفاظ بأسلوبك الجديد؟ لقد اتخذت مؤخرا قرارا ما لا يسمح بالتدخل في فوائذك الشخصية، في فرصتك من اجل التملك؟ اذا لا تصرف النظر عن حالة تشارلز العقلية على انها تكييف محض لحالة الترفع اللاجمدي. انظر اليه على حقيقته: رجل يكافح من اجل التغلب على التاريخ. وهو على الرغم من ذلك لا يدرك الامر.

لقد ضغطت على تشارلز اكثر مما تضغط على الانسان الاعتيادي غريزة الاحتفاظ بالهوية الذاتية، فهناك وراءه كل سنوات الفكر والتأمل والمعرفة الذاتية؛ وبدا ماضيه كله، افضل ما في نفسه الماضية، هو الثمن المطلوب منه دفعه؛ لم يستطع ان يصدق ان كل ما اراد الحصول عليه كان عديم القيمة، بغض النظر عن مدى فشله في التوفيق بين الواقع والحلم. لقد سعى وراء معنى الحياة، بل اكثر من ذلك، كان يؤمن - وهو المهرج المسكين - بانه ادرك شيئا منه في بعض الاوقات. اهي غلطته اذا كان يفتقر الى الموهبة في نقل هذا الادراك الى الآخرين؟ وانه يبدو للمراقب الخارجي شخصا ذا اهتمامات سطحية، هاويا لا فائدة منه؟ على الاقل، حصل على المعرفة بأن معنى الحياة لا يمكن ان يوجد في متجر فريمان.

الا ان الشيء الذي ينطوي على هذا كله، على الاقل عند تشارلز، هو
مذهب البقاء للاصلح وبالاخص احد مظاهره التي سبق له ان تحدث عنها - وهي
مناقشة يشوبها التفاؤل - الى غروغان في تلك الليلة في بلدة لام: ان الانسان لا
يستطيع الا ان يرى قوته في التحليل الذاتي على انها اجتياز خاص تماما في الكفاح
من اجل التكيف. لقد رأى كلا الرجلين الدليل هناك على ان ارادة الانسان الحرة
ليست في خطر. واذا ما اضطر المرء الى التبدل كي يبقى على قيد الحياة - مثلما
اعترف فريمان - فإن المرء على الاقل منح خيارا في الوسائل. الى هنا ينتهي الحديث
عن النظرية - اما التطبيق الذي اخذ يتدفق الان على تشارلز فهو شيء اخر.
لقد سقط في الفخ. انه لا يستطيع ان يكون لأنه كان.
وقف لحظة ازاء الضغوط الهائلة التي يفرضها عصره، ثم احس بالبرد، جمد
الدم في عروقه بفعل ثورة عارمة ضد السيد فريمان ومذهبه.
رفع عصاه ملوحا لعربة مارة. وتمالك في داخلها فوق مقودها الجلدي النتن،
واغمض عينيه. لاحت في ذهنه صورة تنطوي على السلوان. امل؟ شجاعة؟
اصرار؟ اظن ان الامر ليس كذلك.

ماذا لو كنتُ الآن بغيا؟ ما شأن المجتمع كي يلحق بي الالهة؟ هل
حصلتُ على عطف من المجتمع؟ لو اتني سرطان خبيث في المجتمع،
افلا ينبغي السبحث عن جذور المرض في عفونة الجنة؟ الستُ ابنته
الشرعية، لست نغلة يا سيدي؟

من رسالة منشورة في صحيفة التايمز 24 شباط/فبراير 1858(*)

قد لا يبدو الشراب المصنوع من مزيج المشروب المفضل والسكر خلاصة
فلسفية في منتهى العمق لمثل هذا النمط من تحليل الذات. بيد ان هذا المزيج وُصف
دوما في (كيمبرج) باعتباره حلا لكل المشكلات المعروفة. وعلى الرغم من ان
تشارلز كان قد تعلم الكثير عن المشكلات منذ تخرجه من الجامعة، الا انه لم يُطور
الحل. لحسن الحظ ان ناديه، اسوة بالكثير من نوادي النبلاء الانكليز، تأسس على
افتراض مربح ويتمثل في منتهى البساطة بأن ايام تلمذة المرء انما هي افضل الايام.
ويحتوي على كل ما يتوفر في اي كلية غنية دون اي مشكلات سطحية (مثل
الالقاب والعمداء والامتحانات). باختصار، كان يخضع لرغبات المراهقة عند
الرجل. كما انه يقدم مزيج المشروب المفضل والحليب والسكر الممتاز.

صادف ان اول عضوين زميلين تقع عليهما انظار تشارلز لدى دخوله حجرة
الستدخين هما من زملاء التلمذة؛ كان احدهما الابن الاصغر لاحد الاساقفة وكان
يمثل لطخة عار شهيرة لايه. اما الشخص الثاني فهو رجل توقع تشارلز قبل وقت
قصير ان يكون مثله: بارونيت (لقب إنكليزي). لقد اثبت السير توماس بيرغ الذي
ولد وفي جيبه اجزاء كبيرة من مقاطعة نورثمبرلاند، انه صخرة ثابتة لا سبيل للتاريخ
الى زحزحتها. كانت هوايات اجداده من غابر العصور الصيد والرماية وتناول
المشروبات. وظل هو يمارسها بحس متوارث ملائم. في الحقيقة، كان زعيم المجموعة

(*) يمكن قراءة هذه الرسالة الشهيرة والساخرة في (وثائق انسانية عن العصر الفكتوري)
وهي رسالة تنسب الى مومس ناجحة، الا ان المرجح ان يكون كاتبها شخص مثل هنري
مايهيو. (المؤلف)

السريعة التي انخرط واياها تشارلز في تلك الايام في كيمبرج. وكان طيش شبابه سيئ السمعة على غرار ميتون وكازانوفا. وبذلت محاولات شتى لطرده من النادي ولكن بما انه كان يجهزه بالفحم من احد مناجمه وبثمن يجعله اشبه بهدية له، فإن المشاورات الحكيمة كانت تسود دائما. يضاف الى ذلك، ثمة شيء نزيه في اسلوب حياته. كان يرتكب الخطيئة بلا خجل، بل بلا نفاق. كان اريخيا فيما يخص الخطأ. وكان نصف اعضاء النادي من الشبان مدينين له بين وقت وآخر - وكانت قروضه قروض سيد نبيل، قابلة للتمديد الى ما لا نهاية وبلا فائدة. وكان اول من يراهن على شيء ما اذا كانت هناك مراهنه. وعلى نحو ما، كان يذكر الجميع باستثناء الاعضاء الصالحين الذين لا امل في خلاصهم بايام صحوهم القصيرة. كان قصير القامة، بدينا، متورد الوجنتين دوما بفعل الطقس والشراب. وكانت تلوح في عينيه تلك البراءة الرائعة، تلك الصراحة الشفافة التي تعرف عن الساقطين. لقد تجعدت تلك العينان لرؤية تشارلز وهو يدخل.

- تشارلز ما الذي تفعله خارج سجن الزواج؟

ابتسم تشارلز ابتسامة لا تخلو من احساس معين بالطيش الواهي.

- مساء الخير يا توم ويا ناثانيل. كيف حالكما؟

رفع ابن الاسقف السيئ الحظ يدا متراخية والسيكار الابدي في فمه في حين التفت تشارلز الى البارونيت.

- مطلق السراح قبل نهاية المدة كما تعلم. ان الفتاة العزيزة في دورسيت تستعد للخوض في حياتها الجديدة.
غمز توم.

- في حين تتزود انت بالشراب. ايه؟ الا انني اسمع انها وردة الموسم. هذا ما يقوله ناثان وهو شاب غرّ كما تعلم. افضل فتاة وافضل زواج. ليست شقراء. ليس كذلك يا ناثان؟

كان ابن الاسقف معروفا دوما بحاجته الماسة الى المال، وخمن تشارلز ان مظهر ايرنستينا ليس هو موضع الحسد. عند هذه النقطة كان يفضل غالبا الانتقال الى الصحف او ينضم الى بعض المعارف الاقل بشاعة. الا انه ظل اليوم حيث هو. هل سيتحدثون عن الشراب والحليب والسكر؟ نعم. وهكذا جلس بينهما.

كيف حال العم المحترم يا تشارلز؟

غمز سير توم ثانية، لكن على نحو مرضٍ متأصل فيه لا يمكن عدّه بمثابة اهانة. غمغم تشارلز انه في احسن حال.

- كيف يسعى وراء كلاب الصيد؟ اسأله ان كان يحتاج الى زوج منها من افضل ما موجود في نورثمبرلاند... تورنادو - اتذكر تورنادو، انها احفاده. كان تورنادو قد قضى وقتا سرا في جناح سير توم ذات صيف في كيمبرج. - اتذكره ويتذكره كاحلي.

ابتسم السير توم ابتسامة عريضة.

- نعم، كان يستلطفك وكان دوما يلدغ من يحب. يا عزيزي تورنادو. ليتغمدك الله برحمته.

ثم كرع محتويات شرابه بحزن جعل صاحبيه يضحكان وهو امر صعب طالما ان الحزن حقيقي تماما.

بمثل هذا الحديث انقضت ساعتان - وافرغت قنيتان من الشراب وكوب اخر من مزيج الشراب والحليب والسكر، وقطع اخرى من الكلى (اذ انتقل السادة الثلاثة الى غرفة الطعام) تطلبت كمية كبيرة من الماء لتسهيل هضم الاكلة.

كان السير توم وابن الاسقف محترفين في الشرب فشربا اكثر مما شرب تشارلز. بدا الاثنان ظاهريا عند انتهاء الدورق الثاني مترنحين اكثر منه. غير ان مظهره في الواقع كان يوحى باليقظة بينما يشير مظهرهما بالترنح وهو عكس الواقع تماما اذ اتضح ذلك عندما غادر الثلاثة غرفة الطعام للقيام بما اسماه السير توم جولة صغيرة حول البلدة. كان تشارلز يجد صعوبة في الوقوف على قدميه. ولم يسر مسافة حتى ادرك انه في وضع حرج، وشاهد على نحو ما عيني السيد فريمان الرماديتين الخبيرتين تنظران اليه، على الرغم من ان اي شخص له مثل هذه الصلة الوثيقة بالتجارة كالسيد فريمان لا يسمح له بدخول ذلك النادي.

ساعده في وضع رداءه الخارجي، وتسلم قبعته وقفازيه وعصاه. ثم وجد نفسه في الهواء الطلق الحاد - الضباب الموعود لم يظهر للعيان على الرغم من ان شيئا من الضباب الخفيف ظل يغلف الاجواء - وتفرس في تركيز شديد في الشعار المثبت على باب عربة السير توم. مرة ثانية شعر بوينزيات وهي تسدد طعنة اليه،

الا ان الشعار تأرجح ناحيته. وشعر بأن هناك من يتلقف ذراعيه وبعد لحظة واحدة وجد نفسه جالسا الى جانب السير توم وقبالة ابن الاسقف. لم يكن قد بلغ مبلغا يجعله عاجزا عن ملاحظة الغمز المتبادل بين صديقيه، الا انه كان قد بلغ من الترنُّح ما جعله يعجز عن الاستفسار عن معنى ذلك. وقال لنفسه —: ان الامر لا يهمه. كان سعيدا لأنه ثمل على هذه الحال، لأن كل شيء كان يسبح قليلا، لأن كل شيء مرّ وسيمر من امامه لا قيمة له تماما. كانت لديه رغبة عارمة في ان يخبرها عن السيدة (بيلا تومكنز) ووينزيات، الا ان الامر لم يكن قد بلغ حد التحدث عن ذلك ايضا.

فالسيد المذهب يبقى مهذبا، حتى في مثل هذه الحالة. والتفت الى توم.

— توم... توم، يا صديقي العزيز، انت انسان محظوظ تماما.

— وانت كذلك يا غلامي تشارلي. كلنا محظوظون.

— الى اين نذهب؟

— الى حيث يذهب المحظوظون في ليلة لطيفة. ايه؟ اليس كذلك يا نات؟

خيم الصمت بعد ذلك، وحاول تشارلز ان يتبين بوهن الاتجاه الذي يسرون فيه. وفي هذه المرة لم يشاهد الغمز المتبادل للمرة الثانية. لقد سجلت ببطء الكلمات الاساسية في جملة (سير توم) الاخيرة. والتفت التفاتة رزينة.

ليلة لطيفة؟

انا في طريقنا الى ماما تيربسيشور القلم يا تشارلز. الى معبد الشعر. الا تدري؟

حملق تشارلز في وجه ابن الاسقف الباسم.

— معبد؟

— اذا جاز التعبير يا تشارلز.

قاطعهما ابن الاسقف.

— كناية.

تفرس تشارلز فيهما ثم ابتسم فجأة.

— فكرة رائعة.

ثم استأنف نظره الجادة خارج النافذة. وشعر ان الاجدر به ان يوقف العربة ويودعهما. وتذكر، في ومضة قصيرة من ومضات من يزن الامور بميزاتها الصحيح،

ماهية سمعتهما. ثم ظهر له وجه سارة من العدم، ذلك الوجه ذو العينين المغمضتين وهو يميل اليه، القبلية... ضجة كبيرة دون سبب. وادرك سبب كل متاعبه: كان يحتاج الى امرأة. كان يحتاج الى فترة مجون اخيرة، مثلما كان يحتاج أحيانا الى مُطَهَّر. نظر من حوله الى السير توم وابن الاسقف. كان الاول يتكئ في ركنه في حين مدّ الثاني ساقيه فوق المقعد، بينما ارتفعت قبعتا الرجلين بزاوية تنم عن الاستهتار. في هذه المرة تبادل الثلاثة الغمز فيما بينهم.

سرعان ما اضحوا في خضم العربات المتجهة الى تلك المنطقة من لندن الفكتورية التي اسقطناها من صورتنا عن العصر طالما انها كانت مركزية في اكثر من جهة: انها منطقة كازينوهات (اماكن للقاء لا للعب القمار)، مقاهي الجمعيات، حجرات لتدخين السيكار في الاقسام العامة منها (منطقة هايماركت وشارع ريجنت) ومبغى يتوارى عن الانظار في كل الشوارع الخلفية المجاورة. اجتازوا دكان المحار المشهور في هايماركت - سرطانات البحر، المحار، سمك السلمون المخلل والمدخن - وكذلك بطاطا رويال البرت التي لا تقل شهرة بادارة خان، وهو حقا خان باعة البطاطا المحمرة في لندن، من وراء حامل ضخمة قرمزي وبرونزي يشرف ويهيمن على المكان. وهنا اخرج ابن الاسقف منظاره من علبته الجلدية الخشنة في حين اجتازوا حشد الفتيات الطائشات الشهيرات وهن في عرباتهن، والاقبل شهرة في حشود عند ارصعة الشارع... فتيات بعضهن بوجوه صغيرة شاحبة متزنة واخريات مشاكسات، سليطات، بوجنات محمّرة. سيل جارف من الالوان - من الازياء، فقد كانت الاشياء التي لا يمكن تخيلها مسموحا بها هنا. وارتدت النسوة ملابس البحارة الفرنسيين، والقبعات المستديرة ذات اللون الاسود والسراويل. وظهرن مثل بحارة، مثل سنيورات، مثل فلاحات صقلية؛ كانت كل ممثلات الملاحى الرخيصة المجاورة التي لا تعد ولا تحصى اندفعت الى الشارع. والاكثر كآبة من هؤلاء هم الزبائن - الجنس الخشن الذي يساويهن عددا وهو يحرق الى عباقة المساء، العصا في اليد والسيكارة في الفم. اما تشارلز الذي تمنى لو انه لم يشرب الى ذلك الحد فاضطر بذلك الى رؤية الاشياء مرتين، فقد وجد المشهد لذيذا ومرحا وحيا، وقبل كل شيء، بعيدا كل البعد عن كل ما يمت بصلة لمذهب فريمان.

اشك في ان تيربسيشور قلما تشمل برعايتها الجمهور الذي يتشكل منه اصحابنا الثلاثة في خلال الدقائق العشر. فأصدقائنا لم يكونوا وحدهم. فقد كان هناك ستة او سبعة شبان واثنان مسنان اخران عرف تشارلز احدهما، وهو ركن من اركان مجلس اللوردات، وقد جلسوا كلهم في القاعة الكبيرة المعدة وفق الذوق الباريسي الرفيع ويمكن الوصول اليها عن طريق زقاق ضيق، كثير الضوضاء، يتفرع عن احد الشوارع القريبة من اعلى شارع هايماركت. وفي احد طرفي الحجرة المزدانة بالثريات، كان ثمة مسرح صغير تخفيه عن الانظار ستائر ذات لون احمر داكن، نقش عليها بخيوط مذهبة زوجان من الحوريات وصورتا سيدي الغابات وكان سيد واحد يبدو وهو على وشك امتلاك راعيته. اما الثاني فيبدو وقد اكمل اتصاله. وكتب بحروف سوداء فوق شكل مستطيل مذهب يعلو الستائر بريابوس 44.

ربما لم تتغير مثل تلك المشاهد على مر التاريخ بخلاف اي تغييرات اخرى في اي نشاط اخر. فالذي جرى امام تشارلز في تلك الليلة جرى على النحو نفسه امام هليو غابالوس⁽¹⁰⁵⁾ - وبلا ريب امام اغامنون⁽¹⁰⁶⁾ ايضا. ويجري اليوم في حانات سوهو السيئة السمعة التي لا تعد ولا تحصى. ان الشيء الذي يثير متعتي بشأن خاصية عدم التغير في هذا الشكل الموغل في القدم من اشكال المتعة والمتمتع بقدرسية القدم هو انه يسمح لي بالاقتباس من مخيلة الاخرين. اذ كنت ابحث عما قريب عن افضل نموذج من نماذج الكتب الاكثر مبيعا القديمة - نموذج مهمل. وكان يجلس بهدوء تحت عبارة الطب بين (مقدمة في علم وظائف الكبد) و(امراض الجهاز التنفسي) عنوان اشد كآبة هو (تاريخ قلب الانسان). في الحقيقة، انه تاريخ بعيد كل البعد عن الكآبة يعالج موضوع العضو الذكري. وقد نشر اول مرة في العام 1749 وهو نفس عام صدور رائعة كليلاند في نفس الموضوع (فاني هيل). ويفتقر المؤلف الى تجربته الا انه يفي بالغرض.

(105) هليو غابالوس (204-222 م): امبراطور روماني (218-222). عرف بالاستهتار والخلاعة. (المترجم)

(106) اغامنون: (في الميثولوجيا اليونانية، القائد الاعلى للحملة الاغريقية ضد طروادة). (المترجم)

ادخلوا حجرة كبيرة، وقدم الشراب، وطلب من النادل الانصراف. وبعد شرب الأنخاب، طلب من السيدات الاستعداد. وعلى الفور صعدن فوق المنضدة. دُهِش كاميلو تماما لهذه الوسيلة ولم يدهش اقل من ذلك في معرفة الهدف الذي سعت من ورائه الفتيات عندما ارتقين ذلك المكان البارز. كانت اطرافهن ملساء، ملامحهن نضرة وبشرتهن بيضاء كالثلج المنذفع وقد ازدادت شدة البياض هذا بفعل لون شعرهن الاسود الفاحم. وكانت وجوههن مليحة جدا. اما الحمرة الطبيعية التي تألفت على وجنانهن فقد انتقلت الى ذهن كاميلو بوصفهن حسناوات الى حد الكمال وعلى استعداد لمنافسة فينوس نفسها. وبعد ان شاهد وجوههن، القى نظرة خجلى الى مذبح الحب الذي لم يسبق له ان شاهده. يمثل هذا الوضع الذي يراه به في الوقت الراهن...

... على اي حال، على الرغم من ان المشهد اثار ضحك الرفاق كلهم فقد تحمل حفلة السمر هذه بكثير من الصبر اذ سبق ان قيل له انه ضروري ان يقدم كل الاعضاء الجدد على هذا النحو الى اسرار مجتمعهم. وبدا كاميلو الان يتمتع من وقاحة النساء الاستثنائية. ووجد نفسه خاليا من تلك العاطفة القلقة التي شعر بها لدى بدء العرض ورغب في ان يطردهن الرفاق. الا ان رفاقه ما من شأنهم ان يفرقوا عنهن حتى نهاية تمرينهن. لم تطلب الحوريات اللائي جمعن التبرعات عند كل اكتشاف جديد لابتكارهن الوقحة، اي استعطاف لاسترضاء الشبان الفاسقين، بل واصلن دون اي احساس بالخجل عرض مدى الدناءة التي يمكن ان توصل الطبيعة البشرية نفسها اليه.

على اي حال، لم يكن تشارلز هناك ليقدم عرضه. فقد استمتع بالمشاهد الاولى استمتاعا تاما. وظهر بمظهر الرجل الذي سبق له ان تنقل كثيرا، اذ شاهد عروض افضل في باريس - او هذا ما همس به للسير توم - ولعب دور من سئم الملذات وعرف كل شيء. بعد ذلك القى نظرة خاطفة الى الافواه الفاغرة على نحو داعر للرجال الجالسين الى جواره وقد ظللتهم الظلال وسمع السير توم وهو يشير الى ابن الاسقف موضحا اختياره. تعانقت الاجساد البيض، تلوّت، اتسمت بالتقليد والمحاكاة. غير ان تشارلز ادرك وجود شيء من اليأس يكمن وراء ابتسامات الممثلات الثابتة والموحية. كانت احدى هؤلاء طفلة بلغت توا سن

البلوغ. وبدا في تظاهرها بمظهر البراءة المتردد وجود شيء يتسم بالعدرية الحقيقية، شيء من العذاب الذي لم تحجره مهنتها.

على الرغم من انه اشمأز فانه استثير، وتقزز من الجو العام لهذا العرض. غير انه كان على درجة من الحيوانية تكفي لأن يقلق ويستثار سرا. قبل وقت قصير من نهاية العرض، نهض وغادر الحجرة كأنما ليريح نفسه. وفي حجرة الاستراحة، جلست راقصة الباليه الصغيرة التي قدمت الشراب من وراء منضدة قرب معاطف السادة وعصيتهم. وتجمد وجهها المكسو بالاصباغ اثر ابتسامة مصطنعة وهي تنهض واقفة. تفرس تشارلز برهة وجيزة في خصلات شعرها غير المنتظمة، في ذراعيها العاريين وصدرها العاري تقريبا. وبدا موشكا على الحديث، بيد انه غير رأيه، و اشار على نحو جاف الى حاجياته. ثم رمى نصف جنيه فوق المنضدة قرب الفتاة، وانصرف متخططا في سيره.

في الشارع، قرب نهاية الممرات، وجد العديد من العربات في الانتظار. فاستقل اول عربة وصاح عاليا (لان تلك هي التقاليد الفكتورية الحذرة) باسم احد شوارع كنزنگتون القريبة من المكان الذي يسكن فيه، ورمى نفسه داخل العربة. لم يشعر باللياقة النبيلة، بل شعر كأنه ابتلع الالهانة او احجم عن مبارزة. لقد عاش والده حياة كانت فيها مثل هذه الامسيات امرا مألوفاً، وبما انه لم يستطع هضمها، فذلك يعني انه شاذ. اين هو الان رجل الرحلات حول العالم؟ لقد تضاءل حتى استحال الى جبان بائس. ماذا عن ايرنستينا؟ التزامه بالخطوبة؟ ان تذكره هذه الامور جعله اشبه بسجين يستيقظ من حلم وجد نفسه فيه حرا ويحاول الوقوف على قدميه، الا انه ينطرح ارضا بفعل الاغلال التي تقيدته فيعود ثانية الى واقع زنزانتة المرير.

سارت العربة سيرا وثيدا اسفل شارع ضيق، محتشد بعربات اخرى لأن المنطقة لا تزال هي منطقة الخطيئة. اذ وقفت المومسات تحت كل ضوء وعند عتبة كل باب. وراقبهن تشارلز من مكانه المعتم. وشعر بالدم يغلي في عروقه، وانه لا يطاق. وتذكر سارة قبالة شجرة الاشواك، وشعر لو ان امامه شوكة حادة لغرس يده فيها، اذ كانت رغبته جامحة في تعذيب نفسه، في معاقبتها، في القيام بعمل من شأنه ان يشق صفراءه.

شارع اكثر هدوءا. ومرّت العربّة من امام مصباح غازي وقفت تحته فتاة وحيدة. لاحت له يائسة، قليلة التجربة لا تقوى على الاقتراب اكثر، لعل ذلك سببه كثرة النساء الواضحة في الشارع الذي مرّت به. الا ان مهنتها على الرغم من ذلك لا تقبل الجدل. كانت ترتدي ثوبا قطنيا ورديا متسخا تزينه ورود اصطناعية فوق الصدر وتلف كتفيها بلفاف ابيض، في حين تربعت قبعة سوداء وفق زي حديث، صغيرة ورجولية من فوق ضفيرة كبيرة من الشعر الكستنائي. تفرست في العربّة المارة من امامها. ووجد تشارلز نفسه يشرأب الى الامام ويواصل النظر اليها من خلال فتحة النافذة البيضوية الجانبية مدفوعا بذلك بظلال الشعر والعينين اليقظتين اللتين تظللهم ظلال سوداء والوقفة التي تشوبها اللفة والحزن. مرت به لحظة لا تحتمل ثم امسك عصاه، ونقر سقف العربّة من فوقه بقوة. فتوقف السائق على الفور، وتناهى الى السمع صوت وقع خطوات مسرعة، ثم برز الوجه للعيان، ادنى منه قليلا، على مقربة من واجهة العربّة المفتوحة.

في الحقيقة، لم تكن تشبه سارة. ولاحظ ان الشعر بالغ الاحمرار بحيث لا يمكن ان يكون لونه هذا طبيعيا. كما ان مظهرها مألوف تماما، جرأة مصطنعة في العينين الثابتتين وابتسامة فوق الشفتين الحمراءوين، البالغتي الاحمرار مثل الدم. الا ان هناك شائبة خفيفة - شيئا ما في الحاجبين الثابتين، او في الفم.

- ألدك غرفة؟

- نعم يا سيدي.

- اخبريه بالمكان.

توارت عن انظاره لحظة واحدة، وذكرت شيئا ما للسائق من خلفه. ثم ارتقت العربّة التي تأرجحت بفعل ثقلها، وجلست الى جانبه، فامتلات المسافة الضيقة بالعطر الرخيص. وشعر بلمس احد كميها وتنورتها وهي الى جانبه، الا ان ذلك لم يدم طويلا فاستأنفت العربّة سيرها، وخيم الصمت مسافة مئة ياردة (91 مترا) او اكثر.

- هل سأقضي الليلة كلها يا سيدي؟

- نعم.

- انني اسأل لانني اضيف ثمن اجرة العودة في حالة عدم المبيت. اوماً ثم تفرس في الظلام من امامه. اجتازت العربية مئة ياردة (91 متراً) اخرى في صمت. وشعر انها قد استراحت قليلاً، كما شعر بضغط قليل على ذراعه.

- الجو شديد البرودة لا يناسب هذا الوقت من العام.

- نعم.

ثم رمقها بنظرة سريعة.

- لا بد انك تلاحظين مثل هذه الاشياء.

- انا لا اشتغل عند سقوط الثلج. بعض الفتيات يشتغلن. اما انا فلا اشتغل.

صمتاً اخر. وفي هذه المرة تكلم تشارلز.

- مضى عليك زمن طويل وانت...؟

- منذ ان كنت في الثامنة عشرة من العمر يا سيدي. وسأكمل السنتين بحلول

أيار/مايو.

- اه.

اختلس نظرة اخرى اليها في الصمت الذي اعقب ذلك الحوار، وبدأ حساب رهيب ينهش عقل تشارلز. ثلاثمئة وخمسة وستون يوماً، لنقل ثلاثمئة يوم عمل مضروباً في اثنين... وهذا يعني بنسبة ستمئة الى واحد انها غير مصابة بمرض. اهنالك وسيلة رقيقة يستطيع بها ان يوجه السؤال؟ لا توجد. اختلس نظرة اخرى اليها في لحظة مؤاتيه انصب فيها الضوء الخارجي من فوقهما. بدت ملامحها لا تشوبها شائبة، الا انه مغفل. ففيما يخص مرض السفلس، كان يعرف ان من شأنه ان يكون في وضع اكثر اماناً بعشر مرات في مكان مريح كالذي غادره. ان التقاط اي مومس لندنية... الا ان قدره تقرر نهائياً. وقد رغب هو بذلك. كانت العربية تتجه صوب الشمال، صوب شارع توتنهام كورت.

- اترغبين في ان ادفع اجرتك الان؟

- لا على وجه الخصوص يا سيدي. كما تهوى.

- حسناً جداً. كم الاجرة؟

ترددت. ثم قالت.

- بالوضع الاعتيادي يا سيدي؟

رمقها بنظرة، ثم اوماً.
- اجرتي المعتادة لليلة كاملة...
وبدا ترددها القليل لا يوحى بالنزاهة:
- جنيه واحد.
تحسس جيب سترته الطويلة وسلمها قطعة النقد.
- شكرا لك يا سيدي.
ثم دسستها في حقيبة يدها الصغيرة، واجابت اجابة غير مباشرة على خوفه
السري.
- انا لا اخرج الا في صحبة النبلاء يا سيدي. فلا ضرورة لأن تقلق على هذا
النحو.
وقال بدوره.
- شكرا لك.

على شفاه الآخرين، والسفي،
كم ضغطت هاتان الشفتان،
وعائق ذلك الصدر، قبلي،
صدور الآخرين.

مائيو لرنولد- فراق 1853

توقفت العربدة امام بيت في احد الشوارع الفرعية الضيقة شرقي شارع توتنهام كورت. وبعد ان ترجلت الفتاة مسرعة من العربدة ارتقت مباشرة درجا يؤدي الى باب، ودلفت منه. كان سائق العربدة رجلا عجوز، اعتاد منذ زمن طويل على ارتداء معطف السياقة وقبعة الرأس ذات الشريط الغامق حتى بات يصعب تصور عدم كبرها على جسده. ووضع السوط في مكانه ليتسلم النقود. في هذه الاثناء، حملق مباشرة امامه صوب نهاية الشارع المعتم كأنه لا يستطيع النظر الى تشارلز ثانية. كان تشارلز سعيدا لأنه لم يكن لينظر اليه، وبدا فاقد القدرة على النطق تماما مثلما بدا سائق العربدة العجوز هذا وطيد العزم في اثاره مشاعره. انتابته لحظة شك وكان في وسعه ان يقفز ثانية داخل العربدة. لأن الفتاة توارت عن الانظار... غير ان عنادا شريرا جعله ينقد السائق اجرته.

وجد تشارلز المومس تنتظره في رواق خافت الانارة وقد اولته ظهرها. لم تلتفت، بل ارتقت السلام حالما سمعته يخلق الباب. كانت هناك رائحة طبخ واصوات مبهمه تنبعث من مؤخر البيت.

ارتقيا مجموعتين مرهقتين من السلام، ثم فتحت احد الابواب، وامسكت به حتى يجتازه. ولما مرّ اغلقته، واتجهت الى الداخل، ورفعت فتيل المصباح فوق الموقد، واذكت النار مضيئة بعض الفحم. نظر تشارلز من حوله. كانت محتويات الغرفة رثة باستثناء السرير. غير ان النظافة كانت سائدة. كان السرير مصنوعا من الحديد والنحاس وقد صقل النحاس صقلا جيدا حتى ظهر كالذهب. وفي الركن المواجه للسرير ثمة حاجز استطاع ان يرى من ورائه وجود مغسلة. وهناك بعض الزينة

والصور الرخيصة المثبتة فوق الجدران. اما الستائر البالية المصنوعة من المورين فكانت مسدلة. ولم يكن في الغرفة ما يوحي بالغرض المترف الذي تستخدم من اجله.

- معذرة يا سيدي. تفضل بالجلوس ولن اتأخر دقيقة.

ثم اجتازت بابا اخر يؤدي الى حجرة اخرى في مؤخر البيت. كانت الحجرة مظلمة ولاحظ انها اغلقت الباب من ورائها بمنتهى الرقة. تقدم ووقف، وولى ظهره الموقد. وسمع من خلال الباب المغلق غمغمة واهية لطفل يستيقظ من نومه، محاولة لاسكاته وبضع كلمات مهموسة. فُتح الباب ثانية، وظهرت المومس ثانية، وقد خلعت لفاعها وقبعتها، وابتسمت ابتسامة عصبية له.

- انها طفلي الصغيرة يا سيدي. لن تتسبب في اي ضوضاء. وهي كالذهب في جودتها.

ولما شعرت بامتعاضه اسرعت قائلة:

- ان كنت جائعا يا سيدي فهناك مطعم على بعد خطوة واحدة لا اكثر. لم يكن تشارلز جائعا، كما انه لم يشعر الان بالجوع الجنسي ايضا. ووجد صعوبة في النظر اليها.

- اطلبني ما تشائين لك، اما انا فلا اريد سوى شيء من الشراب المفضل اذا امكن.

- شكرا لك يا سيدي. سارسل الصبي لاحضاره.

ثم تسوارت عن الانظار ثانية. وسمعتها وهي تنادي بصوت حاد، صوت يفتقر الى الرقة، في اتجاه الرواق.

- هاري!

همس اصوات، وانغلاق الباب الامامي بقوة. ولما عادت سألها ان كان ينبغي له ان يدفع لها بعض النقود. لكن بدا ان هذه الخدمة من ضمن الاجور.

ألن تفضل بالجلوس يا سيدي؟

ثم بسطت يديها لتأخذ قبعته وعصاه اللتين ما زالتا في يده. فسلمهما اليها ودفع مؤخر سترته الطويلة وجلس قرب الموقد. ظهر ان الفحم الذي وضعت في الموقد بطيء الاشتعال. جثت على ركبتيها قبالة الموقد، وانهمكت في اذكاء النار ثانية.

- ان الفحم من افضل نوعية، فلا يجدر ان يحترق ببطء. انه القبو. فهو رطب مثل البيوت العتيقة.

راقب وجهها من الجانب وقد انعكس عليه وهج الضوء الاحمر المنبعث من الموقد. لم يكن وجهها جميلا، بل ثابتا، راثعا، غير دال على تفكير. وكانت عامرة الشدين، رقيقة الرسغين واليدين على نحو يبعث على الدهشة، كثيفة الشعر، مما جعل رغبته تتقد حالا. واوشك على مد يده للمسها، غير انه غير من رأيه، ولسوف يشعر بالتحسن عندما يشرب المزيد من الشراب المفضل. بقيا على تلك الحال دقيقة او اكثر. وفي النهاية نظرت اليه فابتسم لها.

للمرة الاولى في ذلك اليوم شعر بالهدوء.

حولت من انظارها صوب الموقد ثانية وهمست:

- لن يتأخر كثيرا. فالمكان على بعد خطوتين لا اكثر.

وهكذا لبث الاثنان في صمت مرة اخرى. غير ان مثل هذه اللحظات كانت في منتهى الغرابة للرجل الفكتوري. فالالفة التي تربط حتى بين الزوج والزوجة محكومة الى حد بعيد بقوانين التقاليد الصارمة. ولكن على الرغم من ذلك، كان تشارلز يجلس قرب موقد هذه المرأة التي لم يعرف بوجودها قبل ساعة واحدة، مثل...

- والد طفلتك الصغيرة...؟

- جندي يا سيدي.

- جندي؟

حملت في الموقد: ذكريات.

- انه في الهند الان.

- أليس من شأنه ان يتزوجك؟

ابتسمت لبراءته، ثم هزّت رأسها بالنفي.

- لقد اعطاني النقود عندما استلقيت في الفراش.

وكانت بهذا توحى انه فعل كل ما يمكن ان يتوقعه المرء على نحو نبيل.

- الم تتمكني من العثور على وسيلة اخرى للعيش؟

- هناك العمل. الا انه عمل طيلة ساعات النهار. ثم عندما ادفع المال للعناية

بامر طفلي ماري...

هزت كتفيها.

- لا يمكن اصلاح ذلك. لهذا عليك ان تكتشف افضل ما تستطيع عمله.

- وهل تعتقد ان هذه افضل وسيلة؟

- لا اعرف وسيلة اخرى يا سيدي بعد الان.

الا انها تكلمت دون ما يشير الى الخجل او الندم. لقد تقرر مصيرها. وكانت تفتقر الى الخيال لادراك ذلك.

سمع صوت وقع اقدام على السلام. نهضت واتجهت صوب الباب وفتحته قبل ان يطرق. لمح تشارلز صبيا في الثالثة عشرة او ما يقرب من ذلك واقفا خارج الحجرة، كان من الواضح انه تعلم الا يتفرس في اي شيء، اذ ظلت عيناه خفيضتين في حين حملت هي الصينية واتجهت بها صوب منضدة قريبة من النافذة، وعادت الى الباب وهي تحمل محفظة نقودها. سمع صوت النقود المعدنية الصغيرة، ومن ثم اغلق الباب بهدوء. سكبت له كاسا من الشراب المفضل واحضرته له، ووضعت الزجاجاة فوق ركيزة معدنية بثلاث قوائم في المكان المحيط بالموقد قربها. جلست وازاحت قطعة القماش التي كانت تغطي الطبق الموضوع في الصينية. ولمح تشارلز بطرف عينيه قطعة صغيرة من الفطائر، وشيئا من البطاطا وكأسا من الشراب المفضل والماء على ما يتضح، اذ قلما تكون قد طلبت احضار الماء وحده. كان طعم الشراب المفضل حامضا، الا انه شربه على أمل ان تبeld حواسه.

كان هناك صوت فرقعة صغيرة منبعثة من الموقد المتأجج الان، وهسيس شعلة الغاز، ورنين ادوات الطعام: لم يدرك كيف ينبغي لهما الانتقال الى هدف وجوده الحقيقي. شرب كأسا اخرى من الشراب المفضل ذي الطعم الشبيه بالخل.

سرعان ما فرغت من وجبتها، وثقلت الصينية خارجا. ثم عادت الى الحجرة المظلمة حيث ترقد الطفلة الصغيرة. مرت دقيقة، ثم عادت الى الظهور من جديد وهي ترتدي هذه المرة رداء فضفاضاً، ابيض اللون امسكت به كي لا يفتح من الامام. كما ارحلت شعرها الذي انساب فوق ظهرها. كانت يداها تمسكان حافات الرداء على نحو محكم لتظهر انها عارية من تحته تماما.

نهض تشارلز.

- لا داعي للعجالة يا سيدي. افرغ من تناول شرابك.

حملق في الزجاجاة القريبة منه كأنه لم يلحظها من قبل، ثم اومأ، وجلس ثانية، وصبّ لنفسه كأساً اخرى. تحرّكت من امامه، ومدّت يدها لتقلل من حدة اشتعال الموقد في حين ما زالت يدها الاخرى تمسك بالرداء. غمرها ضوء الموقد ولطف من ملامحها الغضة، ثم جثت ثانية قرب قدميه في مواجهة الموقد. وبعد لحظة مدت يديها الى الموقد، فانفتح الرداء قليلاً ورأى هذا ابيض، تغمره الظلال، غير مكشوف تماماً.

تكلمت وهي لا تزال متجهة صوب الموقد:

- اتفضل ان اجلس على ركبتك يا سيدي.

- نعم... من فضلك.

عبّ ما في الكأس في حين نهضت وهي تمسك رداءها باحكام وجلست مسترخية فوق ساقيه المضمومتين، ووضعت ذراعها اليمنى من حول كتفيه. وضع ذراعه اليسرى حول خصرها بينما ظلت ذراعه اليمنى ممتدة على نحو طبيعي غير معقول فوق ذراع الكرسي. ظلت يدها اليسرى لحظة تمسك بردائها غير انها مدتها بعد ذلك، وداعبت وجنتيه. مرت لحظة. قبلت وجنته الاخرى. التقت عيناها. اقلت نظرة الى فمه، كأنها خجلة، بيد انها استأنفت عملها دون استحياء.

- انت سيد في منتهى الجاذبية.

- انت فتاة جميلة.

- اتحبنا نحن الفتيات الشريرات؟

لاحظ انها اغفلت ذكر كلمة سيدي. احكم ذراعه اليسرى من حول خصرها.

- انا ثقيلة عليك؟

- لا... انه...

- انه سرير لطيف. ناعم.

وقفت بعيداً عنه، واتجهت صوب السرير، وطوت اغطيته ثم التفت لتنظر اليه. تركت الرداء يسقط عن كتفيها. كانت ذات جسد حسن التقاطيع، ومؤخرة متناسقة. مرت لحظة، ثم جلست، وادخلت ساقها تحت الاغطية، واستلقت مغمضة العينين معتقدة على نحو واضح ان ذلك هو الوضع المحتشم. بدأت احدى

قطع الفحم تتوهج بعنف، ملقية ظلالاً قوية إلا أنها مرتعشة. وتراقص القفص، طرفاً السرير على الجدار من ورائها. نهض تشارلز واقفاً وهو يحارب ضد المعركة الناشئة في معدته. كان الشراب المفضل هو السبب. كان مجنوناً عندما شربه. شاهد عينيها مفتوحتين تنظران إليه. ترددت، ثم مدت ذراعيها الرقيقتين البيضاوين، فإشار إلى سترته الطويلة.

بعد بضع لحظات شعر بقليل من التحسن، وشرع ينزع ثيابه حقاً، على نحو مرتّب، مرتّب أكثر من أي وقت مضى فعله في غرفته الخاصة، فوق ظهر الكرسي. كان مضطراً إلى الجلوس كي يفك شريط حذائه. حدّق إلى الموقد وهو يخلع سرواله وثيابه التحتانية التي كانت تصل إلى ما دون ركبتيه، حسب الزي السائد في تلك الأيام. إلا أنه لم يتمكن من خلع قميصه. لقد هاجمه الغثيان من جديد. أمسك بحافة الموقد المزركشة، واغمض عينيه وهو يكافح من أجل السيطرة على نفسه.

ظننت في هذه المرة أن سبب تأخره يكمن في خجله. فما كان منها إلا أن طوحت باغطية السرير كأنها تريد النهوض لتأتي به إلى السرير. ارغم نفسه على السير صوبها. فاستلقت ثانية، إلا أنها لم تغط جسدها. وقف قرب السرير، وتفرد فيها. مدت ذراعيها، فظل واقفاً يحرق بها لا يعي سوى الدوار في رأسه، ورائحة الشراب المفضل...

- لا أعرف اسمك.

ابتسمت وهي ترفع بصرها إليه، ثم مدت يديها صوب يديه وجذبتة ناحيتها.

- سارة يا سيدي!

اضناه التشنج الداخلي الذي لا يطاق. وبعد أن مال إلى الجانب بدا يتقيأ فوق الوسادة قرب رأسها الذي أبعده إلى الوراء وهي مذعورة.

انهض وتخلص

من سيد الحقول المترنح ومن حفل الملاذ

تسامى متخلصا من الحيوان فيك،

ودع القرد والنمر يموتان

تينيون: احياء لذكرى 1850

للمرة التاسعة والعشرين في ذلك الصباح اصطدمت عينا سام بعيني الطاهية فحول نظاره الى صف من الاجراس فوق باب المطبخ، ومن ثم مررها صوب السقف. كان الوقت ظهرا، وربما جاز للمرء ان يعتقد بأن سام سعيد باجازته في ذلك الصباح، الا ان الاجازات الصباحية الوحيدة التي كان يتطلع اليها انما هي تلك التي يقضيها بمعية انثى اكثر جاذبية من السيدة روجرز البدينة.

- انه ليس في حالته السوية.

قالت الارملة للمرة التاسعة والعشرين ايضا. على اي حال، لو انها شعرت بالانزعاج فذلك بسبب سام، لا بسبب السيد الشاب في الطابق العلوي. ومنذ عودته من بلدة لايم قبل يومين، استطاع الخادم ان يلّمح الى احداث ووقائع خفية. صحيح انه نقل نقلا لطيفا الخبر الخاص بوينزيات، الا انه اضاف طبق الاصول: «لكن هذه ليست نصف الاستعدادات الجارية». لقد رفض ان يستدرج في الحديث. «ثمة ثقة معينة، ولا يجوز الحديث عن ذلك يا سيدة آر. الا ان الاشياء التي حدثت قلما تصدق عيناها انها وقعت فعلا».

من المؤكد ان لسام احد المواضيع العاجلة التي تبعث على المرارة. لقد اغفل تشارلز صرخة في ذلك المساء عندما ذهب للقاء السيد فريمان. وهكذا ظل سام منتظرا حتى ما بعد حلول منتصف الليل ليتلقى بعد ذلك تحية من نظرة متجهمة تعلق وجها شاحبا بعد ان سمع الباب الامامي وهو يفتح.

- لماذا لم تأو الى فراشك بحق الشيطان؟

- لانك لم تخبرني انك ستناول طعامك خارج البيت يا سيد تشارلز.

- كنت في النادي الخاص بسي.
- نعم يا سيدي.
- غير هذه النظرة الوقحة من على وجهك اللعين.
- نعم يا سيدي.
- مدّ سام يديه وتناول - او امسك - الحاجيات المختلفة، بدءا بالاشياء المتفرقة التي تلبس عند الخروج وانتهاء بالنظرة الجهنمية القاسية التي رمقه تشارلز بها. ثم تقدم السيد بجلال صوب الطابق العلوي. كان عقله صاحيا تماما، الا ان جسده ما زال مترنحا قليلا وهي حقيقة لم تعكسها بوضوح بالغ الا ابتسامة سام المريرة وغير المرئية معا.
- انتِ على حق يا سيدة آر. انه ليس في حالته السويّة. كان مترنحا تماما الليلة الماضية.
- ما كنت لاصدق احتمال ذلك.
- هناك اشياء كثيرة ما من شأنك ان تصدقي احتمالها يا سيدة آر. وبما ان ذلك قد حدث، فالامر سيّان.
- انه لا يريد الاعتذار.
- الخسائر الكبيرة لا تفارق شفتي يا سيدة آر.
- اخذت الطاهية نفسا عميقا في حين دقت الساعة القرية من فرن الطبخ. فابتسم سام لها.
- غير انك حادة يا سيدة آر. في منتهى الحدة.
- من الواضح ان مشاعر سام الخاصة بالامتعاض ستحقق ما عجزت عن تحقيقه الجياد الثائرة. الا ان سام انقذ والسيدة روجرز احبطت عندما دق الجرس. تقدم سام ورفع صفيحة معدنية فيها غالونان من الماء الحار كانت تنتظر طيلة الصباح بصبر وراء فرن المطبخ. ثم غمز لرفيقته وتوارى عن الانظار.
- هناك نوعان من الاثار التي يخلفها في المرء اسرافه في الشراب المفضل. في النوع الاول تشعر بالغثيان والعجز، وفي النوع الثاني تشعر بالغثيان والشفافية. في الحقيقة، كان تشارلز يقظا، بل خارج السرير قبل وقت قليل من قرع الجرس. وكان لديه النوع الثاني من تلك الاثار. وتذكر على نحو واضح تماما وقائع الليلة الفائتة.

كان تقيؤه قد انتزع العنصر الجنسي المشكوك فيه في تلك الغرفة من انظاره وعقله تماما. اما الفتاة ذات الاسم الذي لا يبعث على السرور فقد نهضت بعجالة، وجذبت رداءها واثبتت انها ممرضة هادئة مثلما عزمت على ان تكون مومسا. ساعدت تشارلز على الجلوس فوق الكرسي القريب من الموقد وهناك شاهد زجاجة الشراب المفضل فشعر بالغثيان ثانية. الا انها في هذه المرة كانت قد هيأت حوضا انت به من قرب المغسلة. كرر تشارلز اعتذاره بين محاولاته للتقيؤ.

- آسف جدا. شيء يؤسف له... شيء ما لم يناسب...

- لا بأس يا سيدي. لا بأس. اترك نفسك تتقيأ.

اضطر الى ترك نفسه كي يتقيأ. ثم ذهبت، واتت بلفاعها، ورمت به من حول كتفيه. جلس بعض الوقت على نحو يثير الضحك كأنه جدّة عجوز، منحنيا فوق الحوض، جائعا على ركبته. وبعد برهة شعر بقليل من التحسن. ايفضل النوم؟ نعم، لكن في سريره الخاص به. ذهبت واقت نظرة صوب الشارع، ثم تركت الحجرة في حين ارتدى ثيابه مرتجفا. ولما عادت، كانت قد ارتدت هي الاخرى ثيابها. نظر اليها مشدوها.

- انت متأكدة...

- استدعي لك عربة يا سيدي. لو انتظرت...

- اه، نعم... شكرا لك.

ثم جلس ثانية في حين هبطت السلام، وخرجت من البيت. وعلى الرغم من انه لم يكن متأكدا بأن غثيانه قد انتهى، فقد احس نفسيا بارتياح عميق. اذ بغض النظر عن ماهية قصده، فانه لم يرتكب عملا قاتلا. تفرس في النار المضطربة قبالة، وابتسم ابتسامة شاحبة وهو امر يدعو الى الاستغراب.

تناهى الى سماعه بكاء ضعيف من الحجرة المجاورة. ثم خيم الصمت، غير ان الصوت عاد من جديد على نحو اعلى هذه المرة واقوى. من الواضح ان الطفلة الصغيرة قد استيقظت. واصبح بكاءها - صمتها، عويلها، اختناقها، صمتها، عويلها - صعب الاحتمال. اتجه تشارلز صوب النافذة، وازاح الستائر، غير ان الضباب حال دون رؤيته الى مسافة بعيدة. لم يستطع مشاهدة اي شخص. وادرك انحسار صوت وقع حوافر الخيل وظن ان الفتاة لا بد ذاهبة الى مكان ما لاحضار

العربة. وفي حين كان يقف مترددا، احس بضربة مكتومة على الجدار من البيت المجاور. وصرخ صوت رجالي حقود غاضبا. تردد تشارلز ثم وضع قبعته وعصاه فوق المنضدة وفتح الباب المؤدي الى الحجرة الاخرى. واستطاع ان يميز من خلال الضوء المنعكس خزانة ملابس وصندوقا قديما. كانت الحجرة صغيرة جدا. وفي ركن قصي، ثمة سرير خفيض مدولب قرب خزانة صغيرة مغلقة. وعاد بكاء الطفلة فجأة، مخترقا الحجرة الصغيرة. وقف تشارلز عند عتبة الباب المضئية، وقفة مرتكبة، عملاق أسود مثير للهللع.

- صه. صه ستأتي امك عما قريب.

زاد الصوت الغريب من تفاقم الامور، وشعر تشارلز ان الجيران كلهم لا بد قد استيقظوا، اذ كان الصراخ حادا الى ابعد الحدود. ضرب رأسه يائسا، ثم تقدم الى امام صوب الظلال قرب الطفلة. ولما رأى صغر سنّها ادرك لا جدوى الكلمات. انحنى من فوقها، وربّت على رأسها برفق. فامسكت اصابع دافئة صغيرة باصابعه، غير ان البكاء لم يتوقف. وعبر الوجه الصغير المتجعد عن كل ما يخزنه من خوف بقوة مثيرة للدهشة. لا بد من العثور على وسيلة ما. وعثر عليها تشارلز. تلمس طريقه صوب ساعته، وحرّر سلسلتها من صدريته وادلاها فوق الطفلة، فكان الاثر سريعا. وتحولت صرخات البكاء الى انين ثم امتدت الذراعان الصغيرتان الى اعلى للقبض على اللعبة الفضية اللذيذة. فسمح لهما بذلك، حتى فقدتها بين اغطية السرير، وحاولت الجلوس الا انها اخفقت. فعاد الصراخ من جديد.

مد تشارلز يديه لمساعدة الطفلة في الاتكاء قليلا على الوسادة. واعتدته رغبة، فرفع الطفلة من السرير وهي ترتدي قميص النوم الطويل، واستدار وجلس على الخزانة الصغيرة. وامسك بالطفلة الصغيرة وهي فوق ركبتيه، وادلى الساعة قبالة الذراعين الصغيرتين التواقيتين الان. كانت طفلة فكتورية، سمينة الوجه، سوداء العينين والشعر. انبعث السرور في نفس تشارلز عندما شاهد تغير مزاجها وقهقهتها الفرحة عندما امسكت اخيرا بالساعة المفضلة. وشرعت تلهو في حين غمغم تشارلز بحيا... «نعم، نعم، ايتها الطفلة الجميلة الطيبة، ايتها الجميلة». ومرت في ذهنه صورة السير توم وابن الاسقف في تلك اللحظة... نهاية فجوره الكبير. متاهات حياته الغريبة المظلمة؛ لغز اللقاء.

ابتسم. فقد استحضرت تلك الطفلة رقة عاطفية اكثر من بعث احساس بالمفارقة الذي كان بدوره موازيا لنوع من الايمان في نفسه. وفي وقت مبكر من ذلك المساء، وعندما كان في مركبة السير توم، راوده احساس زائف بالحياة في الحاضر. وكان رفضه انذاك ماضيه ومستقبله ليس سوى اندفاع متهور الى النسيان اللامسؤول. والان يراوده احساس اكثر عمقا واصالة عن الوهم الانساني الكبير الخاص بالزمن ومفاده ان واقعيته تشبه واقعية الطريق - الذي يستطيع المرء دوما ان يعرف اين هو واين سيكون - بدلا من الصدق: ان الوقت عبارة عن غرفة، قرية جدا منا الان حتى اننا نفشل في رؤيتها بانتظام.

كان تشارلز على النقيض تماما من التجربة السارترية. فالاثاث البسيط المحيط به والضوء الدافئ المنبعث من الحجرة المجاورة والظلال القاهرة، وفوق كل شيء ذلك الكائن الصغير الذي يمسك به فوق ركبته، المتناهي في الضعف بعد امه (الا انه لم يفكر قط فيها)، لم تكن اجساما عدوانية تنتهكه، بل ودودة وشرعية. اما الجحيم النهائي فهو الفراغ اللامتناهي، وقد حاولت هذه الاشياء ان تبقي ذلك على مسافة منها. وشعر فجأة انه قادر على مواجهة مستقبله، الذي لم يكن سوى شكل من اشكال ذلك الفراغ الرهيب. وبغض النظر عما حدث له، فإن مثل هذه اللحظات تتكرر؛ لا بد من العثور عليها، ومن الممكن العثور عليها.

فُتِحَ احد الابواب. وقفت المومس تحت الضياء. لم يتبين تشارلز وجهها، الا انه خمن انها ذعرت قليلا، ثم هدأت.

اوه يا سيدي. هل بكت؟

- نعم. قليلا. اظنها عادت الى النوم الان.

- اضطررت الى الذهاب اسفل شارع وارين حيث تقف العربات.

- انت في منتهى الرقة.

سَلَمَها طفلتها، وراقبها وهي تضعها ثانية في فراشها، ثم استدارت فجأة، وغادرت. تحسس جيبه وعدّ خمسة جنيهاات ذهبية ووضعها فوق المنضدة. استيقظت الطفلة من جديد. فعادت الام الى تهدئتها مرة اخرى. تردد، ثم غادر بصمت.

كان قد جلس في العربة التي كانت تنتظره عندما هرعت الفتاة وهي تمسك
السلالم وتتجه صوب الباب. ورمقته بنظرة مشدوّهة، نظرة مرتبكة، جريئة الى حدّ
ما.

- اوه يا سيدي... شكرا لك. شكرا لك.
ادرك ان الدموع تفرقت في مقلتيها. لا شيء يصدم الفقراء مثل النقود غير
المكسوبة بالجهد.

- انت فتاة شجاعة، رقيقة.
مدّ يده ولمس يدها التي كانت تمسك بحافة الباب المغطى بالمشمع. ثم نقر
بعصاه.

التاريخ ليس مثل فرد، يستخدم البشر لتحقيق اغراضه. التاريخ ليس
سوى افعال البشر الساعين وراء غاياتهم.

ماركس: العائلة المقدسة 1845

لم يعد تشارلز، كما عرفنا، الى كنزنتون رائق المزاج بعد ان غادر اخيرا
منزل المومس. شعر بالغثيان مرة ثانية في الرحلة التي امتدت ساعة وكان لديه من
الوقت لاثارة الكثير من مشاعر النفور الذاتي ايضا. غير انه استيقظ بذهن اكثر
صفاء. وكما هو شأن الرجال، فقد اعطى الاثار الناجمة عن اسرافه في الشراب حق
قدرها، وحملق مذعورا في وجهه المنهك، وأمعن النظر الى فمه الظامئ اللاذع، ثم
قرر انه قادر عموما على مواجهة العالم.

من المؤكد انه واجه سام لما دخل حاملا الماء الساخن، واعتذر لمزاجه السيئ
في الليلة الفائتة.

- لم الحظ اي شيء يا سيد تشارلز.

- كانت امسيتي مرهقة بعض الشيء يا سام. والان، كن طيبا، واحضر لي
ابريقا كبيرا من الشاي، فانا في منتهى الظمأ.

انصرف سام مخفيا رأيه الخاص بأن سيده ظامئ الى شيء اخر ايضا. اغتسل
تشارلز، وحلق ذقنه، وفكر في نفسه. من الواضح انه ليس مهينا لأن يكون خليعا.
كما انه لا يملك خبرة كافية في التشاؤم الباعث على الندم. ألم يقل السيد فريمان
نفسه ان سنتين قد تنقضيان قبل ان يتخذ اي قرار بشأن احتياجاته في المستقبل؟
الكثير من الوقائع قد تحدث في سنتين. في الحقيقة، لم يقل تشارلز لنفسه: «ربما
يتوفى عمي»، الا ان الفكرة حامت في حدود عقله. ثم ذكره المظهر الشهواني في
تجربة الليلة الماضية ان اللذات المشروعة في ذلك الاتجاه سرعان ما ستصبح ملكه
ويستمتع بها. اما في الوقت الراهن فعليه ان يمتنع. وتلك الطفلة - الى اي مدى
ينبغي على الاطفال ان يعوضوا عن عيوب الحياة!

رجع سام حاملا الشاي - ورسالتين. أصبحت الحياة طريقا ثانية. وسرعان ما شاهد ان المغلف العلوي خُتم مرتين بالختم البريدي، ارسل من اكستر الى كنزنگتون بعد ان كان قد صدر من وايت لاين في بلدة لايم ويجيس. اما المغلف الثاني فهو مرسل من لايم مباشرة. تردد، ثم تناول مدية فتح الرسائل، كأنما ليخفف شكوكه، واتجه صوب النافذة. فتح الرسالة المرسله من غروغان اولا، الا اننا قبل ان نبدأ في قراءتها، يتعين علينا ان نقرأ الملاحظة التي ارسلها تشارلز في طريق عودته الى لايم في ذلك الصباح الذي سار فيه فجرا الى مخزن غلال كارسليك. وكانت محتوياتها كالآتي:

«عزيزي الدكتور غروغان،

اكتب اليك على جناح السرعة لاشكرك على النصيحة القيّمة والمساعدة في الليلة الماضية، ولاؤكد ثانية اني سأكون في منتهى السعادة لأن ادفع نفقات الرعاية والاهتمام التي تراها انت وزملاؤك ضرورية. ارجو منك وفي ضوء ادراكي التام بأنني قد شهدت حماقة مصلحتي المضللة، ان تخبرني بما استجد فيما يخص اللقاء الذي من شأنه ان يكون قد تم لدى قراءتك هذه الرسالة.

مما يؤسف له انني لم استطع التطرق الى الموضوع في شارع برود هذه الصباح فقد كان رحيلي المفاجئ تقريبا وظروف شتى لا اريد ان ازعجك بها الان قد جعلت من اللحظة غير مؤاتية كما يبدو. وستتم معالجة القضية حال عودتي. ولا بد لي من ان اطلب منك ان تبقي الامر سرا في هذه الاثناء.

اني راحل على الفور. وعنواني في لندن مثبت ادناه. مع عميق شكري.

(ت. س.)

لم تكن رسالة نزيهة. الا ان كتابتها كانت ضرورية. والان فضّ تشارلز متوترا جواب الرسالة لقراءته.

«عزيزي سميثسون،

تأخرت في الكتابة اليك على أمل الحصول على بعض التنوير بخصوص لغز دورسيت الصغير. ويؤسفني القول ان الانثى الوحيدة التي قابلتها في صباح حملي كانت الام الطبيعية - وهي سيدة وجدت ان حديثها بعد ثلاث ساعات من الانتظار مملا تافها. باختصار، لم يظهر الشخص للعيان. ولدى عودتي الى بلدة

لايم. ارسلت فتى حاد الذهن ليقوم بالمهمة بدلا عني. غير انه هو الاخر جلس في عزلة هيجة. انني اكتب هذه الكلمات بلا مبالاة، غير انني اعترف انني بدأت اخشى ما هو اسوأ لما عاد الفتى وقت هبوط الليل.

على اي حال، طرق سمعي في صباح اليوم التالي ان تعليمات تركت في وايت لاين تقضي بنقل صندوق حاجيات الفتاة الى اكستر. ليس في وسعي معرفة صاحب تلك التعليمات. مما لا ريب فيه انها هي التي ارسلت تلك الرسالة. اعتقد ان علينا ان نقر بانها رحلت.

ان نحسوفي الوحيد يا عزيزي سميثسون يتمثل في لحاقها بك الى لندن ومحاولة صب ويلاتها عليك. واتوسل اليك الا تهمل هذه الحادثة الطارئة بابتسامة. لو كان لدي الوقت الكافي لذكرت لك حالات اخرى تحت هذا المنحى. ارفق طيا عنوانا لرجل ممتاز ارسله منذ مدة طويلة وانصحك كل النصح ان تضع الامور بين يديه اذا ما طرا اي طارئ يدق بابك.

كن مطمئنا الى ان اي كلمة لن تخرج من بين شفتي ولن اكرر نصيحتي فيما يخص المخلوق البارع - الذي سعدت بمصادفته في الشارع تواء، فالشيء بالشيء يذكر؛ الا انني اوصي بضرورة الاعتراف في اقرب فرصة ولا اظن الغفور سيتطلب عقابا طويلا او قاسيا اكثر مما ينبغي»

المخلص: مايكل غروغان

تنفس تشارلز الصعداء وهو يشعر بالذنب قبل ان يفرغ من قراءة الرسالة بوقت طويل. لم يُكشف امره اذا. القى نظرة طويلة خارج نافذة حجرة النوم، ثم فضّ الرسالة الثانية.

توقع ان يجد صفحات، الا انه لم يجد سوى صفحة واحدة.

توقع سيلا من الكلمات، الا انه لم يجد سوى ثلاث.

عنوان.

جعّد الورقة في يده، ثم عاد الى الموقد الذي اشعلته خادمة الطابق العلوي في حين كان يشخر في الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم ورمى بها في اللهب. وفي غضون خمس ثوانٍ تحولت الى رماد. تناول كوب الشاي الذي كان سام ينتظر واقفا ليناوله اياه. فشربه تشارلز جرعة واحدة، وناوله الكوب والصحن طالبا كوبا اخر.

لقد انجزت واجبي يا سام. وسنعود الى بلدة لايم غدا، بقطار الساعة العاشرة. عليك ان تدبر امر التذاكر، واذهب بهاتين الرسالتين الموجودتين فوق مكتبي الى دائرة البرق. وعندئذ تستطيع ان تتمتع باجازة طويلة فترة ما بعد الظهيرة كي تتمكن من اختيار الاشرطة لماري الجميلة - هذا اذا لم تبع قلبك في مكان اخر منذ عودتنا.

كان سام ينتظر تلك الاشارة لبدء الحديث. القى نظرة خاطفة الى ظهر سيده في حين انهمك في ملء كوب الفطور الذهبي، وقال وهو يمد الكوب من فوق صينية فضية صغيرة الى اصابع تشارلز الممتدة اليه.

- سأقدم لخطوبتها يا سيد تشارلز.

- احقا؟

- نعم يا سيد تشارلز. لو لم تكن لدي مثل هذه الفرصة الرائعة للعمل في خدمتك.

رشف تشارلز شايه.

- تفوه بما عندك يا سام. توقف عن الحديث بالالغاز.

- لو تزوجت فاني سأعيش في مكان اخر يا سيدي.

اظهرت نظرة تشارلز الحادة المعبرة عن اعتراض غريزي الى اي حد لم يعط المسألة اي اهتمام. استدار، وجلس قرب الموقد.

- والان يا سام، لا سمح الله ان اكون عقبة في سبيل زواجك؛ الا انك لن تتخلي عني قبل ان اتزوج.

- لقد اخطأت في ادراك غاييتي يا سيد تشارلز. انني افكر في الفترة التي ستعقب الزواج.

- ستكون في مؤسسة اكبر بكثير واني لعلني ثقة بأن زوجتي ستكون سعيدة اذ تكون ماري معها هناك... ما هي المشكلة اذا؟

- اخذ سام نفسا عميقا.

- انني افكر في العمل في التجارة يا سيد تشارلز، اي عندما يستقر بك المقام يا سيد تشارلز. ارجو ان تعرف انني لن اتخلي عنك في ساعة الضيق.

- تجارة! اي تجارة؟

- لقد تملكنتي الرغبة في الحصول على متجر صغير يا سيد تشارلز.
- وضع تشارلز الكوب فوق الصينية بسرعة.
- لكن الا... اقصد، انت تعلم، بعض النقود؟
- لقد وفرت بعض المال يا سيد تشارلز وكذلك ماري.
- نعم، نعم. لكن هناك ايجار يستوجب الدفع، وفوق هذا كله، بضائع تستوجب الشراء ايها الرجل... اي نمط من التجارة؟
- تجارة الملابس والسلع الرجالية يا سيد تشارلز.
- حملق تشارلز في سام، كان اللندني وطد العزم على ان يتحول الى بوذي. غير انه تذكر واقعة او واقعتين صغيرتين حدثتا في الماضي، ذلك الميل الى تقليد الطبقة الراقية في تصرفاتها؛ واحد مظاهر مهنته الحالية التي لم يتدمر منها سام عنايته بشيابه. في الحقيقة، ان تشارلز سخر منه اكثر من مرة (حوالي عشرة الاف مرة اذا توخينا الدقة) بسبب زهوه الشخصي في هذا المنحى.
- ولديك ما يكفي....
- لا، والاسفاه يا سيد تشارلز. علينا ان نقتصد تماما.
- خيم صمت له مغزى خاصا. كان سام منهمكا في اعداد الحليب والسكر.
- اما تشارلز فقد فرك جانب انفه على نحو يشبه ما يفعله سام. فطن للامر ثم تناول الكوب الثالث من الشاي.
- كم؟
- اعرف متجرا على النحو الذي اريد يا سيد تشارلز. وصاحبه يريد مائة وخمسين جنيه إنكليزي لاسم المحل التجاري ومئة للبضاعة. ولا بد من ايجاد ثلاثين لدفعها ايجارا.
- قدر صفات تشارلز وخصائصه واردف يقول.
- القضية ليست هي انني غير سعيد معك يا سيد تشارلز، بل ان المتجر هو الشيء الوحيد الذي رغبت فيه دوما.
- وكم ادخرت؟
- تردد سام
- ثلاثون جنيه إنكليزي يا سيدي.

لم يتسم تشارلز بل ذهب ووقف قرب نافذة حجرة نومه.

- كم من الوقت استغرقت في توفير المبلغ؟

- ثلاث سنوات يا سيدي.

قد لا تبدو عشرة جنيهات إنكليزية في السنة مبلغا كبيرا. الا انها كانت ثلث اجور ثلاثة اعوام كما حسب تشارلز بعجالة، وظهر نسبيا انه يفوقه في الاقتصاد في النفقات. اختلس نظرة الى سام الذي وقف ينتظر بخنوع - لكن ما هو الشيء الذي كان ينتظره؟ - قرب المنضدة الجانبية التي وضعت فوقها ادوات الشاي. وفي الصمت الذي اعقب ذلك، ارتكب تشارلز غلطته المميتة الاولى المتمثلة في اعطاء سام رأيه المخلص بالمشروع. ربما كان على نحو ما خدعة، او احد المظاهر التي لا يرقى اليها الشك لقاء الخدمات التي قدمها سام. الا ان ذلك بعيد كل البعد عن التسليم بالمسؤولية العريقة - التي لا تترادف والمكابرة السامية - للسيد الذي لا يخطئ على تابعه الذي يخطئ.

- انني احذرك يا سام. اذا ما فكرت في أمور تفوق مكانتك فانك لن تجد سوى الحزن. ستكون بائسا بلا متجر. وبائسا اكثر اذا كان لك متجر. غاص رأس سام قليلا الى اسفل.

- علاوة على ذلك، فاني الفت وجودك يا سام،.. مولع بك يا سام. ولتحلّ عليّ اللعنة لو اردت خسارتك؟

- اعرف ذلك يا سيد تشارلز. وانا اقدّر مشاعرك كل التقدير يا سيدي.

- حسنا اذا. كل واحد منا سعيد بوجود الاخر اذا. فلنستمر على هذا النحو.

احنى سام رأسه، والتفت لياخذ ادوات الشاي. كانت خييته واضحة. كان الامل المهمل. الحياة وقد اختصرت، فضيلة لم تُكافأ، وعشرات من التماثيل المكتوبة.

- والان يا سام لو انك تزوجت هذه الفتاة فعندئذ ستحصل على أجر رجل متزوج، اضافة الى مبلغ اخر تبدأ به حياتك. كن مطمئنا الى انني سأجزل لك العطاء.

- هذا لطف منك يا سيد تشارلز.

الا ان الصوت كان مرثيا، فتلك التماثيل لم تهدم. وشاهد تشارلز نفسه فترة وجيزة من خلال عيني سام. لقد شوهد وهو ينفق الاموال الكثيرة في الاعوام التي قضياها معا. لا بد ان سام يعرف ان امولا اخرى كثيرة سيحصل عليها عند الزواج. لهذا فانه ليس عجبا - اي بدافع بريء - ان يعتقد بأن مائتي او ثلاثمائة جنيه إنكليزي ليست بالمبلغ الكبير عندما يطلب.

- لا بد انك تظن انني لست كريما يا سام. في الحقيقة، حسنا ان السبب وراء ذهابي الى وينزيات هو... حسنا، سيتزوج السير روبرت.

- لا يا سيدي. السير روبرت! ابدا.

تجعل دهشة سام المرء يرتاب في ان طموحه الحقيقي كان ينبغي ان يتجه الى المسرح. فقد فعل كل شيء سوى القاء الصينية التي كان يحملها. غير ان هذا سابق لطريقة ستانسلافسكي⁽¹⁰⁸⁾. واجه تشارلز النافذة وواصل حديثه.

- وهذا يعني يا سام انني في حين تزداد نفقاتي لا اجد الكثير لاوفره.

- ليست لدي فكرة يا سيد تشارلز. لماذا... قلما استطيع ان اصدق - في

هذا العصر.

اوقف تشارلز بعجالة الرثاء المتوقع.

- علينا ان نتمنى للسير روبرت كل سعادة. فقد انتهى كل شيء. وعما

قريب سيعرف الجميع النبأ. على اي حال، لن تقول شيئا عن هذا الامر يا سام.

- اوه يا سيد تشارلز... انت تعرف كيف احافظ على السر.

نظر تشارلز نظرة ثابتة الى سام، غير ان عيني خادمه كانتا تنظران الى اسفل

بتواضع. وتمنى تشارلز مخلصا لو ان في استطاعته ان يراها. الا انهما ظلتا بعيدتين

عن تلك النظرة المجددة ودفعته الى ارتكاب غلطته المميتة الثانية - اذ لم يكن يأس

سام نابعا من رفض سيده فكرته بقدر ما كان نابعا من الارتياح في ان سيده ليس

لديه سر يشوبه الاثم يمكن ان يجد مكانه من فوقه.

- انني يا سام... اقصد، عندما اتزوج، ستكون الظروف اسهل... وانا لا

اريد ان ابدد امالك تماما؛ دعني افكر في الموضوع.

(108) ستانسلافسكي: (1865 - 1938): احد اهم منظري مسرح القرن العشرين يؤكد اهمية

الاسلوب وملائمة الاسلوب للدور. (المترجم)

وانبعث في قلب سام وهج صغير الى الحياة. لقد افلح. والمكانة باتت موجودة.

- اتمنى يا سيد تشارلز لو انني لم اتكلم في الموضوع. ليست لي اي فكرة.
- لا، لا. انني سعيد لانك اثرت هذا الموضوع. وربما ساطلب نصيحة السيد فريمان اذا ما توفرت لي الفرصة. مما لا ريب فيه انه يعرف ما يمكن قوله فيما يخص هذا المشروع.

- ذهب خالص يا سيد تشارلز، ذهب خالص - هكذا اصف اي نصيحة تصدر عن فم ذلك السيد النبيل.

انصرف سام اثر هذه المبالغة. حدّق تشارلز الى الباب المغلق، وشرع يفكر في ما اذا كان شيء ما سينفجر على سطح شخصية سام، ازدواجية معينة. لقد قلّد دومما السيد النبيل في ثيابه وتصرفاته والان ثمة شيء اخر غامض فيما يخص السيد النبيل المزيف الذي يقلده. هكذا كان العصر، عصر تحولات، وهكذا اخذ الكثير من الانظمة يذوب ويتحلل.

ظل فترة وجيزة وهو مطرق؛ ولكن رباه. ما صلة التعبير عن الامنيات لسام بأموال ايرنستينا في المصرف؟ التفت الى مكتبه، وجذب احد الادراج، واخرج دفتر جيب، ودوّن فيه ملاحظة: مما لا شك فيه انها تذكّرة للتحدث الى السيد فريمان.

في هذه الاثناء، كان سام يقرأ في الطابق السفلي محتويات البرقيتين. كانت احدهما موجهة الى وايت لاين تُعلم صاحب الفندق بعودتهما. اما الثانية فتقول:

«الانسة فريمان، منزل السيدة ترانتر، شارع

برود، لايم ريجيس. امرت بالعودة وسيلبي ذلك في

منتهى السرور المخلص لك تشارلز سميثسون».

في تلك الايام، لم يلجأ الى لغة البرقيات المقتضبة سوى اليانكي الاخرق.
لم تكن تلك الرسالة الشخصية الاولى التي وقعت تحت عيني سام في ذلك الصباح. فقد كان ظرف الرسالة الثانية التي احضرها الى تشارلز ملصقة بالصمغ الا انها مختومة. والقليل من البخار يصنع الاعاجيب، وكان الصباح كله تحت تصرف سام حيث وجد نفسه وحده دقيقة واحدة في ذلك المطبخ.

لعلك بدأت توافق تشارلز رأيه في سام. فهو لا يكشف عن نفسه على انه اشرف انسان. هذا ما يجب قوله، غير ان فكرة الزواج تفعل اشياء غريبة. فهو يجعل الشريكين المرتقبين يرتابان في وجود عدم المساواة بين الاشياء. ويجعلهما يتمنيان ان يملكا ما هو اكثر ليقدماه لكل واحد منهما. وهو يقتل لامبالاة الشباب. كما ان مسؤولياته تحدث العزلة وتضعف مظاهر العقد الاجتماعي الاكثر غريبة. باختصار، يسهل ان تكون كاذبا امام الاثنين بدلا من امام واحد منهما. لم يفكر سام في هذا الاجراء على انه اجراء كاذب، غير شريف، بل اسماه «لعب الاوراق لعبا صحيحا». بكلمات بسيطة كان يعني ذلك الان ان الزواج بايرنستينا لا بد من ان يمضي قدما. ولا يستطيع الا من مهرها ان يأمل بالحصول على المائتين وخمسين جنيهها إنكليزيا. واذا ما حدث غزل اخر بين السيد والمرأة الشريرة في لائم، فيجب ان يحدث ذلك تحت سمع لاعب الورق وبصره - وربما ليس ذلك بالامر السيئ كله، طالما انه كلما زادت خطايا تشارلز، اصبح هو على تماس اكبر. لكن لو تطورت الامور اكثر مما ينبغي... وهنا مصّ سام شفته السفلى، وقطب حاجبيه. مما لا يثير العجب انه بدا يشعر انه اعلى مرتبة من مكانته، وهذا شأن صانعي الزيجات.

لكنني حسبت انني رأيتها واقفة،
ظلا هناك قرب قدمي،
عالية فوق الارض المغمورة بالظلال

تينيسون: مود 1855

ربما يستطيع المرء ان يعثر على الوان لاسطورة السلوك الانساني العقلاني في عصر حديدي كالعصر الفكتوري اكثر من اي عصر اخر. من المؤكد ان تشارلز قرر بعد ليلة تمرده تلك ان يذهب قدما في موضوع زواجه بايرنستينا. ولم يخطر بباله على نحو جاد انه لن يفعل ذلك. فالام تيربسيشور والموس لم تكونا سوى توكيدات لذلك العزم - على الرغم مما يبدو من عدم الارجحية في ذلك - اخر الشكوك من حول امر وصل نهايته، اخر الاستفسارات عما لا يمكن الاستفسار عنه. وقد فكر كثيرا على هذا النحو وهو في طريق عودته المضطرب الى البيت، مما يفسر المعاملة القاسية التي لقيها سام. اما فيما يخص سارة... سارة الاخرى كانت بديلة عنها، نهايتها الحزينة القدرة، وكانت يقظته.

على الرغم من ذلك، كان في مستطاعه ان يتمنى لو ان رسالتها اظهرت خطيئة اكثر وضوحا - لو انها طلبت مالا (الا انها نادرا ما تصرف عشرة جنيهات إنكليزيات في مثل هذا الزمن القصير)، لو انها افصحت بمشاعرها المحرمة نحوه. الا انه يصعب تمييز العاطفة عن اليأس في الكلمات الثلاث 'فندق اسرة انديكوت'؛ لا يوجد حتى تاريخ، ولا حتى الحروف الاولى من الاسم! من المؤكد انه فعل من افعال التمرد، اهمال من لدن الخالة ترانتر. لكن يصعب اتهامها بالطرق على بابه.

يسهل عليه ان يقرر وجوب اهمال الدعوة الضمنية: يجب الا يراها ثانية. لكن ربما ذكرت سارة الموس تشارلز بروعة سارة المنبوذة: فغياب الشعور المرهف غيابا تاما في احدهما لم يؤكد الا وجود هذا الشعور على نحو مدهش في الثانية. كم كانت ذكية وحساسة، بطريقتها الخاصة الغريبة... كانت بعض الاشياء التي ذكرتها اثر اعترافها تستحوذ على عقل المرء.

فكّر طويلاً - هذا ان كانت الذكرى فكرة - في سارة وهي تشق طريقها الطويل صوب الغرب. ولم يتمكن الا من الاحساس بأن ايداعها في مصحة الامراض العقلية من شأنه ان يكون خيانة مهما كانت تلك المصحة متنورة. انني استعمل ضمير الغائبة هنا الا انه واحد من افطع الاقنعة التي ابتكرها الانسان: فالذي استحضره تشارلز لم يكن ضميراً، بل عينين، نظرات، شعرة متدلّية فوق الصدغ، خطوة رشيقة، وجه نائم. لم يكن هذا كله من احلام اليقظة، بل تفكير جاد في مشكلة اخلاقية سببها توق خالص على نحو مهيب لصالح مستقبل المرأة التعيس.

وصل القطار بلدة اكستر، وظهر سام قرب نافذة المقصورة في اثناء الوقفة الاخيرة من صفير التوقف النهائي. كانت رحلته بالدرجة الثالثة.

- هل سنمكث الليلة هنا يا سيد تشارلز؟

- لا. عربة. عربة بأربع عجلات. يبدو ان الأمطار ستَهْطَل قريباً.

راهن سام بينه وبين نفسه على الف جنيه إنكليزي بائناً سيمكثان في بلدة اكستر، الا انه اطاع سيده دون تردد، شأنه في ذلك شأن سيده عندما قرر لدى رؤيته وجه سام - في حين ظل في اعماقه قرار ينبغي اتخاذه - بلا تردد ما سيفعله. في الحقيقة ان سام هو الذي قرر ذلك: لم يعد في وسع تشارلز مواجهة اي تملص من الاجابة عن الاسئلة.

ولما اخذا يتقدمان في ارجاء ضواحي المدينة الشرقية انتاب تشارلز احساس بالحزن والضياغ، فقد سبق السيف العذل. ولاح له ان مما يثير الدهشة ان يُحدد قرار بسيط واحد، اجابة واحدة عن سؤال تافه، كل هذه الاشياء. وحتى تلك اللحظة، كان كل شيء احتمالاً، اما الان فقد اصبح ثابتاً على نحو لا يرحم. لقد فعل الشيء الصحيح، المقبول، الاخلاقي. غير ان ذلك بدا كأنه يظلل في اعماقه بعض الضعف الموروث، بعض الرغبة في قبول قدره الذي يعلم - باحدى تلك الهواجس المؤكدة مثل الحقائق - انه سيقوده الى عالم التجارة، الى ارضاء ايرنستينا لأنها كانت ترغب في ارضاء والدها الذي يدين له بالشيء الكثير... حملق في الريف الذي توغلا فيه الان، وشعر انه يغور فيه تدريجياً كأنه داخل انبوب فظيع.

تسرحت العربة، ثمة نابض مرتجٍ يبعث صريرا عند كل رجّة، على نحو حزين كأنها عربة نقل السجّاء المحكومين الى المقصلة. كانت سماء المساء ملبدة بالغيوم، وانحذت تمطر مطرا خفيفا. في مثل هذه الظروف، وعند سفره وحده، كان تشارلز يطلب من سام المجيء للجلوس الى جواره. الا انه لم يستطع مواجهة سام - على الرغم من ان سام هذا الذي لم يشاهد سوى الذهب مفروشا فوق الطريق المبلل المؤدي الى بلدة لايم، ما كان ليعترض على نبذه من ظهر انيهم - ظهر كان ما من شأنه ان يحظى بالعزلة ثانية. لا بد له من ان يستمتع بالشيء القليل الذي بقي له. فكّر ثانية في المرأة التي تركها في المدينة من ورائهما. من المؤكد انه لم يفكر فيها على انها بديلة عن ايرنستينا، ولا بوصفها امرأة يستطيع ان يتزوجها، لو شاء ذلك بدلا عنها، ذلك غير ممكن. في الحقيقة، قلما فكر في سارة الان - فهي ليست سوى الرمز الذي تكاثرت من حوله كل احتمالاته الضائعة، حرياته المنقرضة، رحلاته التي لن يقوم بها. لا بد له من ان يودع شيئا ما، لقد كانت قرية وبعيدة في ان واحد.

ليس هناك شك. كان واحدا من ضحايا الحياة، صدفة متحجرة اخرى امسك بها في حركات التاريخ الهائلة، بانت شاردة الان والى الابد، طاقة كامنة تحولت الى احدى المتحجرات.

بعد برهة وجيزة استسلم لنقطة الضعف الاخيرة: استسلم للنوم.

الواجب - يعني الالتزام
 بكل ما يمكن توقعه هنا...
 بشكل مطابق تماما للآخرين
 ودون تفكير بما يعنيه حقا..
 انه القمع العنيد العاجل،
 مثل خطينة مهلكة واضحة،
 كل بحث وتكهن
 لروح الروح في الاعماق:
 انه الاذعان الجبان
 لامر من القدر...

اي. إتش. كلف: واجب 1841

وصلا وايت لاين قبل الساعة العاشرة تماما من تلك الليلة. كانت الاضواء لا تزال متوهجة في بيت الخالة ترانتر، وتحركت احدى الستائر في اثناء مرورهما. اسرع تشارلز الى تحميل نفسه تاركا سام يخرج الامتعة من الحقائب، وارتقى الهضبة على نحو رجولي. سعدت ماري كل السعادة ببقياها، اما الخالة ترانتر التي كانت وراءها، فقد تورّد وجهها وهي تبتسم له محببة. كانت لديها اوامر صارمة تقتضي الانصراف حالما تفرغ من الترحيب بالمسافر: لن يكون هناك هراء امرأة مسنة في ذلك المساء. اما ايرنستينا فقد ظلت في حجرة الجلوس الخلفية بسبب من احساسها المألوف بكرامتها.

لم تنهض لدى دخول تشارلز، بل نظرت اليه نظرة طويلة مؤنبة من تحت رموشها، فابتسم.

- نسيت ان اشترى الورد في اكستر.

- هذا ما لاحظته يا سيدي.

- كنت في عجلة اريد الوصول الى هنا قبل ان تأوين الى الفراش.

خَفَضَتْ بصرها، وراقبت يديها المنهمكتين في اشغال الابرّة. اقترب تشارلز اكثر، فتوقفت اليدان على نحو مفاجئ عن العمل، واصبحتا فوق القطعة الصغيرة التي كانتا تشتغلان بها.

- ارى ان لدي منافسا.

- تستحق ان يكون لديك الكثير.

جثا الى جوارها ورفع احدى يديها برفق وقبّلها. فنظرت نظرة قصيرة اليه.

- لم اتم دقيقة واحدة منذ رحيلك.

- استطيع رؤية ذلك من وجنتيك الشاحبتين وعينيك المتورمتين.

لم تبتسم.

- اراك الان تسخرُ مني.

- اذا كان هذا ما يفعله الارق بك فسأرتب نصب جرس منبه كي يدق دوما

في حجرة نومنا.

احمرت خجلا. نهض تشارلز وجلس الى جوارها، وجذب رأسها وقبّل فمها

وعينيها المغمضتين اللتين فتحتهما بعد ان لمسهما على هذا النحو، وحملت فيه بعد ان تلاشت منهما كل ذرة دمع.

ابتسم.

- والان دعيني اشاهد ما توشين لمعجبك السري.

رفعت القطعة الى اعلى وهي عبارة عن جيب ساعة من المخمل الازرق -

محفظة صغيرة يعلقها السادة الفكتوريون قرب منضدة زينتهم ويضعون فيها

ساعاتهم في الليل. ونقش على الغطاء المتدلي قلب ابيض وعلى كل جانب منه

الحرفان الاوليان من اسميهما. ونقشت على واجهة الجيب مطلع ثنائي من ابيات

شعرية بخيط ذهبي. فقرأ تشارلز بصوت عال:

- «في كل مرة تملأ الساعة...» وما هي نهاية المطلع؟

- لا بد ان تخمن.

-«فان زوجتك ستصرُّ بأسنانها».

وهنا ابعده عن نظره.

- لن اخبرك الان. لست افضل من المحصل في حافلة نقل الركاب.

كان المحصل في تلك الايام مشهورا بذلاقة اللسان.

- الذي لن يطلب الاجرة من واحدة يمثل هذا الجمال.

- النفاق كاذب والتوريات الضعيفة غير مقبولة.

- وانت رائعة عندما تغضبين يا عزيزتي.

- عندئذ سأغفر لك... لكي اكون فظيعة.

التفتت عنه قليلا على الرغم من ان ذراعه بقيت تطوق خصرها، وعاد ضغط يديه على يديها من جديد. بقيا صامتتين بضع لحظات، ثم قَبَّلَ يدها ثانية.

- افي وسعي التنزه سيرا وأياك صباح الغد؟ وسنظهر للعالم اي عاشقين عصريين انا وانت، وسنبدو ضجرين واننا تزوجنا زواج مصلحة لا ريب؟

ابتسمت ثم كشفت عن جيب الساعة.

- في كل مرة تملأ الساعة، فاني اذكرك بالحب.

- يا حبيبتي.

حملت في عينيها مدة طويلة، ثم تحسس جيبه ووضع فوق حضنها علبة صغيرة ذات جلد احمر داكن.

- زهور من نمط ما.

ضغطت بحياء على ابريم صغير وفتحت العلبة؛ على مخمل قرمزي رقد مشبك صدر سويسري انيق يستخدم للزينة: قطعة فسيفساء بيضوية من مجموعة زهور تحيط بها اللالي وقطع المرجان المذهبة. التفتت ومالت وطبعت قبلة بريئة رقيقة على شفثيه، ثم وضعت رأسها فوق كتفيه، ونظرت ثانية الى المشبك وقبلته.

تذكر تشارلز ابيات تلك الاغنية البريابوسية وهمس في اذنها:

- اتمنى لو ان الغد يوم زواجنا.

المسألة بسيطة: الاول يعيش بالمفارقة والعاطفة والاخر يحترم التقاليد. والشيء الممكن هو موضوع اخر للملاحظة المجردة الساخرة؛ بكلمات ادق؛ احدهما استسلم، والاخر تعلم ان يكون كما هو دوما.

ضغط تشارلز ذراع الفتاة.

- لدي اعتراف صغير يا عزيزي اريد البوح به. وهو يخص تلك الانثى البائسة في منزل مارلبورو.

اعتدلت قليلا، مندهشة تماما، ومسرورة.

- اهي مأساة المسكينة؟

ابتسم.

- اظن ان تكون الكنية الاكثر ابتذالا مناسبة على نحو افضل.

ضغط على يدها.

- انه عمل غبسي وتافه. ان ما حدث هو الاتي. ففي احدى جولاتي للبحث عن القنفذيات المراوغة...

هكذا تنتهي القصة. اما ما حدث لسارة فهو امر لا اعرفه - بغض النظر عن ماهيته، فإنها لم تزعج تشارلز ثانية بذاتها، وبغض النظر عن طول المدة التي يمكن ان تكون قد علقت في ذاكرته. هذا ما يحدث في اغلب الاحوال. الناس يتوارون عن الانظار، فيغرقون في ظلال الاشياء الاكثر قربا.

لم يعيش تشارلز وايرنستينا حياة سعيدة من ذلك الحين فصاعدا، غير انهما عاشا معا، على الرغم من ان تشارلز عاش بعدها عشر سنوات (وحزن لاجلها كل الحزن طيلة ذلك الوقت). وانجبا - كم سيكون العدد - لنقل سبعة اطفال. وزاد السير روبرت الطين بلة عندما انجب هو الآخر ورثين لا ورثا واحدا في اثناء الشهور العشرة من ارتباطه بالسيدة بيلا تومكنز. وهكذا دفع هذان التوأمان تشارلز الى التجارة اخيرا. كان السأم يستبد به في اول الامر، غير انه اعتاد العمل. لم يكن لابنائه اي خيار اخر، ولا يزال الابناء يديرون اليوم المتجر الكبير بكل فروعه.

سام وماري؛ لكن من ذا الذي تهمه سيرة الخدم؟ تزوجا وانجبا وتوفيا على النحو الرتيب الذي يلائمهما.

من الذي بقي الان؟ الطبيب غروغان؟ لقد توفي وهو في سن الحادية والتسعين. ولما عاشت الخالة ترانتر حتى التسعينات من عمرها، فإن لدينا الدليل الواضح على لطف هواء لام النقي.

على الرغم من ذلك، لا يمكن للتأثير ان يكون شاملا، طالما ان السيدة بولتيني توفيت بعد شهرين من عودة تشارلز الاخيرة الى لام. وهنا اجدني مسرورا كي اقول ان في استطاعتي ان استحضر اهتماما كافيا لتأمل المستقبل - اي، حياتها ما

بعد الموت. فقد وصلت مرتدية الملابس السود، على ظهر مركبتها الى البوابات السماوية وهبط خادماها - اذ طبيعي ان يموت معها كل خادماها على غرار مصر القديمة - وفتح باب المركبة بوقار. ثم جذبت الجرس فظهر رئيس الخدم اخيرا.

- سيدتي؟

- انا السيدة بولتيني. جئت لاقيم هنا. فأخبر سيدك بالامر رجاء.

- لقد علم جلالته بموتك يا سيدتي وقد انشدت الملائكة ابتهاجا بالمناسبة.

- حسن.

اخذت السيدة الوجيعة المنتفخة الاوداج طريقها داخل القاعة البيضاء التي شاهدتها من وراء رأس رئيس الخدم. الا ان الرجل لم يتحرك جانبا، بل هزّ عوضا عن ذلك بعض المفاتيح التي صادف وجودها في يده.

- افسح الطريق ايها الرجل. انا هي. السيدة بولتيني من بلدة لايم ريجيس.

- سابقا من لايم ريجيس يا سيدتي. اما الان فمَن مكان مداري.

اغلق الخادم الباب في وجهها. فكان رد فعل السيدة بولتيني الفوري متمثلا في النظر من حواليتها خشية ان يكون خادماها قد تنصتوا على ما دار في هذا المشهد. بيد ان مركبتها التي ظنت انها سمعتها وهي تبتعد صوب احياء الخدم، قد توارت عن الانظار على نحو غامض. في الحقيقة، توارى كل شيء عن الانظار، الطريق والمنظر الطبيعي (الشبيه لسبب ما بطريق غريت درايف المؤدي الى قلعة وندسور)¹⁰⁹ كل شيء، كل شيء اختفى. لم يعد هناك سوى الفضاء - والاشد هولا، فضاء مفترس. واخذت السلام التي ارتقتها السيدة بولتيني واحدة واحدة تختفي هي الاخرى. ولم تبق سوى ثلاث ثم اثنتين، ثم واحدة. ولم تعد السيدة بولتيني تقف على اي شيء. وسمعت وهي تقول بوضوح: «ان السيدة كوتون وراء هذا كله». ثم هوت، مندفعة، ومنفخة، مثل غراب اصيب باطلاقة، حيث كان ينتظرها سيدها الحقيقي.

(109) قلعة وندسور: مقر اقامة الاسرة الملكية الانكليزية منذ عهد وليم الفاتح (1027 - 1087).
(المترجم)

الا ينهض في انسان جديد
وينتهي بذاك الانسان الذي هو انا!

تينيون: مود 1855

الان، وبعد ان اتميت هذه الرواية نهاية تقليدية تماما، اجد الافضل ان اوضح انه على الرغم من حدوث كل ما اتيتُ على وصفه في الفصلين الاخيرين، فإن ذلك لم يحدث على النحو الذي ربما دفعتك الى تصديقه.

ذكرتُ في وقت سابق اننا كلنا شعراء، على الرغم من ان الكثيرين منا لا يكتبون الشعر؛ كذلك فاننا كلنا روائيون، اي، لدينا عادة كتابة مستقبل متخيل لحياتنا، على الرغم من اننا ربما نميل اليوم اكثر الى تجسيد حياتنا في احد الافلام السينمائية. فنستعرض في اذهاننا افتراضات عما يمكن ان يكون عليه سلوكنا، عما يمكن ان يحدث لنا، وغالبا ما يكون لهذه الافتراضات الروائية او السينمائية تأثير في كيفية تصرفنا في الواقع، عندما يصبح المستقبل الحقيقي حاضرا، اكبر مما نسمح به عادة.

لم يكن تشارلز ليشكل اي استثناء؛ والصفحات الاخيرة القليلة التي قرأتها ليست هي ما حدث، بل كانت هي الاشياء التي قضى الساعات بين لندن واكستر يتخيل امكانية حدوثها. من المؤكد انه لم يفكر تماما في الاسلوب السردى المفصل، المتناسك الذي وظفته، كما انني لا اقسم بانه تابع حياة السيدة بولتيني بعد مماتها بمثل هذه الدقة المثيرة للانتباه. غير انه، من المؤكد، تمنى ان تكون من نصيب الشيطان، وبهذا تحقق نفس الشيء تقريبا.

قبل هذا كله، شعر انه وصل إلى نهاية المطاف في القصة، الى نهاية لم ترقه. ولو انك لاحظت في ذينك الفصلين الاخيرين مفاجأة، افتقارا الى المطابقة، خيانة لامكانيات تشارلز الدفينة، ومسألة بسيطة متمثلة في انه مُنح حياة تقارب القرن وربع القرن، ولو انك شعرت بالارتباب، وهو ارتباب ليس غير مألوف في الادب، ان نفس الكاتب قد انتهى وانه انهي السباق نهاية اعتباطية في حين لا يزال يخامر

الاحساس بأنه رابح، فلا تلقى باللائمة عليّ، لأن كل هذه الاحاسيس، او انعكاساتها، كانت حاضرة في ذهن تشارلز. فسفرٌ وجوده، كما بدا له، اوشك ان يصل الى خاتمة رثة كما يتضح.

والاناء، ضمير المتكلم، ذلك الكيان الذي وجدَ مثل هذه الاسباب المعقولة ظاهريا غير انها باطلة لدفع سارة الى ظلال النسيان، لم يكن اناء، بل هو تجسيد لا مبالاة هائلة محددة في الاشياء التي وضعت الخمول الخبيث في جانب ايرنستينا من الميزان؛ لقد تبدى ذلك اتجاهها الى امام لا يُقاوم، ثابتا مثل القطار الذي جر تشارلز معه.

لم يكن مخادعا عندما قلت ان تشارلز قرّر ان يمضي قُدُما في زواجه في اثناء وجوده في لندن في ذلك اليوم الذي اعقب نزقه، كان ذلك هو قراره الرسمي، تماما مثلما كان قراره الرسمي ذات يوم قد يكون رد فعله هو التعبير الادق ان ينخرط في الكهنوت. اما النقطة التي عمدت فيها الى التضليل فتتمثل في تحليل الاثر الذي ظلت تحدثه فيه تلك الرسالة المؤلفة من ثلاث كلمات. فقد عذبت، استبدت به، واثارت اضطرابه. وكلما فكر فيها، عادت سارة الى الظهور امامه ثانية وهي التي يرتاب في انها هي التي ارسلتها. فقد كانت متطابقة وكل تصرفاتها الاخرى، ولا يمكن وصفها الا بالارداف الخلفي (تناقض ظاهري بين عبارتين لإثارة الإعجاب)، الابتعاد المغري، البساطة الذكية، التوسل المتكبر، الاتهام المدافع. لقد كان العصر الفكتوري مولعا بالاسهاب؛ لم يألف التباس المعنى.

الا انه قبل كل شيء تبدى امام تشارلز واضعا امامه خيارا؛ وفي حين كره جزء واحد منه اضطرابه للخيار، فاننا نقرب من سر حالته في تلك الرحلة الى جهة الغرب لما نعلم ان جزءا اخر منه شعر بانفعال لا يحتمل يراوده لدى اقتراب لحظة الخيار. لم يكن ليعرف المصطلحات الوجودية. غير ان الاحساس الذي انتابه كان في الحقيقة قضية في منتهى الوضوح، الا وهي قضية قلق الحرية - اي، الادراك ان المرء حر والادراك ان كون المرء حرا ليست سوى حالة رعب.

اذا لنطرح سام بعيدا عن مستقبله المفترض ونعود الى حاضره في اكستر. فنراه يذهب الى مقصورة سيده لدى توقف القطار.

- هل سنمكث الليلة هنا يا سيدي؟

يتفرس تشارلز فيه برهة وجيزة، ثم قرار لا بد من اتخاذه، ويرفع بصره لينظر الى السماء المليئة بالغيوم من وفق رأسه.

- اظنها ستمطر. سناوي الى فندق السفينة.

وهكذا وقف سام، الاكثر غنى بالالف جنيه إنكليزي التي لم يمتلكها، بضع دقائق وسيدته خارج المحطة، يراقب وضع امتعة تشارلز فوق سطح عربة مهلهلة يجرها حصان واحد. اظهر تشارلز قلقا واضحا، واخيرا ربطت حقيبة السفر الكبيرة ومثل كل شيء بين يديه.

- اظني سأرتاح قليلا يا سام بعد رحلة القطار اللعينة. هل ستهتم بامر الامتعة؟

غار قلب سام.

- بكل احترام يا سيد تشارلز لن افعل ذلك. فالغيوم توشك ان تتفجر.

- لن يؤذيني قليل من المطر.

بلع سام ريقه، وانحنى.

- نعم يا سيد تشارلز. اني وسعي اصدار الامر باعداد الطعام؟

- نعم... اي... سأرى ذلك عندما اصل. ربما احضر صلاة المساء في

الكاتدرائية.

انطلق تشارلز يرتقي التل في اتجاه المدينة. راقبه سام مكتنبا برهة وجيزة، ثم

التفت الى الحوذي.

- ايه؟ اسمعت بفندق اسرة انديكوت؟

- نعم.

- اتعرف اين هو؟

- نعم.

- حسنا. خذني الى فندق السفينة، فرما يطرق سمعك شيء يفيدك ايها

الرجل.

ركب سام العربة باعتداد مناسب بالنفس وسرعان ما تجاوزت هذه تشارلز

الذي كان يسير سيرا وثيدا كأنه يتمشى لاستنشاق الهواء الطلق. غير انه حث

خطاه حالما توارت العربة عن الانظار.

كان سام يملك الكثير من الخبرة في التعامل مع الحانات الريفية الهادئة. انزلت الامتعة، واختيرت افضل الغرف، واشعل الموقد، ووضعت ملابس النوم في مكانها اسوة ببقية الحاجيات؛ كل ذلك في سبع دقائق. ثم خرج بخطو خطوات واسعة صوب الشارع حيث كان الحوذي في الانتظار. وحدثت رحلة اخرى قصيرة. نظر سام وهو في داخل العربة نظرة حذرة من حوله ثم ترجل ونقد الحوذي اجرته.

- اول منعطف الى اليسار يا سيدي.

- شكرا لك يا رجل. هذه اكراميتك.

ومنح الحوذي اكرامية تافهة حتى في مفهوم اكستر لضالتها ثم نكس قبعته من فوق عينيه وغاب في الظلمة. وفي منتصف الشارع الذي سار فيه وفي مواجهة الشارع الذي اشار اليه الحوذي، شاهد الكنيسة الميثودية منتصبة بأعمدتها المهيبة. وتسلسل المخبر السري وراء احد هذه الاعمدة. كان الوقت بداية الليل الذي هبط مبكرا من تحت السماء السوداء الرمادية.

لم يضطر سام الى الانتظار طويلا. فقد وثب فؤاده لرأى شخص طويل القامة يبدو للعيان. خاطب الشخص صبيا صغيرا وهو حائر على ما يظهر. وسرعان ما قاد الصبي الشخص الى الركن القريب من سام، وأشار الى المكان اشارة اكسبته اكثر من بنسين، افصحت عنها ابتسامته العريضة.

توارى ظهر تشارلز عن الانظار، ثم توقف ورفع بصره الى الاعلى؛ سار بضع خطوات الى الوراء صوب سام. ثم استدار كأنه نافذ الصبر، ودخل احد البيوت. تسلسل سام من وراء عموده، وهبط السلام، وعبر الشارع الذي يوجد فيه فندق اسرة انديكوت. انتظر برهة قرب الناصية، غير ان تشارلز لم يظهر ثانية. ازداد سام شجاعة، وسار على امتداد جدار المستودع المواجه لصف من البيوت. ووصل الى نقطة يستطيع منها مشاهدة رواق الفندق. كان الرواق خاليا كما كان عدد من الغرف مضيئا. مرت خمس عشرة دقيقة وعندئذ انهمرت الامطار.

عضَّ سام اظافره برهة وجيزة وقد انتابته الافكار الجامحة. ثم بدا يحث خطاه

مبتعدا.

اه، رغم ذلك، عندما يكون كل شيء قد تم التفكير فيه وقيل،
لا يزال القلب يهيم على الرأس،
ولا يزال ما نأمله واجب التصديق،
وما نُعطى إياه واجب الاخذ،

لا يزال يتحتم علينا التصديق، لاننا لا نزال نأمل
بأن في عالم أكثر اتساعاً،
ما بدئ هنا باخلاص
سيكمل دون تعطيل.

لا بد لنا يا طفلي من التفكير، إذ عندما
نرى معاً تلك الحياة الأوسع،
ستظهر نتائج صحيحة
لما نحن عليه، معاً، هنا.

اي. إتش. كلف قصيدة 1849

تردد تشارلز في الرواق الرث، ثم طرق باب إحدى الغرف وكان مفتوحاً قليلاً ينبعث منه الضوء. طلب إليه الدخول فوجد نفسه في مواجهة صاحبة الفندق. قبل أن يتمكن من تقديرها بلمحة نظر، أسرعته هي بتقديره: لا ريب أنه نزيل يبحث عن غرفة أجرتها خمسة عشر شلناً. لهذا ابتسمت ابتسامة عرفان.

- غرفة يا سيدي؟

- لا. انني... انني أرغب في الحديث إلى إحدى... إلى أنسة تدعى وودراف.

سرعان ما انقلبت ابتسامة السيدة انديكوت إلى عبوس. فأنخلع قلب تشارلز.

- انها ليست...

- اه، السيدة الشابة المسكينة. لقد هبطت إلى الطابق السفلي يوم أول أمس

صباحاً، ثم زلت قدمها يا سيدي. لقد لوت كاحلها على نحو رهيب. وتورم حتى بات كالعظم الكبير. أردت استدعاء الطبيب يا سيدي، إلا أنها رفضت ذلك.

صحيح ان الكاحل الملتوي يعود الى حالته الطبيعية دون علاج. كما ان اجرة
الاطباء باهظة.

نظر تشارلز الى طرف عصاه.

- اذا لا يمكنني ان اراها.

- اوه. يا الله؟ في وسعك ان تصعد الى الطابق العلوي يا سيدي.

وسيرفع ذلك من معنوياتها. اني وسعي القول انك احد اقربائها؟

- انني مضطر الى رؤيتها في مسألة عمل.

ازداد احترام السيدة انديكوت.

- اه... محام؟

تردد تشارلز، ثم قال:

- نعم.

- عليك ان تصعد اذا يا سيدي.

- اظن... هلا اخبرتها ان كان الافضل تأجيل زيارتي حتى تشفى؟

شعر بارتباك تام. وتذكر فارغون. الخطيئة تقع في السر. لقد جاء للاستفسار لا
اكثر، وكان يأمل في لقائها في حجرة في الطابق السفلي - في مكان ما، اليف وعام.
ترددت المرأة العجوز، والقت نظرة سريعة على صندوق مفتوح قرب الجزء العلوي
الاسطواني من المكتب، وقررت على ما يبدو ان المحامين انفسهم ربما كانوا لصوصا؛
وهو احتمال من شأنه الا يكون موضع خلاف عند الذين يضطرون الى الحصول على
اجرتهم. وصاحت دون ان تتحرك من مكانها وبصوت قوي منادية فتاة تدعى بيتي ان.

ظهرت بيتي ان للعيان، وارسلت وهي تحمل بطاقة زيارة. اختفت بعض
السوق تعين في خلالها على تشارلز ان يبعد عددا من المحاولات الاستفزازية لمعرفة
مهمته. واخيرا عادت بيتي ان، وطلبت منه الصعود الى الطابق العلوي. سار من
وراء الخادمة البدينة صوب الطابق العلوي، ودلته على مكان الحادثة. كانت
السلام شديدة الانحدار بلا ريب. وفي تلك الايام، كانت النسوة يتعرضن الى
السقوط دوما حيث لم يكن في استطاعتهن حتى رؤية موضع اقدامهن.

وصلا الى احد الابواب في نهاية ممر كتيب. واعلن عن وصول تشارلز على
نحو جاف في حين شرع قلبه يدق اسرع مما تطلبته السلامة الشديدة الانحدار.

- السيد يا انسة.

خطا داخل الغرفة. كانت سارة تجلس قرب الموقد وفوق كرسي قبالة الباب، واضعة قدميها فوق كرسي بلا مساند وغطتهما وغطت ساقها كذلك ببطانية ويلزية حمراء اللون. كان اللفاح الاخضر يحيط كتفيها، غير انه لم يُخفِ حقيقة انها كانت ترتدي قميص نوم بكمين طويلين. كان شعرها منسابا فوق كتفيها الخضراوين. تبدت له اكثر ضالة؛ خجلة على نحو مدمر. لم تبتسم. بل اطرقت ونظرت الى يديها، بعد ان اقلت نظرة خاطفة عند دخوله اول مرة كأنها تائبة خائفة، واثقة من غضبه، قبل ان تحني رأسها ثانية. وقف وهو يحمل قبعة بيد، وعصاه وقفازه بيده الاخرى.

- كنت مارا ببلدة اكستر.

احنت رأسها على نحو اشد من السابق بمزيج من الفهم والخجل.

- اليس الافضل لي الذهاب واستدعاء طبيب؟

قالت وهي تنظر الى حضنها:

- لا، ارجوك. فمن شأنه ان ينصحني بعمل ما عملته توا.

لم يتمكن من تحويل بصره عنها - بعد ان شاهدها مقصورة الجناحين، مريضة على هذا النحو (على الرغم من ان وجنتيها كانتا شديدي الاحمرار)، يائسة، وبعد ذلك الرداء النيلي الخالد - اللفاح الاخضر، ذلك الشعر الغزير الذي لم يكشف على هذا النحو من قبل. وتسلت الى منخري تشارلز رائحة مرهم باهتة.

- الا تتألمين؟

هزت رأسها نافية.

- ان اقدامي متعودة على ارتكاب مثل هذا العمل... لا ادري كيف تعين

عليّ ان اكون غبية هكذا.

- على اي حال، اشكري الله ان ذلك لم يحدث عند الجرف.

- نعم.

لاحت مرتبة تماما بسبب وجوده، فاختلس نظرة الى ارجاء الغرفة الصغيرة. كانت النار تنبعث من الموقد وكانت هناك بعض سيقان زهور النرجس في قدح

توبسي فوق حافة الموقد. غير ان حقارة الاثاث كانت واضحة على نحو مؤلم وكانت الما مضافا. وكان السقف ملطخا ببقع من دخان منبعث من المصباح الزيتي، شأنه في ذلك شأن الكثير من البقايا الشبيهة للكثير من شاغلي الغرفة في الماضي.

- ربما ينبغي لي...

- لا، ارجوك. تفضل بالجلوس. سامحني. فانا... انا... لم اتوقع...

وضع حاجياته فوق صوان الثياب، وجلس على الكرسي الخشبي الوحيد الاخر قرب المنضدة في الجهة الاخرى من الغرفة. كيف يتعين عليها ان تتوقع الشيء الذي استبعده تماما على الرغم من رسالتها؟ حاول ان يجد عذرا ما.

- لقد ارسلت عنوانك الى السيدة ترانتر؟

هزت رأسها نافية. صمت، حملق تشارلز في السجادة.

- ارسلته الي فقط؟

احنت رأسها ثانية. فأوماً بدوره كأنه فطن لذلك. ثم خيم الصمت من جديد، في حين ضربت زخة مطر غاضبة الواح النافذة من ورائها. قال تشارلز.

- هذا ما اتيت للحديث عنه.

انتظرت، الا انه لم يواصل كلامه. مرة اخرى تُثبت عيناه على عينيها. كان قميص النوم مزررا حتى الرقبة وعند الرسغين. واكتسى لونه الابيض بلون وردي تحت ضوء الموقد اذ لم يكن ضوء المصباح فوق المنضدة القريبة منه ساطعا جدا. وكان شعرها الذي يعززه اللقاح الاخضر مفعما بالحوية في الاماكن التي يسقط عليها ضوء الموقد، كان غموضها كله، هذه الذات الحميمة جدا، قد تكشفت قبالتها: متكبرة ومستسلمة، مقيدة وطيقة، عبدة ونديدة. كان يعرف سبب بغيته: لرؤيتها ثانية. كانت رؤيته اياها ضرورة، مثل ظمأ لا يحتمل لا بد من اروائه.

ارغم نفسه على ان يشيح بوجهه. غير ان عينيه ابصرتا الحوريتين العاريتين المصنوعتين من الرخام والموضوعتين فوق حافة الموقد. واكتست الحوريتان ايضا بلون وردي بفعل الضوء الدافئ المنبعث من البطانية الحمراء. لم يقدم له اي عون، وتحركت سارة قليلا مما دفعه الى النظر اليها ثانية.

كانت قد رفعت يدها بسرعة الى رأسها المحني، ومسحت اصابعها شيئاً ما عن وجنتها، ثم استقرت فوق حنجرتها.

- ارجوك لا تبكي يا عزيزتي الانسة وودراف... ما كان ينبغي لي المجيء... لم اقصد...

غير انها هزّت رأسها بحماسة مفاجئة. منحها بعض الوقت لتستعيد وضعها. وفي حين كانت تمسح بمنديلها استبدّت به رغبة جنسية عارمة، شهوة اكبر الف مرة من اي شيء راوده في حجرة المومس. لعل بكاءها الضعيف هو الاختراق الذي ولدت منه المعرفة؛ الا انه ادرك فجأة سبب استحواذ وجهها عليه، وسبب شعوره بهذه الضرورة الهائلة لرؤيتها ثانية: كان يريد امتلاكها، ان ينصهر فيها، ان يحترق، ويحترق ويحترق حتى يتحول الى رماد في ذلك الجسد وفي تلك العينين. من الممكن تأجيل مثل هذه الرغبة اسبوعاً، شهراً سنة، بل حتى بضع سنوات، اما الى الابد فهو ما لا يُطاق.

قلما تناهت الى السمع كلماتها التالية التي ارادت بها تفسير دموعها.

- ظننت اني لن اراك ثانية.

لم يستطع ان يخبرها الى اي مدى اقتربت من حقيقته. رفعت بصرها اليه وسرعان ما خفضته. وعصفت به تلك الاعراض الغامضة الخاصة بالغثيان التي مرت به في مخزن الغلال. تسارع نبض قلبه، وارتعشت يده. وعلم انه لو نظر الى تلك العينين لضاع. فاغمض عينيه كأنه يريد حظرهما.

كان الصمت الذي اعقب ذلك رهيباً، متوتراً مثل جسر يوشك ان ينشطر، برج يوشك ان يهوي، لا يحتمل لما فيه من عواطف، حقيقته تتفجر كأنها تريد الكلام. وفجأة تساقط بعض الفحم من الموقد. وقد سقط في معظمه فوق الحافة الواقية المنخفضة، غير ان قطعة او قطعتين وثبتا فوق حافة البطانية التي كانت تغطي ساقي سارة. وسرعان ما هزت قدميها في حين جثا تشارلز سريعاً وامسك المجرفة الصغيرة الموجودة في الدلو النحاسي. واعيد الفحم المتساقط فوق السجادة الى مكانه على جناح السرعة. الا ان البطانية احترقت ببطء، فامسك بها، وطرحها بعيداً فوق الارض، واطفاً الشرر. امتلات الغرفة برائحة الصوف المحترق حرقاً خفيفاً. كانت احدى ساقي سارة فوق الكرسي الصغير، اما الساق الاخرى فوضعتها على الارض.

كانت قدماها عاريتين. نظر الى اسفل صوب البطانية، واطمأن الى عدم وجود اي جمرات بأن ضربها بيده ضربة او ضربتين، ثم التفت، ووضعها ثانية فوق ساقي سارة. كان منحنيا على مقربة منها وهو ينظر الى الترتيب. وهنا امتدت يدها على استحياء، واستراحت فوق يده بحركة غريزية لم تستطع ان تحسبها. كان يعرف انها تنظر اليه. لم يتمكن من تحريك يده. وفجأة لم يستطع ان يبعد عينيه عن عينيها.

ثمة عرفان فيهما، وكل الحزن القدم، وقلق غريب، كأنها كانت تعلم انها تؤذيه. الا انها قبل كل شيء، كانت تنتظر. خجلة الى ما لا نهاية، لكنها منتظرة. لو بان على شفيتها ابتسامة واهنة، لتذكر ربما نظرية الطبيب غروغان. غير ان هذا الوجه لاح مندهشا تمام الدهشة، ضائعا مثلما هو ضائع. لم يعرف الى اي مدى ظل كل واحد منهما ينظر في عيني الاخر. دهرًا كاملاً على ما يبدو، على الرغم من انها ليست سوى ثلاث او اربع ثوانٍ في الحقيقة. انهمكت ايديهما اولاً، فتشابكت الاصابع على نحو غامض، ثم خر تشارلز على احدى ركبتيه، وضمها بوله الى صدره. التقى الفمان بعنفوان جامع صدم كل واحد منهما، وجعلها تبعد شفيتها. غمر وجنتيها، عينيها بالقبلات. واخيراً لمست يده ذلك الشعر، وداعبته، تحسست الرأس الصغير من خلال نعومته مثلما كان يتحسس جسدها ذي الملابس الخفيفة تحت ذراعه وصدره. وفجأة دفن وجهه في رقبتها.

- يجب الا... يجب الا.. هذا جنون.

غير ان ذراعيها احاطتا به، وضغطت على رأسه اكثر. لم يتحرك. شعر انه محمول على اجنحة من نار، مندفعاً، لكن في مثل هذا الهواء الرقيق، اشبه بطفل تحرر اخيراً من المدرسة، سجين في حقل اخضر، صقر محلق. رفع رأسه ونظر اليها: ثمة عنفوان وحشي. ثم تبادلا القبلات ثانية. الا انه ضغط عليها بقوة جعلت الكرسي يندفع قليلاً الى الوراء. شعر بها وهي تجفل من الالم عندما هوت قدمها المربوطة بالضماد من فوق الكرسي. نظر الى قدمها، ثم الى وجهها، الى عينيها المغمضتين. اشاحت بوجهها بعيداً صوب مؤخرة الكرسي، كأنه اثار نفورها، بيد ان صدرها ظهر وهو يتقوس على نحو يتعذر ادراكه باتجاهه في حين تشبثت يداها بيديه على نحو مصحوب بالتشنج. القى نظرة سريعة الى الباب من ورائها، ثم وقف وخطا خطوتين حتى بات الى جانبه.

لم يكن ليضيء حجرة النوم سوى ضوء الغسق ومصابيح الشارع الضعيفة في الجهة المقابلة. بيد انه شاهد سرير النوم الرمادي والمغسلة. وقفت سارة مرتبكة عند الكرسي، واستندت نفسها الى ظهرها، ورفعت القدم المصابة عن الارض في حين هوى احد طرفي اللفاح عن كتفها. كان كل واحد منهما يعكس العنفوان المستبد في عيني الثاني، يعكس الطوفان، الانجراف امامه. وبدت وهي تخطو نصف خطوة وتوشك ان تسقط وهي تسير نحوه. قفز من مكانه الى الامام وطوقها بذراعيه. سقط اللفاح فوق الارض. لم يبقَ بينه وبين جسدها العاري سوى غلالة رقيقة. ضمَّ ذلك الجسد بقوة الى صدره، ضاغطا فمه فوق فمها بكل ما لديه من جوع سبيه الاحباط الطويل - ليس جوعا جنسيا فقط، بل جوع سبيه تيار لا يمكن السيطرة عليه من اشياء محظورة، من الرومانسية، المغامرة، الخطيئة، الجنون، الحيوانية، كل هذه الاشياء تدفقت تدفقا وحشيا في اعماقه.

هوى رأسها الى الوراء بين ذراعيه كأنها قد اغمي عليها عندما رفع اخيرا شفتيه عن فمها. رفعها قليلا الى اعلى ثم حملها الى حجرة النوم. فاستلقت حيث وضعها فوق السرير، مغميا عليها تقريبا واحدى ذراعيها الى الوراء. امسك يدها الاخرى وقبلها بحرارة بالغة. فداعبت وجهه. جذب نفسه وهرول الى الحجرة الاخرى. شرع يخلع ملابسه على نحو اهوج، سريع، كأن شخصا ما يغرق وهو واقف عند الضفة. انخلع احد ازرار سترته، وتدحرج صوب احد اركان الغرفة، الا انه لم ينظر حتى ليعرف المكان الذي وصل اليه. خلع صدريته، حذاءه، جوربيه، سرواله ولباسه الداخلي... مشبك رباطه اللؤلؤي ورباطه. اختلس نظرة الى الباب الخارجي، ثم ذهب ليقفل الباب بالمفتاح، وتقدم عاري الساقين لا يرتدي سوى قميصه الطويل داخل عرفة النوم.

كانت قد تحركت قليلا، اذ كان رأسها فوق الوسادة الان، على الرغم من انه في الجزء الاعلى من السرير ووجهها الى احد الجانبين لا يتمكن من رؤيته بسبب خصلة داكنة من شعرها. وقف يراقبها لحظة وهو متأجج العاطفة...

- اوه، يا عزيزتي. اوه يا عزيزتي، يا ملاكي الحبيب... سارة... سارة...

اوه يا سارة.

استلقى ساكنا بضع لحظات. مرت تسعون ثانية تماما منذ ان تركها ليتفحص غرفة النوم.

ابتعد عنا، كما ابتعد ديدو⁽¹¹⁰⁾ بإشارة صارمة

صديقها الخادع في حادس⁽¹¹¹⁾

أطردنا بعيدا، واحتفظ لنفسك بالانعزال!

ماثيو ارنولد: الفجري التلميذ 1853

صمت

استلقيا كأنهما مشلولان بسبب فعلتيهما. متجمدين في الخطيئة، متجمدين بالنشوة. كان تشارلز اشبه بمدينة ضربت من اعلى السماء الهادئة بقنبلة ذرية؛ اذ لم يشعر بحزن رقيق ينتابه اثر الجماع، بل شعر برعب شامل على الفور. لقد دُمّر كل شيء تدميرا تاما، كل المبادئ، كل المستقبل، كل الايمان، كل العزم الشريف. الا انه على الرغم من ذلك ظل على قيد الحياة، فهو يستلقي في احضان حياته العذبة، انه الرجل الاخير الذي بقي حيا، المعزول الى ما لا نهاية... غير ان الاشعاع الراديوي بالذنب سرعان ما بدا يزحف، يزحف في اعصابه وعروقه. وفي الظلال النائية، كانت ايرنستينا تقف محملة بحزن اليه. اما السيد فريمان فضربه على وجهه... الى اي حدّ تجمدا في مكانيهما، متصالبين بحق، ينتظران دون حراك.

تحرك قليلا ليخلص سارة من ثقله، ثم ولاها ظهره كي تستطيع ان تضطجع مستندة اليه ورأسها يتكئ على كتفه. حملق في السقف. يالها من فوضى، يالها من فوضى يصعب التعبير عنها!

قَرَّبها اليه اكثر، فمدت يدها على استحياء وطوقته، توقف المطر. وقع اقدام ثقيلة، بطيئة، محسوبة، مرت في مكان ما من تحت النافذة. ربما ضابط شرطة. القانون.

(110) ديدو: ملكة قرطاجة في اتيادة فرجيل التي تُضيف اينيس بطل الانياذة وتقع في غرامه

لكنه يخدعها ويرحل عنها فتنتحر لدى رحيله. (المترجم)

(111) حادس: العالم السفلي اي مثنوى الاموات في الميثولوجيا الاغريقية. (المترجم)

- قال تشارلز.
- انا اسوأ من فارغون.
- كسان جواها الوحيد الضغط على يده كأنها تنكر ذلك وتريد اسكاته الا انه رجل.
- ما الذي سيحدث لنا؟
- لا استطيع التفكير في ما وراء الساعة هذه.
- ضغط على كتفيها ثانية، وقبل جبينها، ثم حملق ثانية في السقف. كانت في ريعان الصبا الان، في غمرة النشوة.
- لا بد لي من فسخ خطوبي.
- لا اطلب منك اي شيء. فانا لا استطيع ذلك واللوم يقع علي.
- لقد حذرتني. لقد حذرتني. انا الذي اتحمل اللوم كله. كنت اعلم لما اتيت الى هنا... اخترت ان اكون اعمى. وضعت كل التزاماتي ورائي.
- غمغمت.
- لقد رغبت في ذلك.
- قالتها بحزن ثانية.
- لقد رغبت في ذلك.
- مسد شعرها برهة وجيزة، فسقط على كتفها، وجهها، ساترا اياها.
- سارة... انه اجمل الاسماء.
- لم تحب. مرت دقيقة ويده تصقل شعرها، كأنها طفلة. غير ان ذهنه كان في مكان اخر. فقالت اخيرا كأنها احست بما يدور فيه.
- اعلم انك لا تستطيع ان تتزوجني.
- لا بد من ذلك. فانا ارغب في الزواج. ولن استطيع النظر الى وجهي ثانية اذا لم افعل ذلك.
- كنتُ شريرة. طالما تخيلت طويلا يوما كهذا. انا لا اصلح زوجة لك.
- يا عزيزتي...
- ان مكانتك في العالم، اصدقاءك، و... وهي؛ اعرف انها لا بد ان تكون هائمة بك. كيف تسنى لي الا اعرف مشاعرها؟

- الا انني لم اعد احبها بعد الان!

تركت حماسه تتلاشى في الصمت.

- انها جديرة بك. اما انا فلست كذلك.

اخيرا شرع يدرك ما تقول. تركها تلتفت ثم نظرا من خلال الضوء الخافت في الخارج الى عيني بعضهما بعضا الظليتين. كانت عيناه تمثلان رعبا، اما عينها فكانتا هادتين تبسمان ابتسامة شاحبة.

- لا يمكنك ان تعني ان علي الانصراف، كأن لا شيء قد حدث بيننا.

لم تقل شيئا. الا انه قرأ في عينيها ما كانت تعنيه. رفع نفسه قليلا واتكأ على مرفقه.

- لا يمكنك ان تغفري لي الى هذا الحد، او تطلبني مثل هذا الطلب اليسير.

دفنت رأسها في الوسادة، عينها تنظران الى مستقبل مظلم.

لم لا ان كنت احبك؟

ضمها الى صدره. وترقرقت الدموع في عينيه لفكرة مثل هذه التضحية. يا له من ظلم الحق بها هو نفسه وغروغان. انها انسان انبل من كليهما. اجتاح تشارلز احتقار جارف لبني جنسه: لتفاهتهم، لسذاجتهم، لانانيتهم. الا انه ينتمي الى ذلك الجنس. وقد حل به شيء من جنبهم المراوغ الموغل في القدم: الا يمكن ان تكون هذه لذته الاخيرة؟ الانغماس الاخير في هو الشباب وعشه؟ غير انه ما ان فكر في ذلك حتى شعر انه اشبه بقاتل اخلي سبيله لخطأ فني في قضية الدعوى. في الامكان ان يقف طليقا خارج قاعة المحكمة، الا انه مذنب الى الابد في اعماقه.

- اشعر انني غريب عن نفسي تماما.

- شعرت بنفس الشعور. وهذا سببه اننا ارتكبنا الخطيئة. ولا نستطيع ان

نصدق اننا اخطأنا.

تكلمت كأنها تحديق الى ليل لا نهاية له.

- كل ما اتمناه لك هو السعادة. اعرف الان انك يوما ما احببتني حقا.

استطيع ان اسمع... ان اسمع اي فكرة... سوى انك مت.

رفع نفسه قليلا ثانية، والقي نظرة اليها. كانت ثمة ابتسامة شاحبة في عينيها،

معرفة عميقة؛ اجابة روحية او نفسية لمعرفته الجسدية اياها. لم يشعر يوما ما انه

قريب هكذا، وعلى وفاق مع امرأة. انحنى وقبلها قبلة نابعة من حب بريء أكثر من ذلك الحب الذي بدأ يعلن عن نفسه ثانية، عند الاتصال العاطفي بشفتيها، وفي اعماقه. كان تشارلز يشبه الكثير من الرجال الفكتوريين. فهو لم يستطع حقا ان يصدق ان اي امرأة نبيلة في عواطفها تستطيع ان تستمتع بكونها وعاء لشهوة الذكر. لقد عابَ توا حبها له على نحو لا يرحم؛ يجب الا يحدث ذلك ثانية. والوقت - لم يعد يقوى على البقاء مدة اطول! فجلس منتصبا.

- المرأة في الطابق السفلي... وهناك خادمي ينتظرنني في الفندق. اتوسل اليك ان تمنحيني مهلة يوم او يومين، فانا لا استطيع التفكير بما سأفعله الان. اغمضت عينيها. وقالت.

- لست جديرة بك.

تفرس فيها برهة وجيزة، ثم غادر السرير، واتجه صوب الحجرة الاخرى. هناك ضربته صاعقة!

ففي حين كان ينظر الى اسفل وهو يرتدي ثيابه لاحظ وجود لطخة حمراء في اسفل الطرف الامامي من قميصه. وفكر برهة ان لا بد قد جرح نفسه الا انه لم يشعر بأي ألم. تفحص نفسه سريعا، ثم امسك بالجزء العلوي من الكرسي وهو يحملق في باب حجرة النوم - لقد ادرك فجأة ما من شأن عاشق اكثر خبرة او اقل عنفوانا ان يدركه حالا.

لقد فض بكاراة عذراء.

كانت هناك حركة في الغرفة من ورائه. كان في دوامة، مذهولا، الا انه على الرغم من ذلك، ارتدى ثيابه بعجالة مفرطة. وتناهى الى سمعه صوت ماء يُفرغ في حوض ورثة الخزف الصيني عند انزلاق الصابونة. انها لم تستسلم لفارغون. لقد كذبت. كان سلوكها كله، ودوافعها كلها في بلدة لايم ريجيس قائمة على كذبة. لكن ما هو الهدف؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

ابتزاز!

لوضعه تحت سيطرتها تماما.

كل الشيطانات المسيطرات على استحلام الذكور، مخاوفهم من المؤامرة الانثوية الكبرى لامتناس الرجولية من عروقهم، لافتراس مثالياتهم، صهرتهم

وحولستهم الى شمع وقولبتهم حسب اهوائهن الشريرة... هذه الافكار، وافكار العودة الى معقولية الدليل المخيف المقدم في دعوى لارونسييه ملأت ذهن تشارلز برعب لا يوصف.

توقف صوت الغسيل المكتوم، وسمعت اصوات اخرى خفيضة؛ افترض انها عادت الى السرير. وقف يحملق في النار وهو بكامل ملابسه. كانت مجنونة، شريرة، طوقته باغرب شبكة... لكن لماذا؟

ثمة صوت، التفت، وكانت افكاره مرتسمة في منتهى الوضوح على وجهه. كانت واقفة قرب عتبة الباب مرتدية ثوبها النيلي القلم وشعرها لا يزال مسترسلا، الا ان شيئا من ذلك التحدي القلم ظل يشوبها. تذكر لحظة ذلك الوقت الذي صادفها فيه اول مرة وهي واقفة فوق تلك البقعة المطلة على البحر وحملت فيه. لا بد انها عرفت انه قد اكتشف الحقيقة؛ مرة اخرى توقعت بالتهمة التي تراود ذهنه فقضت عليها.

كررت نفس كلماتها السابقة.

- لست جديرة بك.

فصدقها الان. وهمس:

فارغون؟

- لما ذهبت الى المكان الذي سبق ان اخبرتك به في ويموث، كنت بعيدة قليلا عن الباب... وقد شاهدته يخرج بصحبة امرأة. امرأة من النوع الذي لا يمكن ان يخطئ به اي انسان.

تجنبت النظر الى عينيه الثابتين.

- تواريت قليلا، ولما انصرفا، غادرت المكان.

- لكن لماذا قلت...

انتقلت فجأة صوب النافذة. فسكت. لم تكن تعرج. لم يكن هناك اي كاحل ملتو. اختلست نظرة الى نظرتة المنطوية على اتمام جديد، ثم ولته ظهرها.

- نعم. لقد خدعتك. الا انني لن ازعجك ثانية.

- لكن ماذا... لماذا تعين عليك ان...

بمجموعة من الالغاز.

نظرت اليه وجها لوجه، في حين بدأت الامطار الغزيرة خارجا. كانت عيناها ثابتتين، وعاد اليها تحديها السابق، الا انها ظلت محتفظة بشيء رقيق، شيء يذكره، انه قد امتلكها توا. انها نفس المسافة البعيدة، لكنها مسافة اكثر رقة.

- لقد منحنتني سلوى الاعتقاد بانني قد اكون زوجة لك في عالم اخر، في عصر اخر، في حياة اخرى، لقد منحنتني القوة لأواصل الحياة... في هذا الزمان وهذا المكان.

اقل من عشرة اقدام (ثلاثة أمتار) تفصل بينهما، الا انها تبدت مثل عشرة اميال.

- هناك شيء واحد لم اخدعك فيه. لقد احببتك... منذ اللحظة الاولى التي رأيتك فيها، كما اعتقد. لم اخدعك في هذا الامر قط. الشيء الذي خدعك هو عزلي. الازدراء، الحسد، لا اعرف. لا اعرف.

ثم التفتت ثانية الى النافذة والى المطر.

- لا تطلب مني ان اوضح ما فعلت، فأنا لا استطيع ان افسر ذلك. انه امر غير قابل للتفسير.

حدّق تشارلز الى ظهرها في اثناء الصمت المشحون. ومثلما شعر قبل قليل بانحراف صوبها، شعر الان بانحراف بعيد عنها؛ وفي كلتا الحالتين، تتحمل هي اللوم.

- لا اقبل هذا الكلام. لا بد من تفسير.

الا انها هزّت رأسها بالنفي.

- ارجوك اذهب الان. انني اصلي من اجل سعادتك، ولن اقلقها ثانية قط. لم يتحرك. بعد لحظة او لحظتين التفتت اليه، وقرأت على ما يتضح فكرته الغامضة مثلما كانت قد فعلت في السابق. كانت ملاحظها هادئة، قدرية.

- الامر كما اخبرتك من قبل. انني اقوى مما قد يتصور اي رجل. وستنتهي حياتي عندما تقرر الطبيعة ذلك.

تحمل رؤيتها بضع ثوانٍ اخرى، ثم التفت صوب عصاه وقبعته.

- هذه مكافأتي، لقاء مساعدتي، لقاء المغامرة بالشيء الكثير لكى... والان اعلم انني لست سوى مغفل من صنع خيالك.

- اليوم فكرت في سعادتي الشخصية، ولو قدّر لنا ان نلتقي ثانية، فاني لا
استطيع الا التفكير في سعادتك. لن تكون سعيدا معي. فانت لا تستطيع ان
تزوجني يا سيد سميثسون.

كانت العودة الى النيرة الرسمية موجودة جدا. نظر اليها نظرة قاتلة، الا انها
كانت قد ولته ظهرها كأنما توقعت ذلك. فتقدم خطوة صوبها.

- كيف تستطيعين مخاطبتي على هذا النحو؟

لم تقل شيئا.

- كل ما اطلبه منك هو ان تسمح لي بأن افهم...

اتوسل اليك. انصرف.

التفتت اليه. ظهر الاثنان لحظة واحدة مثل مجنونين. اوشك تشارلز على
الكلام، على ان يقفز الى امام، على ان ينفجر، الا انه دون تحذير، استدار على
عقبه، وغادر الغرفة.

اعتقد بها حقيقة مع من غناها
على انعام قيثارة واضحة متنوعة النغمات
بان البشر سينهضون من اجدائهم الميتة
لاشياء بالغة السمو.

تينيون: احياء لذكرى 1850

تظاهر بمظهر رسمي وهو يهبط السلام الى الرواق. كانت السيدة
انديكوت واقفة قرب باب مكتبها، فاغرة فاهها، توشك ان تتكلم. الا ان
تشارلز مرّ من امامها وهو يقول على نحو مؤدب «شكرا لك يا سيدي». ليلفه
الظلام بعد ذلك قبل ان تتمكن من السؤال او ملاحظة افتقار سترته إلى احد
الازرار.

سار مبتعدا على نحو اعمى وسط زخعة جديدة من المطر. ولم يلحظ تلك
الزخعة مثلما لم يلحظ المكان الذي يقصده. كانت رغبته العظمى هي الظلام،
الاختفاء، النسيان الذي يستعيد فيه الهدوء. الا انه توغل دون دراية في ذلك الحي
السيئ السمعة في اكستر الذي سبق لي وصفه. وكما هو شأن معظم الاحياء السيئة
السمعة، فقد كان هذا الحي يضج بالنور والحياة: بالمجلات والحانات، بالناس
اللائذين من المطر الى عتبات الابواب. سلك شارعنا ينحدر انحدارا مفاجئا صوب
نهر اكس وشاهد صفوفًا من درجات ملطخة بالقاذورات على جانبي الساقية
الوسطية المختنقة بالمياه. الا ان المكان هادئ. لاحت له عند نهاية الشارع كنيسة
صغيرة مشيدة بالحجارة الحمراء عند المنعطف. وعلى حين غرة شعر تشارلز بحاجته
الى ملاذ. فدفع بابا صغيرا منخفضاً على نحو اضطره الى الانحناء قليلا كي يدخل.
ثمة درجات ترتفع الى مستوى ارضية الكنيسة التي تعلو مستوى مدخل الشارع.
وكان راعي الكنيسة الشاب يقف فوق قمة هذه الدرجات مخفضا وهج اخر
مصباح ومندهشا لهذه الزيارة المتأخرة.

- اوشكت ان اقل الباب يا سيدي.

- أفي وسعي طلب السماح بالصلاة بضع دقائق؟
زاد الراعي من وهج المصباح، وامعن طويلا في النظر الى هذا الزائر المتأخر.
انه سيد نبيل.

- بيتي في الجهة الاخرى من الطريق. وهناك من ينتظرنى ارجو ان تتكرم بقفل
الباب نيابة عني واحضار المفتاح.

انحنى تشارلز في حين هبط راعي الكنيسة السلام ووقف الى جانبه.
- السبب هو الاسقف. في رأيي ان بيوت الله يجب ان تظل مفتوحة
دوما. الا ان ادوات المائدة لدينا قيمة جدا. زمن عصيب هذا الذي نعيش
فيه.

هكذا وجد تشارلز نفسه وحيدا في الكنيسة. وسمع صوت وقع خطوات
راعي الكنيسة في الجهة الاخرى من الشارع، ثم اقفل الباب العتيق من الداخل،
وارتقى الدرج صوب الكنيسة. انبعثت رائحة طلاء حديث في حين اضاء المصباح
الغازي الوحيد على نحو واهن التذهيب الجديد. الا ان الاقواس القوطية العظيمة
ذات اللون الاحمر المعتم اظهرت ان الكنيسة موعلة في القدم. جلس تشارلز في
منتصف الممر الرئيس وحدق فوق المذبح: جثا على ركبتيه وتمتم بالصلاة. ثم
تشبث يدها بحاجز الصلاة قبالة.

تفجر الصمت القاتم والفراغ حالما تفوه بكلمات الصلاة. وبدأ يؤلف دعاء
خاصا يليق بظروفه: «اغفر لي يا الله بسبب انانيتي. اغفر لي عصياني اوامرك.
اغفر لي اغتصابي الفتاة. اغفر لي افتقاري الى العفة. اغفر لي عدم رضاي عن
نفسي. اغفر لي افتقاري الى الايمان بحكمتك واحسانك. اغفر لي واهدني يا الله
في محنتي».

بفعل احدى التوريات البائسة الناجمة عن عقله الباطن المشوش برز وجه سارة
امامه، مبللا بالدموع، معذبا... وشاهدها في مدن كولمار، وكوبلنز
وكولون... واخرى لا يتذكرها. شرد ذهنه ثواني معدودة بحثا عن اسم المدينة
المنسية التي تبدأ بالحرف (سي). ففض وجلس ثانية فوق المصطبة. يالها من كنيسة
خاوية، صامتة! حلق، وحاول ان يستأنف دعاءه، لكن بلا فائدة. عرف انه غير
مسموع، فأجهش بالبكاء فجأة.

ثمة احساس عميق بالعزلة، بجائزة محجوبة، ينتاب كل الناس سوى بعض الملحددين واللاأذريين الفكتوريين (يقود تلك النخبة المتطرفة برادلاف)⁽¹¹³⁾ ربما كانوا بين اصدقاء من هم على شاكلتهم يسخرون من حماقات الكنيسة، نعاتها الطائفية، اساقفتها المرفهين، كهنتها المخادعين، قساوستها المتغيين⁹ ورعاتها القليلي المرتبات ولاهوتها الموغل في القدم وما اشبه... فبين قسوة عصرنا وخطيئتنا اقمنا صرحا هائلا من العون والرعاية بصادرة حكومية، ونظمت اعمال البر والاحسان. الا ان الفكتوريين عاشوا اكثر قربا من تلك القسوة؛ وشعر الاذكاء والحساسون انهم شخصا اكثر مسؤولية من غيرهم؛ وهكذا بات يصعب، في الازمة العصبية، رفض رمز الرحمة الشامل.

لم يكن تشارلز في اعماقه يرغب في ان يكون لأذريا. ولما لم تكن به حاجة البتة الى اي ايمان فقد تعلم ان يستغني عنه وهو سعيد تماما. اما عقله...، فقد اعلمه انه على حق في الاستغناء عن العقيدة. لكن ها هو الان على الرغم من ذلك، لا ييكي من اجل سارة بل من اجل عجزه عن مخاطبة الله. كان يدرك ان الاسلاك مقطعة في تلك الكنيسة المظلمة وان اي اتصال غير ممكن.

انبعث صوت عالٍ وسط الصمت. التفت ومسح عينيه باحد كفيه. الا ان اي شخص حاول الدخول عرف فيما يبدو ان الكنيسة مغلقة الان؛ كان الجزء الرافض من تشارلز هو الذي خرج. وقف على قدميه، وشرع يذرع الممر الكائن بين المصاطب جيئة وذهابا واضعا يديه وراء ظهره. شعر ان اسماء وتواريخ منقرضة، البقية الباقية من حياتنا المتحجرة، تحديق به على نحو مستغلق من شواهد

(113) تشارلز برادلاف (1833 - 1891): مفكر بريطاني راديكالي متطرف وملحد نهج منهج فولتير وتوماس بين وعرف في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدعوته الى الحريات الفردية. في الفترة الاخيرة من حياته عارض الاشتراكية وتحول الى الفكر المحافظ. (المترجم)

(*) من الذي في وسعه ان يوجه اللوم لهم في حين يقدم رؤوساؤهم مثل هذا النموذج؟ لقد اشار راعي الكنيسة قبل قليل الى الاسقف وهو الدكتور فيلبوتس اسقف اكست - الذي اصبحت فيما بعد كل ديفن وكورنول تحت رعايته - الذي يعد نموذجا لهذه الحالة. فقد قضى السنوات العشر الاخيرة من حياته في مسكن مريح في توركواي وقيل انه اساء ذات مرة لكاتدرائيته في اثناء ذلك العقد الاخير من الزمن. وكان اميرا مدهشا من امراء الكنيسة الانكليزية - كل جزء منه يوحى بالرجعية المولعة بالخصام والمشاكسة، ولم يمت الا بعد عامين من السنة التي نحن فيها الان. (المؤلف)

القبور المظمورة في الارض. لعل سيره جيئة وذهابا وسط هذه الشواهد، الاحساس الضئيل بالاحاد وهو يفعل ذلك، لعل لحظات يأسه الماضيه اعادت اليه في النهاية الهدوء والصفاء. وبدأ حوار يدور بين نفسه الخيرة ونفسه الشريرة - او ربما بينه وبين ذلك الشخص المفروش الجناحين في الظلال في نهاية الكنيسة.

- من اين أبدأ؟

- ابدأ بما فعلت يا صديقي. وتوقف عن التمني بانك لم تفعله.

- لم افعل ذلك. لقد دفعت الى فعله.

- ما الذي دفعك الى فعله؟

- لقد خُذعتُ.

- ما هو القصد من وراء الخديعة؟

- لا ادري.

- غير انك يجب ان تقرر.

- لو كانت تحبني حبا صادقا لما تركتني اذهب.

- لو كانت تحبك حبا صادقا، اكان في وسعها مواصلة خداعك؟

- لم تترك لي اي خيار. لقد قالت شخصا ان زواجنا مستحيل.

- ما المسوغ الذي قدمته؟

- اختلافنا في المركز الاجتماعي.

- سبب نبيل.

- ثم هناك ايرنستينا. لقد وعدتها وعدا صادقا.

- لقد نكثته توا.

- سأصلح ذلك.

- بالحب؟ ام بالخطيئة؟

- لا يهم بايهما. الوعد مقدس.

- اذا كان لا يهم ايهما، فلا يمكن للوعد ان يكون مقدسا.

- واجبي واضح.

- تشارلز، تشارلز، قرأت افكارك في العينين القاسيتين. الواجب ليس سوى

دعاء، وهو يحتوي على اي شيء تضعه فيه، بدءا بالشر المستطير وانتهاء بالخير العظيم.

- لقد تمت ان ارحل. كان في وسعي رؤية ذلك في عينيها - انه الاحتقار.
- اني وسعي اخبارك ما الذي يفعله الاحتقار في هذه اللحظة؟ ان بكاءها يقطع نياط القلب.
- لا استطيع العودة اليها.
- اتظن ان الماء قادر على غسل ذلك الدم من احشائك؟
- لا استطيع العودة اليها.
- اكنت مضطرا الى لقائها في الجرف ثانية؟ اكنت مضطرا الى التوقف هذه الليلة في اكستر؟ اكنت مضطرا الى الذهاب الى غرفتها؟ الى ترك يدها تستريح فوق يديك؟ اكنت...
- اقر واعترف بهذه الاشياء! لقد اخطأت. الا انني وقعت في مصيدتها.
- لم انت متحرر منها الان اذا؟
- لم يجب تشارلز بشيء. جلس ثانية فوق مصطبة، وشابك اصابعه بعنفوان متقد، كأنه يريد ان يحطم عظام اصابعه، محققا، محققا الى الظلمة. الا ان الصوت الاخر ما كان ليسمح له بذلك.
- ربما هناك شيء واحد تحبه اكثر منك يا صديقي. والشيء الذي لا تفهمه هو انها يجب ان تعطيك الشيء الذي تحبه اكثر لأنها تحبك حبا صادقا. سأخبرك عن سبب بكائها: لأنك تفتقر الى الشجاعة في اعادة هديتها اليها.
- اي حق تملكه في تعذيبي عذابا شديدا؟
- اي حق تملكه في ان تولد؟ في ان تتنفس؟ في ان تكون ثريا؟
- ساعطي قيصر⁽¹¹⁴⁾ ما ل...
- او السيد فريمان؟
- تلك مهمة دينية.
- او الي. اهذا هو وفاؤك؟ هذه المسامير التي تدقها في راحتي؟
- مع شديد احترامي؛ ايرنستينا ايضا لها راحتان.
- اذا لنمسك واحدة ونقرأها. لا اجد اي سعادة. انها تعلم انك لا تحبها حبا صادقا. انها مخدوعة. ليس مرة واحدة، بل مرات ومرات، في كل يوم من ايام الزواج.

(114) اشارة الى نصيحة يسوع للناس ان يعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله. (المترجم)

وضع تشارلز يده فوق الحاجز قبالة، ودفن رأسه فيه. شعر انه في معضلة متمثلة في تيار من التردد: الواضح تقريبا، ليس السلبي بل الفعّال، الذي يدفعه الى الامام، صوب مستقبل يختاره التردد لا هو.

- فتش عن قلبك يا تشارلز المسكين. عندما اتيت الى هذه المدينة ظننت - او ليس كذلك؟ - انك ستثبت لنفسك انك لست بعد في سجن مستقبلك. الا ان الهرب ليس هو الفعل الوحيد يا صديقي. في كل دقيقة ينتظر المسمار من سيده. وانت تعلم ما هو خيارك. ابق في السجن، في المكان الذي يدعوه عصرك الواجب، الشرف، احترام الذات وعندئذ تكون مطمئن البال. او كن حرا. رفاقك الوحيدون هم الحجارة، الاشواك، الظهور المدبرة، صمت المدن وحقدتها.

- انا ضعيف.

- بل خجل من ضعفك.

- ما الفائدة التي ستحققها قوتي للعالم؟

لا جواب. غير ان شيئا ما جعل تشارلز ينهض عن المصطبة. وينظر من احدى النوافذ الخشبية الى... فوق المذبح، وبعد تردد تقدم داخل الباب الوسطي واجتاز مقاعد الجوقة ومن ثم الى الدرج المؤدي الى منضدة المذبح...

ظهر وهو واقف في مكانه كأنه يشاهد مجمل عصره، بما فيه من حياة مضطربة، حقائق ثابتة، اعراف صارمة، عواطف مكبوتة وفكاهة ظريفة، علم حذر ودين غير حذر، سياسات فاسدة وطبقات غير قابلة للتغيير، مثل العدو الهائل الخفي لكل لوعته الدفينة. ذلكم هو الشيء الذي خدعه، وهو بلا حب ولا حرية... تلكم هي الحلقة المفرغة التي استبدت به، ذلكم هو الاخفاق، الضعف، السرطان، المثلب الاساس الذي اوصله الى ما كان عليه: تردد أكثر منه واقع، حلم أكثر منه انسان، صمت أكثر منه كلمة، عظم أكثر منه فعل. ومتحجرات!

اصبح مثل ميت في حين لا يزال على قيد الحياة.

انه اشبه ما يكون قد وصل الى هوة لا قرار لها.

شيء ما اخر: ثمة احساس غريب ينتابه منذ ان دخل تلك الكنيسة - وهو ليس احساسا خاصا بتلك الكنيسة بل حسا داخليا ينتابه كلما دخل الكنائس الخالية - بانه ليس وحيدا. ثمة حشد من المصلين يقف من ورائه. التفت ونظر الى صحن الكنيسة.

صمت. مقاعد شاغرة.

فكر تشارلز: لو كانوا حقا موتى، لو لم تكن هناك حياة بعد الموت، لماذا ينبغي لي ان اهتم بوجهة نظرهم في؟ ليس في وسعهم ان يعرفوا، ليس في وسعهم ان يقرروا.

ثم وثب وثبته الكبرى: انهم لا يعرفون، فليس في وسعهم ان يقرروا. ان ما كان يرمي به جانبا كان قد استبد عصره وألحق به ضررا بليغا. وقد اوضح ذلك كل الايضاح تينيسون في المقطع الخمسين من قصيدة (احياء لذكرى⁽¹¹⁵⁾ ارثر هنري هالم) اصغ له:

اتمنى حقا ان يكون الموتى
على مقربة منا، الى جانبنا؟
اليس ثمة خسة ينبغي لنا اخفاؤها؟
ولا رذيلة داخلية نخشاها؟

هل الذي اسعى من اجل استحسانه،
والذي بجلت كل التبجيل تانيه،
يرى بعين واضحة بعض العار الخفي
واحظى انا بحبه؟

اني اظلم القبر بمخاوف غير صحيحة:
أيلام الحب لافتقاره الى الايمان؟
لا بد من حكمة بالموت العظيم
سيتفحصني الموتى مرارا عن كتب.

(115) (احياء لذكرى ارثر هنري هالم): رائعة الفرد لورد تينيسون (1809 - 1892) التي كتبها حزنا على موت صديقه المفاجئ ارثر هالم وهو في الثانية والعشرين من عمره وكان موته سببا دفع الشاعر الى الشك في معنى الحياة ودور الانسان في الكون.
(المترجم)

كن قريبا منا عندما نسمو او نهوي
انت تراقب، كالاله، الساعات المنصرمة
بعينين اخريين اكبر من عيوننا
وتغفر ما نفترفه جميعا من هفوات.

«لا بد من حكمة بالموت العظيم، سيتفحصني الموتى مرارا عن كذب». ثار
كيان تشارلز كله ضد هذين الافتراضين، ضد هذه الرغبة المخيفة للعودة الى
المستقبل، بعينين مثبتتين على اسلاف المرء المتوفين بدلا من ابناء المرء غير المولودين
بعد. كان هذا الايمان السابق بحضور الماضي حضورا شبحيا قد دانه - دون معرفة
منه البتة - وحكم عليه بقضاء حياته في القبر.

على الرغم من ان هذه الافكار تبدو مثل قفزة صوب الالحاد... إلا أنها
خلصته... خلاصا جزئيا ان لم يكن كليا. سار تشارلز ببطء ثانية صوب صحن
الكنيسة موليا ظهره النقوش الخشبية اللامبالية. شرع ثانية يخطو المكان جيئة
وذهابا، مثبتا عينيه في البلاط. وكان الشيء الذي رآه الان يشبه لمحة من عالم
اخر: واقعا جديدا، علة جديدة، خلقا جديدا. وانهمر شلال من صور ثابتة -
فصل اخر من سيرته الذاتية المفترضة ان شئت - في ذهنه. وفي لحظة تسامي
مماثلة، في وسعك ان تستحضر السيدة بولتيني، وقد هبطت، وتخلصت من
عبوديتها التامة للسيدة كوتون بعد ثلاث دقائق من ساعة حجرة الاستقبال
الرخامية والمذهبة. سأكون قد اخفيت الحقيقة اذا ما احجمت عن الايضاح بأن
تشارلز فكر في هذه اللحظة في عمه. وهو لن يلقي باللائمة على السير روبرت
بسبب زواج فاشل ورباط غير جدير بالاسرة. الا ان من شأن عمه ان ينحو
باللائمة على نفسه. وهنا وثبت صورة اخرى الى ذهنه: السيدة بيلا في مواجهة
سارة، ورأى ايهما قد تخرج اكثر كرامة، لأن ايرنستينا ستحارب بأسلحة
السيدة بيلا، اما سارة... فبتلك العينين اللتين ستبلعان الشتائم والترفع:
تستقبلها بصمت! تجعلها تتلاشى لتصبح لا شيء سوى ذرات هباب في السماء
اللازوردية!

كذلك اكساء سارة! اخذها الى باريس، الى فلورنسا، الى روما.

... توقف تشارلز - وقد ولى للأسف، ظهره المذبح ثانية - وبدأ نوع من الاشرار في وجهه. لعل ذلك سببه ضوء المصباح الغازي فوق السلام؛ انه لم يترجم الاسباب النبيلة بل المجردة التي مرّت في ذهنه على نحو جذاب. الا انني اؤمل انك ستصدق بأن سارة كانت تقف قريبة منه، بغض النظر عن ابتذالها، من اجل الجوهر الحقيقي للحرية القاسية والضرورية في آن واحد؛ اذا ما شئنا البقاء على قيد الحياة، نعم، حتى اليوم.

استدار، وعاد الى مصطبته، وفعل شيئاً غير عقلائي تماماً، فقد جثا على ركبتيه وصلى صلاة قصيرة. ثم سار حتى نهاية الممر، وجذب السلك الى الاسفل حتى بات المصباح الغازي شاحبا، وغادر الكنيسة.

لا احتفظ سوى برجل وخادمة، على استعداد للاقتراء والسرقعة...

تينيسون: مود 1855

عثر تشارلز على بيت راعي الكنيسة فقرع الجرس. فتحت الباب خادمة، غير ان الشاب تراءى من ورائها بشاريه وهو يسير في الرواق. تراجعت الخادمة في حين تقدم سيدها الى امام ليتسلم المفتاح الثقيل القلم.

- شكرا لك يا سيدي. انني احتفل بالعشاء الرباني في الساعة الثامنة من صباح كل يوم. استمكت طويلا في اكستر؟

- لا، انا في رحلة وقد مررت بها.

- كنت اتمنى لو اراك ثانية. اليس في وسعي تقديم اي مساعدة اخرى؟

ثم اشار القزم الشاب المسكين صوب باب يقع مكتبه وراءه بلا ريب. لقد سبق ان لاحظ تشارلز شيئا من التباهي في اثاث الكنيسة ومفروشاها. وعرف انه مدعو الى الاعتراف.. فقد كان راعي الكنيسة هذا واحدا من الشبان الذين ولدوا بعد انقضاء الانشقاق الديني⁽¹¹⁶⁾ واخذوا الان يضيعون وقتهم على نحو عابث - ولكن مأمون - (طالما ان الدكتور فيلبوتس هو الكنيسة العليا المؤكدة على الطقوس والعناصر التقليدية) بالطقوس الدينية والجيب، وهو مظهر شائع من مظاهر الافراط في الهدام الديني. اختبره تشارلز برهة وجيزة ولم اطراف شجاعته وازداد ثقة بنفسه: لن يكون الامر اكثر حماقة من هذا. لهذا انحنى ورفض ثم سار في طريقه. لقد أحلّ من الدين القائم بقية حياته.

ربما تظن ان طريقه ذلك لا بد ان يقوده مباشرة الى فندق اسرة انديكوت. مما لا ريب فيه ان الرجل المعاصر سيعود مباشرة الى هناك. الا ان احساس تشارلز الملعون بالواجب واللياقة انتصب مثل اسوار قلعة ضده. كان اول

(116) يقصد به الانشقاق الديني الناجم عن نظام مبادئ الكنيسة الذي وضع في مجموعة كراسات دينية في اوكسفورد (1833 - 1841) وعرف باسم حركة اوكسفورد. (المترجم)

واجباته تطهير نفسه من التزاماته السابقة، واذ ذاك فقط يستطيع ان يقدم نفسه ليعرض المساعدة.

شرع يدرك سر خداع سارة. كانت تعلم انه يحبها، وكانت تعلم انه اعمى لا يعرف عمق ذلك الحب. وكانت روايتها المفبركة عن اغواء فارغون لها، ووسائلها الاخرى المضللة، ليست سوى مكائد لتبصيره. وكل ما قالته بعد ان جعلته يصل مرحلة الادراك ليس سوى اختبار رؤيته الجديدة. لقد اخفق اخفاقا بائسا. ثم استخدمت نفس المكائد دليلا على حقارتها. من اي نبل تنبع مثل هذه التضحية الذاتية؟ كم تمنى لو كان في وسعه ان يقفز الى الامام ويضمها الى صدره ثانية، ويخبرها انها ملكه على نحو لا جدال فيه.

كان في وسعه ان يضيف الا انه لم يضيف، لو لم يكن هناك ذلك الانقسام القدرى الى قسمين بين الفكتوريين (لعله النتيجة الاكثر رعبا هي هوسهم في التصنيف الى درجات) الذي دفعهم الى رؤية الروح على انها اكثر حقيقة من الجسد، وانما هي نفسها الحقيقية الوحيدة. التي قلما ترتبط بالجسد، بل تطفو عاليا فوق البهيمة، وهي على الرغم من ذلك، وبفعل خطأ يتعذر تفسيره في طبيعة الاشياء، تُسحب على مضض في اعقاب حركة البهيمة، مثل بالون اسير ابيض من وراء طفل عاق شائن.

ان حقيقة امتلاك كل فكتوري عقليين اثنين واحدة من الادوات التي يجب علينا دوما ان نصحبها معنا في رحلتنا الى القرن التاسع عشر. انها فصام الشخصية التي نراها على اوضح ما يكون، واسوأ ما يكون، في الشعراء الذين غالبا ما استشهدت باقتباساتهم - عند تينيسون وكلف وارنولد وهاردي، الا انها اقل وضوحا في الاتجاهات السياسية الغريبة من اليمين الى اليسار وعند رجال من امثال ميل وغلادستون في شبائيهما، في الامراض العصائية والجسدية النفسية الواضحة عند المثقفين الذين يختلفون اختلاف تشارلز كنفزلي عن دارون، في الشتائم التي انهالت اولا على ما قبل الرافائيليين الذين حاولوا - او بدوا وهم يحاولون - ان يكونوا متحدي الرأي في الفن والحياة، في لعبة جر الحبل التي لا تنتهي بين الحرية والانضباط، الغلو والاعتدال، صحة الرأي والايمان، بين صرخة الانسان المبدئي من اجل ثقافة شاملة وذعره من حق التصويت الشامل، والشفافية في الهوس من اجل

التحرير والتنقيح حتى اننا اذا اردنا معرفة ميل الحقيقي او هاردي الحقيقي فاننا نستطيع ان نتعلم من عمليات الحذف والتبديل في سيرهم الذاتية اكثر مما نتعلم من الطباعات المنشورة... نتعلم اكثر من الرسائل التي سلمت من الحرق، من المذكرات الخاصة، من نثار عمليات الاخفاء. ان السجل لم يكن يمثل هذه الدرجة الكاملة من التشوش، ولم تمر واجهة على هذا النحو من النجاح مثل الحقيقة الخاصة بجيل سهل الانخداع يصدق كل ما يُقال له؛ وفي رأيي، يشكل هذا افضل دليل الى عصر هو من المحتمل تماما عصر (دكتور جيكل والسيد هايد)⁽¹¹⁷⁾. فمن وراء المظهر القوطي المتأخر تكمن حقيقة عميقة تكشف النقاب عن مرحلة من مراحل الزمن.

لكل فكتوري عقلان. وهذا ينطبق على تشارلز على الاقل. فقد شرع وهو يسير في شارع فور صوب فندق السفينة يردد الكلمات التي من شأن بالونه الابيض ان يرددها عندما شاهد الطفل الشرير سارة ثانية، الحوار العاطفي والمشرف الذي من شأنه ان يجعلها تبكي بامتنان والاعتراف بأن ليس في وسعها العيش دونه. رأى ذلك كله رؤية واضحة اجد نفسي مدفوعا الى تسجيلها هنا. الا ان واقعا يتبدى بصورة سام واقفا عند باب الحانة القديمة، قد برز امامه:

- الصلاة مقبولة يا سيد تشارلز؟

- لقد... لقد اضعت طريقي. وتبللت حتى النخاع.

لم تكن تلك العبارة لتلائم ما تشاهده عينا سام.

- املا لي حوض الاستحمام ايها الانسان الطيب، وسأتعشى في غرفتي.

- نعم يا سيد تشارلز.

بعد خمس عشرة دقيقة، في وسعك ان تشاهد تشارلز عاريا كما ولدته امه منهمكا في عمل غير مألوف، الا وهو الغسيل. فقد ضغط ثيابه الملطخة بالدم على حافة حوض الاستحمام الكبير المنخفض الجوانب الذي ملأه سام بالماء، وانهمك بفركها بقطعة من الصابون. شعر انه احمق وانه لم يُحسن عمله. ولما حضر سام بعد مضي مدة من الوقت حاملا صينية العشاء، كانت الثياب مرمية باهمال، نصفها في حوض الاستحمام ونصفها الاخر خارجه. فما كان من سام الا ان جمعها دون

(117) دكتور جيكل والسيد هايد: رواية للكاتب الاسكتلندي المعروف روبرت لويس ستيفنسون (1850 - 1894) الذي يعد احد اعلام ادب المغامرات. (المترجم)

ابداء اي ملاحظة، وفي هذه المرة لا غير، كان تشارلز ممتنا له لاهماله المعروف في مثل هذه الامور.

وبعد ان فرغ من عشائه، فتح محفظة الكتابة الخاصة به.

«يا اعز الناس،

نصفني سعيد على نحو لا يوصف وانا اخاطبك على هذا النحو في حين ان نصفني الاخر يتساءل كيف يمكن له ان يتحدث عن مخلوقة لم يفهمها الا فهما قليلا؟ شيء ما فيك يا ليتني اعرفه معرفة حقة، وشيء ما، اخر، اجهله منذ اول يوم رأيتك فيه. اقول هذا القول لا لاعتذر عن سلوكي هذا المساء، بل لأفسره. انا لا استطيع ان اعذره الا اني يجب ان اعتقد بانه كان هناك اسلوب واحد يمكن ان يوصف به على انه محظوظ لأنه عجل في البحث في ضميري الذي تأخر عن ميعاده طويلا. لن اخوض في كل التفاصيل والظروف. الا اني عازم كل العزم، ايتها الحبيبة الغامضة سارة، على ان يكون الرباط الذي يربطنا الان رباطا ابديا. لست ادرك ادراكا تاما سوى اني لا املك الحق في رؤيتك ثانية، ناهيك عن الطلب كي اعرفك معرفة كاملة في ظل ظروف الراهنه. لهذا فإن اول مقتضياتي فسخ خطوبتي.

ثم هاجس غامض يلزمي منذ وقت طويل بأن من الحماسة الدخول في تلك الترتيبات، حتى قبل ان تدخل حياتي. لهذا، اتضرع اليك الا تشعرني بالذنب ازاء هذا الامر. ان الشيء الذي يستحق اللوم هو الجهل في اعماقي بكل ما يخفي طبيعتي الحقيقية. لو كنت اصغر سنا بعشر سنوات، لو لم اشاهد الكثير وانا في هذا السن وهذا المجتمع الذي لا اتعاطف واياه، فمما لا ريب فيه انني سأكون سعيدا والانسة فريمان. كانت غلطتي متمثلة في انني نسيت اني في الثانية والثلاثين لا في الثانية والعشرين.

لهذا سأقوم في وقت مبكر من يوم غد برحلة عذاب الى بلدة لايم. وستقدرين ان تحقيق غرضها هو الفكرة المستحوذة على ذهني في هذه اللحظة. غير ان واجبي في ذلك الصدد قد انتهى، وستكون جل افكاري متجهة اليك، لا بل الى مستقبلنا. انا لا اعرف اي قدر غريب هذا الذي رمان اليك. لكن، بمشيئة الله، لن يأخذك شيء مني الا اذا كنت انت ترغيبين في ذلك. لا تدعيني اقول شيئا الان، يا لغزي الحبيب، اكثر من انك مضطرة الى تقديم ادلة وحجج اقوى بكثير مما قدمته

حتى الان. انا لا استطيع ان اصدق انك ستحاولين ذلك. فقلبك يعرف انني ملكك وسأدعوك ملكي.

اهناك ضرورة، يا عزيزتي، يا عزيزتي سارة، لاطمئنتك الى ان اغراضي من الان فصاعدا انما هي اغراض شريفة؟ هناك الف شيء اود ان اسألك عنه، الف اهتمام اوجهه اليك، الف متعة امنحك اياها، لكن مع الاخذ بعين الاعتبار دوما اي اصول تقتضيها رقتك.

انا الذي لن يعرف السكينة ولا السعادة حتى يطوقك بذراعيه ثانية»

«ش. س»

«ملاحظة: لدى اعادة قراءة ما كتبت وجدت نوعا من المخاطبة الرسمية التي لا يقصدها فوادي. اغفري لي. انت قرية جدا وغريبة رغم ذلك، انني لا اعرف كيف اعبر عما احس به حقا».

«المولع بك: ش»

لم يتم الوصول الى هذه الرسالة المتصاعدة الى الذروة الا بعد العديد من المسودات. واذ ذاك بات الوقت متأخرا فغير تشارلز من رأيه بخصوص ارسالها على الفور. لا بد انها الان قد بكت بكاء مرا حتى رقدت. سيجعلها تتعذب ليلة مظلمة اخرى، غير انها ستستيقظ فرحة. اعاد قراءة الرسالة مرات ومرات. كانت تشوبها نغمة سبق لها ان استخدمها قبل يوم واحد او يومين في الرسائل المرسلة من لندن الى ايرلستان، غير ان كتابة هذه الرسائل كانت هي العذاب بعينه، الاستسلام للتقاليد، وهذا ما يفسر سبب كتابته تلك الملاحظة. كان لا يزال يشعر انه غريب عن نفسه مثلما اخبر سارة تماما. الا ان هذا الشعور يمتزج الان بمتعة مخيفة دفعت به الى ان يتحدث الى وجهه في المرأة. شعر بشجاعة فائقة في نفسه، حاليا ومستقبلا، وتفردا، وانه انجز عملا لا مثيل له. ثم هناك رغبته: فهو منطلق في رحلة ثانية، رحلة تضاعفت لذتها بالسرفيقة الموعودة. حاول ان يتخيل صورا غير معروفة عن سارة؛ سارة وهي تضحك، سارة وهي تغني، سارة وهي ترقص. يصعب تصور ذلك، لكنه ليس مستحيلا... تذكر تلك الابتسامة التي اوشك عندها ان يكشفهما سام وماري. كانت ابتسامة عرّافة، التوقع بالمستقبل. وفي ذلك الوقت، جعلها تنهض من على ركبتها - يالها من متعة طويلة، لا تنتهي، سيفعل ذلك الان في حياتهما معا!

اذا كانت هذه هي الاشواك والحجارة التي تهدده، فانه يستطيع تحملها. وعلى الرغم من ذلك، فقد فكر في شوكة واحدة صغيرة: سام. الا ان سام يمكن الاستغناء عنه مثل كل الخدم.

كما يمكن استدعاؤه. لقد استدعي في ساعة مبكرة تدعو الى الدهشة. ووجد تشارلز مرتديا مَبْدَلَه وفي يديه رسالة مغلقة ورزمة صغيرة.

- ارجو ان تأخذ هذه الاشياء الى العنوان المثبت فوق الظرف يا سام. عليك الانتظار عشر دقائق لتطمئن الى وجود رد. اذا لم يكن هناك اي رد - وانا لا اتوقع اي رد، لكن انتظر لعل وعسى - اذا لم يكن هناك اي رد، عليك الحضور الى هنا مباشرة، لاستئجار عربة سريعة اذ سنذهب الى بلدة لأم. ثم اضاف.

- لكن بلا حقائب، اذ سنعود الليلة الى هنا!

- الليلة يا سيد تشارلز! انني ظننت...

- لا يهم ما ظننت! نفذ ما قلته لك!

تظاهر سام بمظهر الخادم وانصرف. وفي حين كان يهبط السلام الى الطابق السفلي اتضح عنده ان مركزه لا يُطاق. كيف يستطيع خوض معركة بلا معلومات؟ بمثل هذه الشائعات الكثيرة المتناقضة المتوفرة عند العدو؟ حدّق الى الظرف في يده. كان العنوان صارخا: الانسة وودراف، فندق اسرة انديكوت. ثم يوما واحدا في بلدة لأم؟ في حين تنتظر حقائب السفر هنا؟ قلب الرزمة الصغيرة في يده، وضغط على الظرف. بدت سمكة. ثلاث صفحات اخيرا. اختلس نظرة من حواليه، ثم فحص الختم. لعن سام الانسان الذي اخترع الشمع.

الان يقف ثانية قبالة تشارلز الذي ارتدى ثيابه.

- حسنا؟

- لا رد يا سيد تشارلز.

لم يستطع تشارلز السيطرة على ملامحه، فاشاح وجهه جانبا.

- والعربة؟

- على استعداد وفي الانتظار يا سيدي.

- حسنا جدا. سأنزل قريبا.

انصرف سام. وما ان اغلق الباب حتى رفع تشارلز يديه الى رأسه، ثم بسطهما الى الجانبين كأنه يخاطب جمهورا، كأنه ممثل يتلقى التصفيق، وقد ارتسمت ابتسامة العرفان والتقدير على شفتيه. فلدى اعادة قراءة رسالته في الليلة السابقة للمرة التاسعة والتسعين، اضاف ملاحظة ثانية، وكانت تخص المشبك الذي شاهدناه في يدي ايرنستينا. تضرع الى سارة ان تقبله، وعلى نحو ما، فإن قبولها به كان يعني قبولها اعتذاره عن سلوكه. وقد انتهت الملاحظة الثانية على هذا النحو.

«سينتظر حامل الرسالة حتى تفرغي من القراءة. واذا ما يتعين عليه ان يعيد الرزمة... غير انني اعرف انك لست بهذه القسوة».

على الرغم من ذلك، فقد كان المسكين يتعذب في غياب سام.

ها هو سام ثانية، يثرثر بصوت خفيض، ويلقي بنظرات معذبة متواصلة. المشهد في ظلال احراش الليلك النامية خارج باب المطبخ في حديقة الخالة ترانتر، موفرة بذلك حازا ضمن الحديقة حسب. تميل شمس العصر من خلال الاغصان والبراعم البيض. المستمع هو ماري، وقد توردت وجنتاها، في حين غطت يدها فمها باستمرار.

- ليس ممكنا. ليس ممكنا.
- انه عمه. لقد دفعه الى الجنون.
- لكن السيدة الشابة... اه ما الذي ستفعله الان يا سام؟
- رفع الاثنان بصرهما الى اعلى بذعر، صوب النوافذ التي تعلو فوق الاغصان، كأنهما اعتقدا انهما سيسمعان صرخة او يشاهدان جسدا يهوي.
- نحن يا ماري. ما الذي سنفعله؟
- اوه. يا سام. ليس من الانصاف...
- احبك يا ماري.
- اوه يا سام.
- ليس الامر سيئا. انني سأموت حالما افقدك.
- اوه، ماذا سنفعل؟
- لا تبكي يا حبيبتي، لا تبكي. لدي ما يكفي في الطابق العلوي. انهما ليسا بافضل منا.

- امسك بها من ذراعيها.
- اذا كان عليّ ان اختار بينك وبينه، فاني اختارك انت.
- تصالب مثل جندي يوشك ان يطلق النار.
- سأتحلى عن خدمته.
- سام!
- سأتحلى، وسأعمل في نقل الفحم، في اي شيء.
- وماذا بشأن نقودك؟ الن يعطيك اياها بعد الان؟
- انه لا يملك النقود كي يعطيها.
- نظر نظرة مريّة الى ذعرها، غير انه ابتسم وبسط يديه.
- هل لي في ان اخبرك من نحن؟ لو احسنّا انا وانت لعب اوراقنا؟

وصلا بلدة لائم قبل الساعة الثانية تماما. وبعد دقائق معدودة، كان تشارلز قد وضع يده على الغرفة التي حجزها. ثم شرع يذرع الغرفة جيئة وذهابا، معذبا عذابا فكريا هذه المرة، وململا اطراف شجاعته ومتأهبا لمواجهة المقابلة المنتظرة. استبدَّ به الرعب الوجودي ثانية، لعله كان يعرف به ولهذا فانه قطع على نفسه سبيل الرجعة بارساله تلك الرسالة الى سارة. كرر ثانية العبارات الالف التي صاغها في رحلته من اكستر، الا انها طارت من ذهنه مثل اوراق الخريف. اخذ نفسا عميقا، ثم حمل قبعته وخرج.

فتحت ماري الباب وهي تبسم ابتسامة عريضة حال رؤيته فما كان منه الا ان مارس وقاره عليها.

- مساء الخير، هل الانسة ايرنستينا موجودة في البيت؟

قبل ان تتمكن من الاجابة ظهرت ايرنستينا في اقصى الردهة، وهي تبسم ابتسامة صغيرة.

- لا. خرجت سيدتي لتناول الغداء، لكن في وسعك الدخول.

توارت عن الانظار في حجرة الجلوس، وناول تشارلز قبعته الى ماري، وعدل ياقة سترته، وتمنى لو انه ميت، ثم اجتاز الردهة صوب محنته. التفتت ايرنستينا اليه وهي تحت نور الشمس قرب النافذة المطلة على الحديقة.

- تلقيت رسالة من بابا هذا... تشارلز! تشارلز! ما الخطب؟

تقدمت صوبه في حين لم يتمكن من النظر اليها بل حدق الى السجادة. توقفت والتقت عيناها المذعورتان بعينيه القلقتين المرتبكتين.

- تشارلز؟

- اتوسل اليك ان تجلسي.

- ماذا حدث؟

- هذا ما اتيت لاجله.

- لم تنظر الي هذه النظرة؟

- لاني لا اعرف كيف ابدا الكلام الذي يتعين عليّ قوله.
مدّت يدها من ورائها وهي تنظر اليه، وجلست فوق كرسي قريب
من النافذة. لا يزال لائذا بالصمت. لمست رسالة موجودة فوق المنضدة المجاورة
لها.

- ان بابا...

الا ان نظرتة السريعة جعلتها تتوقف عن اكمال عبارتها.

- كان هو العطف بعينه... الا انني لم اخبره بالحقيقة.

- الحقيقة؟... اي حقيقة؟

- حقيقة انني توصلت بعد ساعات كثيرة من التأمل العميق والمؤلم الى نتيجة
مفادها انني لستُ جديرا بك.

شحب لون وجهها، وظن انها ستقع مغشيا عليها، فتقدم الى الامام ليمسك
بها، الا انها مدت يدها ببطء الى ذراعها الايسر كأنما لتشعر انها لا تزال يقظة.

- انت تمزح يا تشارلز.

- انا لا امزح البتة.

- انت لست جديرا بي؟

- لستُ جديرا تماما.

- وانك... اوه. هذا كابوس.

رفعت بصرها اليه، ونظرت غير مصدقة، ثم ابتسمت مذعورة.

- لقد نسيتُ برقيتك. انت تمزح.

- انت لا تعرفين الا القليل عني اذا ما ظننت ان في وسعي المزاح في مثل هذه
المسألة.

- لكن... لكن... برقيتك!

- ارسلتها قبل اتخاذ قراري.

في حين خفض عينيه بدأت اذ ذاك تقبل الحقيقة، لقد عرف مسبقا انها لا بد
ان تكون اللحظة الحاسمة، لو اغمي عليها، او اصابتها الهستيريا... الا انه لم يعرف،
لكنه نفر من الالم ولن يفوت الاوان قبل ان يعترف، ان يقول كل شيء، ان يرمي
نفسه طالبا رحمتها. لكن على الرغم من ان عيني ايرنستينا ظلتا مغلقتين لحظة طويلة

فإنها لم تغب عن الوعي. فهي ابنة أبيها وربما تمنت لو أنها فقدت الوعي؛ إلا أن مثل هذا الخداع الكبير لـ...

- إذا أرجوك فسر لي ماذا تعني.

انتابته لحظة ارتياح. لقد أصيبت بجرح، لكنه ليس جرحاً قاتلاً.

- هذا ما لا أستطيع قوله بجملة واحدة.

حدقت إلى يديها على نحو مرير.

- إذا استخدم جملاً كثيرة ولن أقطعك.

- كنت ولا أزال أكن لك احتراماً وعاطفة شديدين. ولم أشك لحظة أنك

ستكونين زوجة مثيرة للاعجاب لأي رجل يكون محظوظاً بما فيه الكفاية لنيل

حبك. إلا أنني كنت أيضاً أدرك دوماً وخجلاً أن جزءاً من تقديري لك يفتقر إلى

النبيل. أنني أشير إلى الثروة التي ستأتين بها والحقيقة بأنك طفلة وحيدة. لقد شعرت

دوماً في أعماقي يا إيرنستينا أن حياتي بلا هدف، بلا إنجاز، لا. أرجوك استمعي إليّ

حتى النهاية، لما أدركت في الشتاء الفائت أنك قد ترحبين بعرض الزواج، فإن

الشيطان اغواني. ووجدت بالزواج هذا فرصة لإعادة الإيمان إلى نفسي. أتوسل

إليك ألا تظني أنني أسير قدماً وفي ذهني حسابات جاهزة. لقد طبت لي كثيراً،

واعتقدت اعتقاداً مخلصاً أن هذا سيتحول إلى حب.

ارتفع رأسها ببطء، وتفرست فيه غير أنها ظهرت غير قادرة على رؤيته.

- لا أستطيع أن أصدق أن الذي أسمعه هو أنت. إنه دجال، قاس، بلا قلب

هذا...

- اعرف أن هذا سيكون بمثابة صدمة بالغة.

- صدمة!

بان الاهتمام على ملامحها.

- عندما تقف بمثل هذا الهدوء ورباطة الجأش - لتقول لي أنك لم تحبني!

رفعت صوتها في حين اتجه هو صوب إحدى النوافذ المفتوحة فاغلقها.

وتحدث برفق على مقربة من رأسها المحني، دون أن يضل طريقه.

- أنا لا أبحث عن أي عذر. كل ما أريده هو أن أوضح لك أن جريمتي لم

تكن جريمة محسوبة. ولو كانت كذلك، كيف كان في وسعي أن أفعل ما فعله

الان. ان رغبتى الوحيدة تتمثل في جعلك تدركين انني لم اخدع احدا سوى نفسي.
سمني ما شئت: جبان، اناي... اي شيء تريدن سوى غليظ القلب.
اخذت نفسا صغيرا مرتعشا.

- ما الذي دفعك الى هذا الاكتشاف العظيم؟
- ادراكي الذي لا اتصل من شناعته بأني اصبحت بخيبة امل عندما لم يفسخ
والدك خطبتنا.

نظرت اليه نظرة فظيعة.
- احاول ان اكون نزيها. وهو لم يكن في غاية الكرم في موضوع ظروفى
المتغيرة، بل اقترح ان عليّ يوما ما ان اصبغ شريكه في العمل.
تألق وجهها ثانية.

- عرفت ذلك. عرفت ذلك. السبب هو انك ستتزوج زواج تجارة. الست
على حق؟
التفت الى النافذة.

- لقد قبلت ذلك تماما. على اي حال - ان الاحساس بالعار من والدك من
شأنه ان يكون تعاليا قبيحا.

- ان الحديث عن الاشياء لا يجعل المرء اقل ذنبا.
- لو اعتقدت بانني راجعت هذا العرض الجديد، فانت على حق تماما. الا ان
الرعب كان بسبب عدم استحقاقى ما كان يخططه لي - لا المقترح نفسه. الان
دعيني افرغ من ايضاخى.

- ذلك يحطم فؤادى.
التفت صوب النافذة.

- لنحاول ان نتمسك بذلك الاحترام الذي كان دائما يشدنا الى بعضنا
البعض. عليك الا تظني انني فكرت في نفسي فقط في هذا كله. ان الذي يستبد
بى هو الظلم الذي سالقه بك - وبابيك - عندما اتزوجك بلا الحب الذي
تستحقين. لو كنت انا وانت شخصين مختلفين - الا اننا لسنا كذلك، فنحن
نعرف بنظرة، بكلمة، فيما اذا كان حبنا متبادلا...

تمت.

- ظننت اننا كنا نعرف.

- يا عزيزتي ايرنستينا، الامر يشبه الايمان. في وسع المرء ان يتظاهر بانه يملكه،
الا ان التظاهر سينتهي وينكشف امره. انني معتقد كل الاعتقاد بانك لو بحثت في
قلبك لوجدت ان تلك الشكوك الواهية قد انتابته. مما لا ريب فيه انك كتمت هذه
الشكوك وقلت انه...

غطت اذنيها، ثم مررت اصابعها فوق وجهها، ثم صمت. ثم قالت:

- افي وسعي الكلام الان؟

- مؤكدا.

- اعرف انني لم اكن لك سوى قطعة صغيرة جميلة من اثاث غرفة الاستقبال.
اعرف انني بريئة. اعرف انني مدللة. اعرف انني لست استثنائية. لست هيلين بطة
طروادة او كليوباترة. اعرف انني اتفوه أحيانا باشياء تزعج سمعك، انني اثير سامك
فيما يخص الترتيبات المنزلية، انني اجرح مشاعرك عندما اسخر من متحجراتك.
ربما لست سوى طفلة. الا انني اعتقدت انني سأصبح افضل في ظل حبك
وحمايتك... وثقافتك... لا بد لي ان اتعلم كي اسعدك، لا بد لي ان اتعلم كي
اجعلك تحبني لما آلت اليه نفسي. ربما لا تعرف ذلك، لا تستطيع ان تعرف ذلك،
لكن هذا هو السبب الذي جذبني اول مرة اليك. انت تعرف ان مائة رجل غيرك
قد حام من حولي؛ لم يكونوا كلهم من الباحثين عن الثروة او التافهين. انا لم
اخترك لانني كنت من البراءة بحيث اعجز عن عقد اي مقارنة، بل لانك ظهرت
اكثر كرما وحكمة واكثر خبرة. اذكر انني كتبت بعد خطوبتنا انك لا تؤمن
بنفسك الا قليلا - وساحضر يومياتي ان كنت لا تصدقني. لقد احسست بذلك.
انت تعتقد انك انسان فاشل، تعتقد انك محتقر، انا لا اعرف... هذا ما اردت ان
يكون هدية زواجي الحقيقية لك: الايمان بنفسك.

ران صمت طويل، في حين ظلت مطرقة.

تكلم بصوت خفيض.

- انت تذكّرني بفداحة خسارتي. والاسفاه، انني اعرف نفسي اكثر مما

ينبغي. ولا يستطيع المرء ان يبعث الى الحياة شيئا غير موجود.

- اهذا ما يعنيه كلامي كله لك؟

- انه يعني الشيء الكثير، الشيء الكثير جدا لي.

التزم الصمت، على الرغم من انها توقعت ان يقول ما هو اكثر من ذلك، ولم يتوقع هو منها مثل هذا الضبط للنفس. لقد تأثر، وشعر بالحزي، لما تفوّهت به، ولم يستطع هو ان يظهر اي احساس، لهذا التزم الصمت. كان صوتها ناعما، ومنخفضا.

- في ضوء الكلام الذي قلته لك، اليس في وسعك على الاقل... غير انها لم تعثر على الكلمات.

- ان اعيد النظر في قراري؟

لا بد انها سمعت شيئا ما في صوته لم يقصد هو ان يكون موجودا فيه، اذ نظرت اليه فجأة نظرة استغاثة متقدة. كانت عيناها مبللتين بدموع مكتومة، ووجهها شاحبا يدعو الى الرثاء ويسعى جاهدا الى الظهور بمظهر الهدوء المتوازن. شعر انه اشبه بسكين: الى اي حد جرحها!

- اتوسل اليك يا تشارلز ان تنتظر قليلا. صحيح انا جاهلة، لا اعرف ماذا تريد مني... اذا اردت ان تخبرني عن الشيء الذي اخفقت فيه... او عن الصورة التي تريد ان اظهر بها... فاني سأفعل كل شيء، كل شيء، لاني سأتحلى عن كل شيء كي اجعلك سعيدا.

- يجب الا تتكلمي مثل هذا الكلام.

- بل يجب - فانا لا احتمل ذلك - بالامس فقط كانت تلك البرقية، لقد بكيت، قبلتها مئة مرة. يجب الا تظن بانني افتقر الى المشاعر العميقة لاني اناكد. من شأني...

بسد ان صوتها تلاشى كأن حَدَسا لاذعا غمرها. نظرت اليه نظرة قاسية قصيرة.

- انك تكذب. شيئا ما حدث منذ ارسلتها.

تحرك صوب الموقد، ووقف موليا ظهره اياها. بدأت بالبكاء. فوجد ذلك شيئا لا يطاق. اخيرا التفت ونظر اليها، متوقعا ان يراها محنية الرأس، الا انها كانت تبكي على نحو واضح وعيناها تنظران اليه. ولما رآته وهو ينظر اليها، أحدثت حركة كأنها شخص في حالة هلع، طفل ضائع، وأشارت بيديها، نصف واقفة،

وتقدمت خطوة، ثم خرّت على ركبتيها. وانتاب تشارلز احساس حاد بالنفور ليس منها بل من الموقف: من الحقائق المبتورة، من اخفائه الامر الجوهري. لعل اقرب تشبيه يتمثل في الشعور الذي ينتاب جراحا أحيانا امام ضحية معركة رهيبه او حادثه مؤسفة، اصرار هائل على المضي قدما في انجاز العملية - والا ماذا يمكن عمل غير ذلك؟ - ان يقول الحقيقة. انتظر حتى جاءت اللحظة التي توقفت فيها عن النشيج.

- اردتُ ان اجنّبك ذلك. نعم - شيء ما قد حدث.

نهضت على قدميها ببطء، ورفعت يديها الى وجنتيها دون ان تشيح عنه نظراتها.
- من؟

- انت لا تعرفينها، واسمها غير مهم.

- وهي... انت...

اشاح بوجهه عنها.

- لقد عرفتها منذ سنوات طويلة، وظننت ان الصلة قد انقطعت، الا انني اكتشفت في لندن ان الامر ليس كذلك.
- اتحبها؟

- احبها؟ لا ادري... مهما كان الامر، فإنه يجعل تقلص المرء قلبه بجرية الى الاخر شيئا مستحيلا.

- لم احجمت عن اخباري بهذا الموضوع في البداية؟
خُصم صمت طويل. فلم يستطع احتمال عينيها اللتين كانتا تتوغلان في كل كذبة يتفوه بها.
وتمتم.

- كنت ارجو ان اجنّبك العذاب من وراء ذلك.

- او تجنب نفسك الشعور بالخزي. انك... انك وحش.

هالكت على كرسيها وهي تنفرس فيه بعينيها الواسعتين. ثم وضعت وجهها بين كفيها، فتركها تبكي، وحدث على نحو صارم الى حروف من الخزف الصيني فوق رف الموقد. ولم يشاهد ثانية حتى موته حروفا من الخزف الصيني الا وشعر بالتقزز من نفسه. ولما تكلمت اخيرا، كان كلامها قويا على نحو جعله ينجح.

- اذا لم اقتل نفسي فإن العار سيقتلها.
- انا لا استحق لحظة ندم واحدة، وستصادفين رجالا اخرين... لم تحطمهم الحياة، رجالا نزيهين سوف...
- توقف قليلا ثم انفجر قائلاً.
- اقسمي بكل المقدسات التي تؤمنين بها على الا تقولي ذلك ثانية.
- نظرت نظرة عنيفة اليه.
- اتظن انني سأغفر لك؟
- هز رأسه بالنفي.
- والسداي، اصدقائي، ماذا سأقول لهم؟ ان السيد تشارلز سميثسون قرر رغم كل شيء ان خليلته اهم من شرفه، وعده، و... .
- تناهى الى سمعه صوت ورقة تتمزق. وادرك دون ان يلتفت انها صبت جام غضبها على رسالة ايها.
- اعتقدتُ انها خرجت نهائيا من حياتي. ثم ظروف غامضة...
- صمت: كأنها فيما اذا كانت ستنهال بالنقد عليه. وفجأة لاح صوتها هادئا، حقودا.
- لقد نكثت بوعدك. وهناك علاج لبنات جنسي.
- لك الحق كله في اتخاذ مثل هذه الاجراء. ولا يسعني الا الاعتراف بذنبي.
- سيعرف العالم حقيقتك. هذا كل ما يهمني.
- سيعرف العالم، رغم كل ما يحدث.
- مرت في ذهنها ثانية جسامه غلظته، وظلت تهرز رأسها، فما كان منه الا ان اخذ كرسيه وجلس قبالتها، ابعد من ان يستطيع لمسها، ولكن على مقربة تكفي كي يخاطب نفسها الطيبة.
- افي وسعك الافتراض لحظة واحدة انني لم اعاقب؟ ان هذا لم يكن افظع قرار في حياتي؟ وهذه الساعة ابشع ساعة؟ الساعة التي سأذكرها بأعمق مشاعر الندم حتى مماتي. ربما اكون... حسنا... اكون مخادعا. الا انك تعرفين انني لست بلا قلب. لو كنت كذلك لما رأيتني هنا الان. كان في وسعي ان اكتب رسالة، ان اهرب الى خارج البلاد...

- اتمنى لو انك فعلت ذلك.

نظر الى قمة رأسها نظرة مطولة، ثم نهض واقفا. لمح نفسه في مرآة. وبدأ الانسان في المرأة. تشارلز في عالم اخر، هو النفس الحقيقية. اما الانسان في الغرفة فهو دجال، كما وصفته، لقد كان دوما دجالا في علاقته بايرنستينا، انسان اخر مُراقب. واخيرا بدا احدى خطبه المعدة مسبقا:

- لا استطيع توقع اي شعور منك سوى الغضب والاشمزاز. كل ما اطلبه منك هو ان تتذكري عند تلاشي هذه المشاعر ان اي ادانة لتصرفي يمكن ان تُساوي قسوتها قسوة ادانتي... وان عذري الوحيد هو عدم قدرتي طويلا على خداع الانسان الذي تعلمت ان احترمه واعجب به.

بدا كلامه مزيفا. بل كان مزيفا. وادرك تشارلز على نحو لا يبعث على الارتياح احتقارها اياه.

- احاول ان اتصورها. اعتقد انها ذات لقب... لو انني اصغيت لوالدي العزيز المسكين!

- ماذا يعني ذلك؟

- انه يعرف الشهامة. وله عبارة معروفة في ذلك - اخلاق رفيعة وقوائم غير مدفوعة.

- الست شهما؟

- انت مثل عمك، تتصرف كان مقامك يسوِّغ كل الاهتمام بما نعتقد به نحن ابناء هذا العالم العاديين. وينطبق الامر عليها ايضا. اي امرأة يمكنها ان تكون بمثل هذه الوضاعة فتدفع رجلا الى النكث بعهدته؟ في وسعي ان اُخمن.

وتفوهت بتخمينها.

- انها امرأة متزوجة.

- لن اناقش هذا الموضوع.

- اين هي الان؟ في لندن؟

حشد الى ايرنستينا لحظة واحدة، ثم استدار على عقبيه وسار صوب الباب، فنهضت واقفة.

- سيلطخ والدي اسمك بالعار، اسمك واسمها، بالوخل وسيحتقرك ويزدريك كل الذين يعرفونك. وسيتعقبونك حتى تخرج من انكلترا، وسوف...

توقف قرب الباب، وفتحه، فدفعها ذلك الى التوقف، او دفعها استحالة التفكير في عار يكفيه. كان وجهها يضطرب، كأنها ارادت ان تقول ما هو اكثر من ذلك، الا انها لم تستطع. تمأملت، ثم نطقت ذاتها النقيضة باسمه، كأن الامر بمثابة كابوس، وتمنت الان لو قيل لها انها قد استيقظت منه.

لم يتحرك من مكانه. ترئحت ومن ثم انفارت فجأة على الارض قرب كرسيها. كانت حركته الغريزية الاولى هي ان يذهب اليها. الا ان شيئاً ما اوقفه، شيئاً ما يخص الطريقة التي سقطت بها على الارض والعناية الشديدة التي تكورت بها وانزلاق جسدها الى الجانب فوق السجادة.

حدق لحظة الى الجسد المنهار، وادرك انها اصببت بالاغماء. وقال:

- ساكتب رسالة الى والدك على الفور.

لم يصدر عنها اي اشارة، بل ظلت مستلقية، مغمضة العينين، باسطة احدى يديها على نحو يثير الشفقة فوق السجادة. تقدم صوب جبل الجرس المجاور للموقد وجذبه بقوة، ثم سار صوب الباب المفتوح، وغادر الغرفة حالما سمع صوت وقع اقدام ماري. هرولت الخادمة وهي ترتقي السلام فأشار تشارلز الى حجرة الجلوس.

- لقد اصببت بصدمة. يجب الا تغيب عنها لاي سبب كان. ساذهب لاحضار الطبيب غروغان.

لاحت ماري لبرهة وجيزة كأنها توشك ان تفقد وعيها، فوضعت يدها فوق حاجز السلام، وحملت في تشارلز بعينين ذاهلتين.

- فهمت؟ لا تتركها لاي سبب كان.

أومات، وأحنت رأسها، الا انها لم تحرك ساكناً.

- لقد اغمي عليها لا اكثر. خففي من ثيابها.

دلفت الخادمة الى الحجرة بعد ان نظرت اليه نظرة رهيبة اخرى. انتظر تشارلز بضع ثوانٍ، فسمع انينا خافتا، ثم سمع صوت ماري.

- أوه، يا انسة، يا انسة. انا ماري. سيأتي الطبيب يا انسة. لا بأس يا انسة. لن اتركك.

هنا رجع تشارلز الى الغرفة فشاهد ماري جاثية على ركبتيها، وقد رفعت
ايرنستينا قليلا الى اعلى. كان وجه الانسة يواجه صدر الخادمة. رفعت ماري
بصرها الى تشارلز: هاتان العينان المفعمتان بالحوية تمنعاه من المراقبة او البقاء، فقبل
حكمهما الصريح.

كما نكرت، فقد استمرت العادات الاقطاعية المتأصلة الخاصة بالاختصاص والادعاء زمانا طويلا في احداث اثرها البالغ في الطبقة العاملة. اما الان، فقد عملت الروح الحديثة على اذابة هذه العادات ذوبانا تاما تقريبا... وعلى نحو مطرد، اخذ هذا الرجل وذاك، هذه المجموعة وتلك من الرجال، يعمل وفي جميع ارجاء البلاد على تأكيد وتطبيق حق الرجل الانكليزي في فعل ما يشاء: حقه في السير حيث يشاء، يلتقي حيث يشاء، يدخل حيث يشاء، يطلق البوق كما يشاء، يهدد كما يشاء، يحطم كما يشاء. ان هذا كله يقود الى الفوضى.

ماثيو ارنولد: الثقافة والفوضى 1869

من دواعي الرحمة ان الطبيب غروغان لم يكن في واحدة من جولاته المهنية لزيارة المرضى. وقد رفض تشارلز دعوة مدبرة البيت للدخول، واثّر الانتظار على عتبة الباب حتى جاء الطبيب القصير القامة مُسرعا للقاءه؛ وبإشارة من تشارلز خطا خارج الباب كي لا يسمع احد حديثهما.

- لقد فسخت توا خطوبتي، وهي في حالة قلق شديد. اتضرع اليك الا تسألني عن اي تفسير - وارجو ان تذهب الى شارع برود دون تأخير.

القي غروغان نظرة ذاهلة الى تشارلز من فوق نظارته، ثم عاد الى داخل المنزل دون ان ينطق كلمة واحدة، وبعد ثوان معدودة، ظهر من جديد ومعه قبعته وحقيته الطبية، وعلى الفور بدأ الاثنان سيرهما.

- ليست...؟

اوما تشارلز، وعلى الفور لاح الطبيب القصير القامة مذهولا على نحو لا يقوى معه على الكلام. سارا مسافة عشرين او ثلاثين خطوة.

- انها ليست كما تظن يا غروغان، انا متأكد من ذلك.

- ليس عندي اي كلام يا سيمشون.

- لا ابحث عن عذر.

- اهي تعرف؟

- ان هناك امرأة اخرى. لا اكثر.

استدار عند الناصية، وشرعا يصعدان شارع برود.

- لا بد لي ان اسألك عدم الافصاح عن اسمها.

نظر اليه الطبيب نظرة جانبية قاسية.

- من اجل الانسة وودراف، لا من اجلي.

توقف الطبيب فجأة.

- في ذلك الصباح - افهم ان...؟

- ارجوك اذهب الان. سأنتظر في الحانة.

الا ان غروغان ظل يحدق اليه كأنه هو الاخر لا يستطيع ان يصدق انه ليس واقعا تحت وطأة كابوس. تحمّل تشارلز النظرة لحظة، ثم اشار الى الطبيب بالاستمرار في طريقه بينما عبر هو الشارع واتجه صوب فندق وايت لاين.

- عجباً يا سميثسون...

استدار تشارلز لحظة، وتحمل نظرة الايرلندي الغاضبة، ثم واصل السير في طريقه دون كلمة. كذلك فعل الطبيب على الرغم من انه لم يترك تشارلز يغيب عن عينيه حتى توارى عن الانظار تحت مظلة الامطار.

عاد تشارلز الى غرفته، في الوقت المحدد ليرى الطبيب، وقد دخل بيت الخالة ترانتر. فدخل واياه روحيا. شعر انه مثل يهوذا، مثل كل خائن غدار منذ بدء الزمان. الا انه تخلص من عذاب الذات لما سمع طريقة على الباب. وظهر سام.

- ماذا تريد؟ فانا لم اقرع الجرس.

فتح سام فاه الا ان اي كلمة لم تصدر عنه. فلم يستطع تشارلز تحمل تلك النظرة.

- بما انك قد حضرت فأتني بكأس من الشراب المفضل.

لم يكن ذلك سوى اللعب بالوقت. اذ حضر الشراب، ورشفه تشارلز. مرة اخرى اضطر الى مواجهة نظرة خادمه.

- ليس صحيحا يا سيد تشارلز؟

- اذهبت الى البيت

- نعم يا سيد تشارلز.
- اتجه تشارلز صوب النافذة الناتئة المطللة على شارع برود.
- نعم، صحيح. لن نتزوج انا والانسة فريمان. اغرب عني الان، ولا تتكلم.
- لكن... يا سيد تشارلز... انا وماري؟
- فيما بعد، فيما بعد. لا استطيع التفكير في مثل هذه الامور الان.
- كرع ما تبقى في الكأس من شراب، ثم اتجه صوب منضدة الكتابة، واخرج ورقة.
- مرت بضع ثوان، فلم يتحرك سام، او ان قدميه لم تتحركا. وشوهد حلقه متورما.
- اسمعتَ ما قلت؟
- كانت نظرة سام حادة غريبة.
- نعم يا سيدي. لا بد لي من التفكير في حالي، مع شديد احترامي.
- استدار تشارلز من مكانه.
- ما الذي يعنيه هذا؟
- هل ستقيم في لندن من الان فصاعدا.
- امسك تشارلز القلم.
- من المحتمل جدا ان اسافر الى خارج البلاد.
- واذاً ذاك اتوسل اليك يا سيدي بالا ارافقك.
- وثب تشارلز من مكانه.
- كيف تجرؤ على مخاطبتي على هذا النحو السفيف، اللعين! اخرج!
- وهنا اصبح سام هو الدجاجة الثائرة.
- لن اخرج قبل ان تسمعي. لن اذهب ثانية الى اكستر وسأخلو عن خدمتك.
- (سام)!!!
- كانت صرخة غضب.
- وهو ما كان ينبغي لي ان افعله...
- اغرب!
- انتصب سام، وكان على استعداد لأن يضرب سيده (كما قال فيما بعد لماري) بيد انه سيطر على غضبه اللندني، وتذكر ان السيد يستخدم اسلحة مهذبة.
- لهذا اتجه صوب الباب وفتحه، ومن ثم نظر نظرة متعالية الى تشارلز.

- انا لا احب اي مكان يا سيدي التقي فيه بصديق مثلك.
ثم اغلق الباب على نحو لا يخلو من الافتقار الى الرقة البالغة. اتجه تشارلز صوبه، وفتح به قوة ورأى سام وهو يسير اسفل الممر.
- كيف تجرؤ على هذا الكلام؟ تعال الى هنا!
استدار سام بهدوء.
- اذا اردت من يهتم بأمورك فما عليك سوى ان تقرر الجرس ليأتيك احد الخدم.

توارى سام عن الانظار من حول منعطف يؤدي الى الطابق السفلي بعد تلك الاطلاقه التي فرقتهما، وتركت تشارلز عاجزا عن الكلام. ولم تستمر تكشيرته طويلا لما سمع صوت الباب يغلق بعنف ثانية من فوق. لقد انصرف بعد ان فعلها. في الحقيقة، شعر انه مثل بحار انقطعت به السبل بعد ان شاهد سفينه تبهر بعيدا، الاسوأ من ذلك، كان يعرف سرا انه يستحق عقابه. اخشى ان الثورة لم تكن جريمته الوحيدة.

صبّ تشارلز جام غضبه على قدح الشراب الفارغ الذي طوح به في الموقد. لقد تذوق بهذا اول مرة طعم العلاج الحقيقي المر، ولم يعجبه. وكاد في لحظة هائجة ان يندفع خارج وايت -لاين - من شأنه ان يرمي نفسه تحت قدمي ايرنستينا، ان يعترف بالجنون، بالعذاب الداخلي، باختبار حبها... ظل يضرب قبضته في راحة يده. ما الذي فعله؟ ماذا سيفعل؟ اذا كان حتى خدمه يحتقرونه ويرفضونه؟

وقف ممسكا رأسه بيديه ثم نظر الى ساعته. لا يزال ينبغي له ان يرى سارة الليلة. ويكفيه منه وجهها الرقيق الهادئ، دموع الفرح الناعمة وهو يمسك بها. عاد ثانية الى منضدة الكتابة وشرع يكتب مسودة رسالة الى والد ايرنستينا. كان لا يزال منهمكا في كتابتها لما اعلن عن وصول الطبيب غروغان.

اوه، اصنعوا تابوتا لحبيبتى

من ذهب يشع بلون اصفر

وستدفن

على ضفاف الصفصاف الاخضر

اغنية شعبية من مقاطعة سمرست:

«على ضفاف الصفصاف الاخضر»

الشخص الحزين في هذا كله هو الخالة ترانتر. فقد عادت من تناول غداها متوقعة ان تلتقي تشارلز، وعوضا عن ذلك رأت بيتها وقد حلت به كارثة شاملة. ففي البداية حُتَّتْ ماري في الردهة، شاحبة، مرتكبة.

- ما الذي حدث ايتها الطفلة؟

لم تستطع ماري سوى هز رأسها متألّة. فُتِحَ باب في الطابق العلوي فما كان من السيدة الطيبة الا ان رفعت تنورتها، وشرعت ترتقي السلام مثل امرأة في نصف عمرها. وعلى فسحة الدرج، التقت الطبيب غروغان الذي سرعان ما رفع اصبعه الى شفّتيه. ولم يخبرها بحقيقة ما حدث الا بعد ان وصلا حجرة الجلوس وشاهد السيدة ترانتر وهي تجلس.

- لا يمكن ذلك، لا يمكن ذلك.

- سيدتي العزيزة. والاسفاه للمرة الالف... لكن هذا ممكن.

- لكن تشارلز... الرقيق، العطوف... لماذا؟ بالامس فقد كانت البرقية...

ولاحت كأنها لم تعد تعرف غرفتها، او وجه الطبيب الهادئ المطرق.

- سلوكه بشع ولا استطيع فهمه.

- لكن ما هي الاسباب التي قدّمها؟

- لم تتكلم. لا تقلقي. انها تحتاج الى النوم، وقد اعطيتها ما يؤكد ذلك. غدا

يتضح كل شيء.

- ليس كل شيء في العالم...

- بدات تبكي.
- اه يا سيدتي العزيزة. ابكِ فلا شيء يحرق المشاعر افضل من ذلك.
- عزيزتي المسكينة. ستموت كسيرة الفؤاد.
- لا اعتقد ذلك. لم اقرر بعد ان ذلك يسبب للموت.
- انت لا تعرفها كما اعرفها انا... اه... ماذا ستقول اميلي؟ ستكون غلطتي انا.
- كانت اميلي شقيقة السيدة فريمان.
- اعتقد انه ضروري ارسال برقية لها على الفور. ارجو ان تركي لي ذلك الامر لاتدبره شخصيا.
- اوه، يا للسماء - واين ستنام؟
- ابتسم الطبيب، الا ان ابتسامته كانت لطيفة لهذا الاستنتاج غير المتفق مع المقدمات. لقد اضطر فيما مضى الى معالجة مثل هذه الحالات، وكان يعلم ان افضل وصفة هي ضجة انثى لا تنتهي.
- الان، ارجو ان تصغي الي يا عزيزي السيدة ترانتر. يجب ان تتأكدي في الايام القليلة القادمة ان هناك رقابة على ابنة اختك ليل نهار. ولو ارادت ان تعامل معاملة المرضى، فما عليك الا ان تعاملها كذلك. ولو رغبت يوم غد ان تنهض وترحل عن بلدة لائم فما عليك الا ان تلبى طلبها. حاولي ان تجاري اهواءها. افهمت؟ انها شابة، وفي صحة ممتازة. وانا اضمن ان تصبح مريحة مثل عصفور مفرد بعد ستة اشهر.
- كيف يمكنك ان تكون بمثل هذه القسوة! انها لن تتمكن من التغلب على ذلك. ذلك الشرير... لكن كيف...
- مرت فكرة في ذهنها فمدت يدها، ولمست كم الطبيب.
- هناك امرأة اخرى.
- ضغط الطبيب غروغان انفه.
- هذا ما لا استطيع قوله.
- انه وحش.
- ليس وحشا، حتى انه لم يعلن عن ذلك. كما انه خسر رفيقة من شأن الكثير من الوحوش الطيبين ان يلتهموها بنهم.

- نعم. نعم. هذا امر يستوجب الشكر.
الا ان ذهنها تضاربت فيه المتناقضات.
- لن اغفر له البتة.
ثم خطرت لها فكرة اخرى.
- الا يزال في البلدة؟ سأذهب واخبره برأيي.
امسك بها من ذراعها.
- هذا ما يجب ان امنعه. لقد طلب بنفسه ان احضر الى هنا. وهو ينتظر كي
يعرف ان الفتاة لم تعد في خطر. سأراه. اطمئني الى انني سأقول كل شيء بصراحة.
وسأجلده بسبب ذلك.
- لا بد من جلده بالسوط ووضعه في آلة التعذيب. هكذا كانوا يفعلون بنا
عندما كنا صغارا. لا بد من عمل ذلك. يا للملاك المسكين.
ثم وقفت على قدميها.
- لا بد لي من الذهاب اليها.
- ولا بد لي من رؤيته.
- عليك ان تخبره نيابة عني انه دمر سعادة ارق واعذب...
- نعم، نعم، نعم... هداي من روعك الان. وحاولي ان تعرفي السبب الذي
يدفع الخادمة الشابة الى مثل هذا الحزن. ان من يراها يظن ان قلبها انفطر.
ودّعت السيدة ترانتر الطبيب حتى خرج، ثم كفكت دموعها، وارتقت
السلام، واتجهت صوب غرفة ايرنستينا. كانت الستائر مسدلة، الا ان ضوء النهار
كان ينساب من خلال الحواشي، في حين جلست ماري قرب الضحية، ونهضت لما
رأت سيدتها تدخل. كانت ايرنستينا نائمة نوما عميقا، وقد استقلت على ظهرها،
الا ان رأسها كان يميل الى احد الجانبين. كان وجهها هادئا، متماسكا على نحو
غريب، وانفاسها هادئة هي الاخرى، بل كان هناك ما يشير الى ابتسامة شاحبة
فوق تلك الشفتين. صدمت مفارقة ذلك الهدوء السيدة ترانتر ثانية، الطفلة العزيزة
المسكينة، عندما استيقظت... وثبت الدموع من مقلتيها. نهضت قليلا، وكفكت
دمعها، ونظرت الى ماري اول مرة. في الحقيقة، ان ماري بدت الان مثل نفس في
قعر المأساة، بدت على النحو الذي كان ينبغي ان تظهر فيه تينا، الا انها لم تظهر.

وتذكرت السيدة ترانتر كلمات الطبيب المتسمة بالشكوى الى حد ما لدى انصرافه. أومات الى الخادمة ان تلحق بها، وخرجت الاثنتان الى فسحة السلام، وتحديثا همسا والباب نصف مغلق.

- الان قولي لي ماذا حدث ايتها الطفلة.

- هبط السيد تشارلز السلام في حين كانت الانسة تينا مستلقية، وقد فقدت وعيها، وهرع الى الطبيب. فتحت الانسة تينا عينيها الا انها لم تقل شيئا فساعدتها في النهوض. لم اعرف ماذا افعل. كنت في غاية الرعب يا سيدتي. كانت تبدو وهي تضحك وتولول دون توقف. ثم قدم الطبيب غروغان وهدأ من روعها، اوه يا سيدتي.

- كفى بكاء يا ماري. كنت فتاة طيبة. لم تقل شيئا؟

- لا شيء سوى عندما صعدت السلام يا سيدتي وسألتني اين السيد تشارلز يا سيدتي فقلت لها انه ذهب ليستدعي الطبيب. هكذا كانت البداية يا سيدتي.

- صه، صه.

كان صوت ماري قد بدا يرتفع، وكانت هناك اعراض قوية تدل على انها مصابة بالهستيريا. على اي حال، كان لدى السيدة ترانتر دافع قوي للمواساة، لهذا طوقت ماري بين ذراعيها، وشرعت تربت على رأسها. على الرغم من انها بعملها هذا قد خرقت كل القوانين المناسبة فيما يخص العلاقة بين السيدة والخادمة. كان جسد الفتاة قد اضناه البكاء الحبيس الذي حاولت ان تسيطر عليه من اجل المعذبة الاخرى. واخيرا هدأت.

- الان ما الخطب؟

- انه سام يا سيدتي. انه في الطابق السفلي. لقد تكلم كلاما فظيحا مع السيد تشارلز يا سيدتي، وتخلي عن خدمته.

كظمت بكاء متأخرا.

- نحن لا ندري ما الذي سيحل بنا.

- كلمات فظة؟ متى حدث هذا ايتها الطفلة؟

- قبل مجيئك يا سيدتي، حسب تفسير الانسة تينا يا سيدتي.

- كيف حدث ذلك؟

- كان سام يعلم ان ذلك سيحدث، ان السيد تشارلز رجل شرير يا سيدتي.
اوه يا سيدتي. كنا نريد ان نخبرك يا سيدتي. الا اننا ما كنا لنجرؤ.
تناهت الى السمع صوت واهن من الغرفة. فاسرعت السيدة ترانتر وألقت
نظرة، الا ان الوجه ظل هادئا ينعم بنوم عميق. فخرجت ثانية الى الفتاة ذات الرأس
المحني.

- سأبدا المراقبة الان يا ماري، ولتحدث فيما بعد.

احنت الفتاة رأسها اكثر مما مضى.

- اتحبن سام هذا؟

- نعم يا سيدتي.

- ايجبك هو؟

- هذا هو السبب الذي جعله لا يرغب في الذهاب بمعية سيده يا سيدتي.

- قولي له ان ينتظر. لا بد لي من الحديث معه. وسنعث له على عمل. اذ ذاك

رفعت ماري وجهها الممتلئ بالدموع.

- انا لا اريد ان اتركك يا سيدتي.

- لن تركيني البتة ايها الطفلة حتى يوم زفافك.

انحنت السيدة ترانتر الى الامام، وقبلت جبينها، ثم ذهبت وجلست قرب

ايرنستينا في حين ذهبت ماري الى الطابق السفلي. ما ان وصلت الى المطبخ حتى

هرعت الى الخارج - تحت انظار الطاهية وازدراثها - واتجهت صوب ظلال

الليلك وذراعي سام القلقتين، التواقين في آن واحد.

اذ اتنا نرى الى اين اوصلنا نلك... الاصرار على الكمال في جزء واحد من طبيعتنا لا في كلها، انتقاء الجانب الاخلاقي، جانب الطاعة والفعل، لمثل هذا الاعتبار الحازم، تقييد للضمير الاخلاقي هو لحد الان الشيء الاساس، وتاجيل الاهتمام بموضوع الكمال في كل الامور منذ الان والى عالم اخر، تطور انسانيتنا تطوراً كاملاً ومتناسقاً.

ماثيو ارنولد: الثقافة والفوضى 1869

- استعادت وعيها؟

- جعلتها تنام.

سار الطبيب صوب الجهة الاخرى من الغرفة، ثم وقف واضعاً يديه وراء ظهره، محققاً الى ما وراء شارع برود حيث البحر.

- قالت... قالت شيئاً ما؟

هزّ الطبيب رأسه بالنفي دون ان يلتفت، ظل صامتاً برهة وجيزة ثم انفجر في وجه تشارلز:

- انني انتظر تفسيرك يا سيدي.

قدّم تشارلز تفسيره على نحو رديء دونما مبرر ذاتي جزئي. لم يتحدث عن سارة الا قليلاً، وكانت محاولته الوحيدة في تقديم العذر متمثلة في خداعه غروغان نفسه. صبّ اللوم في ذلك على اعتقاده بأن ايداع سارة اي مصحة عقلية من شأنه ان يكون ظلماً كبيراً. اصغى الطبيب بصمت رهيب، مركزاً. ولما فرغ تشارلز من كلامه، التفت الى النافذة.

- اتمنى لو كان في وسعي ان اتذكر ما هو العقاب الذي وصفه دانتى للذين يناقضون القوانين والمبادئ، واذ ذاك يصبح في مستطاعي ان اصفه لك.

- اظني سأتلقى ما يكفي من العقاب.

- هذا غير ممكن. ليس من خلال سجلي الخاص.

توقف تشارلز هنيهة.

- لم ارفض نصيحتك دون ان افتش كثيرا في فؤادي.
- السيد النبيل يبقى سيدا نبيلًا يا سميثسون عندما يرفض النصيحة. وهو لا يفعل ذلك لما يكذب.
- ظننتها ضرورية.
- مثلما اعتقدت ان اشباع شهوتك ضروري.
- لا اقبل بتلك الكلمة.
- الافضل لك ان تتعلم قبولها. فهي الكلمة التي سيلصقها العالم بسلوكك.
- تقدم تشارلز صوب المتضدة الوسطية، ووقف واضعا احدى يديه فوقها.
- اتريد مني يا غروغان ان اعيش حياة تعتمد على المظاهر؟ الا يكفي ان عصرنا كما هو مليء بنفاق معسول اللسان، بالتزلف لكل ما هو زائف في طبائعنا؟ اكنت تريد ان اضيف الى كل ذلك النفاق؟
- كنت اريد ان تفكر مليًا قبل ان تورط تلك الفتاة البريئة في بحثك عن معرفة الذات.
- افي وسعنا الهرب من سلطة تلك المعرفة لما تمنح لنا، بغض النظر عن المقت الذي تنم عنه تلك العواقب.
- اشاح الطبيب بوجهه الذي بانت عليه تكشيرة صغيرة صلبة. رأى تشارلز انه غاضب، متوتر، وفي حالة من الارتباك بعد الوعيد الاول، لا يدري كيف يتعامل مع هذا التحدي الرهيب للتقاليد الريفية. في الحقيقة، كان هناك صراع ناشئ بين غروغان الذي قضى ربع قرن من حياته حتى الان في بلدة لايم، وغروغان الذي طاف العالم. هناك اشياء اخرى: استلطافه تشارلز، رأيه الخاص - الذي لا يختلف كثيرا عن رأي السير روبرت، بأن ايرنستينا كانت شيئًا جميلًا صغيرًا، الا انها شيء تافه صغير ايضا. وهناك ايضا حادثة مدفونة منذ زمن طويل في ماضيه لا ضرورة لكشف طبيعتها الخاصة الا بقدر ما، جعلت اشارته الى الشهوة مسألة اقل موضوعية مما اراد بدرجة كبيرة. وظلت لهجته مؤنبة؟ بيد انه تجنب السؤال الاخلاقي الذي طُرح عليه.
- انا طبيب يا سميثسون. ولا اعرف سوى قانون واحد مهيمن. المعاناة كلها شر. ربما كانت ضرورية. الا ان ذلك لا يغير من طبيعتها الاساسية.

- لا ارى من اين هو منبع الخير، ان لم يكن من الشر. كيف يستطيع المرء ان يشيد ذاتا افضل ما لم يكن ذلك على انقاض الذات القديمة؟
- وانقاض تلك المخلوقة الشابة المسكينة المرمية على قارعة الطريق؟
- الافضل ان تعاني مرة واحدة، ان تتحرر مني، لا...
وهنا التزم الصمت.
- اه. انت متأكد من ذلك، اليس كذلك؟
- لم يقل تشارلز شيئا، فحدق الطبيب بالشارع.
- لقد ارتكبت جريمة، وعقوبتك هي ان تتذكرها طيلة حياتك. فلا تمنح نفسك الغفران. فالموت وحده هو الذي سيحلك من تلك التبعة.
- خلع نظارته، ومسحها بمنديل حريري اخضر اللون. ران صمت طويل، طويل جدا؛ وفي النهاية جاء صوته اخف حدة، الا انه ظل مؤنبا.
- هل ستتزوج الفتاة الاخرى؟
- زفر تشارلز زفرة ارتياح مجازي. فما ان دخل غروغان تلك الغرفة حتى ادرك ان توكيداتة الذاتية السابقة - بانه لا يهتم لرأي طبيب مدينة للسباحة كانت فارغة. ثمة شعور انساني في اعماق الايرلندي احترامها تشارلز كل الاحترام. لقد كان غروغان يمثل على نحو ما، كل الاشياء التي يحترمها. كان يعرف انه لا يستطيع ان يتوقع غفرانا كاملا للخطايا، الا انه يكفي له ان يشعر ان الحرمان من حقوق عضوية الكنيسة لن يكون قدره.
- تلك هي نيتي الخالصة.
- اتعرف هي ذلك؟ الخبرتها؟
- نعم.
- من المؤكد انها وافقت على عرضك؟
- لدي كل الاسباب التي تحملني على الاعتقاد بهذا الشيء.
- وهنا شرح ظروف رحلة سام في ذلك الصباح.
- استدار الطبيب كي يواجهه.
- اعرف انك لست شريرا يا سميثسون. واعرف انك ما كنت لتتصرف على ذلك النحو ما لم تصدق بتفسير الفتاة نفسها لسلوكها الغريب. الا انني احذرك

بأن شكاً ما، يظل قائماً. ومثل هذا الشك لا بد أن يلقي ظله على أي حماية تفرضها عليها في المستقبل.

- اخذت ذلك بعين الاعتبار.

غامر تشارلز بالابتسام ابتسامة رقيقة.

- مثلما اخذت بعين الاعتبار غمامة الرياء المشوش في حديث بني جنسنا عن النساء. فهم يتخذون أماكنهم، اليس كذلك؟ مثل الكثير من محتويات محل ما يتركوننا ندخل ونقلبها ونشير إلى هذا أو ذاك؛ فاعجب بواحدة. ولو وافقوا على ذلك لقلنا انه امر حسن، محترم متواضع. لكن اذا ما امتلكت احدى هذه المحتويات الجرأة لقول كلمة والتعبير عن نفسها... اعتقد انها فعلت ما هو اكثر من ذلك. سخر تشارلز من الالهانة.

- لقد فعلت ما هو شائع تقريبا في المجتمع الراقى. لا اعرف لماذا تُمنح البراءة العديد من الزوجات اللواتي يلطخن سمعة أزواجهن في ذلك الوسط في حين... يضاف الى ذلك، انا الذي يجب ان اتحمل اللوم كله. فهي لم تفعل شيئا سوى ارسال عنوانها، وكنت حرا تماما في تجنب عواقب الذهاب الى ذلك العنوان.

اختلس الطبيب نظرة صغيرة صامتة اليه. لا بد له من الاعتراف الان بالنزاهة. استأنف النظر طويلا الى الشارع وبعد بضع لحظات تكلم بنفس اسلوبه وصوته المعتاد.

- ربما تقدمت في السن. اعرف ان انتهاكات الثقة المماثلة لانتهاكاتك قد اوضحت شائعة على نحو يجعل اي امرئ، محافظا عتيق الطراز اذا ما صدمته. انني اشاطرك ازدرائك الرياء، سواء كان دينيا او قانونيا. لقد تبدى لي القانون دوما مثل حمار. انني لا انتقدك على هذه الاسس ولن انتقدك على اي اسس، بل سأوضح لك وجهة نظري وهي: انت تعتقد بانك تنتمي الى نخبة علمية وعقلانية. لا، لا. اعرف ما ستقول. فانت لست مزهوا بهذا. ليكن كذلك. على الرغم من ذلك، انت تمني ان تنتمي الى تلك النخبة. لا الومك في هذا. اذ انني تمنيت ذلك انا شخصا طيلة حياتي. الا انني اتوسل اليك ان تتذكر شيئا واحدا يا سميثسون. فقد قامت النخبة وعلى مدى التاريخ البشري بتعزيز قضيتها من اجل الصفوة. الا ان الزمن لا يسمح الا بالتماس واحد.

وضع الطبيب نظارته فوق عينيه ثانية، والتفت الى تشارلز.

- إنه هذا: ان هذه الصفوة قد قدمت مُثلاً اخلاقية رفيعة الى هذا العالم المظلم بغض النظر عن الحجج الخاصة التي تطرحها في قضيتها. واذا ما فشلت الصفوة في ذلك الاختبار، فإنها لا تغدو اكثر من مجموعة مستبدة، سلاطين، مجرد اشخاص يبحثون عن متعتهم وسلطتهم. خلاصة القول، مجرد ضحايا لرغباتهم الدنيئة. اظنك تفهم ما اريد الوصول اليه، ومدى انطباقه على نفسك من هذا اليوم البائس فصاعدا. لو اصبحت انسانا افضل واکرم، فرما يغفر لك. لكن اذا ما اضحيت اكثر انانية... فإن لغتك ستكون مزدوجة.

اطرق تشارلز كي يتجنب النظر الى تلك العينين القاسيتين.
- لقد افصح ضميري توا عن الشيء الكثير على الرغم من ان هذا الافصاح اقل اقناعا.

- امين اذا. سبق السيف العذل.
تناول قبعته وحقيبتة من فوق المنضدة واتجه صوب الباب. الا انه تردد في مكانه، ثم مد يده.

- اتمنى التوفيق في اجتيازك الروبيكون⁽¹¹⁸⁾.
امسك تشارلز اليد الممدودة اليه، كأنه غريق. حاول ان يقول شيئا ما، لكنه اخفق. مرت لحظة ازداد فيها ضغط اصابع غروغان على يده، ثم التفت وفتح الباب. نظر من ورائه وعيناه تومضان.

- اذا لم ترحل من هنا في خلال ساعة، فسأعود وبمعيتي اكبر سوط استطيع العثور عليه.

تينبس تشارلز لتلك العبارة، غيران الوميض ظل باقيا، وبلغ ابتسامة مؤلمة، واحنى رأسه موافقا، واغلق الباب.
لقد تُرك وحيدا بصحبة دوائه.

(118) الروبيكون: نهير في شمالي ايطاليا كان يشكل جزءا من الحدود بين الجمهورية الرومانية والسلالات التابعة لها، وقد اجتازه يوليوس قيصر عام 49 ق. م مشعلا بذلك نار الحرب الاهلية التي جعلته سيد روما. والمراد بالتعبير الوارد اعلاه، كما هو واضح، اتخاذ قرار خطير لا سبيل الى الرجوع عنه. (المترجم)

انقلبت ريحي الى ربح شمالية عاتية
بعد ان كانت تهب خفيفة من الجنوب.

اي. إتش. كلف: قصيدة 1841

ايضا حال - تشارلز، لا بد ان نقول انه ارسل من يبحث عن سام قبل مغادرته
فندق وايت لاين، الا ان الخادم لم يكن في حجرة بيع المشروب المفضل في الفندق
ولا في الاصطبلات. والحق ان تشارلز ضمن مكانه، غير انه لم يستطع ان يرسل
اليه شخصا الى ذلك المكان، وهكذا غادر بلدة لايم دون ان يراه ثانية بعد ان
ركب عربته في الفناء واسرع في اسدال الستائر. اجتاز ميلين كأنه في عربة نقل
الموتى قبل ان يرفع الستائر ثانية تاركا شمس المغيب المائلة - اذ بلغت الساعة الان
الخامسة - تنير طلاء العربة المعتم وتنجيدها.

غير ان اشعة الشمس لم تنر معنويات تشارلز، الا انه على الرغم من ذلك
شعر رويدا رويدا وهو يواصل ابتعاده عن لايم ان عبئا ثقيلا قد انزاح من على
كتفيه. لقد تعذب بسبب الهزيمة، لكنه نجح منها. لقد قبل بتحذير غروغان الصارم
التمثل بأن يعيش البقية الباقية من حياته دليلا على عدالة ما فعله. غير انه وجد
وسط المروج الخضر الصارخة والسيارات المصنوعة من شجيرات شهر أيار/مايو
في ريف ديفن، انه يصعب عليه عدم رؤية المستقبل على نحو خصب - ثمة حياة
جديدة امامه، تحديات عظيمة، غير انه سيثبت انه اهل لمواجهة. ولاحت خطيئته
ذات فائدة: فقد منح تكفيره اياها حياته هدفها الذي تفتقر اليه الان.

وكانت في ذهنه صورة من مصر القديمة - تمثال في المتحف البريطاني يمثل
فرعونا يقف الى جانب زوجته التي وضعت ذراعها من حول خصره في حين
وضعت الذراع الثانية فوق ساعده. بدا ذلك لتشارلز رمزا تاما للانسجام الزوجي
ليس في الاقل لأن الشخصين منحوتان من نفس الكتلة من الصخر. انه لم يُنحت
وسارة بعد في مثل ذلك الانسجام، الا انهما من نفس الصخرة.

ثم اطلق العنان لافكاره عن المستقبل، عن الترتيبات الواقعية. لا بد من ايجاد المكان اللائق لسارة في لندن. وينبغي لهما السفر خارج البلاد حالما امكن تسوية قضاياه، واستطاع التخلص من البيت في كنزنگتون ووضع حاجياته في المخزن. ربما يسافران الى المانيا اولا ومن ثم الى الجنوب في فصل الشتاء، الى فلورنسا او روما (اذا سمحت الظروف الاهلية بذلك) او ربما الى اسبانيا. غرناطة! الحمراء! ضوء القمر، الصوت البعيد للمغنين الفجر. هاتان العينان الرقيقتان اللتان تنمان عن العرفان والتقدير... وفي غرفة معطرة باريج الياسمين سيستلقيان ويقيان يقظين بين ذراعي بعضهما بعضا، وحيدين الى ما لا نهاية، منفين الا انهما يتحدان في تلك العزلة، لا يمكن فصلهما في ذلك المنفى.

هبط الليل. اشرب تشارلز وشاهد اضاء اكستر البعيدة. نادى على السائق طالبا منه ان يقله اولا الى فندق اسرة انديكوت ثم مال الى الورا واستلذ بالمشهد القادم. ان اي شهوة لن تلوثه حتما. انه على الاقل مدين لايرنستينا مثلما هو مدين لسارة، غير انه رأى ثانية لوحة رائعة من الصمت الرقيق، رأى يديها في يديه... وصلا. دخل تشارلز الفندق وقرع باب غرفة السيدة انديكوت بعد ان طلب من الرجل ان ينتظره.

- اوه، انت يا سيدي.

- الانسة وودراف في انتظاري. ساذهب بمفردي.

كان اذ ذاك قد استدار مبتعدا صوب السلام.

- لقد رحلت السيدة الشابة يا سيدي.

- رحلت؟ تقصدين خرجت؟

- لا يا سيدي. اقصد رحلت.

حملق بوهن فيها.

- لقد استقلت قطار لندن هذا الصباح يا سيدي.

- لكنني... انت متاكدة؟

- متاكدة مثلما انا واقفة هنا يا سيدي. وقد سمعتها تخبر السائق بوضوح ان

يقلها الى محطة القطار يا سيدي. ولما سالها عن اي قطار قالت له على نحو واضح مثلما اتحدث انا اليك الان: قطار لندن.

تقدمت السيدة العجوز المكتنزة الى امام.

- حسنا، انا مندهشة شخصيا يا سيدي. لا تزال اجرة غرفتها مدفوعة للايام الثلاثة القادمة.

- لم تترك اي عنوان؟

- ولا سطر يا سيدي. لم تقل كلمة واحدة لي عن وجهتها.

الغست تلك العلامة السوداء على نحو واضح تماما العلامة الجيدة بفضل عدم طلب اعادة مبلغ الايام الثلاثة.

- لم تترك رسالة لي؟

- ظننت انها ذاهبة معك يا سيدي. هذا ما فكرت به.

كان الوقوف مدة اطول هناك ضربا من المستحيل.

- هذه بطاقتي. لو سمعت اي اخبار عنها. ارجو اعلامي بها. مؤكدا. تفضلي. شيء ما لقاء الخدمة والبريد.

ابتسمت السيدة انديكوت ابتسامة تزلف.

- اوه، شكرا لك يا سيدي. مؤكدا.

- ثم خرج، الا انه عاد بنفس السرعة.

- الم يات احد الخدم هذا الصباح حاملا رسالة ورزمة صغيرة الى الانسة وودراف؟

بدت السيدة (انديكوت) كأنها لا تفهم شيئا.

- بعد الساعة الثامنة مباشرة؟

ظلت صاحبة الفندق خالية الذهن لا تفهم شيئا. ثم نادى بيتسي ان التي حضرت واستجوبتها سيدتها استجوابا دقيقا... حتى انصرف تشارلز.

ثمالك في مقعده في العربة واغمض عينيه. وشعر دون ارادته انه علم الارادة.

لو لم يكن مدققا في التفاصيل على ذلك النحو، لو انه جاء بعد سام مباشرة...

سام! لص! جاسوس! هل اغوي واصبح جاسوسا عند السيد فريمان، او هل يمكن

تفسير جريمته بوصفها استياء من الثلاثنة جنيه إنكليزي البائسة؟ الى اي حد واضح

يدرك تشارلز الان المشهد في لام - لا بد ان سام ادرك ان امره سيكتشف حال

رجوعهما الى اكستر ولهذا لا بد انه قرا رسالته... فاحمر وجه تشارلز خجلا في

العتمة. لو راه ثانية فلسوف يدق عنقه، بل انه فكر في لحظة ما في الذهاب الى احد مراكز الشرطة ويتهمه بـ... حسنا بالسرقه على اي حال. الا انه سرعان ما ادرك عبث ذلك. ثم ما هي الفائدة التي سيحققها ذلك في الاساس: اكتشاف سارة؟ شاهد ضوءا واحدا في الظلمة الحالكة التي لفتته. لقد رحلت الى لندن، كانت تعرف انه عاش في لندن. لكن لو كان دافعها هو المجيء، كما اوحى بذلك غروغان ذات مرة، ودق بابه، او ليس من الاجدر ان يدفعها ذلك الدافع الى العودة الى لايم حيث تفترض انه سيكون فيها؟ او لم يقرر أن كل نياتها كانت شريفة؟ او لا يتعين الا يبدو امامها انسانا مرفوضا، ضائعا الى الابد؟ لمع الضوء الوحيد ثم انطفأ.

في تلك الليلة فعل شيئا لم يفعله منذ سنوات كثيرة. جثا على ركبتيه قرب السرير وصلى. وكانت فحوى صلاته ان يجدها؛ لو فتش عنها بقية حياته فسيجدها.

صاح تويدلدي متعجبا وهو يصفق يديه منتصرا:
 - لماذا؟ عنك! وإذا ما توقف عن الحلم فيك، فأين ستكونين في رأيك؟
 قالت أليس:
 - حيث أنا الآن مؤكدا.
 قال تويدلدي بازدياء:
 لست أنت. لن تكوني في أي مكان. لماذا؟ لأنك لست سوى شيء ما في حلمه!
 اضف تويدلدام:
 - إذا ما استيقظت ذلك الملك، فستطفئ مثل شمعة.
 هتفت أليس ساخطة:
 - لن انطفئ

لويس كارول: عبر المرأة 1872

وصل تشارلز المحطة في الوقت المحدد صباح اليوم التالي. وبعد ان تدبر على نحو لا يليق بسيد نبيل انزال حقائبه ووضعها في عربة الامتعة واختيار مقصورة فارغة من الدرجة الاولى، جلس نافذ الصبر، منتظرا انطلاق القطار. بين الفينة والفينة، كان بعض المسافرين يلقي نظرة الى داخل المقصورة فتزجرهم تحديقة غروغان - فهذه المقصورة محجوزة لغير المصايين بالجذام - التي يسهل على الانكليز السيطرة بها. انطلقت الصفارة وظن تشارلز انه كسب العزلة التي كان يتوق اليها. الا ان وجهها ملتحيا ضخما ظهر في اللحظة الاخيرة امام النافذة وواجهت التحديقة الباردة تحديقة اشد برودا من رجل في عجالة من امره يسعى الى ايجاد مكان له.

تمتم القادم المتأخر بعبارة «عفوا يا سيدي» ووجد سبيله صوب الجهة القصوى من المقصورة. جلس الرجل البالغ من العمر اربعين عاما او ما يقرب من ذلك بقبعته ذات القمة المربعة، واضعا يديه على ركبتيه، مستعيدا انفاسه. في محياه ثمة شيء يوقع الأمن في النفس. لعله ليس سيدا نبيلًا تمامًا، ربما رئيس خدم طموحا

(الا ان الخدم لا يسافرون بالدرجة الاولى)، او واعظا بروتستانتيا ناجحا - من نمط سبيرجيون⁽¹¹⁹⁾ صاحب المعبد المستأسد الذي يهدي الناس الى مذهب جديد بحرقهم ببلاغة رخيصة عن اللعنة الابدية. وفكر تشارلز ان هذا الرجل لا يبعث على الارتياح البتة ولهذا فانه من الامور النموذجية في العصر لا بد من التعالي عليه اذا ما حاول ان يتجاذب اطراف الحديث.

وكما يحدث أحيانا عندما يحدد جلسة شخص ما الى الناس ويمعن في النظر اليهم، فإن تشارلز ضبط متلبسا وهو يحدد على ذلك النحو فاستنكر عمله ذلك اذ كان ثمة ايضاح واضح جدا في النظرة الحادة المصوبة الى احد الجانبين بأن على تشارلز ان يكتفي بالنظر الى نفسه. وسرعان ما حول تحديقته خارج النافذة وعزى نفسه ان الشخص رفض الالفة مثلما رفضها هو نفسه.

وسرعان ما جعلت الحركة المتوازنة تشارلز يستكين الى حلم اليقظة. كانت لندن مدينة كبيرة، لكن لا بد لها من البحث عن عمل على الفور. لديه الوقت، الموارد المالية، الارادة، ربما يمر اسبوع، اسبوعان، الا انها بعد ذلك ستقف قبالته. ربما سيهبط عليه عنوان اخر من فتحة الرسائل. عجلات القطار هي التي كانت تقول ذلك: لا - يمكن - لها - ان - تكون - بهذه القسوة، لا يمكن - لها - ان - تكون - بهذه - القسوة، لا يمكن لها - ان تكون - بهذه - القسوة، ... اجتاز القطار الوديان الخضراء والحمر واتجه صوب بلدة كولومتون. وشاهد تشارلز كنيسة دون ان يعرف موقع المكان، ثم اغمض عينيه بعد ذلك. فهو لم ينم نوما هنيئا في الليلة الماضية.

لم ينتبه رفيق السفر لتشارلز النائم بعض الوقت. لكن ما ان غار ذقنه اكثر فاكثر - كان تشارلز قد احتاط للامر بأن خلع قبعته - حتى بدأ الرجل الملتحي يتفرس فيه وهو مطمئن الى ان فضوله لن تضايقه الدهشة.

كانت نظراته غريبة: مكسوة بمادة غروية، متأملة، مستهجنة كأنه يعرف اي نمط من الرجال هو هذا (مثلما اعتقد تشارلز اعتقادا تاما اي نمط من الرجال هو)،

(119) تشارلز هارون سبيرجيون (1834 - 1892): قس بروتستانتي معمداني متطرف وواعظ مشهور، مواعظه الاسبوعية المنشورة تملأ أكثر من خمسين مجلدا في الطبعة الكاملة لاعماله. اعلن عن ارتيابه في المدخل العلمي الذي نهجه للنقد الانجيلي الحديث. (المترجم)

ولم يعجب بتلك المعرفة ولا النوع. صحيح انه لاح، دون ان يلحظه احد، شخصا اقل برودا، دكتاتوريا، بيد ان ملاحظه ظلت توحى بهالة غير مريحة من الثقة بالنفس - واذا لم تكن الثقة بالنفس تماما، فإنها على الاقل في حكمه على الآخرين، في المقدار الذي سيجنيه منهم، وما يتوقعه منهم، وما يفرضه عليهم.

ان تحديقة امدها دقيقة او ما يقرب من ذلك يمكن ان تكون قابلة للتفسير. فالسفر بالقطار مثير للسأم؛ ومن الممتع التحسس على الآخرين، وهلم جرا. الا ان هذه النظرة المحدقة التي اصبحت وحشية في شدتها، استمرت اكثر من دقيقة واحدة. استمرت حتى تجاوز القطار بلدة تونتون على الرغم من انها قوطعت هناك عندما جعل الصوت المنبعث من رصيف المحطة تشارلز يستيقظ بضع لحظات. غير انه لما عاد الى نومه ثانية، انشدت العينان اليه ثانية على نفس النحو الطفيلي.

ربما تقع تحت النظرة المحدقة نفسها ذات يوم. وربما تكون واعيا بها - في اطار اقل تحفظا من اطار قرننا - فالمراقب العنيد لن ينتظر حتى تنام. ومما لا ريب فيه ان ذلك سيوحى بشيء، غير سار، مدخل جنسي منحرف الى حد ما... رغبة في التعرف اليك على نحو لا تريد ان يعرفك به شخص غريب. وفي تجربتي الحياتية هناك مهنة واحدة لا غير تجد فيها تلك النظرة بما فيها من مزيج غريب من الفضول والهيبة، من التهكم والغواية.

الان هل استطيع استخدامك؟

الان ماذا في وسعي ان افعل لك؟

انها تماما، وكما بدا لي دوما، النظرة التي يجب ان يظهر بها الاله. هي ليست نظرة مقدسة، كما نظن؟ بل هي نظرة تثير الريبة (كما اوضح منظرو الرواية الجديدة). انني ارى هذا رؤية واضحة على الوجه، نظرة مألوفة لي اكثر مما نبغي، هي نظرة ذلك الرجل الملتحي المحدقة الى تشارلز. هذا، وسأتوقف عن التظاهر والادعاء.

فالسؤال الذي اطرحه وانا اتفرس في وجه تشارلز ليس شبيها تماما بالسؤالين الواردين انفا فهو: ما الذي سأفعله بك بحق الله؟ لقد فكّرت قبل قليل ان انهي حياة تشارلز الان وعند هذه النقطة، ان اتركه الى ما لا نهاية وهو في طريقه الى لندن. غير ان تقاليد الرواية الفكتورية تسمح بالنهاية التي تفتقر الى الخاتمة الا انها لم تسمح بالنهاية المفتوحة، ولقد ذكرت في مكان سابق ان علي وجوب اعطاء الحرية

للشخصيات. ان مشكلتي بسيطة - ما يريد تشارلز واضح؟ نعم، في الحقيقة. الا ان ما يريد البطل ليس واضحاً تماماً. وانا لست متأكداً من مكان وجود البطلة في هذه اللحظة. مؤكداً، لو ان هذين الشخصين يمثلان شريحتين من الحياة الحقيقية، بدلاً من ان يكونا شريحتين من خيالي، فإن المنفذ من هذه المعضلة واضح: المتطلب الاول يكافح المتطلب الثاني فيحقق او ينجح حسبما هو الواقع. وتظاهر الرواية عادة بالتوافق مع الواقع: فيضع المؤلف المتطلبات المتناحرة في الحلبة ومن ثم يصف القتال - الا انه في الحقيقة يُرتب القتال، تاركاً الجانب الذي يميل اليه يفوز. ونحن نحكم على كتاب الرواية من مهارتهم في ترتيب القتال (بكلمات ادق، في اقناعنا ان القتال غير مرتّب) ومن نوع المقاتل الذي يحددون ميلهم اليه: المقاتل الطيب، المأساوي، الشرير، المضحك، وهلم جرا.

غير ان الحجة الاساسية في ترتيب القتال تتمثل في اظهار الكاتب لقرائه ما يعتقد عن العالم المحيط به - فيما اذا كان متشائماً، متفائلاً، حسبما تريد. لقد تظاهرت بالرجوع الى عام 1867، من المؤكد ان تلك السنة هي في الواقع ماضٍ عمره قرن من الزمن. ومن العبث اللامحدي اظهار التفاؤل او التشاؤم او اي شيء اخر فيما يخص ذلك العام، لاننا نعلم ما الذي حدث منذ ذلك الوقت.

لهذا فاني اواظب على التحديق الى تشارلز ولا اجد سبباً هذه المرة لترتيب القتال الذي يوشك ان يشترك فيه. وهذا يترك امامي خيارين اثنين: ان اترك القتال يستمر ولا لعب فيه سوى دور المسجل له، او ان اخذ كلا الجانبين فيه. انني اتفرّس في السوجه المنهوك على نحو غامض والعاث تماماً. وفي حين تقترب من لندن، اعتقد بأنني اجد حلاً؛ اي، انني ارى بأن المعضلة زائفة. والاسلوب الوحيد الذي لا يستطيع ان يؤدي فيه دوراً في المعركة هو ان اظهر وصفين اثنين لها. وهذا يُبقي لدي مشكلة واحدة: هي انني لا استطيع ان اقدم الوصفين على الفور. وعلى الرغم من هذا، فأياً كان ثاني الوصفين، فانه سيبدو الوصف النهائي، الوصف الحقيقي لأن طغيان الفصل الاخير على درجة بالغة من القوة.

اتناول محفظة نقودي من جيبي واخرج منها قطعة نقد من ذوات الشلنين، اضعها فوق ظفر اهامي الايمن واطوح بها في الهواء لترتفع مسافة قدمين اثنين (60 سم) ومن ثم امسك بها بيدي اليسرى.

فليكن كذلك. وفجأة ادرك ان تشارلز فتح عينيه واخذ ينظر اليّ. ثمّة ما هو
اكثر من الاستهجان يلوح في عينيه الان؛ انه يدرك انني إمّا مغامرٌ أو مخبولٌ. فأرد
على استهجانه واعيد قطعة النقد الى محفظة نقودي. يتناول قبعته ويمسح ذرة غبار
غير مرئية (بديلا عن نفسي) من محملها ويعتمرها.
نمر من تحت الاعمدة الحديدية العملاقة التي تسند سقف محطة بادنغتون.
نصل، فيهبط الى الرصيف ويومئ الى جمال، ويلتفت بعد بضع ثوانٍ، اثر اعطائه
التعليمات. كان الرجل الملتحي قد توارى عن الانظار بين الحشود.

ما هي واين هي الان!

تينيسون: مود 1855

مكتب تحريات خاص تشرف عليه الارستقراطية وتحت توجيه مباشر
من السيد بولاكي نفسه. علاقات مع الشرطة السرية البريطانية
والاجنبية. تحريات دقيقة وسرية تجري في انكلترا والقارة الاوروبية
والمستعمرات. ادلة تجمع لقضايا في محكمة الطلاق، الخ.

اعلان من واسط العهد الفكتوري

قد ينقضي اسبوع، اسبوعان، الا انها بعد ذلك ستقف قبالته... يبدأ الاسبوع
الثالث ولم تقف قبالته. لا يمكن لتشارلز ان يتصدع، فقد كان هنا، هناك، في كل
مكان.

وقد حقق هذا الوجود في كل مكان باستئجار اربعة مخبرين سرين - اما اذا
كانوا تحت اشراف السيد بولاكي التام، فهذا ما لست واثقا منه، الا انهم عملوا
بجد، اذ كان ينبغي لهم ذلك لأن مهنتهم كانت مهنة حديثة تماما عمرها احدى
عشرة سنة لا اكثر وكانت مثار احتقار عام. فالسيد النبيل الذي يطعن شخصا
حتى الموت في عام 1866 كان عمله يعد عملا مناسبا. وقد حذرت مجلة بنش
قائلة: «لو سار الناس مرتعين مثل من يقدم على الخنق فعليهم تحمل العواقب».

بذل رجال تشارلز جهودهم اول مرة في مكاتب المربيات، دون طائل.
وحاولوا البحث في المجالس التعليمية لكل الملل التي تدير مدارس الكنيسة. بل ان
تشارلز نفسه استأجر عربة وامضى ساعات عقيمة في البحث، كانت عيناه
العنيدتان في اثائها تنظران مليا الى وجه كل انثى شابة يمر به، في مناطق لندن
الفقيرة - الارستقراطية. لا بد ان سارة تسكن في واحدة منها: في - بكهام، في
بتونفيل، في بروتني؛ بحث في عشرات المناطق المتشابهة ذات الشوارع الحديثة،
الانيقة، وفي البيوت التي تعمل فيها خادمة واحدة. كما ساعد رجاله في التحري

عن مكاتب النساء الجديدة الآخذة بالانتشار. فكان يتضح فيه عداء عام لادم طالما ان هذه المكاتب تحملت كل المسؤولية عن الانحياز الذكري كما انها بانت من اهم الاماكن لنشوء حركة التحرير. اظن ان هذه التجارب العقيمة في المسألة الوحيدة التي كان يهتم بها لم تكن مضيعة عنده. اذ شرع يدرك رويدا رويدا مظهرها واحدا من مظاهر سارة على نحو افضل: شعورها بالاستياء، بالظلم، الناجمين عن التحيز الذي يتعذر علاجه في المجتمع.

استيقظ صباح يوم ليجد نفسه في منتهى القنوط. فقد بات يقينا في نظره الاحتمال الرهيب في امتهاها البغاء، وهو القدر الذي المحت اليه ذات مرة. في ذلك المساء خرج في حالة من الذعر الى نفس منطقة هايماركت التي زارها من قبل. اما الشئ الذي تخيله سائق العربة فهذا ما لا يستطيع افتراضه، الا انه لا بد قد اعتقد ان الراكب من اشد الذين عرفهم وسوسة. فقد سارت العربة بين هذه الشوارع ساعتين، ولم يتوقفا الا مرة واحدة، فقد شاهد السائق مومسا ذات شعر احمر تحت مصباح غازي. الا ان نقرتين او عزتا اليه بالمضي قدما.

لم تنتظر عواقب خياره الحرية كي تفرض عليه ضريبتها. فالرسالة الاخيرة التي بعث بها الى السيد فريمان ظلت بلا رد عشرة ايام. الا انه اضطر ان يوقع على استلام رسالة وصلته باليد وكانت منذرة بالنحس، ارسلها محامو السيد فريمان. سيدي،

فيما يخص الانسة ايرنستينا فريمان

«اخبرنا السيد ايرنست فريمان، والد المذكورة اعلاه الانسة ايرنستينا فريمان، راجيا حضوركم الى هذا المكتب في الساعة الثالثة من يوم الجمعة القادم. ان عدم حضوركم سينظر اليه على انه اعتراف في حق موكلنا في اقامة الدعوى».

اوبري وباغوت

اخذ تشارلز الرسالة الى محاميه الذين كانوا يعالجون قضايا اسرة سميثسون منذ القرن الثامن عشر. وكان مونتاغ الحالي شابا اكبر قليلا من تشارلز نفسه الذي جلس يراوده الاحساس بالعار وهو الاثم المعترف قبالة مكتبه. كان الاثنان في ونشستر معا؛ لم يكونا صديقين ودودين، الا انهما كانا يستلطفان بعضهما بعضا بما فيه الكفاية.

- حسنا، ماذا يعني هذا يا هاري؟
- يعني يا فتاي العزيز انك تملك حظ الشيطان، وهم جبناء.
- لماذا يرغبون في رؤيتي اذا؟
- لن يتركوك كليا يا تشارلز. هذا الامر يتطلب اشياء كثيرة، وتخميني هو
انهم سيطلبون منك اعترافا خطيا.
- اعترافا بالذنب.

- تماما. اخشى انك ستواجه حتما ادلة شرسة، الا انني لا استطيع الا ان
انصحك بالتوقيع عليها، اذ ليست لديك اي حجة.
في عصر تلك الجمعة، اقتيد تشارلز ومونتاغ الى غرفة انتظار كثيبة في
واحد من مباني الهيئات القانونية الاربع في لندن⁽¹²⁰⁾. شعر تشارلز ان الامر
يشبه ما يكون بالمبارزة، وان مونتاغ مساعده. وثركا ينتظران طويلا حتى
الساعة الثالثة والرابع. ولما كان مونتاغ قد توقع مثل هذا العقاب الاولي، فقد
تحمله الاثنان بمتعة عصبية.

واخيرا طلب اليهما المثل. نهض، رجل مسن قصير القامة، سريع الغضب من
وراء مكتب كبير، ووقف من ورائه السيد فريمان الذي كان يتفرس في تشارلز. في
الحقيقة، كانت عيناه هادئتين، اختفت منهما كل بهجة. انحنى تشارلز له الا انه لم
يستلق اي رد. صافح المحاميان احدهما الاخر بجفاف. وكان هناك رجل خامس:
رجل طويل القامة، نحيف، اصلع الرأس، ذو عينين داكنتين، جفل مونتاغ
لمراه على نحو غير محسوس.

- اتعرف السيد المحامي ميرفي؟

- من سمعته لا اكثر.

كان المحامي من الطراز الاول يعني في العهد الفكتوري مستشارا قانونيا عالي
الرتبة. وكان المحامي ميرفي قاتلا، اكثر الناس اثارة للرعب في زمانه.

اشار السيد اوبري على نحو قطعي الى مقعدين يجلس عليهما الزائران، ثم
جلس ثانية. اما السيد فريمان فقد ظل واقفا وقفة عنيدة. قلب السيد اوبري مجموعة

(120) هذه المباني تابعة لاربع جمعيات او هيئات لطلاب الحقوق والمحامين وهذه الجمعيات
الاربع من حقها وحدها منح الاجازة لممارسة مهنة الحقوق في بريطانيا. (المترجم)

اوراق مما منح تشارلز بعض الوقت الذي لم يكن يرغب فيه ليستوعب الجو
الارهابي المؤلف في مثل هذه الاماكن: مجلدات المثقفين، سجلات رسمية مجلدة
ومربوطة بشريط اخضر، اضاير كميبة لقضايا منتهية وضعت في اماكن عالية من
حول الغرفة كأنها قوارير ابراج حمام مزدحمة.

رفع المحامي العجوز بصره الى الاعلى على نحو قاسٍ.

- اعتقد، يا سيد مونتاغ، ان حقائق الانتهاك المريع لهذه الخطوبة غير قابلة
للتناقش. انني لا اعرف اي تفسير قدّمه لك موكلك لسلوكه. غير انه قدم الدليل
السوافي لذنبه في هذه الرسالة الموجهة للسيد فريمان، على الرغم من انني اوضح بأنه
اراد بمثل هذه الصفاقة ان...

- ان مثل هذه التعابير في ظروف كهذه يا سيد اوبري...

تدخل المحامي ميرفي.

- اتفضل ان تسمع اللغة التي استخدمها انا شخصيا يا سيد مونتاغ - وفي
محكمة علنية؟

- اخذ مونتاغ نفسا ثم اطرق. فنظر اليه اوبري العجوز نظرة مليّة تنم عن
استهجان لا حدود له.

- كنت اعرف المرحوم جدك يا مونتاغ معرفة جيدة، واعتقد انه لو كان حيا
لفكر مليا قبل ان يتبنى قضية موكل مثل موكلك. لكن لترك هذا الامر في الوقت
الحاضر فقط. انني اعد هذه الرسالة...

وهنا رفع الرسالة عاليا كأنه يحملها بملقط.

- اعدّ هذه الرسالة المشينة بمثابة زيادة الطين بلة، بمحاولتها المخزية لتبرئة
الذات والغياب التام لاي اشارة للعلاقة الاجرامية الدنيئة التي يعلم كاتبها جيدا انها
اكثر مظاهر جريمته قتامة.

رمى تشارلز بنظرة غاضبة.

- لعلك ظننت يا سيدي ان السيد فريمان لم يكن مطلعاً اطلاقاً كافياً على
علاقتك الغرامية. أنت مخطئ. اننا نعرف اسم الانثى التي تورطت وأياها في مثل
هذا الاتصال الجنسي الوضيع، ولدينا شاهد على الظروف التي لا اقوى على
وصفها بأي صفة لما تثيره في من تفرز واشتمزاز.

احمر وجه تشارلز خجلا، في حين نفذت عينا السيد فريمان اليه. ولم يستطع فعل اي شيء سوى ان يخفض رأسه، وان يلعن سام. قال مونتاغ:

- لم يأت موكلي الى هنا دفاعا عن سلوكه.

- واذا ذاك لن تدافع عن اي اجراءات؟

- ان شخصا له مثل صيتك في مهنتنا لا بد ان يعلم انني لا استطيع الاجابة عن ذلك السؤال.

تدخل المحامي ميرفي ثانية.

- ألن تدافع عن اي اجراء اذا ما اتخذ؟

- مع احترامي يا سيدي، انني لا بد ان اتحفظ على القرار فيما يخص تلك القضية.

شوّهت ابتسامة مأكرة شفّتي المحامي ميرفي.

- ليس القرار موضع نقاش يا سيد مونتاغ.

- افني وسعنا الاستمرار يا سيد اوبري؟

اختلف السيد اوبري النظر الى المحامي ميرفي الذي اوماً ايماءة متجهمة.

- ليست هذه فرصة ينبغي لي ان اقدم النصيح فيها يا سيد مونتاغ بضرورة

التوقف وقفة طويلة اكثر مما ينبغي عند مرافعة محامي الدفاع.

قلب الاوراق ثانية.

- سأختصر المسألة. ان نصيحتي للسيد فريمان كانت واضحة. ففي تجربتي

الطويلة، تجربتي الطويلة جدا، اقول ان هذا اقذر مثال لاسوأ سلوك يقع تحت

نظري. فموكلك لم يستحق العقاب الصارم الذي سيحل به حسب. فانا اعتقد

اعتقادا راسخا ان مثل هذا التصرف الشائن ينبغي ان يعرض على الملأ ليكون عبرة

للاخرين.

صمت صمتا طويلا كي تُستوعب كلماته استيعابا عميقا. تمنى تشارلز لو

كان في وسعه ان يسيطر على الدم المتدفق الى وجنتيه. اخيرا اطرق السيد فريمان،

غير ان المحامي ميرفي كان يعرف جيدا كيف يستغل الشاهد الخجول. فوضع ما

يسميه المحامي الحديث السن المعجب اسئلته المهلكة التي تبرز فيها على نحو لطيف

السخرية والسادية.

استأنف السيد اوبري حديثه بلهجة جديدة هادئة.

- على اي حال، ولاسباب لن اخوض في تفاصيلها، فإن السيد فريمان اختار ان يظهر الرأفة في قضية لا تستوجبها. وهو لا يريد في الوقت الحاضر ان يرفع القضية الى المحاكم، لكن بشرط.

بلغ تشارلز ريقه، ونظر الى مونتاغ.

- انني واثق بأن موكلي ممتن لموكلك.

- بناء على نصيحة سديدة، فقد...

مال السيد اوبري صوب المحامي ميرفي الذي احنى رأسه احتراماً دون ان يحول من نظاره الثابتة على تشارلز البائس.

-... هيأتُ اعترافاً بالذنب. لا بد لي ان اعلمك ان قرار السيد فريمان عدم

اقامة الدعوى في المحاكم على الفور يعتمد اعتماداً كلياً على توقيع موكلك الوثيقة في الوقت الراهن وفي اثناء وجودنا، وبشهادتنا جميعاً.

وهنا سلم الوثيقة مونتاغ الذي القى نظرة اليها ثم رفع بصره.

- هل لي بطلب الحديث الى موكلي على انفراد خمس دقائق؟

- انني مندهش تماماً اذ ترى الحديث ضرورياً.

انتفخ قليلاً غير ان مونتاغ ثبت على موقفه.

- حسناً جداً، حسناً جداً. اذا كان ذلك ضرورياً.

وهكذا وجد هاري مونتاغ وتشارلز نفسيهما ثانية في غرفة الانتظار الكئيبة.

قرأ مونتاغ الوثيقة ثمناولها بجفاف الى تشارلز.

- حسناً. هذا هو علاجك. لا بد لك من تناوله يا فتاي العزيز.

وفي حين حذق مونتاغ الى ما وراء النافذة، قرأ تشارلز الاعتراف بالذنب.

انسى تشارلز الجرنون هنري سميثسون اقر اقراراً كاملاً وبكل حرية وبلا اي

اعتبار سوى رغبتى في اعلان الحقيقة بـ.

1. انني تعهدت بالزواج بالانسة ايرنستينا فيرمان.

2. لم يُقدم لي اي سبب كان من الطرف البريء الانسة ايرنستينا فريمان المذكورة

اعلاه لفسخ عقدي واياها،

3. لقد احطت علما تماما بمكانتها في المجتمع، شخصيتها، مهر زواجها، وفاق المستقبل قبل ان اخطبها وان اي شيء لم اعرفه فيما بعد عن الانسة ايرنستينا فريمان المذكورة انفا ليناقض او ينكر ما ذكرته،

4. لقد فسخت ذلك العهد دون سبب عادل وبلا اي مسوغ سوى انانيتي وخياني الاجرامية،

5. انني ارتبط ارتباطا سريا بعلاقة مع فتاة تدعى سارة اميلي وودراف المقيمة في لايم ريجيس واكستر وقد حاولت ان اخفي هذه العلاقة،

6. ان سلوكي في هذه القضية كان سلوكا شائنا، ولهذا السبب فقد فقدت الحق في ان اعد سيدا نبيل الى الابد.

علاوة على ذلك، فاني اقر واعترف بحق الطرف المتضرر في اقامة الدعوى في المحاكم ضدي الى اجل غير مسمى وبلا اي شروط.

علاوة على ذلك، فاني اقر واعترف ان الطرف المتضرر في وسعه ان يستخدم هذه الوثيقة في اي شأن وحسب رغبته.

علاوة على ذلك، ان توقيعي في ادناه قد اعطى بارادتي الحرة وفي ضوء فهم تام للظروف الواردة، وفي ضوء الاعتراف الصريح بسلوكي ودون اي ضغط او تهديد، ودون اي اعتبار لاحق ودون الحق في التعويض، النقص، الاعتراض، او الانكار بأي خصوص، الان ومستقبلا، وتحت كل الظروف المشار اليها في اعلاه.

- اليست لديك ملاحظة عنها؟

- لا بد من وجود خلاف بشأن الصياغة. فما من شأن اي محام ان يضع النقطة السادسة وهو سعيد. ولو انتقلت القضية الى المحاكم، فإن في وسع المرء ان يجادل بأن ما من شأن اي نبيل ان يعترف مثل هذا الاعتراف الا اذا كان تحت وطأة التهديد. في وسع المحامي ان يتبين الكثير من هذا. وهي في صالحنا. واني لمندعش تمام الاندهاش كيف سمح اوبري وميري بذلك. اعتقد ان هذه العبارة من وضع الاب. انه يريد ان يذل نفسه.

- عمل قدر.

بان كأنه يريد ان يمزقها اربا اربا. فأخذها منه مونتاغ برفق.

- القانون لا يهتم بالحقائق يا تشارلز. ينبغي ان تعرف هذا الشيء الان.

- وهذه العبارة: «يستخدم هذه الوثيقة في أي شأن وحسب رغبتها» ما الذي تعنيه بحق السماء؟

- قد تعني أن الوثيقة مدرجة في صحيفة التأييمز. يبدو أنني أتذكر شيئاً مشابهاً حدث قبل بضع سنوات إلا أن لدي الإحساس بأن فريمان العجوز يريد أن يبقى القضية سرية. كان في وسعه أن يستدعيك للمثول أمام المحكمة لو أراد أن يعاقبك. - إذا ينبغي لي أن أوقع.

- إذا أردت فإني أستطيع الذهاب والمناقشة في بعض المصطلحات الواردة - التي تستطيع من خلال بعضها أن تلمس ظروفًا مخففة إذا ما رفعت إلى المحكمة. إلا أنني أنصح بخلاف ذلك. فالقسوة الشديدة الموضحة كما هي ستكون في صالحك أكثر. وهي تفيدنا في أن يدفعوا الثمن. وإذا ما اقتضت الضرورة، ففي وسعنا أن نحاجج بأن الوثيقة كانت مشهداً لعينا قاسياً. أو ما تشارلز ثم هضاً واقفين.

- هناك شيء واحد يا هاري. أتمنى أن أعرف كيف حال إيرنستينا. أنني لا أستطيع الاستفسار منه.

- سأؤكد أن كان في وسعي أن أتحدث إلى أوبري العجوز فيما بعد. وهو ليس سيئاً إلى هذا الحد، وقد اضطر إلى المبالغة في تصوير الصعوبات أمام الأب. هكذا رجعا ووقعت الوثيقة، إذ وقعها تشارلز أول مرة ثم وقعها الآخرون كل بدوره. ظل الجميع واقفين وساد صمت قصير، محير. ثم تحدث أخيراً السيد فريمان. - والان لا تلتطخ حياتي ثانية أيها السافل. تمنيت لو أنني أصغر سناً لكنت... - عزيزي السيد فريمان!!

اسكت صوت أوبري العجوز الحاد موكله. تردد تشارلز ثم انحني لكلا المحامين وغادر المكان يتبعه مونتاغ. غير أن مونتاغ قال له خارجاً. - انتظري في العربة.

بعد دقيقة أو دقيقتين استقل هو الآخر العربة إلى جانب تشارلز.

- أمّا على ما يرام، كما يتوقع. تلك هي عبارته. وقد أفهمني ما سيفعله فريمان لو حاولت الزواج ثانية. أنه سيكشف الوثيقة التي وقعها يا تشارلز أمام

انظار من سيصبح حموك في المستقبل. وهو يرمي بذلك الى ابقائك اعزب طيلة حياتك.

- خمنت مثل هذا الشيء.

كما اخبرني السيد اوبري العجوز عن الشخص الذي انت مدين له باطلاق سراحك لحسن سلوكك.

- مدين لها؟ هذا ما خمنت ايضا.

- كان يسعى الى الانتقام، الا ان السيدة الشابة استبعدت ذلك كما يتضح.

ترنحت العربية مئة ياردة (91 مترا) قبل ان يتكلم تشارلز.

- لقد لوثت سمعتي الى الابد.

- اذا اردت ان تكون مؤمنا في عالم من المتزمتين فلا يمكنك ان تتوقع علاجاً

اخر. انني متيّمٌ مثل الرجل الذي يجلس الى جوارى بأي فتاة جميلة. ولا الوملك في هذا. لكن لا تقل لي ان الثمن لم يكن عادلاً.

مالت العربية في سيرها، في حين حدّق تشارلز منقبض النفس الى الشارع المغمور بنور الشمس.

- اتمنى لو كنت ميتاً.

- اذا لنذهب الى مطعم فيري ونلتهم سرطاناً او سرطانين من سراطين البحر، وستخبرني عن الانسة وودراف الغامضة قبل ان تموت.

اثارت المقابلة المهينة الاحباط في نفس تشارلز بضعة ايام. وانتابه توق شديد الى السفر خارج السبلاد، والى الا يرى انكلترا ثانية. ناديه، معارفه، ليس في استطاعه رؤيتهم ثانية. واعطى تعليماته بانه ليس في البيت. واندفع للبحث عن سارة اندفاعاً نشطاً. وفي يوم من الايام عثر مكتب التحريات على فتاة تدعى الانسة وودبري، بدأت عملها حديثاً في احدى كليات البنات في ستوك نيو ونيفتون، وهي ذات شعر كستنائي تنطبق عليها الاوصاف التي قدمها. وقضى ساعة مؤلمة عصر احد الايام خارج الكلية. ولما خرجت الانسة وودبري في مقدمة كوكبة من الفتيات الشابات وجد انها لا تحمل سوى القليل من الشبه بسارة.

حل شهر حزيران/يونيو، وكان شهراً رائعاً على نحو مدهش. وبقي حال تشارلز كما هو عليه، غير انه توقف عن البحث مع اقتراب الشهر من نهايته. اما

مكتب التحريات فقد ظل متفائلا، الا انه لا بد من الاخذ بنظر الاعتبار الاجور التي يتعين عليه دفعها له. فقد تم البحث في اكستر اضافة الى لندن، بل ارسل احد الرجال للتحقيق سرا في لايم وتشارماوث، بلا طائل. وفي مساء احد الايام، طلب تشارلز من مونتاغ ان يتناول الافطار معه في منزله في كنزنفتون ووضع نفسه تحت تصرفه على نحو صريح وبائس. ما الذي ينبغي له فعله؟ لم يتردد مونتاغ في اخباره. يجب ان يسافر الى خارج البلاد.

- ما هو هدفها اذا؟ ان تسلم نفسها الي - ومن ثم ترميني كأني لا شيء.
- اغفر لي اذا قلت ان الافتراض الاخير هو الصحيح. او لم يكن ذلك الطبيب على حق؟ انت واثق بأن دافعها لم يكن التدمير الشرس؟ ان تحطم مستقبلك؟ ان تضعفك وتحولك الى ما أنت عليه يا تشارلز؟
- لا استطيع ان اصدق ذلك.

- عليك ان تصدق ان الادلة كافية حتى يتوفر ما يناقضها.
- ثمة صراحة... نزاهة وراء كل قصصها وخداعها. لعلها توفيت، فهي لا تملك، وليس لها اسرة.

- اذا دعني ارسل كاتباً ليلقي نظرة على سجل الوفيات.
نظر تشارلز الى هذه النصيحة المعقولة كأنها اهانة. الا انه قبل بها في اليوم التالي، لكن لم يكن هناك ما يشير الى وفاة سارة وودراف.
اضاع وقته اسبوعا اخر، وفجأة قرر ذات مساء ان يرحل خارج البلاد.

كلُّ لنفسه، لا تزال هي القاعدة

نتعلمها عندما نذهب الى المدرسة -

ولياخذ الشيطان من يبقى في الاخير، اوه!

اي. إتش. كلف: قصيدة 1849

دعوني الان انتقل عشرين شهرا الى امام، الى يوم منعش في اوائل شهر شباط/فبراير عام 1869، وصل اخيرا في اثناء ذلك غلادستون الى رئاسة الوزارة في 10 داوننغ ستريت، وتم اخر اعدام علي في انكلترا. وكان كتاب خضوع النساء لميل وكلية غيرتون على وشك الظهور. اما نهر التايمز فكان بلونه المألوف الرصاصي - الطيني السيئ الصيت. الا ان السماء العالية كانت زرقاء على نحو ساخر. واذا ما نظر المرء الى اعلى فقد يظن انه في فلورنسا.

عند النظر الى الاسفل، على امتداد السدة الجديدة في منطقة تشيلسي ثمة ما يشير الى الثلج فوق الارض. وعلى الرغم من ذلك، ثمة ما يشير على نمط باهت الى بداية الربيع ايضا، تحت نور الشمس، ليس الا. انني واثق بأن المرأة الشابة، التي رغبت في ان اظهرها وهي تدفع عربة صغيرة (لكنني لم استطع اظهارها على ذلك النحو لأن تلك العربات لم يبدأ استعمالها الا بعد مضي عقد من الزمن)، لم تسمع البتة بكاتالوس، وما كانت لتفكر كثيرا بما يدور عن الحب الحزين حتى لو سمعت به. الا انها كانت تعرف الافكار الخاصة بالربيع. على اي حال، لقد تركت توا ثمرة ربيع سابق في البيت (على بعد ميل الى جهة الغرب) متدثرة وملتفة كأها بصلة تحت الارض. ويبدو واضحا انها تفضل ان ينمو بصلها جملة، شأنها شأن اي بستاني صالح، على الرغم من انها تحتال لترتيب ثوبها. ثمة شيء في ذلك المشي الوئيد المتسكع الذي تتميز به الامهات الحوامل، اقل غطرسة عدوانية في العالم، على الرغم من انها تظل غطرسة.

تميل هذه المرأة الشابة المتكبرة، الذكية والملكئة من فوق حاجز وتحقق الى حركة الجَزَر الرمادية. وجنتان متوردتان وعينان رائعتان برموش حنطية، عينان

تمنحان القليل من زرقتيهما الى السماء الممتدة من فوقها، لكنهما لا تمنحان شيئا من بريقهما. ما كان في وسع لندن ان تحقق شيئا على هذا النحو من الصفاء. الا انهما لما التفتت واجالت الطرف في صف انيق من بيوت مشيدة بالقرميد، بعضها قديم وبعضها الاخر جديد، وتواجه النهر الممتد وراء الجهة الاخرى من الطريق، فالواضح تماما انهما لا تحمل اي ضغينة تجاه لندن، كما انه وجه يخلو من الحسد وهو يستوعب البيوت الغنية، الا انه مليء بسعادة ساذجة لوجود مثل هذه الاشياء الجميلة.

تقرب عربة من جهة وسط لندن، فتراقبها العينان الزرقاوان - الرماديتان - على نحو يوحي ان المراقب لا يزال يجد مثل هذه العناصر المبتذلة في المشهد اللندني آسرة وغريبة. تتوقف العربة خارج بيت كبير في الطرف المقابل، وتبرز منه امرأة، وتقبط فوق الرصيف وتتناول قطعة نقد من محفظة نقودها.

تفغر الفتاة الواقفة على السدة فاها من فرط دهشتها. ويهاجم الامتقاع تورد الوجنتين قليلا ثم تحمر خجلا. يلمس سائق العربة حافة قبعته باصبعين. تسير الراكبة مسرعة صوب الباب الرئيس للبيت من ورائها. تتحرك الفتاة صوب حافة الرصيف، متخفية الى حد ما وراء جذع شجرة. تفتح المرأة الباب الرئيس وتتوارى عن الانظار في الداخل.

- انما هي يا سام. شاهدت بوضوح مثلما -

- لا يمكنني ان اصدق ذلك.

الا انه يمكنه ان يصدق. فقد توقعت حاسة سادسة او سابعة في داخله ذلك تقريرا. لقد فتش عن الطاهية العجوز السيدة روجرز في طريق عودته الى لندن وتلقى منها شرحا مستفيضا عن اسابيع تشارلز الاخيرة الحالكة في كنزنگتون. حدث ذلك منذ وقت طويل. وقد شاركها ظاهريا استهجانها سيدهما السابق. الا انه في اعماقه شعر بشيء ما يغلي. فإن تكون صانع زيجات شيئا وان تكون محطم زيجات شيئا اخر.

كان سام وماري يحدقان الى بعضهما بعضا - تساؤل قائم في عينيها يوازي شكك قائما في عينيه - في ردهة امامية صغيرة جدا، الا انهما على الرغم من ذلك ليست رديئة التأثيث. ثمة نار متوهجة تستعر في الموقد. وفي حين كان يطرح كل

منهما السؤال على صاحبه، فتح الباب، ودخلت خادمة صغيرة غير جذابة في الرابعة عشرة من عمرها، حاملة الان الرضيع المكشوف جزئيا - الذي اعتقد انه اخر محصول جيد يأتي من مخزن غلال كارزليك. اخذ سام الرضيع على الفور بين ذراعيه وأخذ يرقصه مما دفعه الى الصراخ. وكان هذا اجراء قلما يتغير يمارسه لدى عودته من الشغل. تناولت ماري بعجالة العبء الثمين، وكشرت امام الاب الاحمق في حين ابتسمت الشاردة الصغيرة الواقفة قرب الباب ابتسامة صغيرة متعاطفة مع كليهما. وفي وسعنا الان ان نلاحظ بوضوح ان ماري حامل بطفل اخر.

- حسنا يا حبيبي. سأذهب الان لتناول المرطبات اما انت فحضري العشاء.

حسنا؟

- نعم يا سيدي، سيكون العشاء جاهزا في غضون نصف ساعة.

- يا لك من فتاة طيبة. يا حبيبي.

ثم قبل وجنة ماري كأن شيئا غير عالق في ذهنه وداعب صدر الطفل.

لم يبدُ عليه انه رجل سعيد الى هذا الحد بعد خمس دقائق عندما جلس في ركن مفروش بنشارة الخشب في احدى الحانات ومن امامه شراب مفضل وماء حار. من المؤكد ان لديه كل الاسباب الظاهرية ليكون سعيدا. صحيح انه لا يملك محلا، غير ان لديه شيئا لا يقل عن ذلك. كان الطفل الاول فتاة، غير ان تلك لم تكن سوى خيبة امل صغيرة شعر تماما انها سرعان ما ستعوض.

لقد لعب سام اوراقه لعبا عادلا جدا في لايم. فالخالة ترانتر كانت رقيقة منذ البداية وقد رمى بنفسه تحت رحمتها بمساعدة ماري. ألم يضع مستقبله كله بتسليمه الشجاع الاشعار؟ ألم تكن حقيقة لا ريب فيها عندما وعده تشارلز بقرض مقداره اربعمئة جنيه إنكليزي (اطلب دوما ثمنا اعلى مما تجرؤ عليه) ليبدأ عمله في التجارة؟ اي تجارة؟

- مثل تجارة السيد فريمان يا سيدي الا انها على نحو اكثر تواضعا.

كما لعب ورقة سارة لعبا جيدا جدا. ففي الايام القليلة الاولى، ما كان هناك شيء ليجعله يفشي اسرار خطيئة سيده الاخيرة، كانت شفتاه مختومتين بالشمع. الا ان السيدة ترانتر كانت بالغة العطف - فالعقيد لوك الساكن في منزل اريحا كان يبحث عن خادم. فكانت فترة بطالة سام قصيرة جدا، كذلك فترة عزوبيته.

وكان الاحتفال الذي توجها قد اقيم على نفقة سيدة العروس. من الواضح، كان مضطرا الى رد الجميل.

كانت الخالة ترانتر شأنها شأن كل السيدات العجائز الوحيدات تبحث دوما عن شخص ما لتبناه وتساعده. ولم يُسمح لها بنسيان ان سام اراد العمل في ميدان بيع السلع الرجالية. وهكذا فقد تجرأت ذات يوم لدى وجودها عند شقيقتها في لندن ان تطرق الموضوع امام زوج اختها. في اول الامر مال الى هز رأسه بالنفي. الا انه ذكر بعد ذلك على نحو رقيق ان الخادم الشاب كان يتصرف تصرفا نزيها. وكان يعرف على نحو افضل مما تعرفه السيدة ترانتر فائدة معلومات سام، وان ثمة امكانية لتوظيفه.

- حسنا جدا يا ان. سأؤكد مما هو موجود فرما هناك شاغر.

وهكذا حصل سام على موطئ قدم، متواضع جدا، في المتجر الكبير. الا انه كان كافيا. وكان يعوض النقص في ثقافته بالحزم الطبيعي. وكان عمله خادما قد ساعده في التعامل مع الزبائن. كما كان انيق الملبس. وفي يوم ما فعل ما هو افضل من ذلك.

كان صباحا مشرقا من شهر نيسان/أبريل بعد ستة اشهر من عودته الخاصة بالزواج الى لندن وقبل تسعة اشهر من ذلك المساء الذي ظهر فيه مكتبا في مكان تناوله المرطبات. فقد اختار السيد فريمان ان يتمشى من منزله في هايد بارك الى متجره. واخيرا مر بواجهاته المكتظة ودخله. فشاهد موظفي الطابق الارضي مفعمين بالحياة والنشاط، ينحنون تحية له. اما الزبائن فقليلون في تلك الساعة المبكرة. رفع قبعته على نحو مألوف له مثل السادة الكبار، بيد انه استدار فجأة وسط دهشة الجميع، وخرج ثانية. فما كان من المشرف على الطابق الارضي الا ان خرج هو الآخر وقد بان عليه التوتر، وشاهد مالك المال واقفا قبالة احدى الواجهات الزجاجية، محمقا فيها. انتاب المشرف خوفا شديدا، بيد انه مشى من وراء السيد فريمان مشية حذرة.

- انها تجربة يا سيد فريمان. وسأعمل على وضع حد لها على الفور.

وقف ثلاثة رجال آخرون الى جانبيهما، فألقى عليهم السيد فريمان نظرة سريعة، ثم امسك ذراع المشرف، وسار به بعيدا بضع خطوات.

- راقب الان يا سيد سمبسون.

وقفنا حوالى خمس دقائق. كان الناس يمرون ببقية الواجهات الزجاجية ويتوقفون عند هذه الواجهة. وكما هو شأن السيد فريمان، فقد فهموا القصد دون انتباه، ومن ثم عادوا القهقري للنظر اليها ثانية.

اخشى ان يكون وصفها بمثابة هبوط مفاجئ. الا انه ينبغي لك ان تشاهد بقية الواجهات المملوءة بأشياء مركومة بغير نظام وعلى نحو يثير الملل، والمثبتة عليها بطاقات تثير هي الاخرى الملل حتى تدرك الفارق وتقدره حق قدره، وعليك ان تتذكر ان الفكستورين صدقوا الفكرة السخيفة بأن الشراب الجيد لا يحتاج الى اعلان، بخلاف عصرنا عندما تهب اجمل زهور البشرية حياتهن للاعلان. كان الجزء الخلفي من العرض عبارة عن قطعة قماش بسيطة من اللون البنفسجي الغامق. اما في الجزء الامامي فهناك مجموعة مدهشة مثبتة فوق اسلاك رفيعة من ياقات رجالية مختلفة الاشكال والاحجام والانواع. الا ان الشيء البارع فيها يتمثل في ترتيبها لتناسب الكلمات التي كانت تصرخ، تجار بصوت عال: (فريمان من اجل الصفة).

- هذا افضل تحميل فعلناه هذه السنة لواجهة المتجر يا سيد سمبسون.

- تماما يا سيد فريمان. في منتهى الجرأة. لافلت للنظر.

- (فريمان من اجل الصفة)، هذا ما نقدمه تماما - والا لماذا لدينا مثل هذا الخزين الهائل، (فريمان من اجل الصفة) - ممتاز! من الان فصاعدا، اريد ان تكون هذه العبارة في كل نشراتنا واعلاناتنا.

ثم سار عائدا الى المدخل، في حين ابتسم المشرف.

- نحن ندين بهذا كله لك يا سيدي فريمان. ذلك الرجل الشاب - السيد

فارو؟ - الذي اظهرت اهتماما شخصيا في مجيئه الينا؟

توقف السيد فريمان.

- فارو - اسمه الاول سام؟

- اعتقد ذلك يا سيدي.

- احضره الي.

- انه يأتي في الساعة الخامسة يا سيدي خصيصا لاجل ذلك؟

وهكذا احضر سام اخيرا محمر الوجه، لمقابلة الرجل الكبير.

- عمل متقن يا فارو.

انحنى سام انحناء شديدة.

- يسعدني كثيرا ان افعل ذلك يا سيدي.

- كم ندفع لفارو يا سيد سمبسون؟

- خمسة وعشرين شلنا يا سيدي.

- سبعة وعشرين شلنا ونصف الشلن.

ثم خرج قبل ان يتمكن سام من التعبير عن امتنانه. وكان في انتظاره ما هو افضل من ذلك. فقد سُلّم اليه ظرف لما ذهب لاستلام مرتبه عند نهاية الاسبوع ووجد فيه ثلاثة جنيهات وبطاقة كتب عليها اكرامية للحماس والابتكار.

بعد تسعة اشهر زيد راتبه الى اثنين وثلاثين شلنا ونصف الشلن؛ وبما انه اصبح عضوا لا يمكن الاستغناء عنه بين مجموعة العاملين في تزيين واجهة المتجر، فقد راوده شك كبير في الحصول على زيادة في مرتبه كلما طلب ذلك.

احضر سام لنفسه كمية اضافية ومدهشة من الشراب المفضل، وعاد الى مقعده. الشيء الذي لا يبعث على الفرح فيه - وهو عيب استطاع خلفاؤه المعاصرون في لعبة الدعاية ان يتخلصوا منه - هو انه كان يملك ضميرا... او ربما، على وجه التبسيط، يملك شعورا بسعادة وحظ سعيد لا مبرر لهما. ان اسطورة فاوست هي النموذج الاعلى عند الانسان المتحضر، بصرف النظر عن ان حضارة سام لم تعلمه ما يكفي لأن يعرف حتى من هو فاوست، بل عرف سماعا عن احلاف تعقد مع الشيطان وعن المسار الذي سلكته. وقد سارت الامور سيرا حسنا فترة من الوقت عند هذا الشخص، الا ان الشيطان طالب بحصته يوما ما. ان الثروة مرهقة تماما، فهي تحفز الخيال على التوقع بخسارتها، والتوقع على نحو ضيق في اغلب الاحوال بلطفها.

مما كان يثير قلقه ايضا انه لم يخبر ماري البتة بما فعله. ليست هناك اي اسرار اخرى بينهما، وكان يثق في حكمها. وبين الفينة والفينة كان يراوده توقه القلم الى ان يكون سيد نفسه في متجره هو لا متجر غيره. اليس هناك ما يدل على ذكائه الطبيعي؟ غير ان ماري - وما تملكه من احساس ريفي صادق بأحسن حقل

يستوجب حرثه - هي التي كانت تعيده برقة - وبلا رقة احيانا قليلة - الى حجر رحاه في شارع او كسفورد.

كان هذان الاثنان يتقدمان في الحياة حتى لو لم ينعكس ذلك في نبرتهما او في اللغة التي يستخدمانها. وكانا يعرفان ذلك. فقد كان كل شيء عند ماري اشبه بحلم، ان تتزوج رجلا يربو دخله على الثلاثين شلنا في الاسبوع! في حين ان والدها سائق العربة، لم يزد دخله على عشرة شلنات! ان تحيا في بيت يبلغ ايجاره تسعة عشر جنيها في السنة!

الاكثر روعة من هذا كله، ان تتمكن مؤخرا من مقابلة احدى عشرة فتاة صغيرة للعمل في مهنة هي نفسها كانت تتمهنها قبل سنتين لا اكثر! لماذا احدى عشرة؟ اخشى ان ماري كانت تظن كثيرا ان لعب دور السيدة انما هو دور يصعب ارضاؤه - مغالطة قلدت فيها ابنة الاخت لا الخالة. الا انها اتبعت ايضا اجراء لم يكن غير معروف بين الزوجات الشابات المتزوجات بازواج شبان وسيمي الطلة. فقد كان اختيارها احدى الخادومات لا يقوم على اساس الذكاء والكفاءة، بل على اساس الافتقار التام الى الجاذبية. وقد اخبرت سام في نهاية المطاف انها منحت هاريت ستة جنيهات إنكليزيات في السنة لأنها تشعر بالشفقة عليها. لم تكن تلك كذبة تماما.

لما عاد الى البيت لتناول بخنة لحم الضأن بعد تلك الامسية التي شرب فيها كمية مضاعفة من الشراب المفضل، وضع ذراعه من حول الخصر المنتفخ، وقبل صاحبه، ثم نظر الى الدبوس الذي كانت تضعه بين نهديها - تتزين به دوما داخل البيت وتخلعه دوما عند الخروج. فقد يسرقه منها احد اللصوص.

- كيف حال اللؤلؤة والمرجان؟

- ابتسمت ورفعته قليلا اليه.

- يسره التعرف اليك يا سام.

وقفوا في مكانيهما يحدقان الى رمز حظهما السعيد، الذي تستحقه في حالتها هي، والذي ينبغي له اخيرا الان ان يدفعه ثمنه، في حالته.

بحثُ وبحثُ، لكن اه، فروحها

لم تُلقِ حتى الان

على روعي

ومضة واحدة! نعم. لقد رحلت. رحلت

هاردي: عند بلدة على ساحل البحر 1869

ماذا عن تشارلز؟ انني ارثي لكل مخبر اضطر الى ملازمته خلال تلك الاشهر العشرين. لقد شاهدته كل مدينة تقريبا في اوروبا، ولكن لفترة قلما كانت طويلة. شاهدته الاهرامات، شاهد الاف المشاهد، والمواقع اذ امضى وقتا ايضا في اليونان وصقلية، دون ان يستوعبها. فهي لم تكن اكثر من جدران رقيقة وقفت بينه وبين العدم، فراغ نهائي، عبث تام. وحيثما توقف اكثر من بضعة ايام، كانت تعاوده الكآبة والخمول على نحو لا يطاق. واصبح معتمدا على السفر مثلما يعتمد مدمن على افينه. المعتاد انه كان يسافر وحيدا، وفي اكثر تقدير في صحبة دليل او مترجم من البلد الذي يزوره. وفي اوقات كثيرة كان يعاشر غيره من المسافرين ويتحمل رفقتهم بضعة ايام، الا انهم كانوا في اغلب الاحوال نبلاء فرنسيين او ألمان. اما الانكليز فكان يتجنبهم كأهم الطاعون. ولما كان يقترب منه عدد من ابناء بلده الودودين، كانوا يجاهون بتحفظ بارد.

لم يعد علم الاحاث يثيره الان. فهو العلم الذي اقترن اقترانا وجدانيا بأحداث ذلك الربيع المهلك. ولما اغلق بيته في كنزنگتون، فانه سمح لمتحف علم طبقات الارض ان يأخذ صفوة مجموعته، اما البقية الباقية فوهبها لطلابيه، في حين احتفظ بأثاث البيت في مخزن واخبر مونتاغ ان يعرض بيت بيلغرافيا للايجار ثانية لدى انتهاء العقد، اذ ما من شأن تشارلز ان يعيش فيه البتة.

قرأ كثيرا، واحتفظ بيوميات سفره، بيد ان ذلك لم يكن سوى مظهر خارجي يخلص الاماكن والاحداث ولا يخص ذهنه - مجرد اسلوب ملء الفراغ في الاماسي الطويلة في الخانات المهجورة. كانت محاولته الوحيدة في التعبير عن ذاته الدفينة متمثلة في اسلوب الشعر، اذ اكتشف في تينيسون عظمة... في ميدانه. من المؤكد

ان العظيمة التي وجدها لم تكن العظيمة التي رآها العصر في شاعر البلاط. فقصيدة مود⁽¹²¹⁾ التي كانت معرضة لآزدراء شامل انذاك وعدت قصيدة غير جدية تماما بكتابها - باتت القصيدة الاثيرة عند تشارلز، لا بد انه قرأها مرات كثيرة، وقرأ اجزاء منها مئات المرات وكانت الكتاب الوحيد الذي ظل دوما يحمله في ترحاله. اما شعره فضعيف مقارنة بها. وهو ليؤثر الموت على ان يظهره امام اي شخص. لكن فيما يلي نموذج صغير يوضح كيف كان تشارلز ينظر الى نفسه في اثناء منفاه.

ايتها البحار القاسية التي ابخر فيها، والجبال الخشنة.

يا مئات المدن الغريبة اللسان

التي ليست مناظرها السعيدة التي امر فيها

سوى مستنقع ملعون

حيثما اذهب، اسأل الحياة نفس السؤال

ما الذي جاء بي الى هنا؟ ما الذي يبعدني عن هذا المكان؟

اليس هو الهروب من العار في افضل الاحوال

وعواقب قانون لا يلين في اسوأ الاحوال؟

للحصول على طعم تلك القصيدة من فمك، دعوني اقتبس قصيدة اعظم منها بكثير - قصيدة حفظها عن ظهر قلب، وهي الشيء الوحيد الذي استطعت ان اتفق فيه معه: لعلها انبل قصيدة لمحمل العصر الفكتوري.

نعم: في بحر الحياة منعزلون،

تمتد بيننا مضائق تردد الصدى،

منقطة القفر المائي الكبير،

(121) مود (1855): قصيدة شاعر البلاط الاتكليزي الفرد لورد تينيسون وهي عبارة عن منودراما يرويها رجل ذو مزاج متقلب يعبر فيها عن مشاعره في مراحل مختلفة. ففي البداية يرثي ما اصاب اسرته من دمار على يد مدير البلدية ثم يعبر عن حبه لمود ابنة مدير البلدية وانتصاره بفوزه بحب مود ومن ثم الهروب خارج البلاد والجنون الذي يصيبه اثر خيبة اماله وعوبته في خاتمة المطاف الى الحياة ليخدم بلاده. في القصيدة افضل مقطوعات تينيسون الغنائية، الا ان بعض الافكار الواردة فيها، ضمنا او صراحة، والخاصة بتمجيده الحرب كانت مثار امتعاض الكثيرين. (المترجم)

نحن الملايين من البشر نعيش وحيدين
الجزر تحس بالمد وهو يطوقها،
وتعرف تخومها اللاهائية.

لكن لما يضيء القمر فجواتها
ويغمرها اريج الربيع،
وتشدو العنادل شدوا رائعا،
في وديانها في الليالي المرصعة بالنجوم،
وتنسب الانغام الموسيقية الرقيقة،
من ساحل الى ساحل من بين الاصوات والقنوات،

اوه، اذ ذاك ينبعث شوق مثل اليأس
صوب الكهوف البعيدة،
لانها تشعر حقا اننا كنا ذات يوم
جزءا من قارة واحدة.
الان ينتشر من حولنا الحقل المائي -
اه، لو تلتقي ثانية حدودنا!

منذا الذي امر ان تبرد نار حنينها
حالما تحقق الاشتعال؟
منذا الذي حكم على رغبتهما الدفينة ان تكون عقيما؟
وامر ان يكون بين شواطئهما
بحر لا يسبر غوره، مالح، يبعث على النفور^(*) (122).

(*) ماثيو ارنولد: الى مارغريت (1853). (المؤلف)

(122) يخاطب ماثيو ارنولد في قصيدة الى مارغريت فتاة التقاها في سويسرا في اربعينات القرن التاسع عشر وساد الاعتقاد انها فرنسية او سويسرية، بيد ان السير الذاتية المنشورة حديثا تعتقد بانها ليست سوى ماري كلود، وهي فتاة كان ارنولد يعرفها في انكلترا في نفس الفترة، وكانت لها صلات بالمانيا وترجم الشعر والنثر الالمانى. (المترجم)

الا انه على الرغم من هذه الكآبة المحيرة للنفس، فإن تشارلز لم تداعبه البتة افكار الانتحار. ولما انتابته تلك الرؤية العظيمة عن نفسه وقد تخلص من عصره، اسلافه، طبقته وبلاده، فانه لم يدرك الى اي مدى كانت الحرية مجسدة في سارة؛ في افتراض وجود منفى مشترك. لم يعد يعتقد كثيرا بتلك الحرية، بل شعر انه لم يفعل شيئاً سوى تغيير الفخ او السجن. الا ان هناك شيئاً ما في عزلة لم يستطع التشبث به؛ لقد كان هو المنبوذ، هو الشخص المختلف عن الآخرين، نتاج قرار لم يستطع سوى القليلين اتخاذه، بغض النظر عن حماقته او حكمته النهائية. ومن وقت الى اخر كان مشهد بعض المتزوجين حديثاً يذكره بايرنستينا فيبدأ بالبحث في اعماق روحه. اتراه يحسداهم ام يشفق عليهم؟ ووجد انه لا يأسف الا على اشياء قليلة. فمهما كانت قساوة قدره، فانه انبل من ذلك القدر الذي سبق له ان رفضه.

استغرقت تلك الرحلات الاوروبية والشرق اوسطية ما يقرب من خمسة عشر شهراً، لم يعد في اثنائها مرة واحدة الى انكلترا، ولم يبعث برسائل حميمة الى اي شخص. وكانت معظم رسائله القليلة موجهة الى مونتاغ، وذات مساس بالعمل، وتعليمات حول المكان الذي ترسل اليه النقود وغير ذلك. وقد حوّل مونتاغ بنشر اعلان في صحف لندن بين وقت واخر: «يرجى من سارة اميلي وودراف او كل من يعرف مكان اقامتها الحالي ان...» لكن دون جدوى.

شعر السير روبرت بالأسف وهو يتلقى انباء فسخ الخطوبة لما وصلته اول مرة عن طريق رسالة، الا انه هزّ كتفيه فيما بعد معرباً عن عدم اهتمامه لذلك بتأثير من سعادته الوشيكة. لقد كان تشارلز شاباً، اللعنة، وسيعثر على فتاة طيبة، بل افضل بكثير، في مكان ما. كما انه جنّب سير روبرت على الاقل الحرج من الارتباط بفريمان. وقد ذهب ابن الاخ ذات يوم لتقديم تحياته الى السيدة بيلا تومكنز وذلك قبل سفره من انكلترا. لم ترقه السيدة وشعر بالأسف لعمه. ومن ثم رفض العرض الذي قدم له مجدداً فيما يخص البيت الصغير، ولم يتحدث عن سارة. ووعده بالعودة وحضور مراسيم الزفاف. الا انه نكث بذلك الوعد بفبركة اصابته بالمalaria. ولم يأتِ التوأمين، كما تصور، بل ولد ووريث ظهر الى الوجود في الشهر الثالث عشر من منفاه. وفي ذلك الوقت كان قد اعتاد تحمل مصاعب قدره

ولم يعد يشعر بما هو أكثر من الاصرار على الا يبطأ بتقديمه بيت وينزيات ثانية خاصة بعد ان ارسل رسالة التهنئة.

اذا لم يبقَ عازبا من وجهة نظر فنية - اذ كان من المعروف تماما بين الفنادق الاوروبية الممتازة ان النبلاء الانكليز كانوا يسافرون الى خارج بلادهم ليسلكوا سلوكا سيئا، وان الفرص متوفرة لذلك الغرض - فانه ظل اعزب من الناحية العاطفية. لقد ادى (او شوّه) الفعل بتهكم اخرس في حين كان يتفرس في المعابد الاغريقية او يتناول وجبات طعامه. ذلك للحفاظ على الصحة. لقد رحل الحب عن هذا العالم. أحيانا، وفي احدى الكاتدرائيات او احدى قاعات الرسم، كان يحلم بوجود سارة الى جانبه برهة وجيزة. بعد مثل هذه اللحظات، كان في الامكان مشاهدته وهو ينتصب ويأخذ نفسا عميقا. ولم يحرم نفسه من متعة الاستمتاع بالحنين العقيم حسب، بل اصبح غير واثق على نحو متزايد من الحد الفاصل بين سارة الحقيقية وسارة التي صنعها في الكثير من الاحلام: الاولى حواء متجسدة، بكل ما فيها من غموض وحب وعمق، والثانية، المربية، نصف مجنونة ونصف مخادعة، القادمة من مدينة غامضة على ساحل البحر. بل انه شاهد نفسه وقد صادفها ثانية، لا يرى فيها سوى طيشه وضلاله. لم يبلغ ادراج الاعلان، غير انه ظن ايضا انها لن ترد البتة.

كان عدوه اللدود السأم. وكان السأم هو الذي دفعه الى العودة الى وطنه في النهاية. واذا ما توخينا الدقة، فإن الذي دفعه الى ذلك هو مساء احد الايام في باريس عندما ادرك انه لا يريد ان يبقى في باريس ولا أن يعاود السفر ثانية الى ايطاليا او اسبانيا او اي مكان اخر في اوروبا.

لا بد انك ستظن انني اقصد انكلترا بكلمة موطنه. لا. فانكلترا لا يمكن ان تصبح وطننا لـ تشارلز ثانية، على الرغم من انه ذهب اليها لقضاء اسبوع اثر مغادرته باريس. لقد حدث مرارا انه في اثناء عودته من ليفورنو⁽¹²³⁾ الى باريس ان يسافر بمعية اثنين من الاميركان، نبيل عجوز وابن اخيه، من فيلادلفيا. وقد استلطفهما تشارلز ربما بسبب متعة الحديث الى شخص بلغة ليست غريبة تماما، من

(123) ليفورنو: ميناء يقع في مقاطعة توسكاني، وسط ايطاليا. (المترجم)

- في أي يوم تريدان اعتري هذا البيت بيتك؛ هكذا ببساطة اعتبريه بيتاً كأى بيت آخر تملكينه بمواجهة البحر: - قال ذلك بأفضل ما عنده من اللغة الفرنسية في همس شبيه بالنسيم الصباحي العليل.

أجابت لودميلا بابتسامة ونظرة غاضبتين كما هو مفترض أن تكون الابتسامة والنظرة الروسييتان المخدرتان. والعقيد الشجاع قبل أن يرفع يده عنها قرصها لتذكر العرض وتعمل بموجب الاتفاق.

رحلة بهرت عيني لودميلا غريغوريوفنا ستيكيناوون. كانت الطريق بجانب حقول الكاكاو: الثمار الصفراء تلمع تحت وهج شمس الصباح وزرع أجمل منها: لا. وكانوا يتوقفون في مزرعة للاستراحة وقبول شربة ماء أو فنجان قهوة، تذوق حلويات الموز أو البرتقال، والتلمظ بكأس عصير طازج ممزوج بالعسل فوقه ثمرة كاكاو ناضجة هي اختراع الآلهة.

وللتعرف على المغنية الروسية التي كانوا يعرفونها بصاحبة الأستاذ فتورينيا، كانت نساء العقدا يهملن المطابخ ويتخلين عن الأحكام المسبقة ويقدمن أنفسهن بأناقة بعدما يدخلن في أجسادهن ملابس العيد سريعاً. وكانت لودميلا تمد برؤوس أصابعها ليقبلها أصحاب المزارع، وتبتسم بتألق وتواضع للسيدات وتقول: "ميرسي". "فوزت تري جانتي، مدام". مغنية روسية رائعة ومشرفة.

كل ذلك الامتداد السرابي من العقدا الأثرياء والأجراء النعساء من البيوت الفخمة والأكواخ المتواضعة، كان النقيض والمثل لامتدادات أراضي روسيا النبلاء والعبيد. وكانت لودميلا غريغوريوفنا تتبادل اللسان مع بيوتر، أخيها، عن الأمل في الحصول، يوماً أكثر أو أقل، من اليدين الكريمتين للأب الصغير بوافئتورا أو من يدي الآخر، هدية حقول واسعة مع قرية من العبيد السود. كانت تعيش في توقد الاكتشاف، وكان كل شيء يبدو لها حياً رومانسياً، مع حذر واحد من خطر الأفاعي وقطاع الطرق.

أخذت تمشي في الحقول، عبر الطرقات مشغوفة بتوكايا غراندي، ومرّت قرب المستودع الكبير وتأخرت في محل الحدادة تنظر إلى الحداد ذي الصدر العاري والجلد اللمساع وهو يضرب على الحديد ليصنع سواراً من المعدن أرادت أن تشتريه ولكن الزنجي قدمه هدية ذكرى متواضعة لا مثيل لها: إنها تلمع تحت أشعة الشمس.

عندما عادت من المشوار، وعيناها متقدتان ووجهها مكسو بالعرق وبصوت
يخنقه الانفعال فإن لودي سألت فتورنيا الذي لا يزال متمدداً في الشبكة المعلقة
كأرجوحة وقد أطل قيلولته:

- هل هذه القرية ملكك، يا أبي الصغير؟ وهل اللطفاء هؤلاء هم عبيدك؟
وانحنت فوق الأرجوحة بإثارة: إذا كنت تحبني حقاً فيجب أن تمنحني قرية وعبيداً
دليلاً على عطفك.

الخطبة التي ألقاها خلال القداس الذي أقامه الأخ داستنا أوخارستيا جاءت
فصيحة ومثيرة للمشاعر، وفيها يتأسف على حالة الانحطاط الوثني التي يغرق فيها
شعب توكايا غراندي ولكنه أشار إلى رحمة الله، الرحمة العلوية رحمة القلب الذي
نزف ألماً للخراف الضائعة من قطيعه، ودعت الخطبة إلى الندامة والأسف.

لم يكن سكان توكايا غراندي قساة القلوب ومتحجري العواطف فشاع الخوف
عالياً ومغالياً فيه وراحت أيديهم تقرع الصدور الخاطئة: يا ويلاه. كل سكان المكان،
ودون استثناء، هم خطاة. وإنه لما يثير الشفقة الإشارة إلى تسلسل الأحداث في
توكايا غراندي وذلك التبعد المفاجئ خوفاً من معاقبة الجمع القليل الواجف أمام
الصليب المقدس وهو يصغي بصمت نسبي إلى كلمات المبشر. وفي غمرة التساؤلات
عن العقاب والثواب، لم يكونوا متفقيين إلا على شيء واحد: أن المحترم كان يتكلم
كلاماً جميلاً، بصوت جهوري ودافئ. وهو نفسه جميل في رأي النساء العاميات.

لم يكن هناك بكاء عند الصباح ولا صرير أسنان عند المساء. بل خوف
مسيطر خلال خطبة الأخ زيكمونت، مطرقة الله. مع لفظه الشبيه بكلب سلوقي:
غوتشهامر. وحظي الأخ تايون بالنجاح في الوسط النسائي: ففي حين كان
مزجوجاً في أعلى منبر الخطابة فإنه كان يتمايل هناك ويتوجع على مصير الأحياء
الذين كان إنقاذهم مسألة مشكوكاً فيها. وكانت النساء يتبادلن التعليقات برضى
مشكوك فيه وثقة خفية ملحة فيما لو أعطين الامتياز للتعلق بذراعي الكاهن الشاب
ذي الوجه الطفولي. بالمقابل، فإن الأخ زيكمونت بخطبته الملهبة وتهديداته وشتائم
أثار حماس الرجال بنوع خاص لأنه أكثر رجولة.

ولم يبك إلا بعض الأطفال عندما جيء بحوض ماء معدني، جديد، أعاره
التركي فضول وهو على كل حال قطعة غالية من مستودع الأدوات المعروضة

للبيع في السدكان.. أما فضول فقد تنكب مسؤولية في حفلة المعمودية الجماعية ووقفت عن يمينه كوروكا التي كانت تحمل بين ذراعيها الطفل نادو، وعن يساره برناردا والدة الطفل المتألقة الرائعة وهي ترتدي التنورة والسترة المشجرة ويدها شمعاً مشتعلة.

وإذ كان الأطفال الوثنيون من كل الأعمار ومن كل المزارع قد اجتمعوا فإن الأخ تايون استقبلهم في صحن الكنيسة المقدسة ليحولهم إلى مسيحيين، ومرّ على كل واحد بمفرده يضع على جبهته الملح والزيت ويبل رؤوسهم بالحوض المليء بالماء المقدس. وكان يطلب أن يردد الجميع وراءه: أؤمن بالله العلي العظيم. وكان الآباء والعرايون يرددون بأصوات متشابكة تولد الارتباك وبحرية شبيهة بحرية الصباح في المعرض الأسبوعي الطلق.

العقيد روبستيانو دي أراجو وزوجته السيدة إيزابيل حضرا صباحاً إلى توكايا غراندي ليشهدا على معمودية توفو ابن ديفا وكاستور أبدووين: لقد كانا هناك في ساعة الدهن بالزيوت المقدسة.

الكلب ألما بينادا نبه على الكاهن وحاول أن يعضه عندما بدأ الطفل بالبكاء لدى تذوقه طعم الملح في فمه. حادث هزلي سبب الضحك الجماعي.

وفي طريقهما إلى محطة القطار، في تاكاراس، بعد حفلة المعمودية يرافقهما المرافق نازارينو، فإن العقيد والسيدة إيزابيل التقيا بحاشية فتورنيا وخلال عدة دقائق تبادل الجميع الملاحظات وسط اللغط. من أعلى سرج الحمار مانسيدي تأملت السيدة إيزابيل في "من هي" التي جاء ابن المرحوم العقيد بوافئتورا الصديق الحميم بها.

لم تستطع أن تنكر عليها الجمال الأجنبي وهي تبدو نسخة طبق الأصل عن مريم وهي هاربة إلى مصر متواضعة طاهرة. النساء الشبهات بالقديسات هن الأسوأ. علقت بذلك السيدة إيزابيل على مسمع زوجها عند متابعتها الرحلة. أما ما هو متعلق بالخريج فإنه لم يكن يعدو في نظرها غير قليل أدب.

19

عروسات أيار/مايو، بعضهن حبالى والأخريات يرافقهن أبناؤهن المولودون في حماة رذيلة المصاحبات، كن يقفن جنباً إلى جنب ووجوههن مرتفعة إلى الأعلى

باتجاه المذبح. وساعد الأخ تايون في ترتيب وقوف الأزواج وكل زوجين يقف
قربهما الإشبينان.

كان تيساو أبدووين قد برم للعروسات الريفيات خواتم معدنية. وكان
ضحكاً وحيوياً عند الصباح خلال حفلة المعمودية، ولكنه بدا رصيناً وجدياً، بعد
الظهر، عندما وقف إشبيناً لباستياو دا روزا وأبيغال. وكانت إيفانيا وهي تقف بين
الناس تحديق فيه قلقة: وكانت تعلم أن الزنجي كان يفكر في ديفا التي كان يمكن أن
يتزوجها لو لم تستهلكها الحمى.

والقول من هي العروسة الأجل والأكثر سعادة فمسألة صعبة وغير حكيمة؛
القول: من التي كانت الأصغر سناً فمسألة لا تقبل الشكوك وهي الصغيرة شيكا
بسنيها الأربع عشرة غير الكاملة وعذريتها الأكيدة، لأن شيكا لم تفسح المجال
لخطيبها بالينو وتزوجت غارقة بالدموع وهي تعبر بتنهدات عالية عن أسفها
للعذرية المعاقبة.

بالتزويج والتعميد وصلت البعثة المقدسة إلى النهاية: في اليوم التالي، عند
الفجر، انطلق المبعوثان إلى تاكاراس، المكان الأكبر والأقل شقاء. وكانت خطبة
الأخ زيكمونت قد أنهت القسم الديني من الحدث الذي هزّ توكايا غراندي
وقلبها رأساً على عقب خلال الثماني والأربعين ساعة من الانطلاق والحيوية.
أما القسم الأخير فلم يعتمد فيه على مشاركة الأخوين الدينيين إذ كان تحت
إشراف وإدارة بيدرو سيغانو العازف والمواطن الوجيه. وللاحتفال مرة واحدة
بكل هذا العدد من المعمدين والمتزوجين، فإن العيد يجب أن يطول كما طال
فعلاً. وبينما يرافقها فنتورينيا فإن لودميلا غريغوريوفنا سيتيكينباوون ذهبت إلى
مزرعة أتالايا قبل أن ينتهي الرقص، ولكن ليس قبل أن ترقص الرباعية الفرنسية
تحت قيادة كاستور أبدووين، الزنجي تيساو الذي خضع ذلك اليوم لانفعالات
متعددة.

خطبة الأخ زيكمونت فون غوتشهامر جاءت بما يسمى بمفتاح الذهب والقفل
على جواهر البعثة المقدسة. الكلمات التأكيدية والحارة إن لم تغرس في الأرض الصلبة
لنفس سكاك توكايا غراندي، فإنها وقعت على مسامع أكيدة جعلت المكان كله
يفرق في التأمل ويحدد الإجراءات وفقاً للتعليمات وللعادات الجيدة.

إن اسم المكان الذي أعطي إياه تكريماً لجريمة كان يقول على كل شيء:
فانظر كيف بدأ المخلص الكبير خطبته. باختصار فإنه اتهم تو كايا غراندي بمدينة
الخطيئة ومعقل اللصوص، مكان بلا قانون، لا قانون الله ولا قانون الإنسان،
وأرض السقوط ومملكة الشيطان. إن تو كايا غراندي هي سدوم وعمورة التي
تتحدى غضب الله، وفي يوم فإن لعنة الله ستتجمد ناراً لتعاقب الملحدين وتدمر
جدران السوء والكفر وتحول إلى رماد ذلك الكهف من الفضائح والانحراف.
هكذا تكهن.

في ساعة منح البركة، ومع منازعة الأصيل، فإن الأخ زيكمونت مطرقة الله
حرك الكأس ودار بها، ثم رسم في الهواء إشارة الصليب ولعن المكان ومن فيه.

مع وصول القانون انتهت توكايا غراندي،

وهي لا تزال في بدايتها،

ليبدأ تاريخ مدينة إيروزوبوليس

1

ملجأ اللصوص والقتلة الذين لا قانون لهم ولا ملك، مسلحون بالبنادق، وعاهرات - استنكر المرسل من عند الله. كان لا بد من كبح العنف المتجذر ووضع حدٍّ للفوضى والانحراف: قرّر العالمون المرفهون. الشائعة كبرت بسرعة في قصر العدل والبلدية والمحافضة والملاهي.

التقليد كان في أن السطو والكمائن والاستزلام ينتج عنها القانون والملكية، وأمام جيشه امتطى الملك صهوة جواده الأصيل وانطلق ليفرض القاعدة والسلام، السلطة والطاعة، حيث لا شيء غير الحرية والحلم.

من بلاغة الخطيب المخلص إلى مسيرة الجنود، كانت الخطوة قصيرة، وتم اجتياز المسافة بدقة بين شتاء الاحتفالات وصيف الطلقات النارية، بين الحياة والموت، بين الرجل ومستعبده. وأقصر من الخطوة هو زمن المعركة: من الأخبار المتتالية إلى الاحتلال فإن ما حدث قد حدث خلال أيام قليلة.

2

وصلت رسالة العقيد روبستيانو دي أراجو إلى النقيب ناتاريو دا فونسيكا وهذا في طريق عودته من مزرعة بوافيشتا حيث القطاف كان قد انتهى وجاء إنتاج الغرسات الجديدة أكثر بكثير من الحسابات الأكثر تفاؤلاً.

كان النقيب قد توقع أن يزيد الإنتاج قليلاً على الستماية أقة، ولكنه زاد على السبعمائة. كاكاو كهذا معتنى به إلى هذا الحد، هو فقط كاكاو مزرعة أتالايا، ثم غدا أفضل منه بالرغم من مساعدة الأستاذ لويس سيزار غوسماو ونظرياته الحديثة

حول زراعة (الكاكاو) (المخصب)، الشجرة الأستر كوليياسية - بعبارة المهندس الزراعي التشخيصية.

مع كل علمه الزراعي فإن المهندس لويس سيزار غوسماو أوشك على الطرد من وظيفته عندما عاد سيده فنتورينيا من الريو دي جانيرو حيث ذهب ليأخذ حماماً من الحضارة برفقة لودميلا غريغوريوفنا وأخيها بيوتر، وعلم بهبوط الإنتاج بالمقارنة مع إنتاج العام السابق. أصابته نوبة من الغضب فهتد الله والعالم وطلب تفسيرات. أما المهندس الزراعي وهو يقلب صفحات الكتب المتخصصة بالموضوع فقد فسّر أن الأمر هو كذلك: لأن النتائج الإيجابية لنظرياته العلمية الحديثة تحتاج إلى وقت وصبر. الوقت والصبر إلى حيث ألفت رحلها أم... - تتم فنتورينيا مغتاضاً. ولكنه عاد ليأخذ براهين الأستاذ غوسماو لأن ناتاريو رفض أن يأخذ علماً بالعروض المتجددة والمغرية ليعود إلى مركز إدارة المزرعة.

اغتاظ فنتورينيا وانفعل برفض ناتاريو بالرغم من أنه وعد ناتاريو سر كمال العقيد بوافقتورا بمنحه نسبة مئوية من الأرباح. وهذه مسألة لم تعرف سابقاً وهي مرفوضة وعرضة للنقد في آراء كبار المزارعين. وقاده الكلام إلى الغلظة في الكلام: لقد تكلم فنتورينيا لمن يريد أن يسمع عن عدم الوفاء واستعمل كلمة خيانة. وقال إن ناتاريو لم يحترم ذكرى رئيسه وحاميه الذي يدين له ناتاريو بكل شيء. وبالتالي إثر موت العقيد فإن النقيب أقام بيتاً ومنح مالا لساكرامنتو صاحبة العقيد والذي وضع له قرنين وهو يثوي في مأواه الأخير. وكان يلفظ الكلمات بلهجة أستاذية بنفس اللهجة التي أشار بها المهندس الزراعي إلى (الكاكاو المخصب والشجرة الأستر كوليياسية).

3

سمعت محادثات وشائعات لم أحبها، فاحترز - كانت هذه رسالة العقيد روبستيانو دي أراجو، الغامضة، والتي جاء بها المستر لم نازارينيو رجل ثقة، ولكنه لم يعرف كيف يضيف التفاصيل. في البداية، ظنّ النقيب أن المسألة متعلقة بانفعالات فنتورينيا التي لا تلبث أن تخمد والتي كانت تصل إلى ناتاريو فتحمله على الضحك: حرد أمر صغير وعندما سيذهب إلى إيتابونا فسيشمط أذنيه،

وننتهي إلى كأس نتحدث معها عن النساء، وينتهي الحرد. وبينما هو يروي الحكاية لفضول عبد الله تفاجأ لمعرفة بأن اللبناني تلقى، وبفارق قصير من الوقت، ورقة كتبها فؤاد كرم بلغة أدبية مصقولة حتى لا نقول شاعرية. الأجير يزرع الواحة بستاناً من النخيل، ولكن من يقطف الثمر فهو "الزنكيل". انتبه جيداً، يا عزيزي فضول، لأن الثمار بدأت تنضج! هكذا أُنذر بلغة عربية مخطوطة بإتقان. الورقة أوكلت إلى حادي القوافل زي - ريموندو الطبيب البيطري في المنطقة، لتسلم باليد إلى صاحب الدكان.

حاول الاثنان عصر دماغيهما: ناتاريو وفضول، ثم طلبا رأس كاستور أبدووين وكذلك لم يجدا مفتاح اللغز القادر على أن يضع تحت الضوء المعنى الواضح لما أعلمت به سفارة العقيد ولغة المثقف العويصة.

- خلال أسبوع سأذهب إلى إيتابونا لاستجلاء الأمر: - قال ناتاريو ذلك وهو لا يزال يحك دماغه.

- ماذا يمكن أن تكون تلك المحادثات التي لم تعجب العقيد روبستيانو؟ احترز من أي شيء؟ ما معنى نضج الثمر الذي ألمح إليه فؤاد كرم؟

ولمرافقة النقيب من كان في البدء عراباً في التعامل وأصبح الآن عراباً حقيقياً بعد معمودية نادو. ولكي يكون مع النقيب في المشرب، وفي نزل شانندو، قرّر فضول أن يقدم تاريخ سفره الأعمال: لقاء مع المجهزين، تصفية حسابات، وتحديد المستودع. وفي نزل الفتيات، سيوقظ مع شانندو ذكرى دلال زيزينيا دو بوتيا وهي وقد تاهت في سرجيبي فإنها لم تعد تطمئن بأخبارها وأن حفيدها دورفاليديو، (خذ - و - جيب).

وإذا ظلّ لديه وقت فسيذهب للتفصح مع ألفارو فاريا ويرى البحر الذي، وهو فتى، اجتازه مع مجموعة من المهاجرين ليأتي من بلاد الثمر إلى أرض الكاكاو.

4

لم يتمكننا من القيام بالرحلة المخططة، فلم يكن هناك متسع من الوقت لأن الأحداث بدأت تتعقد متتالية وانهارت عليهما بنسق أصابهما بالحيرة والغموض.

جاءت لالاج، نعم.
جاءت هي الان، اوه.

هاردي: تسجيل وقتها

طلب من العربة الانصراف قرب الجسر. كان ذلك اليوم الاخير من شهر أيار/مايو، يوما دافئا، فياضا ظللت فيه الاشجار واجهات البيوت، السماء نصفها يميل الى الزرقة ونصفها الاخر تكسوه السحب البيض، وظللت احدى هذه السحب برهة وجيزة منطقة تشيلسي، على الرغم من ان المخازن الواقعة قبالة النهر ما زالت مغمورة بنور الشمس.

لم يعرف مونتاغ اي شيء. فقد وصلته المعلومات بالبريد؛ قصاصة ورق لا تحتوي على شيء سوى الاسم والعنوان. تذكر تشارلز وهو يقف قرب مكتب المحامي العنوان السابق الذي تلقاه من سارة، الا ان هذا العنوان طبعة مستخرجة عن ختم نحاسي قاس؛ انه لا يستطيع ان يراها الا من الايجاز في الكلام او الكتابة.

كان مونتاغ قد تصرف تصرفا بالغ العناية حسب اوامر تشارلز التي تلقاها برقيا: يجب ان لا يقترب احد منها، لا يجب اثارة ذعرها او اعطاؤها فرصة اخرى للهروب. لعب احد الكتاب دور المخبر وفي جيبه نفس الاوصاف التي اعطيت الى المخبرين الحقيقيين، وافاد ان سيدة شابة تنطبق عليها الاوصاف المذكورة تقطن على ما يبدو في العنوان المذكور، وان الشخص المطلوب يسكن تحت اسم السيدة رافوود. وقد ازال تبديل مكان حروف الاسم اي شك من حول مدى دقة المعلومات. كما ازال، بعد الصدمة الاولى التي لم تدم طويلا، ما ينطوي عليه لقب الزواج. لقد كانت مثل هذه الخدع مألوفة تماما بين النساء غير المتزوجات في لندن، واثبتت عكس ما كانت تنطوي عليه وهو ان سارة لم تتزوج.

- لاحظ انها مرسلة من لندن. اليس لديك اي فكرة عن...

- ارسلت من هنا. من الواضح جدا انها ارسلت من شخص يعرف عن اعلاناتنا. وقد ارسلت شخصيا اليك، فالشخص هذا يعرف لمن نعمل، الا انه يظهر غير مهتم بالمكافأة التي اعلنا عنها. وهذا يوحي ان السيدة الشابة هي التي ارسلتها.
- لكن لماذا يتعين عليها ان تتأخر كثيرا في الكشف عن نفسها؟ يضاف الى ذلك، ليس هذا خط يدها.

اعترف مونتاغ صامتا بانه لا يدري.

- الم يحصل كاتبك على اي معلومات اضافية؟
- لقد اتبع التعليمات يا تشارلز. وقد منعت من القيام بأي استفسارات. وكان مصادفة ضمن حدود السمع في الشارع لما حيت احدى الجارات تحية الصباح. هكذا حصلنا على الاسم.
- والبيت؟

- بيت اسرة محترمة. هذا ما قاله حرفيا.

- يفترض انها مربية هناك.

- يبدو هذا مرجحا.

التفت تشارلز الى النافذة، وهو امر حسن، فالنظرة التي القاها مونتاغ على ظهره اوحى بنوع من الافتقار الى الصراحة. لقد منع الكاتب من طرح اي اسئلة، الا انه لم يمنع نفسه من طرح الاسئلة على الكاتب.
- الديك نية في رؤيتها؟

- انا لم اعبر المحيط الاطلسي يا عزيزي هاري...

وهنا ابتسم تشارلز معتذرا عن لهجته التي تنم عن نفاد الصبر.

- اعرف ما هو سؤالك. ولا استطيع الاجابة. ساعني. فهذه المسألة بالغة الخصوصية. في الحقيقة انني لا اعرف ما هي مشاعري، واظني لن اعرف حتى اراها ثانية، كل ما اعرفه حقا هو... انها لا تزال تستحوذ عليّ... وانني لا بد ان اتحدث اليها، لا بد... اتفهم...

- يجب ان تسأل ابو الهول.

- اذا كنت مهتما بسؤاله على هذا النحو.

- طالما تفكر في الذي حدث لاولئك الذين اخفقوا في حل اللغز.

لوى تشارلز قسمات وجهه بحزن.

- اذا كان الصمت او الموت هو البديل - واذا ذاك يفضل ان تعد العظة الجنائزية.

- اشك في ان ذلك لن يكون ضروريا.

وابتسما انذاك.

لا انه لم يتسم الان وهو يقترب من منزل سفينيكس. لم يكن يعرف شيئا عن المنطقة، بل كانت لديه فكرة بانها بديل حقير عن غرينويتش - مكان انهى فيه ضباط البحرية المتقاعدون ايامهم. وكان نهر التايمز ايام العصر الفكتوري اكثر تلوثا مما هو عليه اليوم، تغطي كل حركة من حركات مدّه مياه المجاري عل نحو شنيع. وفي احدى المرات، كانت الرائحة الكريهة لا تحتمل على نحو حدا باعضاء مجلس اللوردات الى الخروج من قاعتهم. وألقي عليه اللوم بسبب الكوليرا، وكانت البيوت الواقعة على شاطئ النهر لا تملك السمة الاجتماعية التي تملكها في قرنا الحالي الذي زالت منه الرائحة الكريهة. وعلى الرغم من كل ذلك، فقد كان في وسع تشارلز ان يرى ان البيوت جميلة تماما. وعلى الرغم من ان سكان تلك البيوت مخططون في اختيار بيئتهم، غير انهم لم يأتوا الى هناك بدافع الفقر كما يتضح.

اخيرا وصل الى البوابة القدرية وهو يرتعش في اعماقه ويراوده احساس انه ممتع في اللون واحساس ايضا بالمهانة والاذلال - فقد انجرفت نفسه الاميركية امام الماضي القوي والمتأصل وادرك مرتبكا انه نبيل يوشك ان يزور خادمة اعلى شأنا. كانت البوابة من الحديد المطاوع، تفتح على ممر يؤدي باختصار الى منزل شامخ مشيد بالاجر - على الرغم من ان ذلك البيت يتوارى حتى السطح وراء النباتات المعترشة الكثيفة، التي شرعت ورودها المتدلية ذات اللون الازرق الفاتح بالتفتح.

رفع مقرعة الباب النحاسية وطرق مرتين. انتظر عشرين ثانية تقريبا وبعدها طرق ثانية. في هذه المرة فتح الباب، ووقفت خادمة قبالته، فشاهد ردهة فسيحة من ورائها - والعديد من اللوحات مما جعل المكان يبدو متحفا للفنون.

- ارغب في الحديث الى سيدة... رافوود. اعتقد انها تقيم هنا.

كانت الخادمة مخلوقة شابة رشيقة، واسعة العينين ولا تعتمر القبعة الممزقة المألوفة. في الحقيقة، ما كان لي عرف كيف يخاطبها لو لم يشاهدها مرتدية صدرية.

- اسمك لو سمحت؟

لاحظ غياب كلمة «سيدي» لعلها ليست خادمة، فلهجتها ارفع كثيرا من لهجة الخادومات. ناولها بطاقته.

- ارجو اخبارها انني قطعت شوطا طويلا من اجل رؤيتها.

قرأت البطاقة بلا استحياء. انها ليست خادمة. وبدت مترددة. ان صوتا تناهى الى الاسماع في نهاية الردهة المظلمة وكان ثمة رجل اكبر من تشارلز بست او سبع سنوات يقف قرب عتبة الباب. التفتت الفتاة ممتنة له.

- يرغب هذا السيد في رؤية سارة.

- نعم؟

كان يمسك قلما بيده، وهنا خلع تشارلز قبعته وتحدث من فوق العتبة.

- لو تكلمت علي... انها قضية شخصية... فأنا اعرفها قبل ان تأتي الى لندن.

ثمة ما يثير الازدراء في تقييم تشارلز على الرغم من انه كان تقيما قصيرا جدا. وبدا متباهيا بشيابه مباهاة تفتقر الى الاهمال، يلوح اشبه بدزرائيلي في شبابه. نظر الرجل نظرة خاطفة الى الفتاة.

انها...؟

- اعتقد انهما يتحدثان، هذا كل ما هنالك.

- من الواضح ان الامر يخص من في رعايتها: الاولاد.

- نخذيه اذا الى الطابق العلوي يا عزيزتي. سيدي.

انحنى انحناء صغيرة واختفى بالسرعة نفسها التي ظهر فيها للعيان. اما الفتاة، ف اشارت الى تشارلز ان يلحق بها، وتركته كي يغلق الباب وحده. وفي حين شرع يرتقي السلم، كان لديه متسع من الوقت كي ينظر فيه الى اللوحات والرسوم المكدسة. وكان يمتلك ما يكفي من المعرفة في الفن الحديث ليدرك المدرسة التي تنتمي لها معظم اللوحات، والحق، ان يدرك من هو الفنان الشهير السيئ السمعة الذي كان توقيعُه يُشاهد على العديد منها. وكان الحماس الذي اثاره قبل ما يقرب

من عشرين سنة قد خف الان. والشيء الذي كان يعتقد بانه جدير بالحرق بات الان غالي الثمن. لقد كان السيد ذو القلم مقتني لوحات، لوحات مشكوكا فيها الى حد ما، الا انه كما يبدو رجل موسر.

سار تشارلز من وراء ظهر الشابة الرشيق وارتقى مجموعة من السلام. لا تزال هناك الكثير من اللوحات، الا انه اضحى الان بالغ القلق، لا يقوى على اعطائها اي اهمية. وفي حين شرعا يرتقيان مجموعة ثانية من السلام تجرأ تشارلز على طرح سؤال.

- اتعمل السيدة رافود مربية هنا؟

توقفت الفتاة في منتصف السلام ونظرت الى الورا. دهشة دفعتها الى الابتسام، ثم خففت من عينيها.

- انها لم تعد مربية.

سقطت عيناها على عينيها في لحظة قصيرة ثم واصلت صعودها.

وصلا الى فسحة ثانية في السلام. وهنا التفتت مرشدته العرافة قرب الباب.

- من فضلك انتظر هنا.

دخلت الغرفة تاركة الباب نصف مفتوح. استطاع تشارلز ان يشاهد من مكانه خارج الغرفة نافذة مفتوحة، وستارة مخرمة تتمايل الى الورا بفعل هواء الصيف، ولمعان النهر من ورائها ومن بين الاوراق المتشابكة. ثمة اصوات مهموسة. غير مكانه كي يرى على نحو افضل محتويات الغرفة. وهنا شاهد رجلين، نبيلين اثنين، يقفان قبالة لوحة من فوق مسند وضع على نحو مائل الى جهة النافذة للاستفادة من ضوءها. انحنى الرجل الاطول قامة لمعاينة بعض التفاصيل، فكشف بذلك عن الشخص الثاني الواقف من ورائه الذي نظر مصادفة من خلال الباب صوب عيني تشارلز. اظهر رغبة واهية ومن ثم القى نظرة خاطفة على شخص ما في الجانب الاخر من الغرفة المتواري عن الانظار.

وقف تشارلز مذهولا.

فقد كان ذلك الوجه وجها يعرفه، انه وجه سبق له ان اصغى له ذات مرة مدة ساعة او اكثر وكانت انذاك الى جانبه ايرنستينا. مستحيل ولكن... والرجل في الطابق السفلي! هذه اللوحات والرسوم! اشاح بوجهه ونظر، رجل يدخل في

كابوس لا يخرج منه، من خلال نافذة مرتفعة في الجانب الخلفي من الفسحة تؤدي الى حديقة خلفية حضراء من تحت. لم يشاهد شيئا، بل مجرد حماقة افتراضية بأن الساقطات لا بد ان يواصلن سقوطهن - او لم يأت للقبض على قانون الجاذبية؟ كان يرتعش مثل رجل يجد فجأة العالم من حوله وقد انقلب رأسا على عقب. صوت.

لقى نظرة خاطفة من حوله. كانت تقف هناك قبالة الباب الذي اغلقته على الفور، ويدها فوق المقبض النحاسي، لا تقوى على النظر بوضوح بعد ان توارى ضوء الشمس فجأة.

وثوبها!

كان ثوبا مختلفا حتى انه ظن فترة وجيزة انها امرأة اخرى. لقد شاهدها دوما في مخيلته مرتدية ثيابها السابقة، وجه مسكون ينهض من ظلمة موت الزوج. غير ان هذه المرأة كانت امرأة ترتدي ثياب المرأة الجديدة، رافضة رفضا قاطعا كل الاراء الشكلية المعاصرة الخاصة بزي الانثى. كانت تنورها ذات لون ازرق غامق مثبتة عند الخصر بحزام قرمزي له ابريم يمثل نجمة مذهب، ويشد من تحته ايضا قميصا حريريا مقلما بلونين الالبيض والوردي، طويل الكمين، منسابا، وياقة صغيرة دقيقة بيضاء مخرمة، ومن تحتها حجر ثمين يقوم مقام الرباط. اما الشعر فكان مشدودا من الخلف بشريط احمر.

اثار هذا الشبح البوهيمي الكهربائي استجابتين فوريتين في نفس تشارلز؛ الاولى هي انها بدت اصغر سنا بستتين بدلا من ان تبدو اكبر سنا بعامين؛ والثانية هي انه على نحو غير مفهوم لم يعد الى انكلترا بل قام برحلة دائرية وعاد الى اميركا، اذ كان الكثير من الشابات الانبيقات هناك يرتدين مثل تلك الثياب في اثناء النهار. وكن يدركن معنى مثل هذه الملابس - بساطتها وجاذبيتها بعد الكرنيولين والمشدات والارداف المستعارة البائسة. في الولايات المتحدة، وجد تشارلز اسلوبها جذابا جدا بما فيه من ايماءات مغناج للتحريض بأساليب اخرى. اما الان، وتحت شكوك اخرى جديدة وكثيرة، تلونت وجنتاه بلون لا يختلف كثيرا عن الخطوط الوردية القرنفلية في قميصها.

غير انه ازاء صدمته - ما هي الان، ما الذي آلت اليه! - انتابته موجة من الارتياح، تلك العينان، ذلك الفم، تلك المسحة الخفية الدائمة الموحية بالتحدي...

كلها لا تزال موجودة. لقد كانت المخلوقة المدهشة لذكرياته السعيدة - الا انها
متفتحة، تدرك بوضوح، تنتقل من طور اليرقانة الى الحشرة الكاملة.
مرت عشر لحظات طويلة ساد فيها الصمت التام. ثم شبكت يديها متوترة
من فوق الازيم المذهب وخفضت بصرها.

- كيف اتيت الى هنا يا سيد سميثسون؟

لم تشاهد العنوان، ولم تكن مقرة بالجميل. ولم يتذكر ان سؤالها كان يشبه
سؤال سبق له ان طرحه عليها عندما جاءت اليه على نحو غير متوقع. الا انه ادرك
ان مكانتيهما قد انقلبت الان. فهو الان الشخص المتضرع وهي المستمعة المترددة.
- لقد أخبر محامي أنك تقطنين هنا. ولا ادري من الذي أخبره.

- محاميك؟

- ألم تعرفني انني فسخت خطوبتي من الانسة ايرنستينا؟
اصبحت هي الان في حالة ذهول. وتفرست عينها في عينيه لحظة طويلة،
ومن ثم اطرقت. لم تكن على علم. اقترب منها خطوة واحدة وتكلم بصوت
خفيض.

- لقد فتشت عنك في كل ركن من اركان هذه المدينة. ونشرت في كل
شهر الاعلانات على أمل...

حدق كلاهما الى الارض الممتدة من بينهما، الى السجاد التركي الانيق الذي
كان مفروشا على امتداد الفسحة. حاول ان يجعل صوته طبيعيا.
- ارى انك...

كان يفتقر الى الكلمات، الا انه كان يعني انها قد تغيرت تماما.
قالت.

- لقد رفقت بسي الدنيا.

- ذلك السيد هناك - اليس هو...؟

أوامات مجيبة على الاسم الذي لا يزال في عينيه غير المصدقين.

- وهذا البيت يعود الـ...

اخذت نفسا قليلا، فقد باتت لهجته تنم على الاتهام. ففي ذهنه كان يتوارى
على نحو واه شيء من الغيبة والنميمة، لا عن الرجل الذي شاهده في الغرفة، بل

عن الشخص الذي شاهده في الطابق السفلي. وبلا سابق انذار، تقدّمت سارة من السلام التي كانت تؤدي الى اعلى البيت. وقف تشارلز متسمرا في مكانه. القت عليه نظرة خاطفة مترددة.

- تفضل بالصعود.

سار من ورائها وهو يرتقي السلام ليجد انها دخلت غرفة تواجه الشمال تطل على الحدائق الغناء الممتدة من تحتها. انه محترّف رسام (مرسم الفنان). فوق منضدة قريية من الباب ثمة مخلفات الرسم. وعلى مسند بداية تخطيط زيتي يمثل امرأة، شابة حزينة، مطرقة، وبعض النباتات من وراء رأسها. وهناك لوحات زيتية على قماش، مقلوبة قرب الجدار. وعلى مقربة من جدار اخر، مجموعة من كلاليب علقت عليها مجموعة متنافرة الالوان من الملابس واللفاعات والاشحة، جرة كبيرة من الخزف، مناخذ ملحقات - عبوات، فرش، علب الوان، نقش ضئيل البروز - منحوتات صغيرة، قارورة وفيها اعشاب قلما هناك قدم مربع واحد (929 سم مربع) بلا شيء من فوقه.

وقفت سارة قرب احدى النوافذ، وقد ولته ظهرها.

- انا سكرتيرته، مساعدته.

- اتعملين نموذجا له؟

- أحيانا.

- ادرك هذا.

الا انه لم يدرك اي شيء؛ فقد شاهد في زاوية عينه احدى الصور التخطيطية فوق منضدة قرب الباب وكانت تمثل انثى عارية، عارية من الخصر الى اعلى، وقد امسكت بقارورة فوق حوضها. لم يكن الوجه على ما يبدو سارة. الا ان النظرة كانت على نحو جعله غير واثق.

- انت تعيشين هنا منذ غادرت اكستر؟

- عشت هنا في السنة الاخيرة هذه.

كان يتمنى ان يسألها عن كيفية ذلك. كيف التقيا؟ ما هي الشروط التي يعيشان بموجبها؟ تردد، ثم وضع قبعته وعصاه وقفازه فوق احد المقاعد القريية من الباب. اصبح في وسعه الان ان يشاهد شعرها بكل ما فيه من غنى ممتدا حتى

خصرها. لاحت له اشد ضالة مما يتذكر، اكثر نخافة. اصطفق جناحا حمامة وحطت على حافة النافذة قبالتها. فزعت، ومن ثم حلقت بعيدا. فُتح باب وأُغلق في الطابق السفلي. ثمة اصوات خافتة لرجال يسرون من تحت. كانت الغرفة تفصل بينهما. كل شيء يفصل بينهما. وبات الصمت لا يطاق.

لقد جاء لينقذها من الفقر المدقع، من عمل مبهم في بيت مبهم. جاء مدججا بالسلاح، على اهبة لذبح التين؛ الا ان الانسة خرقت كل القوانين. لا قيود، لا نشيج، لا يدين متوسلتين. كان هو الرجل الذي يبدو مثل ثياب سهرة رسمية تحت الانطباع بانها حفلة ملابس تنكرية.

- ايعلم هو انك غير متزوجة؟

- انني اشق طريقتي بوصفي ارملة.

كان سؤاله التالي مشوشا، الا انه فقد كل لباقة.

- اعتقد بأن زوجته ميتة.

- ميتة، لكن ليس في قلبه.

- ألم يتزوج؟

- انه يشاطر اخاه هذا البيت.

ثم اضافت اسم شخص اخر كان يعيش هناك، كأنها تريد الايحاء بأن مخاوف تشارلز التي لا يستطيع اخفاءها بسبب هذا الدليل على سكان البيت انما هي مخاوف لا اساس لها من الصحة. بيد ان الاسم الذي اضافته كلن ليجعل اي فكتوري محترم في اواخر ستينات القرن التاسع عشر يستاء استياء شديدا. فالاھوال التي كان يثيرها شعره عبّر عنها صراحة جون مورلي⁽¹²⁵⁾، احد الكفوئين الذين ولدوا ليعبّروا (اي ليكونوا واجهة فارغة) عن عصرهم. تذكر تشارلز العبارة الضرورية الخاصة بإدانتة: «الفاسق المكمل بالغار» وسيد البيت نفسه! ألم تسمع انه

(125) جون مورلي (1838-1923): سياسي انكليزي من سياسي حزب الاحرار اشتهر بوصفه اديبا وبخاصة كاتب سير. من مؤلفاته المنشورة: (للموند بيرك - 1867)، (فولتير - 1872)، (روسو - 1873)، (بيدرو والموسوعيون - 1878)، (رالف والدو ايرصن - 1884)، (دراسات في الادب - 1891)، (اوليفر كرومويل - 1900)، (حياة غلاستون - 1903)، وغيرها. (المترجم)

كان يتعاطى الافيون؟ لاحت في ذهنه صورة بيت يتصف بالقصف والعريضة من اربعة او خمسة اشخاص اذا ما عدّ المرء ايضا الفتاة التي ارشدته الى الطابق العلوي. الا انه لم يكن هناك ما يشير الى العريضة في مظهر سارة. ان تقديم الشاعر بوصفه اشارة انما يدل ايضا على شيء من البراءة؛ وما الذي تعين على المحاضر والناقد الشهير ان يرى من خلال الباب، ما الذي يفعله رجل له افكار متطرفة، الا انه محترم، ومحط اعجاب الكثيرين في عرين خطيئة كهذا؟

اني ابالغ في تأكيد الاسوأ - تلك هي الانتهازية في تبسيط النصف المورلي⁽¹²⁾ من عقل تشارلز؛ اما نفسه الافضل، تلك النفس التي ساعدته من قبل ذات يوم على انه يدرك على الفور تعمد الاذى الذي كانت تلحقه بلدة لايم بطبيعتها الحقيقية، فقد ناضلت لطرد شكوكه.

بدأ يعبر عن افكاره بصوت هادئ؛ بصوت اخر في ذهنه صب لعناته على الشكلية التي اتسم بها، ذلك الحاجز الموجود في اعماقه الذي لم يستطع قول شيء عن الايام الموحشة، الليالي الموحشة التي لا عد لها ولا حصر، روحها الى جانبه، من فوقه، قبالة... دموع، لم يستطع كيف يعبر عن دموعه. اخبرها بما حدث في تلك الليلة في اكستر، بقراره، بخيانة سام الكبرى.

كان يتمنى ان تلتفت اليه، الا انها ظلت محدقة، دون ان يتمكن من رؤية وجهها، الى النباتات الخضراء من تحت. هناك اطفال يلعبون. التزم الصمت ثم تقدم مقتربا منها.

- الا يعني ما اقوله لك اي شيء؟

- يعني الشيء الكثير لي. لقد...

قال برفق.

- اتوسل اليك ان تكلمي كلامك.

- الكلمات تخونني.

ابتعدت، كأنها لا تقوى على رؤيته قريبا منها، ولما اصبحت قرب مسند اللوحات تجرأت ونظرت اليه، وغمغمت.

(126) المورلي: نسبة الى جون مورلي الوارد ذكره انفا. (المترجم)

- لا اعرف ماذا اقول.
- الا انها قالت ذلك دون عاطفة، بلا اي عرفان كان يتوق اليه، قالتها ببساطة
تثير الحيرة لا اكثر، بحقيقة قاسية.
- قلت لي انك كنت تحبيني. ومنحتني اعظم دليل تستطيع المرأة ان... ان
الذي استحوذ علينا ليست درجة اعتيادية من العاطفة والانجذاب المشترك.
- لا انكر ذلك.
- بان وميض يدل على استياء مُمتعض في عينيه. اطرقت، وران الصمت من
جديد في الغرفة. وهنا التفت تشارلز صوب النافذة.
- الا انك وجدت حبا جديدا ابلغ اثرا.
- لم اظن انني سأراك ثانية البتة.
- هذا لا يجيب عن تساؤلي.
- لقد حرّمت على نفسي الندم على ما هو مستحيل.
- لا يزال هذا...
- انا لست عشيقته يا سيد سميثسون. لو كنت تعرفه، لو كنت تعرف مأساة
حياته الشخصية. لما كان في وسعك لحظة واحدة ان تكون...
- الا انها امسكت عن الكلام. لقد بالغ اكثر مما ينبغي، وها هو يقف الان
متورد الوجنتين كمن ضرب على ظهر اصابعه. صمت ثانية، ثم قالت بهدوء.
- لقد وجدت حبا جديدا، الا انه ليس حبا كالذي توحى به.
- اذا لا ادري كيف افسر ارتباطك الواضح تماما لدى رؤيتي ثانية.
- لم تقل شيئا.
- على الرغم من ان في وسعي ان اتخيل ان لديك الان... اصدقاء يثيرون
المتعة والبهجة اكثر مما استطعت انا ان اتظاهر به.
- غير انه اضاف بعجالة:
- انت تضطرينني الى التعبير عن رأيي على نحو يثير نفوري.
- غير انها ظلت ساكنة لا تتكلم. فالتفت اليها وهو يتسم ابتسامة صغيرة
مريرة.
- افهم كيف هي الامور. لقد اصبحت انا مبغض البشر.

حقق صدقه نتيجة افضل، اذ القت اليه نظرة سريعة، نظرة لم تكن لتخلو من الاهتمام. ترددت، ثم توصلت الى قرار.

- لم يكن قصدي ان تصبح على ما انت عليه. اردت ان افعل الشيء الافضل. لقد اسأت الى ثقتك، الى كرمك. نعم، لقد رميت نفسي عليك، فرضت نفسي عليك، مدركة كل الادراك ان لديك التزامات اخرى. كنت مجنونة في ذلك الوقت. ولم ادرك ذلك ادراكا واضحا حتى ذلك اليوم في اكستر. ولم يكن تفكيرك السيئ نحوي سوى الحقيقة.

توقفت قليلا في حين انتظر هو.

- منذ ذلك الوقت رأيت فنانين يحطمون اعمالا من شأنها ان تبدو للهواة اعمالا جيدة جدا. اعترضت في احدى المرات. فقل لي، اذا لم يكن الفنان هو الحكم العنيد على اعماله، فانه غير جدير بأن يكون فنانا. اعتقد بأن ذلك صحيح. اعتقد بانني كنت على حق في تدمير الشيء الذي بدا بيننا. ثمة زيف فيه، و...

- لا يقع اللوم عليّ بسبب ذلك.

- لا، لا يقع اللوم عليك.

توقفت هنيهة ثم استأنفت كلامها بلهجة أرق.

- لاحظت مؤخرا عبارة عند السيد رسكين⁽¹²⁷⁾. لقد كتب عن تناقض الادراك. وكان يقصد بكلامه ان ما هو طبيعي اصبح زائفا بفعل ما هو اصطناعي والنقي زائفا بما هو غير نقي. اعتقد بأن ذلك هو الشيء الذي حدث قبل عامين. وهنا قالت بصوت خفيض.

- وانا اعرف اكثر من اللازم الجانب الذي اسهمت فيه.

راوده ذلك الاحساس المتيقظ من جديد بالاعتراض الغريب بالاستواء العقلي. ورأى ايضا التنافر الموجود دوما بينهما: الصفة الرسمية الشكلية التي تكتسبها لغته - البادية على اسوأ ما يكون في رسالة الحب التي لم تستلمها البتة - وصراحة لغته. لغتان اثنتان تدلان من جهة على الفراغ والارتباك الاحمق - الا انها قالت توا، السطحية في التصور - ومن جهة اخرى، جوهر الفكر ونقائهما، الاختلاف بين

(127) جون رسكين (1819 - 1900) كاتب وناقد فني انكليزي. اكد مساوئ المجتمع الصناعي الجديد. (المترجم)

شارة بسيطة، اذا جاز التعبير، وصفحة مزوقة من نويل همفريز وكلها عبارة عن زخرفة ملولبة، تعقيد، رعب الزخرفة البالغة في الفراغ. ذلك هو التنافر الحقيقي فيما بينهما، على الرغم من ان رقتها - او توقعها للتخلص منه - سعت الى اخفائه.

- افى وسعي الاستمرار في المجاز؟ الا يمكن التكفير عما تسميه الجزء الطبيعي والنقي من الادراك - تنبيه ثانية؟

- اخشى انه لا يمكن ذلك.

لم تنظر اليه وهي تتفوه بتلك العبارة.

- كنت على بعد اربعة الاف ميل من هذا المكان عندما وصلني خبر يفيد انهم قد عثروا عليك. حدث ذلك قبل شهر. لم تمر بسي ساعة منذ ذلك الوقت الا وفكرت في هذا الحديث. انك... انك لا تستطيعين الاجابة بملاحظات عن الفن مهما كانت متناقضة.

- غرضها ان تنطبق على الحياة ايضا.

- اذا ما تقولينه هو أنك لم تحبيني البتة.

- لا استطيع ان اقول هذا.

ابتعدت عنه، فسار من ورائها ثانية.

- لكن عليك ان تقرّي بذلك. لا بد لك من القول: «كنت شريرة تماما، انا لم ار فيه سوى اداة استطيع ان استخدمها، دمار استطيع ان احدثه. اما الان فلا يهمني ان كان لا يزال يحبني، وانه شاهد في رحلاته امرأة يقارنها بسي، انه شبح، ظل، نصف انسان، طالما يظل منفصلا عني».

احنت رأسها في حين خفض صوته.

- لا بد لك من القول: «لا يهمني ان جريمتي اظهرت ترددا استغرق بضع ساعات، لا يهمني ان كفر عن ذلك بالتضحية باسمه النبيل، بـ...» ليس ذلك بالشيء المهم، فانا على استعداد للتضحية بكل ما املكه مئات المرات ثانية لو كان في وسعي ان اعرف يا عزيزتي سارة انني...

اوشك ان يوصل نفسه على نحو خطير الى حافة البكاء. مدّ يده دون وعي الى كتفها، ولمسه. لكن ما ان لمسه حتى خفض يده عندما شعر بتصالب موقفها على نحو يصعب فهمه.

- هناك شخص آخر.

- نعم. هناك شخص آخر.

نظر الى وجهها المائل نظرة غاضبة واخذ نفسا عميقا ومن ثم سار صوب الباب.

- اتوسل اليك. ثمة شيء آخر اريد ان ا قوله لك.

- لقد قلت الشيء الوحيد المهم.

- الشخص الآخر ليس هو ما تفكر فيه.

كانت لهجتها جديدة تماما، قوية تماما، حتى انه اوقف حركته صوب قبعته. نظر نظرة خاطفة وشاهد مخلوقة منفصمة: سارة الاكبر سنا التي تتهمه، وسارة التي توسلت اليه ان يصغي لها. حذق الى الارض.

- هناك شخص آخر بالمعنى الذي تقصده. انه... فنان التقيت به هنا ويريد ان يتزوجني. اني معجبة به، واحترمه انسانا وفنانا، الا اني لن اتزوجه. لو اجبرت في هذه اللحظة على الاختيار بين السيد... بينه وبينك فلن تخرج من هذا البيت اكثر حزنا. اتوسل اليك ان تصدقني.

اقتربت قليلا منه، عيناها ثابتتان في عينيه، تماما واضطر الى ان يصدقها. اطرق ثانية.

- ان خصمكما المشترك هو نفسي انا. انني لا ارغب في الزواج. لا ارغب في الزواج بسبب.. اولا، بسبب ماضي الذي عودني على الوحدة. فكرت دوما انني اكرهها. اما الان فأنا اعيش في عالم يسهل جدا فيه تجنب الوحدة. ووجدت انني اكنزها. لا اريد ان يشاركني احد حياتي. اريد ان اكون على ما انا عليه، لا على النحو الذي يجب ان يتوقعه مني زوج مهما كان رقيقا، ومهما كان متسامحا. وسببك الثاني؟

- سببي الثاني هو حاضري. فأنا لم اتوقع ان اكون سعيدة في الحياة البتة. غير انني أجد نفسي سعيدة حيث انا الان، وعملي متعدد الالوان، مناسب لطبيعتي ومزاجي - عمل يثير البهجة الى حد كبير حتى انني لم اعد افكر فيه على انه عمل. اذ يسمح لي بالدخول في حديث النواذب اليومي. لمثل هؤلاء الرجال اخطاؤهم، عيوبهم. الا انهم ليسوا اولئك الذين يختار العالم ان يتخيلهم. فالاشخاص الذين

التقيتهم هنا يدعونني ارى مجموعة من المساعي الشريفة، من الاهداف النبيلة وانا لم اعرف إلى الآن انني موجودة في هذا العالم.
التفتت صوب مسند اللوحة.

- انا سعيدة يا سيد سميثسون، فقد وصلت اخيرا الى المكان الذي انتمي اليه، او هذا ما يلوح لي. انني اقول هذا القول بمنتهى التواضع. فانا لا املك اي عبقرية، لا املك ما هو اكثر من القابلية على مساعدة النوابع مساعدة متواضعة وصغيرة جدا. من الجائز ان تظن انني كنت محظوظة. لا احد يعرف ذلك افضل مني شخصيا. الا انني اعتقد بانني مدينة لحظي السعيد. ولن ابحت عنه في مكان اخر. وعليّ ان اراه حظا مزعزعا، مثل شيء يجب الا اسمح لنفسني ان تُحرم منه.

توقف هنيهة، ثم وقفت قبالة.

- من الجائز ان تفكر كيفما تشاء فيّ، الا انني لا استطيع ان اتمنى شيئا لحياي خلاف ما هي عليه في هذه اللحظة، ولا حتى عندما اجد انسانا احترامه يتضرع اليّ، انسانا يؤثر في اكثر مما يلوح عليّ، انسانا لا استحق منه مثل هذا السخاء المخلص في الحب.

خفضت عينيها.

- انسانا اتوسل اليه ان يفهمني.

كانت هناك العديد من النقاط التي آثر تشارلز ان يقاطع فيها هذا المبدأ. فالحجج الواردة فيه ظهرت كلها له هرطقة. الا ان اعجابه بالتمردة ازداد في اعماقه الدفينة. لم تكن لتشبه اي امرأة، لا تشبه اي امرأة اكثر من اي وقت مضى. ورأى ان لندن، حياها الجديدة، قد غيرت منها تغييرا طفيفا، قد هذبت من مفرداتها ولكنتها، قد اوضحت الحس، قد عمقت من وضوح بصيرتها، قد جعلتها الان تستقر من حول مفهومها الاساس عن الحياة ودورها فيها في حين كانت في السابق حائرة على نحو يفتقر الى الامان. لقد ضللتها ثياها البراقة اول الامر. الا انه بدأ يشعر انها ليست سوى عامل من عوامل معرفتها الذاتية وتملكها الذاتي الجديد. لم تعد تحتاج الى زي خارجي. فقد كان يراه، الا انه على الرغم من ذلك ما كان ليريد رؤيته. عاد الى مكان قريب من وسط الغرفة.

- الا انك لا تستطيعين رفض الهدف الذي من اجله خلقت المرأة. ما هو الثمن؟ ليس لدي شيء اقله ضد السيد...

اشار الى اللوحة من فوق المسند.

- وحلقته، غير انك لا تستطيعين وضع خدمتك لهم فوق القانون الطبيعي. زاد من توكيد خصاله الحسنة.

- انا ايضا تغيرت، عرفت الكثير عن نفسي، عن الاشياء الزائفة في. ليست عندي اي شروط. وفي وسع الانسة سارة وودراف ان تستمر كما هي عليه مثل السيد تشارلز سميثسون. لن امنعك من عالمك الجديد او من مواصلة الاستمتاع فيه. انا لا اعرض عليك ما هو اكثر من زيادة سعادتك الشخصية الراهنة. اتجهت صوب النافذة، في حين تقدم هو الى مسند اللوحة وعيناه ترنوان اليها. التفتت نصف التفاتة.

- انت لا تفهم. ليس الخطأ خطاك. فأنت انسان رقيق. اما انا فلن يفهمني احد.

- لا تنسي انك قلت لي ذلك من قبل. اظن انك تنظرين الى المسألة على انها مسألة كبرياء.

- كنت اقصد انني انا شخصيا لا افهم نفسي، ولا استطيع ان اخبرك بالسبب، غير انني اعتقد بأن سعادتي تعتمد على عدم فهم اي شخص لي. ابتسم تشارلز على الرغم منه.

- هذا غير معقول. فأنت ترفضين طلبي لانني ربما اجعلك تفهمين نفسك.

- انني ارفض، كما رفضت النبيل الاخر، لانك لا تستطيع ان تفهم ان المسألة عندي ليست غير معقولة.

اولته ظهرها ثانية وطفق يجد بصيصا من الامل، اذ بدت وهي تظهر - في اثناء التقاطها شيئا ما من فوق الرفادة البيضاء المستعرضة قبالتها - ما يشبه الارتباك الطفولي العنيد الذي يشبه ما تحاول ان تخفيه.

- لن تهربي هناك. من الجائز ان تحتفظي لنفسك بكل الغموض الذي ترغبين غير ان ذلك لن يبقى مقدسا عندي.

- لست انتَ ما اخشاه، بل اخشى حبك لي. وانا اعرف معرفة جيدة ان لا شيء يبقى مقدسا هناك.

شعر انه حرم من ثروة بسبب عبارة تافهة في وثيقة قانونية، انه ضحية انتصار قانون لاعقلاني على العزيمة العقلانية. غير ان ما من شأنها ان تستسلم للعقل. ومن الجائز ان تكذب على نحو اكثر صراحة على العاطفة. تردد ثم اقترب اكثر.

- افكرت كثيرا في في اثناء غيابي؟

اذ ذاك نظرت اليه، نظرة شبه جافة، كأنها توقعت هذا النمط الجديد من الهجوم، فرحبت به. اشاحت بوجهها بعد لحظة، وحدثت الى سطوح البيوت المقابلة للحدائق.

- اولاً، فكّرت فيك كثيراً. فكّرت فيك كثيراً جداً بعد ستة اشهر لما رأيت اول مرة احدى الاعلانات التي نشرتها في -

- اذا كنت تعرفين!

غير انها استأنفت كلامها باصرار.

- مما اضطرني الى تغيير محل سكناي واسمي. اجريت بعض الاستفسارات، وعلمت بعد ذلك، وليس قبله، انك لم تتزوج الانسة فريمان.

وقف متجمداً، غير مصدق خمس ثوانٍ طويلة. ثم نظرت اليه نظرة خاطفة صغيرة، شعر انه رأى فيها اغتباطاً واهياً، انها تملك دوماً هذه الورقة الراجعة على اهبة الاستعداد - والاسوأ من ذلك، انها انتظرت لتكشف عنها عندما ترى كل ما لديه من اوراق. ابتعدت بهدوء وساد ذلك الهدوء، تلك اللامبالاة الواضحة، رعب اشد من ابتعادها. تتبعها بعينيه ولعله بدا اخيراً يدرك سرها. لقد بدأ نوع من الانحراف الرهيب في القدر الجنسي الانساني. وهو ليس اكثر من جندي مشاة، قطعة شطرنج في معركة اكثر هولاً. ومثل كل المعارك، فإنها لم تكن معركة من اجل الحب، بل من اجل الاستيلاء والارض. وادرك ادراكاً عميقاً انها لم تكن تكره الرجل، او انها تحتقره احتقاراً مادياً اكثر من بقية الرجال، بل ان مناوراتها جزء لا يتجزأ من سلاحها، ادوات من اجل غاية اكبر، وادرك ادراكاً اشد عمقا ايضاً ان سعادتها الراهنة المفترضة كانت كذبة اخرى. ففي اعماقها الدفينة كانت لا تزال معذبة، على نفس النحو القديم. ذلك هو السر الذي كانت تخشى حقاً واخيراً ان يتمكن من اكتشافه.

ران الصمت.

- انتِ اذا لم تحطمي حياتي حسب، بل كان يلذ لك ان تفعلي ذلك.
- كنت اعلم ان لا شيء سيتمخض عن هذا اللقاء سوى التعاسة.
- اعتقد بانك تكذبين. اعتقد بانك تمتعت بفكرة تعاسي. واعتقد بانك انتِ
التي ارسلت تلك الرسالة الى محامي.
نظرت اليه نظرة حادة مستنكرة، الا انه واجهها بتكشيرة باردة.
- انت تنسين انني اعرف في غير صالحني توا انك تستطيعين ان تصبحي ممثلة
بارعة عندما يلائم ذلك اهدافك. وفي مستطاعي ان اخمن السبب الذي دعيت من
اجله الى هنا وهو توجيه الضربة القاضية الي. فلديك ضحية جديدة. فقد اشفي
غليل كراهيتك الذي لا يرتوي والبعيد كل البعد عن كل ما هو انثوي لجنس
الرجال مرة واحدة اخيرة... والان في وسعي الانصراف.
- انك مخطئ في الحكم علي.
تفوهت بعبارتها على نحو هادئ تماما كأنما لتظل دليلا على كل اتهاماته، بل
استطابت لها في اعماق نفسها الدفينة. هز رأسه بالنفي هزة مريرة.
- لا، بل انتِ كما قلت. فانتِ لم تغرسي الخنجر في صدري حسب، بل
طاب لك ان تحركيه فيه حركة دائرية.
انتصبت الان محدقة اليه، كأنها مجرم عنيد ينتظر قرار الحكم، على غير ارادتها،
بل مسحورة. ونطقت بالحكم.
- سيأتي اليوم الذي تُسألين فيه عما فعلته في. واذا كانت السماء عادلة، فإن
عقابك لن ينتهي الى الابد.
كلمات عاطفية. الا ان الكلمات أحيانا تكون اهميتها اقل من اهمية عمق
المشاعر الكامنة من ورائها - وكانت هذه الكلمات صادرة عن كيان تشارلز كله
ويأسه. لم تكن العاطفة هي التي تصرخ من ورائها، بل المأساة. ظلت لحظة طويلة
تحديق اليه وانعكس في عينيها شيء من الغضب الجامح الذي كان يتأجج في
روحه. وفجأة اطرقت.
تردد ثانية اخيرة وكان وجهه اشبه بجدار سد يوشك ان ينهار، اذ كان ثقل
الندم يضغط ضغطا هائلا في الاعماق. غير انه اغلق فمه واستدار على عقبيه، وسار
صوب الباب بالسرعة نفسها التي تبين فيها انها مذنبه.

هرولت من ورائه بعد ان جمعت اطراف ثوبها بيد واحدة. استدار لدى سماعه الصوت، فما كان منها الا ان تقف في مكانها حائرة. الا انه قبل ان يتمكن من السير، اسرعت ومرت من امامه صوب الباب، فوجد طريقه الى الخروج مغلقا.

- لا استطيع تركك لتذهب وانت معتقد بما قلت.

انتفخ صدرها كأنها مقطوعة الانفاس، عيناها ثابتتان من فوق عينيه، كأنها اعتمدت اعتمادا كلياً على ضغطهما في ايقافه. الا انها تكلمت لما ابدى اشارة غاضبة من يده.

- هناك سيدة في هذا البيت تعرفني، وتفهمني فهما افضل من اي انسان اخر في العالم. وهي ترغب في رؤيتك. اتوسل اليك ان تفعل ما اقول. وستوضح لك... طبيعتي الحقيقية افضل مني. وستشرح بأن تصرفي ازاءك لا يستحق اللوم الذي تفترضه.

اتقدت عيناه من فوق عينيها، كأنه سترك ذلك السد ينهار الان. وبذل جهدا صعبا كما يبدو كي يسيطر على نفسه، كي يتخلص من السعير، ويستعيد الهدوء. ونجح.

- انني مندهش اذ تعتقدين بأن شخصا لا اعرفه استطيع ان يبرر سلوكك. والان -

- انها تنتظرك، فهي تعلم انك موجود هنا.

- لا يهمني امرها حتى لو كانت هي الملكة. لن اراها.

- لن اكون حاضرة.

احمرت وجنتاها احمرارا شديدا مثل احمرار وجنتي تشارلز. وللمرة الاولى - والاخيرة - في حياته، مال الى استخدام القوة البدنية ضد شخص من الجنس اللطيف.

- تنح جانبا.

الا انها هزّت رأسها بالنفي. اصبح الموضوع الان خارج نطاق الكلمات، انها مسألة ارادة. وكان تصرفها قويا - مأساويا. الا ان شيئا غريبا استحوز على عينيها - شيئا قد حدث، نسمة من عالم اخر كانت تهب على نحو غير محسوس من بينهما. راقبته كأنها عرفت انها جعلته في موقف حرج؛ خائفا الى حد ما، لا يعرف

ماذا يفعل، ولكنه بلا مناورة، كان لا شيء من وراء ذلك المظهر سوى حب فضول: ترقب نتيجة تجربة. شيئاً ما تردد في اعماق تشارلز. انخفضت عيناه. فوراء كل ثورته العاتية ادرك انه لا يزال يحبها، وان هذه هي المخلوقة الوحيدة التي لا يستطيع نسيان ضياعها. قال وهو ينظر الى الابرص المذهب:

- ماذا افهم من هذا الشيء؟

- ستفهم الشيء الذي كان ممكناً ان يتوقعه منذ وقت قصير اي رجل اقل استقامة ونبلًا.

نقّب في عينيها. اهنالك ادنى ابتسامة فيهما؟ لا. لا يمكن ان توجد، ولا توجد. حملته بين عينيها الغامضتين لحظة اخرى، ثم تركت الباب واجتازت الغرفة صوب مقبض جرس قرب الموقد. بات حراً في ان يذهب، بيد انه راقبها دون ان يتحرك... اي رجل اقل استقامة ونبلًا... اي شناعة جديدة تهدده الان! امرأة اخرى تعرفها وتفهمها افضل منه... تلك الكراهية للرجل... هذا البيت الذي يسكنه... لم يتجرأ على البوح بذلك.

اعادت المقبض النحاسي الى الورا ومن ثم عادت اليه ثانية.

- ستأتي على الفور.

فتحت سارة الباب ونظرت اليه من طرف عينيها.

- ارجو منك ان تصغي الى ما ستقول، وان تضيفي عليها الاحترام اللائق بسنها ومكانتها.

ثم اختفت. غير انها تركت في تلك الكلمات الاخيرة مفتاحاً ضرورياً. وحلّس على الفور بمن سيلتقي عما قريب. انها شقيقة رئيسها، الشاعرة (لن اخفي الاسماء بعد الان) الانسة كريستينا روزيتي⁽¹²⁸⁾. مؤكداً! ألم يجد دوماً في شعرها صوفية محددة عصية على الفهم في تلك المناسبات النادرة التي القى فيها نظرة عليه،

(128) كريستينا روزيتي (1830 - 1894): شقيقة (دانتي غبريال روزيتي) بدأت نظم الشعر في سن مبكرة. شعرها مكرس في الاساس لمعالجة موضوعات الزوال وبخاصة زوال الاشياء المادية. عانت كثيراً من سوء حالتها الصحية وعاشت حياة كئيبة استحوذت عليها فكرة نموذج النقاء الروحي الذي يتطلب انكار الذات. كانت النزعة الدينية واضحة في اشعارها ايضاً. (المترجم)

غموض عنيف، الاحساس بفعل يعوز الى الداخل وينحو منحى انشويا، واذا شئنا الصراحة، يتخبط تخبطا لامعقولا فوق حدود الحب الانساني والمقدس؟

تقدم صوب الباب وفتحه. كانت سارة قرب باب يقع في اقصى طرف فسحة السلام وتوشك ان تدخل. نظرت من ورائها في حين فتح فاه ليتكلم. غير ان صوتا هادئا ما انبعث من الاسفل، وشخصا ما كان يرتقي السلام. رفعت سارة اصبعها الى شفيتها وتوارت عن نظاره داخل الغرفة.

تردد تشارلز، ثم عاد ادراجه الى داخل المرسوم وسار صوب النافذة. وادرك الان على من يقع اللوم بسبب فلسفة سارة عن الحياة - انها المرأة التي وصفتها مجلة بنش ذات يوم بأنها رئيسة دير الراهبات العاطفية، العانس المستيرية لجمعية الاخوة ما قبل الرافائيلية. كم تمنى لو انه لم يأت!، لو انه اجري تحريات اكثر قبل ان يرمي نفسه في هذا الموقف البائس! لكن ها هو الان، ووجد نفسه فجأة وقد عقد العزم - على نحو لا يخلو من تلذذ رهيب - ان السيدة الشاعرة لا ينبغي لها ان تركب رأسها وتصر على فعل ما تريد. فهو عندها قد لا يكون اكثر من ذرة رمل وسط ملايين لا تحصى من الذرات، عشبة ضارة في الحديقة اللطيفة لـ...

تناهى الى سمعه صوت. التفت وقد بان الهدوء التام على وجهه، الا انها لم تكن الانسة روزي، بل الفتاة التي ارشدته الى الطابق العلوي، وهي تحمل طفلا صغيرا بين ذراعيها. يبدو انها شاهدت الباب نصف مفتوح فما كان منها الا ان اختلست النظر وهي في طريقها الى ذلك الجزء من البيت المخصص للاطفال، ودهشت اذ رآته منفردا.

- هل انصرفت السيدة رافوود؟

- افهمتي ان... سيدة ترغب في الحديث اليّ حديثا خاصا. وقد ارسلت في طلبها.

أمالت الفتاة رأسها.

- ادرك هذا.

الا انها بدلا من ان تنصرف كما كان تشارلز يتوقع، تقدمت داخل الغرفة ووضعت الطفل فوق سجادة قرب مسند اللوحة. تحسست جيب صدريتها ووضعت دمية من قماش قرب الطفل، ثم جثت على ركبتها برهة وجيزة كأنها

تريد ان تتيقن من ان الطفل في منتهى السعادة. وبلا تحذير، استقامت وسارت على نحو رشيق صوب الباب في حين وقف تشارلز وقد بانث عليه امارات الحيرة والاهانة.

- اعتقد ان السيدة ستأتي عما قريب؟

التفت الفتاة وابتسمت ابتسامة صغيرة، ثم القت نظرة سريعة الى الطفل فوق السجادة.

- ستأتي.

ظل تشارلز يحدق عشر ثوانٍ على الاقل بعد ان اغلق الباب. كانت طفلة صغيرة ذات شعر اسود وذراعين مكتنزتين، وكانت اكبر قليلا من طفل رضيع. ويسبدو انها ادركت فجأة ان تشارلز شخصا حيا. فرفعت يدها وسلمته الدمية بصوت غير مفهوم. تولد الانطباع لديه بوجود قزحيتين رماديتين هادئتين في وجهه اعتيادي، وساوره شك يثير الخوف لا يدري ما كنهه... بعد ثانية واحدة، جثا قبالة الطفلة من فوق السجادة مساعدا اياها في الوقوف على قدميها غير الثابتين، متفحصا ذلك الوجه مثل عالم اثار كشف النقاب عن اول نموذج لنص قديم مفقود. اظهرت الطفلة الصغيرة اشارات واضحة على عدم استلطافها هذا الفحص. لعله امسك بالذراعين الهشتين على نحو اقوى مما ينبغي. بحث بسرعة عن ساعته، مثلما كان قد فعل ذلك يوما ما لما وجد نفسه في ورطه مماثلة. فكان لها نفس الاثر الطيب، وبعد بضع لحظات - بات في وسعه ان يرفع الطفلة دون احتجاج ويحملها الى احد الكراسي القريبة من النافذة. جلست فوق ركبتيه مركزة اهتمامها في لعبتها الفضية، اما هو فكان يركز في وجهها، يديها، كل بوصة سنتيمتر منها.

وفي كل كلمة قيلت في تلك الغرفة. اللغة اشبه بحرير متموج الالوان، يعتمد كثيرا على الزاوية التي يمسك بها.

سمع صوت السباب يفتح بهدوء، غير انه لم يلتفت. وبعد لحظة واحدة، استراحت يد فوق ظهر الكرسي الخشبي العالي التي كان يجلس فوقها. لم يتكلم كما لم يتكلم صاحب اليد، وكانت الطفلة مستغرقة في الساعة مما دفعها الى ان تبقى صامتة هي الاخرى. وفي بيت بعيد، بدأت سيدة تعزف البيانو - سيدة يمر وقتها مروراً بطيئاً لأن تنفيذ العزف كان فقيراً، لا تكفر عنه سوى المسافة:

موسيقى المازوركا لشوبان، تنساب من خلال الجدران، من خلال الاوراق ونور الشمس، ذلك الصوت المتواصل المهتر هو وحده الذي كان يشير الى التعاقب والتوالي، والا كان الامر مستحيلا: لقد استحال التاريخ الى توقف حي، صورة في الجسد.

غير ان الطفلة الصغيرة بدأت تتلمل، فمدت يديها الى ذراعي امها. رفعت من مكانها، رقصت ومن ثم حملت مسافة بضع خطوات. ظل تشارلز يحدق الى ما وراء النافذة لحظة طويلة. ثم وقف في مواجهة سارة وحملها. عيناها رزيتان، الا انها تبسم ابتسامة شاحبة. اصبح الان معرضا للتهكم اللاذع، غير انه كان على استعداد للسفر اربعة الاف ميل كي لا يتعرض لمثل هذا التهكم.

حاولت الطفلة ان تمد يدها الى الارض بعد ان شاهدت دميتها هناك. انحنى سارة قليلا، وتناولت الدمية واعطتها لها. ثم راقبت قليلا استغراق الطفلة في دميتها وهي تتكى على كتفها، ثم انتقلت عيناها لتستقرا فوق قدمي تشارلز، اذ لم تكن تقوى على النظر الى عينيه.

- ما اسمها؟

- لالاج.

لفظت الاسم مثل تفعيلة شعرية، بتركيز في صوت الحرف (ج). الا انها ظلت لا تستطيع رفع عينيها اليه.

- اقترب مني السيد روزيتي⁽¹²⁸⁾ ذات يوم وانا قي الشارع. لم اعرف ذلك، غير انه كان يراقبني. وطلب مني ان اسمح له ان يرسمني. لم تكن قد ولدت بعد. كان في منتهى الشفقة والعطف لما عرف بظروفي. وقد اقترح هو شخصيا الاسم، وهو عراها. وتمت.

(128) دانتي غبريال روزيتي (1828 - 1882): شاعر ورسام انكليزي ومؤسس جمعية الاخوة ما قبل الرافائيلية يحظى باحترام شديد في العصر الراهن بوصفه فنانا استخدم نمطا من انماط التعبير الرمزي الذي كان له اثره البالغ في القارة الاوروبية. عاش حياة مضطربة ووصفه الناقد (جون رسكين) بانه «ايطالي عظيم تاه في جحيم لندن». صور في اشعاره وبخاصة «بيت الحياة» الحب بين الرجل والمرأة وصفا ماساويا. (المترجم)

- اعرف انه اسم غريب.

- من المؤكد ان مشاعر تشارلز كانت غريبة. ولم تزد هذه الغرابة الاخيرة الا بهذا الاحاح الغريب على رأيه في مسألة تافهة في مثل هذه الظروف، كان سفينته اصطدمت بشعاب صخرية واذا به يسأل عن رأيه في اي افضل مادة لتنجيد المقصورة. غير انه وجد نفسه يجيب كأنه تحت تأثير المخدر.

- انه اسم اغريقي مأخوذ من كلمة (لا لا جيو) وتعني خريز مثل خريز الغدير. احنت سارة رأسها كأنها تشكره على هذه المعلومات في اشتقاق الكلمات. ما زال تشارلز يتفرس فيها وصواريه تحطم، وصرخات الغرقى في ذهنه. لن يغفر لها البنة. وسمع همسها.

- الا تحبه؟

- اني...

- ابتلع ريقه.

- نعم. اسم جميل.

احنت رأسها ثانية، غير انه لم يستطع الحركة، لم يستطع ان يخلص عينيه من استجوابهما الرهيب؛ كان مثل رجل يحدق الى مبنى منهار ربما كان ليقضي عليه وينهي حياته لو انه مر من امامه بعد لحظة واحدة؛ من باب المصادفة، وهب ذلك العنصر الذي من المؤلف ان تصرف عقلية الانسان النظر عنه، وتتركه في غرفة الاسطورة الزائدة عن الحاجة، الجسد في هذا الشخص، هذا الشخص المزدوج قبالة. ظلت عيناها خفيضتان تظللها الرموش السود. الا انه رأى، او لعله ادرك، الدموع في مقلتيها. تقدم خطوتين او ثلاث خطوات بلا ارادة صوبها. ثم توقف ثانية. لم يستطع، لم يستطع... وانفجرت الكلمات متدفقة منه على الرغم من انها كانت واهنة.

- لكن لماذا؟ لماذا؟ ماذا لو لم...

انحنى رأسها اكثر من ذي قبل. ولم يتمكن من فهم جوابها.

- كان لا بد من ذلك.

وادرك الامر: الامر متروك لله، متروك له ان يغفر خطيئتهما. بيد انه ظل يتفرس في وجهها المتواري عنه.

- وكل تلك العبارات القاسية التي تفوهت بها... وارغمتني على الرد عليها؟
- لا بد من التفوه بها.

اخيرا رفعت بصرها اليه، عيناها مغرورقتان بالدموع، نظراتها صريحة لا تُحتمل. مثل هذه النظرات تلقيناها وشاركنا فيها لكن مرة واحدة او مرتين في حياتنا؛ انها نظرات تذوب فيها عوالم ويتحلل فيها اكثر من ماضٍ، لحظات تتصل عندما نعلم في قرار الضرورة الماسة بأن صخرة عصرنا لا يمكن ان تكون سوى الحب، في هذا المكان وهذا الزمان، تتصل في هاتين اليدين، في هذا الصمت الاعمى الذي يرتاح فيه رأس تحت رأس اخر، صمت يقطعه تشارلز بعد خلود، على الرغم من السؤال يأتي من بين انفاسه اكثر مما ينطق به من شفثيه.

هل لي ان افهم يوما ما حكايتك الرمزية؟

يهتز الرأس المتكئ على صدره بحماس مكتوم. لحظة طويلة. ضغط الشفتين على الشعر الكستنائي. تتوقف عن العزف تلك السيدة غير الموهوبة في ذلك البيت البعيد وقد استبد بها الندم بلا ريب (او ربما استبد بها شبح شوبان المعذب البائس). اما لالاج، فتذكر والدها - في الوقت الملائم حقا - ان الف كمان يشبع على نحو سريع بلا ضرب، كأن الصمت الرحيم جعلها تفكر في جماليات الموسيقى ودفعها الى ان تضرب دميته المصنوعة من القماش فوق وجنته المائلة.

النشوء هو ببساطة عملية تتعاون فيها الصدفة (التغير الاحيائي العشوائي في لولب الحامض النووي الذي سببه الاشعاع الطبيعي، مع القانون الطبيعي لخلق اشكال حية مكيفة للبقاء حية على نحو افضل وافضل.

مارتن غارنر: للكون البارع 1967

التقوى الصحيحة هي ان يفعل المرء ما يعرفه.

ماثيو لرنولد: دقاتر ملاحظات 1866

من القواعد التي اثبتتها الزمن في حرفة الروائي الا يقدم البتة في نهاية الكتاب سوى بعض الشخصيات الثانوية جدا. اعتقد ان من الجائز ان نغفر تقصير لاج. الا ان الشخص المهم جدا على ما يبدو الذي كان في اثناء المشهد الاخير ينحني من فوق حاجز السدة في الجهة المقابلة للطريق الممتد من (16 شيني ووك) - وهو بيت السيد (داني غبريال روزيتي) الذي اصيب بالكوليرا وتوفي بسببها لا بسبب تعاطيه الافيون - قد يبدو اول وهلة وهو يمثل خرقا خطيرا لتلك القواعد. انا لم ارغب في تقديمه. لكن بما انه ذلك النمط من الاشخاص الذين لا يستطيعون البقاء خارج الاضواء، ومن النمط الذي يسافر في مقاعد الدرجة الاولى والا فلا يسافر البتة، والذي يمثل الضمير الاول عنده الضمير الوحيد، وباختصار، تملكه اول الاشياء، وبما انني رجل يرفض التدخل في الطبيعة (حتى اسوأ طبيعة)، فإنه رجل ادخل نفسه - او كما من شأنه ان يعبر هو - ادخل نفسه كما هو عليه. لن اسهب في الايجاء بأنه ادخل نفسه سابقا لا كما هو عليه حقا، ولهذا فهو ليس بشخصية جديدة البتة؛ ولكن اطمئن، فهذه الشخصية ثانوية تماما على الرغم من المظاهر - وضئيلة مثل ذرة من ذرات اشعة غاما.

كما هو عليه حقا... وكما هو مزاجه الحقيقي فذلك مما لا يبعث على السرور. فاللحمة التي كانت ذات يوم لحمة ابوية، كاملة تضاءلت الان لتصبح لحمة

غندور، ومتفرنسة. وهناك مسحة واضحة من البهرجة الصارخة في الثياب، في الصدرية الصيفية المزركشة على نحو مسرف، في الخواتم الثلاثة التي تزين اصابعه، السيجار الرفيع الطويل في مبسمه العنبري، والخيزرانة ذات الرأس المعدني. يظهر عليه انه ترك الوعظ واهتم بالاوبرا ذات الموضوعات الجادة والغناء المستمر، وكان في الاوبرا افضل مما هو في الوعظ. باختصار، هناك اكثر من مسحة تدل على انه متعهد حفلات فنية ناجح.

الان، وفي حين يسند نفسه الى الحاجز، يضغط على حافة انفه ضغطا خفيفا بين خنصره واصبعه الوسطى المطوقين بخاتمين. ويتملك المرء الانطباع انه لا يستطيع احتواء متعته. فيحذق الى الوراء صوب بيت السيد روزيتي، وبمسحة تملك كأنه مسرح جديد اشتراه توا وعلى ثقة تامة بانه يستطيع ان يملأه. في هذا المنحى، لم يتغير: فهو، على ما يتضح، ينظر الى العالم بوصفه عالما يملكه ويوظفه حسبما يشاء.

الا انه انتصب. لقد كان التسكع في تشيلسي فترة ممتعة، بيد ان اعمالا اكثر اهمية تنتظره. يُخرج ساعته ويختار مفتاحا صغيرا من بين مفاتيح كثيرة مربوطة في سلسلة ذهبية ثانية. يعدل الوقت، ويبدو انه متقدم على الوقت بربع ساعة على الرغم من ان ذلك غير مألوف في ساعة من صنع اعظم صانعي الساعات. ومما يزيد في الامر غرابة، انه لا توجد ساعة مرئية يمكن ان يكون قد اكتشف من خلالها الخطأ في ساعته. الا انه يمكن التكهن بالسبب. فهو يوفر على نحو حقير لنفسه عذرا لتأخره عن مواعده التالي. فهناك نمط من الاسياد الذين لا يستطيعون تحمل ظهورهم على خطا حتى فيما يخص اتفه المسائل.

اشار اشارة حاسمة بعصاه صوب عربة تنتظر على بعد مائة ياردة (91 مترا) منه. فتهدات صوب حافة الرصيف القريبة منه، ويقفز منها مساعد الحوذي ليفتح الباب. يصعد متعهد الحفلات، يجلس، يتكئ على نحو يوحي بالعظمة الى الوراء فوق الجلد القرمزي ويصرف النظر عن البساط الموسوم بالرسوم الذي يعرضه مساعد سائق العربة قرب ساقه. ثم ينحني ويغلق الباب وينضم الى رفيقه الجالس في مقعد الحوذي. وتصدر التعليمات في حين يلمس سائق العربة قبعته ذات الشريط بمقبض سوطه.

وتبتعد مركبة الاغنياء على نحو رشيق.

- لا، كما قلت أنا. فأنت لم تغرسي الخنجر في صدري حسب، بل طاب لك ان تحركيه فيه حركة دائرية.

وقفت الان محدقة الى تشارلز، كأنها مجرم عنيد ينتظر قرار الحكم، على غير ارادتها، بل مسحورة. ونطق بالحكم.

- سيأتي اليوم الذي تسألين فيه عما فعلته في. واذا كانت السماء عادلة فإن عقابك لن ينتهي الى الابد.

تردد ثانية اخيرة، وجهه اشبه بجدار سد يوشك ان ينهار، اذ كان ثقل الندم يضغط ضغطا هائلا في الاعماق، غير انه اغلق فمه واستدار على عقبه وسار صوب الباب بالسرعة نفسها التي تبين فيها انها مذنبه.

- سيد سميثسون!

خطا خطوة او خطوتين، توقف، القى نظرة اليها من طرف عينه ومن ثم حذق الى اسفل الباب قبالة على نحو عنيف لا يرحم. سمع حفيف ثيابها الخفيف وهي تقف من ورائه.

- اليس هذا دليلا على ما قلته تواء، الافضل لو لم نلتق ثانية؟

- ان منطقك يفترض انني عرفت طبيعتك الحقيقية، الا انني لم اعرف.

- اوافق انت؟

- ظننت سيدتك في بلدة لايم امرأة انانية، متزمتة. اما الان فادرك انها قديسة مقارنة برفيقتها.

- ولا يستعين عليّ ان اكون انانية اذا ما قلت ان في وسعك ان تتزوجني مع العلم انني لا استطيع ان احبك كما ينبغي للزوجة ان تحب. نظر اليها تشارلز نظرة جامدة.

- مرّ وقت تحدثت فيه عني بوصفي ملاذك الاخير، بوصفي الامل الوحيد الباقي لك في هذه الحياة. حسنا جدا. لكن لا تحاولي الدفاع عن نفسك فهذا مما يزيد الطين بلة.

فكر في ذلك طيلة الوقت: فكر في ذلك النقاش القوي على الرغم من انه النقاش الاكثر مدعاة للاحتقار. ولما كان قد قال ما قال، فانه لم يستطع ان يخفي

ارتباكها، بعد ان عيل صبره ولم يبقَ في قوس صبره منزع، على الاقل، فيما يخص شعوره بالغضب الجامح. نظر اليها نظرة اخيرة معذبة ثم ارغم نفسه على السير الى امام لفتح الباب.

- سيد سميثسون!

ثانية!

شعر الان بيدها فوق ذراعه، مرة ثانية يقف مكتوف اليدين، كارها تلك السيد، وضعفه في السماح لها ان تشلّه. ظهرت كأنها تحاول ان تقول له شيئا ما لا تستطيع ان تعبر عنه بالكلمات. على الأرجح، لا اكثر من اشارة ندم او اعتذار. على الرغم من ذلك، فلو كان الامر كذلك، فإن يدها كانت لتسقط حالما لمستته. وهذه ما عطله لا على نحو نفسي حسب، بل وبديني ايضا. وعلى نحو بطيء جدا التفت ونظر اليها، وراى لدهشته، ان في عينيها، ان لم يكن فوق شفتيها، شبح ابتسامة، شبحا من ذلك النمط الذي عرفه من قبل، بمنتهى الغرابة، لما فاجأها سام وماري تقريبا. اكانت مفارقة عندما قالت له الا ينظر الى الحياة نظرة جادة اكثر مما ينبغي؟ اهو تلذذ اخيرا بتعاسته؟ لكن ها هي ثانية، ففي حين كان ينقب فيها بعينه الحزيتين الساخطين تماما كان ينبغي لها ان تخفض يدها. الا انه على الرغم منذ لك ظل يشعر بضغطها على ذراعه، كأنها تقول انظر، الا تجد ان هناك حلا؟

عثر عليه. نظر الى اسفل صوب يدها، ثم رفع بصره ثانية الى وجهها. ومنتهى البطاء، توردت وجنتاها، كأنما لترد بذلك عليه، وتلاشت الابتسامة من عينيها. سقطت يدها الى جانبها. وظلا يحذقان الى بعضهما بعضا كأن ثيابهما سقطت من على جسديهما وباتا عارين. الا ان العري كان في ظنه مرضيا اكثر منه جنسيا، عريا تكشف فيه السرطان بكل حقيقته المتقرزة. بحث في عينيها عن دليل يشير الى نياتها الحقيقية ولم يجد سوى روح على استعداد للتضحية بكل شيء سوى نفسها - على استعداد للتخلي عن الصدق والمشاعر وعلى الأرجح كل التواضع الانثوي من اجل انقاذ نزاهتها. وشعر لبرهة انه معرض للاغواء في تلك التضحية المحتملة النهائية. في وسعه ان يشاهد خوفا من وراء المعرفة الواضحة الان بأنها قد قامت بحركة زائفة. وان قبول عرضها بصدقة افلاطونية - حتى لو كانت يوما ما غير موقوفة لغرض نبيل - من شأنه ان يؤذي مشاعرها كل اذى.

الا انه ما ان ادرك ذلك حتى فهم حقيقة مثل هذا الترتيب - انه سيصبح الاضحوكة السرية في هذا البيت الفاسد، العاشق، المتمسك بالرسميات، الحمار الصغير. وادرك تفوقه الحقيقي عليها، وهو تفوق ليس مصدره المولد ولا الثقافة ولا الذكاء ولا الجنس، بل القدرة في العطاء التي هي ايضا العجز عن المساومة. انها لا تستطيع ان تهب الا لكي تمتلك. وان امتلاكه - سواء كان ما هو عليه او لأن التملك كان من القوة في اعماقها ما يجعله متجددا على نحو مستمر، وانه لا يمكن اشباعه بانتصار واحد فقط، سواء... الا انه ما كان يدري وما من شأنه ان يدري ابدا - ان امتلاكه لم يكن كافيا.

وادرك اخيرا انها عرفت انه سيرفض. لقد استغلته منذ البداية ولسوف تفعل ذلك حتى النهاية.

نظر اليها نظرة رفض اخيرة مستعرة ثم خرج من الغرفة. لم تبذل اي محاولة اخرى لمنعه. حدّق الى الامام مباشرة كأن اللوحات المعلقة على الجدران التي مر بها اعدادا كبيرة من مشاهدين يلفهم الصمت، لقد كان الرجل الشريف الاخير في الطريق الى المقصلة. كانت لديه رغبة كبيرة في البكاء، الا ان ما من شيء سينتزع الدمع من عينيه في ذلك البيت. ان يبكي بصوت عالٍ. وفي حين وصوله الى الردهة، بانّت الفتاة التي سبق لها ان ارشدته الى الطابق العلوي من احدى الحجرات، ممسكة بطفل صغير بين ذراعيها. فتحت فمها كي تتكلم، الا ان نظرة تشارلز الجامدة، الوحشية اسكتتها. وغادر المنزل.

ولما وصل البوابة - اصبح المستقبل حاضرا - اكتشف انه لا يدري الى اين يذهب. كأنه وجد نفسه ولد من جديد على الرغم من امتلاكه كل ذكرياته وملكاته الخاصة بالبالغين. الا ان احساس الطفل العاجز انتابه - لا بد ان يبدأ من جديد، لا بد ان يتعلم ثانية! عبر الشارع على نحو مائل، بتهور، دون ان ينظر نظرة واحدة من ورائه واتجه صوب السدة. كانت مهجورة، باستثناء عربة تترنح على بعد مسافة وتوارت عن الانظار لدى وصوله حاجز السدة.

حدّق الى الاسفل صوب النهر الرمادي الذي يقبض الصدر الان بفعل المد العالي دون ان يدري لذلك سببا. كان ذلك يعني العودة الى اميركا. كان يعني اربعة وثلاثين عاما من الصراع من اجل الوصول الى الاعلى - كلها بلا طائل، بلا

طائل، بلا طائل. كل شيء ضاع. كان يعني انه واثق من هذا الشيء: عزوبية القلب التامة مثل عزوبيتها. كان يعني، كما كانت تعني كل الاشياء، التطلع الى المستقبل واستعادة الماضي معا اخذا يلفانه مثل انهيار جليدي اسود كاسح. والتفت اخيرا ونظر من ورائه الى البيت الذي غادره. فبدت له ستارة شبكية بيضاء قد اسدلت من وراء احدى النوافذ المفتوحة في الطابق العلوي.

الا ان ذلك مجرد مظهر، حركة عابثة لريح أيار/مايو. فقد بقيت سارة في الرسم، محدقة الى الحديقة من تحتها، الى طفل وامرأة شابه، لعلها ام الطفل، يجلسان من فوق العشب وينهمكان في صنع اكليل من ورد الاقحوان. ثمّة دموع في عينيها؟ انها بعيدة على نحو لا يمكنني من تمييز ذلك، مثلما لا يستطيع ان اميز ظلا من وراء ضوء طالما ان زجاج النافذة يعكس توهج سماء الصيف.

من المؤكد ان تفكر ان رفض قبول العرض الذي كانت توحى به تلك اليد التي كانت تعطله انما هو اخر حماقة من حماقات تشارلز، فهو كان ينم على الأقل على ضعف محدد في النهاية في موقف سارة. ربما تظن انها كانت على حق: ان معركتها من اجل الارض كانت انتفاضة شرعية قام بها الخاضعون للغزو ضد الغازي الدائم. الا ان الشيء الذي يجب ان لا تفكر فيه هو ان هذه النهاية لقصتهما هي الاقل مدعاة للرضا.

فأنا قد رجعت الى مبدئي الاول على الرغم من ان هذا الرجوع ينحو منحى ملتويا: لا يوجد من يتدخل باستثناء الاشياء التي نراها، على ذلك النحو، من اول عبارة استهلالية حتى هذا الفصل. وهكذا لا توجد سوى الحياة التي صنفناها نحن - ضمن قدراتنا المخفوفة بالمخاطر - الحياة التي كما عرفها ماركس بأنها «افعال الانسان (وافعال النساء) بحثا عن غاياتهم». ان المبدأ الاساس الذي ينبغي ان يوجه هذه الافعال، المبدأ الذي اعتقد انه وجه سارة دوما، هو المبدأ الذي وضعته بوصفه العبارة الاستهلالية الثانية. ان الوجودي المعاصر بلا ريب سيحل كلمة «الانسانية» او «المصادقية» محل «الورع»، الا ان من شأنه ان يدرك قصد ارنولد.

ان نهر الحياة، نهر القوانين الغامضة والاختيار الغامض، يمر من امام سدة مهجورة؛ وعلى امتداد تلك السدة المهجورة يبدأ تشارلز الان يخطو خطواته، رجلا من وراء عربة مدفع غير مرئية مسجى عليها جثمانه يسير صوب صوت وشيك

اختياري؟ لا اعتقد. فهو قد وجد اخيرا ذرة من الايمان في نفسه، تفردا حقيقيا بيني
من فوقه. لقد بدا توا يدرك - على الرغم من انكاره وعلى الرغم من الدموع
المتفرقة في مقلتيه التي تدعم افكاره - ان الحياة ليست رمزا بغض النظر عن محاولة
سارة لأن تبدو مناسبة لدور ابي الهول، الحياة ليست احجية واحدة وانخفاقا
واحدا ينبغي التكهن به، لا تحتوي على وجه واحد فقط او يتم التخلي عنها بعد
رمسية واحدة خاسرة للزهر. ان الحياة لا بد من تحملها، على الرغم من كونها غير
مناسبة، فارغة، بلا امل، في قلب المدينة الحديدي. وهناك مرة اخرى، فوق ذلك
البحر الذي لا يسير غوره، المالح، الباعث على النفور.

المترجم:

د. محمد درويش

ولد بمدينة الموصل شمالي العراق سنة 1950

حاز شهادة البكالوريوس في اللغة الإنكليزية من
جامعة بغداد سنة 1971

حاز شهادة ماجستير علوم في الترجمة من جامعة
هيريو ت - وات في المملكة المتحدة 1983

حاز شهادة دكتوراه فلسفة في اللسانيات والترجمة
من الجامعة المستنصرية سنة 1998

عمل بتدريس اللغة الإنكليزية في الموصل 1971-1981
نشر أكثر من عشرين كتاباً مترجماً إلى اللغة العربية
في الرواية والنقد الأدبي صدرت عن وزارة الثقافة
العراقية والدار العربية للعلوم ناشرون وغيرها من
دور النشر العربية الأخرى.

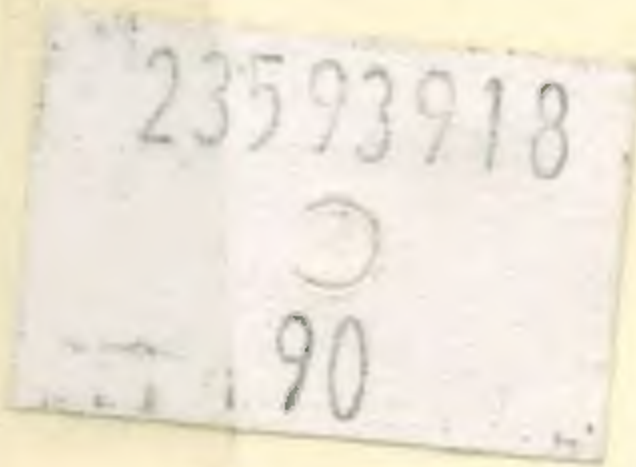
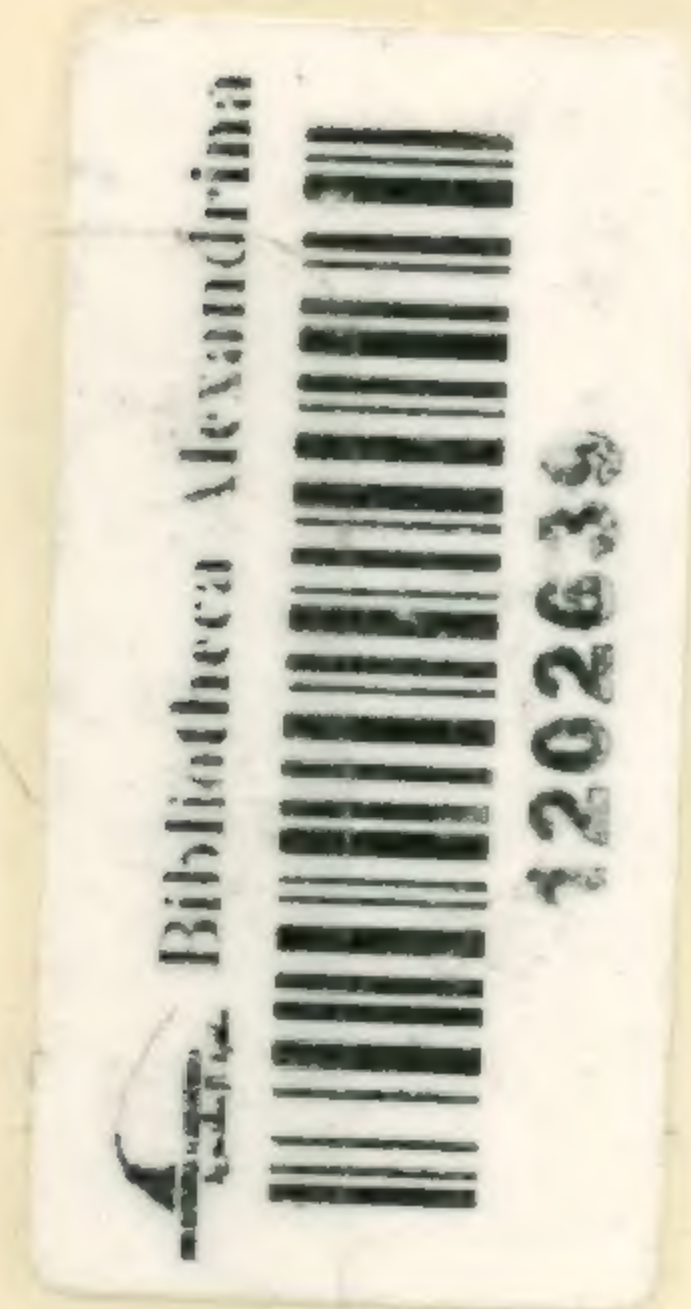
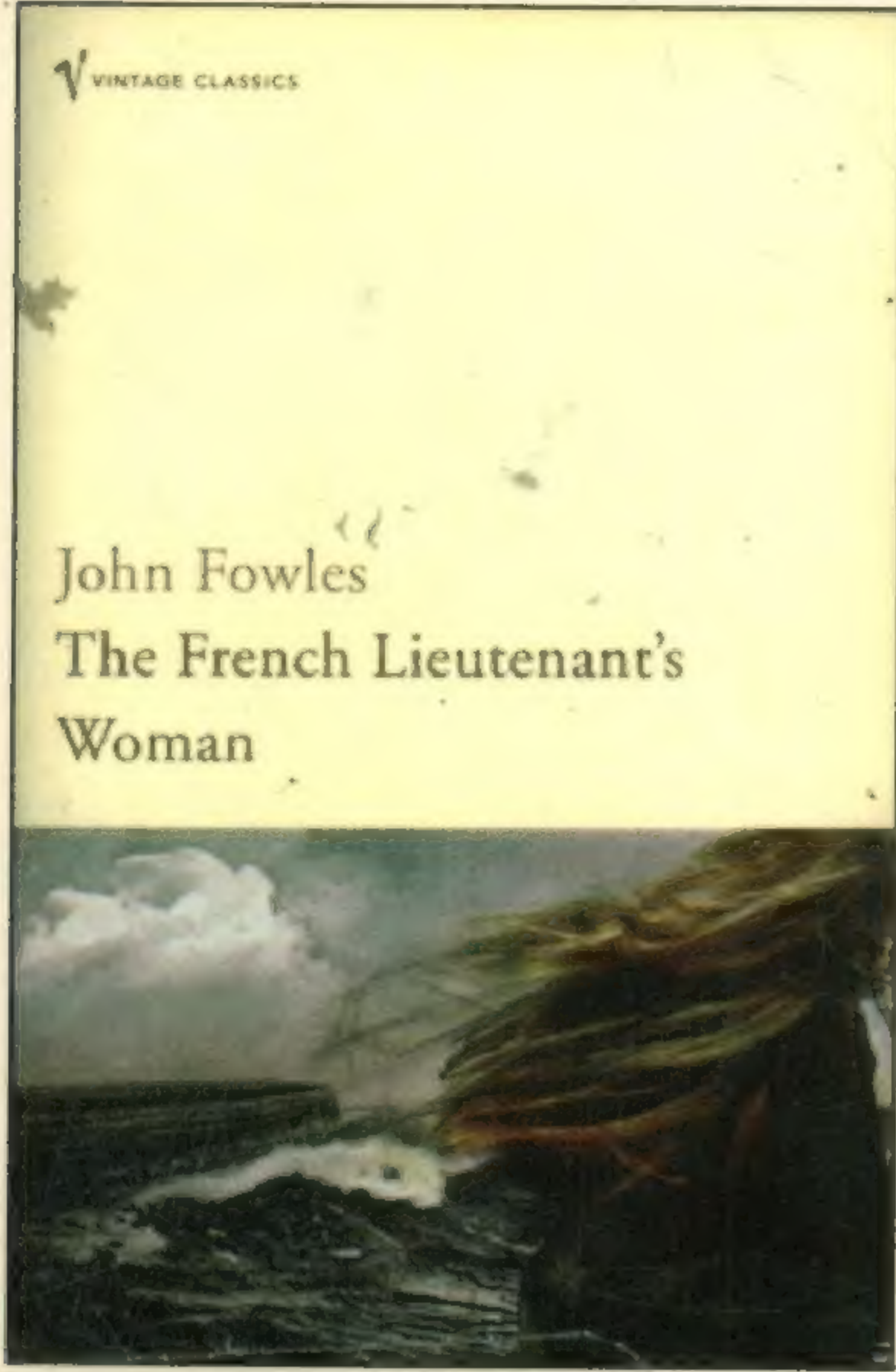
نشر مئات المقالات النقدية المترجمة في الصحف
والمجلات العراقية.

امراة الضابط الفرنسي

تبدو الكتابة في هذه الرواية وكأنها تمر بين يدي روائي يهتم اهتماماً شديداً بمشكلات العصر الفكتوري وبالوقوف «بين عالمين: الأول عالم ميت والثاني لا يقوى على الولادة»، كما يقول ماثيو أرنولد. ويهتم كذلك بالعلاقة بين الحاضر الذي هو ماضٍ في الرواية والمستقبل الذي هو الحاضر

في الرواية، والعلاقة بين موروث الرواية الفكتوري المثير للإعجاب والوضع في القرن العشرين الذي يجعل من المستحيل الكتابة في داخله.

يمكن اعتبار رواية «امراة الضابط الفرنسي» رواية ذكية تكشف عن استفادة الكاتب الحديث من الموروث الفكتوري، وبهذا تصبح رواية ليبرالية معمارها يقوم في الأساس على أساليب الواقعية الأخلاقية والتأويل الأخلاقي الذي ينتمي إلى أسلوب القرن التاسع عشر. وبهذا، فإن الرواية توسع مدى البصيرة الأخلاقية والوعي الاجتماعي الذي نحصل عليه من قراءة جورج إليوت على سبيل المثال، ليصبح مضافاً إلى شكل أكثر حداثة من أشكال التصور تساعدنا في ذلك المعرفة التاريخية المتزايدة والمشاعر الطيبة الفياضة.



ISBN 978-9953-87-617-7



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com



كلمة
KALIMA

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة